حنـا فهمى ويصا

أسيوط

ـتـة عائلـة مصرية



يقدمها:

محمد سلماوى

اطلعت على نسخة من كتاب سيصدر قريباً فى لندن لرجل مصرى هو حنا ويصا الذى ينتمى لعائلة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مصر خلال أكثر من قرن كامل من الزمان .

فالمؤلف نفسه كان له باع طويل فى صناعة القطن فى مصر ما قبل الثورة وهو أحد المراجع الحية التى ينبغى أن نستشيرها فى شئون البورصة فهو أحد الأعمدة المعروفة لبورصة الأسكندرية لسنوات طويلة وهو حفيد ويصا ويصا باشا مؤسس العائلة وابن فهمى ويصا ووالدته هى استر فهمى ويصا ولكل منهم دوره البارز فى الحياة العامة للبلاد .

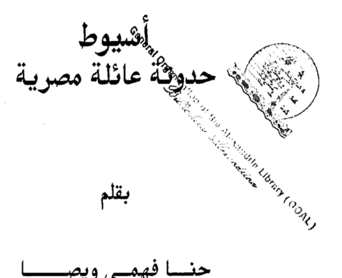
والكتاب هو فى حقيقة الأمر قصة تلك السيدة البارعة استر أخنوخ فانوس التى توفيت عام ١٩٩٠ عن ٩٥ عاماً عاشتها كلها فى خدمة قضايا وطنها ابتداء من الاستقلال إلى تحرر المرأة، وقد لا يعرف البعض أن استر فهمى ويصا كما سميت بعد زواجها أضافت بنداً جديداً لقانون الإصلاح الزراعى عند بداية صدوره فى سبتمبر ١٩٥٢، فقد نص القانون على أن من حق كل مالك أن يتنازل عن بعض الأراضى الزراعية التى يمتلكها لأبنائه لكن زوجها فهمى بك كان قد توفى قبل أن يفعل ذلك فلم تتردد استر فى الذهاب لرئيس الجمهورية آنذاك محمد نجيب الذى وافقها على رأيها بأن كل من لم يتمكن من كتابة أراضيه لأبنائه قبل وفاته يعتبر كأنه فعل ويتم استخراج نصيبهم مما كان سيستولى عليه الإصلاح الزراعى.

وإذا كان الكتاب قد بدأ بقصة أستر فهمى ويصا فإنه انتهى بقصة مدينة أسيوط مسقط رأسها وكذلك بقصة مصر ذاتها منذ عصر الفراعنة وربما كانت القيمة الحقيقية التى تميز هذا الكتاب عن غيره من كتب تاريخ مصر هى أنه كتب عن طريق راوية يحكى ما شاهده أو سمعه وهكذا جاء الكتاب فى شكل «الحواديت» وهو قالب شرقى بحت يذكرنا بحواديث «ألف ليلة وليلة» .

إن كتاب «أسيوط حدوتة عائلة مصرية» الصادر باللغة الإنجليزية فى بريطانيا عن دار نشر «ذى بوك جيلد» لمؤلفه المصرى حنا ويصا هو واحد من أمتع الكتب التى كتبت عن تاريخ مصر، وإذا كان المؤلف يقول فى مقدمة الكتاب إنه كتبه لأحفاده حتى يعرفوا تاريخ مصر فقد حولنا المؤلف جميعاً بهذا الكتاب إلى أحفاد له يستمتعون بأسلوبه الأخاذ فى رواية «حواديت» بلاده وأننى لأتمنى أن تتم ترجمة هذا الكتاب حتى يكون فى متناول الذين يحكى الكتاب قصتهم .

الأهرام

أسيوط
حدوتة عائلة مصرية



بقلم

حنا فهمي ويصا

المحتويـــــــات

شكر ومقدمة النسخة العربية

يُقال انه من غير الممكن على المرء أن يحكي حكاية واحدة بنفس الكلمات مرتين خصوصاً اذا كانت بلغة أخرى. وعندما قررت أن أحكي **حكاية أسيوط حدوتة عائلة مصرية** بالعربية رأيت أنه من المناسب أن أضيف بعض المعلومات التي وردت الي من أشخاص متفرقين نتيجة قرائتهم للكتاب بالانجليزية التي قد تجذب القارئ المصري.

وأنتهز هذه الفرصة لأخص بالتقدير والشكر كل من قدم لي يد العون في ترجمة هذه الحكاية من الانجليزية الى العربية ولا يفوتني أن أشكر الاستاذ / **محمد سلماوي** المؤلف والروائي ورئيس تحرير جريدة الأهرام إبدو والذي شجعني أن أروي هذه القصة باللغة العربية.

وأود أن أعترف بفضل الاستاذ الكبير / **مصطفى أمين** لتعليقه على الطبعة الانجليزية في عموده اليومي فكرة بجريدة الأخبار بتاريخ ١٩٩٥/١/٤.

كما اشكر الاستاذ / **شفيق شماس** رئيس تحرير مجلة Aujourd' hui L' EGYPTE على مقالته عن الكتاب في عددها رقم ٢٨ لسنة ١٩٩٥.

كما اشكر مستر Graham F. Thomas لسماحه لنا باستعمال بعض الصور الموجودة بكتابه Sudan Death of a Dream.

كما اشكر مستر Terence Walz (مركز البحوث الامريكية) لتفضله بارساله لي تقرير جريدة مركز البحوث الذي اعده عن التجاره في اسيوط في القرن التاسع عشر.

كما اشكر الاستاذ / **منير عبيد** والاستاذ / **فؤاد مجلي** على تعليقهما على الكتاب في إذاعة الـ B.B.C. البرنامج العربي (جولة بين دور النشر).

كما أشكر كل من الاستاذ / **مكرم شحاته**، والسيدة / **فايزة زهران**، والاستاذ / **نبيل حبيب ملك** لترجمتهم للنص.

كما أشكر كل من الاستاذ الدكتور / **مصطفى العبادي**، والاستاذ / **عز الدين حجازي**، والاستاذ/ **محمد الأزوك**، والاستاذ / **عطية مصطفى** لمراجعة القواعد العربية ونحو الكلام.

كما أشكر مركز Graphics Team وبالأخص الاستاذ / **عصام شديد** والاستاذ/ **خالد العضم** لعملهم في فصل ألوان الصور وعمل الأفلام الخاصة بها وطباعة النص على الكلك.

كما أشكر الاستاذ / **أنسي فؤاد** لكتابته لنص الكتاب بالكمبيوتر والاستاذ / **رامي ميلاد** لعمله في المحتويات وفهرس الكتاب بالكمبيوتر.

كما أشكر كل القائمين على طبع ونشر الكتاب في صورته النهائية.

لماذا أكتب، اعتذار واعتراف

يُقال إن كل إنسان بداخله كتاب، لكن كلمة " كتاب " تُثير في نفسي الخوف، فهي تذكرني بكتب المدرسة التي كنت لا أحبها، لذلك فإنني عندما قررت أن أكتب عن أمي بذلت قصارى جهدي ألا يكون ما أكتبه كتاباً، لشعوري بأني لست أهلاً لذلك، وفَضّلْتُ أن يأخذ ما أكتبه عنها قالب القصة، فطوال حياتي أحببت أن استمع إلى القصص وأحببت أن أرويها. وفي طفولتي كنت أحب قصص الحوريات، وقصص الرعب والقصص الرومانسية، وفي مرحلة الشباب أحببت القصص الغرامية، وكذلك أحببت سماع أخبار الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم أيضا، وتعلقت بالأساطير والخرافات والقصص الشعبية سواء منها ما كنت أسمعه أو أقرأه على أن يكون دائماً في قالب قصصي، كما استهوتني في طفولتي قصص الإنجيل التي كانت تحكيها لي أمي في بعض الأمسيات بغرفة البيانو، والتي كانت تقصها الأخت جرشن عضو الإرسالية الهولندية التي إعتادت قضاء أشهر الصيف معنا، وهي تجلس معنا في الشُرفة صباحا، كنت أحب قصص السّحر التي أوردتها الأساطير اليونانية التي ترددها وصيفة أمي اليونانية صوفيا مساء الأربعاء عندما كانت مربيتنا الإنجليزية تقوم بعطلتها الأسبوعية. أحببت القصص الشعبية العربية عن جحا وألف ليلة وليلة التي كنت أستمع اليها بشغف من الأسطى ابراهيم الجنايني بالرغم من تحذير الأسرة من الاختلاط به.

كما إنني كنت أحب سرد القصص لطفلتيّ، وأعمد إلى مراقبة الانفعالات على وجهيهما حيث كنت ألاحظ أن كل بنت من إبنتيّ لها انفعالات تختلف عن الأخرى، وتبين لي مدى تأثيري على إحداهما وسيطرتي على خيالها، وكنت ألاحظ أثناء حكايتي لها أنها تعيش القصة ونحن نُحلّق معاً بين السحاب، أما الابنة الأخرى فلم أتأكد أبداً من رد فعلها، فكثيراً ما كانت تفاجئني بسؤال منطقي أو ملاحظة ذكية تجرني سريعاً إلى أرض الواقع.

وقد تزوجت إبنتاي بأجنبيين يعيشان حالياً بالخارج، أما أبناؤهما فنظرتهم للحياة تختلف اختلافاً كبيراً عن نظرتنا، فهم عمليون، وواقعيون، متوافقون مع سمات العصر الذي يعيشون فيه مما جعلهم يتفهمون أمور الحياة ومشاكلها بشكل أفضل.

ومع ذلك فهم يسبحون أحياناً في نزعة رومانسية، بإستماعهم للقصص، وتشدهم على الأخص تلك القصص التي تدور حول أسرتهم؛ مما شجعني على كتابتها لهم. فهم لا يعرفون عن والدة جدهم استر

إلا أنها سيدة مُسنّة لم يسعدوا برؤيتها إلا لدقائق قليلة في كل مرة عندما يحضرون إلى الاسكندرية في فصل الصيف.

ولم يكن باستطاعتهم أن يتخيلوا هذه الشخصية على حقيقتها، أو كيف كانت في زمانها، فهناك فاصل زمني قدره ثلاث وثمانون سنة من العمر بينها وبين أكبر أحفادها. أما باقي أفراد الأسرة من صغار السن وأقاربنا المبعثرين في أماكن شتى والذين تزوج آباؤهم أو أمهاتهم من أجانب، ويعيشون بالخارج فإنهم لا يعرفون إلا القليل عن أسرتهم أو عن مصر أو عن مسقط رأس أسرتهم وتاريخها العريق بل إنهم لا يكادون يعرفون قرابة كل منهم للآخر، وكل ما يعرفونه هو أنهم أقارب من بعيد بشكل أو بآخر.

ولقد وعت ذاكرتي كثيراً من تلك القصص كما رسخت في مُخيلتي صور الحياة التي عاشتها الأسرة كما استوعبت تاريخ مصر الذي عاصرته، والذي قرأته لذا قررتُ في البداية أن أكتب قصة والدتي التي تطورت إلى قصة عن الأسرة: الجذور والأزمنة التي عاش أعضاؤها فيها، معتذراً لكل من يقرأ هذه القصة عن الطريقة التي أرويها بها متنقلاً من موضوع لآخر ذاكراً أشياء قد تبدو أنها لا علاقة لها بالقصة، ولكني أجدها بطبيعتي إما مُسلية أو ذات أهمية، ولم أحاول بل حتى لم يكن في مقدوري أن أضع دراسة شاملة عن الأزمنة التي أكتب عنها، بل أريد فقط أن أذكر انطباعاتي عما قرأته أو سمعته أو شعرت به عن مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين، علماً بأن الكتب التي قرأتها عن هذا الموضوع محدودة للغاية ولابد من استبعاد ان تكون هذه الانطباعات في حد ذاتها عملاً دراسياً فإنني لم أقصد ذلك على الإطلاق، كما إنني اعتذر لكل الباحثين الذين أخذت عن آرائهم وآمل ألا أكون قد أخطأت في نقلها أو تفسيرها، علماً بأنني قد حاولت أثناء كتابتي أن أشير إلى أي اقتباس أو معلومات تعرضت لاستخدامها، وأعتذر لعدم ذكر المراجع التي يمكن أن تكون قد سقطت سهواً دون قصد، هذا وقد ذكرت الكتب التي قرأتها عن الموضوع في قائمة شاملة ببيان المراجع.

وأنتهز هذه الفرصة لأخص بالتقدير والشكر كل من قدم لي يد العون في كتابة هذه القصة، وكل من أعارني كتباً أو صوراً، ومن قدموا لي نصحاً أو معلومة، أو من استمعوا لي خلال العامين المنصرمين.

كما أود أن أشكر الناشر، شركة (Book Guild Ltd., Lewes, East Sussex) بوك جيلد ليميتد، لويس، إيست ساسكس.

وأشكر الأستاذ **محمد سلماوي** المؤلف والروائي ورئيس تحرير الأهرام ابدو الذي طالع النص بدقة وتحمل عبء تقديم بعض الملحوظات القيمة للغاية.

وأود بصفة خاصة أن أشكر الآنسة **مرثا روي** عضو الإرسالية الأمريكية الدارسة المُتعلمة والمُتمكنة التي أحبت مصر، وقضت بها معظم أيام حياتها لشرحها الموضوعى الذي طالما أثار تعجبي وتساؤلي وهو قدرة الإرساليات الأمريكية على تحويل جزء كبير من أقباط مصر التابعين للكنيسة القبطية الأرثوذكسية إلى البروتستانتية. فإنه لم يكن من السهل منطقياً تقبل مفهوم أن يقتنع القبطي الموحد الذي قاوم الاضطهاد والظلم من الكنائس البيزنطية الأرثوذكسية والكنائس الرومانية الكاثوليكية بترك معتقداته وعاداته خلال بضع سنوات بواسطة حفنة من أعضاء الإرساليات الأمريكية.

وأرجو أن أقدم الشكر لقريبتي السيدة **سلفيا نيكولاير** (إسمها قبل الزواج سلفيا خياط) من أجل المستندات والصور الخاصة بأسرتها ووالد جدّها واصف خياط.

كما أشكر السيدة **فيبي شكري** على كل المعلومات التي قدمتها عن عمل جمعية الشابات المسيحية في مصر وعن مجلسها الوطني العام الذي ترأسته والدتي لعدة سنوات بالإضافة إلى رئاستها لجمعية الشابات المسيحية في الاسكندرية لسنوات عديدة.

وأشكر السيدة **نادرة صاروفيم** لقيامها بترجمة بعض مقالات والدتي من العربية إلى الإنجليزية والتي يمكن الإطلاع عليها بالملاحق.

وأشكر الدكتورة **سهير باخوم** الإخصائية المعروفة في دراسة القطع النقدية بالمركز القومي لأبحاث العملة في باريس لمساعدتها في إيجاد مرجع العملة التي سُكّت في ليكوبوليس (أسيوط) وتزويدي بصورة لهذه العملة.

وأشكر الدكتور **محمد عوض** المعماري والمؤرخ للأسكندرية على المعلومات القيمة التي قدمها لي عن الاسكندرية ومواقعها.

وأشكر السيدة **جرتي ويصا** لمعاونتها لي وعن الصور التي قدمتها لي.

وأشكر الآنسة **ماريان ويصا هويلبلوند** على ما تحملته من معاناة في تصميم غلاف الكتاب وإخراجه.

وأشكر خالتي **عايدة فانوس** التي كنت أطلبها على الهاتف كلما أردت شرح قصص أو ذكر تواريخ معينة عن شقيقتها إستر وأسرتها.

وأشكر زوجتي **فايلي** لتحملها لى خلال السنوات الماضية بكل انفعالاتي العصبية وكتبي وأوراقي المبعثرة في أنحاء غرفة المعيشة، وعلى مائدة الطعام وعلى كل النصح الذي أسدته إليّ محاولة أن تصحح لي ترقيمي السيئ للفواصل والنقاط وما إليهما.

وأود أن أشكر السيد والسيدة **فيلدز** بمركز فيلـدز لخدمـات السـكرتارية في دوفـر الـذي قـام بمعالجـة الكثير من النصوص على جهاز الكمبيوتر وطباعته وتصويره ومحاولة تدريبي في نفس الوقت على استخدام الكمبيوتر.

وأشكر السيدة **سهير قليـني** والآنسـة **أمـاني صليـب** بالقـاهرة والسـيدة **لوسـي السـمين** بالإسـكندرية لساعدتي في طباعة أجزاء من النص عند انخراطي في العمل.

وأشكر سكرتيرى الاستاذ **عادل بدوى** لقيامـه بجميـع أعمـال التصويـر، وترتيـب أوراق كتـبي ولصـق الصور، هذا إلى جانب الكثير من الأعمال الشاقة والبحث هنا وهناك.

وأخيراً وليس آخراً أرجو أن أقدم الشكر لحفيدى البالغ من العمر ثلاثةعشر عاماً **دافيد جـون مسـعد** في نيوجيرسي بالولايات المتحدة الأمريكية البارع في أعمـال الكمبيوتـر ومعالجـة الكلمـات لقيامـه بإعـادة طباعة معظم النص، ومراجعة الكلمات خلال أجازته الصيفية.

مقدمـــة

هذه قصة سيدة مصرية وأسرتها وقصة جدّها وأخيه اللذين كانــا مـــن رواد عصرهمـــا، كمـا انهـا قصة المدينة التي ولدُوا بها.

البداية عبارة عن نظرة عامة مختصرة عن مصر وشعبها ومعتقداتــه وتحيّزاتـه وعـن تـاريخ هـذا البلـد وجغرافيته عبر العصور المختلفة: العصر الفرعونـي ثـم المسـيحي والإسـلامي وحتـى بـزوغ عصـر النهضـة المصرية تحت حكم محمد على في بداية القرن التاسع عشر حيث تبدأ هذه القصة.

وهذه السيدة المصرية هى أمّي " **استر أخنوخ فانوس** " الشهيرة **باستر فهمى ويصـا** (١٨٩٥–١٩٩٠) التي كانت خلال أغلب فترات حياتها في مقدمة من كافحن لبعث الحركة النسائية، وإذكاء آمال الشعب السياسية.

أما الروّاد فهم جدّى **حنا بقطر** وشقيقه **ويصا** جد أمي * فقد كانت قصة حياتهما وكيفية جمعهما ثروة ضخمة وتكوينهما أسرة كبيرة تُشبه إلى حد كبير إحدى قصص ألف ليلة وليلة أكثر من كونها حقيقة واقعة.

المدينة هى مدينة أسـيوط حيـث تحـوّل البعـض مـن العـائلات المسيحية القياديـة إلى البروتسـتانتية بواسطة إرساليات "قارب النهر" الأمريكية (إنجيلية النيل) والتي قامت ببيع الإنجيل مترجمـاً إلى اللغـة العربية كما قاموا بشرح الإنجيل في القرى على ضفاف النيل في صعيد مصر.

وأخيراً استقرت في أسيوط في عام ١٨٦٠ وجعلت منها مركزها الرئيسى. ولكي يمكن فهم تكوين شخصية **استر فهمي ويصا** لابد أن نأخذ في الاعتبار المؤثرات والمعتقـــدات والعصبيات التي تعرضت لها مـن البيئـة المحيطـــة بهـــا بشكل مباشر، وأهم من ذلك كله الحقائق التاريخية للشعب المصري وجذور هذا الشعب.

هى ابنة إحدى الأسر القبطية الرائدة بمدينة أسيوط في صعيد مصر ورابع أكبر مدنها بعـد القـاهرة والإسـكندرية وطنطا في شمال مصر، فقد كانت أسيوط في ذلك الوقت أيضـا معقلاً للأقبـاط الذيـن ظلـوا محتفظـين بعـادات وقيـم وسمات وخصائص يمكن عن طريقها تتبّع الجذور الحقيقية لشعب مصر الـذى نبعـت منـه الحضـارة وانتشـرت في العالم القديم ولم تفن شخصيتهم فيمن جاءوا إلى مصر واستوطنوها من أكراد وقوقازين وأتراك وعرب.

---

* أنظر شجرة العائلة.

من التعاريف السائدة أن كلمة **قبطي** في الأصل هـي تحويـر لكلمـة مصـري وهـي تعبر عـن الجنسية وليســت العقيــدة اذ أن كلمــة **ايجيبتوس** Aigyptos هــي التعبيــر اليونـانـــي لأحـد أسمـاء منـف[1] **"ها –كا–بتاح"** ومعناها بالعربية مقر روح بتاح التي انطبقت بعد ذلك على سكان مصـر كلهـا، ومـن ثـم فان كلمة جيبتي أو قبطي كانت تحويراً عربياً للأصل الذى وجـد في اللغـة المصريـة القديمـة ويـدل علـى مصرأوالمصري وبعد ذلك قام الغربيون بإجراء تحوير آخر للكلمة العربيـة فـأصبحت copt أو coptic ولـما كان الفتح الإسلامي لمصر سنة ٦٤١م صـارت كلمـة قبطـي تعنـى سـكان مصـر الأصليـين الذيـن احتفظـوا بمسيحيتهم، ولم يتحولوا إلى الإسلام إذ أن الإسلام يقول (لا إكراه في الديـن) وأصبحـت كلمـة (مصـري) تشمل المسيحيين الذين ذكرناهم ومن اعتنق منهم الإســلام، وطبقاً لأقل تقدير لم يكن يوجد أكثر من مائة وخمسين ألف مصري مسيحي بدم أصلي غيرمختلط في البلاد في القرن التاسع عشر[2].

على أن عائلة استر تحوّلت إلى البروتستانتية على يد الإرساليات الأمريكية الـتي أتـت إلى أسيوط في عام ١٨٦٠، وهكذا نشأت أقلية داخل أقلية فكـل الطوائـف المختلفـة التابعـة للإرسـاليات البروتسـتانتية بالإضافة إلى إتباع التعاليم الكاثوليكية لجماعة الجيزويت والفرير قد تسبّبت في إضعاف الكنيسـة القبطيـة الوطنية مما أدى إلى حدوث صدع بين المسيحيين الأقباط أنفسهم وذلك يرجع إلى أن أفراد الأسرة الواحدة أصبحوا على خلاف مع بعضهم البعض خصوصاً أنه لم يكن لديهم شيء أفضل يقومون به.

نشأت استر بمدرسة الإرسالية الأمريكية في أسيوط متشبّعة بالكثير من آرائهــم سـواء الآراء الدينيـة أو السياسية أو الاجتماعية، ونمت مربيتها الانجليزية فيها حُب الشـعر كمـا أن ذكاءهـا الفطـري، وعقلهـا الباحث قاداها إلى البحث والتعمق في المكتبة الزاخرة الخاصة بوالدها أخنوخ فانوس وشقيقها لويـس وهـو رجل باحث وسياسي من خريجـي جامعـة أكسـفورد فزوّدتهـا قراءتهـا للعديـد مـن الكتـب في كثـير مـن الموضوعات بآراء ومعلومات إضافية إلى جانب ما اكتسبته من بيئتها المحيطـة بهـا مباشـرة، وقـد كـانت أسيوط إحدى المحطات التي ترسو بها مراكب شركة كوك السياحية في النيـل، ممـا أتـاح لاسـتر مقابلـة العديد من الشخصيات الأجنبية من دول مختلفة ممن كانوا ينزلون ضيوفا على أعضاء الأسرة مما وفّر لهـا إمكانية تكوين نظرة عامة عن الحياة في مختلف أنحاء العالم، وفي نفس الوقت مكنّهـا مـن التعـرف علـى بعض الأوضاع الشاذة السائدة في مصر.

---

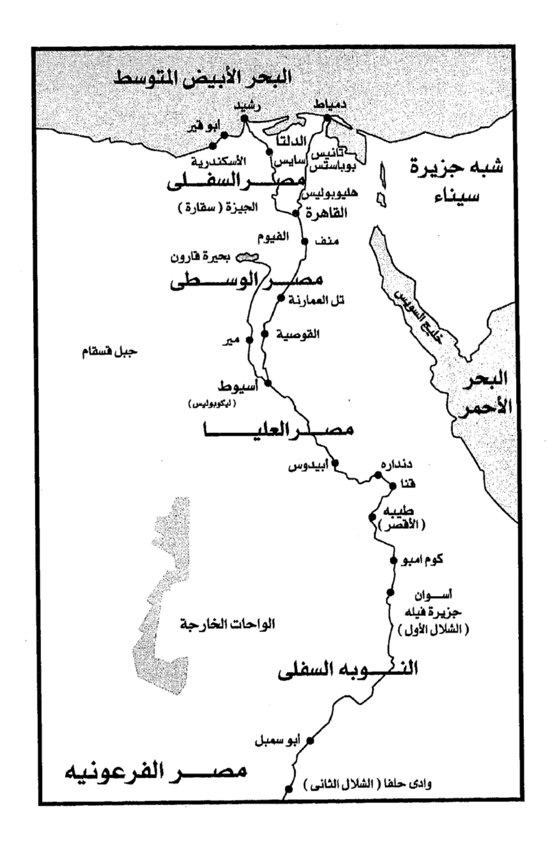
[1] منف هي مدينة مصرية قديمة تقع على مسافة ١٠ أميال جنوب القاهرة الحديثة.

[2] المجتمع القبطي في القرن التاسع عشر تأليف بطرس سوريال ص ٢١٠.

في تلك الفترة كانت مصر تدفع لبريطانيا أموالاً نظير قيامهـا بحكـم مصـر تحـت اسـم الخديـوى مـع استمرار كونها تابعة للدولة العثمانية ، وهذا الحكم أو الاحتلال كان من المفروض أن يكـون بصفـة مؤقتـة لساعدة مصر على تنظيم أحوالها المالية وسـداد ديونهـا الأجنبيـة. إلا أن هـدف بريطانيـا الحقيقـى كـان استمرار البقاء بمصر أو على الأقل إطالة مدة هذا الاحتلال لحماية إمبراطوريتها وطرق مواصلاتها للهند.

كل هذا بجانب استغلال الأجانب لنظام الإمتيازات الممنوحة لهم مـن الدولـة العثمانيـة بالإضافـة إلى الفوارق التي كانت موجودة في توزيع الثروة بين السكان، وانعكاسها على أسلوب معيشتهم والتي خصـت بعض الطبقات بالرفاهية، وحلّت على طبقات أخرى بالحرمان والتخلف والجهل؛ ممـا أدى إلى تكويـن النسيج الظاهري المتناقض وهو " مصر " وتلك الشخصية التي هـي " **استر فهمي ويصا** ".

الجزء الأول


البحر الأبيض المتوسط
رشيد
دمياط
ابو قير
الدلتا
الأسكندرية
سايس
تانيس
بوباستس
شبه جزيرة سيناء
مصر السفلى
هليوبوليس
الجيزة (سقارة)
القاهرة
الفيوم
منف
بحيرة قارون
مصر الوسطى
تل العمارنة
خليج السويس
القوصية
مير
جبل قسقام
البحر الأحمر
أسيوط
(ليكوبوليس)
مصر العليا
ابيدوس
دندارة
قنا
طيبه
(الأقصر)
كوم امبو
أسوان
جزيرة فيله
(الشلال الأول)
الواحات الخارجة
النوبه السفلى
ابو سمبل
مصر الفرعونيه
وادى حلفا (الشلال الثانى)

كيف حدث كل ذلك

مصر الفرعونية

منذ عشرة آلاف سنة بينما كانت كل أجزاء العالم الأخرى تَغُط في سُبات عميق كان يعيش في الركن الشمالي الشرقي من أفريقيا – حيث يتصل بآسيا – شعب فائق التطوّر يمكن اعتباره "واحة للمدنية" تعزله الصحراء والبحر عن باقي أنحاء العالم، هؤلاء هم سكان مصر الذين كانوا يعيشون على مساحات الأراضي المرتفعة في وادي نهر النيل بعيداً عن متناول الفيضان، وكانوا يفلحون الرقعة الزراعية المنخفضة على ضفتّي النهر كلما تراجع الفيضان تاركاً طميه الغني الخصب على سطح الأرض، وعندما وصل المصريون إلى هذه المرحلة من الزمن كانوا قد تطورُوا من شعب يعيش على الصيد إلى شعب زراعي.

ومن الشلال الأول عند أسوان جنوب مصر حفر نهر النيل على مر العصور في الوادى ممراً له في إتجاه الشمال إلى البحر المتوسط، وعلى مسافة حوالي ٨٠٠ كيلو متر كانت الأرض الزراعية على جانبى النهر مقصورة على شريط محدود لا يتعدى عرضه ثمانية كيلو مترات محصور بين الصحراء الغربية والصحراء الشرقية، هذا الشريط يُعرف بإسم مصر العليا (الوجه القبلي) وينتهى عند المنطقة التي كانت تسمى منف التي لاتبعد عن القاهرة الحديثة إلا بضعة كيلو مترات إلى الجنوب، أما المرحلة الأخيرة من رحلة النيل إلى البحر فقد تفرّع منها إلى سبعة فروع رئيسية وخمسة فروع مساعدة مكوناً ما يعرف بإسم مصر السفلى أو دلتا النهر (الوجه البحري) التي تكونت عبر العصور من ذلك الطمي الغني القادم بفعل السيول الجارفة السنوية من على جبال أثيوبيا على بُعد أربعة آلاف ميل. وفي وقت ماضٍ موغل في القدم كانت مياه البحر المتوسط تصطدم بحافة الحجر الجيرى لتلال المقطم جنوب شرق القاهرة.

يقول **هيرودوت** إن**"مصر هبة النيل"** وإنه بدون النيل لا وجود لمصر، وكان اليونانيون يقولون **" إن فيضان النيل كان بالنسبة لفلاح مصر مثلما كانت أمطار زيوس من أجل مزارعي أوروبا "** وقد كان الفيضان العالي كارثة على الفلاح المصري تماماً مثل الفيضان المنخفض.فالفيضان العالي يُعتبر مصيبة إذ قد يجرف مساكنهم المبنية من الطوب اللّبن، ويهلك سكانها الضعفاء، والمنخفض يمكن أن يؤدي إلى مجاعة حيث لا يتوافر الماء الكافي لريّ الارض الزراعية.

وفقاً لما ذكر **مانيثون** الكاتب والمؤرخ للأسر المصرية الذي عاش في بداية العصر البطلمي (٣٠٠ – ٢٤٦ ق.م.) كان يعيش شعب وادي النيل متعاوناً مع بعضه البعض منذ عصور ما قبل التاريخ على مدى ٣٠٠٠

سنة قبل بدء عصر الأسرات (٣٢٠٠ ق.م.) فقد كانوا يتعاونون بدافع الحاجة، يراقبون ضفتي النيل خوفاً من حدوث تصدعات، ويصنعون جسوراً من الطمي لحجز بعض مياه الفيضان لتنمية محاصيل أكثر كماً وأفضل نوعاً.

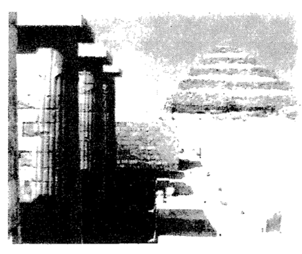
هذا الشعب شعب ما قبل التاريخ كان يعمل في أشغال الأحجار والعاج ثم النحاس وكان يحيك ثيابه، ويربي حيواناته، ويطبخ طعامه، ويزجج خرزات عقوده وسبحاته، وكان ينام على أسرّة ويلعب المباريات مثل لعبة القناني الخشبية (لعبة الكرة والقناني الخشبية ninepins)، وكان يستمتع بفن تشكيل الآنية الخزفية وتزيينها [٣] كانوا يكونون أسراً أو قبائل مستقلة مرتبطة بالأجزاء الصالحة للزراعة من الوادي وكانت كل مجموعة تتخذ لها إلهاً يمثله شعار على هيئة حيوان مرفوعاً على عمود يرمز إلى الحيوانات التي يصطادونها.

كما أصبح شيوخ القبائل أمراء صغاراً ثم ملوكاً بسطاء، كذلك تحوّلت القرى إلى إمارات صغيرة ثم ولايات ثانوية يطلق عليها اليونانيون اسم "nomes" ، تجمعت تلك الولايات في مملكتين: مصر العليا ومصر السفلى كما تحولت الآلهة الفردية إلى آلهة مختلطة، وأخذت كل طائفة تزيد من سلطانها على الشعب وعلى حكام هذا الشعب على حد سواء، ويحيطون طقوسهم التي كانت تحتوي على الكثير من أعمال السحر والغموض والسرية لزيادة سلطانهم ونفوذهم وثرائهم، وتبين للناس بمرور الزمن أن الخلافات بين حكامهم كانت عادة لأسباب شخصية لا تمت لصالح البلاد التي كان يمثلها الإله بتاح الذي يتحكم في الشمس والقمر والنجوم والفيضان والنيل،وكل منها لها قدسيتها على اعتقاد أن هذه القوى الإلهية تسيطر على كل الشعب بما فيهم حكامهم. إن فكرة تأليه المصريين القدماء لفراعنتهم ليست بعيدة عن فكرة أن الفراعنة كانوا يمثلون القوى الإلهية على الأرض، خصوصاً اذا لوحظ أن فرعون صائباً في إداراته وحكمه وقادراً على حكم شعبه بالعدل والأمان، وكلما زادت هذه الآراء عن القوى الخارقة للطبيعة تعقيداً وعن الحياة بعد الموت زاد تأثير الكهنة ونفوذهم.

كانت ديانة المصريين القدماء تعتمد على الملاحظة فقد كانوا يرون في القوى الطبيعية المحيطة بهم ازدواجية المتناقضات مثل: الحياة والموت، فالنيل بطميه الأسود يمثل الحياة، والصحراء برمالها الحمراء تمثل الموت، والنهار والليل، والشمس والقمر، والخير والشر، وأوزوريس وست. هذه القوى أصبحت الأساس لديانة المصري القديم، الذي كان يعلم أنه لا يستطيع السيطرة عليها أو التحكم فيها، وأن هناك قوة ما تحفظ

---

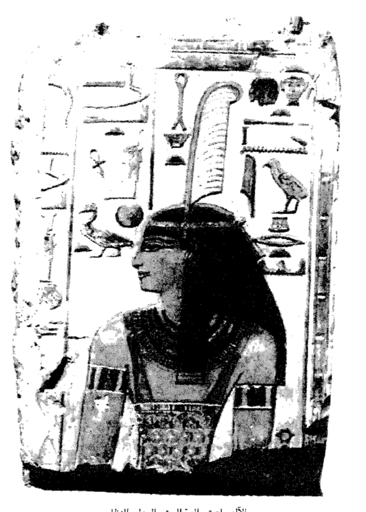
[٣] مصر الحديثة تأليف توم ليتل.



هرم زوسر المدرج . سقارة . حوالى ٢٦٠٠ ق.م.



اهرامات الجيزة (خوفو . خفرع . منقرع)
أبوالهول من الحجر الخالص تم نحته قبل سنة ٢٤٠٠ ق.م.



الآله ماعت . الهة الحق والعدل والنظام
وتحمل رمزها ريشة النعام على رأسها



فرقة السهام النوبية . نموذج خشبى . أسيوط فى العصر الوسيط . المتحف المصرى
عن كتاب قاموس الحضارة المصرية



حملة الرماح النوبية . نموذج خشبى . أسيوط فى العصر الوسيط . المتحف المصرى
عن كتاب قاموس الحضارة المصرية

التوازن بينها، وحاجته لتحقيق هذا التوازن تظهر في تناسق فنه وعمارته وفي اتباعه لفكرة الازدواجية السياسية للأرضين: مصر العليا ومصر السفلى، وفكرته عن الإله ماعت هي تجسيد الحق والعدالة الذي أبقى على كل شيء متوازناً، وإن كانت قوة الشر قادرة على إزعاج ماعت لكنه كان بإمكان الفرعون أن يعيد التوازن بما له من سلطة وحكمة (تمثل ماعت في النقوش المرسومة في صورة سيدة صغيرة لطيفة، جالسة وهي تلبس ريش نعام على رأسها وهو رمز كان يستخدم لكتابة اسمها) وحيث إن فرعون هو ممثل الإله على الأرض فقد كان ماعت هو الاستقرار، فالكون ثابت جوهرياً والتغير لا يعدو أن يكون مجرد إيقاع متناغم دوري التكرار، حتى الصراع بين المتناقضات هوالصراع المتوافق بشكل منتظم فالأرض قد تكون ظمأى في الصيف لكن ذلك يعقبه الغمر بالماء، وكان الشروق يعلن عن انتصار لإله الشمس رغم أن الغروب يعلن عن موته.

كانت وجهة نظر المصري هي أن الخطأ طبيعة في الإنسان بينما **الآلهة** طبعها التسامح لأن غضبهم ينمحي في دقيقة واحدة. فلم يشعر الإنسان المصري بالإحساس بالذنب وهو ما حرَّك سائر البشر نحو الخير **أو** الشر. كان الإنسان المصري يشعر أنه ليس مضطراً أن يضع نفسه في طاعة كاملة للآلهة ولكن عليه أن يتوافق مع نظام ماعت الذي أقامه الإله، ويقال إن ماعت كانت تحكم عندما كانت المملكة موحدة وفي سلام، والحاكم القوي هوالذي كان يساند مبادئ ماعت، إذ بدون ماعت لا تستمر الخليقة وتنتهي إلى الفوضى.

كل الإلهة التي كان المصريون يعبدونها كانت مجرد رموز لمظاهر مختلفة للإله الواحد الذي خلق العالم والذي كان يحكم كل شيء.

ليس هناك شك في أن وحدة المصريين القدماء في دولة واحدة كانت من أقدم أشكال الاتحاد على الأرض، وقد حدث ذلك عندما تبين المصريون أن رخاءهم يعتمد على تعاون أوثق فيما بينهم، مما يؤدي إلى الارتقاء بالأداء، وتحمّل تقلبات الطبيعة وأهوائها، مما أدى إلى فكرة وجود من يمكنه القيام بتوحيد القطرين مصر العليا ومصر السفلى في مملكة واحدة والسيطرة على كل شيء.

لم يتطلب تنفيذ ذلك إلا وجود قائد قوي له طابع العزم والتصميم، وكان هذا الشخص هو **مينا**، الملك الأول الذي سجلت أسرته في العصر القديم؛ الأسرة الأولى والثانية ٣١٨٨ ق.م. إلى٢٨١٥ ق.م. والذي توجه من مصر العليا إلى الشمال متخذاً عاصمته منف، وفي النهاية هزم مختلف أمراء الدلتا ووحّد البلاد في دولة واحدة، ووضع على رأسه التاج المزدوج، تاج الدلتا الأحمر مع تاج مصر العليا الأبيض، ومن منف قسَّم الدولة إلى ستة وثلاثين إقليماً وأنشأ إدارة حكومية تتولى الإشراف على التحكم في النيل بتنظيم القنوات التي صنعها الإنسان، كما سن قوانين المساواة بين العمال، ووفر للناس العدالة والأمن.

من عام ٣١٨٨ ق.م. إلى عام ٢٣٩٤ ق.م.إبتداء من الأسرة الأولى وحتى الأسرة السادسة، والتي تعرف بالدولة القديمة كانت مصر موحدة تحت تاج واحد لمصر السفلى والعليا، وخلال تلك الفترة قامت مصر بتطوير إدارة مركزية ذات بيروقراطية تسير جنباً إلى جنب مع العظمة الفرعونية وهذا بدوره مكنّها من تعبئة وتنظيم حشود كبيرة من الشعب لإقامة السدود للتحكّم في الفيضانات السنوية وحفر القنوات، وكذلك صيانة القديم منها مما أدى إلى الحصول على محاصيل أوفر وأفضل.

طورت مصر فنها المعماري إلى درجة أنه في عام ٢٦٠٠ ق.م. تم بناء هرم زوسر المدرج في سقاره، وفي عام ٢٤٠٠ ق.م. أقيما هرما خوفو وخفرع بالجيزة، ونُحِتَ أبو الهول من الحجر الصلب. كما أدى وجود أجيال متعاقبة من البنائين الأكفاء إلى خلق إسلوب معماري حقيقي لطريقة البناء والزخرفة الذي أصبح ثابتاً في منتصف الدولة القديمة، وبذلك تعتبر أُسر الدولة القديمة الست الأولى أكثر فترات التاريخ المصري إزدهاراً وإبداعاً.

على أنه بتطور الحياة إلى الشكل الأسهل أصبح الحكام يعيشون في استرخاء مما زاد من سلطة الأمراء والكهنة، ونتج عن ذلك أن خضعت مصر لحكم العديد من الأمراء لمدة ١٤٠ سنة ابتداء من الأسرة السابعة وحتى الأسرة العاشرة، وخلال هذه الفترة التي تُعرف بإسم عصر الانتقال الأول عاشت مصر في ركود رغم أنها كانت لا تزال في حماية من العالم الخارجي بواسطة الصحاري المحيطة بها وبواسطة البحر.

عادت مصر مؤحدة مرة أخرى من الأسرة الحادية عشرة إلى الأسرة الثانية عشرة، وهي الفترة التي تُعرف بإسم الدولة الوسطى ٢١٣٢-١٧٧٧ ق.م. حيث تضمنت الأسرة الحادية عشرة ثلاثة ملوك بإسم منتوحتب.

تمكن منتوحتب الأول الذي حكم مصر لمدة خمسين سنة من إعادة توحيد البلاد تحت حكمه، وأصبحت طيبة التي كانت حتى ذلك الوقت مدينة إقليمية عاصمة للبلاد كلها، أما خليفتاه منتوحتب الثاني ومنتوحتب الثالث فلم يحافظا على ما قام به، مما أدى إلى تفكك البلاد وضعفها، وبعد فترة من الزمن تمكن ملوك الأسرة الثانية عشرة من إنهاء فترة طويلة من القلاقل والحرب الأهلية، ووصلوا بالبلاد إلى أوج قوتها وازدهارها بمعاونة حاميها آمون، ذلك الإله المغمور الذي رفعته الأسرة إلى مرتبة الالهة العظماء.

كان حكم الملكين المسميين **أمينمحت وسنوسرت** (الأسرة الثانية عشرة) حكماً لامعاً، ففي كل مدينة ارتفعت المعابد وبرزت العمارة الجميلة، وأصبح الأدب والفن مكرمين. كُتِبَتْ في هذه الفترة قصة سنوحي

التي كانت شائعة بشكل خاص في مصر حتى بعد كتابتها بثمانمائة سنة، وظل التلاميذ في مدارس النسخ على الضفة اليسرى من طيبة ينسخون أجزاء منها على سبيل التدريب على الكتابة، ويقـول Kipling أن قصة سنوحي تستحق أن تعتبر ضمن تحف الأدب العالمي. وقـام سنوسـرت الثـالث (١٨٧٨-١٨٤١ ق.م) بإلغاء سلطة نبلاء الاقاليم الذين كانوا يحكمون الولايات بشكل مستقل عن سـلطانه، كمـا عـزَّز الاسـتيلاء على النوبة السفلى التي كانت ملحقة بمصر حتى الشلال الثاني وأصبحت مدينة سمنا التي تقـع جنـوب الشلال الثاني هي حدود المملكة ومنها وحتى فيلة كان هناك نظام من الحصون يحمي المواصلات.

تذكر إحـــدى الترانيم عن سنوسرت الثالث: "هو الـذي يهلـك دون أن يوجـه ضربـة واحـدة، الـذي يصيب السهم دون أن يلمس القوس".

عندما اقترب حكم أمينمحت الرابع من نهايته تعـرض هـذا العصـر العظيـم - المعـروف بإسم الدولـة الوسطى - إلى التآكل من الداخل، فقد تسرب البدو إلى الدلتـا وأقـاموا بهـا، وكـان ذلـك يحـدث بشـكل متكرر كلما أصبحت البلاد غير قادرة على حماية حدودها، ومن نهاية القرن الثامن عشـر قبـل الميـــلاد وحتى بدايـــة القـــرن السادس عشر قبل الميلاد وهي فترة ١٤٠ سنة بين الدولتين الوسـطى والحديثـــة، والتي تعرف بإسم فترة الانتقال الثاني نجد هؤلاء البدو المحليين، ومعهم شعب من "عنصر غـير نبيـل"، وقد عبروا سيناء بخيلهم وعرباتهم ويقومون باكتساح مصر، وأعلنوا استقلالهم وحاربوا الحكام الشـرعيين. هذه هي فترة الهكسوس [٤] أو الملوك الرعاة التي خلالهـا أصبحـت مصـر في حالـة تدهـور تـام، وخلالهـا دُمرت تقريبا كل الآثار التي أقامها الملوك العظام السابقون.

كانت هناك أسرتان للهكسوس الأســرة الخامسـة عشـرة والأسـرة السادسـة عشـرة، وفي البدايـة كـان بمقدورهم حكم أطراف من الجزء الشرقي للدلتا، ثم امتدت سيطرتهم بـالتدريج علـى الدلتـا كلهـــا، وفي النهاية فرضوا حكمهم على معظم البلاد.

ويبدو أن مصر السفلى والوسطى قبلا الوضع، حتـى أتـى رد الفعـل الوطـني أخـيراً مـن أمـراء طيبـة للأسرة السادسة عشر الذين أخرجوا الآسيويين، وفي نفس الوقت حاربوا بنجاح النوبيين حلفاء الهكسوس في الجنوب، ثم قام **أحمس** مؤسس الأسرة الثامنة عشرة بطرد الهكسوس نهائياً كما رفع خلفاؤه مصـر إلى ذروة العظمة والمجد.

---

[٤] تعني كلمة هكسوس بالمصرية "أمراء دول أجنبية" منقولة من مقال لجي بوسنير في كتاب " معجم الحضارة المصرية " ص ١٣٣.

منذ الاعتداء على حدود مصر، من أيام الهكسوس Hyksos وحتى سقوطها النهائي لم يكن بإمكان أى ملك أن يحافظ على سيطرته على نهـر النيـل، وإحبـاط أى محاولـة لغزوهـا أو المسـاس بنيلهـا، فخرجـت الملـوك غازيـة وتوسعت ونهضت ولم يدم ذلك لمدة طويله، لأنه ليس في استطاعتهم صد الجموع الآسيوية ولكـن، خلفاء أحمس التحتمسيين والأمنحتبيين دفعوا بحدودهم إلى الخارج لكى يحموا أنفسهم فقاموا بغزو لبنان (حيث توجد الاخشاب غير الموجودة بوادى النيل) وكذلـك فلسـطين وشمـال سـوريا وحتـى حلـب، ووصلـوا إلى الفرات حيث كـان لهـم صراعات مع إمبراطورية الكلدانيين التي أوقفتهم عند ذلك.

أُعيد بناء المقدسات التي تعرضت للهدم، وزُينت بالغنائم التي تم جلبها من البـلاد المنهزمـة، وحقـق معبد الكرنك ومعبد الأقصر توسعاً هائلاً، ونافس الفنانون مهارة أسلافهم في أجمل الفترات، وقاموا بتزيين الآثار ومقابر كبار المسئولين.

تسببت هرطقة (بدعة) **أمنحتب** الرابع (١٣٧٢ – ١٣٥٤ق.م) المعروف بإسم **إخنـاتون** ابـن امنحتـب الثـالث وزوج نفرتيتي إلى قدوم ديانة جديدة كانت في حقيقتها إعادة عقيدة سابقة وهي عبادة إله واحـد منفرد هـو آتـون، وعندما كان المصري القديم يرغب في التعبير بالكلمات عن القوة الحيوية العظيمة للشمس كان يقول رع ولكنـه يقـول آتون عندما كان يعني قرص الشمس ذاته، فأمنحتب الرابع أنكر سيادة آمون رع ملك الإلهـة سيد الامبراطوريـة – أبو البيت الملكي – والـرأسمالي الأول للبلاد نتيجة الثروة التي تجمعت لدى كَهنتة عـبر العصـور، ورفـض تحمـل غطرسه الكهنة كما كان يفعل أسلافه.

وغير اسمه من أمنحتب الذي يعني " آمون راض " إلى إخناتون الذي يعني " ذلـك الـذي يقتنـع بـه قرص الشمس "، وقرر أن ينشىء مدينة عمارنة (تل العمارنة) ولتكون مركزاً لديانته الشخصية بدلاً مـن طيبة (الأقصر) معقل كهنة آمون، وأُهمِلَت المعابد السابقة التي تعتبر الحياة الروحية لكل الشعب، كمـا قام بإزالة كل ذكر لآمون أو الإلهة الأخرى، ولم يفكر "الطفل الجميل لآتـون" * وزوجتـه نفرتيـتي إلا في جمع ثمرات الأرض لزيادة القرابين لتمجيـد الشـمس الظـاهرة الواهبـة " لكـل رخـاء "، فشـيدت موائد القرابين في جميع الانحاء في مساحات مفتوحة عظيمة يغمرها الضياء ، وكان الملك يغني بانبهار وتقوى وإخلاص " ترنيمة عظيمة " معروفة بشكل عام من خلال معانيها العـديدة أنها قد أوحت بشـكل غـير مباشر لاحدى المزامير. لقد كان إخناتون في روحانيته وتصوفه شخصية تسترعى الانتباه ولكنه كملك كـان كارثة، تائه في احلامه فسمح لامبراطوريته أن تتفتت ولحكومة بلاده ان تنهار.

---

* قاموس الحضارة المصرية لجين يويوث.

كان من المفروض أن الضوء المنبعث من آتون يفيد كـل أجنـاس البشـر ويسـتحوذ علـى قلوبهـم ولكـن حدث العكس، اذ خُذِل أتباعه المخلصون في آسيا عندما استغاثوا به طالبين العون، فاجتاح البـدو البـلاد وخانه ممثلوه وهزمه الحيثيون في سوريا. المُعترف به أن تل العمارنه كـان يوجـد بهـا مـن آمـن بـالمذهب الجديد الا أنه كان من الصعب علىالفلاح في سائر أنحاء البلاد أن يتنكرلإله مدينتـه، وأن يتـبرأ الشـعب من معتقداته الموروثة والتي كانت متغلغلة في حياتهم جسداً وروحاً.

وعند تولى **توت عنخ آمون** خليفة لاخناتون أعيد إحياء كل العادات القديمة، وقام قواد الجيـش **عـى وحور محب** الحاكمان اللذان جاءا بعد توت عنخ آمون بازالة كل أثر لإخناتون، ووضـع الأخـير تواريـخ حُكْمُه ابتداء من موت أمنحتب الثالث؛ لأنه لم يعـترف بشـرعية أي مؤيـد للهرطقـة أو للضـلال الدينـى حتى أولئك التائبين منهم.

عندما بدأ القائد رمسيس الأول حكم الأسرة التاسعة عشر، وهو أحد القواد الذين قاموا بتصفية نظـام اخناتون، وكان كبيراً في السن حينما أصبح ملكاً، فترك أمـور الحكـم الفعليـة لابنـه سـيتي الـذي أصبح سيتي الأول (١٣١٢ – ١٣٠٠ ق.م.) وعزَّز قوّة مصر في فلسطين، ووقَّع معاهدة سلام مع الحيثيين.

هناك العديد من الآثار التي ترجع إلى حكم سيتي الأول، وهي تلك الآثار التي أظهرت فيهـا النقـوش البارزة قمة عظمتها كما يظهر في أبيدوس وفي مقبرة سيتي بوادى الملوك.

قام رمسيس الثاني – ابن سيتى (١٣٠١ – ١٢٥٣ ق.م.) بكافة الانجازات بأسلوب رائع خلال مدة حكمه الطويلة التي امتدت إلى سبع وستين سنة، فقد كـان محبـاً للعظمـة فشـيد الآثـار لتخليـده في كـل مكان؛ وبلا شك كانت الجودة ضحية الكم، فلم تظهر في تماثيل هذا العصر كل الدقة التي كـانت سـائدة قديما، لعدم وجود فنانين بالاعداد الكافية لوضع الأوامر المـلكية كلها موضع التنفيذ فقـاموا في كثـير مـن الحالات بإزالة أسماء الملوك السابقين من التماثيل القائمة، واستبدلوا بها اسم رمسيس الثـاني، وفي فـترة حكمه شُيِّدت المعابد الصخرية العظيمة الموجودة في أبو سمبل بالنوبة السفلى.

بعد حكم رمسيس الثاني أصبحت مصر منهكة، وقد فقدت سوريا بالفعل وكانت على وشـك أن تفقد فلسطين أيضاً، وفي حكم **مرنبتاح** ابن رمسيس الثاني وحتى حكم رمسيس الثالث بالأسرة العشـرين كـان على مصر أن تناضل في الغرب ضد الليبيين الذين كانوا يغزون الدلتـا بينمـا كـانت قبـائل آسيا الصغـرى تحاول الهبوط على ساحل البحر المتوسط، وتمكنت بصعوبة أن توقف تيـار الغـزو، وبعـد حرمانهـا مـن مستعمراتها في آسيا والسودان أصبحت البلاد فقيرة، ولكن كهنة آمون الذين أثروا بالغنائم التي أتـى بهـا

الغزاه لمعابد آمون ظلوا أغنياء حتى استطاعوا أثناء حكم الأسرة الواحدة والعشرين أن يجبروا الملـوك علـى أن يقتسموا السلطة معهم. فقد كان ملوك الأسر من الواحدة والعشرين وحتى الثالثة والعشـرين يقيمـون في تانيس (صان الحجر) أو في بوباستس (الزقازيق) في مصر السفلى بينما كان الكهنة الأوائل لآمون في طيبة يحكمون مصر العليا وفي بعض الأحيان كـانوا ينتحلـون كـل الألقـاب الملكيـة. وجـد ملـوك مصـر السـفلى أنفسهم غير قـادرين علـى الحفـاظ علـى سـيطرتهم علـى حكـام الأقـاليم العسكريـين الذيـن تمكنـوا مـن الـــخروج من هذه السيطـــــرة بدعم من عصابات المرتزقة الليبيين.

العلاقة بين مصـر الفرعونية والنوبـــة – وهي المنطقة المحصورة بين أسوان عند الشلال الأول ودنقلة عند الشلال الرابع

وتنقسم إلى :

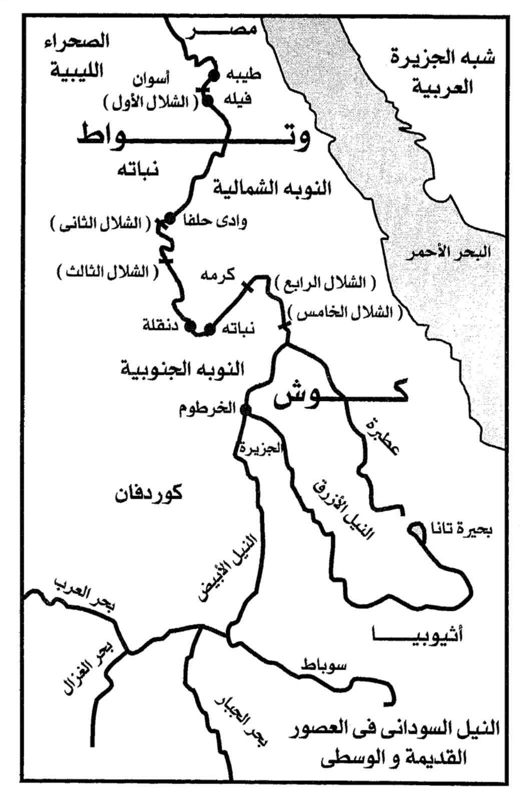
أ. النوبة السفلى : من أسوان عند الشلال الأول إلى وادي حلفا عند الشلال الثاني ، وكانت تعُـرف بإسـم وطواط وعاصمتها أسوان، وكان الفراعنة يعتبرونها منطقـة امتـداد طبيعـي لمصـر وحدودهـا الحاميـة ، ولذلك فقد شيدوا المعابد والحصون على طول ضفتي النيل، كما إنهم كانوا يستأجرون المرتزقة من هذه المنطقة للمحاربة ضمن جيوشهم.

ب. النوبة العليا : من وادي حلفا عند الشلال الثـاني إلى دنقلـة عنـد الشـلال الرابـع كـانت تُعرف بإسم كـوش، وعاصمتها ناباتا بالقرب من الشلال الرابع. حيث أن كوش كانت بعيدة عن مصر، وكانت قبضتهـا وسـيطرتها عليها تعتمد على قوة الفرعون الحاكم في ذلك الوقت، وعلى رغبتة في التوسع من الناحية الاقتصادية.

حكم المصريون القدماء في أوج المملكة الحديثة كل من وطواط وكوش (المعروفة بإسم أثيوبيا الكتابيـة)، وعينوا نائباً للملك مسئولاً أمام فرعون فقط سُمي " ابن الملك في كـوش " وكـان يسـاعده وكيـلان احدهمـا لوطواط والآخر لكوش.

وفي ايام تحتمس الثالث أنشأت مصر حكماً امبراطوريـا مصريـاً في ناباتـا، واصبحـت معظـم الأراضـي ولايات لمؤسسات مصرية ، أدارها أولاد رؤساء النوبة بعد عودتهم من البلاط المصري الذي تعلموا فيه.

أضافت منتجـات النوبـة المختلفـة إلى ثـروة مصـر الكثـير خاصـة الذهـب والعـاج والأبنـوس والأغنـام والأصماغ والأحجار شبه الكريمة.


مصــــر
الصحراء
الليبية
شبه الجزيرة
العربية
طيبه
أسوان
فيله
(الشلال الأول)
وتـــــواط
نباته
النوبه الشمالية
وادى حلفا
(الشلال الثانى)
البحر الأحمر
(الشلال الثالث)
كرمه
(الشلال الرابع)
(الشلال الخامس)
نباته
دنقلة
النوبه الجنوبية
كـــوش
الخرطوم
الجزيرة
عطبرة
كوردفان
النيل الأزرق
بحيرة تانا
النيل الأبيض
بحر العرب
بحر الغزال
أثيوبيـــا
سوباط
بحر الجبل
النيل السودانى فى العصور
القديمة و الوسطى

وواقــع الأمــر أنـــه وفقــاً لـمــا ذكــره ســـريل الـــدرد " Cyril Aldred " في كتابـــه "المصريـــون" The Egyptians كــان تمصــير النوبـــة الســفلى وكــوش فعــالاً لدرجــة أنــه بنهايـــة المملكـة الحديثـة كـان نـائب الملـك يتدخــل بشـكل حاسـم في شـئون مصـر بإسـم القـانون والنظـام.

تمكن أحد ملوك الدلتا يدعى **تف – نخت** " Tef nakhte " وهو أمير صا، **ومنف** في الأسرة الثالثـة والعشرين من اخضاع امراء الدلتا وحاول السيطرة على مصر كلها فتقدم إلى جنوب منف، حيـث تصـدى له **بعانخي** " Pianche " ملك كوش الذي استولى على النوبة ومصر العليا، وأخضـع وادي النيـل بأكملـه بإسم النظام والمعتقدات الصحيحة، وأخيراً استسلم **تف – نخت** ومعهُ أمراء الدلتـا. وبعـودة **بعـانخي** إلى كوش، أعاد **تف– نخـت** سـلطته علـى أمـراء الدلتـا مـرة أخـرى، ونجـح أخـيرا في ذلـك بواسـطة ابنـه **بوكوريس**" Bocchoris "، الملـك الوحيـد للأسـرة الرابعـة والعشـرين. وفي نفـس الوقـت تمكـن شـباكا " Shabaka " شقيق **بعانخي** مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين من هزيمة **بوكوريس** واضعــا مصـر كلهـا تحت سيطرته (٧١٩ – ٧٠٣ ق.م.) وأحرق **بوكوريس** حياً، وأزاح كل المطالبين بعرش مصر.

لم يسيطر ملوك كوش على مصر إلا لبضعة عقود لأن ملوك آشور الذين احتلوا فلسطين كـانوا في نفـس الوقت في طريقهم لغزو الدلتا.

واستغلالا لحالة الفوضىالسائدة تمكن أمراء سايس الذين كانوا يعيشون في الجزء الشمالي الشـرقي مـن البلاد، قرب مدينة كفر الزيات، من اخراج الكوشـيين والأشـوريين بمسـاعدة اليونـانيين الذيـن أذن لهـم هؤلاء الأمراء بالاقامة في أجزاء معينة من مصر السفلى، ومن ثم وضعوا البـلاد حتـى الشـلال الأول تحـت حكم الأسرة السادسة والعشرين.

بحلول عام ٦٥٦ قبل الميلاد كان الكوشيون قد انسحبوا من مصر لكن حضارتهم ظلت قائمـة بالمملكـة النباتية والميرويتية السودانية لمدة ألف سنة أخرى.

وتعتبر حقبة **بسماتيك** ونيكو الثاني وابريز وآموز الثاني من الحقب المشرقة، فقد وفرت التجـارة مـع اليونان لمصر موارد جديدة، وحُفِرت قناة توصل النيل بـالبحر الأحمـر وأنشـئت مبـانٍ عديـدة وخاصـة في الدلتا، وقامت نهضة فنية في تلك الحقبة تميل إلى المبالغة في إظهار الرقة في الاعمال الفنية بحيث كـانت تبدو أقل بكثير بالمقارنة لأعمال المملكة القديمة من حيث القوة والصلابة.

إلا أنه بالوصول إلى هذا العصر كانت مصر قد فقدت قوتها ونتيجة لاعتمادها علـى المرتزقـة لحمايـة استقلالها فوقعت فريسة **لقمبيز** " Cambyses " والفرس في عام ٥٢٥ ق.م.

واستعـادت مصـر حريتها إلى حد ما ابتـداءً مـن الأسـرة السـابعة والعشـرين حتـى الأسـرة الثلاثـين (٤٠٤– ٣٤٠ ق.م.) ثم قام **نكتانيبوس** الأول والثاني" Nectanebus I & II باصلاحات للمعابد والمذابح.

استولى الفرس على مصر مرة أخرى ولكن لفترة قصيرة إذ أنه في عام ٣٣٢ ق.م. جاء **الاسكندر الأكبر** إلى مصـر كغاز وأسس مدينة الاسكندرية، وبعد وفاته بقيت مصر في أيدي أحد قادتـه الـذي يدعـى **بطليمـوس** الـذي حمـل خلفاؤه جميعا نفس الاسم وحكموا مصر لمدة ٣٠٠ سنة انتهت بآخر ملكة منهم وهي **كليوبـاترة** الـتي حملـت ابنـا لقيصر، ولكن **قيصرون** ابنها لم يكن فرعوناً حقيقياً، وتوفي قبل أن يتولى العرش.

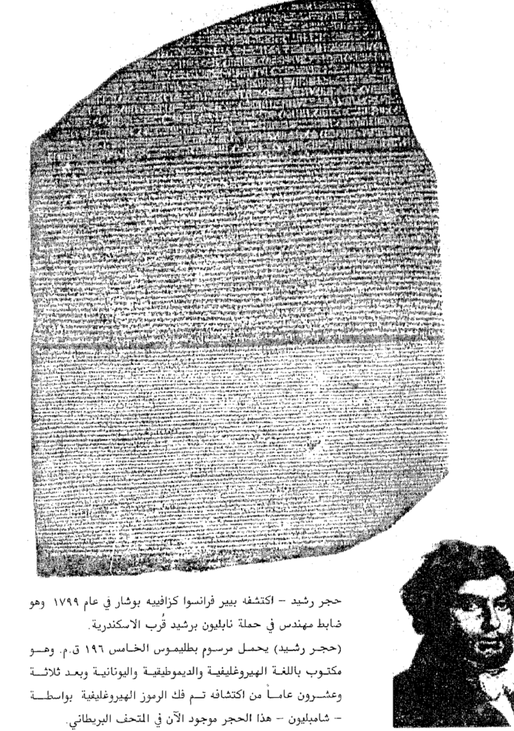
وقد تبنى البطالسة العادات المصرية وأعلنوا أنفسهم ورثة للمصريـين القدمـاء علـى الرغـم مـن كونهـم يونانيين أصلاً وثقافة، وفي هذا العصر شيدت المعابد الفاخرة (في فيله وكوم أمبو وأدفو ودنـدرة وغيرهـا) ولكن البلاد المنهكة بالضرائب والممزقة بالحروب المستمرة بين الأسر كانت مزدهرة مظهريا فقـط، وثـارت مصر العليا عدة مرات، وتعرضت طيبة للخراب.

وفي مناسبات عديدة تدخلت روما لحفظ السلام، وأخيراً قام أوكتافيـان (أغسـطس قيصـر) في عـام ٣٠ ق.م. بالاستيلاء على الاسكندرية، وأصبحت مصر جزءاً من ولايات الامبراطور، وتم حكمهـا تمامـا بإسـم الامبراطور، الذى أسبغ على نفسه جميع أسماء وصفات الملوك القدمـاء، وعلـى المعـابد الموجـودة أو الـتي أنشئَت في عهده (في دندرة وأسنا، وغيرهما) ولا يوجد أى اختلاف يمكن ملاحظته بـين المنـاظر المصـورة بالنقوش التي يقوم فيها الإمـبراطور بـدور في الطقـوس الدينيـة وتلـك المنـاظر المحفورة قبـل ذلـك بـألف وخمسمائة عام.

خلال هذه الفترة الرومانية لم تكن مصر إلا مجرد صومعة غلال لروما، يحكمها مالك مسـتبد متغيـب دون إعطاء أي اهتمام لرفاهية الشعب المصري وخيره.

اللغـة

اللغة المصرية التي تصنف ضمن اللغات الحامية أو اللغـات الشـمال افريقيـة لهـا تركيبـات ومفـردات مشتركة كثيره مع مجموعة اللغات السامية، ومنذ بداية الدولة تحت حكـم الأسـرة الأولى تعرضـت اللغـة تدريجياً لتعديلات في النطق وفي الصوتيات، وفي المملكة الحديثة كـان هنـاك نوعـان متمـيزان للتعبـيرات المكتوبة احدهما تقليدي وعلمي كلاسيكي والآخر تعبير عن لغة التخاطب (عامي).



حجر رشيد – اكتشفه بيير فرانسوا كزافييه بوشار في عام ١٧٩٩ وهو ضابط مهندس في حملة نابليون برشيد قُرب الاسكندرية.
(حجر رشيد) يحمل مرسوم بطليموس الخامس ١٩٦ ق.م. وهو مكتوب باللغة الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وبعد ثلاثة وعشرون عاماً من اكتشافه تم فك الرموز الهيروغليفية بواسطة – شامبليون – هذا الحجر موجود الآن في المتحف البريطاني.

Jean François Champollion
(عن الرسام ليون كونيه)

الكتابة

منذ الأسرة الأولى والمصريون يستخدمون نوعين من الكتابة: النوع الأول زخرفي يتميز برموز ذات أشكال صغيرة مرسومة بدقة وهي اللغة الهيروغليفية، والنوع الثاني عبارة عن أحرف متصلة أو كتابة هيراطيقية (أبسط من الهيروغليفية) وتستخدم في الكتابة على ورق البردي.

والكتابة الهيراطيقية لا تعدو أن تكون هيروغليفية مختصرة، ومن العصر الأثيوبي وخلال العصر البطلمي استخدم نوع ثالث من الكتابة وهي اللغة الديموطيقية، وهي عبارة عن تبسيط للغة الهيراطيقية واستخدمت في نسخ اللغة الدارجه.

وفي عام ١٧٩٩ كان هناك ضابط مهندس في جيش نابليون اسمه **بيير فرانسوا كزافييه بوشار** "Pierre Francois Xavier Bouchard" يعمل بحصن جولين قرب رشيد (وهو حصن يقع على مسافة حوالي ثلاثة وأربعين ميلاً شرق الاسكندرية) فلاحظ حجراً ملفتاً للنظر يحمل نقشا تذكاريا أعيد استخدامه في بناء حائط قديم، فأخبر الجنرال مينو باكتشافه الذي أمر بنقل الحجر إلى الاسكندرية. وهذا الحجر الذي يحمل مرسوماً صادراً من بطليموس الخامس (١٩٦ ق.م.) مكتوبا بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وقد أصبح هذا الحجر هو المفتاح لقراءة الهيروغليفية بواسطة شمبليون بعد ثلاث وعشرين سنة.

وقد نقل البريطانيون هذا الحجر إلى انجلترا في عام ١٨٠١، ويُعرف بإسم حجر رشيد وهو يُعتبر واحداً من أكثر الآثار قيمة في المتحف البريطاني.

عندما اعتنق المصريون الدين المسيحي تركوا أنواع الكتابة القديمة حيث وجدوها كثيرة التعقيد، وتبنوا حروف الهجاء اليونانية مع اضافة سبعة أشكال خاصة تمثل الأصوات غير المعروفة في اللغة اليونانية، وبنهاية القرن الرابع الميلادي كان الناس قد نسوا كيفية قراءة الهيروغليفية.

بنفس الطريقة فإن اللغة القبطية التي كانت عبارة عن خليط من اللغة المصرية القديمة الدارجة واللغة اليونانية مع كلمات أجنبية توقف استخدامها بعد فتح العرب في القرن السابع الميلادي وأفسحت المجال للغة العربية وإن كانت قد استمرت بالكنيسة القبطية كلغة للطقوس الدينية.

نبذة عن أسيوط "الخالدة"

يمتد إقليم أسيوط (الذي أصبح الآن محافظة) لمسافة ١٦٠ كيلو متراً بطول نهر النيل بين محافظتى المنيا وسوهاج.

مساحتها الثابتة محدودة بوادى النيل، وأعرض نقطة بها عبرالنيل تبلغ ٢٠ كيلو مترا بحدود الصحراء الغربية والشرقية، ويرجع تاريخها إلى عصر البدارى ما قبل التاريخ المشهور بالفخار المحمص الرقيق الذي يتميز بشريط أسود على فوهته، وتقع في منتصف الطريق بين القاهرة وأسوان، وعاصمتها هي مدينة أسيوط.

كانت أسيوط تُعرف في مصر القديمة بإسم " سيوط "، وكانت مركزا لعبادة الإله وبواويت "Wepwawet" الذي له رأس ذئب، والذي يعرف أيضا بإسم أبوات "Upuat" ويصور على شكل ذئب واقف أو على شكل رجل له رأس ذئب يلبس أحيانا درعاً ويحمل أسلحة، ويقال أن سيدنا يوسف قد استخدم الكهوف التي في جبال أسيوط كمخازن للحبوب في أثناء السنين السبع العجاف المذكورة في العهد القديم.

في أثناء فترة المملكة الوسطى كانت أسيوط عاصمة الإقليم السابع عشر لمصر العليا (nome)، وبعد ذلك عرفت بإسم ليكو بوليس" Lycopolis " أو مدينة الذئب خلال العصور الهللينية، وقد وجدت مومياوات الذئاب في حجيرات صغيرة بالصخر خلف المدينة ذاتها، وأثناء الامبراطورية الرومانية كانت عملة ولاية ليكوبوليس تحمل صورة ذئب على الجانب الخلفي منها مع كلمة ليكو "Lyco".

كانت الأغنام مقدسة في مصر العليا خاصة بالقرب من طيبة والفنتاين "Elephantine "، إلا أن أهل ليكوبوليس في مصر الوسطى كانوا على عكس ذلك فكانوا يذبحونها ويأكلونها لأنه حسب **بلوتارك** " Plutarch " كان الذئب الإله يفعل ذلك.. وهم ايضا يقومون بذلك تشبهاً بما يفعله الإله [٦].

يقع تل العمارنة على مسافة ثمانين كيلومترا في اتجاه مجرى نهر النيل على الضفة الشرقية منه، والذي أخذ اسمه من قبيلة بدوية تسمى بني عمران منذ قرنين من الزمان عندما استقروا على مشارف الموقع القديم أخيت آتون أو " أفق آتون " الذي بناه اخناتون حوالي عام ١٣٧٠ ق.م. كمدينة لإلهه الشخصي آتون على دائرة كبيرة جافة من أرض قاحلة، والتي هدمها خلفاؤه تماما من بعده.

---

[٦] عادات وطباع المصريين القدماء تأليف سير جاردنر ولنكسون Sir Gardner Wilkinson، الجزء الثالث، صفحة ٣٠٤ – الناشر جون موراي John Murray ١٨٧٨.

وبسبب موقعها على الحدود بين أسيوط والمنيا فقد كانت ترتبط إدارياً بإحداهما أو بالاخرى في مختلف العصور، وهي لا تزال بقعة قاحلة حتى يومنا هذا حيث يتوجه إليها السياح من حين لآخر لزيارة البقايا الأثرية.

أصبحت أسيوط أرضاً للمعارك بين الأمراء المتنافسين عندما انحل الحكم المركزي أثناء العصر الوسيط (٢١٨٠ – ٢٠٨٠ ق.م. تقريباً).

تمكن الأمراء الذين كانوا يقيمون في هيراكوبوليس قرب الفيوم من مد سلطتهم على معظم الدلتا ومصر الوسطى حتى أبيدوس.

حاول حكام أسيوط دائما أن يكونوا في الجانب الصحيح حيث لم يكن بإمكانهم تحدي سلطة طيبة ولكن كان هناك دائما تعاطف مع أمراء الشمال في محاولة لتقليص طموحات جيرانهم في الجنوب الذين كانوا على أعتاب أبوابهم.

وُجد أحد حكام أسيوط في ذلك الوقت مدفونا مع فرقتين من نماذج المحاربين حتى يقدما له الخدمات اذا واجهته المتاعب في الحياة الأخرى.

ويفخر ملك آخر من نفس المنطقة، كيف كانت الأرض في حالة رعب أمام وجوه جنوده، وكيف تملك الناس الخوف عندما شاهدوا الدخان في الجنوب [٧]، ولكن يبدو أن أسيوط تقبلت تغيير السادة الجدد دون مقاومة.

بعد المملكة الوسطىأصبح تاريخ أسيوط القديم غامضاً، ولكن من المعروف أن الفيلسوف بلوتينوس Plotinus ولد في ليكوبوليس (**أسيوط**) في سنة ٢٠٥ م، وتوفي في كمبانيا عام ٢٧٠ م. وكان بلوتينوس مركزا لدائرة مؤثرة من المفكرين في القرن الثالث في روما. وينظر اليه الدارسون في العصر الحديث على أنه أبو مدرسة الفلسفة الافلاطونية الحديثة.

كذلك كانت أسيوط محل ولادة المتصوف المسيحي **جون ليكوبوليس** الذي قضى حياته منعزلا في الجبل، ولكن أسيوط اكتسبت شهرتها أساسا خلال العصر الإسلامي، وقد ذكرها المؤرخ والعالم الجغرافي **أبو الفدا** الذى كان من سلالة أيوب أبو صلاح الدين الذي أصبح سلطان حماه (بسوريا) تحت حكم المماليك.

---

[٧] المصريون تأليف سيريل الدرد – صفحة ١٠٣.

وقد زادت أهمية أسيوط بزيادة التجارة حيث كانت نهاية طرق القوافل التي كانت تعبر الصحراء الشرقية والصحراء الغربية، وكان درب الأربعين وهو الطريق المألوف من أسيوط إلى دارفور بالسودان معروفاً للقوافل التي تنقل البقول والمنسوجات والفضة والشيلان المزخرفة المصنوعة في أسيوط، وكذلك يستورد التجار الأسايطة من التجار الأجانب بالقاهرة البضائع اللازمة لإرسالها الى السودان ثم العودة بالعاج والأبنوس وريش النعام والأصباغ النباتية والعبيد.

وفي أوائل القرن التاسع عشر كانت أسيوط – كما جاء في تقرير جريدة مركز البحوث الأمريكية – عن مصر الجزء ١٥ (١٩٧٨) الذى أعده **تيرانس والز** " Terence Walz " – كانت أسيوط معقلاً عظيماً للتجارة، وقد كان تكوينها الاجتماعى إسلامياً غالباً يضم وجهاء من سلالة الأشراف الذين يرجع نسبهم إلى النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) أو من انتسبوا لجد تركى عظيم – أو لأحد أفراد قبائل العرب البدوية المعروفة.

ومن هؤلاء الوُجهاء عائلة " **النميس** " التي كانت العُمدية في أسرتهم غالباً، وتنتمى إلى قبيلة "**الجمالية**" – القبيلة العربيه المعروفه، وعائلة " **الهلالية** " وينتمون إلى قبيلة " **بنى هلال** " الذين كان لهم لقب "صار تجار" (رئيس تجار) – من سنة ١٨٣٨ حتى ١٨٧٨، أما عائلة " **خشبه** " فقد كان لهم لقب " صار تجار " منذ ١٨٧٠ حتى أوائل القرن العشرين.

وفي الوقت نفسه كان هناك بعض العائلات القبطية التي كانت تعمل بالتجارة بجانب العائلات المسلمة وهم: عائلة **الجوهري**، وعائلة **شنودة**، وبعد ذلك – حوالى منتصف القرن الثامن عشر – ظهرت عائلات مسيحية أخرى زاولت نفس المهنة وهم: **الخياط، وويصا، ومقار**. وغيرهم.

وكانت أسيوط في تلك الأثناء بلدة زراعية، بالاضافة لوجود بعض الصناعات المحلية المحدودة مثل: نسيج الكتان والقطن أو الصوف، وأيضاً دباغة الجلود وصنع الأواني الفخارية.

وهناك حكاية طريفة ذكرها "**زكى مبارك**" عن فخرانى مشهور اسمه "**الناقص**"، وكان ينقش اسمه على ما ينتجه فيظن الناس أن المنتج سيء وناقص فيمتنعون عن شرائه مما أدى به أن يغير اسمه إلى "**الكامل**" فراجت سلعته.

وكان الاسايطة مشهورين بعقليتهم التجارية، وهناك قصة طريفة تُروى عن السبب في عدم وجود يهود بأسيوط تقول: إنه في الأيام الغابرة فكَّر يهودي في السفر إلى أسيوط ليعمل هناك، ولكنه قبل أن يدخل المدينة أراد أن يختبر نوعية الناس الذين يعيشون فيها، فاستوقف صبياً صغيراً وقال له " هل

يمكنك أن تحضر وجبة غذاء لي ولحماري وعشاء لي ولحماري وتوفر لي تسلية ؟ " ثم أعطاه خمسة مليمات. فأخذ الصبي الخمسة مليمات وعاد بعد قليل ومعه بطيخة اشتراها بأربعة مليمات، وقال له "إقطع هذه البطيخة إلى جزئين وكُل النصف في الغذاء معطيا القشر لحمارك، ثم يمكنك أن تتناول النصف الثاني في العشاء وتعطي القشر لحمارك، وأيضا يمكن ان تتسلى بقزقزة اللب" فركب اليهودي حماره وعاد متنهداً وهو يقول لنفسه: "لا عيش لي في هذه المدينة".

يقص سكان دمياط نفس القصة عن مدينتهم أيضا ويُقال عن أهل أسيوط أنهم " أولاد نكتة " فهم يرددون قصصاً عن أنفسهم وعن جيرانهم.

وهناك قصة مُسلية تحكي عن مُقرض مشهور في أوائل القرن العشرين الذي مَلّ من أحد أصدقائه المقترضين الذي تعود أن يحضر اليه وقت الغذاء لدفع القسط الشهري المستحق عليه حتى يُطلب اليه البقاء لتناول الغذاء، وفي أحد الشهور لمح المقرض صديقه ومعه بعض أصدقائه في طريقه إلى منزله وقت الغذاء كالعادة، فقفل الشيش وتظاهر أنه خارج المنزل.

لكن صديقه الذي كان يدرك أنه لا يغيب أبدا وقت الغذاء وقف تحت النافذة منادياً يا سيد فلان، يا سيد فلان، لماذا لا ترد على ندائى: " ألا تعلم أن الله أجاب موسى عندما دعاه على الجبل؟"، فجاء صوت من داخل البيت، " ولكن موسى لم يحضر معه بنى اسرائيل".

رجل غير عادي

لا يمكن أن نتحدث عن أسيوط دون ذكر قصة الشيخ سليم، وقد جرت أحداثها في العشرينات من هذا القرن:

تشتهر مصر منذ أزمان الفراعنة بالاعمال السحريه وكذا المعجزات التي كان بمقدور الكهنة القيام بها في معابدهم. فالمصريون سواء منهم المسلمون أم المسيحيون يؤمنون بالخرافات، والكثير منهم يعتقد في التعاويذ وفي أدوية الحب والسحر والأرواح، ومن المشهور أنه كان يعيش في أسيوط شيخ تقى يتمتع بقوى سحرية، وكان أبى وباقىأفراد الأسرة يعرفونه شخصياً.

ووفقاً للقصص التي سمعتها كان بمقدور الشيخ سليم ايجاد أشياء من الهواء، لم يكن يستطيع سرقة أي شئ، ولكنه يستطيع إحضار أى شئ لك تركته في مدينة أخرى. هذا الشئ لابد أن يكون من ممتلكاتك، كما كان بمقدوره شراء الأشياء لك من مدينة أخرى، ولكن لابد لك أن تعرف السعر وأن تدفع

الثمن. فهو يمد ذراعه ويحضر الشئ من الهواء وفي نفس الوقت يُرسل الثمن الذي يُعطى له إلى درج النقود بالمحل المحدد له، وقد كان من المعتقد إنه كان ينجز أعماله الخارقة هذه بمساعدة أرواح طيبة، فالمصريون يعتقدون في الأرواح الطيبة وكذلك في الأرواح الشريرة.

هناك قصة شهيرة تُحكى عنه في وقت كان فيه مسافرا بالقطار من المنيا إلى أسيوط، وعندما جاءه الكمساري إلى المقصورة التي كان يجلس بها طالباً منه التذكرة أجاب الشيخ سليم " ليس معي تذكرة ".

أجاب الكمساري " اذن لابد لي أن أغرّمك ".

فحاول الشيخ سليم أن يشرح له أنه الشيخ سليم وإنه اعتاد السفر مجانا لكن الكسماري قال له "هذه المرة لن تسافر مجانا على هذا القطار".

فسأله الشيخ سليم "وماذا تريد"؟

أجابه الكمساري " أريد تذكرة ".

قال الشيخ سليم " أتريد تذكرة.. هذه هي التذكرة ".. ومد يده فتدفقت التذاكر من النافذة، بل في كل مرة يمد بذراعه يطير المزيد من التذاكر إلى الداخل، مما جعل الكمساري المسكين يكاد يغمى عليه من الخوف، وصرخ قائلا " كفى .. كفى.. لا أريد المزيد من التذاكر"، هذا وهناك العديد من القصص الأخرى عن الشيخ سليم التي تعتبر خيالية وصعبة التصديق.

مولد عصر جديد

قصة العائلة المقدسة في أسيــوط "مصر"

سرداً من الكتاب الذى صـــدر مـن ديـــر المحـــرّق بأسيوط في سنة ١٩٩٠ تحـت اسم "جبل قسقام" نروى القصة التالية: "من أقدم وأشهر الأديرة المسـيحية بمصـر ديـر المحـرّق الكـائن في محافظـة أسيوط بالقرب من بلدة القوصية، هذا الدير معروف باسم السيدة العذراء بالمحرق مبني على جبل قُسقام، وكلمة قسقام بالفرعونية والقبطية تدل على الأبدية – توجـد قصـة تفيـد بـأن العائلـة المقدسـة وخـادمتهم سالومي عاشوا لمدة ستة أشهر على هذا الجبل قبل رجوعهم لإسرائيل– ويعتقد الأقباط أن نبوءة أشعياء:

> "في ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر" أشعياء (١٩: ١٩)

تدل على وجود هذا الدير، كما أنه توضيحاً لحلم يوسف النجار كما ذكر في إنجيل متى: (٢: ١٣–١٥)

> قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكُن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمـع أن يطلـب الصبي ليهلكه. فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر، وكان هناك إلى وفاة هيرودس.

وتستطرد القصة أن العائلة المقدسة بعد أن ارتحلت من أورشليم إلى مصر انتقلت إلى عدة بلاد وقرى ثم حطت رحالها في قُسقام، وقد دلّت الدراسات على أن سفح جبل قُسقام كان في ذلك الزمان صحـراء قفـرة لا يسكنها أحد على الإطلاق، إلا أنه كان هناك بيت مهجور مبني من الطوب اللّبن وسـقفه مـن سـعف النخيل ويقع على مُنحدر هضبة شرقية واسعة وفي خارجه من الجهة الشـمالية يوجـد بـئر مـاء، وعندمـا التجأت هذه العائلة المقدّسة إلى هذا البيت بتدبير إلهي استراحت فيه بعد عناء ومشقة الترحال، فمكثـت فيه فترة من الزمان في هدوء واطمئنان في بساطة العيش وتواضع الحال مُدبّرة قُوتها الضروري بعناية إلهية وازداد ماء البئر بوفرة وصار صالحاً عذباً للشرب بالرغم من جفافه مدة طويلة، كمـا قـام يوسف النجـار بعمل إصلاحات في مبنى البيت، وكـان في أعـلاه غرفـة عُلويـة مكثـت فيهـا السـيدة العـذراء مـع ابنهـا الحبيب، وكانت توجد في ذلك الزمان مغارة في الجبل قرب هذا البيت تذهب إليها السـيدة العـذراء مـع طفلها الحبيب أحياناً (أقرب مغارة معروفة حالياً تبعد عن الدير بخمسـة كيلومـترات والـتي توحّـد فيهـا البطريرك الأنبا متاؤس الأول ١٣٧٨–١٤٠٨ م) عندما كان مقيماً بالدير قبل أن يصير بطريركاً، وتسـتطرد القصة أن في ذلك الحين وصل إليهم رجلاً يُدعى يوسى من سبط يهوذا (ومن المرجح أن يكـون ابـن أخـي يوسـف) هـذا الرجـل قـد سمـع أن هـيرودس قـد أرسـل عشـرة مـن جنـوده للبحـث عـن

الطفل يسوع في مصر، بإرشاد إلهي هبّ هذا الرجل مسرعاً إلى مصر لتحذير العائلة المقدسة بذلك، فلما وصل إلى قُسقام بعد عناء ومشقة بطريقة خارقه أخبرهم بما أمر به **هيرودس**، فانزعجت العذراء كثيراً كما اضطرب كل من **يوسف وسالومي**، إلا أن الرب الإله طمأنهم بأنه لن يحدث مكروه لهم، فانتهت مهمة **يوسى** بهذا ورقد في الرب ودفنه **يوسف النجار** عند مدخل عتبة البيت (وقد توارث بعد ذلك الرهبان جيلا بعد جيل إن مكان قبر يوسي بالجهة الغربية القبلية للكنيسة الأثرية).

وظلّت العائلة المقدسة في هذا البيت واستراحت فيه إلى أن مات **هيرودس** وظهر ملاك الرب **ليوسف النجار** في حلم قائلاً:

> قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي (متى ٢: ١٩-٢٠).

وحسب الشواهد الموجودة في كتب الكنيسة القبطية أن العائلة المقدسة عاشت على جبل قُسقام من سابع يوم من الشهر القبطي برمودة، وتعادل يوم ٢ إبريل إلى سادس يوم في الشهر القبطي بابَه الموافق يوم الأربعاء ٣ أكتوبر، أي مكثوا ١٨٥ يوماً في السنة التي مات فيها **هيرودس**.

لايوجد خلاف على أن العائلة المقدسة قد رجعت لاسرائيل في سنة وفاة **هيرودس**، لكن إذا أردنا **أن** نطابق العهد المسيحى حسب الوقائع التاريخية، فإننا نجد ثمة خلاف تاريخى لأنه من الثابت أن هيرودس قد مات عام ٤ قبل الميلاد أى أنه قد مات قبل ميلاد المسيح بأربع سنوات جاء هذا التناقض نتيجة لان العهد المسيحى اُحتسب بعد ٥٠٠ سنة من ميلاد المسيح والذى وضعه **ديونيسيوس السكيثى** "Dionysius Exigius" حوالى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد لإنهاء خلاف طويل عن الكيفية الصحيحة لإحتساب تاريخ عيد الفصح، وقد بنى حجته على أساس أنه يجب أن يكون للعالم المسيحى تاريخ محدد لبدء هذا العهد حيث سادت المسيحية معظم الامبراطورية الرومانية.

فالتقويم العبرى احتسب من أول خلق آدم، وتقويم العهد السكندرى تم احتسابه بإنشاء مدينة الاسكندرية، أما تقويم العهد الرومانى فقد حُسِب منذ تأسيس مدينة روما (**المعروفة ب** .Anno Urbis Conditae, AUC). وقد استخدم **ديونيسيوس** التعبير قبل الميلاد (B.C) لتحديد الاحداث التي حدثت قبل ميلاد السيد المسيح، والتعبير Anno Domini (A.D) ـ سنة الرب ـ محدداً تاريخ ميلاد المسيح؛ لذا فإن عام واحد ميلادى كان من المفترض أن يكون نفس السنة التي وُلد فيها المسيح، أو ما يقابلها سنة ٧٥٤ (AUC) حسب التقويم الرومانى، وبطريقة **أو** بأخرى احتسب **ديونيسيوس** أن ميلاد المسيح حدث في سنة ٧٥٣ (AUC) حسب التقويم الرومانى لكن أنجيل متى يقول أن ميلاد المسيح تم في وقت ما قبل وفاة **هيرودس** الذي توفى في سنة ٧٥٠ (AUC).وقد شكك

القديس **بيــد الانجليزى** St. Bede في هذا التقويم في القرن الثامن، ورفضه رفضاً بــاتــاً في آخــر القرن التاســع [٨] الراهب الألمانـــي **ريجينو ديبروم** "Regino di Prum"، كما توجد أدلة أخرى تدل على أن السيد المسيح وُلد قبل موت **هيرودس الأكبر** في سنة ٧٥٠ حسب التقويم الروماني ببضع سنوات حيث أن أغسطس قيصر قرر عمل تعداد عام في ٧٤٥ بالتقويم الروماني، حيث كان يرغب في فرض ضرائب على العالم وحسب **إنجيل لوقا**:

> وفي تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سوريه فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته – فصعد يوسف أيضا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود والتي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حُبلى (لوقا ٢: ١-٥)

وليس لدينا علم بالمدة التي استغرقها هذا التعداد أو أي مُدد أخرى تبعت ذلــك – كما لا نعلم المدة التي مكثتها العائلــة المقدســة بمصر، لكن تدل الشواهد على أن السيد المسيح وُلد ما بـين سـنة ٩ ق.م. وسنة ٤ ق.م. حسب تقويم **ديونيسيوس** أي تاريخ موت **هيرودس**.

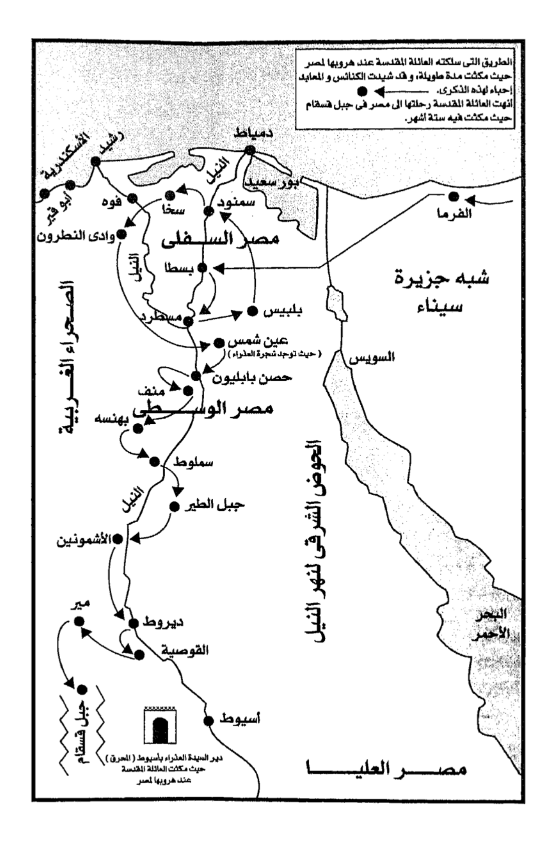
وبالرغم من ذلك لم تُصحح الكنيسة هذا الخطأ بإضافة سنوات الفرق نظراً لأن العالم كله كان يؤرخ بهذا التاريخ منذ القرن السادس الميلادي، واتفقوا على أن كل ما حدث سنة واحد ميلادية حسب التقويم الديونيسي يسمى قبل الميلاد وكل ما حدث بعد التقويم يسمى ميلاديا، هكذا يكون السيد المسيح لم يُولد سنة واحد ميلادية بالتقويم الديونيسي السائد حتى الآن.

وبناء على هذا القرار تهربّت الكنيسة من المشكلة لذلك ظل التقويم الخاطيء لديونيسيوس قائماً حتى هذا اليوم. شُيّد الدير المحرق في القرن الرابع الميلادي على جبل قسقام الذي كان غير آهل بالسكان فيما عدا الكنيسة الصغيرة الفقيرة التي تحولت عن المنزل المهجور الذي عاشت به العائلة المقدسة، ونظرا لبُعدها عن أي مكان آخر، فقد قام قليل من المسيحيين المخلصين ببنـاء منازلهم الطينية حول الكنيسة ليكون باستطاعتهم القيام بالطقوس المسيحية دون خوف من الاضطهاد. وكذلك أقامت الكنيسة القليل من البيوت الطينية لحماية الفقراء والمحتاجين أو أولئك الذين يبحثون عن حياة العزلة والتأمل.

سُميت هذه الكنيسة كنيسة العذراء، والمعتقد أنها أول كنيسة مسيحية بُنيت في مصر العليا ثم أصبحت النواة التي أقيم من حولها دير المحرق العظيم، هذا ويمكن أن يملأ تاريخ هذا الدير وتوسعه والمعجزات التي يشتهر حدوثها بين جدرانه العديد من المجلدات، ولكن يكفي القول أنه أصبح مكانا للتعليم والتأمل والزيارة حتى يومنا هذا.

---

[٨] دائرة المعارف البريطانية: العصر المسيحي.


الطريق التى سلكته العائلة المقدسة عند هروبها لمصر حيث مكثت مدة طويلة، و قد شيدت الكنائس و المعابد إحياء لهذه الذكرى.
أنهت العائلة المقدسة رحلتها الى مصر فى جبل قسقام حيث مكثت فيه ستة أشهر.
دمياط
رشيد
الأسكندرية
أبو قير
النيل
بور سعيد
فوه
سخا
سمنود
الفرما
وادى النطرون
مصر السفلى
بسطا
شبه جزيرة سيناء
الصحراء الغربية
بلبيس
مسطرد
عين شمس
(حيث توجد شجرة العذراء)
السويس
حصن بابليون
منف
مصر الوسطى
بهنسه
سملوط
جبل الطير
الأشمونين
الحوض الشرقى لنهر النيل
البحر الأحمر
مير
ديروط
القوصية
جبل قسقام
أسيوط
دير السيدة العذراء بأسيوط (المحرق) حيث مكثت العائلة المقدسة عند هروبها لمصر
مصر العليا

دخول المسيحية مصر

لم تتغيّر الديانة في مصر كثيراً خلال الأربعة آلاف سنة السابقة على المسيحية. إذ أنه على الرغم من بقائها كما هي من الناحية الأساسية إلا أنها استوعبت القليل من المستعمرين الغزاة.

جاءت المسيحية إلى مصر منذ الزيارة الأولى التي قام بهـا القديس **بطرس** مصاحباً القديس **مرقس** مؤسس الكنيسة في مصر، وهي الزيارة التي قام بها القديسان معاً إلى بابل في مصر[٩] - حيث ورد بالإصحاح الخامس عدد ١٣ من رسالة بطرس الرسول الأولى :

" تسلم عليكم التي في بابل المختارة معكم **ومرقس** ابني ".

أقبل المصريون بسهولة على المسيحية حتى أنه بحلول القرن الرابع الميلادي كان معظم سكان مصر يعتنقون الدين المسيحى، وظل هؤلاء المسيحيون محافظين على عقيدتهم بالرغم من استشهاد بعضهم في ظل الحكم الوحشي للإمبراطور الروماني **ديوكليتيان**، واستمر الاستشهاد من عام ٢٨٤م حتى تولى قسطنطين العرش في عام ٣٢٤م واعتنق المسيحية، وبذلك وضع نهاية للاستشهاد وأراح المصريين من عذاب الاضطهاد.

خلال هذه الفترة بدأ القديس **انطونيوس** المصري (حوالي سنة ٢٥١م) - وهو تلميذ بولس الذي كان يعيش في طيبة - ممارسة حياة النُسك، وعندما بلغ العشرين من عمره انعزل تماماً بجبل قرب النيل في مصر الوسطى حيث عاش عشرين عاما. وبنهاية الاستشهاد بمصر انتقل القديس **أنطونيوس** إلى جبل آخر في الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر حيث يوجد دير مُسمى باسمه "**دير مار أنطونيوس**" الذي لا يزال موجوداً حتى الآن.

دفعت الصراعات والتجارب الروحية التي كان يرتئيها القديس **أنطونيوس** إلى حث أتباعه من الرهبان الأوائل إلى الصوم، وأداء ممارسات النسك معتبرين أنفسهم طليعة جيش الله، ويعتبر القديس أنطونيوس الأب المدبّر والراعي للرهبنة المسيحية، وذلك بالنظر إلى القواعد التي تنسب إليه في هذا المجال ومازال يطبقها بعض الرهبان الأقباط والأرمن، ولقد كانت صلابة القديس **أنطونيوس** شديدة التأثير لدرجة أدت إلى استخدام تجاربه كثيراً في الكتابات والفنون خاصة في صور "**هيرونيموس بوش**" و"**ماتياس جرونوالد**" و"**ماكس أرنست**"، فبلغت شعبيته كقديس أوجها في العصور الوسطى، وتأسس نظام الرهبنة المعروف باسم (Hospitalers) للقديس **أنطونيوس** في لاموت (حوالي عام ١١٠٠).

---

[٩] بابل كانت أصلا قلعة بناها الرومان حوالي عام ١٠٠ ميلادية والتي أصبحت واحدة من سلسلة المستوطنات العسكرية التي تطورت بمرور الزمن فأصبحت مدينة القاهرة ولا علاقة لها ببابل المذكورة في العهد القديم أو حدائق بابل المعلّقة بجنوب ميسوبوتاميا (شمال العراق).

في عام ٣٨٩ صدر مرسوم الامبراطور الروماني **ثيودوسيوس** معلناً المسيحية ديناً للدولة الرومانية بكل مقاطعاتها شاملة مصر، ويأمر بغلق المعابد القديمة، فكانت هذه هي النهاية التامة للعصر الوثني.

عند زيارة القديس مرقص لمصر كانت مصر ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية وظلت كذلك حتى وفاة الإمبراطور" **ثيودوسيوس**" (عام ٣٩٥م)، عندما قُسمّت الإمبراطورية بين ولديه، **أركاديوس وهونوريوس**. وبذلك أصبحت مصر تابعة للجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية يحكمها **أركاديوس** وعُرفت منذ ذلك الحين بالإمبراطورية البيزنطية، وحتى حكم **ثيودوسيوس** كان بطريرك أو بابا الاسكندرية هو عميد الكنيسة المسيحية العالمية المُعترف به. أما **هونوريوس** فأختص بالجزء المعروف باسم الامبراطورية الرومانية.

وعندما اعتنق المصريون المسيحية تركوا معظم المعتقدات القديمة، وبدءوا في استخدام حروف الهجاء اليونانية والفنون البيزنطية، ودفعوا أنفسهم بحماس في صراعات دينية أدت إلى الكثير من الانشقاق في الشرق.

كانت روما تبدي بعض الغيرة من وضع الاسكندرية لأسباب عديدة، منها أن المنشور البابوي الذي يُحدد سنوياً تاريخ عيد القيامة كانت تصدره الاسكندرية، فلم يكن هناك استقرار رسمي للأولوية في القرنين الأولين، وكانت كراسي الأسقفية الخمسة ذات المرتبة الأولى وهى الاسكندرية، روما، أنطاكيا، اورشليم (القدس)، والقيصرية – وكانت كنيسة الاسكندرية تعتبر الأولى بين هذه الكنائس عامة بينما كانت أورشليم توضع في المرتبة الثانية بمقتضى القانون الكنسي لنقية "NICEA".

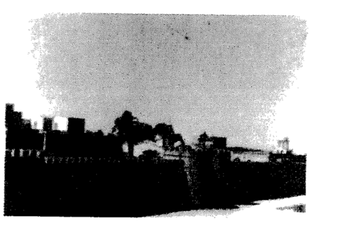
عندما أصبح قسطنطين مسيحياً أصبحت بطريركية روما فجأة في مصاف البطريركيات السابقة، وفي المجلس المسكوني لنقية (عام ٣٢٥م) وجهت الضربة الأولى لهيبة كنيسة الاسكندرية عندما اتخذ التقويم الغربي أساساً لتحديد عيد القيامة.

وفي مجمع القسطنطينيه سنة ٣٨١م وافق الامبراطور البيزنطي **ثيودوسيوس** مع روما على إعطاء روما الأولوية، تليها القسطنطينيه وأصبحت الاسكندرية في المرتبة الثالثة في الترتيب مما حدَا **بتيموثاوس** بابا الاسكندرية في ذلك الوقت أن يترك المجمع ساخطاً ويسحب أساقفته إلى مصر.

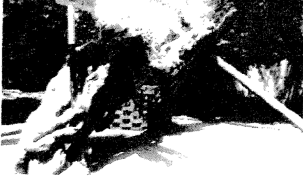
لم تؤد هذه النزاعات إلى اختلاف دائم، فقد بقيت الاسقفيات الخمس للكنيسة كما هي لقرن آخر، ولكن كنيسة الاسكندرية ظلت تقاوم بدع روما وادعاءاتها حتى كانت الكنيسة المصرية من وجهة النظر الغربية الكنيسة الأولى التي تنعزل عن الوحدة المسيحية.



الكنيسة المعلقة . يرجع تاريخها الى اواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، وقد سميت بالكنيسة المعلقة لانها بنيت على قمة البوابة الجنوبية لحصن نابليون



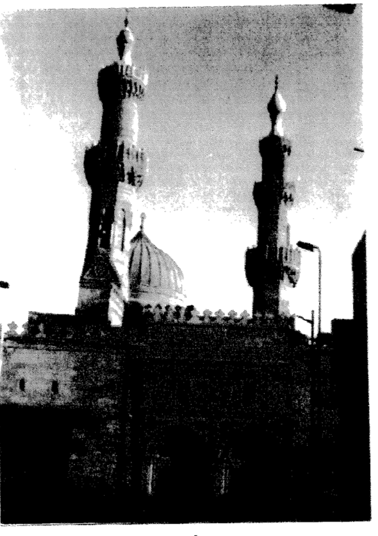
دير المحرق على جبل قسقام، المكان الذى أقامت فيه العائلة المقدسة ومكثت فيه ستة أشهر



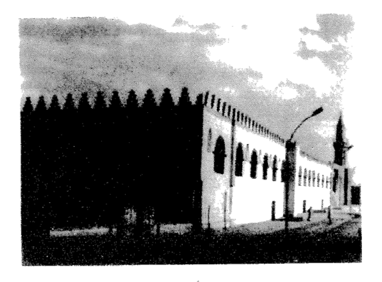
شجرة العذراء مريم . تحت هذه الشجرة جلست العذراء مريم مع ابنها يسوع المسيح لتستريح عند وصولها الى مصر.



كنيسة السيدة العذراء فى دير المحرق.



مآذن جامع الازهر



جامع عمرو بن العاص . أول جامع بني في مصر



جامع محمد علي . القلعة

كان المصريون القدماء يحبون المجادلة في أمور تافهة، وقد ورث آباء الكنيسة المصرية هذه العادة كما يظهر في كتاباتهم، حتى القديس **انطونيوس** اعترض هو نفسه على ضعف المصريين حيث قال إن الشياطين التي تتملك الإنسان هي التي تأتي بالفتن والمشاحنات. على أن القشة التي قصمت ظهر البعير والتي تسببت في انعزال الكنيسة القبطية عن باقي الكنائس المسيحية حدثت في المجلس المسكوني الذي عقد في خلقيدون عام ٤٥١م والتي كانت بلا شك خلافات سياسية أكثر من كونها خلافات دينية.

كان الاتهام بالهرطقة في ذلك العصر هو السلاح الوحيد الكافي الذي كان يمكن استخدامه لمحاولة سحق بابا مصر، ولكن حتى ذلك لم ينجح أيضا، فلم يتم سحق ديوسقوروس بطريرك الاسكندرية الذي رفض الخضوع لليونانيين أو لبابا روما وقطع كل علاقاته بأوروبا. ويُعرف الخلاف على أنه **هرطقة الطبيعة الواحدة**، وهو نزاع ذو أساس تافه، لأنه ناشئ عن مجرد خلاف في معانى وتركيب الكلمات، "في" و"عن".

ويبدو أن روما استخدمت هذه العملية بأكملها من دلالات الألفاظ كسلاح لتسحق نهائيا ادعاءات الاسكندرية وليس رغبة في تطهير العقيدة المسيحية من الخطأ. فقد أعدها **مارسيان** Marcian (رفيق الإمبراطورة **بولشيريا** Pulcheria) ذريعة ليس فقط لعزل البطريرك ولكن أيضا لمصادرة ممتلكات الكنيسة.

إلا أن الأقباط ظلوا موالين لبطريركهم الفعلي، وتجاهلوا سلطة البطريرك الذي عينّه الإمبراطور، والذي رسمه أربعة أساقفة كانوا قد تركوا **ديوسقوروس**، وكونت هذه الأقلية الصغيرة ما يعرف باسم كنيسة الملكيت التي تمثل بيزنطة والمعارضة للكنيسة القبطية التي تمثل وجهة النظر المصرية والتي تعرضت بعد ذلك لموجات من الاضطهاد على يد البيزنطيين.

حاول **هرقل** Heraclius في القرن السابع أن يوفق بين الفريقين المتنازعين، ولكن الكنيسة القبطية لم تلق بالاً إلى هذه المحاولة، فقد أصبحت العقيدة التي كانت سبباً في اضطهادهم رمزاً لأكثر نداءاتهم تمسكاً، وأصبح البطريرك بالنسبة لهم أكثر من رئيس ديني، فاعتبروه كملك للارض التي ولدوا بها.

عندئذ أرسل هرقل رجلا يدعى **سيروس** Cyrus (**المقوقس**) ليرأس حكومة مصر وبطريركية كنيسة الملكيت وفي نفس الوقت نائباً عنه في الأمور المدنية، ولكن لم يوجد مصري واحد يعترف بسلطة أجنبي خلاف البطريرك ولا أن يحارب من أجل السادة البيزنطيين ضد المسلمين بقيادة **عمرو بن العاص**، ولما رأى **سيروس** أنه غير قادر على تعبئة البلاد ضد عمرو بن العاص وضع شروطاً للهرب إلى بيزنطة تاركاً مصر مفتوحة أمام الفتح العربى.

دخول الاسلام إلى مصر

وفق ما كتبه س.هـ. ليدر بكتابه "أبناء الفراعنة المحدثين" أصبحت مصر في العصر البيزنطي قليلة السكان نتيجة قبضة الرهبنة التي سيطرت على البلاد "ففي سوهاج وحدها كان هناك عشرة آلاف راهب وعشرون ألف راهبة، كما كان القديس **أبا ثور** يسيطر على ألف راهب في ديره بالصحراء، لكن إحدى المدن الكبيرة بمنطقة طيبة غطّت على هذا الدير، حيث يُقدر ما كان يوجد بها بما لا يقل عن عشرة آلاف راهب وعشرين ألف راهبة، ورغم ذلك كانت لا تزال بعيدة عن ذروتها".

هكذا كانت مصر ضعيفة بقلة سكانها وبالاضطهاد الذى تعرضت له من البيزنطيين، مما جعل من السهل للعرب أن يدخلوها ومما شجع بعد ذلك على وجود تيار كبير من الهجرة من جزيرة العرب إلى مصر التي ظلت لسنوات عديدة محتفظة بارضها الخصبة الغنية بفضل النيل الذى يرويها بمائه مانعاً عنها الجفاف.

ولا شك أنه في الأيام الأولى للفتح كان التحول إلى الإسلام كثيراً جداً، وعندما ينظر الإنسان إلى هذا الأمر بشكل عام يتضح له أن هذا الامتزاج بالعرب قد صنع من كل شعب مصر أمة واحدة متقاربة من ناحية المظهر العرقي كما هي من ناحية الطباع والعادات.

وقد ذكر جدي (أبو والدتي) الدكتور **أخنوخ فانوس** (١٩١٢) وهو رجل مُثقف وخطيب عظيم حيث أعلن لجمع كبير من زملائه المسيحيين في أسيوط أن الأقباط والمسلمين "كانوا بالفعل منقسمين لكنهم في الواقع شعب واحد متحد، الخلاف الوحيد بينهم هو خلاف العقيدة، ومن هذا المنطلق لا يمكن اعتبارهما عُنصرين مُنفصلين ومهما يمكن أن يطلق عليهم، فالمسلمون والأقباط هما السلالة الحقيقية لمصر الكائنة منذ سبعة آلاف سنة".

العرب والأكراد

عام ٧٠٦ م تاريخ يجب أن يكون محفوراً في ذهن كل مصري، ذلك أن الوالي عبد الله بن المالك قد أصدر مرسوماً يقضي باستخدام اللغة العربية بدلاً من القبطية بكل المستندات الرسمية، فقد كان المصريون يتكلمون لغة واحدة طوال أربعة آلاف سنة من التاريخ المسجل، وبجرة قلم استطاع هذا الوالي العربي أن يحقق ما لم يتمكن من إنجازه الفرس أو اليونانيون أو الرومان.



جامعة الأزهر الشريف

مسجد أحمد بن طولون

في عام ٦٤٢م قام العرب بفتح مصر، وساعدهم المصريون لأنهم كانوا يرغبون في التخلص من نير البيزنطيين الذين كانوا يضطهدونهم بشكل مستمر لولائهم لبطريرك الاسكندرية، وفي البداية لم يعترض المصريون على العرب، حيث تمكنت عقيدة التوحيد عند العرب الذين لم يزعجهم الكهنة ولا صراعاتهم المتعلقة بآراء لا يفهمها العامة من اجتذاب الإنسان المصري العادي.

كان العرب جنوداً أقوياء وفي نفس الوقت يتمتعون بميزة أخرى أنهم متقشفون في طريقة معيشتهم، كان طعامهم أبسط طعام، ومضاجعهم أقل مضاجع، وكانوا يزدرون ترف الحاكم المصري، وقد وصف **عمرو بن العاص** شعب مصر للخليفة **عمر بن الخطاب** "أرضها ذهب، شعبها حملان وهي ملك لمن تكون له قوة كافية لأخذها" إلا انه كان مذهولاً لثراء الاسكندرية وعظمتها، وكتب إلى الخليفة شارحاً ما وجده بمصر بعبارات بها شيء من المبالغة وإن كان قد تحدث كثيراً عن الحمامات والحوانيت، إلا أنه لم يكتب شيئاً عن الكتب أو الأعمال الفنية التي كانت تزين المدينة. والواقع أنه بمجرد أن أصبحت اللغة العربية لغة البلاد وبمجرد أن بدأ العرب التزاوج مع المصريين الذين تحولوا إلى الإسلام؛ امتصتهم مصر وصهرهم النيل.

لقد كان الفلاح والعامل المصري يعيشان حياة بسيطة، ولم يكن بمقدور العرب أن يغيروا من مصر، لذلك بقي الفلاح المصري كما هو، لكنه أصبح يتحدث العربية بدلاً من القبطية فاختفت اللغة اليونانية[١٠]، وما تبقى من اللغة القبطية انحسر في الطقوس الدينية للكنيسة القبطية، ولكن ما تبقى من الحكمة والثقافة والحضارة الفرعونية تأصل في ضمير الشعب المصرى ولم يمح أو يستأصل أبداً بمرور الزمن ولكنه تسرب وتخلل وامتزج بالعادات والتقاليد والشعائر التي سايرتهم في حياتهم.

ومن الأقوال المأثورة عن عمرو بن العاص قوله في جيشه "حدثني عمر- أمير المؤمنين- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لكم فيها صهراً وذمه، فكفوا أيديكم، وعفوا فروجكم، وغضوا أبصاركم" [١١].

وقد بذل الفاتحون في البداية قصارى جهدهم لإطاعة هذه الوصية فلقد كانوا طبقة عسكرية مغلقة على نفسها ممنوعة من شراء أراض خارج شبه الجزيرة العربية، وكانوا يعيشون في معسكراتهم الخاصة منفصلين عن شعب مصر، وفي نفس الوقت حتى الذين تحولوا إلى الإسلام لم يكن مسموحاً لهم بالوصول

---

[١٠] مصر الحديثة تأليف توم ليتل.

[١١] حسين فوزى سندباد مصرى ص ١٣٥.

إلى هذه الطبقة المنغلقة على ذاتها بالرغم من استفادتهم من الإعفاء من دفع الجزية، كذلك المواطنون الذين احتفظوا بدياناتهم سواء كانت اليهودية أو المسيحية نالوا نوعاً من الحكم الذاتي برئاسة قادتهم بصفتهم من أهل الكتاب، ولكنهم كانوا محرومين من حق الحرب وشرفه بجانب العرب في الجيش وبدلاً من ذلك كان عليهم أن يدفعوا الضريبة المفروضة وهى الجزية.

استمر حكم العرب لمصر لمدة خمسمائة عام، وكانوا يحكمونها من العواصم العربية المختلفة، من دمشق في العصر الأموي، ومن بغداد في العصر العباسي، ثم حكمها الفاطميون والأيوبيون بقيادة **صلاح الدين**، ثم المماليك وهم طبقة عسكرية عبارة عن خليط من الأتراك والمغول وسلالة **الجراكسة** من العبيد الذين كانوا مرتزقة **لصلاح الدين**، وكلهم كانوا يحكمون من القاهرة. ثم حكم المماليك مصر ثلاثمائة عام أخرى بشكل غير مباشر تحت ولاية الأتراك الذين غزوا مصر عام ١٥١٧م، وظلت مصر لفترات طويلة وحتى حكم محمد علي في القرن التاسع عشر إما مقاطعة خاضعة أو ولاية رئيسية ضمن امبراطورية اسلامية متقلبة.

لكن الواضح أنه منذ فتح العرب لمصر عام ٦٤٢م وحتى قيام الثورة في عام ١٩٥٢م لم يحكم مصر مواطن من أصل مصري.

لقد رحب المصريون بالعرب لمعاونتهم في التخلص من حكم أجنبي بغيض، ولكنهم في نفس الوقت وضعوا أنفسهم تحت رحمة حكام من كل جوانب العالم الإسلامي – حكام أتوا إما للتحول الديني أو للبناء أو للفلسفة أو لصنع السلام، مما نتج عنه أن جميع المصريين سواء منهم المسلمون أم المسيحيون فقدوا كل السمات التي تميزهم كدولة حتى حصلوا على الاستقلال ولكن رغم ذلك لم يفقد المصري أبداً وعيه "بالانعزال" عن الآخرين ولا بصفته الشخصية فقد كان بمقدوره أن يُميز على الأقل بين الظالم والمظلوم.

شعر المصري العادي سواء كان قبطياً أم مسلماً على مدى قرون عديدة أنه ضحية حكامه سواء كان هذا الحاكم هو الباشا أم الخديوي أم المملوك أم التركي، بل كان ضحية لأولئك المرتبطين بهؤلاء الحكام: جابي الجزية من الأقباط، والموظف الحكومي الذي يُؤدي وظيفته أو يستغلها، والمُقرض المحلي إن كان يونانياً أو يهودياً. وقاوم الفرنسيين والبريطانيين على حد سواء المستشارين منهم أو الغزاة، بل كان يقاوم كل أجنبي يتمتع بامتيازات غير متاحة له.

" فإذا كانوا ينحازون إلى جانب ضد الآخر في أي وقت فقد كان ذلك فقط بغرض التخلص من أولهما في أقرب وقت ممكن " لقد كان طريق مصر تحت حكم مختلف الحكام بدءاً من القرن التاسع وحتى القرن

التاسع عشر إيجابياً أحياناً وسلبياً غالباً، ذلك لأن الخلاص من الظلم بالنسبة للمواطن المصري كان دائماً قصير الأجل في حين كان الإهمال والاضطهاد طويلاً دائماً.

" كان **أحمد بن طولون** نائب العباسيين الذي استولى على حكم مصر بنفسه رجلاً يتميز ببعض الرفعة في الأخلاق، وإذ كان يرعى المعرفة والتعليم، ويشتهر بعدله بين الناس، إلا أن سياساته كانت مبالغة بشكل ضار بالبلاد حتى أنها أدت إلى قيام خصي حبشي مجنون بحكم مصر اسمه كافور الخصي" [١٢].

ظلّت مياه النيل مُنخفضة لسنوات عديدة، فأهملت الزراعة، وعمّ الجوع والمرض أنحاء البلاد وكان يجلس على العرش طفل في الحادية عشرة من عمره يدعى **أحمد الإخشيد**، وكان فريسة سهلة للعرب الفاطميين الذين أتوا من الغرب، وبكل بساطة دخلوا إلى البلاد واستولوا على الفسطاط عام ٩٦٨-٩٦٩م.

لم تبدر من المصريين أي مقاومة، ونظر المسيحيون إلى الفاتحين بارتياح آملين في أي تغيير للحكام، أما الأتراك والعرب الذين كانوا يعانون بشدة من حكم الحبشي المجنون فقد رحبوا بالقائد اليوناني الذي يُسمى **جوهر الصقلي** الذي نشأ على الإيمان بالإسلام كممثل للخليفة **المُعزّ لدين ا لله**، وفي عام ٩٧١ ارتفع منسوب الماء في النيل مرة أخرى حتى وصل إلى أعلى مستوى، فاعتبره المصريون بادرة خير من ا لله بقبول العهد الجديد.

كانت توجد على الضفة الشرقية من النيل في ذلك الوقت ثلاث مدن منفصلة عن بعضها البعض، وإن كانت متجاوره. فإلى الجنوب كانت تقع بابل " التي بها حصن بابليون حالياً بمصر القديمة " التي يسكنها في الغالب مسيحيون ويعتبرها العالم الغربي عاصمة مصر، ثم أتت بعدها مدينة العرب الفسطاط التي بناها عمرو وأتباعه، وإلى الشمال والشرق كانت تقع مدينة القطائع التي أسسها ابن طولون التي تبعد قليلاً عن النيل وتقترب من جبل المقطم، وهاتان المدينتان عرفتا باسم مصر العسكر.

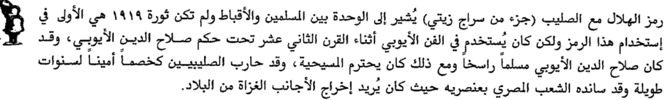
كلمة "مصر" وحدها تُعبِّر عن دولة مصر التي تقابلها بالإنجليزية EGYPT ولكنها بشكل أو آخر كانت تُعبر عن هاتين المدينتين الإسلاميتين معاً، وعندما كان الخليفة **المُعز** يودع القائد **جوهر** التفت إلى الشيوخ الذين بصحبة البعثة وقال "بسم ا لله إذا كان لجوهر أن يسير بمفرده فإنه يستطيع أن يغزو مصر، سوف تدخلون الفسطاط بملابسكم العادية، لستم في حاجة إلى معارك مع سكانها، سوف تسكنون القصر المهجور لأطفال **طولون**، ولكنكم ستؤسسون مدينة جديدة تسمونها القاهرة (المنتصرة) التي يخضع لها كل العالم" [١٣]

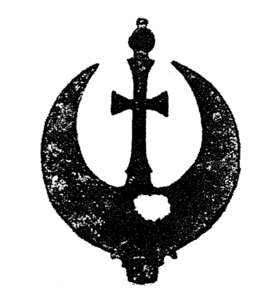
---

[١٢] مصر الحديثة تأليف توم ليتل – صفحة ٢٣.

[١٣] مصر الحديثة تأليف توم ليتل – صفحة ٢٣.

سراج أيوبي يرجع إلى القرن الثاني عشر في عهد صلاح الدين الأيوبي والصليبيين وهو يُشير إلى الوحـدة بين المسيحيين والمسلمين في البلاد. وكان هذا يرمز إلى تنوير الذهن.





رمز الهلال مع الصليب (جزء من سراج زيتي) يُشير إلى الوحدة بين المسلمين والأقباط ولم تكن ثورة ١٩١٩ هي الأولى في إستخدام هذا الرمز ولكن كان يُستخدم في الفن الأيوبي أثناء القرن الثاني عشر تحت حكم صـلاح الديـن الأيوبـي، وقـد كان صلاح الدين الأيوبي مسلماً راسخاً ومع ذلك كان يحترم المسيحية، وقد حارب الصليبيـين كخصمـاً أميناً لسـنوات طويلة وقد سانده الشعب المصري بعنصريه حيث كان يُريد إخراج الأجانب الغزاة من البلاد.

ما أن نفذ **جوهر** الجزء الأول من برنامجه لم يضيع وقته في تنفيذ الجزء الثاني، وُوضعت أساسات المدينة الجديدة – نواة القاهرة الحالية – في عام ٩٧٠م وكان لابد من بناء مسجد جديد يتفوق في بهائه وقدسيته على المساجد العظيمة القائمة بالمدن القديمة التي بناها **عمرو** وابن **طولون** وفي نفس السنة أي عام ٩٧٣م التي جاء فيها الخليفة **المعز** لحكم القاهرة تأسس الجامع الأزهر الذي لا يزال أهم جامعة في العالم الإسلامي حتى الآن، وأحضر **المعز** معه كنوزاً عظيمة، وغنائم من مختلف البلاد التي قام بغزوها.

أصبحت العاصمة مقسمة إلى أربعة أقسام (بابل والفسطاط والقطائع والقاهرة) وإن كانت للأغراض الاستراتيجية قد أصبحت قسمين: فإلى الجنوب توجد بابل والفسطاط، وإلى الشمال توجد القطائع والقاهرة ويفصلها مسافة صحراوية بينهما كانت في يوم من الأيام مأهولة بالمنازل والحدائق.

وفي عام ١١٦٨م في نهاية حكم الدولة الفاطمية ونهاية حكم العرب "اشتعلت النار بأماكن عديدة في بابل لدرجة أن المدينة بدت مشتعلة بكاملها " [١٤] وكانت البلاد لسنوات تمر بفترة من الانحدار، فقد أدت الضرائب التي فرضها الحكام المسرفون بالإضافة إلى عمليات الابتزاز من قواتهم إلى سحق الشعب لدرجة أدّت إلى توقف الآلاف الذين أصابهم اليأس عن بذل الجهد في فلاحة الأرض، وانتهى عصر الحكم العربي كما بدأ بالجوع والفقر بالنسبة للمسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء" [١٥].

كان أهل الكتاب "المسيحيون واليهود" يتعرضون خلال حكم السلطان **المؤيد شيخ** – من مماليك الجراكسة صاحب مسجد من أجمل مساجد القاهرة بداخل باب زويلة – لكل أنواع الاحتقار والاضطهاد، وكان من بين أنواع الاضطهاد وفقاً لما يذكره المؤرخ المسلم المقريزي " إجبار المسيحيين على ارتداء ملابس مختلفة ونطاق حول أردافهم، بل أن هذا السلطان أجبرهم أيضاً على لبس صليب خشبي يزن خمسة أرطال ومنعهم من ركوب الخيل، ولكنه سمّح لهم بركوب البغال والحمير بسروج وألجمة مصنوعة من جلد أسود غير مزينة بالذهب أو الفضة، كما صدرت لهم الأوامر أن يكون غطاء الرأس أسود اللون، وأن يلبس اليهودي حول رقبته خارج ردائه قطعة مستديرة من الخشب تزن خمسة أرطال " [١٦].

عادت بعض الكفاءة في التحكم في نهر النيل والبلاد في ظل الحكم الأيوبي تحت قيادة **صلاح الدين** في عام ١١٦٩، ولكن معظم فترات حكمه قُضيت في الحروب، وفي عام ١١٧٤ استبدل اسمه بدلاً من اسم

---

[١٤] قصة كنيسة مصر تأليف ئي . إل . بوتشر، الجزء ٢، صفحة ٩٧.

[١٥] مصر الحديثة تأليف توم لتيل، صفحة ٢٤.

[١٦] قصة كنيسة مصر تأليف ئي _ الأ بونشر، الجزء ٢، صفحة ٢٦ وسندباد مصرى – حسين فوزى ص ٣٧٦.

الخليفة العباسي في بغداد في الصلوات العامة، وبذلك أعلن نفسه عاهلاً مستقلاً لسوريا ومصر وجزء من آسيا الصغرى، وكانت إحدى مهامه الأولى حماية مصر ضد الهجمات، كما وضع الخطة الطموحة لإعادة تحصين القاهرة موضع التنفيذ، فأمر ببناء قلعة كبيرة – تسمى القلعة– على هضبة جبل المقطم تطل على السهل المهجور بين الفسطاط والقاهرة لتكون بمثابة حصن عسكري قوي، وفي نفس الوقت سكن ملكي، واحتل موقعها المركزي المدينتين السابقتين اللتين كانتا مرتبطتين بهذه القلعة الجديدة بعدد من الأسوار، وقد بدأ هذا العمل في عام ١١٧٦ م وانتهى في عام ١١٨٦ م وكان أحد أحلامه وأكثرها تعلقاً في ذهنه هو الخلاص من الصليبيين وإخراجهم من الشرق الأوسط.

على أن **صلاح الدين** لم يكن مجرد حاكم كالحكام الآخرين، بل كان رجلاً له رؤية ترفعه فوق الطموحات العادية لعصره، وقد وضع لنفسه مبدءاً هو تركيز حياته على معتقدات الإسلام، وحتى في العصر الذي كانت فيه الخيانة هي القاعدة لم يخرق **صلاح الدين** أي اتفاقية هدنة مع أعدائه سواء كانوا من المسلمين أم المسيحيين، وفوق كل هذا كانت قوة شخصية **صلاح الدين** أكثر من حجم جيشه، والتي صهرت في النهاية مصر وسوريا في إمبراطورية موّحدة. وأخيرا مات صلاح الدين عام ١١٩٣م تاركاً ستة عشر ابنا اقتسموا الإمبراطورية العظيمة بشكل غير متساو بين أنفسهم، مما نتج عنه الصراعات والحروب الأهلية المعتادة.

مصر المماليك

الأسرة التالية كانت أسرة المماليك وهم سلالة العبيد المرتزقة بجيش **صلاح الدين**. وكان السلطان **بيبرس** قائداً مغوارا يمكن اعتباره السلطان الحقيقي الأول للمماليك وإن كان في الواقع هو خامس السلاطين الذين تولوا السلطة العليا في عام ١٢٦٠م، ذلك إذا لم نأخذ شجرة الدر في الاعتبار.

كان السلطان **بيبرس** طويل القامة أوروبي السمات، أزرق العينين، وسرعان ما ظهرت لديه فكرة عن مسئوليات الحاكم، فنظم الضرائب ببعض العدالة، واستقبل بتكريم فائق خليفة بغداد الذي فقد كل شئ إلاّ حياته في غزو التتار لبغداد، وعندما وقعت مجاعة رهيبة في مصر عام ١٢٦٢م فتح **بيبرس** مخازن غلاله ليطعم آلاف من الناس يوميا، وفي نفس الوقت أوفد عاجلا من يحضرون المزيد من المؤن من الخارج، وقام بتنظيم الحج إلى مكّة المكرمة الذي كان قد أُوقف لأثنى عشر عاما.

بعد انتهاء المجاعة احتفل بختان ابنه بشكل بهيج، كما قام وشكر الله بتحمل تكاليف ختان ٦٤٥ طفلاً آخر حُملوا في موكب مهيب وهم يرتدون الثياب التي أعطاها لهم، وأضاف حضور الخليفة إلى هذا

الاحتفال العام المزيد من الهيبة والبهجة، وأثناء حُكمه نفّذ الكثير من مشاريع الأشغال العامة مثل حفر القنوات وتحسين الموانئ وإقامة نظام سريع للبريد بواسطة مراسلين استخدموا الخيل بين القاهرة ودمشق، وإذا كان صلاح الدين لم يستطع إلا أن يخفف على الشعب آثار حروبه العالية التكلفة التي كان عليهم أن يتحملوها، فقد استطاع بيبرس أن يعلن عصراً غامراً بالأحلام الوردية التي كانت ضارة بالبلاد، فلم يكن هناك من سبيل لإيقاف حكام المماليك عن العبث بثروة البلاد.

" قام السلطان المملوك الناصر أحمد بن طولون بشق قناة تربط الاسكندرية بالنيل عمل بها مائة ألف رجل، وبنى قناطر لرفع المياه من النهر إلى القلعة بالقاهرة، وشيّد ثلاثين مسجداً وعدداً من الأديرة وأسبلة عامة للشرب وحمامات وعدداً من المدارس، وشجع التجارة مع أوروبا، ولكن ضرائبه الباهظة تسببت في انتشار البؤس وأسرعت في سقوط عشيرتة"المماليك البحرية" Bahari حيث تلت حُكمه الحروب الاهلية والمجاعة، ثم اكتسح وباء الطاعون شعباً منهكاً غير قادر على المقاومة " [١٧].

منذ ذلك الحين زادت تعاسة المصريين إلا نادراً، فسلطان من المماليك يتلوه سلطان آخر يتولى الحكم حتى أصبح الحال بمنتصف القرن الخامس عشر سيئا لدرجة أن أمراء المماليك قاموا عدة مرات "بإشعال النيران بأجزاء مختلفة من المدن – حتى يخلقوا فرصاً للسلب والنهب" [١٨].

في عام ١٤٦١م (٨٦٥) هجرية تم انتخاب عبد يونانى كان مملوكاً للأشرف برسباى سلطانا لمصر وهو خشقدم الذي تقرب إلى المصريين على عكس المماليك الذين من أصل تركي أو جركسي الذين توصلوا إلى العرش وذلك بحكمه الطيب وطباعه الدمثة. لدرجة أن فترة الست سنوات لحكمه تعتبر أياماً ذهبية، فأصبح السياح الأوروبيون لا يهابون زيارة الأماكن المقدسة بمصر خاصة هليوبوليس، وحدائق الاستشفاء بالمطرية التي كانت تعتبر مقدسة منذ زيارة العائلة المقدسة لها واقامتها بها في طريقها إلى بابل حيث كان يوجد نبع ماء نقي لا ينضب كان يُنظر إليه على أنه معجزة مهداه من المسيح، ويقال أن السلطان اللاحق قايتباي أحاط بالينبوع والشجرة المقدسين في قصره الخاص بهليوبوليس، ولم يكن يسمح إلا للحجاج بدخول هذه المواقع المقدّسة وزيارتها.

قضى قايتباي – أشهر أواخر سلاطين المماليك – معظم فترة حكمه التي دامت ثلاثين عاماً في محاربة سلطة العثمانيين الآخذة في النمو، والتي كانت على وشك القضاء على حكم المماليك بمصر، ويُعتبر قبره قطعة فنية رائعة وهو أحد الآثار الهامة بمصر.

---

[١٧] مصر الحديثه تأليف توم ليتل، صفحة ٢٥.

[١٨] قصة الكنيسة بمصر تأليف ئي ال بوتشر، الجزء ٢، صفحة ٢٣٢.

كان الامير **أزبك** أحد قادة **قايتباي** العظام وقد أُعطي اسمه لأحد المساجد الذي شُيّد تخليداً لانتصاراته السورية وكذلك للميدان المحيط به، وأن كان هذا المسجد غير موجود الآن إلا أن المساحة المحيطة به لا تزال تُعرف باسم الأزبكية في القاهرة الحديثة.

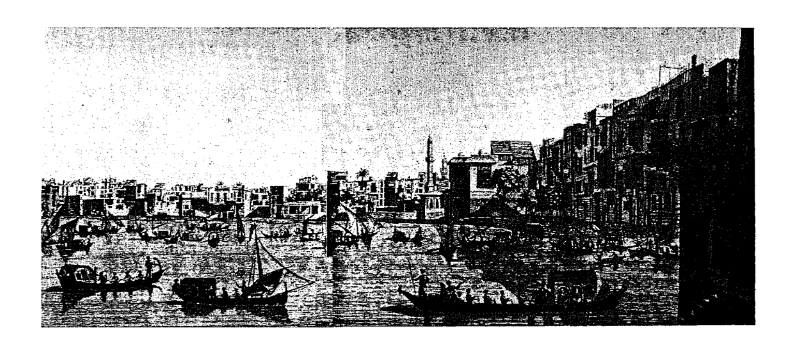
لم يتعرض المسيحيون للاضطهاد أثناء حكم **قايتباي**، بل كانوا غالباً ما يعملون كمهندسين معماريين للمساجد والتكيات بالقاهرة.

بعد خلع عدة حكام أو قتلهم خلال فترة خمس سنوات، صمّم المصريون على حين غِرة على تولي أمورهم بأنفسهم، وفوضوا رؤساء شيوخ المسلمين في انتخاب سلطان لهم، وكان الشعور الشعبي في مصر وسوريا قوياً لدرجة لا يمكن لأمراء المماليك أن يخاطروا بمعارضته فانضموا إلى شيوخ المسلمين وقبلوا اختيارهم.

أما الشيوخ فإنهم من جانبهم لم يخاطروا إلا باختيار أمير مملوكي لهذه المهمة، فقاموا باختيار عبد مُسن حصل على حريته كان تابعاً **لقايبتباي**، اسمه **قنصوه الغوري**، الذي لم تكن له أيه طموحات ولم يكن متحيزاً لأي من مكائد الأمراء الآخرين، ومنذ أن نال حريته كان يعيش عيشة هادئة، وبدا مراعياً لمشاعر كل التابعين له ولطيفاً معهم.

تعجب الأمراء لهذا الاختيار وكذلك قنصوه الذي كان محجماً عن قبوله، وأخذ وعداً من المماليك صغيرهم وكبيرهم أنه في حالة عدم رضائهم عن حكمه يُسمح له بالاعتزال ويترك الحكم ويرجع إلى الحياة الخاصة دون أن يتعرض لأذى وبحيث لا تكون هناك ثورات أو عمليات قتل.

تولى **قنصوه الغوري** العرش في عام ١٥٠١م وبقى بالسلطة لأكثر من خمسة عشر عاماً قابضاً على زمام الأمور بقبضة قوية حتى بين الأمراء، وقام بتنفيذ مشاريع أشغال عامة هامة وشيّد المدارس والمساجد، ومن بين المساجد التي شيّدها مسجد يحمل اسمه لا يزال حتى اليوم يُعتبر من مزارات القاهرة لكنه **أرهق** مصر بالضرائب الباهظة لتغطية نفقات الدفاع عن البلاد من غزو ابن السلطان **باجازيد**. مما أدى إلى قتل **الغوري** في المعركة. أما سلطان المماليك الأخير **طومان باي** الذي جاء بعد السلطان الغوري فقد عُلق كمجرم عادي على باب زويلة، تاركاً مملكة مصر



ميدان الازبكية – القاهرة – من كتابٍ وصف مصر
عندما كان الميدان يُغمر بمياه النيل سنوياً في وقت الفيضان

التعيسة ترزح تحت نوع جديد من الاستبداد ليس أفضل من عصر المماليك [19] بل حتى أسوأ من نواحٍ عدّة.

مصر تحت سلطة الأتراك

بعد ثلاثة أيام من مقتل **طومان باى** دخل إلى القاهرة منتصراً **سليم الأول** السلطان التركي، وقد حدث ذلك في شهر إبريل عام ١٥١٧م، وتدهورت مكانة مصر مرة أخرى وأعتبرت ولاية خارجية تابعة لإمبراطورية عبر البحار، وأجْبر سليم خليفة مصرالحاكم **"المتوكل على الله"** الذي كان يعيش في القاهرة، ولا يزال يمارس سيادته، وان كانت غير محدّدة، على العالم الإسلامي، بأن يتنازل عن منصبه، ومن ثم عمل على إعلان ذلك بشكل عام ومنذ ذلك الحين أصبح السلطان التركي العثمانى هو الخليفة الشرعي، والحاكم الوحيد من الناحيتين الروحية والدُنْيوَية للعالم الإسلامي. اختار الفاتح التركي سليم اثنى عشر مملوكاً من المماليك الذين أنقذت حياتهم وعيّنهم حكاماً عسكريين برتبة بك على الاثنى عشر قطاعاً التي قُسمت اليها مصر يرأسهم الأمير **خاير بك** الذى ساعده في الاستيلاء على مصر وكان المصريون يطلقون عليه لقب **خاين بك**، ورفع خليفته **سليمان الثاني** عدد هؤلاء البكوات إلى أربعة وعشرين مملوكاً، وأصدر مرسوماً بمصادرة كل أراضي مصر لنفسه باعتباره المالك الوحيد لها ثم كان يولى أجزاء الأراضي لأي شخص يدفع أكثر للحصول على ميزة جمع الضرائب محتفظاً لنفسه بحق إلغاء الامتياز كلما حَصَّل مالاً أقل مما هو مطلوب منه. وهذا النظام الخاص بالتزام قطاعات من الأراضي لمن يتقدم بأعلى سعر كان نوعاً من أنظمة تأجير الأراضي يُعْرَف باسم الالتزام، حيث كان الملتزم مسئولاً عن جمع الإيجارات التي تشمل الضريبة، ودفعها للباشا الحاكم الذي يمثل سلطان تركيا، وكان من المقرر أن

---

[19] المماليك أو الجنود العبيد كانوا يمثلون الحرس الشخصي للسلطان، وكلمة مملوك تعني أن هذا الشخص ملك لشخص آخر. وكان هؤلاء العبيد العسكريون يمثلون ظاهرة شائعة في الجيوش الإسلامية بالقرون الوسطى، وكان الأولاد الصغار – عادة من الأتراك – يباعون في صورة مماليك ـ ويتربون في مسكن السلطان عاملين كحاملي كؤوس وحاملي سيوف وذواقين للسم، وعندما يصلون إلى سن البلوغ يتم تحريرهم على أن يبقوا كمستشارين وحماة مخلصين للسلطان. وكان الضباط منهم يلقبون بلقب أمير (قائد) حيث يقودون جيوش السلطان في المعارك. وقد كان أربعة وعشرون من الأمراء العظام يُسيطرون على كل موارد مصر وعلى وظائفها الحكومية، وكان الأقوى منهم ينتخب كسلطان وهي وظيفة وان كانت بها مزايا عسكرية معينة إلا أن هذا السلطان كان نادراً ما يبقى قوياً بشكل كاف بدون دعم الأمراء الذين أتوا به إلى السلطة. وكان حُلم كل الحكام المماليك أن يتخلصوا من أمراء السلاطين السابقين وأن يستبدلوهم برجال تحت أمرهم، وكانت الصراعات من أجل الرفعة بين الأمراء مزمنة طوال فترة حكم المماليك ولم يكن البقاء ممكناً إلا لمن كان يتصف منهم بالقسوة والقدرة غير العادية أو من كان منهم محظوظاً.

تساعد جميع الجهات الحكومية الملتزم بالاضافة إلى القانون لتحصيل الإيجار والضريبة من الفلاح وهو المستأجر من الملتزم الذي كان يقوم بفلاحة الأرض، وكانت من مظاهر العصر استخدام الكرباج والسجن وقطع الآذان والأيدي ومصادرة المحاصيل في تحصيل الإيجارات.

وفي مقابل تعهد الملتزم كان يُسمح له باحتجاز نسبة ثابتة من الأرض لنفسه بدون دفع إيجار أو ضرائب عنها تعرف باسم الوسية، وكان بإمكانه إذا رغب أن يؤجر هذه الأرض، ولكنه في العادة كان يقوم بفلاحتها لحسابه الخاص، أما باقي الأراضي الواقعة ضمن التزامه فقد كان يؤجرها للفلاحين بالمنطقة مجزأة في قطع تتراوح مساحتها من ثلاثة أفدنة إلى خمسة أفدنة، وهو ما يكفي الأسرة للعمل بها بالإضافة إلى عملها في الوسية مجاناً أو مقابل أجر بسيط للغاية في مقابل السماح له باستئجار هذه القطع الصغيرة، وكان للفلاح عادة أن يزرع المحاصيل التي يرغبها وأن يبيع إنتاجه دون تدخل من الملتزم طالما استمر في دفع الإيجار أو الضريبة في الموعد المقرر.

وكان يُسمَح للملتزم بأن يبيع الوسية أو جزءاً منها طالما أخذ المشتري أيضاً نفس نسبة الأرض المؤجرة أو التي تُحصَّل عنها ضريبة بكل التزاماتها، كما كان يمكن للملتزم أيضاً أن يترك الأرض لورثته بنفس شروط الالتزام، وقد استمر هذا النظام طوال الحكم التركي حتى قام محمد علي بتغييره بنظام يُسمى الاحتكار، وبذلك وقع شعب مصر بأكمله تحت هذا الاستبداد ومن ثَمَّ غرقت البلاد سنة بعد سنة في تخلف سحيق.

وكان يتم تعيين أحد الباشوات لتمثيل السلطان التركي في مصر، ولكن نظراً لأنه كان معرضاً للعزل في أي وقت فقد كانت الفكرة الرئيسية لكل مسئول حكومي تقريباً أن يجمع من المال قدر ما يستطيع خلال الفترة القصيرة غير المؤكدة لتوليه الوظيفة. فالمعروف أنه خلال مدة ٢٨١ سنة منذ بدء احتلال السلطان سليم لمصر وحتى تاريخ غزو نابليون سنة ١٧٩٨ تمَّ تغيير الباشا الذي يحكم مصر ١١٩ مرة دون حساب التغييرات التي وقعت بسبب حالات التمرد المؤقتة للبكوات والمجلس الاستشاري (الديوان) الذي كان قد وُضِع أصلاً لمعاونة مندوب الباب العالي [٢٠] وتقديم النصح له.

كان هذا الديوان مكوناً من القواد العسكريين ووزير المالية وأمير الحج الذي كان يرشح كل عام لقيادة الحج إلى مكة المكرمة وكبير القضاة وأربعة فقهاء (وهم المفسرون للأربعة مذاهب المختلفة للإسلام) والشيوخ

---

[٢٠] الباب العالي هو اسم أطلق على البلاط التركي تحت ولاية خليفة جميع المسلمين.

والعلماء، وكان هناك ديوان أصغر مكون من البكوات وهم حكام المناطق الذين كانوا يقومون بالإدارة اليومية لها، أما حاكم القاهرة فقد كان يُلقب أيضاً بشيخ البلد، وظل هذا الحاكم يزداد أهمية بالتدريج حتى أصبح الحاكم الفعلي للبلاد.

ظل هذا النظام يعمل بشكل عادي على مدى قرن من الزمان، إلى أن قرر الديوان في عام ١٦٢٤ أن من حقه خلع الباشا ممثل الباب العالي، ولم يكن لذلك القرار رد فعل من الباب العالي، وحدث نفس الشيء في عام ١٦٣١ وعام ١٦٤٤ ولم يبد الباب العالي الكثير من الاهتمام.

بهذه الطريقة كانت السلطة تُسحب ببطء من أيدي الباشا وتُعطى للديوان، حتى أنه في سنة ١٧٥٦ وقبيل الحملة الفرنسية إلى مصر بقليل كانت السلطة الفعلية قد أصبحت في أيدي البكوات والموالين لهم الذين كانوا أداه يحركها شيخ البلد بيده [٢١].

لقد كان للباب العالي سلطة تعيين أو خلع الباشا في حين كان للديوان حق إبداء الرأى في طلب خلع الباشا فقط، وهذا يعني ولاء الديوان للباب العالي، ولكن عندما أصبح الديوان مكونا من الطبقة الارستقراطية الوطنية ومن رجال الدين البارزين من شعب مصر انتزع لنفسه الحق في خلع الباشا وترتب على ذلك رغبة هذا الديوان في تعيين الحاكم ايضاً، ولم يؤجل هذه المواجهة إلا كون الباب العالي هو خليفة المسلمين جميعهم، والقصة التالية توضح واقع الحال:

عندما تزول عن أحد الباشوات شعبيته لدى البكوات، يذهب أحد المماليك إلى القلعة حيث يقيم الباشا والذي لم يعد يجرؤ على ترك مقره، ويقفز المملوك من على حصانه، ويقدم نفسه لمندوب الباب العالي، وقد ينبطح أمامه، وقبل أن يكون لدى الباشا متسع من الوقت ليفيق من دهشته يسحب المملوك السجادة التي يقف عليها الباشا من تحت قدميه، وفي نفس الوقت يصرخ في وجهه قائلاً "أنزل يا باشا".

في هذا الجو تمكنت مصر لفترة قصيرة من سحب نفسها تماماً والتخلص من سيطرة القسطنطينية خلال حكم **علي بك الكبير**.

كان **علي بك الكبير** عبداً محرراً لأحد كبار الأمراء وتعرض سيده للموت الشائع في ذلك الوقت (بالاغتيال)، وقد تمكن علي بك من جمع ثروة طائلة أثناء عمله لدى سيده السابق، وقام بإنفاق هذه الثروة على شراء المماليك أو العبيد المحاربين لتقوية نفسه في حالة تعرضه لأي هجوم، وعن طريق المؤامرة

---

[٢١] القضية المصرية – La Question d' Egypte تاليف إميل سليم عماد.

والرشوة وتأليب شخص على آخر تمكن من أن يسيطر على حكم مصر لمدة عشر سنوات، وقد حاول السلطان العثماني قتله بإرسال فرمان إلى مصر عام ١٧٦٨ يطالب فيه برأس علي بك الذي أعد لرسول السلطان كميناً، وتمكن من قتله وأخذ الفرمان منه، وعندئذ دعا علي بك بكوات المماليك إلى اجتماع وأقنعهم أنه لو كانت محاولة اغتياله قد نجحت لتمكن السلطان من قتلهم جميعاً، ومن ثم دعاهم إلى التخلص من الظلم العثماني وانتخاب سلطان من بينهم كما فعلوا قبل الحكم التركي.

وبناءً على ذلك انتخبوا علي بك، وأُبعِد الباشا إلى السلطان العثماني، ومن ثم أُعلن استقلال مصر تحت حكم علي بك الذي نصّب نفسه سلطاناً وصَّك نقوداً باسمه، كما قام أثناء حكمه بقتل أعدائه أو نفيهم، ولكن في النهاية تعرض للخيانة من أحد قواده الذي يدعى **محمد أبو الدهب**.

بعد وفاة علي بك أمر **محمد أبو الدهب** بسحب جميع العملات الجديدة التي كان علي بك قد أصدرها من التداول، وكتب إلى السلطان مؤكداً له ولاءه وأفاده أنه على استعداد لاستقبال باشا من قبل الباب العالي، إلا أن **محمد أبو الدهب** مات بعد ذلك بقليل.

ومن الجدير بالذكر أن معظم الشعب المصري سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أصبح أسوأ حالاً عن أي وقت مضى في ظل الحكم العثماني، فقد كان الشعب يعاني من نوع جديد من الظلم؛ ولكن حتى ذلك الوقت لم تكن الفنون والحرف القديمة بمصر قد اندثرت تماماً بل إن معظم الأعمال الجميلة الظاهرة بالمساجد والكنائس يرجع تاريخها إلى النصف الأخير من القرن الثالث عشر وكل القرن الرابع عشر وهو العصر الذي حكم به مصر المماليك الذين من أصل أوروبي.

فالمسيحيون من المصريين كانوا في ذلك الوقت يُضطهدُون بلا هوادة، أما من عمل منهم كفنانين ومعماريين وأطباء وكخطاطين وكتبة أو نحاتين على الخشب ومطرزين وصنّاع حرير، باختصار في أي وظيفة تنتمي لحياة الترف والجمال، فكانوا ينعمون بالتسامح، وإذا ما تحولوا إلى الدين الإسلامي كانوا يحصلون على مكافآت ويحظون بالتشجيع، ورَحّل **سليم الأول** أمهر الصناع والحرفيين إلى القسطنطينية، ويبدو أنه لم يميز بين المصري المسلم أو القبطي أو اليهودي.

ويسرد **حسين فوزي** في كتابه سندباد مصري في صفحة ١٧ :

" تفرج سليم على الأهرامات وتعجب من بنائها، وغسل وجهه من ماء بئر البلسان بالمطرية، ولم يهتم بالمسلة، وسافر إلى الاسكندرية ليأمر بحبس ألفين من المصريين من رجال الحرف والصناعات وكبار المباشرين والتجار إلى جانب من القضاة والأعيان والأمراء والمقدمين، حبسهم في أبراج الاسكندرية وخاناتها، انتظاراً لقيام المراكب بهم إلى القسطنطينية، وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة أثمن مافيها من منقول وثابت، حتى الأخشاب

والبلاط والرخام والأسقف المُزَيَّكة والأعمدة السماقية بإيوان القلعة، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسي النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر" .

وفي صفحة ٣١ من نفس الكتاب ورد الآتي :

"وحمل معه أرباب الصنائع من كل فن، وشيخ سوق الغزل، والزردكاشية والسيوفية والصياقلة والنجارين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين والفعلاء، وجماعة من اليهود السامرية وطائفة النصارى، حوالي ١٨٠٠ نفس، وحمل سليم معه، بطريق البر، على ألف جمل – كما أشيع – أحمالا من الذهب والفضة والتحف والسلاح والصيني والنحاس المكفت، ثم أخذ الخيول والبغال والجمال الفاخرة، ومن كل شئ أحسنه. وكذلك غنم وزراؤه من الأموال الجزيلة، وكذلك عسكره غنموا من النهب ما لا يُحصى، وبطلت من القاهرة نحو خمسين صنعة".

وفي أواخر القرن الثامن عشر أصبحت مصر في أسوأ حال في تاريخها منذ الحكم الروماني.

الغزو الفرنسي لمصر

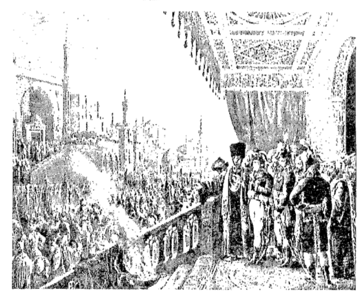
في سنة ١٧٩٨ جاء إلى مصر **نابليون بونابرت** متظاهراً أنه منقذ للإسلام، وأحضر معه ١٢٠ باحثاً ضمن حملته، وأنشأ معهداً فرنسياً للبحث الذي حقق في النهاية الكثير من أجل نشر المعرفة عن مصر في الخارج، ووفر ذلك لمصر نظرة على علوم العالم الخارجي ومهاراته وعلى وجه الخصوص أدخل المطبعة العربية إلى مصر وعن طريق المنشورات المطبوعة تعلم المصريون التعبير عما يجول بخاطرهم، وبذلك أصبحوا عناصر حيوية للحركة الوطنية، ومع أن المصريين كانوا قد اصبحوا منهكين من الغزاة الأجانب فقد هبوا يقاومون بالأسلحة حسب دعوة الأئمة.

وفي هذا الجو لم يكن المصريون قادرين على الاستفادة مما يمكن أن يتعلموه من الفرنسيين الذين حوّلوا بسوء تصرفهم في خلال اشهر قليله مشاعر كل الطبقات ضدهم وطنياً وعقائديا.

هب الانجليز الذين كانوا على حرب مع الفرنسيين الى متابعة حملة نابليون في مصر – فبراير ١٨٠١، ونجحوا في طردهم إلى خارج البلاد في نفس السنة، ونظراً لأن الانجليز كان همهم الفرنسيين وليس المصريين، فلم يبذلوا أي جهد للاحتفاظ بالبلاد لأنفسهم.

وبغض النظر عن عدم اكتراث المصريين بالمعرفة والأساليب التقنية الفرنسية الدخيلة التي قدمها لهم نابليون، فإنهم لم يعودوا كما كانوا من قبل، فقد بقيت بذور عدم الرضا التي زُرِعت في أعماق كل الحركات الثائرة التي تلت، وبدأت مصر تفيق من غفوتها.





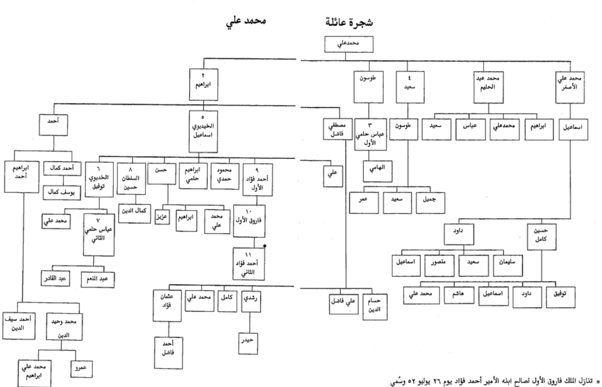
نابليون في القاهرة



العساكر الفرنسيون في إستعراض بالصحراء – من كتاب وصف مصر

الجزء الثاني

شجرة عائلة محمد علي



* تنازل الملك فاروق الأول لصالح ابنه الأمير أحمد فؤاد يوم ٢٦ يوليو ٥٢ وسُمي الملك أحمد فؤاد الثاني ملك مصر والسودان تحت الوصاية حتى ١٨ يونيو ١٩٥٣ حين قرر مجلس الثورة الغاء الملكية وإقامة الجمهورية.

الكتاب الأول – الروّاد
محمد علي باشا (١٨٠٢–١٨٤٩)
حتى عزل الخديوي اسماعيل سنة ١٨٧٩

الباشا الماكر وولده الشجاع:

حكم محمد علي باشا وابراهيم باشا

لم يفلح نابليون في إيقاظ مصر من سُباتها العميق الذي استغرقت فيه طوال سنوات الحكم التركي منذ عام ١٥١٧ حتى تاريخ حملته عام ١٧٩٨م، وإنما استغرق الأمر عدة سنوات بعد رحيله حتى افاقت البلاد من غفلتها.

ويبدو أن هذا الإنحدار المستمر الذي خيّم على سكان وادي النيل لعدة قرون قد انتهى بمولد قرن جديد، كما يبدو أن مصر كانت بحاجة إلى التقاط أنفاسها بهذه الفرصة التي سنحت لها بعد الغزو الفرنسي حيث أعطى النزاع القائم بين الحكام المماليك والاتراك الأمل للمصريين – اذا اتحدوا – في التخلص من الحكم الأجنبي البغيض كما سبق وتخلصوا من نابليون.

وقد أدرك الباب العالي بعد رحيل نابليون من مصر أن عليه استعادة سيطرته على المماليك الجامحين . ولذا عين والياً جديداً له هو **خسرو باشا**، وأيده البريطانيون في سياسته ولذا فقد حاول المماليك طرد الباشا عند انسحاب الانجليز عام ١٨٠٢ ولكن القوات الألبانية المنتقاه التي ارسلها السلطان العثماني لدعم الباشا والتي كان يقودها قائد ألباني مسلم من أصل أوروبي مسيحي برتبة ملازم هو "**محمد علي**" استطاعت هزيمة المماليك، وقد تولى رئيسه الذي يُدعى **طاهر باشا** مقاليد الأمور مؤقتاً ولكنه ما لبث أن اغتيل بعد عشرين يوماً تاركاً محمد علي على رأس القوات الوحيدة ذات الحيثية العسكرية الحقيقية في البلاد.

ولكن محمد علي لم يصبح بعد حاكماً لمصر، وإنما ظل في خدمة الوالي التركي الممثل للسلطان العثماني وعندما أراد بعد ذلك أن يستخلص مصر لنفسه، كان عليه أولاً التخلص من الباشا وثانياً القضاء على المماليك – الذين برغم كيدهم لبعضهم البعض، وتنازعهم فيما بينهم ومع الاتراك فقد كانوا لا يزالون قوة لا يُستهان بها، وثالثاً كان عليه أن ينزع شوكة جنوده، ورابعاً أن يجعل الباب العالي يُعيِّنه والياً لمصر بموافقة وتأييد الشعب المصري. وهو قطعاً حلم صعب المنال، ولكنه هدف يستحق السعي وراءه إذا ما أراد أن يحقق طموحاته.

استطراد للعلم:

كان محمد علي ألباني الأصل مولود في قوله بمقدونيا والتي جاء منها أيضا الاسكندر الأكبر مؤسس الأسرة البطلمية، وقد ولد محمد علي عام ١٧٦٩ وهو نفس العام الذي ولد فيه نابليون بونابرت [٢٢].

وتكمن عبقرية محمد علي في قدرته على تقدير الموقف، واستغلاله لصالحه. فكان يخطط لحملته، ثم يقوم بتنفيذها بلا هواده وبلا ضمير، وكان طموحه أن يصبح السيد الأوحد لمصر، وأن يؤسس أسرة حاكمة له ولورثته من بعده، وكان يتمنى أن يكون سيداً صالحاً، وأن يبذل كل طاقته من أجل البلاد التي تولاها ليس حباً فيها ولا حرصاً على رفاهيتها، وإنما من أجل تحقيق المجد والسلطة لنفسه ولخلفائه من بعده، وقد ادعى الإسلام كما ادعى المسيحية الكثيرين من جبابرة العالم من قبل، لأنه أدرك أن هذا هو التصرف الأمثل لتحقيق أغراضه في الظروف القائمة، ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن متأثراً بالإيمان بأي دين على الإطلاق، فلو أن شخصاً أو سلالة كاملة من الرجال اعترضت طريقه، لمحاهم جميعاً من الوجود سواء غدراً أو علناً بغضٌ النظر عن العقيدة أو الجنسية أو حتى الأسرة.

وفي البداية لفت نظر رجل الشارع المصري إليه عندما أيد الاحتجاج الشعبي المقدم للباشا التركي ضد بعض تجاوزات الجنود الأتراك الموالين للباشا عام ١٨٠٣.

ثم تحالف مع باقي المماليك الذين كانوا يحظون بقدر من الكراهية من قبل الشعب أقل قليلاً من الأتراك، وساعدهم بجنوده الألبان في التخلص من والي ينبُع في الجزيرة العربية نزولا على رغبة الباب العالي [٢٣]، ولكنه سرعان ما غيّر اتجاهه في عام ١٨٠٤ عندما علم أن أحد قادة المماليك واسمه ألفي بك – والذي عاد مؤخراً من انجلترا – كان يتآمر مع مماليك آخرين ضده فلم يصبر حتى تتبلور المقاومة، بل نصب لهم فخاً وذبحهم ذبحاً بينما تمكن الألفي بك من النجاة بحياته، فتضايق البريطانيون وصرحوا بمخاوفهم للباب العالي من هذا الألباني غير الجدير بالثقة.

واستمراراً في توخي الحذر من تولي زمام الأمور علناً أرسل **محمد علي** في طلب حاكم الاسكندرية، وهو ضابط عثماني يسمى خورشيد وسعى لتعيينه والياً على مصر، ووقع على عاتق خورشيد مسئولية تحصيل الضرائب من الشعب المُثقل بها لدفع رواتب الجند والإنفاق على الحكومة، بينما كان يبدو محمد علي في صورة صديق الشعب الذي يلوم خورشيد على

---

[٢٢] ادوارد دريولت (ملخص التاريخ المصري) Précis de l' Histoire d'Egypte الجزء الثالث صفحة ٢٠٥.

[٢٣] "القضية المصرية" La Question d' Egypte تأليف إميل سليم عماد.



محمد على باشا الكبير . والى مصر
مؤسس الأسرة الحاكمة ١٨٠٨ - أغسطس
١٨٤٩



ابراهيم باشا . والى مصر . ابن محمد على
الكبير مؤسس الأسرة الحاكمة
١٨٤٨ - نوفمبر ١٨٤٨



عباس حلمى باشا الأول . والى مصر
١٨٤٩ - ١٨٥٤



سعيد باشا . والى مصر
١٨٥٤ - ١٨٦٣



الخديوى اسماعيل . اول خديوى لمصر
١٨٦٣ - ١٨٧٩



الخديوى توفيق . ابن الخديوى اسماعيل
١٨٧٩ - ١٨٩٢



الخديوى عباس حلمى الثانى
ابن الخديوى توفيق
١٨٩٢ - ١٩١٤



السلطان حسين كامل سلطان مصر . أخو
الخديوى توفيق وابن الخديوى اسماعيل
١٩١٤ - ١٩١٧

تصرفاته الإستبدادية. وفي ١٤ مايو ١٨٠٥ بعد أن كان **محمد علي** قد أعد كل خططه بدقة، اندلعت ثورة شعبية مطالبة بتعيينه والياً على مصر، وقادها شيخ الجامع الأزهر الشيخ الشرقاوي، والسيد عمر مكرم زعيم الأشراف الدينيين، وناشد هؤلاء الشيوخ مدفوعين بتأييد من الأعيان ورؤساء النقابات العمالية **محمد علي** أن يتولى الحكم، ويعزل الوالي.

تظاهر **محمد علي** بعدم القبول، ولكنه سرعان ما أذعن باعثاً برسول إلى خورشيد باشا يخبره أن الشعب أجبره على قبول السلطة ويطلب منه التنازل، وكانت إجابة خورشيد باشا على عكس أغلب الولاة الأتراك في الماضي، إذ أجاب أنه تم تعيينه نائبا للسلطان وانه لن يستقيل نزولاً على رغبة من هم دونه وتحصن في القلعة، وأرسل بشكواه إلى السلطان. فحاصر محمد علي القلعة وعرض الأمر على القسطنطينية للفصل فيه وجاء الرد بعودة خورشيد باشا إلى القسطنطينية. وعُين **محمد علي** والياً على مصر، ولكن بشكل مؤقت، وبهذا لم يصل **محمد علي** بعد لتحقيق أقصى طموحاته، ومع ذلك فكان يدرك تماماً انه في حاجة إلى كل من الحذر والإقدام، وكان الحذر بالنسبة له يعني المكائد والغدر والاغتيال ولم يفته أن المماليك الذين تآمروا مع ألفي بك لا يزالون مطلقي الحرية، وإن كانوا مختفين خارج المدينة، فأمر أحد رجاله أن يكتب إلى رؤساء المماليك يعرض عليهم أن يدخلوا المدينة لإعادة تنظيم صفوفهم في مقابل رشوة كبيرة وذلك في يوم خروج محمد علي خارج الأسوار معْ أتباعه لحضور موكب "جبر الخليج"[٢٤].

وقد قبل قادة المماليك العرض ووقعوا في الفخ، حيث قام جنود **محمد علي** الألبان المخلصين بمحاصرة كل من وجدوه في الأزقة والحواري من المماليك، وقتلوهم دون رحمة، وهنا أرسل محمد علي إلى أسرته لتأتي وتقيم معه في مصر، وعند تعيين محمد علي كوالٍ مؤقت على مصر، وعده السلطان بأن يرسل له قوة مكونه من ٢٠,٠٠٠ رجل لمساعدته في الحفاظ على النظام، ولكن الانجليز الذين شعروا أنه ليس من الحكمة السماح بزيادة قوة محمد علي، نصحوا الباب العالي أن يرسل مدداً جديداً من ٣٠٠٠ رجل تحت قيادة باشا لينضم إلى صفوف المماليك، فأذعن الباب العالي، ولكن ما أن وصلت القوات إلى الاسكندرية حتى انضم هذا الباشا وقواته إلى محمد علي، وأُحبطت كل محاولات الباب العالي لازاحة محمد علي. فوعد محمد علي الباب العالي أن يلتزم بكافة العهود التي سبق وقدمها المماليك من قبل إلى السلطان، وأن يقسم على الولاء له اذا ما تركه في سلام، فكيف يمكن للسلطان أن يقاوم هذا العرض ؟ رجع السلطان في قراره بمحاولة التخلص من محمد علي، وفي ٢ نوفمبر ١٨٠٦ وصل إلى القاهرة فرمان يؤكد تعيين محمد علي حاكماً لمصر.

---

[٢٤] " قصة الكنيسة المصرية " أ.ل.بوتشر الجزء الثاني صفحة ٣٦٢.



قفز مملوك من فوق سور القلعة
لتفادي المذبحة

ومن الواضح ان الحكومة البريطانية قد أساءت تقدير الموقف لأن انقضاء ست سنوات أدى الى تغيير كبير في الأوضاع لأن ألفي بك الذي كان قد حاز اعجابهم عندما كان في زيارة للندن قبل عامين كان مختبئاً بالرغم من كونه طليقاً وان باقي المماليك كانوا مشتتين لذلك فعندما أُرسلت حملة انجليزية الى أرض مصر عام ١٨٠٧ لقت هزيمة نكراء على يد القائد الذي اختارته مصر بدلاً من الزحف الى القاهرة بسهولة كما كان مصوراً لهم وعلقت رؤوس الانجليز على أسنة الرماح بالقاهرة [٢٥].

في فبراير ١٨١١ تخلّص محمد علي من باقي المماليك عن طريق الغدر، فقد أمر بحشد كل القوات في القلعة للاحتفال بتكريم ابنه طوسون باشا بمناسبة خروجه في حملة إلى الجزيرة العربية ضد الدعوة الوهابية، وأُعِدّ موكب عسكري عظيم ليصاحبه بعد تنصيبه، وأقيم حفل استقبال في القاعة الكبرى بالقلعة والتي كانت تحتل نفس موقع الجامع الحالي. وبعد تقديم القهوة أعيد تشكيل الموكب ليتقدم في طريق ضيق منحدر وكان ترتيب الفريق المملوكي قبل الأخير في الموكب محاصراً بين فيلق ألباني وآخر نظامي وكل منهما قد تلقى التعليمات الخاصة به. وبعد مرور كل القوات السابقة للألبان، أغلقت الأبواب فجأة واستدار الألبان إلى المماليك وبدأوا في ذبحهم، بينما أمطرتهم القوات النظامية بوابل من القذائف المتلاحقة، ولم ينجُ أحداً من المماليك سوى اثنين أو ثلاثة من الفرنسيين الذين كانوا قد أسلموا، وبعض المماليك الذين مُنِعوا من الاشتراك في الموكب لأسباب مختلفة.

وقد تم حصر أربعمائة وستين جثة، أما المملوك المصري الوحيد الذي هرب فقد كان ذلك لغلق باب القلعة بالخطأ وهو خارجها بالصدفة.

وهناك قصة تحكي أن مملوكا آخر هرب بالقفز بجواده من على قمة السور شديد الإنحدار. ولم يكن هؤلاء كل الضحايا، فقد صدرت الأوامر في كل البلاد بتعقب المماليك، وقتلهم أينما وجدوا، وفي خلال أيام معدودة كان أكثر من ١٠٠٠ مملوك قد قتل. أما في القاهرة فقد نُهبت ديارهم وأُغتصبت نساؤهم وإلى اليوم لايكاد يُذكر لفظ "مملوك" في مصر [٢٦].

وبهذا لم يبق سوى أن تصبح ولاية مصر وراثية في نسل محمد علي وتصفية جنوده الألبان، وبذلك يكون محمد علي قد حقق طموحات شبابه. ونظراً لأنه لم يُرِد الاعتماد على جنوده الألبان الجامحين لتحقيق المزيد

---

[٢٥] مصر الحديثة لتوم ليتل صفحة ٣٢١.

[٢٦] قصة الكنيسة في مصر أ.ل. بوتشر الجزء الثاني صفحة ٣٦٥.

من أطماعه لذلك قرر أن ينشيء تنظيماً لقواته القتالية تحت اسم "النظام الجديد".

وقد تم تشكيل جيش نظامي من الفلاحين المصريين وتم تدريبه ليكون قوة قتالية يُعتَد بها تحت قيادة كولونيل **دي سيف** الذي عرف فيما بعد باسم **سليمان باشا الفرنساوي** وهو أحد ضباط نابليون الذي دخل في الإسلام وبقي في مصر هو وبعض مدربي الجيوش الفرنسيين الآخرين. " وبحلول عام ١٨٢٦ كان لمحمد علي جيشاً من ٩٠,٠٠٠ رجل يضم لواء مدفعية يعادل أفضل ما في جيوش أوروبا" [٢٧] وفي أول مقابلة رسمية بين محمد علي والكولونيل **دي سيف** دارت بينهما المحادثة الشهيرة التالية: [٢٨]

– سأل محمد علي الكولونيل "هل أنت عسكري ؟ "

– أجاب الرجل الفرنسي " فقط لا غير ".

– " هل تقدر أن تنظم لي جيشاً جديداً بأسلوبكم ؟"

فأجابه متفاخراً "تحت قيادة نابليون دربت جيوشاً كثيرة".

– "إذن انت مستعد لتنفيذ مشاريعي ".

– "نعم بشرط أن تمنحني سموك ثلاثة أشياء: الوقت، والأموال، وتشجيع عظمتكم".

وفي نفس الوقت أصدر محمد علي مرسوماً بأن يخيّر الألبان بين الانضمام للنظام الجديد أو العودة إلى بلادهم، ولكي يحفزهم على اختيار العرض الثاني سمح لهم أن يأخذوا معهم الغنائم التي حصلوا عليها في مصر.

وقد صمّم محمد علي أن يجعل مصر دولة حديثة على الطراز الأوروبي وأن ينتزع من بين يدي السلطان العثماني المتخاذل الحكم الوراثي له ولأسرته في مصر[٢٩]. وكان السلطان التركي محمود يلاقي صعوبة في إخضاع اليونانيين الذين كانوا يحاربون للحصول على استقلالهم حيث كان يعلم أنه لا يستطيع ذلك بمفرده، فاستغاث بمصر التابعة له تحت ولاية محمد علي لمساعدته، فوافق محمد علي ولكن استشعاراً بقوته طالب بأن تمتد قبضته لتشمل كلا من سوريا ودمشق وكريت. أما اليونانيون الذين كانوا معتادين على التعامل مع الأتراك غير المنظمين فقد خارت قواهم أمام القوات المصرية المدربة على النظام الأوروبي، فسقطت بلادهم مدينة تلو الأخرى في يد المصريين، فتنبهت الدول الأوروبية لخطورة

---

[٢٧] " مصر الحديثة " – توم ليتل – صفحة ٣٣.

[٢٨] "بعثة عسكرية بولندية إلى مصر " آدم جورج بنيس – القاهرة ١٩٣٨.

[٢٩] " مصر الحديثة " – توم ليتل – صفحة ٣٣.

محمد علي عليها وأذهلتها حملاته المتكررة وزيادة عدد جيشه إلى ٢٥٠,٠٠٠ جندي وتقهقر الأسطول العثماني إلى الاسكندرية، وكذلك بطولات الفلاحين تحت لواء ابراهيم باشا ابنه الذي أثبت أنه قائد حربي مغوار.

وفي عام ١٨٤١ اتحدت ارادة كل من إنجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا وتركيا، وأجبروا محمد علي على التنازل عما حققه من انتصارات حتى ذلك الحين، [٣٠] في مقابل أن تضمن له القوى الدولية الحق في أن يكون حكم مصر له ولأكبر أبنائه الذكور سناً من بعده. بل قد أرسوا قواعد العلاقة المستقبلية بين مصر والباب العالي بمعاهدة ١٨٤١. وبحصول محمد علي على الحق في الحكم الوراثي له ولأسرته في مصر كولاية تابعة لتركيا يمكن القول بأن محمد علي قد حقق طموحاته.

إلا أن انجلترا أجهضت هذه الطموحات بمساعدة الدول الأوروبية التي كانت تخشى أن تجد نفسها أمام نابليون آخر، وساعدت معاهدة ١٨٤١ على اذلال مصر، ومحت شخصيتها بأن جعلتها مجرد ولاية تابعة لتركيا تسري عليها القوانين التركية مع الأخذ في الاعتبار الظروف والعادات المحلية والعدل والمساواة. كما أنها قلّصت تعداد الجيش ليصل إلى حدود ١٨٠٠٠ رجل حتى تضمن عدم قيام الفلاحين المصريين بتهديد سلام أوروبا مرة أخرى، وقد ظلت هذه المعاهدة سارية من حيث المبدأ حتى أصبحت مصر محمية بريطانية في عام ١٩١٤ فيما عدا بعض التعديلات التي حصل عليها الخديوي اسماعيل من خلال فرمان عام ١٨٧٣. وعلى كل حال فقد كانت هناك عوامل أخرى أثناء حكم محمد علي غيرت مجرى تاريخ مصر تماما وقدرها المستقبلي بل تاريخ الشرق الأوسط كله بشكل غير مباشر.

ومن اهم نتائج حكم محمد علي استعادة البلاد اعتدادها بذاتها؛ فبالرغم من أنه يمكن القول إن سياسته كانت تهدف أصلاً لتمجيد اسرته، إلا أنه نتج عنها إخراج مصر من قرون الركود والنسيان ووضعها مرة أخرى على الخريطة كدولة ذات امكانيات هائلة يمكن أن تتقدم اذا ما اتحدت وحُكمت بشكل سليم حتى تصبح دولة لا يستهان بها، فبالرغم من ان محمد

---

[٣٠] وفقا لمعاهدة كوتاهيه وافق السلطان محمود على الإعتراف بمحمد علي حاكماً على كل من سينار وكندة وأن يكون باشا على ولايات سوريا مثل: حلب – صفادة – صيدا – بيروت – طرابلس – بيت المقدس ونابلس كما عين ابنه ابراهيم والياً على اباسينا وحاكم سافدجات وجده ومكة ومحصل امارة عدن. وجدير بالملاحظة أن اللورد بالمرتسون لم يعترف بوجود معاهدة كوتاهية.

علي قد جاء إلى مصر كأجنبي، وعلى الرغم من كونه مغتصباً للسلطة بلا ضمير، إلا أنه ما ان أصبح حاكماً حتى اعتبر نفسه مصرياً بل وطنياً، ولم يفرق في معاملة رعاياه، بغض النظر عن ديانتهم. ولابد أن نعترف ان محمد علي وأسرته كلها من بعده لم يكونوا متعصبين دينياً بالرغم من تملقهم أحياناً للعناصر الأكثر تعصباً في العالم الإسلامي، وبالرغم من بعض الفترات الفردية من الاضطهاد الديني والأفكار والسياسات المستوردة، إلا أنه منذ عهد محمد علي كان هناك تسامح ديني ولم يكن هناك أي اضطهاد للمسيحيين كما كان يحدث من قبل.

وقد أورد كل من "**جين**" و"**سيمون لاكوتور**" في كتابهما "**مصر في عصر الانتقال**" عبارة قالها **محمد علي** للقنصل الفرنسي "**دورفتي**" عندما عرض عليه الأخير نيابة عن الوزير الفرنسي "**بولينياك**" أن ينضم إلى الحملة الفرنسية ضد الجزائر.

فقد قال: "لو أني فعلت ذلك لحططت من قدر نفسي في عيون شعبي، ولست أوعز الأمر لدوافع دينية لأنني لست مسلماً أكثر مني مسيحياً فيما يتعلق بسياستي، ولكنني وإن كنت أصبحت شيئاً فالفضل يرجع لسمعتي الوطنية وللمكانة التي يضعني شعبي فيها"؛ وكان تعليقه هذا بخصوص كونه ليس مسلماً أكثر منه مسيحياً في سياسته، يمكن أن يتعدى المعنى الحَرْفي ليعبِّر عن الحقيقة ويشير إلى ثورة في الفكر [٣١] بأن مصر لم تعد أحد أعضاء الرابطة الإسلامية فحسب بل دولة مستقلة ذات كيان كامل قامت بانتخابه أصلا ليكون حاكما لها، وقام محمد علي بإلغاء كل القوانين التي سنّها مختلف الحكام ضد الأقليات العرقية في البلاد بل وقمع بشدة نشوب أي بادرة للتعصب.

وفي الوقت نفسه كان **محمد علي** – كلما استطاع – ينتقي واحداً من الأرمن أو الروم الكاثوليك أو المسيحيين الأوربيين لشغل مناصب السلطة مفضلاً إياهم على أقباط الكنيسة الوطنية ليحّد من تأثير الأقباط الذين لم ينسوا أبداً أن مصر لهم بالوراثة.

وكذلك فعل ابراهيم باشا عندما أعاد تنظيم الحكومة السورية على نفس النمط الساري في مصر، ففرض التسامح الديني المطلق بالنسبة للدروز والموارنة وكل الطوائف المسيحية، وكان الشخص الأفضل يُعيَّن بغض النظر عن جنسيته أو ديانته. ويُحكى أن وفداً من مسلمي دمشق اشتكوا لابراهيم باشا من زيادة غطرسة المسيحيين إلى حد أنهم كانوا يشاهدون في الشوارع على ظهور الخيول، فنصح ابراهيم باشا

---

[٣١] مصر في عصر الانتقال لـ جين وسيمون لاكوتير صفحة ٥٢.

الساخطين ببرود، أن يركبوا الجمال إذا أرادوا التميز عن المسيحيين. [٣٢] وقد تبنى سعد زغلول أثناء ثورة ١٩١٩ هذا الحياد فيما بين الدين والسياسة وكان شعار الثورة **(الهلال مع الصليب)** وهو شعار اتبعه حزب الوفد منذ ذلك الحين.

ويمكن القول بأن سياسة **محمد علي** الزراعية طُبقت وفقا لمصلحته الشخصية حيث إنه صادر معظم الأراضي بعد التخلص من المماليك وزرعها تحت نظام عرف باسم "الاحتكار" وكانت إحدى خواص هذا النظام الأساسية عدم السماح للفلاح ببيع انتاجه، وكان ذلك مسموحا به تحت نظام الالتزام الذي كان قائما منذ ٣٠٠ عام عندما غزا الأتراك مصر.

وطبقاً لما جاء في كتاب الدكتور "**رياض سوريال**" (المجتمع القبطي في القرن التاسع عشر ص ٥ – ٧٤) كان نظام الاحتكار له الصفات التالية:

١ – توزع الأراضي على الفلاحين على هيئة قطع من ٣ – ٥ أفدنة لزراعتها مقابل ضريبة أو ايجار.

٢ – يتسلم الفلاح البذور والسماد والماشية والآلات اللازمة للزراعة على أن يسدد ثمنها وقت الحصاد.

٣ – يزرع الفلاح ما تريده الحكومة من المحاصيل حسب التحديد الموجه إليه ولا يستطيع أن يحيد عنه.

٤ – يُعاقب الفلاح الذي يهمل في عمله ويخالف الأوامر التي تصدرها السلطات بالجلد بالكرباج، بقطع الأذن، بالسجن أو بالاعدام مما دفع الكثير من الفلاحين للهرب إلى خارج البلاد.

٥ – ليس من حق الفلاح التصرف في محصوله في السوق بل عليه توريده لمخازن الحكومة حيث يتم وزنه وتسعيره، وليس من حقه أن يحتفظ بأي جزء منه ولا حتى لاستخدام أسرته.

٦ – تكون مشترياته من مخازن الحكومة بالأسعار التي تفرضها.

وكان الفلاحون مسئولين مسئولية مشتركة عن الديون المستحقة على الفلاحين الآخرين بالأراضي المجاورة لهم.

وقد قام سليمان الثاني سلطان تركيا في القرن السادس عشر عندما فتحت تركيا مصر بمصادرة الأراضي المصرية ثم ترسية زراعة هذه الأرض على المُزايد الأعلى سعراً نظير منحه امتياز جباية الضرائب

---

[٣٢] قصة الكنيسة في مصر لـ ا.ل بوتشر صفحة ٣٧١.

تحت نظام الإلتزام. أي أنه في الواقع كانت السيطرة على الاراضي في مصر بنظام الاستئجار، فكان من يمتلك القوة ليمسك بزمام الأرض ويديرها سواء كانت دولة أو واليا (باشا) أو مملوكا فهو المالك أما الفلاح الذي يزرع الأرض فكان هو المستأجر بغض النظر عن تسمية النظام الساري.

وهذا النظام أيضا هو الذي طبقته ثورة ١٩٥٢، عندما انتزعت الأرض من الإقطاعيين الذين كانوا في أغلب الحالات يؤجرون معظم أراضيهم لصغار الفلاحين بمقتضى أنظمة مختلفة، مستبدلة هذه الأنظمة بنظام بيروقراطي تحت ادارة هيئة الإصلاح الزراعي التي قامت بزراعة الأرض عن طريق نفس الفلاح الصغير أيضا بمقتضى أنظمة تحت مسميات أخرى. هؤلاء الفلاحون الذين تسلموا صكوك ملكية لرقع الأراضي الصغيرة لم يُسمح لهم باستغلالها على النحو الذي يرونه مناسباً، وإنما خضعوا للزراعة التعاونية تحت إشراف الحكومة. وجدير بالذكر هنا أن ملكية الارض في مصر اقتصرت على سطح التربة وان أي زيوت أو معادن أو آثار يتم استخراجها منها تكون مملوكة للدولة.

ويرجع تشجيع محمد علي لزراعة القطن إلى تطوير نوع من القطن له أطول وأنعم تيلة عُرفت حتى وقتنا الحالي.

وقد سمّى هذا النوع "**جوميل**" نسبة لقطن له نفس الخواص اكتشفه فرنسي اسمه "**جوميل**" في حديقة صديقه "**ماهو**" بك بالقرب من القاهرة، وكانت النتيجة زيادة في محصول القطن من ١٠٠٠ قنطار عام ١٨٢٠ إلى ٢٤٣٠٠٠ قنطار عام ١٨٣٥. وكانت للحرب الأهلية الأمريكية دورها في زيادة إنتاج القطن باعتبارها سلعة استراتيجية، وبمرور السنوات أصبح المحصول النقدي الرئيسي في مصر والمحقق الأساسي للعملات الأجنبية والعامل الرئيسي في تنمية صناعات الغزل والنسيج في البلاد.

وقد أدى التوسع في زراعة القطن إلى تطوير الخدمات كالنقل والتأمين والبنوك، وكذلك تمويل المحصول للاستخدام المحلي وللتصدير، وقد قامت وزارة الزراعة فيما بعد باستنباط أنواع جديدة من القطن، وأصبحت مصر بفضل القائمين على سياستها في الزراعة والتسويق رائدة في هذا المجال، وهيمنت على سائر الأقطان المنتجة في باقي أنحاء العالم. وقد أدى التوسع في زراعة محصول القطن إلى توظيف عدد كبير من الناس، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء في الداخل بزراعته وتسويقه، أو في الاسكندرية إما ببيعه لمصانع الغزل المحلية أو بتصديره لشركات الغزل بالخارج. وفي عام ١٩٦١ عندما تم تأميم صناعة القطن في مصر كانت تنتج أكثر من عشرة ملايين قنطار قطن تتولاه اربع وخمسون شركة تصدير ومائة وعشرة محلج.

ومن العوامل الهامة الأخرى التي أثَّرت على سياسة مصر الداخلية تجنيد الفلاح المصري، ولم تلق تلك الحركة اقبالا جماهيرياً بل أن البعض كان يُصيب نفسه بعاهات مستديمة ليهرب من التجنيد. حتى أن أحد المواويل الشعبية كانت تقول:

"بلدي يا بلدي – السلطة أخذت ولدي"

وفي هذا الوقت كان الأقباط معافين من التجنيد وفي المقابل كان عليهم دفع جزية، ولم يتم تجنيد كل من المسلمين والأقباط إلاّ في فترة حكم لاحقة، وعلى الرغم من ذلك كانت طبقة الضباط دوماً تتمتع بمكانة خاصة، ولكنها كانت مقتصرة على علية القوم وليست لعامة الشعب.

وقد أُنجِز في فترة حكم محمد علي العديد من المشروعات العامة الكبرى، فقد تم شقّ ترع جديدة مثل ترعة المحمودية التي تصل إلى الاسكندرية، وأنشأ المستشفيات ومدارس الطبّ بأساتذة من فرنسا، كما تم تأمين شوارع مصر لأول مرة منذ عدة قرون باستخدام أفراد من الشرطة ووضعها تحت إشراف عام. كما استؤنفت طرق التجارة والبريد إلى الهند وبلاد المشرق عبر الأراضي المصرية.

علاوة على هذا أنشأ مطبعة كبرى على نطاق واسع في بولاق قامت بنشر ترجمات للكتب الأوروبية بالعربية بأسعار زهيدة جداً لنشر المعرفة بين المصريين.

كما أرسل البعثات العلمية إلى فرنسا وكان رفاعة رافع الطهطاوي – واعظاً لأحدى هذه البعثات – وقد ألف كتاباً يصف فيه هذه البعثة اسمه "**تخليص الابريز في تلخيص باريز**".

أما آخر المشروعات في حياة محمد علي، فكان الخزان الذي أقامه في الطرف الجنوبي للدلتا وسُمّي بالقناطر، والذي كانت فكرته الأساسية ترجع إلى فكرة عبقرية لرجل فرنسي، وقد وضع حجر أساسه عام ١٨٤٧. ولكن كان هناك خطأ ما في الإنشاء فكان عليه أن ينتظر إلى عام ١٨٨٢ عندما استطاعت عبقرية أحد الانجليز من تشغيله. وبهذا يكون محمد علي قد بدأ نظام الري الدائم في الوجه البحري الذي كان مصدرا كبيرا لثراء الدولة على المدى الطويل، ولا يزال السؤال قائماً، هل كان من الأفضل لمصر لو كان محمد علي قد حقق آمال الوطنيين أمثال الشيخ الشرقاوي والسيد عمر مكرم الذين دعوه إلى السلطة آملين أن يخلصهم من الأجنبي البغيض ويعمل على تطوير مصر في حدود امكانياتها، أم يحاول جعل مصر دولة حديثة مما يعني اتجاهها أكثر وأكثر نحو الأجانب لتدريب جيشه، وبناء صناعاته وادارتها، وتعليم شعبه طرق الحياة الغربية والتي نتج عنها طبقة حاكمة غنيّة اجنبية وطبقة نامية أغلبية سكانها من المصريين التابعين، فلاحين، مزارعين، عمال، حرفيين أو صغار تجار على حد سواء ؟؟

وفي عام ١٨٣٥ ابتليت مصر بتفشي وباء الكوليرا، وقد دفع السلوك البطولي للفرنسي **"كلوت بك"** الذي كان طبيباً وعالماً للوالي محمد علي إلى تخفيف آلام المصابين مما آثار إعجاب الوالي حتى أنه أطلق اسمه على أحد شوارع القاهرة. وفي كتابه عن مشاهداته عن مصر : "ملاحظات عامة عن مصر" عدّد كلوت بك الخواص النافعة لمياه النيل لمن اعتاد تناولها، فتحت عنوان **"خواص مياه النيل"** كتب يقول:

> خلال الفيضان تتعكر مياه النيل ولكنها تُصفى ببطء بالتخلص من محتوياتها الغريبانية، ويصبح للماء مذاقاً عذباً لا يؤثر على عملية الهضم. ونظرا لكونها خفيفة جدا فالمرء يستطيع أن يشرب حتى الإرتواء دون أي ضرر. كما أنه من السهل إخراجها إما عن طريق العرق أو البول. وقد أكدت التحاليل الكيميائية نقاءها وصفاءها ومطابقة مواصفاتها للمياه المقطرة – وهي صفات يصعب الحصول عليها في المناطق التي تفتقر إلى الوقود اللازم لعملية تقطير المياه. فلم يكتف قدماء المصريين بالقرابين التي بذلوها للنيل عرفانا وتقديرا لكرمه معهم، ولكنهم أيضا نسبوا خواص خارقة لمياهه. ولو أن المرء يؤمن برأي "Pliny" فقد كانت المياه عندهم قادرة على زيادة خصوبة النساء، ولذلك حرص بطليموس فيلادلفوس على أن يزوّد ابنته برنيس بجرعة كافية من مياه النيل تخصص لاستخدامها عند زواجها من أنتيوكوس ملك سوريا.
>
> وكانت لهذه القيمة العظيمة التي أسبغتها هذه الحضارة العريقة على مياه النيل أثرها إلى الآن، وانتقلت عبر الأزمنة إلى وقتنا الحاضر فقد كان دوماً ولأمد طويل هناك مخزون من مياه النيل في الآستانة للاستخدام الشخصي للسلاطين وعائلاتهم [٣٣].

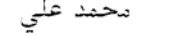
وقدازدادت مشكلات محمد علي بمرور السنين ويبدو أن حظه قد تبدّل منذ أن فُرضت عليه معاهدة عام ١٨٤١.

ففي عام ١٨٤٣ تفشىّ في مصر وباء طاعون الماشية بالاضافة إلى الفيضان الطويل الذي لم يمهل الناس الوقت الكافي ليعدوا أرضهم للزراعة. وقد بدت الكوليرا وكأنما قد أصبحت مرضاً مستوطناً، كما ابتليت مصر أيضا بموجات من الجراد. وبحلول عام ١٨٤٨ وهن محمد علي وضعف ذهنه، وآل الحكم لولده ابراهيم، ومات الأب والابن ولم يفرق بينهما سوى شهور قليلة بوفاة ابراهيم في نوفمبر عام ١٨٤٨ وأبيه، الذي كان يوما ما رجلاً عظيما، فقد توفى بلا ضجة في أغسطس من العام التالي.

---

[٣٣] بنفس درجة أهمية المياه المعدنية التي تستورد في وقتنا الحاضر.





محمد علي



كلوت بك

الرجعي

حكم عباس باشا حلمي الأول (١٨٤٩ – ١٨٥٤)

بوفاة محمد علي عام ١٨٤٩ خلفه حفيده عباس الأول الذي كان على النقيض التام لجده حيث كان رجعياً متعصباً فلم ير نفعاً من التوسع ، فعكس الإتجاه الحضاري الذي بدأه جدّه الذي كان يشجع الاستثمار والتقنية الأجنبية. وقد حاول أن يحقق ذلك عن طريق الماطلة والرجوع في كل كبيرة وصغيرة لتركيا التي كانت سعيدة جداً باستعادة بعض نفوذها الذي فقدته خلال حكم محمد علي، إلا أن حُكمه لم يدم طويلا حيث خنقه اثنان من مماليكه في بنها عام ١٨٥٤.

المخدوع برضاه والسيد الأعظم

حكم سعيد باشا والخديوي اسماعيل (١٨٥٤ – ١٨٧٩)

كان هذا العهد في مصر يعتبر عهد التغيير والتوسع حيث جُمِعَت الثروات وكذلك أهدرت، فبعد وفاة عباس خَلَفَه عمه سعيد الذي كان على نقيضه تماما سواء في الشخصية أو في الطموح. فقد كان ينوي أن يعمل الكثير لمصر، ولكنه كان مغروراً ومبذراً على أصدقائه وعلى نزواته. وكان صديقا حميماً لـ "**دليسبس**" في شبابه عندما كان الأخير قنصلاً لفرنسا، وحلما معا بإنشاء قناة السويس. وقد فتح سعيد باشا الباب على مصراعيه لكل المضاربين ورجال الأعمال والمغامرين الأجانب، وحيث إن مصر كانت تابعة لتركيا فقد سرت عليها الإمتيازات الأجنبية التي منحتها الإمبراطورية العثمانية لتشجع الأجانب على الإستثمار في ولاياتها، فقد أصبحت سارية في مصر أيضاً.

وقد عُرِفت هذه المزايا بالامتيازات الأجنبية ، واختلفت نسبيا من دولة أوروبية إلى أخرى، حيث تم الاتفاق عليها بين الباب العالي وكل دولة على حدة. ووفقا "**لهنرى لبا**" في مؤلفه: تطور أحوال الأجانب في مصر (باريس ١٨٩٦):

كانت الإمتيازات عبارة عن مزايا ممنوحة من الباب العالي للأجانب، يمكنه إلغاؤها طبقا لمشيئته، ولذا ينبغي تجديدها عند ارتقاء كل سلطان، على أساس نظرية ان حالة الحرب هي الوضع المنطقي بين المسلمين ومسيحيي الغرب. لذا يقتضي الأمر ان يطيل كل حاكم فترة السلام أو الهدنة بالمعاهدات المبرمة بينهما ولهذا السبب تجددت الامتيازات بين فرنسا والباب العالي ست عشرة مرة فيما بين عام ١٥٣٥ وعام ١٧٤٠.

ولكن بمرور الوقت اختلفت طبيعة هذه الإمتيازات، وبدلا من كونها امتيازات ممنوحة وقابلة* للسحب أو الإلغاء، أصبحت أشبه بالمعاهدات بين الدول التي يمكن فرضها بالقوة على الباب العالي

وقد كانت شروط هذه الإمتيازات في ذلك الوقت في مصر كالآتي:

١ – يستطيع الأجانب العيش في البلاد وإقامة المشروعات.

٢ – الإعفاء من الجزية (وهي ضريبة على غير المسلمين).

٣ – الحماية من السلطات المحلية والتي لا تستطيع دخول المناطق التي يعيش بها الأجانب.

٤ – الحصانة الدينية.

٥ – الاستقلال عن المحاكم المحلية حيث ان كل القضايا المدنية والجنائية والتجارية فيما بين الأجانب والمواطنين يتم الفصل فيها في محاكم القنصليات الأجنبية.

وقد حكم سعيد لمدة تسع سنوات من عام ١٨٥٤ إلى ١٨٦٣ محققاً الكثير خلال تلك السنوات القصيرة. فقد حَسَّن أحوال الجيش وعيَّن نفسه قائداً أعلى له، كما قام بمدّ خطوط السكك الحديدية وتحسين المواصلات بين القرى، كما أعاد للدولة الأراضي التي قام عباس الأول بالاستيلاء عليها، وحصل على إذن من تركيا لإقامة شركة قناة السويس، ولكن الشروط لم تكن في صالحه. وفي الوقت نفسه فرّط في الكثير من سيادة البلاد التي حققها محمد علي وذلك عن طريق الاستدانة. ومن ثم زاد نفوذ القنصليات التي أعطت لنفسها حق المطالبة الرسمية بأي خسائر حقيقية أو وهمية تتعرض لها المشروعات التي يقيمها مواطنوها.

قال سعيد لقنصل عام عطس في حضوره: "قم زرّر معطفك يا عزيزي القنصل، لأنك ستأخذ برداً اذا تركت معطفك مفتوحاً وعندئذ ستطالبنا حكومتك بتعويض".

وقد أجاد "**لورد ملنر**" وصف هذا الاستنزاف لمصر التي سقطت فريسة لهوس الوالي بالمدنيّة قائلاً "من الصعب تخيّل التجرد التام من الضمير الذي استخدم به الدبلوماسيون الاجانب نفوذهم ليجبروا مصر الضعيفة على الخضوع لمطالبهم المُغالى فيها، في الوقت الذي لم يكن الهدف الحقيقي من الحصول على

---

* (اوجست بنوا "**Auguste Benoit**" دراسة على الإمتيازات بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية وعلى الإصلاحات القضائية في مصر (باريس سنة ١٨٩٠) ص ١٤).

امتياز لاقامة مشروع هو تنفيذه، وإنما كان لاختلاق شكوى ما تسمح بفسخ العقد ومن ثم مطالبة الحكومة بالتعويضات، [٣٤] وقد قام أحد المراقبين الفرنسيين بتلخيص كل هذا في هذه العبارة " كانت أكثر الصفقات ربحاً هي محاولة استنزاف التعويضات من الوالي".

ويحُسب لسعيد باشا اهتمامه بالحضارة المصرية القديمة بإرشاد فرنسي والتي كانت متفرقة في أنحاء البلاد، فبينما هدم محمد علي المعابد القديمة ليأخذ منها مواد البناء لاستخدامها في بناء مصانعه الجديدة، كان سعيد على النقيض تماماً، حيث رمّم الآثار القديمة كما قام بالتنقيب عن الآثار في كل المواقع المعروفة في مصر العليا والسفلى، كما أسّس أيضا المتحف المصري في القاهرة، وخلال فترة حكمه تم الإنتهاء من إقامة كلا الخطين الحديديين القاهرة – الاسكندرية والقاهرة – السويس.

وطوال فترة حكم سعيد وخليفته اسماعيل تدفّق الأوربيون لاسيما اليونانيين والايطاليين والفرنسيين على البلاد. وكان هؤلاء هم المستفيدون من وراء الازدهار الاقتصادي الناتج عن النمو واتجاه الحكام نحو مجاراة الافكار العصرية. واستمر الأقباط في ظل حكم كل من اسماعيل وسعيد يستمتعون بالحرية والتسامح الذي منحه لهم محمد علي، كما استفادوا من الارتفاع في أسعار القطن الذي صاحب الحرب الأهلية الأمريكية مستغلين فرصة إمكانهم شراء الأراضي وفلاحتها نتيجة إعادة توزيع الأراضي الذي قام به سعيد، وكانت النتيجة أن أصبح الكثير منهم من كبار ملاك الأراضي الزراعية. وعلى الرغم من ذلك فقد أصيب الأقباط برعب ولم يسعدوا بوضعهم الجديد في المجتمع عندما أصبحوا عُرضة للتجنيد الإلزامي عملا بالقرار الذي أصدره سعيد وهو كالآتي: " من الآن فصاعدا كل المصريين بغّض النظر عن ديانتهم أصبحوا خاضعين للتجنيد الإلزامي ". بينما كانوا في الماضي معافين من التجنيد مقابل دفع جزية أو ضريبة.

توفي سعيد في ١٨ يناير ١٨٦٣ تاركاً مصر شبه مُفلسة، حيث بلغت ديون الحكومة حوالي ٣٧٦ مليون فرنك ذهب، ونفس القيمة تقريبا كإجمالي تكلفة أسهم قناة السويس بالإضافة إلى الدين الإنجليزي الألماني والذي بلغ ٦٠ مليون فرنك ذهب والذي استدانته مصر في ١٨ مارس ١٨٦٢ بالإضافة إلى المبالغ المستحقة عن السندات المالية المتداولة [٣٥].

---

[٣٤] أوردها كل من جين وسيمور لاكتوير: مصر في عصر الإنتقال ص ٦٧.

[٣٥] القضية المصرية La Question d' Egypte – تأليف إميل سليم عماد.

عندما خلف اسماعيل عمه سعيد بدأ في التخلص من البنود المهينة والتي أمليت علـى مصـر بموجـب مؤتمر الدول الأوروبية في ١٥ يوليو ١٨٤٠ في لندن والتي تحددت فيه العلاقة بين مصر وتركيا، ونتج عنه فرمان ١٨٤١ الذي أنقص بدوره من بنود الحكم الذاتي لمصر. وقد كان لشخصية اسماعيل نفس الرغبة العارمة في تفخيم ذاته والتي كانت سمة من سمات أجداده والتي كان لها كبير الأثر على الأحداث الـتي تلت بعد ذلك.

وكان تغيير لقبه أحد أسمى طموحاته ليدل على أنه حاكم مستقل في بلده، وأنـه حـر في تصرفاته. واستطاع اسماعيل من خلال الهدايا المستمرة والرشاوي لـذوي النفـوذ في تركيـا أن يحصـل علـى لقب **"خديوي باشا مصر"** بدلاً من **"والي باشا مصر"** وبذلك أصبح حاكماً فريداً بـين حكـام الولايـات التركيـة الأخرى. وبذلك أيضاً ارتقت مصر من مجـرد ولايـة بسـيطة إلى خديويـــة، وقـد كـانت الخديويـة فكـرة مبتكرة لتُظهِر ان مصر شيئاً مختلفاً وإن كانت لاتزال في الحقيقة ولاية تركية.

ولم تكن كلمة "خديوي" تعني شيئا في العربية ولا التركية ولكنها مُشتقّة من كلمة فارسية تعني رائع. وقد استطاع اسماعيل – بمساعدة رجل أرمني غامض كان صاحب بنك اسمه **"ابراهام باشا كراكيخيـه"** كان يعيش في الآستانة (القسطنطينية) – الحصول على فرمان ١٨٦٦ الذي أرسـى نظـام الخلافـه معطيـاً اسماعيل الحق في الحكم الوراثي لمصر والسودان طبقا لقانون حق البكورة (يقتصر الحكم على الابن البكر) بينما كان النظام السابق يولّى الحكم أكبر الأسرة سناً.

وكانت تكمُن الخطورة بالنسبة للنظام القديم عندما يكون الأمراء من أمهات مختلفات فكانت تأتي بتأثير عكسي على البلاد، حيث كان الحاكم الذي يعرف أن ابنه لن يحكم بسبب وجود أبناء عم أو أبناء أخوة أكبر منه سناً يتجه إلى جمع الأموال بقدر الإمكان ليتركها لهذا الابن. وقد صدر فرمان آخـر سنة ١٨٦٧ ليغـير لقب حـاكم مصر من والي إلى خديوي، وفي الوقت نفسه ألغي الحظر العسـكري الخـاص بحجـم الجيـش المصـري، كمـا أبطـل فرمان سنة ١٨٧٣ فرمان ١٨٤١، وبهذا استطاع اسماعيل تحقيق الأهداف التي استعصت على محمد علي.

وفيما يلي المزايا التي حصل عليها اسماعيل:

١ – الحكم الوراثي المباشر من الأب إلى الابن بترتيب البكورة كما في البلاطات الأوروبية.

٢ – إحلال لقب الخديوي الأعظم محل الوالي أو مجرد حاكم ولاية.

٣ – الاستقلال الذاتي في الإدارة على أوسع نطاق مدنياً ومالياً والاستقلال التشريعي التام وحريـة التعـاقد على القروض العامة دون إذن الباب العالي.

٤ – حق صك عملات في مصر باسم السلطان ولكن بفئات مختلفة عن تلك المستخدمة في تركيا.

٥ – امتداد الحدود المصرية لتضم سواكيم وماساوا.

٦ – حرية التفاوض مع الدول من أجل إقامة مواثيق مختلفة خاصة بالجمارك والخدمات البريدية.

٧ – توطيد العلاقة بالبوليس الخاص بالأجانب وكذلك توطيد علاقاته مع الحكومة المصرية والجماهير.

٨ – أن يتوسع في جيشه وأسطوله كما يشاء.

بتوقيع فرمان سنة ١٨٧٣ لم يصبح لتركيا على مصر أي حق سوى إتاوة سنوية (ضريبة تؤديها دولة إلى أخرى).

وكما أورد **أنجلو سان ماركو** في كتابه " **ملخص التاريخ المصري** " Précis de l' Histoire d' Egypte :

"على المرء أن ينظر إلى المصروفات والهدايا التي تكبّدها اسماعيل من أجل نجاح أهدافه من المنطلق السياسي وليس الاقتصادي، وبما أنه نجح في تحقيق مساعيه فان مبلغ الخمسمائة مليون فرنك ذهب التي أنفقها، كان لها ما يبررها".

وقد اشتملت المرافق العامة التي أنجزت في عهده، على خطوط سكك حديدية لصعيد مصر في المناطق التي لم يتوفر لها سكك حديدية من قبل. ولتدعيم نظام الري أقام الخزانات، وحفر الترع التي من أهمها ترعة الإبراهيمية في صعيد مصر، وترعة الإسماعيلية في الوجه البحري، وقد خصص ايراد ٢٢٠٠٠ فدان من مقاطعة الوادي للتعليم وأوقفها للكتاتيب العامة حيث سمح للمسلمين والمسيحيين للالتحاق بها دون تمييز، كما أرسل العديد من البعثات الدراسية إلى أوربا، وأعاد تنظيم جامعة الأزهر كذلك توسّع في زراعة قصب السكر وكانت النتيجة بناء ثمانية عشر مصنعاً جديداً لتكرير السكر. وقد أولى عناية كبيرة بتزيين القاهرة والاسكندرية فأقام الشوارع الجديدة وقام بتحسين الإضاءة وزرع الأشجار على جانبي الطرق كما أنشأ حدائق عامة للنزهة كالأزبكية بالقاهرة والنزهة بالاسكندرية.

ومن أروع انجازات عهد اسماعيل وأكثرها تكلفة وإن كانت أقلها نفعاً في نظر المصريين هو حفر قناة السويس. الذي كان نصراً عظيماً لفرنسا وفائدة كبرى لبريطانيا. ولكن بالنسبة لمصر فقد كانت منفعة مشكوكاً في أمرها حيث كلفتها فَقْد آلاف الأرواح من أبنائها أثناء حفر القناة.

وكانت الإمتيازات التي منحها سعيد لصديقه **"فرديناند ديليسبس"** مجحفة بالنسبة لمصر. فقد كانت تكفل للأجانب احتكار أراض ذات قيمة عالية لمدة تسعين عاما، بالاضافة إلى حقوق التعدين وكذلك تسخير العمالة المصرية بالنسبة لأربعة أخماس العمل.

وكان أول إجراء قام به اسماعيل هو الاتفاق مع الباب العالي والحكومة البريطانية، على وجوب الغاء الشروط المجحفة من هذه الامتيازات. وبينما أعدّ العدة للوفاء بالتزامات سعيد المتعلقة بأسهم الشركة، فطالب اسماعيل باجراء تعديل شامل للإمتياز الممنوح بالغاء حق احتكار الأراضي السابق التنازل عنها وحق التعدين وكذلك الغاء نظام العمل بالسخرة [٣٦].

وقد تم عرض الأمر على نابليون الثالث للتحكيم فيه، إلا أنه رغم موافقته على المطالب المصرية قدّر التعويض الذي يُدفع للشركة مقابل ذلك بأربعة وثمانين مليون فرنك أي ما يعادل نصف رأس مال الشركة الأصلي تقريبا، وحيث أن اسماعيل كان ملتزماً أصلاً بأخذ نصف الأسهم فان هذا يعني أن مصر قد دفعت قيمة القناة بالكامل.

وقد ضمن اسماعيل الاعفاء من أي مطالب أخرى من قبل الشركة، بدفع ثلاثة ملايين جنيه مضمونة بفوائد نصيب الخديوي في القناة حتى عام ١٨٩٥. وقد كان اسماعيل يأمل بأن يرتفع بمصر إلى مستوى الدول الأوربية، وكان يشعر بأن كفة العدالة تحت نظام الإمتيازات الأجنبية تميل لصالح الأجانب، ولذا قام بتأسيس "مجلس دولة" ثم أرسل رئيس وزرائه **نوبار باشا**، الذي كان شديد الذكاء والتمكن، للتفاوض مع تركيا للسماح لمصر باقامة شئ جديد هو المحاكم المختلطة والتي كانت ستتكون من ٥٠٪ من المصريين و٥٠٪ من الغربيين من كل الدول، حيث تفصل هذه المحاكم أساسا في القضايا المدنية، وقد كان هذا تقدماً كبيراً بالمقارنة بالمحاكم القنصلية التي تخصّصت فيما بعد للفصل بين المصريين والأجانب في المسائل الجنائية فقط.

وبذلك أصبح في مصر ثلاثة أنواع من المحاكم:

١- **المحاكم الوطنية**: للفصل بين المصريين سواء مدنيا أو جنائيا، وكانت تضم أيضا المحاكم الشرعية.

٢- **المحاكم القنصلية**: للفصل بين المصريين والأجانب في الجرائم الجنائية.

٣- **المحاكم المختلطة**: التي كانت تفصل بين المصريين والأجانب او بين أجنبي وأجنبي آخر في

---

[٣٦] مصر الحديثة لتوم ليتل ص ٣٩.

النزاعات المدنية، وقد أوضح السيد صبري [٣٧] (المؤرخ المعروف): "ان نظام الإمتيازات الأجنبية كان يميل لجعل مصر محكمة استئناف لكل الشخصيات المشكوك في أمرها والتي تلفظها أوربا، وقد وضع تكوين المحاكم المختلطة حداً لإجهاض العدالة". ولا يمكن القول هنا ان المصريين بدأوا يتمتعون بالمساواة في المعاملة، ولكن لم يعد باستطاعة منتهكي القانون من الأوربيين الاعتماد على الحصانة المنوحة لهم من قبل [٣٨]. ونجح نوبار باشا في الحصول على موافقة الباب العالي والقوى الأخرى. واحتفالاً بإنشاء المحاكم المختلطة أقام اسماعيل نظارة العدل.

وعلى الرغم من خطاه الواسعة نحو تقدم مصر فقد انتهي عهد اسماعيل بعزله رسمياً، فقد كلف اسماعيل البلاد ملايين الجنيهات، وآلاف الأرواح، بالاضافة إلى بؤس فلاحي بلاده، واستنزف آخر قرش من الفلاح واستدان من كل دولة استطاع أن يمدّ يده اليها طلباً للمال. وعندما أصبح مؤكدا أن الرواج الكبير في أسعار القطن قد انتهى وأن مصر مُقدمة على حالة من الكساد، وأنه ما لم تتخذ اجراءات حاسمة، فان الديون المكونة من رأس المال وفوائده كانت على وشك الضياع، عندئذ ضغط حاملو السندات والبنوك على القوى العظمى للتدخل.

حينئذ أجريت عدة محاولات لكبح جماح إسراف اسماعيل، ورغم تصريحاته باستعداده للاستجابة إلا أن كل هذه المحاولات باءت بالفشل. وعندما فصلت المحاكم المختلطة في بعض القضايا لصالح الحكومة الألمانية التي كانت تطالب مصر بمبالغ معينة أغفل اسماعيل تلك الاحكام ورفض الدفع، ومن ثم تركه أصحابه الأوربيون بل وضغطوا على الباب العالي لعزله، وتم عزله في يونيه عام ١٨٧٩، وفُرضَت الوصاية الانجلزية الفرنسية المشتركة على الاقتصاد المصري لبضعة شهور.

وقد تم اشهار إفلاس مصر في يوليو عام ١٨٨٠، وصدر قانون بتصفية بعض الأصول، وكان الباب العالي يرغب في العدول عن فرمان سنة ١٨٧٣، إلا أن البريطانيين والفرنسيين رفضوا ذلك، فأصبح ولده توفيق هو الخديوي، على أن أحد ايجابيات فترة حكم اسماعيل أنه أصبح يُنظر لمصر على أنها دولة وليست ولاية وإن كانت لا تزال تدفع إتاوة سنوية لتركيا.

ولم يكن المسلمون منذ أوائل الفتح العربي يؤمنون بجدوى إعطاء غير المسلمين حق القتال وشرفه معهم،

---

[٣٧] الأمبراطورية المصرية تحت حكم اسماعيل والنفوذ الانجليزي الفرنسي – بول جوتنر – باريس سنة ١٩٣٣.

[٣٨] مصر في عصر الانتقال لجين وسيمون لاكوتور.

حيث إنهم هم حاملو لواء الاصلاح وكانوا يتقاضون منهم بدلاً من ذلك ما كان يسمى "الجزية" مقابل الإعفاء من التجنيد، ولكن في عهد اسماعيل تم تجنيد الأقباط في الجيش، وبالرغم من أن سعيد كان قد أصدر قانوناً مماثلا إلا أنه لم يوضع موضع التنفيذ أبداً. وفي أحد العروض العسكرية قال اسماعيل للكاتب الفرنسي **جابريل شارم** والذي كان يزوره في هذا الوقت:

" أترى هذه الفرقة، أن بها عرباً وأقباطاً، مسلمين ومسيحيين يمشون في نفس الصف، أؤكد أن كلا منهم لا يشغل باله بعقيدة جاره فالمساواة بينهم تامة "[٣٩].

كان اهتمام اسماعيل بتجنيد الأقباط في الجيش لتحسين صورة مصر في العالم الخارجي. وكان يريد أن يظهر أن كل المصريين – بغض النظر عن عقيدتهم – متساوون في معاملتهم أمام القانون. وكذلك كان يريد أن يمحو من فكر المسلمين أن الأقباط مميَّزون بعدم خضوعهم للتجنيد. ومن الجدير بالذكر أنه لمدة ألفي عام منذ أيام الإسكندر الأكبر حتى عهد محمد على في القرن التاسع عشر لم يكن هناك تجنيد إجباري للمواطنين المصريين.

فقد كان لمختلف الغزاة جنودهم الخاصة بهم – عادة من المرتزقة – فيما عدا تحت حكم بطليموس الرابع عام ٢١٧ ق.م. عندما ساعده فريق من المواطنين المصريين في كسب معركة رفح.[٤٠] وصحيح أنه كانت هناك انتفاضات للمصريين ضد الغزاة ولكن ليس بجيش منظم، ومنها مقاومة الجماهير ضد الغزو الفرنسي عام ١٧٩٩.

وعلى الرغم من الهدايا التي كان اسماعيل يغدقها على حاشية السلطان، إلا أن الباب العالي رفض اعطاءه حق اللجوء السياسي، بينما فتحت أسرة سافوي الحاكمة في (ايطاليا) ذراعيها مرحبةً، الأمر الذي ربما يرجع إلى الصداقة العريقة بين الأسرتين المالكتين المصرية والإيطالية، وقد كتب اسماعيل لمولاه السلطان العثماني من قصره بالقرب من نابولي الرسالة التالية:

" لقد أتممت توا ستة عشر عاما من الخدمة المكرسة حيث أمكن تحت ادارتي تغطية البلاد بشبكة من خطوط السكك الحديدية كما زادت مساحة الأراضي الزراعية وزادت خصوبة الأرض بشق ترع جديدة. كما أنشئ ميناءان كبيران في الاسكندرية والسويس. وكذلك تم تدمير مصادر الرقّ في افريقيا الوسطى، وارتفع علم الإمبراطورية على بلاد لم تكن معروفة في ذلك الحين، وتم شق قناة بين البحرين وأُهديت إلى

---

[٣٩] سيلفستر شالور، تاريخ الأقباط المصريين، ص ١٥٢.

[٤٠] مصر في أيام البطالمة لـ د. ابراهيم نصحي والذي أوردها د. رياض سوريال في كتابه المجتمع القبطي في مصر خلال القرن الـ ١٩ ص٢٠٧.

العالم أجمع. وأخيراً، وبعد مقاومة طويلة تم إصلاح النظام القضائي الذي سيقوم بـدوره بتمهيـد الطريـق امام إنشاء عدالة حقيقية بين حضارات المشرق والقوى الأجنبية ".



مصر والسودان

لعله من المناسب هنا أن نذكر علاقة مصر بالنوبة والسودان منذ انسحاب ملوك كوش من البلاد، ففي ظل كل من الدولتين الرومانية والبيزنطية لم يستتب الحكم المصري في أي وقت لمدة طويلة أبعد من حدود جزيرة فيلة بأسوان.

وفي نفس الوقت كان الدين المسيحي في البلاد الوثنية يسير قدماً في الجنوب، وعند الفتح العربي لمصر لم تكن المسيحية مقتصرة على وادي النيل فحسب بل بلغت الحدود الجنوبية لأثيوبيا على الجانب الشرقي للقارة الافريقية.

وكان هناك عدد من الممالك المسيحية فيما بين أسوان وأثيوبيا اتخذت من رئيس الكنيسة الوطنية في مصر بطريركاً لهم.

وفي عام ٦٤٣ م أرسل عمرو بن العاص بجيش للنوبة تحت قيادة أحد أمرائه. وفي كتاب الفتوحات لأحمد **الكوفي** يقول الكاتب ما يلي:

> " كان عمرو بن العاص في مصر عندما تلقى خطابا من عمر يأمره بأن يتجه إلى النوبة ويفتح هذه البلاد (بلاد البربر) ".

استمرت الغارات والمناوشات بين الطرفين لعدة سنوات. ولكن عندما أصبح محمد بن سعيد حاكما لمصر عام ٦٥٣ م استطاع أن يهزم النوبيين باستخدام آلة لقذف الأحجار لم يسبق ظهورها من قبل والتي دمرت الكنيسة الرئيسية في المدينة، وقد أُثير الرعب في نفوس النوبيين بمحو الكنيسة، لدرجة أنهم أبرموا اتفاقية سلام مع العرب، وكانت شروط المعاهدة كالتالي:

أ – وافق العرب على عدم غزو النوبة في مقابل أن تقوم الأخيرة بمساعدة العرب في حروبهم عند الحاجة.

ب – على النوبيين السماح ببناء مسجد في دنقلة لمن يرغب من العرب في الإقامة هناك مع مراعاة عدم الإضرار به. وأن لا يتم إزعاج أي مسلم أو منعه من ممارسة شعائره الدينية.

ج – على النوبيين أن يلتزموا بتنظيف واضاءة المسجد.

د – يسمح للمسلمين بحرية الدخول إلى البلاد، ولكن لا يتم ايواء أي عبد هارب من العرب من مصر، وفي الوقت نفسه لا يتم تشجيع الهجرة من وإلى مصر من كلا الجانبين.

وكان من أسوأ ملامح هذه المعاهدة الشرط الذي نص على إمداد حاكم أسوان بعدد ٣٦٠ عبداً من الجنسين لخدمة الإمام سنوياً، على أن لا يكون بينهم رجل أو امرأة مُسنّة أو طفل دون سن البلوغ، وهو

النص الذي وضع الأساس لتجارة الرقيق. وفي مقابل ذلك كان على العرب إرسال هدايا من النبيذ والقمح والشعير والملابس الراقية لملك النوبة، وبين الحين والآخر كان ينتاب الحاكم العربي الوساوس بخصوص ارسال النبيذ لتعارض تعاطي الخمر مع الدين الإسلامي.

وبعد فترة ثار سؤال نابع من الضمير بين العرب وهو طالما كانت إتاوة العبيد تُدفع بانتظام، فهل من العدل أخذ عدد أكبر من رقيق النوبة عن العدد المتفق عليه في المعاهدة ؟

بعد عدّة مشاورات وصل المفتون [٤١] في النهاية إلى فتوى أباحت تجارة الرقيق لكل من تم أسرهم في الحروب أو كانوا عبيداً في بلادهم أصلاً.

استمرت هذه الاتفاقية التجارية السلمية سنة ٦٥٢ لستة قرون باستثناء حالات قليلة كحكم الطولونيين الاتراك في القرن التاسع الذين شجعوا القبائل البدوية العربية على الهجرة جنوباً الى النوبة، حيث قاموا ببعض عمليات النهب طمعاً في التنقيب عن الذهب في الصحراء النوبية ولكن ظل قلب الأراضي النوبية بعيداً عن أي عدوان حتى سيطر المماليك على حكم مصر في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر.

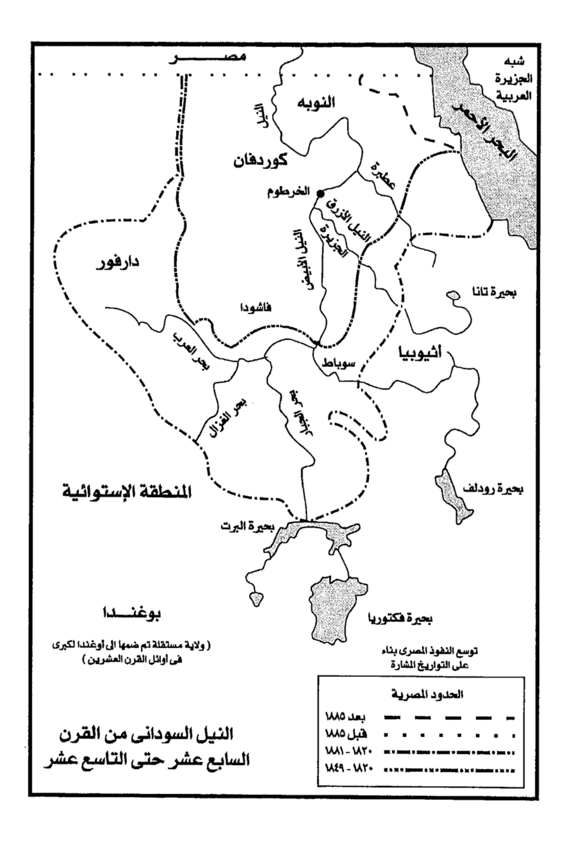
وقد قام المماليك بحملات عسكرية منتظمة تستهدف أساساً التخلص من البَدو العرب الجامحين وإخضاعهم، ولكنهم لم يتمكنوا أبداً من إحتلال النوبة، وإن كان العدوان المتكرر عليها قد دمّر البلاد بشدة وتركها فريسة سهلة لهجرة العرب.

وفي القرن الخامس عشر عندما استشعر العرب الرُحَّل أن الاراضي الواقعة بعد حدود أسوان تستطيع إعاشة قطعانهم، وانه ليس هناك سلطة لديها القوة لمنعهم، فبدأوا في الهجرة إلى الجنوب مقدمين للسكان المسيحيين الحضارة العربية والاسلامية، ومن خلال الزيجات والدخول في الإسلام أصبحت الديانة الإسلامية هي الديانة المهيمنة على السودان.

وفي عام ١٨٢٠ فتح محمد علي – والي مصر – تحت السيادة العثمانية السودان حتى سفوح الهضاب الأثيوبية، فقد كان يسعى وراء الذهب والعبيد اللذين يمكن توفيرهما من السودان، وأراد أن يسيطر على المنطقة النائية الشاسعة جنوب مصر، فقام بتعيين حاكم عام على السودان هو **علي خورشيد أغا** الذي حددت سياسته فترة جديدة في العلاقة المصرية السودانية، فقام بتخفيض الضرائب وتعاون مع شيوخ السودان وأعيانه.

---

[٤١] كلمة مفتي تعني مسئول شرعي معين لابداء الرأي في الشريعة الإسلامية.



النيل السودانى من القرن
السابع عشر حتى التاسع عشر

كما ازدهرت الخرطوم لتصبح العاصمة الادارية للقطر كله، وتم إدخال العديد من الاصلاحات الزراعية والتقنية الحديثة، كما تمت حماية طرق التجارة وزيادة عددها، وكان لمحمد علي جيش في السودان قنوع وراض بسبب الظروف الميسرة والرواتب المنظمة التي ساعدت هذا الجيش على توسع الادارة المصرية وتقويتها.

ولكن قبيل نهاية حكم محمد علي وخلال العقدين التاليين، أصيبت البلاد بحالة من الجمود نتيجة لضعف تأثير الحكومة في الخرطوم وتذبذب الولاة في القاهرة.

وقد بقي الوضع على ما هو عليه حتى تولى اسماعيل – الأكثر تميزاً في الفاعلية والحركة – زمام الأمور في مصر والسودان. وقد كان طموح اسماعيل بالنسبة لمصر كبيراً، حيث كان يأمل أن يضم مساحات شاسعة من أفريقيا والسودان تحت السيطرة المصرية. ولذا فقد وظّف الأوروبيون والأمريكيون لإدارة النواحي العسكرية والمدنية نتيجة لطموحاته حيث كان يثق فيهم أكثر من المصريين. ولكي يقوم بتمويل تلك المشاريع الموّسعة لجأ اسماعيل للدول الأوربية ذات الفائض في رأس المال حيث كان المستثمرون على استعداد للمخاطرة بمدخراتهم بسعر فائدة مرتفع من أجل التنمية المصرية والأفريقية، ولا يمكن اجتذاب مثل هذه الأموال إلا إذا تمشّى اسماعيل مع أفكار الأوربيين بالنسبة لمنع تجارة الرقيق، ولم يكن اسماعيل في حاجة إلى تشجيع، فقد كان هو نفسه من أشد مناهضي تجارة الرقيق وقد عمل جاهدا لقمعها، والتعاون مع الدول الأوربية في هذا الصدد.

وفي عام ١٨٦٩ أرسل سير " **صمويل بيكر** " على رأس قوة مصرية لوقف تجارة الرقيق في أعالي النيل، وإقامة الحصون العسكرية لتأمين السيطرة المصرية على حوض النيل حتى حدود خط الإستواء، وقد استطاع السير صمويل من تنفيذ كل ذلك فأقام إمارة استوائية كجزء من السودان المصرية التي ظلت تحت حكم مصر حتى الثورة المهدية عام ١٨٨٢.

وقد خلف سير صمويل بيكر " **جنرال جوردون** " الذي أصبح حاكماً للسودان عام ١٨٧٤ بما في ذلك الإمارة الاستوائية، أما خارج نطاق سيادته في اتجاه الغرب فكانت هناك المساحات الشاسعة لمنطقة بحر الغزال وهي معقل تجار الرقيق الذين كانت لهم حاميات عسكرية كبيرة من الجنود العبيد، وكان يحكمهم أكبر تجار الرقيق والمعروف باسم **زبير باشا**.

وعندما أحيل "بيكر" إلى المعاش عام ١٨٧٣ عين الخديوي اسماعيل الزبير باشا حاكما لبحر الغزال، حيث لم يكن بامكان القوات المصرية قمع الرّق في هذه المنطقة كما فعل "بيكر" في

منطقة بحيرة فيكتوريا، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي استطاع بها اسماعيل أن يجعل هذه المساحة الشاسعة تحت العلم المصري اسميا على الأقل. وقد نتج عن عزل الخديوي سنة ١٨٧٩ حالة من الخراب، فقام الدائنون بتعيين هيئة فرنسية بريطانية لها مهمة محددة وهي استخراج وفرز أموال مصر وسداد ديونها، ومع الأخذ في الاعتبار معارضة اللجنة في انفاق أية أموال أكثر على السودان. بالاضافة لكل ما سبق، شعر "جوردون" بعجزه عن مواصلة حكم السودان، ولذا استقال وكذلك فعلت نخبة من أقدر الاداريين الأوربيين والمصريين الذين قدموا استقالتهم أو قام هو بفصلهم من الخدمة.

وفي عام ١٨٨١ قام محمد أحمد المُلقب **بالمهدي** – وهو زعيم ديني متصوف – بقيادة ثورة ضد الاحتلال المصري التركي والتواجد المسيحي الأجنبي في البلاد، وقد ساعده تجار الرقيق الذين شعروا أنها الفرصة التي انتظروها لإطلاق يدهم في البلاد، وقد استطاعوا أن يذبحوا قوة مصرية أُرسلت للقضاء عليهم دون أن يتكبدوا سوى بعض الإصابات القليلة في صفوفهم.

وفي عام ١٨٨٢ احتل الانجليز مصر بعد مذبحة للأوربيين في الاسكندرية، نتيجة لإنقلاب عسكري قام به الضباط المصريون – تحت قيادة الضابط المصري **أحمد عرابي** – الذين ثاروا ضد الامتيازات التركية الشركسية والنفوذ الأجنبي.

كان لتردد الخديوي توفيق، وكذلك لتخوف كل من انجلترا وفرنسا من أن يصبح عرابي قائدا عسكريا متسلطا وأن يتخلف بدوره عن دفع الديون المستحقة لأوربا وأن يهدّد الطريق الحيوي لبريطانيا إلى الهند أي قنال السويس. أثر قوي أدى إلى الإحتلال البريطاني بعد هزيمة القوات العرابية في معركة التل الكبير. وفي هذا الوقت تقدمت بريطانيا بنصيحة للمصريين بإخلاء السودان. وكانت مصر غير راغبة في تنفيذ هذه النصيحة، وقامت بمحاولة واهية لإسترداد ما تبقى لها من هيبة، فأرسلت قوة تحت قيادة الجنرال " **هيكس** " ضد الثوار في السودان، ولكن عندما فشلت هذه المحاولة أصدرت بريطانيا أوامرها بإخلاء السودان. لأنه في نظر بريطانيا كان من غير المكن لمصر ان تفي بديونها لأوربا وفي نفس الوقت تسترد مليون ميل مربع في أفريقيا.

وقد أُعيد "جوردون" إلى السودان لترتيب الجلاء عن الحصون المتبقية، وقد حاول جاهدا تحقيق ذلك، عن طريق الغاء الضرائب واطلاق سراح المساجين. بل حاول أيضا إرضاء تجار الرقيق على وعد أن يتركهم وشأنهم، وتعهد ان لا يرحل حتى يتأكد من سلامة عودة جميع الموظفين التابعين للحكومة المصرية، لكنه عُزل عن قواته الرئيسية وقُطعت أخباره عنها، وقد ارسلت بريطانيا نجدة حربية بقيادة الجنرال سير " **جارنيت ولسلي** " وصلت إلى بوابات الخرطوم في اكتوبر ١٨٨٢ بعد يوم واحد فقط من



المهـــــــــــدي

Sudan Death of a Dream. by Graham F. Thomas. عن كتاب



أحد أعلام المهديـــــــة

Sudan Death of a Dream. by Graham F. Thomas. عن كتاب

مصرع جوردون على يد انصار المهدي.

وفي يونيه عام ١٨٨٥ انسحبت القوات المصرية والبريطانية إلى حدود مصر عند منطقة وادي حلفا. ويجدر أن نُشير الى أن خزانة مصر قد تحملت كل النفقات في السودان قبل الثورة المهدية من حيث انشاء نظام للمواصلات، وإقامة محاكم قضائية، وبناء المدارس، وكذلك انشاء مكاتب للإدارة وأيضا ثكنات لقواتها، وقد تضمنت النفقات الإقتصادية كل المرتبات وثمن الأسلحة والمؤن والمصروفات الأخرى. أما العمالة فقد وفرت الضباط والجنود والمهندسين والإداريين الآخرين. وقد كان هناك نسبة من الرجال الأجانب الذين وظفتهم مصر، الا أن مصر قامت بدفع رواتبهم جميعاً، ولم يكن هناك أي مواطن بريطاني يعيش في السودان في ذلك الوقت.

وقد ذكر الأمير عمر طوسون في أحد أعماله " **تضحيات مصر في السودان** ":

" كلفت الثورة المهدية مصر عدد ٧٩,٩٠٠ ضابطٍ وجندي وحوالي ٢٠٠,٠٠٠ رجل وإمرأة وطفل من مواطنيها في السودان بينما خسرت انجلترا ١٤٠٠ رجل ككل أي بنسبة واحد في المائة من الجنود وثلاثة في المائة من الضباط وصفر في المائة من المواطنين " [٤٢].

وعلى الرغم من عجز اسماعيل في حياته عن تحقيق الوحدة التامة مع السودان، إلا أنه قد وضع البذور التي نمت وأصبحت عنصرا هاما في مستقبل الفكر الوطني ... ألا وهي الوحدة السياسية بين مصر والسودان والتي أصبحت حَجر عثرة في العلاقات المصرية البريطانية في السنوات التالية.

---

[٤٢] كما أوردها اميل سليم عماد في كتابه "القضية المصرية" La Question d' Egypte ص ١٨٩.

الكتاب الثاني
أسرة رائدة متحدة
حنا وشقيقه ويصا يظهران في الصورة عام ١٨٤٥

عشرة قروش وحمار ومحل حراير

نشأت عائلة استر وجدها في زمن كانت تجري بـه تغييرات جوهرية بالبلاد، في الدين والاقتصاد وأساليب الحياة. وتُعتبر قصة أبو أمها ويصا بقطر ويصا وأخيه حنا بقطر ويصا، وكيف صنعا ثروتهما في حياتهما، قصة أشبه ما تكون بإحدى قصص ألف ليلة وليلة أكثر من كونها قصة واقعية.

بدأت القصة عندما تزوج تاجر خردوات بسيط من أسيوط اسمه بقطر ويصا للمرة الثانية عام ١٨٤٣. فقد توفيت زوجته الأولى سارة تاركة له ولدين: أكبرهما الذي سُمي حنا على اسم والدها وقد ولد عام١٨٣٢ وفي عام ١٨٣٧ ولد الأصغر ويصا الذي سمي على اسم جده لأبيه وعندما بلغ حنا حوالي الثانية عشرة كان عائدا من محل والده فوجد شقيقه ويصا يبكي فسأله عن السبب فرد عليه بأن رابته (زوجة أبيه) قد ضربته. لكن حنا، الذي كان مندفعا بطبيعته وكان غير راضٍ عن زواج والده لمرة ثانية بعد وفاة أمه ذهب إلى رابته وتشاجر معها وصفعها، وعندما عاد بقطر إلى المنزل غضب للغاية من تصرف ابنه لدرجة أنه طرده خارج المنزل، فأمسك حنا بيد أخيه ويصا وتركا معاً منزل العائلة. ظل ويصا يبكي لأنه لم يتناول طعام الغذاء ولأنه كان جوعانا، فاقتسم حنا مع أخيه رغيف خبز كان معه، ولجأ الشقيقان إلى خالتهما وطلبا منها أن يبقيا معها فوافقت.

خرج حنا صباح اليوم التالي ومعه عشرة قروش – كانت تعتبر مبلغا كبيراً في تلك الأيام – واشترى بعض الدبابيس والإبر وخيط وما إلى ذلك بغرض التجارة، وأخذ شقيقه معه وظلا يتجولان من منزل إلى منزل ليبيعا هذه الأدوات، لكنهما وجدا أنهما يحصلان على ثمن أعلى عند بيعها بالقرى والمزارع خارج المدينة، وكانا يحاولان توفير احتياجات عملائهما بعرضها عليهم في مساكنهم. وبعد بضع سنوات وفرا ما يكفي لشراء حمار مكّنهما من التجول بعيداً في الحقول ومعرفة المناطق المحيطة، وحقق ذلك لهما مبلغاً قدره أربعون جنيها بعد عشر سنوات.

في ذلك الوقت أصبح حنا في سن الثانية والعشرين وويصا في سن الخامسة عشرة، وأثناء تجوالهما سمعا بأنه يوجد مركبا قد غرقت في النيل قرب إحدى القرى التي اعتادا البيع فيها، وكانت البضاعة مؤمناً عليها لدى شركة تأمين مركزها في الاسكندرية. ولم تر شركة التأمين أن الأمر يستحق اخراج هذا

المركب من الماء، وعرض مندوب التأمين المركب بكل محتوياته للبيع وهو راقد في النيل بمبلغ أربعين جنيها.

قال ويصا الذي كان مغامراً بطبيعته لأخيه "دعنا نشتري هذا المركب ونحث أهل القرية على مساعدتنا لاخراجه من الماء، وندفع لهم فيما بعد"، ولم يكن حنا ميالاً للمخاطرة بمبلغ الأربعين جنيها الذي قضيا في جمعه عشر سنوات من عمرهما علاوة على الكثير من التجوال لتوفيره؛ ولكن ويصا كان عنيدا، وهدد بانهاء الشركة، وأخذ نصيبه المكون من عشرين جنيها. ولما كان حنا مرتبطاً للغاية بشقيقه فلم يكن بامكانه تحمل فكرة الانفصال عنه، ومن ثم وافق على المجازفة بالأربعين جنيها.

تمكّن الشقيقان بمساعدة شيخ القرية ورجاله بأن يرفعا المركب من الماء، ولدهشة الشقيقين وحُسن حظهما أن شحنة المركب كانت مكونة من عبوات من الحرير الطبيعي وأقمشة أخرى مغلفة بشكل جيد لدرجة تمنع تسرب الماء اليها ومن ثم تلفها، مما مكنهما من فتح محل، وبهذا أصبحا على أول الطريق لتكوين ثروة.

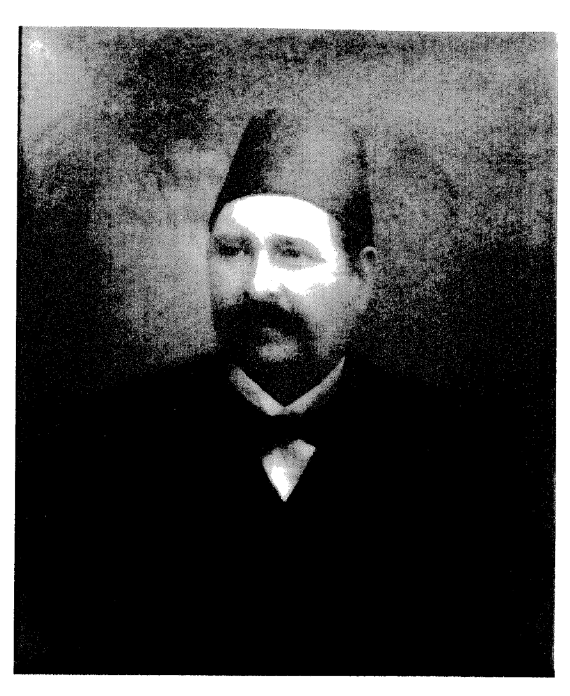
درب الأربعين

بدأ الشقيقان حنا وويصا التجارة بالمحل الخاص بهما، فعملا فيه بجد. وكانا على استعداد للمخاطرة في المجالات التي كان الآخرون يخشون ارتيادها، فأصبحا من كبار تجار الأقمشة والبضائع المشابهة التي كانا يجلبانها إلى أسيوط من القاهرة. كان لديهما دائما أصناف عديدة ومخزون كبير لبيعها للتجار الآخرين الموجودين جنوب مدينة أسيوط، كذلك أقاما علاقات عمل نشطة مع أولئك الذين يتاجرون مع السودان، خاصةً وأن أسيوط هي نقطة الإلتقاء التي يبدأ منها طريق التجارة المصرية إلى السودان، وهو طريق بري يصل إلى دارفور بالسودان يُعرف باسم درب الأربعين أي "طريق الأربعين يوماً".

وأتتهم الفرصة الكبيرة عندما وصل الخديوي سعيد إلى السلطة، تاركاً التجارب الاقتصادية السابقة لكل من والده محمد علي وحفيده عباس الأول. فالخديوي سعيد قد تعلم في فرنسا ولم يكن مؤمناً باحتكار الدولة، ففرض ضرائب نقدية بدلاً من الضرائب العينية وأنشأ نوعا من الملكية الخاصة للأراضي، وهو نوع من نظام حق الانتفاع بالاراضي يُعرف بنظام السعيدية، وكان الفلاح بمقتضاه حراً في زراعة المحصول الذي يرغبه وبيع انتاجه بحرية في السوق، وبيع حقوق الانتفاع أو تركها لأولاده أو يهبها أو يتخلى عنها لغيره، لكن ظل الامتلاك الحر للأرض (أو ملكية الرقبة) تابعا للدولة التي فرضت ضريبة أراضٍ والتي كان من حقها الغاء حق الانتفاع بمقتضى النظام اذا لم تُدفع هذه الضريبة.



حنا بقطر ويصا (١٨٣٢-١٩٠٧)



ويصا بقطر ويصا (١٨٣٧ - ١٩٠٦)

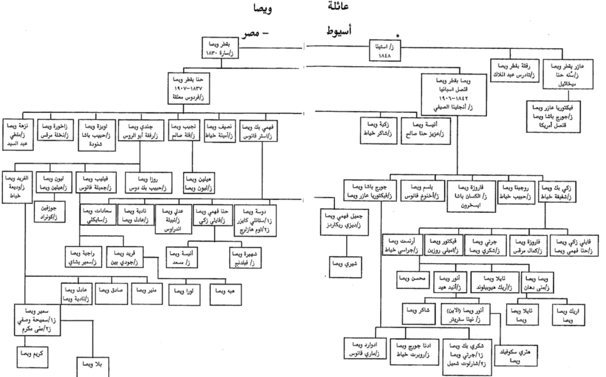
طبق هذا النظام على كل من المسيحيين والاجانب، ولكن المشكلة أنه لم تكن هناك أراضٍ متاحة في السوق، أما كبار ملاك الأراضي في ذلك العصر فقد أوجدهم محمد علي الذي منح لأقاربه وأصدقائه وأتباعه معاً مساحات كبيرة من الأراضي غير المستصلحة ليتولوا اصلاحها وزرع القطن بها، وقد حاول عباس مصادرة كل هذه الأراضي لصالح الدولة اذ كان يعتبر نفسه هو الدولة، ولكن حكمه لم يدم إلا لمدة خمس سنوات فقط، ولم يستمر سعيد خليفته في هذه السياسة.

ما أن سُمح للفلاحين بأن يبيعوا انتاجهم بالسوق الحر حتى وَسّع الشقيقان من عملهما ليشمل تجارة البقول والأغنام والقطن ... الخ. فقد كان الشقيقان متحدين في أهدافهما، وبينما كان ويصا يركز اهتمامه على الجانب التجاري بعمل الصفقات كان حنا يهتم بالناحية الإدارية، ثم بدأ الاتجاه لشراء الأراضي على نطاق ضيق، والتحول بعد ذلك إلى الزراعة. ولما كانا على دراية تامة بقرى مديرية أسيوط، وكانا يعرفان الأراضي والفلاحين الذين يعملون عليها، فقد كان بمقدورهم أن يتواجدا في الموقع اذا توافرت أي أراض زراعية للبيع بثمن رخيص. ولكنهما لم ينطلقا نحو شراء الأراضي على نطاق واسع حتى سنة ١٨٩٠ عندما أصبح الموقف أكثر وضوحا، فقد توفر المزيد من الأراضي أثناء حكم الخديوي اسماعيل بل زاد توفرها عند تصفية أملاك الدولة والدائرة السنيّة [٤٣] في سنة ١٨٩٠ تحت حكم الخديوي توفيق وعباس حلمي الثاني، وعلى مر السنين تمت تسوية الديون التي تحملتها الدولة في شراء أراضي الدائرة السنية وأراضي الاقطاعيات التي تركها الأمراء وذلك عن طريق قيام الحكومة في البداية ببيع جزء من الأراضي التي حصلت عليها بهذه الطريقة في مزادات عامة كبيرة، والجزء الباقي من الأرض تم بيعه في سنة ١٨٩٨ لإحدى الشركات التي تولت إعادة بيعه على أجزاء للشعب. وبذلك تفتت ملكية الأرض بدلا من تجميعها في أيدي الأسرة الحاكمة وأصدقائها وكبار ملاك الأراضي الذين برزوا حديثاً.

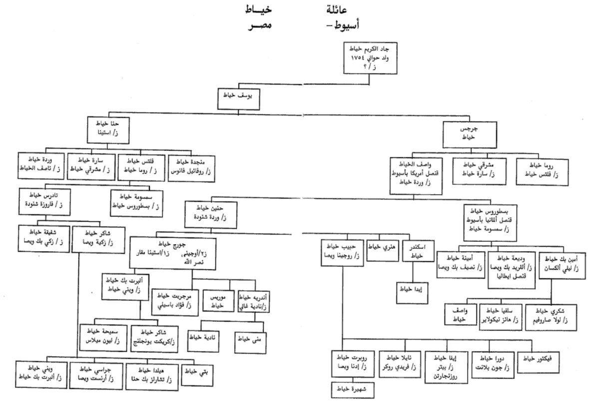
---

[٤٣] الدائرة السنية كانت شكلا من أشكال وزارة الزراعة وظيفتها ادارة الأراضي الزراعية التي يملكها الخديوي، وكلمة دائرة معناها ادارة زراعية. وكانت هذه الأراضي مقسمة إلى تفاتيش، كل تفتيش مسئول عن ٦٠,٠٠٠ فدان على الأقل، وكانت هذه التفاتيش منتشرة في جميع أنحاء مصر العليا ومصر السفلى وتمتد سلطتها على مساحة تزيد عن نصف مليون فدان.كان للمفتشين الذين كانوا يديرون هذه التفاتيش السلطة على كل المسئولين الحكوميين الذين كانوا على اتصال بهم فقد كانت سلطتهم بلا حدود.وعندما زادت الأزمة المالية لدى اسماعيل أوعز اليه نوبار باشا بتصفية الدائرة السنيّة وتصفية أملاكهم مقابل رواتب ثابتة تدفعها لهم الدولة.

عائلة ويصا
أسيوط – مصر



(*) ملحوظة : حرف الـ (ز) يعني تزوج أو تزوجت.


عائلة خيــاط
أسيوط - مصــر
جاد الكريم خياط
ولد حوالي ١٧٥٤
ز / ؟
يوسف خياط
حنا خياط
ز/ استينا
جرجس
خياط
وردة خياط
ز / ناصف الخياط
سارة خياط
ز / مشرقي خياط
فلتس خياط
ز / روما خياط
منجدة خياط
ز/ روفائيل فانوس
واصف الخياط
قنصل أمريكا بأسيوط
ز/ وردة خياط
مشرقي خياط
ز/ سارة خياط
روما خياط
ز/ فلتس خياط
تادرس خياط
ز / فاروزة شنودة
سمسومة خياط
ز / بسطوروس خياط
حنين خياط
ز/ وردة شنودة
بسطوروس خياط
قنصل ألمانيا بأسيوط
ز/ سمسومة خياط
شفيقة خياط
ز / زكي بك ويصا
شاكر خياط
ز/ زكية ويصا
جورج خياط
ز١/استينا مقار
ز٢/أوجيني
نصر الله
حبيب خياط
ز/ روجينا ويصا
هنري خياط
اسكندر
خياط
أمينة خياط
ز/ نصيف بك ويصا
وديعة خياط
ز/ ألفريد بك ويصا
قنصل ايطاليا
أمين بك خياط
ز/ ليلي ألكسان
ألبرت بك خياط
ز/ ويني خياط
مرجريت خياط
ز/ فؤاد باسيلي
موريس
خياط
أندريه خياط
ز/نادية غالي
إيدا خياط
واصف
خياط
سلفيا خياط
ز/ هانز نيكولاير
شكري خياط
ز/ لولا صاروفيم
سميحة خياط
ز/ ليون ميلاس
شاكر خياط
ز/كريكت يونجلنج
نادية خياط
مني خياط
روبرت خياط
ز/ إدنا ويصا
نابلا خياط
ز/ فريدي روكر
إيفا خياط
ز/ بيتر
روزنجارتن
دورا خياط
ز/ جون بلانت
فيكتور خياط
ويني خياط
ز/ ألبرت بك خياط
جراسي خياط
ز/ أرنست ويصا
هيلدا خياط
ز/ تشارلز بك حنا
بتي خياط
شهيرة خياط

تغيّر نظام السعيدية لامتلاك الأراضي قليلا في سنة ١٨٧٠ أثناء جكم الخديوي اسماعيل بحيث أصبح المنتفعون ملاكاً أحراراً بهدف تشجيع تملك الأراضي وعندما أصبحت خزانة الخديوي أكثر فقراً، فكروا في كل أنواع الأساليب لزيادة دخلها، فصدر قانون في عام ١٨٧٢ يُعرف باسم "قانون المقابلة" [٤٤].

ولكن الضغط المُسلّط على الادارة لجمع المزيد من المال أثناء حكم الخديوي اسماعيل جعل الحياة غير محتملة للفلاح العادي، بالنظر إلى نوع المعاملة التي كان يتعرض لها، فزادت الضرائب وتمت جبايتها بقسوة شديدة، وكان الكرباج والسخرة أسلوبا عادياً وشيئاً عاماً، فقد كان على الفلاح أن يعمل بلا أجر باقطاعيات الخديوي أو بأراضي المسئولين الحكوميين بالقوة، وكان جامعو الضرائب ديكتاتوريين وبلا عدالة، حيث لم يكن الفلاح الأمي يدري ما عليه بالضبط [٤٥].

في هذه الفترة أصبح الفلاحون في حالة من الضجر لدرجة أنه لم تصبح لديهم الرغبة في امتلاك الأرض، فتركوها دون فلاحة، وبحثوا عن عمل في أماكن أخرى تاركين أراضيهم، وهنا أستحدثت لعنة أطلقها الفلاح في ذلك الوقت بقوله " جك الطين "، وكأنه يقول اذا امتلكت أرضا جاءك الفقر.

كتبت السيدة **دوف جوردون** التي عاشت لسنوات عديدة في الأقصر والتي وصفت لأهلها في انجلترا ما كان يجري في البلاد في ذلك الوقت في كتاب صدر سنة ١٨٦٧ اسمه "**الخطابات الأخيرة من مصر**" تقول:

> ليس بمقدوري أن أصف حالة البؤس السائدة الآن، كل يوم يتقرر نوع جديد من الضرائب، وقد أصبح على كل بهيمة وجمل وبقرة وخروف وحمار وحصان أن يدفع، لم يعد بمقدور الفلاحين أن يأكلوا الخبز، فهم يعيشون على وجبة مصنوعة من الشعير المزوج بالماء وبعض الخضراوات الرخيصة وأوراق

---

[٤٤] يعلق اللودر كرومر في كتابه " مصر الحديثة " على هذا القانون بقوله في الجزء الأول، الفصل الثالث:

" بمقتضى هذا القانون كان يمكن لجميع ملاك الأراضي أن يستفيدوا بالاعفاء من نصف ضريبة الاراضي المستحقة عليهم اذا ما قاموا بدفع ضريبة ست سنوات دفعة واحدة، كما كان يمكنهم أن يستفيدوا من الاعفاء بنسبة ٥٠٪ على أقساط اثنى عشر عاما أو دفعة واحدة حسب رأي الدولة ".يقول مستر "ستيفن كيف" بتقريره عن الوضع المالي في مصر في عام ١٨٧٦: "ربما يعتبر تنفيذ" قانون المقابلة " أبرز حالة للأسلوب المتهور الذي به تتم التضحية بدخول المستقبل في مواجهة الاحتياجات الملحة للحاضر ".

ويقول اللورد كرومر معلقا على هذه الملاحظة: " هذا حقيقي تماما، ولكن التفسير سهل تماما أيضا، فلم تكن هناك مطلقا أي نية للالتزام بالارتباطات المبرمة مع ملاك الأراضي، فعندما يأتي الوقت المناسب كانت هناك النية لإعادة فرض ضريبة ما،ومن ثم تعويض الفاقد في الخزانة عن التضحية الجزئية بضريبة الأراضي ".

[٤٥] " الشعب القبطي في القرن التاسع عشر " - رياض سوريال.

النباتات، الخ. الناس بصعيد مصر يهربون بـاعداد كبيرة لعدم مقدرتهم على دفع ضرائب جديدة، والقيام بالأعمال المفروضة عليهم.

وهكذا أصبح الحال من السوء لدرجة أن الخديوي اسماعيل فكر حتى في التحول إلى النظام الاحتكاري مثل جده محمد علي. فيقول الدكتور **محمد فهمي لهيطه** المؤرخ المعروف في كتابه **" التاريخ الاقتصادي لمصر في القرون الأخيرة "** صفحة ٣٥٨ :

" لم يكن الفلاح الحر أسعد حظاً من الرقيق، إذ كان مشدوداً إلى الأرض التي يفلحها مضطراً إلى العمل فيها وبذل قصارى مجهوده في الانتاج الزراعي، ومع ذلك كانت ثمرات هذا المجهود يستولي عليها عمال الحكومة ولا يتبقى له منها غير ما يُمكنه من معيشة الكفاف ".

إلا أن الأحوال تغيرت جذريا في الفترة التالية التي حكم فيها توفيق، فشُكلت هيئة من خمسة أشخاص لتصفية ديون مصر تحت رئاسة السير **ريفرز ويلسون**، وكانت هذه الهيئة تتكون من رجلين انجليزيين وفرنسيين وألماني واحد، وكان الهدف من وجود الفرنسي الثاني هو إعطاء فرنسا نفس درجة التمثيل مثل انجلترا لأن رئيس الهيئة كان انجليزي، وتم تعيين مراقبين هما **م.دوبلينيير** فرنسي الجنسية وسير **ايفلين بارنج** (لورد كرومر) انجليزي الجنسية. ولم يكن هذان الشخصان عضوين بالهيئة، حيث كان المعتقد أن مصالح الدائنين ممثلة جيدا بالهيئة، وأنه من العدل والسياسة أن يكون هذان المراقبان محايدين وأن يمثلا مصالح الحكومة المصرية والشعب المصري أكثر من مصالح الدائنين.

كانت هذه الفترة التي استمرت من نوفمبر ١٨٧٩ إلى ديسمبر ١٨٨٠ تُعرف باسم "الرقابة الثنائية"، وكانت فترة نجاح كبير، فقد كان المراقبان يحركان الخيوط من وراء الستار ولم يظهرا على مسرح الأحداث الا قليلا، وقد تم تنفيذ الاصلاحات التالية خلال هذه الفترة:

١ – ألغى قانون المقابلة في ٦ يناير ١٨٨٠.

٢ – ألغيت ضريبة الرؤوس (الضريبة المفروضة على كل شخص من البالغين) في ١٧ يناير ١٨٨٠، وهذه الضريبة كانت تحقق دخلا قدره ٢٠٥,٠٠٠ جنيه في السنة.

٣ – أوقفت الرسوم المباشرة مثل رسوم الطرق السريعة والأسواق والوزن في القرى، بينما ألغيت الرسوم المباشرة على ١٠٥ سلعة معظمها من الإنتاج الزراعي في المدن.

٤ – بجرّة قلم ألغيت أربع وعشرون ضريبة ثانوية ذات طبيعة استفزازية.

٥ – صدر قانون في سنة ١٨٧٣، يحدد استهلاك كل شخص بمصر كمية معينة من الملح في السنة، وفرضت ضريبة

على الملح، وحُسب تعداد سكان كل قرية بشكل تقريبي عند صدور هذا القانون وقسمّت الضريبة على الفلاحين، ولم يؤخذ في الحسبان أية تغييرات يمكن أن تحدث من سنة ١٨٧٣ في تعداد سكان كل قرية، وقد ألغيت هذه الضريبة، وحل محلها نظام احتكار الحكومة للملح.

٦ – منع دفع أي ضريبة أراض كانت تدفع عيناً في بعض أجزاء البلاد مما كان يسبب العديد من حالات اساءة استعمال السلطة، ومنذ ذلك الحين أصبح لا يمكن دفع الضرائب إلا نقداً.

أحد أهم الاصلاحات وأكثرها نفعا للمزارعين كان النظام الذي أنشئ لأسلوب جباية الضرائب. ويصف **اللورد كرومر** في كتابه " **مصر الحديثة** " الجزء الثاني، الفصل العاشر الاصلاح كما يلي:

> " وتم تحديد تواريخ استحقاق أقساط ضريبة الأراضي بطريقة مريحة للمزارعين، وفي نفس الوقت سجلت أسماء دافعي الضرائب التابعين لكل قرية في سجل واحد، مع إعطاء مستخرج من هذا السجل لكل دافع ضريبة يوضح اجمالي المبالغ المستحقة عليه عن كل حساب وتواريخ مطالبته بها " .

ثم يستطرد

> " لم تكن مبالغ ضريبة الأراضي المشار اليها هي في حد ذاتها التي تشكل عبئا ثقيلا على البلاد بقدر ما كانت في الواقع تواريخ جبايتها التي كانت موضوعة دون اعتبار لراحة دافعي الضرائب، علاوة على أن أحدا منهم لم يكن يدري بأي درجة من التأكيد المبلغ الذي كان عليه دفعه، مما أفسح المجال لفتح الباب على مصراعيه للابتزاز والمطالبة بضرائب غير قانونية "

في ظل هذا التحسن في الظروف والشعور بالأمان تحقق للأخوين ويصا امكانية امتلاك أرض واصلاحها وتحسينها، بتحويل أرض كانت فيما سبق " ارض حياض" التي كانت تغطى بمياه الفيضانات السنوية ولم تكن تصلح الا لزراعة محصول واحد في السنة إلى أرض أحواش يمكن زراعة ثلاثة محاصيل بها سنويا، وقد تمكنا من تحقيق ذلك ببناء سدود حول أراضيهم، واستخدام ماكينات بخارية قاما بتركيبها لسحب المياه من ترعة الابراهيمية التي شقها الخديوي اسماعيل، أو من النيل حسب موقع الأرض.

تعاون الشقيقان كالعادة في مشروعهما الجديد، وخاطرا بالوثوق في الوضع الراهن في البلاد، واتجها إلى شراء الأراضي بتوسع، فقد تمكنا من جمع ثروة من أيام التجارة استغلاها في شراء الأراضي مما حقق لهما المزيد من الثراء بينما كان التجار الآخرون يتحركون ببطء في استغلال الفرص المتاحة.

لم تكن هناك ضريبة أرباح ولا ضريبة دخل يخشيانها، وكان عليهما فقط دفع ضريبة الأراضي في الموعد المقرر ودفع أجور العمالة المستخدمة في بناء السدود، والعمل في الحقول، كان حنا – الذي كان منظما جيداً – يمتطي جواده من شروق الشمس إلى غروبها يشرف على العمل في مختلف الحقول، أما ويصا الذي كانت لديه مهارة في

التجارة فقد كان يتحين الفرصة لشراء المزيد من الأرض. يقول الدكتور **رياض سوريال** في كتابه "**المجتمع القبطي في القرن التاسع عشر**" صفحة ٥٤ – ٥٦ نُلخصها في الفقرة التالية:

أصبح الشقيقان ويصا في عصر الخديوي توفيق وعباس الثاني من كبار ملاك الأراضي، وبحلول عام ١٨٩٨ كانا يملكان ١٢,٠٠٠ فدان بصعيد مصر بثمانين قرية من قرى محافظة أسيوط، كما أنهما اتجها إلى صناعة السكر، وقاما ببناء مصنع لتكرير السكر في بني قرة في عام ١٨٩٦.

بعد ذلك قاما بشراء ١٤,٠٠٠ فدان اخرى في محافظة الفيوم وتملكا معظم أسهم شركة سكك حديد الفيوم الزراعية، وعندما توفي ويصا عام ١٩٠٦ ثم أخوه حنا عام ١٩٠٧ كانا قد تركا لأولادهما وهم ولدان وثلاث بنات لويصا وأربعة أولاد وخمس بنات لحنا تركة مكونة من ٢٨,٠٠٠ فدان من الأراضي الزراعية، ومصنع لتكرير السكر، بالاضافة إلى عدة مبان وفندق في مدينة أسيوط ومبان أخرى بالحقول موزعة بقرى محافظتي أسيوط والفيوم.

وهو أمر يوضح كيف يمكن أن تؤدي الوحدة والعمل الشاق والمحبة بين أعضاء الأسرة الواحدة إلى بناء ثروة طائلة.

حكايات وقصص عن الشقيقين حنا وويصا

لست أزعم أنني على دراية بتفاصيل جميع الصفقات التي أنجزها الشقيقان ولكني فقط أعيد القليل من النوادر التي توارثت عبر السنين عن هذه العائلة من الرواد.

هناك مثل يقول: " قيراط بخت ولا فدان شطارة "، وقد تمتع الأخوان بالبخت والشطارة معاً.

عندما بدأت الدولة في بيع أراضي الدائرة السنية وأملاكها الأخرى التي تخلى عنها الأمراء ركز مشترو الأراضي على شراء ما يقع في دائرة نفوذهم ولم يفكروا في الخروج خارج مديرياتهم، فلم تكن المواصلات سهلة آنذاك، علاوة على أن المصري بطبيعته يحب أن يشتري أرضاً تحت نظره لمباشرتها بنفسه، لذلك اقتصرت المنافسة في نطاق المديرية الواحدة مما جعل الأسعار منخفضة، وكانت النتيجة أنك تجد عائلات معينة قد جمعت آلاف الأفدنة في مديرية واحدة، بينما عائلات أخرى تركز في مديرية أخرى لا تبعد إلا أربعين كيلو متراً على سبيل المثال.

هذه قصة متوارثة عن حظ ويصا: كان ويصا مسافرا بالقطار من القاهرة إلى اسيوط فأحس بألم مفاجىء في معدته ونزل في المنيا وهي المديرية السابقة على أسيوط ليذهب إلى طبيب أو ليخفف عن نفسه أو ليأخذ دواء، وانتظر في استراحة المحطة، وكان هناك مزاد كبير لبيع أراض في اليوم التالي في المنيا ولم يكن لدى ويصا علم به، وحتى لو كان عنده علم فإنه لم يكن ينوي شراء أراض بالمنيا حيث لا يمكن لشقيقه أن يديرها.

تعرّف بعض المتقدمين للشراء عليه، وظنوه قد جاء إلى المنيا لحضور المزاد، فذهبوا وجلسوا معه ودعوه لشرب القهوة ثم سألوه بخبث عن سبب حضوره إلى المنيا. (لو كنت أنا مكانه لقلت لهم "انظروا إلى حظي السئ، لقد أحسست بمغص في معدتي واضطررت للنزول من القطار وها أنذا أنتظر بضع ساعات حتى يأتي قطار آخر").ولكن ويصا البعيد النظر أجاب: "أتيت هنا لانجاز عملي" دون أي توضيح.

سأله أحد المتقدمين للشراء "تأخذ كام وتسيبها ؟" أجاب ويصا وهو لا يدري ماهو مفروض أن يتركه قائلاً "تدفعوا كام وأسيبها ؟" - فعرض عليه المتقدمون مبلغ ألف جنيه لكي يغادر المنيا بالقطار التالي. لكن ويصا طلب ألفين من الجنيهات، فقال المشترون "دعنا نقسّم البلد نصفين". وعلى مضض وافق ويصا على ١٥٠٠ جنيه وترك البلد بالقطار التالي!!

جاء الأمريكان البروتستانت إلى أسيوط واستطاعوا أن يحولوا اثنين من العائلات المعروفة: عائلة خياط وعائلة ويصا إلى المذهب الجديد. وسنورد فيما بعد كيف تمكنوا من تحويل الأقباط إلى البروتستانتية، وكيف تمكنوا من تنمية إرساليتهم، ولكن المهم هنا هو أن نذكر أن وجود الأمريكان في أسيوط أدى إلى تشرّب العائلات التي تحوّلت إلى البروتستانية بالكثير من الأفكار الأجنبية، ومن ثم أصبحوا يسبقون عصرهم بأفكارهم وأفعالهم. أصبح واصف خياط وكيلا لقنصل أمريكا بينما أصبح ويصا ويصا وكيلا لقنصل البرتغال، ومن وجهة نظرهما لم يكن في ذلك أي ضرر فقد كانا يتمتعان بالمزايا الممنوحة بمقتضى الامتيازات الأجنبية، ولكنهما أصبحا غير محبوبين من أقباط الكنيسة الوطنية.

قصة أخرى تعطي مثلا لحُسن حظ ويصا أو شطارته:

أعلنت الدولة عن بيع عزبة معينة، وذُكر ضمن مواصفات العزبة أنها محاطة بسور، وكان ويصا يعرف أنه لم يكن يوجد سور حول العزبة في ذلك الوقت، فلابد أنه لاحظ ذلك عندما كان يتجول بالأراضي المحيطة يبيع الدبابيس والإبر، فقام بشراء العزبة، وذُكر بعقد البيع أنه اشترى عزبة مسورة، - ربما كان يوجد سور عندما أخذها الأتراك من المماليك، - ولكن عندما جاء ويصا لاستلام العزبة لم يكن هناك أي سور، فأصر على الحصول على تخفيض في السعر، وتمكّن من اقناع البائعين بالإذعان، إلا أنه راجع نفسه مرة أخرى، وربما فكر أنه

لشطارته الزائدة يمكن أن يُعرض حياته للخطر بسبب عدم رضى الخديوي عليه، إذ يسهل عندئذ لرصاصة طائشة ان تقضي على حياته. ففكر في حيلة لكسب رضا الخديوي، وكان لدى فلاحي المنطقة الكثير من الكمبيالات بديون مستحقة على الدولة اعتبرها الفلاحون ديونا معدومة، فاشترى ويصا كمية من هذه الكمبيالات بمقابل زهيد وحملها إلى القصر كدليل على ولائه للدولة، فلما أُخبر الخديوي بذلك طلب أن يرى ذلك الشخص، فأجاب رجال الحاشية "لماذا تريد أن تراه، انه مُحدث نعمة، حيث كوّن ثروته من بيع القماش بالقرى على حمار"، ولكن الخديوي أصر على رؤيته، وعندما تواجد أمام الخديوي سأله الخديوي قائلا "هل صحيح يا خواجة ويصا أنك كنت تبيع القماش على حمار بالقرى ؟" فأجاب " وقبل الحمار يا أفندينا كنت أبيعها وانا أسير على قدميّ".

ومن الطبيعي في أي وقت أن كل من يرغب في الاشتراك في المزادات عليه أن يتأكد من توافر السيولة النقدية لديه، على الرغم مما لديه من أصول ثابتة، فتبين لويصا أنه اذا كان يرغب في أن يستمر في شراء الأراضي فان عليه أن يجد بنكا يموله. وكان هناك بنك يهودي معروف باسم "بنك موصيري" اعتاد أن يقرض مالاً على المحاصيل، ولم يكن ويصا يعرف السيد موصيري ولكنه كان قد سمع عنه، فذهب إلى البنك وطلب مقابلة السيد موصيري وهو يعلم أنه غير موجود، وقيل له أنه متغيب لمدة أسبوع، فأحضر ويصا حقيبة مليئة بالذهب وسأل إن كان من المكن أن يتركها بالبنك ليفتح حسابا. فقال له الموظف: "خذ ايصالا" ولكن ويصا رفض أخذ الايصال وقال انه سيعود فيما بعد. وعاد ويصا بعد أسبوعين وطلب مقابلة السيد موصيري، فسأله الموظف " أين كنت يا خواجة ويصا ؟ الخواجة موصيري كان يسأل عنك، وغضب مني لأني لم أُصر على إعطائك إيصالا " ثم أخذ ويصا إلى مكتب السيد موصيري الذي سأله كيف حدث أنك تركت الذهب دون أخذ ايصال، فأجاب ويصا " كيف لي أن آخذ ايصالا من بنك موصيري وهو بنك أمين ومعروف ؟ " وكان من المعتاد في مصر أن تبرم الاتفاقات بكلمة بسيطة هي "Esta bene" وهي عبارة ايطالية معناها "أوافق"، ويمكن أن تُعد الأوراق الرسمية بعد ذلك. فبدأ في الحديث وأوضح ويصا أنه من كبار ملاك الأراضي وأنه بدأ في شراء مساحات كبيرة من الأراضي التي تحتاج إلى سيولة نقدية وقت الشراء. فسأله السيد موصيري عن نوع الضمان الذي يمكن أن يقدمه، فأجاب ويصا أن لديه أعداداً من المراكب المُحملة بالبقول تسير بالنيل باستمرار للبيع في القاهرة، فأرسل البنك مفتشا ليرى هذه المراكب المبحرة والمحمّلة بالقمح والعدس وما إلى ذلك. وكان معظم رجال المراكب من صعيد مصر ولابد أنهم قد تدربوا على كيفية الرد عند سؤالهم على أيدي أتباع ويصا، حيث كلما سأل المفتش عن أي مركب: "من صاحب هذا المركب" يجيب أغلب الرجال "الخواجة ويصا" ولست أدري مدى صدق قول هؤلاء الرجال، وكانت النتيجة أن أصبح ويصا من كبار عملاء بنك موصيري، وكانت المبالغ المسحوبة على المكشوف تُدفع دائما في مواعيدها، وبهذا توافرت لديه

السيولة النقدية للكثير من مشترياته.

قصة أخرى تُحكى في الأسرة عن ويصا وشطارته، هي قصة عن حادثة وقعت بينه وبين أحد أفراد أسرة خياط، علما بأن عائلتي ويصا وخياط كانا أصدقاء بحيث تمت زيجات بين الأسرتين فيما بعد، ولكن أحيانا يُسمح ببعض الشطارة بين الأصدقاء عن طيب خاطر دون ترك مشاعر سيئة بينهما.

يُقال في وسط أفراد الأسرة أن أفراد عائلة ويصا حاضرو البديهة ومندفعون بينما أفراد عائلة خياط أكثر اتزانا ويفكرون مائة مرة قبل اتخاذ أي قرار.

القصة التي تُحكى أن ويصا الذي كان قد عاد من القاهرة في نفس اليوم بهدف الاقامة بأسيوط لمدة أسبوع أو اثنين كان مدعواً على العشاء مع حنا عند أحد أفراد عائلة خياط، وعلى العشاء تحدث الضيف عن بعض الأراضي التي سمع أنها معروضة للبيع، وانه يلزم التفاوض في شأنها بالقاهرة، وأنه كان يستفسر من كل شخص عن رأيه قبل أن يقرر الشراء من عدمه، فشعر ويصا أنها صفقة جيدة لكن لم يكن باستطاعته ترك المائدة واللحاق بالقطار التالي للحصول على الصفقة، لكن الإغراء كان قويا، فمال على شقيقه حنا وهمس في أذنه "خذ بالك انا سأسبّك وما عليك إلا أن تصفعني بالقلم" وبعد لحظة قال حنا شيئا فعارضه ويصا ونتجت عنه مناوشة، فقام حنا المعروف عنه الاندفاع وحدّة الطبع بصفع ويصا. فأقسم ويصا ألا يقضي الليلة في أسيوط بل سيغادرها إلى القاهرة بالقطار التالي، وبالفعل لحق بالقطار التالي واقتنص الصفقة بينما عائلة خياط لا تزال تتحدث عنها، وسافر أفراد عائلة خياط إلى القاهرة بعد بضعة أيام لاعادة ويصا إلى أسيوط ومصالحته على أخيه حنا. وهكذا أدت وحدة الشقيقين وحبهما لبعضهما البعض إلى نجاح هذه المشاركة التي استمرت حتى انفصلا بموت ويصا عام ١٩٠٦.

لكن لا تزال في جعبتي العديد من القصص التي توضح العلاقة بين الشقيقين اسرد فيما يلي اثنتين منها:

الأولى – قرر كل من ويصا وحنا أن يتزوجا حوالي عام ١٨٦٠ كما قررا أن يكون زفافهما في نفس اليوم.وقد طلب ويصا يد ابنة أسرة ارستقراطية عريقة محترمة من عائلة الجوهري الذي توجد صورته الزيتية معلقة بمتحف اللوفر في باريس، كما طلب لشقيقه حنا يد فردوس ابنة أسرة لقبها "معلقة" ويُقال أن هذا اللقب جاء نتيجة لأن مؤسس الأسرة كان يمتلك أول معلقة من الفضة في أسيوط.

كلا العريسين لم يريا العروسين قبل حفل الخطبة، وعندما كانا جالسين لاحظ حنا أن عروس

المستقبل كانت سمينة وبيضاء بينما عروس ويصا كانت نحيفة وسمراء، فمال حنا على ويصا وقال له "اذا كنت ترغب أن نتبادل قبل فوات الأوان، أنت تأخذ الجميلة السمينة وأنا آخذ الأخرى " فرد ويصا "أنا لا أتزوج امرأة بل عائلة ! ". كان حنا زوجاً طيباً ولم ينظر مطلقا إلى امرأة أخرى طوال حياته الزوجية، أما ويصا فقد كان يقضي معظم وقته بالقاهرة في الأعمال مختلطا بكل سيدات المجتمع لأسابيع بلا انقطاع تاركاً زوجته في أسيوط مع الأطفال.

والثانية – حدثت عندما أصبح أكبر أبنائهما شابا، كان جورج الابن الأكبر لويصا مستبداً صلب الرأي، أما جندي الابن الأكبر لحنا فقد كان شابا طيباً.

وقد حدثت مناقشة حادة بين أبناء العمومة في يوم من الأيام، فقال جورج لجندي " انتو تسكتوا، انتو مُجرد خدم في العيلة، كل الأرض باسم والدي وانتو مالكوش حاجة "، وفي هذه الليلة سأل جندي والده " هل صحيح يا أبي إننا خدم لعمنا ويصا وانك لا تملُك شيئاً، وأن الأرض كلها باسمه ؟ " – لم يجب حنا، ولكنّه في صباح اليوم التالي أخذ أول قطار إلى القاهرة وذهب إلى النادي المشترك به ويصا، ورأى ويصا يُقامر وعندما رآه سأله " ما الذي أتى بك؟"، حيث كان من المعروف ان حنا لم يكن يحب الذهاب إلى القاهرة، فأجاب حنا " هل صحيح انني وأسرتي خدم لك وأنه لا يوجد شئ باسمي، بل كل شئ باسمك ؟ " اجاب ويصا " من الذي قال لك ذلك ؟ " فقال حنا "جورج قال لجندي" حينئذ تبين لويصا أنه قد اعتاد توقيع كل عقود شراء الأراضي باسمه وانه لم ينتبه لوضع الاسمين بالعقود، وانفجر ويصا في البكاء وقال "لا تثق ابدا في الأطفال، كل ماهو باسمي ملك لكلينا بالتساوي، ألا تذكر أن رغيف العيش والعشرة قروش كانوا لك وانت أعطيتني نصفهم "، وفي اليوم التالي توجها إلى المحاكم ووضعت عقود كل الأملاك بأسماء الشقيقين معا، وجعلا العقود موثقة بهذه العبارة "ويصا بقطر وحنا أخيه"، وبذلك يمكنك أن ترى هذا التوثيق على جميع عقود المتلكات. وبعد ذلك قام ويصا أيضا بشق معطفه إلى جزئين وأعطى حنا النصف وهو يقول بأسلوب درامي " كل ماهو لي نصفه لك "، فاذا ما قال الناس " ألم يكن الشقيقان ويصا محظوظين " أو في أحيان أخرى يرددون " ألم يكونا حادي الذكاء " فليس لي إلا أن أرد قائلاً "بل كانا مباركين بهبة الوفاق".

يقول المثل الشعبي " العبد في التفكير والرب في التدبير " والعرب دائما يختتمون اعلان النية بعبارة "والله ولي التوفيق".

وكان الشقيقان ويصا متدينين بطبيعتهما، وكانا يدفعان ما يُسمى بالعشور * بتدقيق حسب عقائد الانجيل، ولم يعتبرا نفسيهما مغتصبين بل مجتهدين منّ عليهما الله ببركة النجاح.

***

مبشرو قوارب النهر على خلاف مع الكنيسة القبطية الارثوذكسية:

كان بطرس السابع بطريرك الكنيسة القبطية الوطنية في الجزء الأول من القرن التاسع عشر، وكان رجلا ذو أخلاقٍ عالية يود اصلاح الكنيسة لمصلحة شعبه، لكنه شك في المؤثّرات الغربية، خاصة كنيسة الروم الكاثوليك التي تمكّن مبشروها من تأسيس كنيسة كاثوليكية بمصر في القرن الثامن عشر وضم معظم مؤيديها من كنيسة الملكيت (الأرثوذكس الشرقيين)، كما تمكنوا في نفس الوقت من تحويل بعض الاقباط الارثوذكس إلى الكنيسة الكاثوليكية وعندما أتى القس **تاتام** "البريطاني الجنسية" إلى مصر في سنة ١٨٣٦ ليرى ان كان في استطاعته شراء بعض المخطوطات القديمة. ولما رأى حال الكنيسة القبطية الوطنية التي تأخر حالها الى درجة ان المتردد العادي على الكنيسة – رجل الشارع – لم يكن يعرف شيئاً عن المسيحية، فكتب الى المطران هاولي بانجلترا يحثه على مطالبة البريطانيين للقيام بأي شيء يساعد الكنيسة في مصر.

موضحاً في خطابه ان الكهنة أنفسهم كانوا جهلة، يكررّون الطقوس باللغة القبطية التي يقرأونها من كتابة عربية، لا يفهمون منها شيئاً ولا عامة الشعب. فتحوّلت العقيدة القبطية إلى خليط من الخرافة وعبادة القديسين والايقونات (صور القديسين المزخرفة). وكان لابد أن تكون المساعدة في شكل كلية لتدريب الشباب المصري الذي يرغب في أن يُرسَم ككاهن للكنيسة القبطية، وكان من المفروض ألا تتولى هذه الكلية تحويلهم إلى طائفة أخرى [٤٦].

تم فتح هذه الكلية بالفعل، واستمرت في عملها لبضع سنوات بادارة **القس ليدر** الذي تسرب اليه اليأس بسبب عدم الاقبال على الكلية، حتى تم إغلاقها في عام ١٨٤٨. لكن برغم إغلاق هذه الكلية، إلا أن بعض الطلاب رُسِموا كهنة وقد أصبح أحدهم بطريركاً يُعرف بإسم "**كيرلس المصلح**" Cyril the Reformer الذي لم يسمح أثناء توليه منصبه بوضع أي صور (أيقونات) في كاتدرائيته الجديدة، بل جمع كل الصور التي كانت تزين المبنى القديم، وحرقها، وسأتوسع في الكتابة عن هذه الحادثة وكذلك عن حادثة مماثلة قام بها مجموعة من

---

* العشور تعني عشرة بالمائة من الدخل تُخصص للأعمال الخيرية.

[٤٦] قصة الكنيسة المصرية تأليف ئي. ال. بوتشر، الجزء الثاني، صفحة ٣٩٦.

المتحمسين البروتستانت بعد ذلك بعشرين عاماً في أسيوط، تحت اسم محطمي الايقونات Iconoclasts، ومن الجدير بالذكر انه قد تم نشر الاناجيل الأربعة باللغتين العربية والقبطية تحت اشراف القس تاتام قبل فتح الكلية.

هذا العمل الذي تركته إرسالية كنيسة انجلترا في عام ١٨٤٨ أعادته الإرسالية الأمريكية الإنجيلية المشيخية، بعد عشر سنوات. وان كانت الكنيسة القبطية قد رحبت بمساعدة كنيسة انجلترا لاعتقادها أن مبعوثيها لم يكن هدفهم تعليم أولادهم الهرطقة أو يدفعونهم إلى الاعتراف بسيادة روما التي ظل الأقباط يحاربونها لمدة أربعة عشر قرناً. إلا أنها استاءت من الإرساليات الأمريكية وحاربتها لأنها كانت تجذب الكثير من أبناء الكنيسة القبطية عن طريق أساليبها الحديثة وتعاليمها المتقدمة مسببة بذلك ما كانوا يعتبرونه خيانة لكنيستهم القديمة وانقسام بين الأقباط المصريين.

رأت الإرساليات الأمريكية البروتستانتية الأولى أن الكنيسة القبطية ومختلف الجماعات الأرثوذكسية والكاثوليكية تستبدل صفاء العبادة الطاهرة بتوقير القديسين "لكونهم تحت هيمنة الخرافات والجهل"، كما رأت أن الكهنة تعوزهم القيادة الفعّالة والحكمة الروحية.

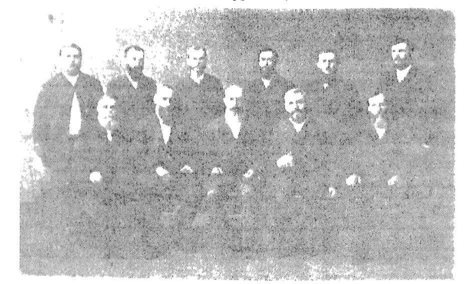
في البداية فكرت هذه الإرساليات أن أفضل طريقة لنشر رسالتها هي التأثير على رجال الدين باقناعهم أن أفكارهم خاطئة وحثّهم على اصلاح كنائسهم، ولكنها وجدت أن هذه الفكرة تكاد تكون مستحيلة التنفيذ، ووجدت أنه من الأسهل هو نشر رسالتها عن طريق توزيع الكتاب المقدس مع شرحه كلما أمكن، وبذلك يمكن تصحيح فكرة الناس عن المسيحية. ولم تأت المدارس التي فُتحَت في الاسكندرية والقاهرة بالنتيجة المرجوة، فقد كان الناس بهاتين المدينتين على تعليم أفضل من أولئك الذين يعيشون بالقرى على طول ضفتي النيل خاصة في الصعيد، كما أن الكنيسة القبطية كان لها تأثير أقوى بكثير على شعبها بالقاهرة والاسكندرية من تأثيرها على باقي البلاد.

كان أحد الأهداف هو امتداد ملكوت الله إلى أفريقيا من مصر وبواسطة المصريين، وتأسست الكنيسة الإنجيلية بمجهودات الإرساليات التي اعتقدت بأن المدرسة هي وصيفة الكنيسة [٤٧].

---

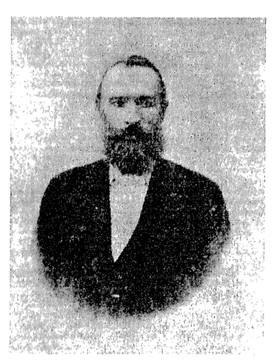
[٤٧] " تبرير رؤية " – إيرل ئي الدر.

المبشـــــرون الأمريكـان



وليم هارفي - جون هوج - جوليان لانسنج - ايوينج - واتسون - مارش - جيفن - لانسنج
الكسندر - جيفين - فينيه

1.William Harvey; 2.John Hogg; 3.Gulian Lansing; 4.S.C. Ewing; 5.A. Watson; 6.C. Murch; 7.J.Giffen; 8.L. Lansing, M.D.; 9.J.R. Alexander; 10.J.K. Giffen; 11.T.J. Finney.



جون هوج مؤسس الإرسالية الأمريكية بأسيوط

أدى نجاح الإرساليات عن طريق توزيع الكتاب المقدس إلى قيامهم بشراء عوامة (مركب مُعد للسكن) يُسمى **إيبيس** Ibis* سنة ١٨٦٠ لاستخدامه في النيل والقنوات الكبيرة، وفي نفس السنة يذكر الدكتور **ملك كاجن** Mc Cagne أن "الخمسة أسابيع التي قضاها بين القاهرة والأقصر بالمركب كغرفة عمليات لا تزال حيّة في عقله" وكان ملك كاجن يصطحب معه أربعة من المصريين.

وهو يتذكر بصفة خاصة توقفه في أسيوط، عندما كانوا يسيرون في الشوارع مع حمار محمّل بالكتب وينادون "الكتاب المقدس للبيع.. الكتاب المقدس للبيع".[٤٨] وفي ديسمبر من نفس السنة انطلق **لانسنج** بالمركب أيبيس مرة أخرى في حملة مماثلة وأصبحت الأقصر مركزه الرئيسي حتى مارس ١٨٦١، وقد ساعده كثيرا في عمله **اللورد إبردين** وزوجته اللذان كانا يقضيان الشتاء على عوامتهما بالأقصر، وقام لانسنج بزيارة سبعين قرية ما بين الأقصر والقاهرة، وخلال فصل الشتاء كانت إجمالي مبيعات المطبوعات ٦٢٥ دولاراً.

استخدم القس هوج وعائلته لأول مرة القارب إيبيس في عام ١٨٦٢، حيث غادروا القاهرة في أول مارس وعادوا اليها في ٨ مايو، وخلال هذه الفترة كانوا قد قطعوا مسافة قدرها ١١٦٠ ميلا وزاروا ٦٣ قرية وتحدثوا إلى ٧٠٠٠ شخص من بينهم ٦٢ كاهنا و٤٥ راهبا ومطرانين، كلهم من أعضاء الكنيسة القبطية. وكانوا يتحدثون باللغة العربية في موضوعات متنوعة تتناول طقوساً كنسية. وكانت الطريقة المعتادة للرحلة هي عدم التوقف إلا في أيام الآحاد، ما لم يمروا بمدينة هامة مثل بني سويف أو المنيا أو أسيوط أو جرجا أو الأقصر. وكان المعتاد أن يدعوا الأعيان والمسئولين والقادة الأقباط، وتُعرض الكتب للبيع وتُوزع الدعوات لزيارة القارب أو لمنزل أحد من الأصدقاء الذين يرحبون بذلك حيث تقام خدمة كنسية في المساء، وبعد الخدمة تُرفع المرساة ويُدفع القارب بالتيار إلى مدينة أو قرية أخرى، وفي اليوم التالي يبدأ التجوال، وتنشط الزيارات والمناقشات في موقع جديد مع أناس آخرين، وبذلك أصبح هذا هو النمط لرحلة النيل التبشيرية لعدة سنوات تلت.

---

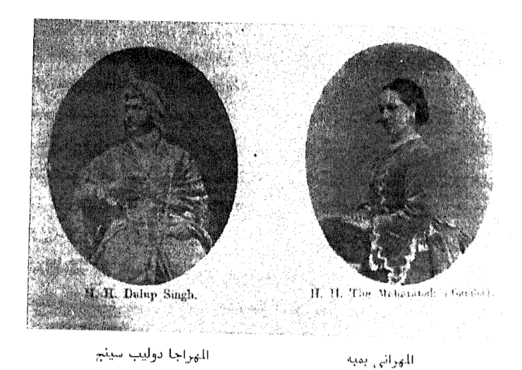
* طائر في النيل يُسمى أبو منجل.

[٤٨] ظهرت الطبعة الجديدة للإنجيل المنشور في بيروت كنتيجة لسنوات عديدة من البحث والدراسة الدقيقة للدكتور ايلي سميث والدكتور كورنيليوس فان ديك ومعاونيهما من الباحثين السوريين، وبالاستفادة من النتائج التي توصلوا اليها من أبحاثهم في ذلك الوقت رأوا الكثير من التعديلات والتصحيحات التي ظهرت بعد ذلك بالنسخة الأمريكية المنقحة التي توجد اليوم في كثير من البيوت القبطية، وعندما أرادت هيئة تحرير ثورة عام ١٩٥٢ إعطاء نسخ من الكتاب المقدس للجنود المسيحيين بالجيش المصري، أعطتهم نسخاً من طبعة بيروت.

قبل نهاية القرن التاسع عشر كانت هناك أعداداً لا حصر لها من مجموعات التبشير منتشرة على طول نهر النيل. بالاضافة إلى تدبير العديد من أماكن العبادة، وبذلك أصبح القس هوج وعائلته مركزاً لإرساليات التبشير، حيث وجدوا أن هذه هي أفضل طريقة للوصول إلى القرى التي مكنتهم من الانخراط اليومي في الحياة الفعلية للريف، فكانوا يحملون منزلهم معهم أينما ذهبوا مما حققّ لهم نوعاً من الاستقلال حيث لم يكن عليهم أن يسألوا أهل القرى أن يدبّروا لهم السكن، كما حقق لهم ذلك التخلص من متاعب النوم في أسرّة غريبة أو استغلال الكرم المصري الشهير.

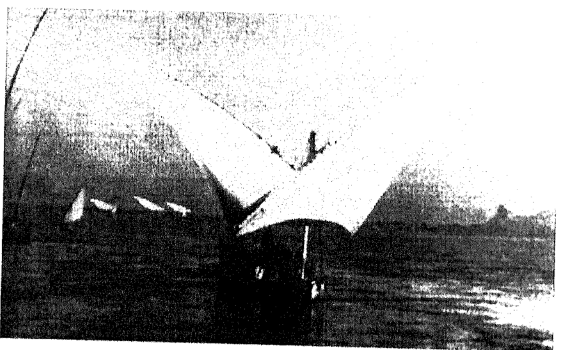
هذا وأود هنا أن أسرد قصة، عن طريقة اندماج الارساليات الأمريكية في حياة مَن حولهم، الأمر الذي حقق لهذه الإرساليات الامريكية بسبب السلوك المتعاطف مع الناس في اجتذاب الكثيرين إلى الطائفة الإنجيلية، وهو شيء لم يكن من الممكن أن يتحقق لو أنهم قوبلوا بالتجاهل. ومكنتهم هذه السياسة من تغطية الكثير من نفقات بناء كنائسهم ومدارسهم، وذلك باشراك متيسري الحال من المتحوّلين إلى هذه الطائفة ليكون لهم نشاط فعّال في عملهم وفكرهم.

والقصة التي أريد أن أسردها، تحكي عن غرام أمير هندي بفتاة في مصر، وعن مساعدته المالية التي قدمها للإرسالية، لذلك دعوني أسميها "رومانسية هندية" أرويها لكم بسبب علاقتها بحادث وقع في اسرتنا التي سترد تحت عنوان مُحطمي الايقونات Iconoclasts.



المهراجا دوليب سينج

المهراني بمبه



العوامة ايبيس Ibis حيث أن الأرساليات الأمريكية قد وزعوا الكتاب المقدس المترجم بالعربية وهم متجولون بها في النيل

رومانسية هندية

حضر الأمير الهندي الشاب **ديوليب سنغ** Dulep Singh الوريث لعرش **البنجاب** * في أوائل عام ١٨٦٤ إلى مصر لزيارة قصيرة، لكن حدث أن سكرتيره مرض مما اضطره لمدّ زيارته. **ولديوليب سنغ** دخل سنوي كبير يتقاضاه من الحكومة البريطانية، بالاضافة إلى ذلك فهو يملك ثروة هائلة من المجوهرات والعقارات في انجلترا، وقد تلقى هذا الأمير تعليمه في بريطانيا العظمى التي تحول بها إلى المسيحية عن طريق القس **وليم جاي** بكنيسة انجلترا Church of England، واراد ان يتزوج من فتاة تلائم "مزاجه الفريد وطريقة حياته"، وكانت علاقته بالملكة فيكتوريا طيبة وقد نصحته بأن يتزوج من أميرة هندية تعلمت في انجلترا، الا انه كان يُفضل إنسانة من الشرق لا يميل ذوقها إلى "مرح الحياة الأرستقراطية العصرية وعبثها" [٤٩].

وفي وقت فراغه صباح يوم ١٠ فبراير ١٨٦٤ ذهب الأمير لزيارة الإرساليات الأمريكية القريبة من سكنه بالفندق، وبعد أن تأكد من مختلف الأنشطة التي تقوم بها الإرسالية، قدم لهم تبرعا قدره مائة دولار كجوائز للأطفال المجتهدين بمدراس الإرسالية، وكان "لتواضعه وبساطته وحيائه وحبه الصادق التي تتسم بها أخلاقه المسيحية" [٥٠] أكبر الأثر لدى من تقابلوا معه. وبعد بضعة أيام قدم تبرعاً آخر قدره ٢٥٠ دولار للأغراض العامة للإرسالية مطالباً بتخصيص مبلغ مائة دولار منها لمكتبة مدرسة البنات.

اعتاد ديوليب سنغ أن يرتدي الملابس الأوروبية، لكن من حين لآخر كان يظهر بالرداء الهندي المرصع بالماس والمجوهرات الأخرى، وفي أحد الآحاد حضر الكنيسة بالرداء الهندي وكتب رسالة قصيرة للمستر جون هوج، يُعرفه بها أنه سيغادر مصر قريباً، ويتساءل إن كان يوجد بأحد مدارس الإرسالية "فتاة مسيحية مؤمنة يمكن للمستر هوج والآنسة **ديلز** Miss Dales ترشيحها لتكون زوجة له" ولاقت رسالته هذه اهتماماً من المبشرين استدعى اجراءً عاجلاً لأهمية الأمير الهندي.

تذكرت الإرسالية اسم فتاة حياتها تسترعي الانتباه تُدعى **بمبه**، وتبلغ من العمر خمسة عشر سنة أمها عبدة حبشية وأبوها تاجر ألماني ثري مقيم في مصر أرسل ابنته للتعلم في مدرسة الارسالية الأمريكية لشعوره بأنها لن تكون سعيدة بزواجها من حبشي. وحدث لبمبه تجربة دينية عميقة حيث آمنت بيسوع

---

* البنجاب إستولى عليها البريطانيون عندما نفوا والده **بونجت سنغ** Punjit Singh.

[٤٩] " تبرير رؤية " إيرل ني الدر.

[٥٠] وساطة المهراجا لدى الملكة فيكتوريا، أنظر محطمو الأيقونات Iconsclasts.

المسيح وأُستقبلت في زمالة الكنيسة. فقيل لهذا الأمير أن هذه الفتاة **بمبه** يمكن أن تلائم متطلباته، كما أُخبر عن بيئتها وأحيط علماً بنسبها، وعلم بجاذبيتها وأخلاقها الطيبة والمحببة، وكان جواب الأمير أن أصلها لا يهم، وإعتقد أنه رآها فعلاً وأنه أعجب بما رأى، ولكن ما كان يهمه هو إمكان قبولها مشاركته مثالياته في الحياة والخدمة المسيحية.

وفي اليوم التالي توجّه إلى منزل مستر هوج وأخبره أنه فكر في هذا الأمر وصلّى من أجله، وأنه قد حضر في ذلك اليوم لطلب يد بمبه والتقدم لزواجها رسمياً. وكانت الخطوة التالية هي الحصول على موافقة الفتاة، وقامت الآنسة ديلز بإعطاء الفتاة فكرة عن كل ما دار خلال الأربع والعشرين ساعة السابقة. وكانت الفتاة تتصف بالرزانة والصدق الصريح الذي قابلت به طلب الأمير للارتباط بها، وعبرت عن سعادتها بالحياة في المدرسة كمُدَرِّسة، وعندما شُجعَت على اعتبار عرض الزواج كدعوة لخدمة أوسع قالت إن الأمر بطبيعة الحال يحتاج إلى أخذ رأي الوالدين.

قدَّم المهراجا إلى الفتاة سواراً وخاتماً غالي الثمن قبل مغادرته مطالباً اياها أن تلبسهما لأجل خاطره حتى وان رفضت عرضه. وقرر والد الفتاة المستر مولر Muller ترك الأمر بيد ابنته بمبه لتقرره بنفسها، وبعد الكثير من التردد والتقرب بالمراسلة بين الأمير وبمبه، وبعد الصلاة بشدة والاستشارة، قررت بمبه قبول عرض الأمير كدعوة من عند الله. ولكنها خافت نظراً لعدم درايتها حتى بالحياة الاجتماعية في القاهرة فكيف لها أن تختلط بالأسرة المالكة بلندن؟ وكانت ترى أن نفعها لخدمة المسيح يتحقق أكثر بالتدريس بالمدرسة التي نشأت فيها. فرح المهراجا بالقرار وهو يشعر بالتأكيد أن هذا الزواج سينال بركة من الله طالما أنه عن طريق ارشاده حيث تمكن من العثور على الزوجة المسيحية المناسبة [٥١].

خلال الأسابيع القليلة التالية قامت الإرسالية بدور الأشبينة لهذه الفتاة الشابة، كما قامت بمحاولة تدريبها بقدر الإمكان على العادات الغربية مثل الجلوس إلى المائدة واستخدام الشوكة والسكين، وعلى الرغم من أنه كان يبدو من أنها تمكنت من أن تتواءم بسهولة مع هذا السلوك الجديد، الا أن صحتها تراجعت بسبب التوتّر الذي كانت تعانيه، وعندما مرضت باليرقان توجهت إلى الاسكندرية للاستشفاء بمنزل والدها، وظلت هناك إلى أن عاد الأمير إلى مصر. وبعد أن أقاما ستة أسابيع وهي المدة التي يفرضها القانون قبل الزواج، أقيم الاحتفال بالإسكندرية حيث استرجعت بمبه بهاءها وهدوءها بموكب العرس واجراءاته في تلك الليلة التي بلغت ذروتها بعشاء أميري رائع، وبعد أسبوعين من الزواج توجه العروسان

---

[٥١] تبرير رؤية – ايرل ئي إلدر.

إلى القاهرة وبقيا بها لمدة أسبوعين، ولم تأخذ بمبه حياة الأمراء الفاخرة، بل كانت تقضي معظم يومها بين رفاقها السابقين، وتميز الأحد الأخير من الزيارة باحتفال العشاء الرباني مع مجموعة صغيرة من المسيحيين البروتستانت، وقبل أن يغادر المهراجا مصر مع بمبه تبرع بمبلغ خمسة آلاف دولار للإرسالية باسم بمبه واعداً بأن يرسل إلى الإرسالية مبلغ ٢٤٠٠ دولار كل عام لدعم مصاريف اثنين من المبشرين، كما كان هناك وعد آخر باقامة مطبعة للإرسالية.

عاد المهراجا في يناير ١٨٦٥ مع عروسه إلى مصر لقضاء رحلة في النيل، وقام بشراء القارب ايبيس من الإرسالية حيث قضى به العروسان شهر عسل فعلي، كما انتهزا الفرصة لتوزيع الكتاب المقدس أثناء هذه الرحلة [٥٢].

وعند مغادرتهما مصر تركا ايبيس تحت رعاية الإرسالية لاستخدامها كما سبق في التبشير، وفي النهاية بعد إصلاح القارب وإعداده قُدِم القارب للإرسالية في أسيوط كدعم مالي للكلية الامريكية سنة ١٨٧٤.

عائلة ويصا تتحول إلى البروتستانتية وقصة النجارين

لم تكن مهمة الإرساليات الأمريكية سهلة لأن الكنيسة القبطية الوطنية بذلت قصارى جهدها لإيقاف الارتداد عنها.

تحول حنا وأخوه ويصا إلى المذهب البروتستانتي في منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر. وكان حنا طليق اللسان وصريح، بينما كان لويصا شخصية مناقضة لأخيه إذ كان دبلوماسياً في كلامه وتصرفاته.

في البداية كان حنا متعاطفاً مع المذهب الجديد، فكان يحضر اجتماعات الإرساليات الأمريكية دون الاشتراك بها اشتراكا فعليا، وفي نفس الوقت دون ترك الكنيسة القبطية، إلا أنه عندما كلف مطران أسيوط ابن أخيه، بإدراج أسماء كل الأشخاص المترددين على هذه الإجتماعات. فاختار عائلتين من النجارين الفقراء من ضمن المترددين لاصدار حرم كنسي [٥٣] (قرار خاص ضدهما، وهما أثناسيوس وأخوته ومرقص وأخوته. توجه حنا إلى المطران لسؤاله عن سبب عدم ذكر اسمه ضمن المترددين الآخرين طالما أنه يُعتبَر مرتداً بنفس درجة هؤلاء النجارين البسطاء، فأوضح المطران أنه وأخيه ويصا وواصف الخياط قد مُنحوا حِلاً خاصا من البطريرك، فلم يقبل حنا رد المطران، ورد بشكل حازم أنه ان كان حضور

---

[٥٢] تبرير رؤية – ايرل ئي إلدر.

[٥٣] كلمة حرم هي كلمة دارجة في الكنيسة الأرثوذكسية وتعني نوعاً من الحرمان من الاشتراك في الطقوس الكنسية.

اجتماعات البروتستانت خطية على النجارين فلا بد أن تكون خطية عليه هو أيضا، ولا يحق لحل البطريرك أن يبرر سلوكه الأخلاقي في هذا الشأن، ثم انضم حنا بقطر وشقيقه ويصا إلى الكنيسة البروتستانتية في الستينات من القرن التاسع عشر.

قبل اثارة موضوع حضور اجتماعات البروتستانت قد وافق المطران على انه سيقيم مراسم الزواج لأحد أشقاء مرقس بإحدى شقيقات أثناسيوس. لكن بعد صدور الحرم على النجارين أجبر الكهنة المطران على اصدار حرم ثان قبل اتمام حفل الزواج ينص على انه اذا تجرأ أي كاهن بإقامة شعائر الزواج لهما قبل ان يرجع مرقس وأثناسيوس عن خطأهما ويعودان الى أحضان كنيستهما الأم فأنه سيتم تجريده من الكهنوت وسيبلغ أمره الى البطريرك، ورغم موافقة الاسرتين على اتمام الزواج بالشعائر الأرثوذكسية إلا أن العريس ظل مُصراً على إتمامه بالكنيسة البروتستانتية، وبعد فشل عدة محاولات لإيجاد كاهن لإتمام الزفاف بسبب الحرم قام كاهن أرثوذكسي سابق اسمه بقطر باتمام المراسم. أوجزت هذه السطور من قصة طويلة كتبها دكتور أندرو واطسون في كتابه (الارساليات الأمريكية في مصر ١٨٥٤-١٨٩٦) وهي توضح كيف كان أعضاء الكنيسة القبطية يتعرضون للكبت والخوف من قبل الكهنة، إلا ان الاشخاص الذين تحلوا بالشجاعة والتصميم تمكنوا من الخروج على العادات والتقاليد التي أرستها الكنيسة لسنوات عديدة.

عائلة راسخة وابنها العنيد الجامح

كما ذكرت من قبل لم يكن للإرساليات الأمريكية أن تفعل دائماً ما تريد. كانت أبنوب – التي أغلب سكانها من الأقباط – إحدى القرى صعبة الاختراق، وهي قرية تقع على مسافة حوالي خمسة عشر كيلو متر شمال شرق أسيوط على الضفة الشرقية من النيل، وكان يلزم للوصول اليها عبور النهر بالقوارب أو المعدية. حيث لم يكن خزان أسيوط – الذي يربط الضفة الغربية بالضفة الشرقية من النهر – قد أقيم، وكانت إحدى الأسر القبطية الرائدة التي تقطن في أبنوب هي أسرة **روفائيل فانوس**، جد أخنوخ، والد إستر، وكان روفائيل عضواً راسخاً بالكنيسة القبطية حيث كان جده أسقفاً* . ويقال إنه عندما زار الدكتور هوج أبنوب – في إحدى رحلاته التبشيرية – استقبله روفائيل لكونه رأس إحدى العائلات المسيحية الكبيرة، وبعد الغذاء تركه يؤدي عمله دون مصاحبته، وذهب ليخلد إلى قيلولة بعد الظهر دون

---

* يبدو غريباً للقارئ أن يكون الأسقف جداً لأن الأسقف الآن يُكرس من الرهبان إلا أن في الماضي كان ممكناً أن يُكرس قساً أسقفاً عندما تتوفى زوجته.

أن يقدم أي مساعدة أخرى لبعثة الدكتور هوج.

تزوّج ابنه فانوس مرتين، وكانت الزوجة الثانية التي اسمها منجدة ابنة عم واصف الخياط، وهي ذات شخصية قوية، وعلى الرغم من أن ابن عمها قد تحول إلى البروتستانتية وصار متمسكاً بها، إلا أنها لم تشجع ذلك في عائلتها حتى بعد أن أصبح ابنها أخنوخ بروتستانتياً بعد سنوات لاحقة والذي ربّى كل أطفاله على هذه العقيدة، بينماظل أفراد عائلة فانوس الباقون أعضاء متمسكين بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

ولد أخنوخ في عام ١٨٥٤ وقد كان ولداً ذكياً وقوي الارادة وطموحاً وعندما بلغ اثنتي عشر عاماً طلب من أمه أن يذهب للدراسة بالكلية الأمريكية في بيروت، إلا انها لم توافق في بادئ الأمر، لأنه من الصعب عليها الابتعاد عن أصغر أولادها، وشعرت انه لا يزال أصغر من ان يترك العائلة ويعيش بعيداً. كما أنها لم تكن متحمسة لما سمعته عن الآراء التي تنشرها الارساليات الامريكية والتي كان ابن عمها واصف يتشدق بها، ولم يكن بمقدور اخنوخ أن يفهم لماذا تحجم أمه عن إرساله، في حين ان قريبه بسطوروس ابن واصف الخياط كان قد التحق بنفس الكلية.

كانت الطريقة الوحيدة للذهاب إلى بيروت هي الإقلاع على قارب شركة كوك* والسفر بالنيل ثم بالبحر من الاسكندرية، إذ لم تكن السكك الحديدية قد وصلت بعد إلى الصعيد، ولم تكن هناك حاجة إلى تأشيرات أو جوازات لعدم تداولها في هذا الوقت.. فكان بامكانك دفع مصاريف السفر وأخذ قارب كوك إلى الاسكندرية ثم بالسفينة إلى بيروت.

كانت "منجدة" تعتقد أن ولدها لا يعدو أن يكون مقلدا، وأنه اذا لم تتوقف قوارب كوك عند أبنوب مرتين فان أخنوخ لابد سينسى كل هذا الأمر. لذلك عملت على توقف قارب كوك عند بني محمد بدلا من أبنوب، وهي قرية مجاورة أغلب سكانها من المسلمين، ولكنها لم تأخذ في الحسبان الشخصية العنيدة لابنها، الذي قام بعمل ترتيبات مع ابن عمه لإقراضه قيمة تذاكر السفر إلى بيروت وأعدّ نفسه للسفر، ولما وجد أن قارب كوك لم يتوقف عند أبنوب امتطى حماره ولحق بالقارب من بني محمد. وما أن رأت منجدة أن أخنوخ كان مصراً على الدراسة في بيروت بتشجيع من ابن عمها واصف الذي اقنعها بأن بيروت بها أفضل تعليم يمكن لولدها الحصول عليه. عندئذ قبلت الوضع.

تخرّج أخنوخ من الكلية الأمريكية في بيروت، وحصل على دكتوراة فخرية وأصبح محامياً ممتازاً وشهيراً، بل أُعتبر من أفضل خطباء زمانه، وعندما بلغ أخنوخ السابعة والعشرين في عام ١٨٨٢ فكر في

---

* شركة كوك كانت تُجمع بواخرها في مصر عن طريق ارسالها لأجزائها مفككة من انجلترا.

الزواج وقد تحوّل إلى البروتستانتية عن طريق الإرساليات الأمريكية عندما كان بالكلية في بيروت. لقد كان عصرياً في أفكاره وفي نظرته للحياة بالمقارنة بباقي الناس في أسيوط.ولم تكن عائلة فانوس قد تزاوجت بعد مع عائلة ويصا، فقد كانوا يعيشون في أبنوب، على الضفة الشرقية من النيل، بينما عاشت عائلة ويصا في بندر أسيوط عاصمة صعيد مصر على الضفة الغربية من النيل.

مارس أخنوخ المحاماه في أسيوط وذاع صيته، وكان قد سمع عن بلسم ابنة ويصا الكبرى التي كانت تصغره بعشر سنوات والتي تتلمذت على يد الدكتور **هوج** والآنسة **مك كاون** Miss McKowan. وكان دكتور هوج وزميلته قد أفصحا لويصا عن رغبتهما في فتح مدرسة للبنات في أسيوط في أواسط الستينات، فوافق ويصا على هذا الطلب وتبرع لهما بقطعة أرض وأبدى رغبته في أن تلتحق بلسم بالمدرسة إذ أرادها أن تنشأ نشأة مسيحية صحيحة وأن تتعلم القراءة والكتابة، وكيفية إدارة منزل كبير وأسرة متعددة الأفراد، التحقت بلسم بالمدرسة الجديدة ضمن الثلاثة طالبات الأوائل. ولما كان أخنوخ شاباً وسيماً ومتحدثاً لبقاً لم يكن من الصعب عليه أن يقنع ويصا أنه الشخص المناسب ليتزوج ابنته، وقد كانت والدته منجدة ابنة عم واصف الخياط من أقرب أصدقاء عائلة ويصا. وبهذا لم يتطلب الأمر منها الا أن تتقدم رسمياً وتطلب من ويصا يد ابنته ليقبل زواجها من ابنها. هذا وتبين قصة وصول منجدة إلى أسيوط – لطلب يد بلسم من والدها – عقلية الناس في ذلك الوقت اذ وصلت منجدة في اليوم الموعود مع حاشيتها بالمعدية في النيل من أبنوب إلى اسيوط، وكان ويصا في انتظار ضيفته على المرسى، ومعه عدد من الحمير واتباعه لاصطحاب المجموعة إلى سكن ويصا الذي لايبعد عن ضفة النهر إلا ٢٠٠ متر فقط. ولكن عندما وصل القارب ورأت منجدة أن الحمير من اسطبلات ويصا لم ترغب في النزول من القارب وقالت : "ألا يملك والدي الذي كان من بيت الخياط حميراً بنفس جودة حمير ويصا" ؟ وأصرّت على الارسال في طلب حمير من بيت والدها، وانتظرت حتى جاءت تلك الحمير، فلم يكن بإمكانها أن تحتمل الانتقال إلى منزل عروس المستقبل على أي حمار لا يكون من اسطبلات والدها !

كانت عائلة الخياط تشتهر بالحمير التي تربيها، يذكر **جسبار برنتون** القاضي في كتابه **"المجهود الأمريكي في مصر"** أنه يبدو أن ركوب الحمار كان يلعب دوراً فريداً في إظهار الكفاءة البدنية للقنصل الأمريكي العام **توماس شلتون هاريسون** في عام ١٨٩٧، والذي كان يعبر الكوبري الانجليزي (كوبري الجلاء) إلى نادي الجزيرة راكب حماره يومياً حتى يصل إلى مضمار السباق ليدور حوله.

وهو يذكر أن يوميات القنصل العام كانت زاخرة بتلك الملاحظات الرئيسية للأحداث اليومية تحت عبارة " راكبا على حمار كالعادة "، حيث في بعض الحالات يتطرق الكاتب إلى تفاصيل مثل :

مصر، وحتى في تلك الأنحاء كانت الأسرة الواحدة منقسمة على ذاتها، وكان من الأسهل الوصول إلى العامة عن طريق النساء اللائي تعلمن في مدارس الارساليات الامريكية.

الا انه كان من الصعب الوصول إلى النساء المتقدّمات في السن، اللائي لم يتأثرن بالأمريكان، ولم يكن باستطاعتهن حقا اعتناق الآراء العصرية ونسيان عاداتهن ومعتقداتهن القديمة، هذا وتوضح القصة التالية هذه الأفكار.

أصبح حنا ويصا بروتستانتياً متحمساً، وعمل على تعميد كل أطفاله بالكنيسة البروتستانتية. أمّا زوجته فردوس رغم انها كانت تحترمه وتحبه ولم يكن ان تخالفه وفقاً للعادات السارية. إلا أنها أخذت ابنها الصغير فهمي – والدي– وهو طفل وأعادت تعميده في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. ولذلك كان والدي يعتبر نفسه دائما أرثوذكسيا رغم أن زوجته إستر كانت بروتستانتية، ولم يتدخل مطلقا في التربية الدينية لأطفاله، وعندما تزوّج أقام الزواج على الطريقتين كما سيتضح من وصف الزواج في فصل تال.

يمكن التعرف على معارضة الأقباط بالمدن الذين كانوا في وضع قريب من قيادات الكنيسة القبطية من عبارة وردت في كتاب **لقليني باشا فهمي** وهو من أعيان مدينة المنيا، وقد أهدى هذا الكتاب إلى جلالة الملك فؤاد الأول ويحكي به ذكرياته عن حكم الخديوي اسماعيل وتوفيق وعباس الثاني – فيقول تحت عنوان "**أقباط المنيا والإرساليات الأمريكية**" :

" أول ظهور للارساليات الامريكية كان تحت حكم الخديوي اسماعيل وقد تجولوا في البلاد بغرض تحويل أقباط الكنيسة القبطية إلى البروتستانتية، وقد نجحوا في تحويل أسرتين عريقتين بأسيوط هما أسرة ويصا وأسرة الخياط، وكانت هاتان الأسرتان هما أول الأسر اللتان تركتا الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وتحولتا إلى الكنيسة البروتستانتية.

بعد ذلك توجهت الإرساليات الأمريكية إلى المنيا، وفي هذا الوقت كان لجدّي يوسف عبد الشهيد بك احترام كبير لدى الأقباط الأرثوذكس وكان ينصحهم دائما بعدم الذهاب إلى الاجتماعات التي تنظمها الإرساليات.

فتضايق الدكتور هوج رئيس المبشرين من ذلك، وتقدم بشكوى ضد جدّي إلى القنصل العام للولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة، الذي قام بتحويل الشكوى إلى وزارة الخارجية التي بدورها أحالتها إلى وزارة الداخلية، وقامت وزارة الداخلية عندئذ بتحويل كل الأوراق إلى مدير مديرية المنيا للتحقيق في الأمر، فطلب مدير المديرية جدي وسأله عن الموضوع، فأجاب عبد الشهيد بك "المسألة في غاية البساطة جاء هؤلاء المرسلون وطلبوا منا ترك عقيدتنا واعتناق عقيدتهم وهو أمر نأباه، لذلك فهم يشتكون أننا لا نزال نؤمن بعقيدتنا، فاذا كانت الحكومة تُريدنا أن نساعد الأجانب في طلبهم محاولة جعلنا نتحول من عقيدتنا إلى عقيدتهم فيمكن لها أن تخبرنا بذلك صراحة حتى يمكن لنا أن نعرف ما هو علينا ".

وعندما علم الخديوي برد جدي سَعِد جداً وطلب رؤيته وهنأه ثم منحه وساما كان له تقديراً كبيراً في

مصر، وحتى في تلك الأنحاء كانت الأسرة الواحدة منقسمة على ذاتها، وكان من الأسهل الوصول إلى العامة عن طريق النساء اللائي تعلمن في مدارس الارساليات الامريكية.

الا انه كان من الصعب الوصول إلى النساء المتقدمّات في السن، اللائي لم يتأثرن بالأمريكان، ولم يكن باستطاعتهن حقا اعتناق الآراء العصرية ونسيان عاداتهن ومعتقداتهن القديمة، هذا وتوضح القصة التالية هذه الأفكار.

أصبح حنا ويصا بروتستانتياً متحمساً، وعمل على تعميد كل أطفاله بالكنيسة البروتستانتية. أمّا زوجته فردوس رغم انها كانت تحترمه وتحبه ولم يكن ان تخالفه وفقاً للعادات السارية. إلا أنها أخذت ابنها الصغير فهمي – والدي– وهو طفل وأعادت تعميده في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. ولذلك كان والدي يعتبر نفسه دائما أرثوذكسيا رغم أن زوجته إستر كانت بروتستانتية، ولم يتدخل مطلقا في التربية الدينية لأطفاله، وعندما تزوّج أقام الزواج على الطريقتين كما سيتضح من وصف الزواج في فصل تالٍ.

يمكن التعرف على معارضة الأقباط بالمدن الذين كانوا في وضع قريب من قيادات الكنيسة القبطية من عبارة وردت في كتاب لقليني باشا فهمي وهو من أعيان مدينة المنيا، وقد أهدى هذا الكتاب إلى جلالة الملك فؤاد الأول ويحكي به ذكرياته عن حكم الخديوي اسماعيل وتوفيق وعباس الثاني – فيقول تحت عنوان "أقباط المنيا والإرساليات الأمريكية" :

> " أول ظهور للارساليات الامريكية كان تحت حكم الخديوي اسماعيل وقد تجولوا في البلاد بغرض تحويل أقباط الكنيسة القبطية إلى البروتستانتية، وقد نجحوا في تحويل أسرتين عريقتين بأسيوط هما أسرة ويصا وأسرة الخياط، وكانت هاتان الأسرتان هما أول الأسر اللتان تركتا الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وتحولتا إلى الكنيسة البروتستانتية.
>
> بعد ذلك توجهت الإرساليات الأمريكية إلى المنيا، وفي هذا الوقت كان لجدّي يوسف عبد الشهيد بك احترام كبير لدى الأقباط الأرثوذكس وكان ينصحهم دائما بعدم الذهاب إلى الاجتماعات التي تنظمها الإرساليات.
>
> فتضايق الدكتور هوج رئيس المبشرين من ذلك، وتقدم بشكوى ضد جدّي إلى القنصل العام للولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة، الذي قام بتحويل الشكوى إلى وزارة الخارجية التي بدورها أحالتها إلى وزارة الداخلية، وقامت وزارة الداخلية عندئذ بتحويل كل الأوراق إلى مدير مديرية المنيا للتحقيق في الأمر، فطلب مدير المديرية جدي وسأله عن الموضوع، فأجاب عبد الشهيد بك "المسألة في غاية البساطة جاء هؤلاء المرسلون وطلبوا منا ترك عقيدتنا واعتناق عقيدتهم وهو أمر نأباه، لذلك فهم يشتكون أننا لا نزال نؤمن بعقيدتنا، فاذا كانت الحكومة تُريدنا أن نساعد الأجانب في طلبهم محاولة جعلنا نتحول من عقيدتنا إلى عقيدتهم فيمكن لها أن تخبرنا بذلك صراحة حتى يمكن لنا أن نعرف ما هو علينا ".

وعندما علم الخديوي برد جدي سَعِد جداً وطلب رؤيته وهنأه ثم منحه وساما كان له تقديراً كبيراً في

ذلك الوقت، وكان الخديوي اسماعيل غير راض بأعمال المرسلين الأمريكيين، وكان يتضايق كلما سمع عن قبطي أرثوذكسي غيّر عقيدته إلى البروتستانتية، واقترح أن يقوم الأنبا ديمتريوس، بطريرك الأقباط برحلة إلى صعيد مصر، لمواجهة أعمال هؤلاء المرسلين، ووضع أحد قواربه تحت تصرفه بكل أطقمها وأمر كل حكام الأقاليم أن يكونوا تحت أمر البطريرك.

أدى التكريم الذي لقيه البطريرك والحماس والاحترام الذي قوبل به إلى تراجع كبير في مهمة المرسلين الأمريكان لتحويل الأقباط الأرثوذكس إلى البروتستانتية، الذي كان يعتبر تحولاً للمصري عن جنسيته إلى الجنسية الأمريكية، ويرجع كل الفضل في معارضة الإرساليات الأمريكية إلى الخديوي اسماعيل ".[٥٤]

يمكن للإنسان أن يحس من هذه الذكريات، تعبئة الشعور ضد المرسلين لدى الأقباط الذين كانوا في السلطة، ولذلك فكان تعيين جون هوج والآنسة مك كاون بإرسالية أسيوط في صعيد مصر يُعتبر مواجهة مع الكنيسة القبطية، بسبب وجود مجتمع قبطي كبير في أسيوط، وعلى الرغم من أن مستر هوج كان يحضر جزءاً من الخدمات الصباحية في الكنائس القبطية. إلا أنه كان يغادرها قبل اتمام مراسم القداس دائماً، ومما ضايق الكهنة ان مستر هوج كان يضع اساس عظاته التي يقدمها باجتماعات بعد الظهر المنعقدة بغرفة دراسة الارسالية من نفس قراءات الكتاب المقدس المستخدمة صباح نفس اليوم في الكنيسة القبطية، معتبراً ذلك تكملة لعظات الصباح.

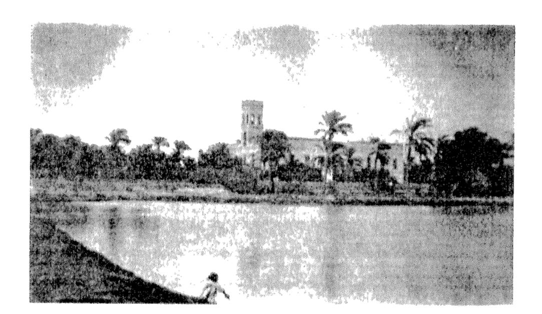
عندما وصل البطريرك الى أسيوط أمر بجلد كاهن قبطي من قرية مجاورة سمح لأخيه الذي كان بروتسانتيا بإقامة خدمات تبشيرية في كنيسته، وبعد هذا التحقير سحبت من الكاهن رعويته وأفرز من الخدمة، ولكن البطريرك لم يجرؤ على مهاجمة واصف الخياط الذي اعتنق البروتستانتية بشكل صريح، وذلك لأنه كان ذا جاه وذا نفوذ، علاوة على أن واصف الخياط كان وكيلا للقنصل الأمريكي في أسيوط. كما لم يكن بإمكان البطريرك أن يفعل الكثير لمنع الكنيسة الإنجيلية الوليدة فيما عدا تهديده لأي قبطي يتجرأ على حضور الخدمات بفرزه من الكنيسة القبطية.

فكر البطريرك في امكانية تدمير المدارس. مدرسة الأخوان ويصا للبنين ومدرسة واصف الخياط للبنات والكلية الأمريكية المؤسسة حديثاً بإصدار حرم يشجُب كل من يدعمهم، وهو ما قام به بالفعل.

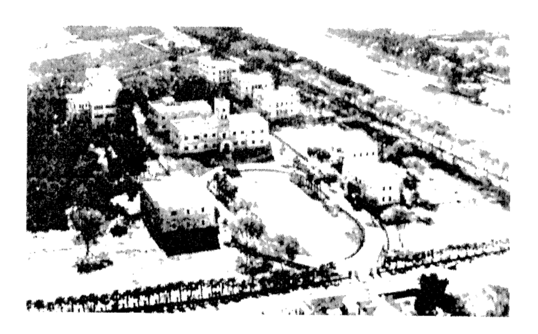
حاول الكهنة بموافقة الخديوي ومساعدة الحكومة، إرهاب أولياء الأمور ودفعهم إلى سحب أولادهم من هذه المدارس، ونجح ذلك لبعض الوقت ولكنه لم يستمر طويلا، فقد برزت أمور أخرى في أفق مصر : افتتاح قناة

---

[٥٤] ذكريات قليني باشا فهمي.



الكلية الأمريكية بأسيوط



صورة من الجو لموقع الكلية بأسيوط

السويس، وذيوع صيت الخديوي عندما وصف مصر مراسل جريدة التايمز بالقاهرة في أواخر عام ١٨٧٦ على أنها وصلت إلى درجة هائلة من التقدم، كما أدّى إلغاء الرّق وهو قرار لعب فيه المرسلون دوراً كبيراً. كل هذا أدى إلى "عدم اتخاذ الحكومة المصرية إجراء حاسماً في صالح الأقباط ضد البروتستانت " رغم أنها بلا شك استمرت في تفضيل المبادئ القبطية وممارساتها على تلك الخاصة بالبروتستانت [٥٥].

محطمو الأيقونات The Iconoclasts :

رأى كيرلس المصلح Cyril the Reformer، عند توليّه البطريركية بعد بطرس في عام ١٨٥٤ الحالة التي انحدرت اليها الكنيسة القبطية الوطنية، حيث كان الأقباط في زمن كيرلس يميلون إلى تبجيل صورهم المقدّسة كعادة أتباع الكنيسة اليونانية. ولايوجد أى دليل على أنه كان هناك أي ميل في الأيام الغابرة لعبادة الصور لدى الأقباط. وعندما كان كيرلس يبني كاتدرائية جديدة شعر أن شعبه يمكن ان يقع في عبادة الأوثان عن طريق تأليه الصور المقدسة، ولذلك قرر عدم وضع أياً منها في كاتدرائيته الجديدة، فجمع كل الصور التي كانت تزين المبنى القديم وقام بحرقها بشكل مهيب في حضور جمهور كبير، وانتهز هذه الفرصة وتوجه إلى هذا الجمهور بحديث يشرح فيه ما قام به من إجراء واختتمه بقوله وهو يشير إلى الكومة المحترقة :

> " هذه هي الصور الخشبية التي اعتدتم احترامها وحتى تقديسها ! فهي لا تفيدكم ولا تضركم، الله وحده هو الذي يجب أن يُعبد ".[٥٦]

انني أذكر عمل كيرلس الرابع لأن هناك حادثة مماثلة وقعت في حياة جدي حنا بقطر ويصا تسببت في حدوث ضجة في البلاد في عام ١٨٧٠ و تُروى هذه الحادثة في العائلة كالآتي: أن بعد بضع سنوات من تحوّله إلى البروتستانتية عن طريق المرسلين الأمريكان ذهب هو وبعض أصدقائه مدفوعين بالحماس الزائد إلى الكنيسة القبطية في إحدى الليالي وأخذوا الأيقونات خارج الكنيسة وقاموا بحرقها، وفي اليوم التالي خرجت جماهير تصرخ قائلة "حنا ويصا حرق الكنيسة".

حُكم عليه بالنفي ووضع في قارب ذاهب إلى السودان، لكنه حصل على عفو من الخديوي عند وصوله إلى إسنا نتيجة توسط **المهراني بمبه**، زوجة مهراجا البنجاب التي كانت قد عُينت وصيفة للملكة عندما اصبحت الملكة امبراطورة للهند، وعند رجوعه لأسيوط وضعت زوجته طفلة أسماها "نزهة" نسبة إلى النزهة

---

[٥٥] تبرير رؤية – ايرل ئي إلدر.

[٥٦] قصة الكنيسة في مصر – ئي. إل. بوتشر.

التي قضاها في قارب بالنيـل إلى إسنا. وسأذكـر هـنا النـص الدقيـق لهـذه الحادثـة كمـا ورد في كتـاب "بَنّاء رائد على ضفاف النيل "A Master Builder on the Nile"، وهو سجل عن حياة البشـر المسيحي الدكتور هوج وأهدافه، أعدّته ابنته رينا هوج من الإرساليـة الأمريكيـة (الانجيلية المتحـدة) بمصـر حيث تقول الكاتبة :

" كان الملك ادوارد السابع الذي كان في ذلك الوقت أمير ويلز يقضي الشتاء بالنيل، حيث أمضت البعثة الملكية بضع ساعات في أسيوط، فعبرت عن سعادتها الكبيرة بما رأتـه مـن أعمـال الارسالية، وعلقت الأميرة أن المرسل "مستر هوج" الذي كان اسكتلندياً يذكرها بشعب اسكتلندا العزيز"

ثم تستطرد قائلة :

" ولكن حدثت نكبة بعد هذا التكريم، كانت نتيجتها غير طيبة وتُعتـبر هزيمـة للدعـوة الجديـدة، ففـي منزل السيد حنا ويصا "الصديق الجديد" للمرسل (الدكتور هـوج) جلـس أشـخاص مـن الأسـرة في وقـت متأخر بالمساء يقرأون سفرهم المُفضل :-

"وكان في تلك الليلة أن الرب قال له (لجدعون) خذ ثور البقر الذي لأبيك وثوراً ثانياً ابن سبع سنين واهدم مذبح البعل الذي لأبيك وأقطع السارية التي عنده وابن مذبحاً للرب إلهك علـى رأس هـذا الحصـن بترتيب وخذ الثـور الثاني واصعد محرقة على حطب السارية التي تقطعها فأخذ جدعون عشرة رجال من عبيده وعمل كما كلمـه الـرب اذ كان يخاف من بيت ابيه واهل المدينة أن يعمل ذلك نهاراً فعمله ليلاً".

(قضاة ٦ : ٢٥-٢٧)

وعلى مقربة من منزل حنا ويصا كانت هناك كنيسة قديمة معلق على جدرانها صور قديسين كان النـاس ينحنون أمامها ويطلبون شفاعتهم : أليست هذه السارية الواردة في الكتـاب ؟ ألم تكـن الدعـوة الموجهـة لجدعون موجهة لهم أيضاً ؟ لماذا لا يتوجهون في الحال وقلوبهم لا زالت مُفعمة بالحماس لتنقيـة عبـادة كنيستهم من الأوثان ؟ فقامـوا للصلاة بحرارة طالبين بركة الرب وتسـللوا إلى الطريـق الهـادئ، وكـان منزل أثناسيوس مجاورا للكنيسة مما سهل الوصول مـن سـطحه إلى مبنـى الكنيسـة، وأثنـاء غيابـه قـام أخوته بمساعدة المتآمرين وأنجزت المهمة بنجاح، ومرة أخرى تجمعوا للصلاة ثم عـادت الفرقـة المكّرسـة مبتهجة إلى بيوتها.

ولكن قصص العهد القديم يمكن أن تكون خطرة اذا مـا طبقـت حرفيـاً، وأي تصـرف علـى حرفيـة النص يمكن أن يؤدي إلى مواقف حرجة كما حدث في نتيجة هذه القصة.

في صباح اليوم التالي كانت الكنيسة القبطية ممتلئة بالشعب المولول الثائر، واختلط الرعب والخـوف والغضب معاً، وتم استدعاء الطائفة كلها للحضور تحت تهديد بالفرز من الكنيسة وسار الشـعب كلـه في مسيرة إلى مدير المديرية للمطالبة بالقصاص. وأدت التحقيقات إلى الوصـول إلى أسمـاء المتسـببين، حيـث كشف شقيق اثناسيوس عن المتهمين تحت وطأة الجلد بالسياط، وعندمـا تم توجيـه التهـم إلى الرجـال، تعجب منهم المحققون حيث أنهـم لم ينكـروا فعلتهـم، ورووا بصراحـة مدعـين باعتقـادهم بأنهـا أوامـر

صدرت لهم حسب ما فهموه من سفر القضاة. الا أن الرجال الثمانية حجزوا بالسجن انتظاراً لمحاكمتهم.

أبعاد هذا الحادث لا يفهمه إلا شخص يعيش في مصر في هذا الوقت، فقد أظهرت الأسماء المتورطة، وحالتهم المادية، سبب الإثارة العارمة التي ايقظتها، ورأى الكهنة الأقباط في هذا الحدث أصبع الله، لأن اسم حنا ويصا كان مكروهاً وإن الله قد سلّم عدوهم إلى أيديهم.

أعطى المدير لشقيق السيد حنا ويصا مهلة قدرها أربع وعشرون ساعة لتسوية الأمر مع أعدائه، ولكن الكهنة كانوا أصمّاء لا يسمعون التوسلات غاضبين كبحر هائج، واقتحم الفان من الشعب القبطي مقر المدير مطالبين بالتطبيق الكامل للقانون، وعندما فشلت المحاولات السلمية بقى دكتور هوج مع أصدقائه وهم في صلوات مستمرة لا تنقطع انتظاراً لتنفيذ الحكم.

بعد أسبوع حل عيد الأضحى عند المسلمين، واضطربت أسيوط عندما وصلت برقية من الخديوي تمنح المتهمين عفواً شاملاً، وتجمعت بساحة منزل ويصا حوالي مائتين شخص من الشعب مسلمين وبروتستانت للترحيب بعودة السجين إلى منزله، وعقدت خدمة شكر، وانتهز الدكتور هوج الفرصة وألقى موعظة عن أهمية تحطيم الأوثان في القلوب، والعمل بعد ذلك على اكتساب الأخوة بأعمال المحبة وأفعالها وليس بالعنف.

على أن هذا العفو العاجل الذي تم بصورة غامضة تبعه اتهام آخر بالسرقة لبعض محتويات الكنيسة القبطية، ويمكن أن يكون قد حدث ذلك بسبب تحرك البطريرك في الاجراءات نتيجة تهديد مطران أسيوط وآخرين بتركهم الكنيسة الارثوذكسية إلى الكنيسة الكاثوليكية أو بهجرة أسيوط بسبب الاعتداء على كرامة الكنيسة.

وفتحت التحقيقات من جديد بواسطة شريف باشا أثناء تواجد الخديوي في أوروبا ولقي المتهمون حكما بالسجن لمدة سنة وسنتين وثلاثة في الجنوب مع غرامة قدرها ١٧٥٠ دولارا لاستعادة الممتلكات التي لم يظهر أي دليل على سرقتها ".

تأجلت القضية لبعض الوقت انتظارا لعودة الخديوي، وأخيرا بعد أن قضى الرجال شهرا في الأعمال الشاقة بإسنا بالاضافة إلى وقت الاحتجاز في أسيوط أطلق سراحهم في ١٠ أغسطس. وتختتم الآنسة رينا هوج القصة بقولها :

"كانت الأفراح العظيمة في انتظارهم بأسيوط، وزار أكثر من ألف قبطي ومسلم المتهم الأول يوم عودته"[٥٧].

---

[٥٧] لايمكن العثور على إشارة إلى توسط مهراني البنجاب (بمبه) لدى الملكة فيكتوريا للعفو عن حنا ويصا في أي من كتب المبشرين الأمريكان التي قرأتها، وإن كانت هذه القصة التي تبدو منطقية، الا انها يمكن ان تكون نسج خيال احد أفراد الأسرة.

رجال ذوو نفوذ وزيارة يوليسزجرانت Ulysses S. Grant لأسيوط؛ مدرسة واصف خياط للبنات؛ بناء أول كنيسة بروتستانتية في أسيوط؛ افتتاح مدرسة ويصا للبنين:

شهدت أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر تطوراً ملحوظاً في انتشار التعليم البروتستانتي في الوجه القبلي، وعلى الرغم من استمرار الدور القيادي للدكتور هوج ورفاقه في ممارسة نشاطهم إلا أن التركيز انتقل إلى القيادة المصرية كما كانوا يستهدفون، فتم تنظيم ثلاثة مراكز لجماعة المصلين واحد في أسيوط عام ١٨٧٠ وآخر في النخيلة وثالث في المطيعة في العام التالي. وأعتمد "هوج" خلال الأيام الأولى لمهمته على المؤازرة الوفية من واصف الخياط وحنا ويصا وأخيه ويصا لنشر المفهوم الجديد.

كان واصف الخياط، منتمياً للمذهب البروتستانتي في القاهرة قبل إستيطان المرسلين بأسيوط، ولم تكن هذه الحقيقة معروفة للجميع، وعند زيارة البطريرك لأسيوط عام ١٨٦٧ كان واصف الخياط هو الشخص الوحيد في أسيوط الذي اعترف بصراحة بانتمائه للبروتستانتية. ولكونه وكيلاً للقنصل الأمريكي في أسيوط وذو نفوذ وثراء فلم يلق من البطريرك إلا لوماً خفيفاً على انتسابه إلى مذهب الأجانب دون أن يتعرض لتهديد واضح أو اضطهاد سافر.

توفى واصف الخياط في عام ١٨٨١ وقد تحدثت تقارير مجلس الارساليات الأجنبية الخاصة بالفترة من ١٨٦٥ الى ١٨٨٢ بشكل متكرر عن مساهماته السخية في تأسيس الكنيسة بأسيوط وتحمله جميع مصاريف مدرسة البنات النهارية في الوقت الذي اقامت فيه الارسالية مدرسة البنات الداخلية، كما كان يدفع قيمة مسحوبات الارسالية على الخزانة الامريكية دون أن يأخذ في اعتباره الخسارة المادية التي كانت على حساب عمله *.

يمكن للقارئ ان يستشف نمط الحياة في أسيوط في الزمن الذي نكتب عنه عن طريق وصف لحفل عشاء أعده واصف الخياط للجنرال يوليسيز جرانت Ulysses S. Grant، أحد أبطال الحرب الأهلية في أمريكا والذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة في وقت لاحق.

النص التالي مأخوذ من كتاب " حول العالم مع الجنرال جرانت " لجون راسل يونج :

---

* ذكر هذا في أحد مراجع الدكتور دافيد جونسون قنصل أمريكا بالقاهرة مؤرخاً في أول فبراير ١٨٧٥ ص ١٠١.

أسيوط – حيث استضاف واصف الخياط الجنرال يوليسز جرانـت ULYSSES GRANT في منزلـه في يوم ١٩ يناير ١٨٧٨ كما هو ذكر في كتاب جون راسيل يانج (حول العالم مع جنرال جرانت).

وهذه إمضاءات مأخوذة من سجل الزيارات لقنصلية أمريكا بأسيوط في الفترة من ١٨٧٥ – ١٨٧٩

النيل

"صباح يوم ١٩ يناير وهو اليوم الثالث لرحلتنا، وصلنا إلى مدينة سيوط، أو أسيوط كما يسميها البعض، ولدينا وكيلاً للقنصل بهذه المدينة، وكان لديهم علم بحضورنا كما يظهر من الأعلام التي كانت تزين ضفة النهر ومن الجماهير المصطفة على الشاطئ. وسيوط هي عاصمة صعيد مصر ويقطنها ٢٥,٠٠٠ نسمة، وتقع المدينة على مسافة من النهر، وزادت أهميتها كمحطة لمعظم تجارة القوافل من والى دارفور بالسودان.

عندما وصلنا استقبلنا وكيل القنصل وابنه على ظهر المركب، وقُدّما إلى الجنرال، وبعد تبادل التهاني، قدمنا القهوة والسيجار لأصدقائنا بأسلوب شرقي صميم. اسم قنصلنا هنا هو واصف الخياط قبطي ومن كبار ملاك الأراضي، وهو شخص وقور متقدّم في السن لا يتحدث إلا العربية ولكن ابنه تعلم بمدرسة الإرسالية في بيروت ويعرف اللغة الأنجليزية. تقدمنا بموكبنا إلى المدينة في طريق من الحقول العطشى بسبب انخفاض منسوب النيل في تلك السنة والتي يمكن لها ان تزدهر في السنوات الأكثر خيراً لتصبح مثل الحدائق الغنّاء، وعندما يكون الماء منخفضاً في النيل تكون هذه عبارة عن كارثة لا يفوقها سوءاً إلا القحط في مصر.سار الركب في المدينة وبالأسواق حيث كان يبدو وكأن المدينة كلها تعرف بقدومنا لأننا أينما توجهنا نجد الجماهير محتشدة من حولنا، وكان علينا أن ندفع بحميرنا بين كتل من البدو والمصريين من كل الأعمار والمستويات، فبعضهم يكاد يكون عاريا، فمنهم من يطلبون البقشيش وآخرون يدفعون بأنواع من البضائع في وجوهنا لشرائها.

الأسواق عبارة عن طرق ضيقة مغطاة بحصير أو ألواح خشبية غير محبوكة ولكنها تكفي لتكسر حدة الشمس، والمحلات عبارة عن غرف ذات فتحات ضيقة يجلس التجار أمامها وينادون للبيع. ولا يزيد عرض هذه الشوارع عن مترين على الأكثر ولك أن تتخيل الوقت الذي كان يلزمنا للمرور منها.

المدينة بها بعض المنازل والمساجد الجميلة، ولكن أغلبيتها كانت مثل كل مدن صعيد مصر، عبارة عن مجموعة من الأكواخ المصنوعة من الطين. وسرنا إلى خارج المدينة وتسلقنا التلال الجيرية على حميرنا وكان هذا أول مشهد رأيناه عن نمط بناء مقابر القدماء المصريين المحفورة في التلال وهي عبارة عن غرف حيث لقيت فيها المومياوات راحتهم الأبدية، وكانت الغرف المعُدة لهم كبيرة وفسيحة وذلك حسب مقدرة ومكانة المتوفي، وفي بعض المقابر التي دخلناها كانت هناك غرفة للدفن وغرفة أخرى أكبر منها لأستقبال أهل المتوفي، وكانت هناك نقوش على الجدران مطموسة، وفي يوم من الأيام كانت أسقف المقابر مُزينة ولكن الزائرون طمسوها باطلاق الطلقات النارية عليها، وعندما تزور قبراً وتلاحظ النجوم الزرقاء والأشكال الفلكية التي رسمها القدماء بعناية فائقة والتي تغريك أن تحاول سماع صدى الصوت بإطلاق مسدسك، ولهذا كانت الأسقف ملطخة بآثار الطلقات.

كذلك جاء إلى هنا المتجولون الباحثون عن ملجأ وترى على الأسقف آثار اشعال نيرانهم، ولك أن تتخيل كيف كانت هذه القبور في الماضي عندما خرجت من تحت أيدٍ تقيّة ومُحبّة، ولا ننسى دور المسيحيين القدماء محطّمي الأيقونات، وعن المتجولين من مسيحيي العصر الحديث، والبدو، والعرب الذين

يبحثون في القبور عن الكنوز، لا شئ يبقى إلا غرفا فارغة مملوءة بالرمال وبعض الذكريات الهيروغليفية على الجدران.وقد دعانا واصف الخياط إلى بيته وكانت الساعة السابعة عندما توجهنا اليه، كنا جميعا شغوفين لنرى أول ضيافة مصرية، وبعد بعض المناقشات قرر رجال البحرية الذين معنا ارتداء ملابسهم العسكرية، وركب الدكتور (كوك) مع الجنرال ومسز جرانت والقنصل العام العربة في مقدمة الموكب. وحيث كان الدكتور يرتدي ملابسه الرسمية والآخرون يرتدون ملابس عادية، فقد رحّب به الناس المبهورون على ظن أنه ملك أمريكا، والباقون كانوا يركبون الحمير الجيدة والمدربة بالخلف، دكتور هادن بملابسه العسكرية يتبعه جمهور من المعجبين، وأعتقد الجمهور أنه أمير، إذ في عيون الشرق لا يمكن أن توحي هذه الملابس العسكرية المزينة وهذا الذهب بمرتبة أقل من مرتبة الأمراء، ولكننا جميعا كنا محط الإنتباه بأقل أو أكثر درجة، وان كان بمقدورنا أن نشعر أن الملابس العسكرية كانت مركز البهاء وأن الضوء لم يتركزعلينا إلا من أجلها، وعند وصولنا إلى منزل واصف الخياط وجدنا منظراً مختلفاً تماماً، فالفوانيس تصطف على جانبي الطريق، والخدم واقفون وهم يحملون المشاعل النارية ولوحة على زجاج شفّاف فوق البوابة ومكتوب عليها بالإنجليزية "مرحبا بالجنرال جرانت" وحرف "N" مقلوباً وان كان ذلك لم يكن له أي تأثير إذ أن الترحيب هنا في مصر جعل القلب ينبض بايقاع أسرع، ونحن نسير على الدواب في اتجاه المنزل كانت الشعلات تتوّهج والصواريخ تندفع في الهواء بأضواء مختلفة الألوان، ومررنا من الساحة المزدهرة بالأضواء والألوان متجهين إلى داخل المنزل على سجاد وأبسطة ذات نسيج ثقيل ورسومات رائعة الجمال.

تقدّم مضيفنا لاستقبالنا على بوابة منزله ورحّب بنا بالطريقة التركية التي تتّسم بالفخامة والإجلال، وهنا تقابلنا مع مدير مديرية أسيوط كما رحب بنا القس آي. آر. الكسندر وزوجته، والقس الكسندر هو أحد الأساتذة بكلية الإرسالية التابعة للكنيسة المشيخية المتحدة. وجاءت وليمة العشاء فاخرة في وفرتها وعظمتها، والجدير بالذكر أن الأطباق المقدمة كانت على الأقل عشرين صنفا معدّة كلها بشكل جيد، وعندما تم العشاء تقدم ابن صاحب البيت واقترح بلغة انجليزية صحيحة بشكل ملحوظ نخباً في صحة الجنرال.

أسمحوا لي أن أقدم لكم فقرة من حديثه " لقد سمعنا كثيرا وتعجبنا طويلا بالتقدم المذهل الذي حققته أمريكا خلال القرن الماضي، حتى وصلت إلى المركز الأول بين معظم الدول المتحضرة، فقد تقدمت بسرعة في مجال العلوم والآداب والفنون حتى وقف العالم مذهولا بهذا التقدم غير العادي الذي يفوق سرعة الضوء، والذي أتى نتيجة دءوب لرجالها الذين يتميزون بالعظمة والحكمة والذين أثبتوا للعالم أجمع ما يمكن أن تفعله حكمة الرجال وشجاعتهم ووطنيتهم، ليت العالم كله ينظر إلى أمريكا ويأخذها مثالا يُحتذى به، مثالا لتلك الدولة التي اتخذت أساسا لقوانينها وهدفا لأفعالها أن تحافظ على الحرية والمساواة بين شعبها بل وتؤمنه للآخرين، متجنبة المخططات الطموحة التي يمكن أن تجرها إلى حروب دموية مدمرة، باذلة كل السبل لحفظ السلام داخليا وخارجيا، فالحربان الوحيدتان اللتان تعرضت لهما كانتا لأغراض نقية عادلة فالحرب الأولى لاطلاق حريتها من النير الانجليزي والحصول على استقلالها، والحرب الثانية لمنع الرق وتثبيت اتحاد ولاياتها، ونحن ندرك تماما أنه بفضل رعاية الله وصلت الحرب الأخيرة منها إلى نجاح مقاصدها بفضل ذكاء سعادة الجنرال جرانت وشجاعته وحكمته".

واختتم الحديث باجلال وتقدير للجنرال والخديوي، ورد الجنرال جرانت أنه لم يلق في رحلته ما كان له تأثير عليه مثل هذا الترحيب غير المتوقع والكريم في قلب مصر. فقد كان يتوقع متعة كبيرة من زيارته لمصر ولكن ما تحقق فاق كل التوقعات، وقدم الشكر لمضيفه وبصفة خاصة لهذا الشاب الذي تحدث عنه بهذا المديح الكبير في هذا الاستقبال.

واختتمت الوليمة بالقهوة والسيجار والأحاديث، حيث كان لمسز جرانت حديث طويل مع مسز الكسندر عن بلدهما الأصلي، فالسيدة الكسندر عروس شابة جميلة أتت من امريكا لتجرب حظها مع زوجها في حقل أسيوط الصعب، وعندما حل المساء ركبنا عائدين إلى قاربنا على السهل أثناء الليل يصاحبنا حاملو المشاعل في شوارع المدينة ويتبعنا الأولاد رعاة الحمير وشعب المدينة حتى ضفة النهر، وفوقنا القمر يرسل بأشعته الفضية علينا. ونحن في طريقنا إلى بيتنا – وكما ترى نسمى القارب بيتنا – فتحدثنا عن هذه المفاجأة اللطيفة التي لقيناها في أسيوط وعن العديد من الأوجه الغريبة للحياة الشرقية".

مدرسة واصف الخياط للبنات

أسس هذه المدرسة وبناها واصف الخياط في أواخر الستينات من القرن التاسع عشر على جزء من إحدى حدائقه، وقام ابنه بسطوروس بتوسيعها في أوائل القرن العشرين. كما أنه أوقف أرضاً زراعية كافية لتغطية نفقاتها، ثم تولّت ابنته أمينة – أرملة نصيف بك ويصا – عمل توسعات أخرى بمساعدة شقيقتها وديعة زوجة الفريد بك ويصا وورثة شقيقها المتوفي المرحوم أمين بك الخياط في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات من هذا القرن. وعند تأميم جميع المدارس الخاصة في الستينات، طلبت أمينه من السلطات السماح لها بالإحتفاظ بالمدرسة حتى وفاتها على حسابها مع تحملها كافة المصاريف؛ فلم تكن ترغب أن ترى أياً من هيئة التدريس مفصولا من المدرسة في حياتها، وقد قُبل طلبها واحتفظت بالمدرسة لبضع سنوات حتى وفاتها مضطرة لبيع الكثير من ممتلكاتها ومجوهراتها لتغطية نفقاتها، وبعد وفاتها سُلمت المدرسة رسمياً لوزارة التربية.

بناء أول كنيسة

شارك ويصا بقطر وشقيقه حنا أيضا بطرق متعددة في إقامة أول كنيسة في أسيوط ؛ وبخلاف ما ذكر من قبل، تولت هذه العائلة مسئولية مدرسة البنين في أسيوط بنفس الطريقة التي تولى بها واصف الخياط مدرسة البنات، وبدأت العائلة مسئولية مشروع [٥٨] الكنيسة في غرب المدينة الذي بدأ في ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ واكتمل في ٦ مارس ١٨٧٠ واعتبر بذلك نواة أول كنيسة بروتستانتية في أسيوط.

---

[٥٨] تبرير رؤية – ايرل ئي إلدر.

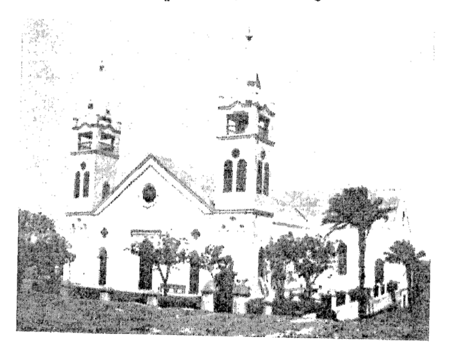


واصف الخياط وابنه بسطوروس خياط

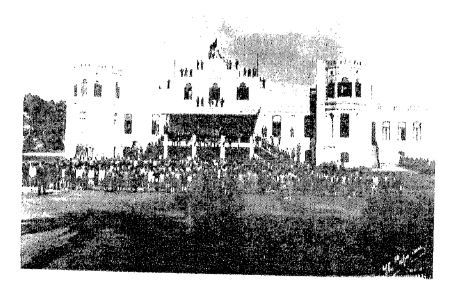


مباني مدرسة خياط للبنات

أول كنيسة بروتستانتية في أسيوط



صدر مرسوم خديوي عام ١٨٩٦ يصرح للأخوة ويصا ببناء كنيسة في جزء من حديقتهم وتم الانتهاء من بنائها في عام ١٨٩٩ ، وكانت أول كنيسة بورتستنتية في أسيوط وحلت محل منشآت صغيرة مُنحت من الأخوان ويصا عام ١٨٧٠واستخدمت ككنيسة منذ ذلك التاريخ



مدرسة ويصا للبنين

وفي سبتمبر ١٨٩٦ تقدم شيوخ الكنيسة بطلب إلى وزارة الداخلية طالبين السماح لهم ببناء كنيسة أكبر من تلك التي شيدت عام ١٨٧٠، ووصلهم الخطاب التالي في ٨ نوفمبر ١٨٩٦ :

" إلى السيد المحترم حنا بقطر ويصا، بناء على طلبكم وطلب رفاقكم ببناء كنيسه للطائفة البروتستانتية على قطعة أرض مملوكة لكم ولشقيقكم ويصا بالحديقة المزروعة بالنخيل والكائنة بالجزء الشمالي من المدينة، يسرنا إفادتكم بصدور المرسوم الوزاري العالي المؤرخ في ١٥ جمادى الأولى عام ١٣١٤ هجرية الموافق ٢٢ أكتوبر ١٨٩٦ برقم ١٥ للسماح لكم ببناء الكنيسة على قطعة الأرض المذكورة أعلاه.

لذلك تخطركم المديرية انتم ورفاقكم بذلك بالإخطار رقم ١٧٤٢ المؤرخ في ٢٩ أكتوبر ١٨٩٦ ".

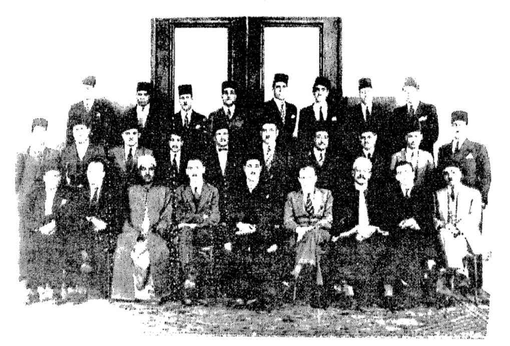
شيّدت الكنيسة وبدأت تُمارس بها الشعائر الدينية في عام ١٨٩٩ واعتبرت الكنيسة البروتستانتية الأولى في أسيوط، وكان القس معوض حنا هو أول راعي لهذه الكنيسة.

مدرسة الأخوين ويصا للبنين بأسيوط

في عام ١٨٧٠ أسّس الأخوان ويصا مدرسة للبنين شبيهة تماماً بمدرسة واصف الخياط للبنات. وعند افتتاح الكنيسة الإنجيلية الأولى التي أقيمت في عام ١٨٩٨ باحدى الحدائق التي يملكانها، قرر الأخوان ويصا اعادة بناء المدرسة وتوسيعها، واكتمل ذلك في أوائل القرن العشرين حيث قام بافتتاحها الخديوي عباس حلمي الثاني، وبهذه المناسبة أقيم تمثال للخديوي من الرخام على سلم المدرسة، التي كانت تحفة في الهندسة المعمارية المتقدمة والتصميم الرائع، اذ أُعدت التصميمات وشيّدت المدرسة بواسطة مهندسين بريطانيين، وكثير من الناس يطلقون عليها اسم "القلعة" لأنهم يرونها شبيهة بإحدى القلاع، وقد أقيمت المدرسة على أربعة أفدنة من أرض الحديقة التي بنيت عليها الكنيسة، لها مدخل للسيارات وملعب كرة قدم كامل المقاس. على أنه رغم عدم معرفتي بإسماء المديرين الأُول الذين كانوا يديرون هذه المدرسة إلا أنني أذكر المرحوم الأستاذ عزيز عباس الذي اختير لتولي مهام إدارة المدرسة في عام ١٩٣٢، وهو خريج الكلية الأمريكية بأسيوط وجامعة القاهرة، وقد كان إنسانا يخاف الله ولا يدّخن ولا يتعاطى المُسكرات، له احترامه وتقديره ومصداقيته لشخصيته الأكاديمية والأخلاقية، وكان مديراً متفرغاً للمدرسة حتى وافته المنيّة بشكل مفاجئ ومؤثر في ٩ يناير ١٩٦٣.

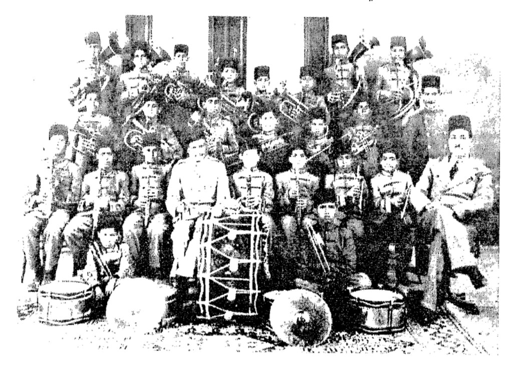
التفاصيل والصور التالية مقدّمة من الاستاذ **ممتاز عباس** المحاسب القانوني الذي يعيش في بفرلي هيلز بولاية كاليفورنيا الأمريكية، فقد هاجرت والدته وأسرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد وفاة والده، وهو يذكر أن اليوم الدراسي كان يبدأ بتحية العلم، ثم يتوجه الطلبة والمدرسون إلى الكنيسة للترنيم بمصاحبة البيانو حيث كان والده يقدم موعظة قصيرة. وفي نفس الوقت الذي يتولى فيه مدرس اللغة العربية القدير تعليم القرآن للطلبة المسلمين في فصل بالمدرسة.

مدرسة ويصا للبنين



مدرسون مدرسة ويصا

يتوسط مجموعة مدرسي المدرسة عزيز عباس الناظر ومدرسين اللغة العربية والقرآن الكريم



الفرقة الموسيقية لمدرسة ويصا مع المدرس والناظر عزيز عباس

كانت المدرسة مشيّدة من طابقين. وكانت الفصول الإبتدائية تشغل جزءا من الطابق الأرضي، بينما كان بالجزء الباقي كافيتريا وقاعات لمارسة الهوايات مثل الموسيقى والرسم وعمل شباك الصيد والنجارة...الخ، أما الطابق العلوي فكان مخصصا للفصول الثانوية، واشتمل أيضا على مكتب ادارة المدرسة ومكتبة كبيرة ومختبرات للكيمياء وللأحياء كاملة التجهيز، وهناك مبنى منفصل للقسم الداخلي، وكانت المباني تشتمل على أكثر من مائة غرفة للفصول وغرف الاجتماعات وما إلى ذلك.

الموسيقى

كانت الموسيقى هي إحدى الهوايات الرئيسية ، فكانت هناك ثلاث فرق مستقلة ، أكبرها هي فرقة الموسيقى النحاسية التي تتكون من حوالي ثلاثين آلة ، وقد أثرى هذا الفريق الطلبة بموسيقاه كل يوم أربعاء أثناء فترة الاستراحة ، وعندما كانت فرق المدرسة الرياضية تتنافس مع مدارس أخرى، كما كانت هذه الفرقة تُستأجر أيضا في الجنائز وفي الأفراح.

الفرقة الثانية كانت الفرقة الوترية حيث كان يُجري فيها تعليم الكمان والمندولين والعود، أما الفرقة الثالثة فكانت موسيقى القرب الاسكتلندية وتُعلّم المزمار والبوق.

الألعاب الرياضية

كانت المدرسة تنافس دائما على المركز الأول في كرة القدم وكرة السلة والكرة الطائرة والملاكمة والجمباز.

التجهيزات والمرافق

كانت المدرسة تستخدم عمالاً متفرغين بمهن النجارة لعمل مكاتب ومقاعد للطلبة ، كما كانت تستخدم عمالاً للطباعة والسباكة والكهرباء وحراس أمن وعمال نظافة وعمال حدائق، وكانت هناك ماكينة هيدروليكية لري ملعب كرة القدم.

كما أنشأ الاستاذ عباس قسما جديدا للطلبة الراغبين في تعلم مسك الدفاتر والآلة الكاتبة والمحاسبة الأساسية لتزويد قطاع البنوك والأعمال التجارية بالعمالة المدربة ، وكانت حوالي ١٠٠ آلة كاتبة بالمختبر للتدريب على استخدام الآلة الكاتبة الإنجليزية والعربية بطريقة اللمس، كما كانت تتوفر ماكينات الجمع وماكينات تسجيل

النقود لتدريب الطلبة عليها، وقد تم توظيف العديد من خريجي مدرسة ويصا بالحكومة والمؤسسات الخاصة في جميع أنحاء البلاد.

وفي الوقت الذي بدأت فيه الدراسات المسائية والدراسات المكثفة للحصول على دبلومات عالية بالمدارس الثانوية بالقاهرة، كانت مدرسة ويصا هي المدرسة الوحيدة في صعيد مصر التي كانت تقدم مثل هذه الدراسات.

ولكن بقيام ثورة عام ١٩٥٢ حدث تغيير كبير في نظام التعليم نتيجة تدخل الحكومة، مما كان له آثار سيئة على المدرسة أدى في النهاية إلى غلقها ومحوها في سنة ١٩٦٤.

ففي المقام الأول قررت الأنظمة الحكومية الجديدة تقسيم السنة الثالثة الثانوية إلى ثلاث شعب : علوم وآداب ورياضة، وكانت قبل ذلك مقسمة إلى شعبتين فقط علوم وآداب – حيث كانت الرياضة جزءا من العلوم، وكانت بمدرسة ويصا الشعبتان الأوليتان فقط، ومن ثم كان على الطلبة الذين يرغبون دخول شعبة الرياضة التحويل إلى مدرسة أخرى. كذلك منع احتواء المدارس على أقسام ابتدائية وثانوية في مبنى واحد، حتى وان كان هناك فاصل انشائي كامل بينهما. وفي سنة ١٩٦٠ طلب محافظ أسيوط الطابق العلوي من المدرسة لجعله مدرسة فنية للممرضات طالما ان هذا الطابق غير مستعمل بالكامل، وعلى الرغم من محاولة مدير المدرسة بابطال هذا الأمر؛ إلا أن محافظ أسيوط في ذلك الوقت أفاد أنه قد أعطى القانون أجازة. وطلب من أسرة ويصا أن تتبرع بالأرض للحكومة، وحيث كان أغلب أفراد الأسرة الأكبر سناً إما متقدمين في السن للغاية أو منهكين أو غير موجودين في ذلك الوقت فقد قام شقيق زوجتي نيابة عن فرع ويصا وأنا نيابة عن فرع حنا بالتوقيع والموافقة على التبرع بالأرض، فقد كان الاعتراض في ذلك الوقت لا يُجدي، اذ كان المحافظ قد وضع يده بالفعل على المدرسة وكان العمال يقومون بإزالة الجدران بين الفصول بالطابق الأرضي، وفي ٩ يناير ١٩٦٣ الساعة الثامنة صباحا انهار جزء من المبنى على الطابق الأرضي، وتوفي المرحوم السيد عزيز عباس مدير المدرسة وأحد خدمه تحت انقاض الجدران المنهارة، وعندئذ قررت الحكومة إزالة المباني.

* * *

هناك أشخاص بمحافظات أخرى ضحوا بوقتهم وأموالهم لدعم مسيرة البروتستانتية، ففي "صنبو" التي تبعد خمسة وثلاثين كيلو متراً شمال أسيوط قام السيد ميخائيل فلتس ليس فقط بتأسيس مدرسة بنين ومدرسة أخرى للبنات، لكنه أيضا أدار ملجأ لليتامى في وقت ما، وبعض نقاط الضعف في الحركة

البروتستانتية في مصر كانت بسبب وجود العديد من الإرساليات البروتستانتية المختلفة التي تحاول أن تفعل نفس الشيء، ومن ثم فقد كانوا يدوسون على أقدام بعضهم البعض، وفي بعض الأحيان كانت توجد خلافات تافهة بينهم. وكان الأمر أسوأ بين الأقباط المتحولين الذين كانوا من المفروض أن يحملوا الشعلة، فكانت دائما المنازعات لأسباب صغيرة والمجادلات في أمور تافهة هي نقطة ضعف أمتنا، وبسبب هذه المجادلات عجزت الارساليات عن جذبها لمزيد من الاتباع.

لم تستطع الإرساليات أن تفهم لماذا كان كهنة الكنيسة القبطية يقفون بالمرصاد ضد البروتستانتية بهذه الصورة. إن أحد الأسباب الرئيسية لهذا الإتجاه كما هو الحال بالنسبة لأغلب الناس – يرجع إلى الإهتمام المادي والرغبة في البقاء.

يمكننا استنباط فكرة بسيطة عما سبق بما ذُكر في تقرير حركة الارسالية حيث يصف كيف تعرض مطران أسيوط للصد عام ١٨٦٦ أثناء زيارته السنوية للمُطيعة، عندما امتنع الأشخاص الذين كانوا يمثلون نواة الحركة البروتستانتية عن تقديم عطائهم السنوي من القمح للكنيسة لزعمهم أنهم لا يرغبون في مؤازرة عبادة الأوثان.

استنبط كاتب الكتاب " **تبرير رؤية** Vindicating a Vision " بعد أكثر من ثمانين سنة عندما أخبره أحد الكهنة الأقباط " أنه يمكن تجنّب الخلاف الذي يتعرض له المبشرون البروتستانت إذا ما استمر الشعب في أداء هباتهم السنوية من القمح للكنيسة. هذا وقد كانت هذه الحركة مُفيدة للكنيسة في مصر بصفة عامة على المدى البعيد، فأخرجت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية من الخط المحفور الذي كانت تسير عليه لقرون عديدة وجعلتها تتمتع بمزيد من الصراحة والشجاعة، وساعدتها على تعليم المرأة القبطية وتحريرها، وطوّرت روحاً من المنافسة بين مختلف الكنائس.

ولكن ظل بطريرك الكنيسة القبطية وكبار كهنتها على صلابتهم وموقفهم الذي لا يلين تجاه البروتستانت، وإن كان من الجدير بالملاحظة أن أحد المطارنة الأقباط قال لمستر **تيودور روزفلت** Theodore Roosvelt عندما كان في زيارة لمصر: "لقد قامت الارسالية الأمريكية بالكثير من الأعمال في مصر، لأنها قد علمتنا أن نقرأ الكتاب المقدس" [٥٩].

---

[٥٩] تبرير رؤية – ايرل ئي إلدر.



فهمي ويصا الطالب بجامعة أكسفورد



الأسرة خلال السنوات التي تلت ١٨٩٠

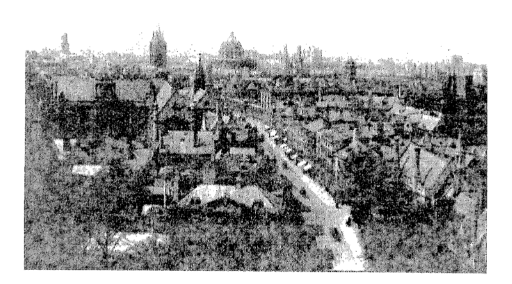
كان ذلك في عام ١٨٩٧ عندما اجتمع حنا وويصا وأخنوخ معاً وقرروا ضرورة سفر كل من فهمي – أصغر أولاد حنا – وزكي أصغر أولاد ويصا ولويس الابن الأكبر لأخنوخ لتكملة الدراسة بالخارج، لقد كانوا جميعاً في نفس السن تقريباً، فقد ولدوا في عام ١٨٨٥، أرسلوا جميعاً إلى المدرسة الأمريكية في بيروت ثم إلى أكسفورد عام ١٩٠٢، وأقاموا خلال السنة الأولى بجامعة أكسفورد بمنازل أساتذتهم لإعدادهم لمرحلة الدراسة بالكلية.

اضطر زكي الى العودة للوطن بعد سنة واحدة حيث استدعاه شقيقه الأكبر جورج لتعرض ويصا لمرض الفالج وطلب أن يرى ابنه الأصغر قبل وفاته. أما فهمي فقد تمكّن من دخول كلية **هرتفورد** Hertford College حيث قضى خمس سنوات بالدراسة وممارسة الألعاب الرياضية، ويبدو من الصور التي التقطت له أنه كان يتمتع بوقته كاملاً هناك.

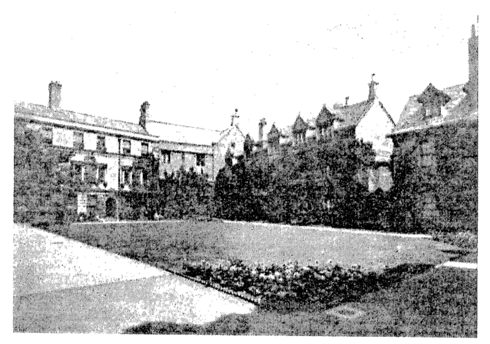
كان لويس أكبر أولاد أخنوخ فانوس مُدللاً من والديه، وكان طالباً ذكياً، وبعد الدراسة في الكلية الأمريكية ببيروت أُرسل إلى اكسفورد حيث حصل على الترتيب الأول في **نيوكولج** New College في الاقتصاد السياسي، وعندما عاد إلى مصر رأى أنه لا توجد وظيفة مناسبة له بها إلا إذا كانت وظيفة وزير أو وكيل وزارة بسبب نبوغه وتخصّصه المتميّز – الذي كان يؤهله لأعلى المناصب – من وجهة نظره؛ إلا أنه لم يبلغ طموحاته بسبب شخصيته الصعبة، فقد كان مُعظم الناس يجدونه متعجرفاً بسبب طباعه المتغطرسة، فقد كان يتحدث بتعالٍ إلى الناس، وكان يعتقد أنه أكثر عِلماً من أي شخص آخر، ويعامل الجميع على أنهم تلاميذه؛ لهذا السبب لم تكن اللجنة الوفدية بأسيوط في سنة ١٩٢٣ تتعاطف معه (أنظر الخطاب بالملحق ٣). وعندما رفض الحزب ترشيحه لمجلس الشيوخ، رشّح نفسه مستقلاً ونجح في الانتخابات بأغلبية ساحقة، واحتفظ بمقعده في المجلس حتى تم حل البرلمان عام ١٩٥٢. وأثناء وجوده بالمجلس أصبح وفدياً، ولكنه كان دائماً يحتفظ بآرائه المستقلة، فقد كان عضواً غريب الأطوار لا يكُف عن الحديث أبداً، وفي إحدى الجلسات غادر كل الأعضاء قاعة المجلس وبقي هو وحده مع رئيس المجلس الذي قال له: "أوافقك على كل شئ تقوله يا لويس، لكن دعنا ننصرف إلى بيوتنا". أجاب لويس: "أنا لا أتحدث اليك، إنني أتحدث إلى الأمّة، وأُصِرّ على تسجيل كلامي في المضبطة".

مرة أخرى أُخذت الأصوات لإجباره على ترك الجلسة بالقوة عندما قرر الرئيس بناء على طلب أغلبية الأصوات على قفل باب المناقشة، فاحتج لويس على هذا التصرف بشدة وفقد صوابه فنفر منه الأعضاء، وحاول والدي إقناعه بالعدول عن موقفه ولكنه دفع به جانباً، فسكت والدي، وغادر الجلسة إذ لم يشأ أن يكون موجوداً أثناء طرد شقيق زوجته.

أكسفورد



مدينة أكسفورد ١٩٠٢



جامعة هرتفورد – أكسفورد ١٩٠٢



حجرة المذاكرة – أكسفورد



الطلبة المصريون في أكسفورد ١٩٠٢

الصف الخلفي من اليسار فهمي ويصا – وليم مكرم عبيد – غير معروف

الجالسين من اليسار لويس فانوس – أستاذ اللغة العربية بأكسفورد – راغب حنا

في الثلاثينات من هذا القرن أقام لويس دعوى ضد شركة قناة السويس مطالباً إياها بدفع الأرباح بالذهب كما طلب أن تقوّم أسعار الأسهم بالذهب في البورصة، وكانت الشركة قد توقفت عن استخدام الذهب في تعاملاتها بعد انتهاء قاعدة الذهب عالميا. وقد أسّس حجته على نصوص تأسيس شركة قناة السويس، واستمرت هذه القضية لعدة سنوات وخسرها في النهاية. فمن صفات لويس أنه كان لا يتورع أن يدخل في جدال أو مشاجرة دون أن يأخذ في اعتباره نتيجتها، وكانت من عادته أن يمضغ الطعام الذي بفمه اثنين وخمسين مرة معتقداً أن ذلك يفيد عملية الهضم، وكان يريد كل انسان أن يفعل مثله. وفي يوم ألقى علبة سردين كنت أتناولها من النافذة مصراً على أن الطعام المحفوظ في علب الصفيح غير صحي، وعندما كنّا أطفالاً كنا نراه ثقيل الظل ومُملاً، فقد كان يحاول دائماً أن يترأسنا، لكن رغم غرابته كان ذكياً وباحثاً ودقيقاً، لا يقبل كلمة " لا " كرد في أية مناقشة؛ لذلك فعندما أطلقت على والدتي إستر "روح مناضلة" دعوت أخاها لويس "مناضل متذمت".

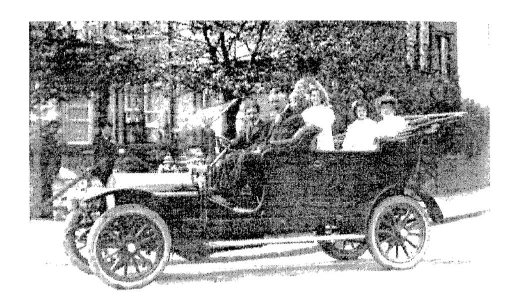
كان يوجد أقباط آخرون بجامعة أكسفورد في نفس الوقت من بينهم وليم مكرم عبيد الذي عُرف بعد ذلك بإسم مكرم عبيد والذي أصبح سكرتيراً لحزب الوفد ووزيراً للمالية، وتعرّض للنفي إلى جزيرة سيشل مع سعد زغلول، وبعد ذلك أسّس حزبه الخاص الذي سُمي حزب الكُتلة بعد خلافه مع النحاس باشا. كما كان من بين الموجودين بجامعة أكسفورد أيضاً راغب حنا أحد كبار مُلاك الأراضي، وأصبح فيما بعد عضواً بمجلس الشيوخ.

كان ويصا متوعكاً لعدة سنوات، وقد توفت زوجته أنجلينا سنة ١٨٩٥ وكانت تحب ابنها الأصغر زكي حباً شديداً، ولكنها كانت تخشى ابنها الأكبر جورج، كما كان يفعل أغلب أفراد العائلة بسبب طبيعته المستبدة، وكانت وفاة أنجلينا أحد الأسباب التي جعلت ويصا يقرر إرسال زكي لإكمال دراسته بالخارج.

في تلك الفترة أصبح جورج ساعد ويصا الأيمن في إدارة الأعمال منذ تم تقسيم ممتلكات الأخوين ويصا، فقد توقّف حنا عن الشاركة في مشتريات أو مشروعات ويصا الجديدة – كما كان يفعل في الماضي – وان كان قد ظل يدير الأرض لنفسه ولأخيه، وكان فرع ويصا بالعائلة يؤنّب فرع حنا لكونهم متحفظين أكثر من اللازم ويحاولون منع ويصا عن بعض آرائه الجريئة، وكانوا يلومون حنا لحثّه ويصا على شراء ١٤ ألف فدان من الأراضي الزراعية بالفيوم بدلاً من الأراضي الصحراوية حول القاهرة التي أصبحت فيما بعد منطقة جاردن سيتي والتي تُعتبر الآن من أهم أراضي المباني في المدينة.



أكسفورد



فهمي ويصا مع المدرس الجامعي وعائلته بنزهة -- أكسفورد



فهمي ويصا مع المدرس الجامعي وعائلته وطلبة آخرون

خطف ويصا أو الاستضافة الإجبارية ووفاته عام ١٩٠٦

اكتفاءً بهذا الاستطراد نعود مرة أخرى إلى قصتنا، في عام ١٩٠٣ كان ويصا يتفاوض علـى شراء عدة مجموعات من المباني بالقاهرة في المنطقة الجديدة الجميلة التي تُسمى التوفيقية تخليداً لذكرى الخديوي توفيق الذي توفي عام ١٨٩٧، وكانت الصفقة قد حُسمت ولكن لم تكن العقود قد أُعدت بعد عندما أُصيب ويصا بالفالج وهو في أسيوط.

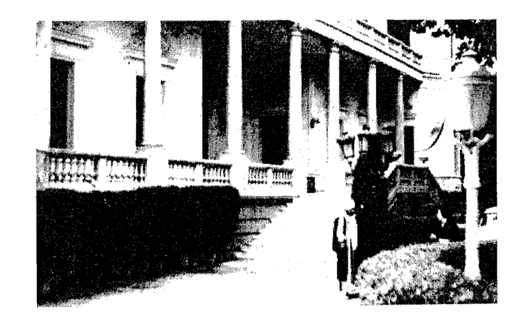
كان ويصا يعيش في قصر مبني على النيل وسط حدائق مساحتها ستة عشر فدانا، بنى هذا القصر مهندسون معماريون ومهندسو ديكور من ايطاليا، كما استخدم فنانون ايطاليون لرسم الصور الملونة "Fresco" على أسقف غرف الاستقبال الرئيسية، وكان ويصا يعيش بالطابق الأول الذي كان يحوي قاعة طعام ضخمة وغرفة للبلياردو وغرف استقبال مختلفة وأربع غرف نوم مع الحمّامات الملحقة بها، أما الطابق الثاني فقد كان مُقسماً إلى شقتين منفصلتين، الأولى المطلّة على النيل بالإضافة إلى النافورات والتماثيل الرخامية والحديقة الفرنسية والتي خصصت للابن الأكبر جورج الذي تزوج من ابنة عمه فيكتوريا إبنة عازر الأخ غير الشقيق لويصا. وخصصت الشقة الخلفية، وكانت تطل على بستان البرتقال الكبير والمباني الملحقة للابن الأصغر زكي الذي لم يكن قد تزوج بعد، لكنه تزوّج بعد ذلك من "شفيقة" وهي ابنة تادرس خياط، وكان يعتبرها الجميع امرأة غاية في الجمال.

أما بنات ويصا بلسم وفاروزة وريجينا فكُن يعشن مع أزواجهن : فقد تزوّج الدكتور أخنوخ فانوس بلسم، وتزوج ألكسان أبسخيرون من فاروزة وهو ابن أخت أخنوخ، وسكنت الشقيقتان في أسيوط. وأما ريجينا الابنة الصغرى فقد تزوجت الدكتور حبيب خياط، وكانت تعيش بالقاهرة، ولكنها جاءت إلى أسيوط لتساعد في العناية بوالدها عندما كان يعاني من مرضه، وفي ظل هذه الظروف كانت بنات ويصا يتناوبن الاشراف على الخدم الذين كانوا يعتنون بوالدهن أثناء مرضه وكن يصحبنه في خروجه اليومي بالعربة.

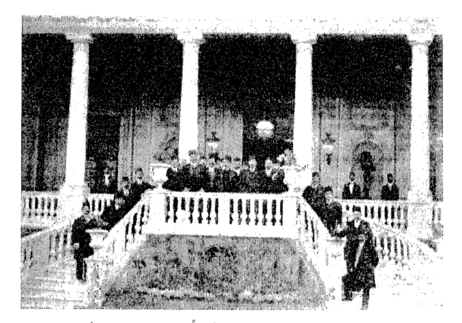
كان أخنوخ يخشى أن يكون لجورج تأثير على والده ويصا ليوقع عقود مباني التوفيقية بإسم جورج، وبذلك يستأثر بهذه المباني دون زكي وأخواته الثلاث، فحث زوجته بلسم وشقيقاتها أنه من مصلحة الجميع وخاصة لصحة ويصا أن يأتي ويعيش مع بلسم حتى يلقى العناية والحنان والخدمة مدار الأربع وعشرين ساعة، كما يمكن للأخوات أن يحضرن يومياً للمساعدة وبذلك يأمن عدم توقيع ويصا على أي شئ في غير مصلحتهن دون علمهن، وقُمن بتنفيذ ذلك بأخذ ويصا إلى منزل بلسم بعد احدى نزهاته، وأُعدت غرفة النوم الرئيسية له، وحيث كانت بلسم الابنة المحبّبة له لكونها كبرى أولاده فقد ارتاح للإقامة مع

منزل ويصا بأسيوط أمام النيل

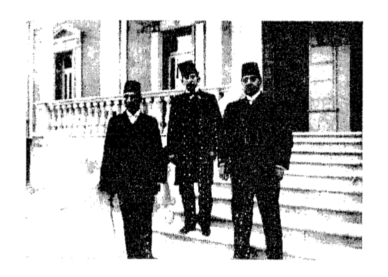




منزل حنا بقطر ويصا بأسيوط



في حفل استقبال السلطان حسين عندما كان أميراً ونراه في المنتصف مُحاط بحاشيته وفهمي بك أعلى الدرجتين من جهة اليسار وأخيه الأكبر تصيف بك ويصا على أسفل الدرج من جهة اليمين



السلطان حسين وهو أمير في زيارة لمنزل جندي بك ويصا حيث يتوسط الصورة وجندي بك ويصا على أقصى اليمين وأحد أعضاء حاشية الأمير في أقصى اليسار

عائلة أخنوخ فانوس حيث كان منزلهم يعج بالمرح والحياة والعديد من الأطفال، ولم يكـن بمقـدور جـورج أن يعترض طالما أن ويصا كان راضياً تماماً.

توفي ويصا سنة ١٩٠٦ وكانت عقود التوفيقية قد سُجّلت بإسمه قبل عودته للإقامة بقصـره، ومـن ثـم حصل ورثته على أنصبتهم الشرعية وفق قوانين الإرث السارية، ولكن جورج كان يتولى إدارة هذه المبـاني حتى وفاته في الثلاثينات، وكان الدخل السنوي يوزع على الورثة حسبما يتراءى له.

***

سأحاول هنا أن أكتب قليلاً عن ابني ويصا، جورج وزكي وسأبدأ بجورج.

كلمـا ذكرت جورج، صوّرته رجلاً شرساً متقدماً في السن يحـاول أن ينفـذ ارادتـه مسيطراً علـى حيـاة كـل شخص – هذا ما سيبدو للقارئ – ولكن لابد أن يتذكر الإنسان أنه كان سـاعد ويصـا الأيمـن لسنوات عديـدة قبـل وفاته فكان يعتني بالكثير من الأعمال ممسكاً بزمام النواحي المالية، واستمر يفعل ذلك بعد وفاة والـده عندمـا اضطـر لتصفية ممتلكاته. أما زكي فقد كان أصغر سناً منه ويماثل سن أولاد جورج، ولذلك كان جورج يعتبره ابناً لـه أكـثر من اعتباره شقيقه، ويعامله على هذا الأساس. وكان جورج رجل أعمال جيد صلب الرأي والوحيد مـن ورثـة ويصـا الذي استطاع أن يزيد من ثروته التي ورثها، وعند اقامته في أسيوط كان يعيش بجناحه الخاص بمنزل ويصا، لكنه أقام لنفسه منزلاً جميلاً في حي جاردن سيتي بالقاهرة على النيل مقابل مبنى فندق الميريديان الحالي والذي أقيم منـذ بضع سنوات. هذا وهناك العديد من القصص تُحكى عن العم جورج ولكنني سأكتفي بذكر واحدة أو اثنتين منها.

كان جورج ويصا محباً للطعام، وقبل أن يتزوج تقابل مع فتاة أمريكية من عائلة طيبة وفكر في الـزواج منها، وفي المقابل دعته الفتاة للولايات المتحدة الأمريكية لمقابلة والديها اللذين دعياه للعشـاء، فتخيـل في ذهنه كل أنواع الطعام الجيّد الذي يمكن أن يُقدم اليه، وعند العشاء جاءت الخادمة ومعها طبق كبـير لـه غطاء فضي فأخذ يتساءل جورج، هل هو ديك رومي محشوّ أم نوع من الطيور في صلصـة شـهية، وعندمـا رُفع الغطاء من على الطبق فوجئ بأنهم يقدمون كيزان من الذرة المسـلوقة، فنظـر إلى الطبـق مـرة واحـدة، ودون تفكير صرخ قائلاً: "أننا نُعطي هذا للخنازير"، وكانت هذه هي نهاية هذه الرومانسية.

اشترى جورج بعد الحرب العالمية الأولى عقاراً كبيراً في النمسا عندما انهارت قيمة عملتها، وقد صُودر هذا العقار أيام هتلر.

كما ذكرنا من قبل كان جورج يُحب الطعام، وكان لديه هاتفا مُثبتا بين غرفة الطعام والمطبخ في منزله بالقـاهرة، وكـان كلمـا وجـد شيئا لا يعجبـه يرفـع سماعـة التليفـون ليوبّـخ الطبـاخ ثـم يضـع سماعـة التليفـون بعصبيـة



جورج باشا ويصا (بزي البشاوية) أكبر أبناء ويصا بقطر ويصا

مرة أخرى، وكثيراً من الطباخين استقالوا لعصبيته حتى أصبح من الصعب على فيكتوريا أن تحتفظ بأي طباخ، وقررت دون أن يشعر في هدوء أن تقطع سلك التليفون، وكان العم جورج يرفع سماعة التليفون عند الغذاء ويوبّخ الطباخ ثم يخبط بها مرة أخرى كالعادة، وبذلك احتفظ العم جورج بالطباخين لعدة شهور وأراح زوجته فكتوريا. إلى أن حدث في أحد الأيام أن رفع سماعة التليفون وطلب من الطباخ أن يحضر اليه حيث كان يريد أن يشرح له شخصياً كيفية إعداد طبق ذاقه في مكان ما ويريده أن يعدّه له، وعندما لم يظهر الطباخ اكتشف كل شئ وكان على المسكينة فيكتوريا أن تبدأ في البحث عن طباخين من جديد.

بعد ظهر أحد الأيام كان العم جورج يحاول الوصول إلى شئ خارج النافذة بالطابق الأول فوقع على خادمه السوداني الذي كان يُدعى "فضل" والذي تصادف مروره أسفل النافذة، فكسرت قدم جورج وكذلك قدم فضل وبقيا الاثنان يعرجان سوياً على عصا في الحديقة بقية حياتهما بسبب ذلك.

في إحدى المرات تضايق من ابنة أخته إستر والتي كانت تتجادل معه ووصل به التبرّم حتى قال "لو كنت انت مراتي لكنت رميتك من الشباك كل يوم"، فردت إستر عليه: "هو أنا كرة تنس لأعود اليك مرة أخرى ؟ ".

***

. كان زكي بك ويصا (حماي) رجلا مختلفا عن جورج، فكان رائداً في جيله، وهو رجل أعمال له عقل صاف لاتهمه المجازفة فكان محباً للغناء والطرب وله حس شديد بالمرح، ظل يعمل بجد طوال أيام حياته، ولكن ما أن يضع مشروعا موضع التنفيذ حتى يترك ادارته لغيره، وان كان يظل يراقبه من حين لآخر، ثم يبدأ في مشروع جديد، ولكن هذه الطريقة لم تكن تؤدي الى تكوين ثروة أو الاحتفاظ بها، ولأنه كان طموحاً للغاية فكان يرى أن الثروة التي تركها له والده ليست كافية، كان يريد أن يكون ويصا آخر، فاستأجر أرضاً واسعة تصل مساحتها إلى حوالي ألف فدان في المراغة لكي يزرع بها القطن من أجل محلجه ويأخذ البذور لمصنع تكرير زيت بذرة القطن الخاص به اللذين أنشأهما في بني قُرّة، وفي البداية كان يديرها رجل انجليزي اسمه مستر بويز، وبعد ذلك تولى ولداه فيكتور وارنست ادارتها، وظل لسنوات عديدة يقوم بتكرير زيت الطعام ويبيعه بخسارة، فكان يبيع الصفيحة زنة ١٤ كيلو جرام بمبلغ أربعة وثلاثين قرشا بينما كانت تكلفتها الفعلية ستة وثلاثين قرشا.

كما اشترى ألفي فدان من أراض بور على شكل مستنقعات في دمنهور بالوجه البحري وقضى سنوات متحملاً آلاف الجنيهات في استصلاحها.

كان زكي ويصا من أول من نقب عن البترول، فقد كان المصري الأول الذي حصل على امتياز للبحث عن البترول في رقعة كبيرة بالبحر الأحمر، وقد تمكن من اكتشاف القليل منه فانفق الكثير من الأموال في استخراجه، وتمكّن من ذلك، ولكن العملية لم تكن مُربحة كثيـــــــرا، فأستخدم جيولوجيين من انجلترا لمساعدته، لكن تقاريرهم لم تكن مُشجّعة مما جعلته يرفض تجديد الامتياز عند انتهائه لأنه كان يُغطي نفقاته بالكاد، وقد رفض مشاركة إحدى شركات البترول الكبرى فقد كان يُحب الانفراد ولا يثق في الشركاء من خارج الأسرة، فأخـذت شركـة مساهمـة مصريـة تابعـة لشركة شل اسمها حقول البتـرول الإنجليزية المصرية Anglo Egyptian Oil fields هذا الإمتياز وتمكنّت من استخراج البترول بكميات كبيرة على بعد حوالي ميل واحد من آبار العم زكي.

كان العم زكي أحد مؤسسي نادي الروتاري في مصر حيث قد قرروا تأسيس هذا النادي وهم يتسامرون في تراس فندق شبرد، وكان رجلا جذاباً للغاية يبعثر النقود من جيوبه أينما ذهب. كان له الكثير من الأصدقاء في جميع مسالك الحياة، وعلى الرغم من كونه مغامراً وغير منطقي في بعض الأفعال، إلا أنه بإمكانه مجابهة الحقيقة بتفاؤل المستقبل والتصرّف بطريقة عملية، وكان أحد أوائل الأشخاص الذين تسلموا سندات الإصلاح الزراعي بعد سنة ١٩٥٢، فقد قبل ما أملته السلطات دون الدخول في قضايا ضدهم، مقدما منزله الريفي بكل محتوياته في الفيوم طوعـاً، على الرغم أنه كان له الحق في الاحتفاظ به، وقد أحس بحسرة وهو يتنازل عن منزله بالفيوم فقد كان يحب قضاء بعض الوقت به ويسعد باصطحاب زائريه حول الحدائق. اذ كان رجلا نشيطا للغاية، يستيقظ مبكرا ويقوم بتمريناته وبعد وجبة الإفطار يركب فرسته لساعات، وكان رجـلاً فريداً جداً في نواح عديدة، وكان منزله تحت ادارة حكيمة، فقد كانت تديره زوجته شفيقة تادرس خياط التي قامت بانقاذه عدة مرات في حياته عندما كان يمر بأزمات مالية صعبة.

كانت أزمة سنة ١٩٣٠ صعبة على عائلة زكي ويصا، فرتّب مع بنك مصر عملية تسوية كل ديونه مع البنوك الأخرى، مضطراً لبيع المحلج ومصنع تكرير زيت بذرة القطن للبنك بشرط أن يتم تعيين ولديه مديرين مدى الحياة : أرنست ليدير مصنع الزيت وفيكتور للمحلج، كما اضطر لتصفية مشروع استصلاح الأراضي في دمنهور وإيقاف التنقيب عن البترول، وترك الأرض المستأجرة بالمراغة حيث أصبح في غير حاجة لكميات كبيرة من القطن، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية حُـددّت المساحات المخصصة لزراعة القطن، ولم يكن أرنست يرغب العيش في بني قُرّة حيث بدأت أسرته تكبر، لذلك بقى فيكتور مديراً لمصنع تكرير الزيت حتى تقاعد في أواخر السبعينات.

وكان من سوء الطالع أن اضطر زكي لبيع مصنع تكرير الزيت، اذ أنه بمجرد نشوب الحرب ارتفع

سعر الزيت، وأصبحت العملية مربحة، وتمكن زكي قبل الثورة بسنوات قليلة من سداد كل ديونه ببيع جزء من ممتلكاته على بحيرة قارون بالفيوم، فقد تكوّنت شركة جديدة كانت ترغب في تحويل الفيوم إلى منتجع سياحي، فقامت ببناء الأوبرج على جزء من الأرض التي باعها زكي لها.

***

الكسان أبسخيرون هو الشخصية الثالثة التي يجب أن أكتب عنها، كان الكسان ابن أخت أخنوخ فانوس، وكان يتدرب على أعمال المحاماه بمكتب خاله في أسيوط المقام بحديقة أخنوخ. وقد كان الكسان وسيماً، وكنت أعرفه كرجل نبيل متقدم في السن له شارب أبيض كبير، تزوج من ابنة ويصا الثالثة فاروزة التي كانت تزور شقيقتها بلسم بشكل منتظم، فلمحت الكسان ذات يوم وهي تطل من النافذة على الحديقة، فتقابلا وتعارفا ثم تزوجا، وقد تركت عائلة الكسان اسم ابسخيرون واحتفظت بإسم الكسان كلقب العائلة. كان الكسان باشا رجلا بسيطاً صريحاً لا يحب اللف والدوران، شديد التمسك بمبادئ الكنيسة البروتستانتية حيث كان رئيس الطائفة حتى وفاته وله تأثير على الكثير من أعضاء العائلة الآخرين للمشاركة بسخاء في بناء الكنيسة البروتستانتية في محطة السرايا بالاسكندرية عام ١٩٢٠ والتي كانوا يستخدمونها لسنوات عديدة خلال أشهر الصيف فقط عند توجههم إلى الاسكندرية، وكان ابناه اميل والفونس من رجال الأعمال المعروفين، بينما انشغل فريد ووليم أغلب الوقت في زراعة أراضي العائلة.

كان الكسان وفاروزة زوجين متقاربين للغاية، ويقال إنها كانت تقرُصه إذا زاد حديثه أكثر من اللازم، فقد كانت له سمة عائلة فانوس المعروفة بعدم التفكير دائما قبل الكلام. وبخلاف الأربعة أولاد ترك أربع بنات : **مرجريت** التي تزوجت من **صادق وهبة باشا**، و**لورا** التي كرست حياتها لأعمال الخير والعناية بوالديها و**للي** التي تزوجت من **أمين بك خياط**، و**إينا** التي تزوجت من **وهبه أديب وهبه بك**.

الكتاب الثالث
ارتباط مصر ببريطانيا العظمى
من سنة ١٨٨٠ حتى إعلانها محميّة في سنة ١٩١٤
وقيام ثورة ١٩١٩

حاكم متردد وخليفته الطموح

كان الخديوي توفيق شخصية فريدة عن باقي مَنْ سبقوه من حكام مصر، وقد أُسئ فهمه خلال فترة حياته، ولم توّفَ ذكراه حقها.

لقد وجد كل من الأوربيين والمصريين صعوبة في الإقتناع بوجود مثل هذه الشخصية والتي كانت على النقيض من باقي العائلة علماً بتساويهم في التعليم والبيئة التي نشأوا بها وقد فُسِر ضبط النفس للخديوي بأنه غباء كما أن تردده لحفظ الذات، على أنه ضعف وحيث إنه أراد التعاون مع جميع العناصر المتناقضة في البلاد فقد فُسّر ذلك بأنه غير مخلص.

وبالرغم من أن الخديوي كان مسلماً صالحاً، إلا انه في نفس الوقت كان غير متعصب ضد الديانات الأخرى، وبالرغم من إخلاصه لزوجة واحدة، إلا أنه أظهر بعض التعاطف للمحظيات اللاتي تركهن والده اسماعيل وحاول مساعدتهن.

وقد ورث البلاد في حالة إفلاس عند توليه لحكم مصر التي كان اقتصادها تحت المراقبة الثنائية لكل من انجلترا وفرنسا، وكان يتحكم فيها الطبقة العليا من الأتراك علاوة على الطبقة المتوسطة من المصريين التي بدأت تظهر على الساحة مُشبعة بكل أنواع الأفكار الثورية الدخيلة في السياسة، وأيضاً أفكار العدل والحرية والحكومة الدستورية.

أما من الناحية الدينية؛ فكانت هناك أفكاراً مستحدثة بعيدة كل البعد عن التعاليم الموروثة عن الآباء. ففي المسيحية مثلاً كانت تعاليم الكاثوليكية والبروتستانتية بعيدة عن أرثوذكسية الآباء. كما أيضاً في الاسلام كانت الدعوى الجديدة للمفكرين والثوار كالشيخ جمال الدين الأفغاني – الذي كان شيعياً متلوناً ثم أدعى أنه سُني – الذي نادى بتوحيد المسلمين تحت راية حاكم واحد وهو الخليفة دون الاهتمام بنسبه ولكن المهم أن يكون قوياً في حكم ولايته بعيداً عن تأثير الأجانب وقد أجتذبت هذه الأفكار ميول المصري العادي الذي أعتبر ان هؤلاء الذين في السلطة سواء كانوا أتراكاً أم أوربيين ماهم إلا

مغتصبون أجانب [٦٠].

وقد قام الشيخ محمد عبده بحمل الراية بعد ما نُفي الأفغاني خارج مصر، وقد كان شخصاً مختلفاً فلم يكن سياسياً بقلبه كما لم يكن ثورياً حاداً بطبعه بل كـان رجـلاً روحانيـاً مفكـراً، وقـد تركـت تعاليمـه بصمة على الفكر الوطني لأجيال قادمة.

وأصبح الشيخ محمد عبده بعد ذلك صحفياً ثم قاضياً، وقد اعتـبر حُجّـة في الشريعة الإسلامية ممـا أدى إلى تعيينه سنة ١٩٠٠ كمفتي للديار المصرية، ولكن نتيجة لاعتداله في تفسير القوانين الإسـلامية اصطـدم مـع العنـاصر التقليدية المتحفظة من المجتمع سواء كانوا سياسيين أو دينيين.

في هذه الظروف واجه توفيق موقفاً ليس من صنع يديه أو كنتيجة لميوله، ولكنه مـوروث عـن الحكـام السابقين من عائلته، وذلك نتيجة قَصر المناصب العليا بالبلاد على الأتـراك والشراكسـة والألبـانيين وكـل من هو من أصل تركي أو منسوب اليهم.

وكان المصريون مستبعدين، وفي بعض الأحيان كان يتم تعيين البعـض منهـم في مراكـز السـلطة بصفـة مؤقتة كهؤلاء الذين عينهم اسماعيل لجبي ضرائبه الجديدة في نظام المقابلة.

وقد اتبع نفس أسلوب التفرقة في المعاملة بالجيش حيث إنه شغل المناصب العليا بالضبـاط مـن أصـل تركي أو شركسي في حين اقتصرت المناصب الدنيا على الضباط المصريين.

في ظل هذه الظروف لم يتمكن الخديوي توفيق من إخماد أول حركة وطنية قام بهـا المصريـون والـتي اشـتعلت عندما قام أحد الضباط، وهو من أصـل مصري صميـم ويدعـى احمـد عرابـي ولُقب "بـالوحيد" فيمـا بعـد وبعـض مرؤوسيه من الضباط الفلاحين المصريين بالاحتجاج ضد امتيازات الضباط الذين من أصـل تركـي والمطالبـة بالمعاملـة بالمثل.

وتردّد الخديوي في رد فعله متأرجحاً بين الإذعان حيناً والرفض حيناً آخر حسب المشورة المقدمـة لـه من وزرائه ومستشاريه المختلفين، وقد قام بالتضحية برئيس وزرائه نوبار باشا بدون مبالاة ثم بوزير دفاعه عثمان رفقي وعين عرابي كوزير الحربية مع منحه لقب باشا.

---

[٦٠] الشيعي: هو عضو بالفرع الأصغر من فرعي الإسلام الرئيسيين هما الشيعة والسنيون، والشيعة هـم أتبـاع علـي زوج ابنـة النبي صلى الله عليه وسلم وابن عمه والذين يعتقدون أن ولاية الإسلام يجب أن تنحصر في خلفائه فقط، وهم أكـثر تعصبـا وأتباعهم يعيشون أساسا في ايران والعراق وسوريا وباكستان، بينما السنيون أكثر مرونة وأقل تعصبـا ويعتقـدون أن الخليفـة يجب أن يكون من سلالة قبيلة قريش، وهم يعيشون في مصر كما انهم يكونون أغلب سكان الدول العربية الأخرى.



نوبار باشا

بطرس غالي باشا

قليني باشا فهمي

رياض باشا

ونتيجة لذلك ثار الشعب ابتهاجاً حيث أنه قد نتج عن التمرد العسكري البسيط اندلاع ثورة فقد كان الشعور العام أنه أخيراً قد تمكن مصري صميم من الوقوف ضد الطبقة الحاكمة المتسلطة والأجانب معا.

أستشعرت القوى الأجنبية وخاصة فرنسا أن عرابي قد يتحول إلى دكتاتور يقود مصر في يوم من الأيام لتـتـنصّل من ديونها وربما يُعرقل من طموحات فرنسا في شمال أفريقيا فيما بعد.

وكان لبريطانيـــا نفس الاهتمام والقلق إلا أن بعض البريطانيين أمثال **ويلفرد بلانت** Wilfred Blunt كانوا ينظرون إلى هذه الأحداث على انها حركة وطنية طفيفة تحاول أن تحسن من أحوال المصريين.

وقد قام بلانت بمساعدة الشيخ محمد عبده في كتابة وثيقة سُميت "برنامج الحـزب الوطـني المصـري" تعترف بأن المراقبة الثنائية على اقتصـاد مصـر ضرورية لسداد ديونها ولو أن هدفهما هـو رؤية مصـر يحكمها المصريون تماما في يوم من الأيام، وكان موقف انجلترا الرسمي هـو انـه ان كـان لابـد مـن إزاحـة عرابي، فيلزم أن يتم ذلك بمساعدة من تركيا والتي كانت مصر تابعة لها.

كان هذا الوضع جديداً على تفكير القوى الأجنبية، لأن فكرة تشجيع البريطانيين للأتراك بـالتدخل، قد راقت للسلطان، الذي كان يرغب في احتلال مصر في الحال عن طريق إرسال الجيش التركي، حيث انه خشى من أن يقوم عرابي بتشكيل حكومة دستورية، وقد تكون هي الشرارة التي قد تُسبب ثورة عامـة في كل أنحاء الامبراطورية التركية اذا نادت شعوب الولايات بها، وعليه قـامت تركيـا بـالتحرك الفـوري بارسال قوّات إلى القاهرة للاستطلاع وتولّي السلطة إذا تطلب الأمر.

وقد تنبه كل من البريطانيين والفرنسيين إلى تحرك الأتراك السريع وقرروا أن يحتجـوا علـى التدخـل التركي بدون أي تشاور مسبق وقاموا بدعم احتجـاجهم بإرسـال قـوات بحريـة مشـتركة مـن البريطـانيين والفرنسيين إلى الاسكندرية مزودة بتعليمات بالإنسحاب في حالة واحدة ألا وهي إنسحاب الأتـراك، وقـد تم إنسحاب القوات المشتركة في اليوم التالي لمغادرة الأتراك مصر وتم ذلك في يوم ١٩ يونيه ١٨٨١.

في ذلك الوقت تزعّم السياسة الفرنسية وزير سريع الحركة ونشيط هو مسيو **جامبيتا** Gambetta والـذي كـان يرغب في استمرار المراقبة الثنائية على مصر بدون احتلال فعلي بواسطة الانجليز والفرنسـيين، ولكنـه كـان مستعداً لاتخاذ هذا الإجراء إذا لم يكن هناك مفر مـن ذلـك. في حـين فضّـل البريطـانيون تدخـل تركيـا إذا تم أي احتـلال عسكري لمصر إلا أن جامبيتا تمكن من إقناع البريطانيين من أن الخطة الفرنسية هي الأفضل بالنسبة لكل الأطـراف المعنية بالأمر، فوافقت بريطانيا على أن تتمشى مع فرنسا مع احتفاظها بخط الرجعة باضافة فقرة إلى الاتفاق تقضي بعدم التزام حكومة جلالة الملك بأي سياسة مرسومة مسبقة.

وقد قامت كل من بريطانيا وفرنسا بتنفيذ خطتيهما بالتصريح في مذكرة مشتركة على أن بقاء الخديوي على عرش مصر، هو شرط أساسي لضمان استقرار النظام والرخاء بالبلاد كما انهما سيقومان بمساندة الخديوي ضد أي تجاوز من جانب عرابي أو الوطنيين، وباختصار تقوم الدولتان بمساندة الحالة الراهنة بغض النظر عن أي تحسّن تدريجي أو قيام حكومة استجابة لمشاعر الوطنيين، وقد تم إبلاغ الخديوي بذلك عن طريق ممثلي بريطانيا وفرنسا بالقاهرة.

وقد قام اللورد كرومر أحد ممثلي المراقبة الثنائية والذي لم يكن بمصر في هذا الوقت بالتعليق على هذه المذكرة المشتركة في كتابه "مصر الحديثة"، حيث يقول :

" فسرت هذه المذكرة على انها تعني تخطي السلطان وتحويل الخديوي إلى دُميه في يد كل من انجلترا وفرنسا وعليه فإن مصر إن آجلا أو عاجلا بشكل أو آخر ستشارك تونس في مصيرها المظلم.

لذلك كان التأثير العام مدمراً لأقصى درجة حيث إن الخديوي تَشَجَّع ليعارض مشاعر المجلس، وأحست قوى الجيش والقوى الوطنية والشعبية بالخطر واستاء السلطان وشعرت القوى الأوربية بالقلق".

تتابعت الأحداث بسرعة وأصبحت جزءاً من التاريخ فقد استقال السيد **جامبيتا** Gambetta في ٣١ يناير ١٨٨٢ وتولى بعده السيد **فريسينيت** Freycinet الذي قلب سياسة فرنسا تجاه مصر. وقبل فترة السيد جامبيتا لم تكن الحركة المصرية بعيدة عن السيطرة إلا أنه بعد استقالته أصبحت انجلترا وفرنسا متساويتين في عدم اكتساب ثقة المصريين بالاضافة إلى عدم قدرتهما على التأثير في سير الأحداث، وأصبح من المستحيل أن يقوم أي شخص بادارة عقارب الساعة إلى الوراء للمحافظة على حالة الاستقرار التي كانت سائدة قبل وجود السيد جامبيتا.

وبازدياد تفاقم الموقف وضحت سياسة فرنسا الجديدة في معارضة فكرة احتلال مصر بقوات مشتركة بريطانية وفرنسية، واقترح الفرنسيون إقصاء الخديوي توفيق ومحاولة إقناع السلطان لإبعاده لصالح محمد عبد الحليم باشا وهو ابن آخر لمحمد علي.

رفضت بريطانيا هذا الاقتراح وأشار اللورد **جرانفيل** Granville "بعد التصريحات التي صدرت مؤخراً بإسم الحكومتين البريطانية والفرنسية بمساندة الخديوي، أن الأمر سيصبح محل تساؤل عن حُسن نيتها إذا لم يقتصر الأمر على تجاهله فقط بل يتعداه إلى التحالف على اقصائه دون سبب ظاهر خلاف ما يمكن تبينه حاليا".، وبلغ جو الاضطراب والبلبلة ذروته في صيف ١٨٨٢ حينما طلب الخديوي توفيق تدخل بريطانيا لغزو أو احتلال مصر.

وقد استجاب البريطانيون بمفردهم لهذا الطلب في يوليو ١٨٨٢ وقاموا باحتلال الاسكندرية وقذفوها بالقنابل وأنزلت قوات برية قوامها ٢٠,٠٠٠ جندي قامت بهزيمة عرابي في معركة التل الكبير وانتهت بإرساله إلى المنفى [٦١]

وكانت هذه هي بداية الإحتلال البريطاني لمصر الذي استمر لمدة ٧٢ عاما، وقد وعدت بريطانيا بسحب قواتها من مصر فور تشكيل حكومة مصرية قوية تضمن أمن قناة السويس.

ظل الخديوي من ١٨٨٢ إلى ١٩١٤ ممثلا للسلطة الشرعية الوحيدة في مصر حيث استمرت كدولة مستقلة ضمن الإمبراطورية التركية.

إحتلال مُقَنَّع :

كانت بريطانيا تعتزم أصلاً احتلال مصر كإجراء مؤقت للحفاظ على الحالة الراهنة في ذلك الوقت، ولكي تتمكن مصر من سداد الديون لدائنيها، وكذلك لتأمين خطوط ملاحتها إلى الهند عبر قناة السويس.

وقد أصدرت بريطانيا خلال عام ١٨٨٣ فقط ثلاثة وثمانين تصريحاً أن احتلالها لمصر ما هو إلا إجراء مؤقت حتى تستقر الأوضاع.

وفي عام ١٨٨٣ تم إعادة سير ايفيلين بيرنج [٦٢] إلى مصر وهو المعروف بعد ذلك باسم "**اللورد كرومر**" والذي كان قد غادر مصر خلال فترة المراقبة الثنائية، حيث عمل كأحد المراقبين، وعاد إلى مصر كقنصل عام لإنجلترا، وهو مركز يخوّل له كثيرا من السلطات حيث إن مصر كانت محتلّة بقوات بريطانية وكانت صلاحياته تزيد كثيراً عمّا كانت خلال فترة المراقبة الثنائية.

أما من ناحية فرنسا فلم يكن لها في هذا الوقت نفس السيطرة أو التأثير، حيث إنها ضيعت فرصتها برفضها الإنضمام لإنجلترا أثناء قيامها باحتلال البلاد، وأصبحت تشعر بالندم لسذاجتها بالسماح لبريطانيا وحدها باقصاء عرابي.

---

[٦١] فيما بعد سُمح لعرابي بالرجوع إلى مصر بمعاش بلغ ألف جنيه في السنة والذي مكنّه من العيش بيسر بالقاهرة، وقد كان ينظر اليه كرجل منسي مسالم يتنزه بعربته في شوارع القاهرة في فترة بعد الظهر كما ورد في كتاب توم ليتل "مصر الحديثة" ص ٤٥.

[٦٢] سير ايفيلين بيرنج، أحد أفراد العائلة المالكة لبنك بيرنج "الذي أعلن إفلاسه مؤخراً في انجلترا" تم اختياره أساساً من قِبل البنك لمراقبة سداد مصر للديون.



كرومر أفلين بارنج ١٨٤١ - ١٩١٧
المندوب السامي البريطاني

ولم يُخدع كرومر بوعود حكومته، وأعدّ نفسه للبقاء في مصر لفترة طويلة. وقد تولّى الـــوزراء المصريـون رئاسـة الإدارات المختلفة وكانت مرتباتهم تُدفع من الخزانة المصرية، وكانوا مسؤولين أمام الخديوي التـابع لتركيـا، وكـان كرومر يتأكد تماماً وفي نفس الوقت من أن كل مسئول بالسلطة مراقب من قِبَل المستشارين البريطانيين الذيــن كـانت الحكومة المصرية تعينّهم وتدفع رواتبهم وإن كان ولاؤهم الأول لبريطانيا.

وبالمثل، فان القيادات العليا وكبار الضباط بـالجيش المصـري كـانوا بريطـانيين، في حـين أنـه لا تتـم ترقية الضباط المصريين إلا إذا تأكد ولاؤهم المطلق للحكم البريطاني أو كانوا من الذين يسهل قيادتهم. وفي ظل هذا الوضع القوي، أصبح بإمكان كرومر أن يكون الحاكم الفعلي لمصر لمدة أربع وعشرين سنة.

لم يجد كرومر أي خطأ في احتلال قوات بريطانية لجزء من الإمبراطوريـة التركيـة، وفي نفـس الوقـت كان يتفادى بلباقة المساس بالحق الشرعي للسلطان.[٦٣]

وقد كان كرومر من رجال المال والاقتصاد بحكم نشأته، ذو طبيعة واقعية، علاوة على أنه كان موظفـا حكوميا مخلصا شاغله الأول هو سداد الدين وتحقيق التوازن في الميزانية، الأمر الذي أمكن لــه انجـازه في عام ١٨٨٧.

واتجه كرومر بعد ذلك إلى تخفيف العبء المالي عن كاهل المصريين، فبدلا من زيادة المصروفـات ألغـى نظام السخرة الذي كلف حساب الميزانية ماقدره ٤٠٠,٠٠٠ جنيـه في السنة لأنهـا كـانت هـذه الضريبـة كريهة وثقيلة الحمل.

وكذلك تم تخفيض قيمة المال على الأراضي الزراعية بمبلغ ٤٣٠,٠٠٠ جنيه في السنة مما مكّن كرومـر من خفض قيمة إجمالي الضرائب المباشرة بمبلغ ١,١٠٠,٠٠٠ جنيه في السـنة بالاضافـة إلى تخفيـض عـدد من الضرائب غير المباشرة.[٦٤]

وفي سنة ١٨٩٧ تم صرف الفائض بالميزانية على مشروعات ذات عائد مثل مشاريع الصـرف الزراعـي والسـكك الحديدية والمستشفيات، لكنه أهمل الخدمات التي كان لا يرى لها عائداً علـى الخزانـة مثـل : مشـاريع التعليـم، والمشاريع الصناعية، التي كان يعتقد أنها تتصف بعنصر المخاطرة.

ولم يعر كرومر أدنى اهتمام للآمال والطموحات الوطنية للبلاد، ولم يشجع التطلعات السياسية من أي

---

[٦٣] من كتاب "من نابليون إلى ناصر" تأليف رايموند فلاور ص ١٢٤.

[٦٤] من كتاب "مصر الحديثة" تأليف توم ليتل ص ٤٨.

نوع وعلّق على ذلك بقوله : "إن أشدّ ما تحتاجه مصر، هو النظام تحت قيادة حكومة قوية وربما تأتي الحرية بعد مرحلة طويلة".

وقد عورض هذا الاتجاه بظهور أصوات وطنية بارزة أمثال مصطفى كامل الذي كانت آماله لمصر آخذة في الانتشار بالداخل والخارج، وقد عبّرت جريدته " اللواء " عن تصاعد الحس الوطني بالبلاد خاصة من خلال فئات الشعب الشابة، التي لم تعرف إلا القليل عن أحوال البلاد تحت حكم الخديوي اسماعيل.

ولقد عم الثراء البلاد خلال فترة الاحتلال البريطاني ولكنه لم يصل إلى طبقة الفلاحين المصريين، أو الطبقة الجديدة من الأفندية الذين شعروا أن خيرات البلاد مقصورة على حكامها من الباشوات والبكوات والتجار الأجانب، ويقع اللوم في حدوث ذلك على الإحتلال البريطاني.

ومن ثم وجد مصطفي كامل آذاناً صاغيةً وألسنة متحدثة في فرنسا حيث تبنّت قضيته كاتبة وصحفية فرنسية تدعى جوليت آدم Juliette Adam، وساعدته على نشر آرائه في جميع أنحاء أوروبا، والواقع أنها اعتبرته ابنها بالتبني. وقد أدت الحركة التي تزعمها مصطفي كامل إلى نثر بذور الفكر السياسي المستقبلي لزعماء أمثال محمد فريد وسعد زغلول.

وقد أصبحت مصر تحت ادارة كرومر، بلدا زراعيا غنياً مزدهراً أساساً بفضل أرضها الخصبة ونيلها العظيم، بالاضافة إلى تطوير الري بها بواسطة المهندسين البريطانيين القادمين من الهند. وكانت مصر تصدّر انتاجها من القطن والبصل والمنتجات الزراعية الأخرى إلى انجلترا والتي كانت تتولى اعادتها بعد ذلك على شكل منتجات مجهزة لتباع في أسواق مصر ومناطق أخرى من الإمبراطورية البريطانية.

لم يعر كرومر أي اهتمام إلى الفكر أو الشعور السياسي المصري، ونادراً ما كان يغادر مقرّه فيما عدا ذهابه إلى نادي الجزيرة الرياضي، أو إلى قصر عابدين لمقابلة الخديوي.

وبموت توفيق وتنصيب ابنه عباس حلمي الثاني كخديوي لمصر، قام كرومر باهانته إلى أقصى درجة، عندما أجبره على الاعتذار لكيتشنر الذي كان قائداً للجيش المصري في هذا الوقت، وحدث ذلك عندما أبدى الخديوي بعض الملاحظات، ينتقد فيها مظهر إحدى وحدات الجيش التي كان يقوم بالتفتيش عليها.

أنجز كرومر الكثير لمصر، لكن الشعب لم يأسف عليه عندما تركها في عام ١٩٠٧. وفي العام الأخير من خدمته ما كان اللورد كرومر يتجول في شوارع مصر الصامتة والتي كانت تغلي من الغضب إلا تحت

حراسة مسلحة [٦٥] ، والسبب في ذلك هو نتيجة للحادثة المأساوية في دنشواي وما ترتب عليها من عقاب إنتقامي. ولم تكن دنشواي إلا قرية صغيرة بالوجه البحري وقد قام ريموند فلاور بتلخيص أحداثها في كتابه "من نابليون إلى ناصر ص ١٢٧" كما يلي:

" في يوم حار من أيام شهر يونيه لسنة ١٩٠٦ كان بعض الجنود البريطانيين يقومون بممارسة الرماية على الحمام، وفجأة أحيطوا بمجموعة غاضبة من القرويين الذين اعترضوا على اصطياد الحمام الذي يشكل جزءا هاما في وجباتهم البسيطة، وأثناء هذا الموقف الغاضب خرجت رصاصة طائشة من بندقية أحد الجنود والذي سارع بالفرار بعد أن أصيبت احدى النساء. وقد سقط أحد الجنود قتيلا نتيجة للصدمة العصبية التي أصابته بعد ضربة على رأسه ولتعرضه لضربة شمس. وعلى الفور قامت مجموعة من الجنود الغاضبين من وحدته العسكرية بالقاء القبض على أحد القرويين الشبان وأوسعوه ضربا حتى سقط قتيلا بالرغم من أنه لم يكن له دخل بسير الأحداث، انما كان هدفه هو المساعدة، وقد أدى ذلك إلى القاء الرعب في قلوب الجاليات الأجنبية المقيمة بالقاهرة التي تخيلت أنه لا بد من وقوع مذبحة عامة لا يمكن تفاديها، وتم تشكيل لجنة خاصة مكونة من ثلاثة مسئولين بريطانيين واثنين من المصريين الذين أصدروا أحكاما بالاعدام على أربعة من القرويين وبالجلد على ثلاثة كل منهم بخمسين جلدة وبمدد طويلة من الأشغال الشاقة على الآخرين. وقد قام كرومر بالتصديق على الأحكام مما تسبب في اشتعال نيران الكراهية بمصر ".

مشاركة إجبارية (حيث تقوم مصر بالتكاليف وتقوم بريطانيا بالادارة)

كان كرومر هو الحاكم الفعلي لمصر في الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٠٧، وفي سنة ١٨٨٥ – وبناء على تعليمات من بريطانيا – قامت مصر بالانسحاب من السودان إلى الحدود المصرية عند وادي حلفا، ولم يتم انسحاب مصر من السودان عام ١٨٨٥، إلا تحت إصرار كرومر بعد عدة محاولات فاشلة قام بها الجيش المصري لاستعادة الأراضي التي استولت عليها جماعة الأنصار التابعة للمهدي، وفي المحاولة الأخيرة تم سحق قوة مصرية تحت قيادة الجنرال هيكس. وقد كانت سياسة انجلترا المعلنة تحت حكومة جلادستون الليبرالية هي أن وجود انجلترا بمصر كان بناءً على طلب الخديوي لحماية حدود بلاده واستعادة النظام بعد تمرد عرابي، وهذا الوجود ماهو الا وجود مؤقت لحماية الأقليات وفي نفس الوقت لمساعدة مصر في تنظيم اقتصادها لتتمكن من سداد ديونها الخارجية.

أما السودان فانها قد تجعل هذه المهمة صعبة التنفيذ، حيث رأى جلادستون أنه لا داعي لبعثرة الأموال وراء أغراض لا نفع منها، فالسودان في ذلك الوقت لم يكن له أهمية بالغة لمصالح انجلترا، والشخص الوحيد الذي

---

[٦٥] كتاب "مصر الحديثة" تأليف توم ليتل ص ٥١.

يجب أن يتحمل أعباء الاحتفاظ بالسودان هو سلطان تركيا حيث إن احتلال السودان بواسطة مصر – التابعة لتركيا – كان باسم تركيا، ولكن هذا الرأي لم يلق أي تقدير من سلطان تركيا.

وكانت وجهة النظر المصرية مختلفة تماما، لأن مصر اعتبرت (بلاد السود) وهي السودان ماهي الا امتدادا طبيعيا لأرضها، وهي أرض الغموض والثروات التي انبثق منها شريان حياتها ألا وهو نهر النيل. أما بالنسبة لرجال الأعمال والاقتصاد المصريين فقد نظروا إلى السودان على أنه مصدر للثروة الناتجة من تجارة العاج، وريش النعام، والأبنوس، والذهب، والعبيد، وطالما تُرك فيضان النيل للطبيعة فسيتكرر كل عام ولم يعيروا نشاط القبائل المحلية أي اهتمام.

وقد احتلت مصر السودان في أيام محمد علي باعتبارها تابعاً لتركيا، وقد قام اسماعيل بعد ذلك بتوسيع حدود مصر شرقا، مكونا مقاطعة استوائية وغربا مخترقا المساحة الشاسعة لبحر الغزال. وقد شعرت مصر أنها قد أجبرت على الانسحاب إلى وادي حلفا نتيجة التصميم والضغط من بريطانيا إلا أنه في العشر سنوات التالية أصبحت الأمور مختلفة حيث تحسن اقتصاد مصر تحت الادارة البريطانية وتم السيطرة على حجم الديون الأجنبية، ونتج فائض بالميزانية مما أدى إلى تحول مصر إلى دولة ذات رخاء.

وكانت القوى الأوروبية تتدافع في محاولة ايجاد مستعمرات لها في شرق افريقيا، ولم تكن بريطانيا ترغب في وجود أي قوة أجنبية تهدد مياه النيل، طالما أن لها مصالح في احتلال مصر، وقد تمكنت بريطانيا من إبعاد كل من ألمانيا وإيطاليا عن وادي النيل، ولكن هذا الوضع كان مختلفا تماما مع فرنسا التي كانت تستشيط غضباً تحت ما اعتبرته تصرّفاً عديم الوفاء من بريطانيا.

وقد شعرت فرنسا بأنها قد خُدعت بالنسبة لمصر، وخشيت من أن يتحول احتلال بريطانيا لمصر إلى علاقة دائمة كما اعتقدت أنها أحق بأن تلعب دوراً رئيسياً في الشئون المصرية نتيجة لاستثماراتها ونشاطها الثقافي واقامتها للمشروع الفرنسي ألا وهو قناة السويس وكانت فرنسا مُصمّمة على أن تُضعف من نفوذ بريطانيا، ولو كان من الممكن طردها من وادي النيل.

وفي عام ١٨٩٣ قامت فرنسا باعداد برنامج دقيق ومفصّل لإرسال حَملْة عبر افريقيا، من الساحل الغربي إلى فاشودا بأعالي النيل للقيام بإنشاء سد لحجز مياه النيل وقد أرسلت هذه الحملة في عام ١٨٩٦ تحت قيادة الكابتن جان بابتيست مارشاند Jean Baptiste Marchand.



كيتشنر في الخرطوم ١٨٩٨

وفي عام ١٨٩٥ تولت حكومة المحافظين في بريطانيا بدلا من حكومة جلادستون الليبرالية والتي رأت أنه لا مانع من توجيه ضربة لجماعة المهدي وتثبيت أقدامها في السودان إن أمكن.

وفي عام ١٨٩٧ قامت بريطانيا بارسال جيش مشترك من الإنجليز والمصريين بقيادة الجنرال كيتشنر – سردار الجيش المصري في السودان – باسم سلطان تركيا زاعمة أن الغرض هو من أجل إزالة التهديد القائم على حدود مصر الجنوبية وان كان في واقع الأمر لتأكيد ان السودان لاتزال تحت سلطة الانجليز وليس الفرنسيين. وحمّلت الخزانة المصرية تكاليف هذه الحملة، وتمكنت القوة الإنجليزية المشتركة من الحاق الهزيمة بالخليفة الذي خلف المهدي وقواته في موقعة أم درمان في الثاني من شهر سبتمبر لعام ١٨٩٨، وتم رفع الأعلام المصرية والبريطانية في نفس اليوم فوق الخرطوم.

بعد ذلك تقدم كيتشنر ومعه قوة صغيرة، وتقابل مع كابتن مارشاند عند فاشوده في ١٨ سبتمبر ١٨٩٨، حيث رفض الفرنسيون الإنسحاب. ولفترة ما ساد الإعتقاد بأن حربا شاملة ستنشأ بين انجلترا وفرنسا، إلا أنه بتدخل بعض الساسة المعتدلين، تم الاتفاق في مارس لعام ١٨٩٩ على أن يتوقف التوسع الفرنسي بشرق أفريقيا عند حدود السودان.

وفي نفس الوقت تم توقيع اتفاقية بين مصر وانجلترا على تكوين حكم ثنائي مصري على السودان Egyptian Condominium مع اعطاء السودان وضع سياسي منفصل تحت سيادة مشتركة بين الخديوي والتاج البريطاني. وفي الحقيقة لم تكن هناك أي مشاركة متساوية بين بريطانيا ومصر حيث إنه من اللحظة الأولى تسيّدت بريطانيا على الحكم المشترك.

وكما أن الاحتلال البريطاني لمصر يمكن أن يوصف بأنه "سيادة مالية مشتركة"، كذلك يمكن اعتبار ارتباط السودان بالإمبراطورية البريطانية بأنه "سيادة سياسية مشتركة"، ولقد كانت مطالبة بريطانيا لمشاركة متساوية مبنيّة على أساس حق الإحتلال.

وقد استمرت اتفاقية الحكم المشترك التي وُقعّت في عام ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا سارية المفعول حتى عام ١٩٥٣. وكان من أحد بنودها أن الأوامر العسكرية والمدنية تصدر بمرسوم خديوي، بناء على توصية من الحكومة البريطانية. كما أن هذه الاتفاقية لم تشر إلى أي شئ عن السيادة التركية. وفي الحقيقة أنها ألغت جميع الامتيازات التي تمتعت بها القوى الأجنبية بمصر، كما اشترطت عدم وجود أي قنصل أجنبي في السودان إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية.

وكان أول حاكم عام للسودان هو اللورد كيتشنر، الذي تولى من بعده في نفس العام مساعده السير

ريجينالد وينجيت Reginald Wingaté، الذي تولى حُكم السودان في المدة من عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩١٦. وقد أبقيت الضرائب مخفضّة بغرض كسب تعاطف الشعب السوداني وكان أي عجز في الميزانية السودانية يغطى من الخزانة المصرية.

وبينما قامت الادارات والقوات البريطانية بتهدئة المنطقة، وبناء دولة جديدة على أشلاء القديمة، فانها كانت تحمل مصر بجميع التكاليف بينما تولت بريطانيا الادارة.

لم يكن المصريون سعداء بهذه الاتفاقية، ولم يتمكنوا إلا من عمل القليل جداً ليغيروا من هذا الوضع.. ولم يكن أمامهم سوى التذمر في بادئ الأمر ثم بالمظاهرات فيما بعد.

الاحتلال البريطاني من عام ١٩٠٧ إلى ١٩١٤

الصحوة ... وبدء ظهور مشاعر الاستياء

في خلال هذه الفترة بدأت السياسة البريطانية في التذبذب. وكان السير **إلدون جورست** المعين حديثاً كقنصل عام مختلفاً تماماً في شخصيته عن اللورد كرومر. وكان "جورست" قد سبق له العمل بمصر من سنة ١٨٩٠ في وظائف مختلفة حيث شغل وظيفة بوزارة الخارجية، وكان ذلك لمدة قصيرة قبل أن يصبح القنصل العام بمصر، وكانت لجورست أفكار محددة عن كيفية أداء مهمته، وكان يعتقد أنه تعرّف على جميع نقاط الضعف بنظام الحكم في مصر، كما كان متأكدا أنه سيكسب ولاء زملائه السابقين في مصر ولكن "الألفة تجلب الاستخفاف" أو كما يقول المثل "المزاجة تُذهب المهابة". ولذلك لم يتمكن من مضاهاة كرومر في سلطته النابعة من شخصيته، علاوة على أنه كان يبدو أنه تلقى أوامر من السير ادوار جراي وزير خارجية بريطانيا الليبرالي بأن يحاول تحرير أسلوب الحكومة بدون أن تفقد قّبضتها على الأمور.

وكان كرومر ينوي في أيامه الأخيرة، أن يشجع الطموح المعتدل بالبلاد في الحكم الذاتي، استجابة لكل من الاتجاه الليبرالي في انجلترا والانتقاد من فرنسا والشعور الوطني بمصر.

وقد بدأ بتشجيع الحزب الجديد وهو حزب الأمة، الذي قامت بانشائه جماعة من المصريين ذوي الآراء المعتدلة، الذين تبيّنوا المنافع الناتجة من الارتباط ببريطانيا، وكانوا يرغبون في تحقيق طموحات مصر باستخدام أنظمة دستورية ولكن بشيء من الحذر، وكان هؤلاء المصريون متساويين في الوطنية مع أعضاء الحزب الوطني بقيادة مصطفي كامل الذي قام الخديوي بتشجيعه وتمويله، وان كان هذا الحزب أكثر ضجة وصخبا من حزب الأمة، وقد حاول كرومر تحرير التعليم، وذلك بانشاء ادارة تعليمية جديدة يرأسها **سعد زغلول باشا**.



سعد زغلول باشا

كان **سعد زغلول** مصريا صميماً، وهو فلاح يمتهن المحاماة وقد عُين من قِبل الأميرة نازلي فاضل [٦٦] ليتولى شئونها القانونية.

وقد حثّت هذه السيدة العظيمة سعد زغلول على تعلّم الفرنسية، والتي عاونته كثيرا في مستقبله الوظيفي، وقد تزوج سعد زغلول من صفيّة ابنة مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء وهو رجل معتدل وصديق لكرومر.

كان سعد زغلول يُعتبر رجلا مخلصاً وصريحاً ذو أفكار معتدلة، مما أدى إلى انضمامه إلى الحزب الجديد وهو حزب الأمة، وبالرغم من أن سعد زغلول كان في داخله رجلاً وطنياً، إلا أنه كان يؤمن بنظرية الارتباط البريطاني، وذلك لاقتناعه أن هذا الارتباط قد حمى مصر من سوء ادارة الخديوي، ووضع مصر على طريق الازدهار. وطوال فترة حياته الوظيفية كان بينه وبين سياسة القصر ما صنع الحداد، وكان القدر وحده هو الذي قرر بعد اثنتي عشرة سنة نتيجة سلسلة من الظروف غير المواتية، أن يكون سعد زغلول هو الأداة التي أدت إلى تحطيم نظرية الارتباط البريطاني، بالرغم من اعتقاد البريطانيين أنه سيكون عاملا مهما لتوثيق هذا الارتباط .

وقد شعر جورست في محاولته تنفيذ سياسته أنه أمام أحد أمرين : إما أن يتعاطف مع الوطنيين، أو يحاول أن يكسب الخديوي إلى صفّه، حيث اعتقد الكثيرون أن الخديوي الذي أسيئت معاملته بواسطة كرومر ربما كان من الممكن إقناعه بسياسة انجلترا لو عالج كرومر الأمور بكياسة، وفي النهاية إختار جورست الأمر الثاني.

وقد قام مصطفى فهمي رئيس الوزراء وصديق كرومر بتقديم استقالته، متعلّلا بسوء حالته الصحية، وذلك عندما شعر أن العلاقة الوديّة الجديدة بين الخديوي وجورست لن تكون في صالحه، وحيث إنه لم يكن من المحببين للخديوي، فقد قبلت استقالته. وقد وافق الخديوي الأخذ بمشورة جورست في تعيين بطرس باشا غالي كرئيس للوزراء نظرا لخبرته الطويلة في السياسة والإدارة، كما كان ذكياً أميناً ذا كفاءة ومقبولا لدى الخديوي.

وفي مقابل هذا وافق جورست على تعيين محمد سعيد باشا كوزير للداخلية مع أنه كان معروفاً بأنه أداة في يد الخديوي، وكان العائق الوحيد أمام تولي بطرس باشا غالى هذه المهمة انه قبطياً. وقد كانت العلاقات بين

---

[٦٦] كانت الأميرة "نازلي فاضل" امرأة مثقفة وواسعة الفكر وذلك في أواخر القرن التاسع عشر وكان مجلسها عامرا دائما بالكتاب والمفكرين. وقد كان لها تأثيراً كبيراً على قاسم أمين الذي بدأ نشاطه كرجل محافظ وتحول فيما بعد إلى زعيم حركة تحرير المرأة.

الأقباط والمسلمين جيدة أثناء حكم الخديوي اسماعيل، إلا أنه بعد الاحتلال حدث تغير تدريجي نتيجة لسياسة بريطانيا المعروفة "فَرِّق .. تسُد" وكذلك رغبة تركيا في استعادة سيطرتها على مصر، وذلك بأن أبقت سرا على شرارة النزعة الإسلامية متوهّجة من خلال تعاطفها مع الحزب الوطني، واتضح هذا بعد اغتيال بطرس باشا غالي في عام ١٩١٠ حيث لم يوجد قائد قبطي بارز له نفوذ حقيقي، مما أدى إلى عقد المؤتمرين القبطي والاسلامي اللذين تبادلا فيهما الاتهامات في عام ١٩١١.

على الرغم من محاولة جورست تحسين العلاقات مع الخديوي، إلا أنه شعر أن الرأي الليبرالي في انجلترا سيتمكن من إقامة ديمقراطية مبسطة في مصر وهذا من شأنه أن يكبح في النهاية أية تجاوزات من جانب الخديوي أو الطبقة الحاكمة طالما أن مثل هذه السياسة لا تُعرض مركز انجلترا للخطر، وقد حققّ جورست هذا بواسطة زيادة سلطة المجالس المحلية في ١٩٠٩م بأن جعلها تعمل كمجالس استشارية حقيقية لمدير أو حاكم المديرية فيما يتعلق بالأمور المحلية، وكانت المُهمّة الرئيسية لهذه المجالس في الماضي أن ينتخب من بينها أعضاء المجلس التشريعي كما اشتدت سلطة المجلس التشريعي حين أعلنت الحكومة ان المجلس سيكون في حالة انعقاد دائم اعتباراً من ١٥ نوفمبر وحتى نهاية مايو بدلاً من الاجتماع كل شهرين.

ويُقال ان الخديوي الذي سأم تدخل بريطانيا وسياستها، أراد أن يوّرط جورست فلمّح لبعض القادة الأقباط الذين كان معظمهم من أسيوط، أنهم إذا عقدوا مؤتمرا واعلنوا مطالبهم فانه سيحاول ان يقنع البريطانيين والحكومة بقبولها، فتبادل كل من الأقباط والانجليز الإتهامات يمينا ويساراً، واعلن البريطانيون أن الأقباط بعد احتلالهم لمصر اعتقدوا أنهم سيحصلون، او ينبغي أن يحصلوا على معاملة افضل لأن البريطانيين يدينون بالمسيحية بينما أعلن البريطانيون أن سياستهم هي "الحكم بدون تفرقة".

وكان الأقباط من جانبهم قد انكروا ادعاء البريطانيين، واعلنوا أنهم كانوا يريدون فقط العدل والمساواة مع المصريين الآخرين، والاشتراك الكامل في جني الثمار التي ظهرت نتيجة للحكم الجديد. واعلن الاقباط أنه قبل ١٨٨٢ لم تكن توجد أي ادعاءات فيما يتعلق بعدم كفاءة الاقباط على شغل المراكز الادارية الرفيعة في الحكومة، ولكن حينما شعروا بوجود تميز ضدهم حاولوا ان يحصلوا على بعض الإنصاف. وكانوا في ذلك الحين إما يقابلوا باللطف ثم بالتسويف أو يتم إخطارهم باقتضاب بأنه لا يوجد أي أساس لشكواهم.

عند هذه النقطة يجب أن نُقرّ بأن الأقباط في القطاع الخاص، قد أصبحوا أثرياء تحت الحكم البريطاني، وأصبحوا أيضا أعضاء بارزين مؤثرين في المجتمع، وقد عقدوا مؤتمرا في أسيوط في مارس ١٩١١ وسأورد بعض الكلمات من تقرير المندوب البريطاني:

"كان منظمو المؤتمر عبارة عن جماعة صغيرة من مُلاك الأراضي الأثرياء من صعيد مصر ولا يمثلّون أكثر من ١٢ ألف من ٧٠٠ ألف قبطي في مصـــر، وأنهم ممثلون كونّوا انفسهم بأنفسهم ليمثلوا اخوانهم في الدين، إلا أن قطاعا مؤثرا منهم بما فيهم البطريرك الذي هو رأس الكنيسة القبطية في مصر رفض واستنكر اجراءاتهم".

ويستمر فيقول أن شكاوي الأقباط يمكن أن تُصاغ تحت العناوين الخمسة التالية :

١- حق الأقباط في الاستفادة من التسهيلات التعليمية التي تقدمها المجالس المحلية الجديدة.

٢- الاعتراف بالكفاءة كمعيار الوحيد للالتحاق بالوظائف الحكومية.

٣- تمثيل الشعب القبطي في المؤسسات النيابية.

٤- السماح لغير المسلمين العاملين في الوظائف الحكومية والمدارس باستبدال يوم الجمعه بيوم آخر كيوم عطلة لهم.

٥- تقديم المنح الحكومية لكل المؤسسات التي تستحقها بدون تفرقة مثيرة للانشقاق والخصام.

حاول جورست منع عقد المؤتمر إلا أن لندن أجبرته بعكس ذلك، وقد أثارت القرارات التي أُتخذّت في المؤتمر القبطي المسلمين بصورة كبيرة لدرجة أنهم قاطعوا الأقباط، وعقدوا مؤتمرا معارضا يُعرف "بالمؤتمر الإسلامي" وتبنى هذه الفكرة رئيس الوزراء سعيد باشا الذي أراد أن يسترضى جورست بعد الصّد الذي تلقاه من لندن حين أبطلت قراره بمنع المؤتمر القبطي. ولحسن الحظ كان رئيس المؤتمر الاسلامي سياسيا حكيما حصيفا اسمه رياض باشا، فبسبب حكمته في إدارة المؤتمر تمكّن من تفادى الصدام الحتمي بين الأقباط والمسلمين.

حين خلف لورد كيتشنر سير الدون جورست كقنصل عام لمصر في سبتمبر ١٩١٢ بعد وفاة الأخير المبكرة، اجتمع مع قادة كلا المؤتمرين وأمر بحلّهما الفوري، فأطاعوا أمـــره ومن ثم عاد التآلف ثانية بين الأقباط والمسلمين كذلك أمكن رأب الصدع أكثر إبّان ثورة ١٩١٩ حين تحالف الأقباط مع المسلمين تحت قيادة سعد زغلول في معركة من أجل الاستقلال حيث كان شعارهم هو " الهلال مع الصليب" [٦٧].



[٦٧] أنظر الملحق رقم ١ : خطاب إلى جورج خياط من سعد زغلول بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٨.

كيتشنر ١٩١١ – ١٩١٤ :

الحاكم العام المُتغطرس Pro - Consul

وصل الفيكونت هوراتيو هربــرت كيتشنر Viscount Horatio Herbert Kitchener إلى مصر في سبتمبر ١٩١١م وقَبل منصب القنصل العام لمصر، علـى الرغـم مـن استيائه لعدم تعيينـه نائبا للملك في الهند، وهو منصب كان دائما يتطلّع اليه بعد خدمته الطويلة في ذلك البلد. وعند وصوله إلى مصر تصـرّف كأنه حاكم عام مبعوث من قِبَل الإمبراطورية الرومانية. وكان بهذا متناقضا مع سـلفه – خليفـة كرومـر – سير الدون جورست، الذي حاول أن ينجز مهمتــه عـن طريـق تحسين علاقاتـه مـع الخديـوي والطبقـة الحاكمـــة.

وقد تخيل كيتشنر – مثله في ذلك مثل سير ألدون جورست – أنه كان يفهـم مصـر والمصريـين بسـبب خدمتـه السابقة في مصر، وكان قد خدم كسردار للجيش المصري (القائد الأعلى للجيش) ومن.١٨٩٢ ولفترة مـا كـان حاكمـاً عاماً للسودان التي كانت تخضع للحكم الإنجليزي المصري المشترك في ١٨٩٨ ولكـن كـان علـى النقيـض مـن سير الدون جورست الذي حاول أن يحقق هدفه بالدبلوماسية، فان كيتشنر الجندي كان يفـرض مشـيئته كحـاكم مطلـق ولا يسمح بأي معارضة، ولم يكن مهتما باسـترضاء ذوي النفوذ أو الخديـوي بـل كـان يتجـاهلهم معظـم الوقـت، ويتجاهل أيضاً الباشوات ويرسل مذكرات قصيرة للوزراء مملياً عليهم ما يجب أن يفعلوه.

ولم يكن مؤمنا بتشجيع التطلّعات السياسية المصرية، لأنه كان مقتنعـا أن نظـام الأحـزاب في صورتـه الغربية له تأثير مُدمّر على الأجناس الشرقية، ولم يتردد كيتشنر في الاعلان عن وجهـة نظره هـذه بصـورة رسمية فكتب عن " الروح الحزبية بأنها بالنسـبة لهـم ويقصـد (الأمـم الشـرقية) مثـل الشـراب المسكّر للوطنيين الأفارقة غير المتحضرين " [٦٨] ومع هذا فقد كان له اهتمـام حقيقـي بتحسـين أحـوال الفلاحـين، وكان يشتاق إلى أن يعتبره الفلاحون رمزا أبوياً لهم، ونجح بالفعل في هذا، فلقد أدرك أن الفـلاح الصغـير تثقله الديون، فأراد أن يخلصه من مخالب مُقرض الأموال. فشرع في تنفيذ هذا الهدف، وفي ١٩١٢ أعلـن ما يعرف "بقانون الخمسة أفدنة" الذي بمقتضاه لا يمكن انتزاع الممتلكات الزراعية للفلاح الذي لا يمتلـك أكثر من خمسة أفدنة لتسوية أي دين، وهذا الإعفاء شمل منزل المعيشة في المزرعة، وكذلك حيوانين لجـر الأثقال، والأدوات الزراعية اللازمة للزراعة، وبنفس الطريقة كان مهتمـاً بصفـة أساسـية بتطويـر المنـاطق

---

[٦٨] التقرير السنوي ١٩١٢: مقتبس عن مصر منذ عصر كرومر – لورد لويد– الجزء الأول – ص ١٣٣، مكميلان ١٩٣٣.

الريفية في مصر. فقد ازداد عدد السكان بصورة كبيرة، وحيث إن نظام الصرف لم يستطع أن يواكب تطوّر الري فان بعض المناطق من الارض أصبحت غير صالحة للزراعة لتشبعها بالماء، وبالاضافة لهذا فان الأمر إزداد سوءاً بسبب سوء استخدام الفلاحين للزيادة المتاحة من الماء، بغض النظر عن حاجة الأرض الفعلية.

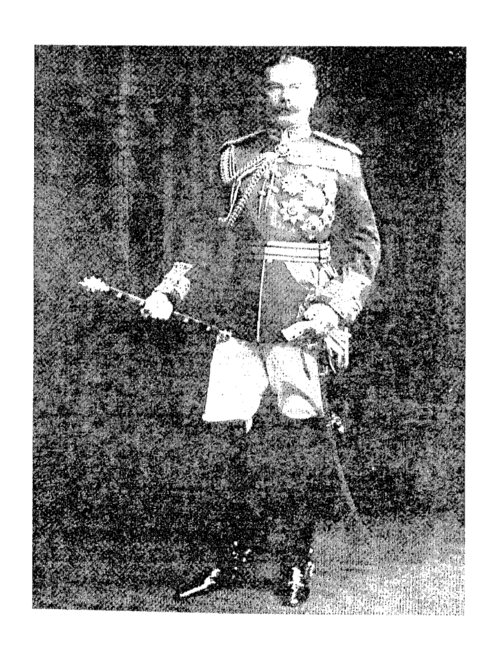
وقد واجه كيتشنر هذه المشكلة بتخطيط مشروع مكلّف للصرف واستصلاح أراض جديدة، ووضع سلسلة من محطات الضخ، وعارضه في هذا المشروع كلٌ من مستشاريه الماليين والفنيين، وحين لم يعر اعتراضهم هذا أي انتباه استقال المستشار المالي سير بول هارفي، فلم يتضايق كيتشنر بسبب هذا، أما بالنسبة للمستشار المالي الجديد لورد ادوار سيسل فقد كانت لديه خبرة فنية ضئيلة في النواحي المالية، وكان على استعداد أن ينفذ أوامر القنصل العام، ولم ينفذ هذا المشروع نظراً لاندلاع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤.

ونظراً لتعرض مصر للآفات الزراعية عدة سنوات والذي نتج عنه اتلاف محصول القطن، عالج كيتشنر الأمر بتأسيس وزارة الزراعة في ١٩١٣م، وجاء إنشاء هذه الوزارة متأخراً جداً بالنسبة لبلد كانت الزراعة فيه مُهمة للغاية، وساهم في تحسين المواصلات وتطوير السكك الحديدية الخفيفة وانشاء بنوك توفير في القرى وتأسيس الحلقات (وهي مناطق لوزن وتخزين وبيع القطن الزهر) التي ساهمت في رفع الروح المعنوية للمجتمع الريفي فتولّد جو من الثقة والتفاؤل بين الفلاحين.

ووضعت الحرب العالمية الأولى النهاية لمهمة كيتشنر وخططُه في مصر، وخلّف وراءه ذكرى خوف ومحبة، فلقد خافه الكبير وأحبّه الصغير.

السلطنة المحمية

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في أوربا في عام ١٩١٤، كان الخديوي عباس حلمي يقضي عطلته في البسفور، وكان كيتشنر يقضي أجازة في انجلترا، وكان المصريون مشغولين بمشكلاتهم الداخلية، وقد اتضح لبريطانيا منذ فترة أنه يجب الاحتفاظ بموقع مصر الاستراتيجي وقناة السويس باعتبارها الممر إلى امبراطوريتها في الشرق، ولم يكن لبريطانيا أي نية في تخفيف قبضتها على المنطقة، لكن المشكلة كانت ان مصر لا تزال اسميا تابعة لتركيا ولم تشأ بريطانيا أن تفسد الأمور.



اللورد كيتشنر ١٩١٤
المندوب السامي البريطاني

من جانب آخر، كان للأتراك مشكلاتهم الخاصه، فقد أضعفت حركة الشباب التركي الدنيوية قوة الإسلام وسلطة الخلافة؛ ولكنهم في نفس الوقت لم يعترضوا على استخدام النزعة الاسلامية ان كانت ستساعدهم في الاحتفاظ بما تبقى من الإمبراطورية العثمانية، أو في استعادة ما فقد منها إن كان هذا ممكنا. لقد فقدت بالفعل تونس ومصر ومراكش وطرابلس التي احتلتها القوى الأوربية، وكانت روسيا والنمسا والمجر تتصارع على مناطق النفوذ في البلقان التي كانت ذات يوم جزءا من الإمبراطورية العثمانية، ومع ان "شباب الأتراك" لم يفكروا في البلقان، إلا أن الشرارة التي أدّت إلى نشوب الحرب اندلعت هناك. ففي ٢٠ يونيه عام ١٩١٤م اغتيل الأرشيدوق **فرانز فرديناند** – النمساوي الجنسية – Frans Ferdinand في سراييفو، فأدت سلسلة الأحداث التي تتابعت إلى توريط العالم في الحرب وكانت دول المحور مكونة من ألمانيا والنمسا والمجر وتركيا التي تحالفت معهم في نوفمبر ١٩١٤ في جانب و" الحلفاء "، فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا وايطاليا واليابان في الجانب الآخر، وفي ١٩١٧م انضمت الولايات المتحدة الأمريكية للحلفاء.

وكما ذكر آنفا كان الخديوي عباس حلمى في القسطنطينية عند اندلاع الحرب، ومع أنه قد أعلن عن عزمه في العودة إلى مصر، إلا أنه لم يفعل ذلك، وقيل أن الأتراك كانوا مُترددين في السماح له بالرحيل، واحتفظوا به بالفعل كرهينة لكي يساعدهم في استعادة مصر من الإنجليز في المستقبل، وقيل أيضا أن عباس حلمى مكث في القسطنطينية حين شعر بضعف الخليفة وأعتقد أنه من المكن بأن يسيطر على الخلافة عندما ينهزم الحلفاء في النهاية ويجدّد بهذا أحلام محمد علي.، وتعليقاً على الوضع القانوني لمصر في ذلك الوقت قال لورد لويد :

> " كان حاكم مصر دستوريا هو الخديوي، وكان مجلس الوزراء عبارة عن مستشارين له، ولم يكن للبريطانيين مكان في الدستور، وكانوا قانوناً مجرد مساعدين للخديوي، مع هذا كان يوجد حدود واحدة لسلطة الخديوي معترف بها في القانون بصورة عامة ألا وهي أن مصر جزء من المتلكات العثمانية وان الخديوي يشغل منصبه بمرسوم من السلطان الذي كانت سيادته معترفا بها" [٦٩].

وما منع بريطانيا من ضم مصر لإمبراطوريتها في الماضي سوى الضجة التي كانت ستحدث من تغيير هذا الوضع القانوني.

---

[٦٩] مصر في عهد كرومر، لورد لويد، الجزء الأول، ص ١٩٢، ١٩٣.

والدستور المصري ينُص من الناحية النظرية على أنه في حالة غياب الخديوي، فان رئيس الوزراء يعمل كحاكم للبلاد مع مجلس وزارئه، وتكون له صلاحية تنفيذ كل السياسات والأحكام. ولكن في الواقع، كان القنصل العام البريطاني، مع مستشاريه البريطانيين يدعمهم جيش الاحتلال هم الحكام الفعليون الذين يعملون خلف الكواليس.

وفي ذلك الوقت كان رئيس الوزراء هو حسين رشدي باشا، وهو سياسي ذكي مؤمن بفلسفة الواقع وقد قدّر الموقف على نحو كامل. وأدرك أن على مصر أن تؤيد البريطانيين، ومن ثم فقد كان من الطبيعي بعد إعلان الحرب بفترة وجيزة أن يُصدر مجلس الوزراء بيانا نورد فقرة منه :

" وإن وجود جيش الاحتلال البريطاني في مصر، يجعل البلاد عُرضة لهجمات أعداء صاحب الجلالة البريطاني. ولكي نأمن خطر مثل هذه الامكانية فانه يُحظر على الرعايا المصريين القيام بأفعال معينة ومن بينها إبرام أي اتفاقية، أو الاكتتاب في أي قرض تصدره دوله في حالة حرب مع بريطانيا العظمى، وعليهم ألا يعقدوا أية أعمال مع رعايا العدو وأخيرا نحثّهم على تقديم كافة المساعدات المتاحة إلى بريطانيا العظمى".

وفي ذلك الوقت كانت بريطانيا راضية تماماً بالحل، فتركيا لم تكن قد دخلت الحرب بعد. مع أنهم كانو متأكدين من أنها ستشترك عاجلا أم آجلاً. وأنها حين تفعل هذا ستكون في جانب دول المحور. وكانت السلطات البريطانية في مصر والحكومة في بريطانيا غير مستقرة على السياسة التي ستُتّخذ عند حدوث هذا الأمر الطارئ والاختيارات والبدائل التي طرحت كانت إما ضم مباشر للإمبراطورية البريطانية أو إعلان مصر محمّية بإذعان الحكومة المصرية، وحين دخلت تركيا الحرب ناشد الخديوى عباس حلمى الشعب المصري في النداء التالي :

" لقد مضى اثنان وثلاثون عاما على احتلال دولة أجنبية لبلدنا الحبيب، والآن دقّت للتو ساعة الصفر لتقرير مصيرنا، هبوا ياأولادى الأعزاء، المصريون منكم والسودانيون، فالوقت قد حان لتحريرنا وليكن شعارنا " نحرر مصر مع احترام الاجانب وممتلاكاتهم " أعداؤنا هم جيش الإحتلال البريطاني، وأولئك الذين يتعاونون معهم. فليساعدنا الله العظيم في تحقيق طموحاتنا المبنيّة على أساس الحق والعدل والحرية".

عباس حلمي باشا، ٢ نوفمبر ١٩١٤

وقد فرض الجنرال ماكسويل الأحكام العرفية على مصر وتم عزل الخديوي عباس. ومع هذا مرّ أسبوعان آخران قبل أن تُعلن مصر محمّية من طرف واحد [٧٠] من بريطانيا العظمى، ودارت مفاوضات مستترة لإقناع الأمير حسين كامل بأن يصبح حاكم مصر بلقب "سلطان".

والأمير حسين كامل هو ابن الخديوى اسماعيل وأكبر سليل ذكر لمحمد علي، وكان رجلا أمينا ودودا مهتماً بالزراعة والبستنة بصورة كبيرة ويُولي اهتماما خاصا برفاهية الفلاحين، وكان أيضا يُحب مصر كثيراً ولم يسبق له العمل بالسياسه في الماضي، لأنه خشي أن يُعادي ابن أخيه الخديوي عباس حلمي الذي كان غيوراً منه، مرتاباً من أي أمير يهدد مركزه، ولقد اعتقد المصريون أن البريطانيين حين أعلنوا الحماية وعدوا بأن تعود مصر إلى الحكم الذاتي والاستقلال " وقد أكد الملك جورج الخامس الطبيعه المؤقته للحماية في خطاب أرسله إلى حسين كامل في عام ١٩١٥م ("مصر في فترة الانتقال "، جين وسيمون لاكوتور، ص٨٦).

وجاءت العباره التالية في متن المذكرة التي أعلنت الحماية:

> ان حكومة جلالة الملك مقتنعه بأن التعريف الواضح لوضع بريطانيا العظمى في البلد سيعجّل الحكم الذاتي بها، وحين قبل السلطان الجديد المنصب المعروض عليه رد على هذا وعبّر عن رغبته المحددة في ربط الشعب عن كثب بحكومة البلاد وطلب تعريفاً أدق لوضع بريطانيا العظمى في مصر بازالة كافة أسباب سوء الفهم لأن هذا سيسهل تعاون كافة العناصر السياسية في البلد [٧١].

ويُصرّح لورد لويد معلقا على كلا البيانين :

> "التنوع الهائل للتفسيرات المحتمله – مع أنه محفوف بكافة أنواع الأخطار المستقبليه – ربما كان أحد الأسباب الرئيسية في ذلك الوقت في قبول المصريين للحماية بهذه السهولة، فبالنسبة لهم كانت كل هذه العبارات المبهمة لها طابع الشيكات ذات التاريخ المؤجل التي لا يمكن تقديمها حتى نهاية الحرب".

وبينما شعر المصريون أنه اذا ساعدت بريطانيا مصر في التخلّص من السيادة التركية، وحصلت مصر على استقلالها بعد الحرب، فإنهم سيكسبون ولن يخسروا شيئا في مساعدة انجلترا في مجهودها الحربى،

---

[٧٠] هذه النقطة لها أهميتها حسب قول لورد لويد : "كان المفهوم السابق والمقبول عند الجميع أن المحميات لا تعدو أن تكون دولا غير متحضرة لها في الأساس اتفاقية مشتركة بين الدولة الحامية والدولة المحمية، ولكن الحكومة البريطانية عن قصد أو غير قصد أهملت معنى هذا المفهوم، وبذلك أصبحت شرعية وضعهم في مصر محل ضعف وقابلة للمهاجمة" – مصر من عهد كرومر، لورد لويد، الجزء الأول، ص ٢٠٧.

[٧١] مصر من عهد كرومر – الجزء الأول – ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

ومن ثم فقد قدّمت مصر مثل هذه المساعدة بلا حدود. ويجب على المرء أن يتذكر أن مصر شعرت بأن هذه ليست حربها وأنها غير مهدّدة، وأنه لم يكن لزاما عليهـا أن تدافـع عـن بلدهـا، ووافـق البريطـانيون في البداية على عدم استدعاء مصر للخدمة الحربية الفعلية، ومع هذا تكوّنت فرق عمال بـالتطوع الاختيـارى في البداية، وبعد ذلك بالتجنيد الإجباري.

" كان الجيش المصري الذي يبلغ قوامه ٣٠,٠٠٠ رجل يحافظ على الأمن بإخلاص في السودان وقدّم فرق عمال قُوامها ٨٥٠٠ رجل للحملة في مسوبوتاميـــــا، و١٠,٠٠٠ رجل في فرنسا. وتم تجنيد العديـد مـن المصريين لعملية النقل بالجمال في سوريا وفلسطين. وفي النهاية كان حوالى ١٣٥,٠٠٠ مصري مشـتركين في الحملة السورية وتشهد التسجيلات الرسمية بما فيها رسائل الجنرال اللنبي على كفـاءتهم فمـن بـين الـ ٢١,٠٠٠ مصري الذين كانوا يعملون في خدمة النقل بالجمال في عام ١٩١٧م قتـل منهـم ٢٢٠ وجـرح ١٤٠٠ ومات ٤٠٠٠ في المستشفى [٧٢] ".

لقد كانت الحكومة مُجبرة للاستيلاء على الذرة والماشـية والجمـال وتكليـف الرجـال بسـبب المطـالب الضخمة للمجهود الحربي البريطاني، مما تسبّب في كثير من الأسى والاستياء بين الناس.

وكان البريطانيون من جانبهم مشغولين بحربهم، ومن ثم فلم يعيروا هذا الاسـتياء أي اهتمـام، لأنهـم اعتبروا أن المصريين ليس لديهم شيء يشكون منه، ألم يتلق المجندون أجوراً جيدة ؟ ألم تتلق البلد أموالا معقولة عن البضائع التي تُورِّدها ؟ ومع ذلك فقد شعر معظم المصريين بأنه يتم استغلالهم بكل الطرق، لأن ما كان يُنفق من أموال في البلد لم يستفد منه أغلبية الشعب حيث كـان المقـاولون والمـورّدون بالاضافـه إلى التجار الأجانب هم فقط الذين يحصدون كل الفوائد.

وفي عام ١٩١٧ مات السلطان حسين، ولم يرغب ابنـه الأمـير كمـال الديـن، في أن يخلفـه كسـلطان، فتخلّى عن كل مطالبه في خلافة أبيه، وكان التالي في الأسرة هو الأمير أحمد فؤاد الابن الأصغر للخديـوى اسماعيل ولأنه نشأ في ايطاليا فقد كان يتحدث الإيطالية أفضل مـن العربيـة، ومـع أن الأمـير لعـب دوراً هاماً في الحياه العامه بمصر، إلا أنه لا يمكن أن يقال أنه كان محبوباً أو مؤثراً بين المصريين، وقد أُختـير ليكون السلطان الجديد طالما وجده البريطانيون غير كاره لهم.

وقد توقف النشاط السياسى في مصر إبان سنوات الحرب، نتيجة لإعلان الجنرال ماكسويل للأحكـام العرفيـة، وحلّ المجلس التشريعي، وكان الناس أنفسهم مهتمين بمشاكلهم الخاصة أكثر من اهتمامهم بالسياسة.

[٧٢] مصر الحديثة – توم ليتل، ص ٧٠.

وقد اعتبر الوطنيون المتطرفون سعد زغلول – حتى تاريخ استقالته من وزارة العدل في عام ١٩١٢– انسانا معتدلاً، ويميل إلى التعاون مع البريطانيين، وكان كرومر قد عيّنه وزيرا للمعارف واحتفظ بهذا المنصب إلى عام ١٩١٠ حتى عُين وزيرا للعدل حتى استقالته * . وعند مغادرته للوزارة رشّح سعد نفسه لإنتخابات المجلس التشريعي وتم انتخابه. وفي غضون عام واحد رد اعتباره في عيون الوطنيين حيث أصبح نائباً لرئيس المجلس في عام ١٩١٣، وأثناء توليه لمنصب العضو وبعد ذلك نائباً للرئيس، أصبح معروفاً بصراحته وانتقاده للحكومة والخديوي وشجاعته وخُطبه النارية، إلاّ أنه حاول إبّان الحرب أن يهدِّىء من غضب الوطنيين واستيائهم كابحاً زمام المتهورين الذين أرادوا دائما أن يفعلوا شيئا ما ضد البريطانيين.

وأخيراً جاء اليوم المنتظر في ١٣ نوفمبر ١٩١٨، بعد يومين من اعلان الهدنة، قام سعد زغلول باشا يرافقه الشعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك – والثلاثة من اعضاء المجلس التشريعي المُنحل – باعلان المندوب السامي السير ريجنالد وينجت باعتبارهم وفداً يمثلون الشعب المصري وليسوا ممثلي الحكومة الحالية، مطالبين بالغاء الحماية واحلالها باتفاقية للتحالف، وطلبوا أيضاً السماح لهم بالسفر إلى انجلترا للتفاوض في تفاصيل الاتفاقية التي قد تعقد مع الحكومة البريطانية.

وعندما رفضت مطالبهم بدأ الكفاح الطويل للاستقلال المصري.

---

* سعد زغلول استقال كوزير للحقانية (العدل) عندما رُفضت اقتراحاته من الخديوي وكيتشنر ويُقال أنه قال في اجتماع لمجلس الوزراء: " أنا مسئول عن وزارتي واقتراحاتي يجب أن تُنفذ ".

الجزء الثالث



استر فهمي ويصـــــــا

الكتاب الاول – الروح المناضلة
استر فهمي ويصا – عائلتها وعصرها

مقدمة

"اعتقد ان النساء في كل مكان سيشعرن بإحساس وثيق من القرابة في اهتمامتها ومثلها العليا" هذا ما كتبته السيدة "أليـنور" زوجة الرئيس الأمريكي روزفلت في عمودها "يومي" عن مدام فهمي ويصا حين زارتها هذه السيدة المصرية البارزة التي كانت تنادى بالمساواة بين الجنسين في البيت الأبيض في ٧ أكتوبر ١٩٣٦، وأضافت السيدة روزفلت: "أتمنى أن تُتاح لها الفرصة لتتحدث في أماكن كثيرة للأمة".

كانت استر فهمي ويصا نتاج بيئتها التي نشأت فيها بالإضافة إلى ما جمعته من تاريخ مصر الطويل الذي شعرت أنها جزء مُجسّد منه، والذي آمنت أن لها دوراً ما تقوم به، لقد ربطت مصيرها بمصير مصر فأحد الشواهد المُفضلة عندها من الكتاب المقدس هو :

"في ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر وعمود للرب عند تُخمها"، فيكون علامة وشهادة لرب الجنود في أرض مصر لأنهم يصرخون للرب بسبب المضايقين فيرسل لهم مُخلّصا ومُحامياً وينقذهم" (أشعياء ١٩ : ١٩–٢٠).

وأنا لا أعرف إن كانت تعتقد أنها العمود عند تخم مصر، فهي لم تقل ذلك صراحة ولكنها كانت تؤمن أن لديها رسالة يجب أن تؤديها، وهذا ما يفسر المخاطر التي تكبدتها للدفاع عن القضايا العديدة التي ناصرتها خلال حياتها.

كانت مصر – بالنسبة لها – هي الأيام المجيدة في عهد الفراعنة التي لابد أن تعُود وفقاً لنبوءة الكتاب المقدس :

" في ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى آشور فيجئ الأشوريون إلى مصر والمصريون إلى آشور ويعبد المصريون مع الآشوريين، في ذلك اليوم يكون إسرائيل ثلثاً لمصر ولآشور بركة في الأرض بها يبارك رب الجنود قائلاً مبارك شعبي مصر وعمل يدي آشور وميراثي إسرائيل " (أشعياء ١٩ :٢٣–٢٥).

وقد فسّرت استر آشور على أنها الأمم الغربية المتقدمة.

عائلة أخنوخ فانوس ١٩١٠



الصف الخلفي من اليسار : بحر النيل (جارية حرة) – يوسف – رياض – لويس – سامي – هربرت
الصف الأوسط من اليسار : عايدة – بلسم – أخنوخ فانوس – استر
الصف الأمامي من اليسار : جميل – ماري – جميلة

عائلة أخنوخ فانوس ١٩٣٧



الصف الأول من اليسار : سامي فانوس وجميل فانوس – يوسف فانوس
الصف الثاني من اليسار : جميل ويصا ودوسة ويصا
الصف الثالث من اليسار : رياض فانوس – فهمي ويصا – هربرت فانوس
الصف الرابع من اليسار : حنا ويصا – عدلي ويصا – عايدة فانوس – استر ويصا – لويس فانوس
الصف الخامس من اليسار : عادل فانوس وماي فانوس
الصف السادس من اليسار : ماري ويصا – بسمه فانوس – بلسم فانوس – جميلة ويصا – نادية ويصا
الأطفال الجالسين على الأرض من اليسار : سعادات ويصا – كمال فانوس – راجية ويصا

لقد كانت مُهتمّة بتاريخ مصر بكل ما يحتويه من ايجابيات وسلبيات، وتناست أن معظم تاريخ مصر قد نتج عن جغرافيتها، وهي ترى أن مصر كانت قوية عندما كانت البلاد موّحدة يحكمها أبناؤها القادة المخلصون الشرفاء، وكانت تضعف عند انقسامها واختلاف زعمائها مع بعضهم البعض، وتقع فريسة لأي مُغتصب أجنبي يستطيع أن يسيطر عليها.

كانت تؤمن أن المصريين – وكان الفلاحون يُشكّلون الأغلبية العُظمى منهم – هم شعب مسالم نتيجة لمناخ البلاد المعتدل، وأنهم صالحون بسطاء طيبون محبّون للأسرة، يعملون بجّد عند الحاجة، يطيعون حكّامهم ويحبون الله، ومن السهل إثارة مشاعرهم بسرعة ولكنهم سرعان أيضاً ما يهدأون، ويتمتعون بروح دعابة واضحة، طموحهم الأعظم أن يُترَكوا وشأنهم وأن يُسمح لهم بالعيش في سلام، يُمكن أن يضللهم الأشرار، ولكن أيضا يمكن أن يقتديهم الأبرار.

بيت أخنوخ فانوس بأسيوط

وُلدت استر **أخنوخ فانوس** الشهيرة "باستر فهمي ويصا" في ١٩ فبراير ١٨٩٥، وهي ابنة الدكتور أخنوخ فانوس وبلسم ويصا وكانت الابنة السابعة ضمن أربعة عشر طفلاً، مات أخ وأختان قبل أن تولد، ولأنها البنت الأولى التي عاشت للأسرة فقد دلّلها والداها، وكان لديهم مُربية انجليزية ترعى الأولاد في صباهم، أما التي كانت تساعد والدتها في إدارة البيت والعناية بالاطفال في طفولتهم هي فتاة سودانية كانت ابنة لشيخ قبيلة في السودان، وخطفها تُجار العبيد العرب حين وجدوها تلعب على ضفاف النيل في قريتها وباعوها في سوق العبيد في أسيوط في عام ١٨٥٠، وكان عمرها تسعة أعوام آنذاك واسمها "بحر النيل" وقد اشتراها روفائيل جد أخنوخ وأُعطيت إلى الدكتور أخنوخ عن طريق **"منجدة"** أمه لتساعد الزوجين الجديدين في إدارة بيتهما عندما تزوجا في ١٨٨٣، وتحررت عندما تحرر العبيد إبان حُكم الخديوي إسماعيل، ومكثت كفرد من الأسرة.

كانت دادة بحر النيل تحكم البيت بقبضة حديدية فكل الخدم كانوا يطيعونها طاعة كاملة حتى الأطفال كانوا يحترمونها ويطيعونها، ولم تتعود جدتي "تيته بلسم" على أن تنقض أيا من قراراتها، وكانت ترى استر مثالاً لا يمكن أن يخطئ، وعندما ماتت في عام ١٩٢٠ تركت أساورها الذهبية لاستر واخواتها، وكان لاستر ثلاثة أخوة أكبر منها وهم لويس وسامي ورياض ولدوا في أعوام ١٨٨٦ و١٨٩٠ و١٨٩٣ على التوالي.

نشأت استر في هذه الأسرة الكبيرة المكونة من الأخوة والأخوات وكان عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم

في الحياة، وحين كبروا كان لديهم كافة أنواع الخطط والمشروعات التي لم تكن ناجحة على طول الخط، ولكنهم كانوا يشتركون في شئ واحد ألا وهو الالتصاق بأمهم تيته [٧٣] بلسم التي كانت تُسيطر عليهم، ومع أنهـا كانت تمر بأزمات مالية في بعض الأوقات، إلا أنها لم تغير أبداً من طريقة حياتها، وكان بيتها مفتوحاً أمام كل من هب ودب، فإحدى القصص التي كانت أمي تُحب أن ترويها هي عن أحد أقاربها وهو أمين خياط الابن الوحيد لبسطوروس خياط أحد كبار مُلاّك الأراضي في أسيوط الذي فقد شهيته ورفض أن يأكل فقلق والداه فاقترح عليهما البعض أن يذهب إلى منزل عائلة فانوس ليتناول وجباته هناك فربما يُعيد أولاد فانوس إليه شهيته لأنهم كانوا مفتوحي الشهية دائماً في وقت الوجبات، وفي أول يوم ذهب فيه قدم الطعام للأولاد في حجرة الطعام واختفي قبل أن يكمل قول "بسم الله"، ولأنه كان مهذباً جداً فلم يقل أي شئ وعاد إلى بيته جوعاناً، وفي اليوم التالي أتى على الغذاء وقبل أن يأكل أي أحد منهم قفز وقال " أعطوني نصيبي، أعطوني نصيبي " وعندما كبر أصبح خبيراً وذا مذاق مميز بالنسبة للطعام.

كان أخنوخ فانوس يمتلك بيتاً ضخماً به بدروم يستخدم كمطبخ وجناح للخدم ومخزن، وكان البدروم محاطاً بحجرات ليستخدمها أي عابر سبيل يمر بأسيوط يطلب طعاماً أو مأوى، كعادة كثير من الأسر المصرية في ذلك الوقت.

كان بيت أخنوخ فانوس من هذا النوع، لم تُغلق أبداً أبوابه، وكان يوجد على جانبي البوابة حجرة صغيرة " للبوّاب "، وعندما كنت أذهب لأسيوط في طفولتي كان يقطن هاتين الحجرتين رجلان متقدمان في العمر كل منهما له لحية من الشعر الأبيض وشارب لونه أصفر حول الفم والأنف من نيكوتين السجاير الملفوفة التي اعتادوا تدخينها، أحدهما كان يسمى متوشالح والآخر نوح.

كان الغذاء دائما جاهزاً لأي فرد من أفراد العائلة أو أصدقائهم الذين يأتون فجأة، ويُقدم باستمرار ما بين الساعة الثانية بعد الظهر والسادسة مساء، أما العشاء فكان يقدم من التاسعة مساءً إلى منتصف الليل، ولم تكن هناك أدنى صعوبة مع الخدم لأن هذا كان جزءاً من حياتهم، ولقد كان هناك الكثير من الطعام لهم ولأسرهم، وكانوا يُعاملون معاملة حسنة، لذلك كانوا سعداء وعلى استعداد أن يعدّوا مأدبة لخمسين شخصاً في غضون ساعتين بعد إخطارهم وبلا تذمر أو تجهّم فقد كانوا يحبون الحفلات ربما بسبب كثرة الأنواع المختلفة من الطعام التي تُعد والتي كانوا يحصلون على نصيبهم منها.

---

[٧٣] كلمة " تيته " كلمة مصرية تعبّر عن "الجدّة" وربما يكون أصلها من مصر الفرعونية.

الدخول إلى منطقة المعيشة في هذا المنزل المكّون من طابق واحد عن طريق سلّم رخامي كبير يؤدي إلى شرفة واسعة (فيراندا)، يوصل إلى مدخل صغير، وفي الجانب الأيمن يوجد باب يؤدي إلى غرفة جلوس الضيوف ذات الأثاث الأرابسك، للذين لا يُراد استقبالهم داخل المنزل، وأمام الباب الرئيسي يوجد حائط صغير به مدخل مقوس عليه ستائر يؤدي إلى صالة كبيرة مُظلمة، واذا لم يكن نور النجفات مضاءً كان يوجد بالكاد ضوء من الحجرات المجاورة يبين لك الطريق، وهي تؤدي الى صالة داخلية أخرى مضاءة على نحو جيد لأن جزءاً كبيراً من السقف كان زجاجياً مما يسمح بإضاءتها، وفي منتصف الصالة توجد فتحة مستطيلة في الأرضية محاطة بسور منخفض كان عليه نوافذ تمكن المرء من رؤية البدروم، وبها جزء يستخدم كغرفة معيشة حيث اعتادت جدتي الجلوس فيها، وفي الشتاء كان يوجد في منتصف هذه الحجرة كانون فحمي نحاسي ضخم ليدفئنا، وكنّا نجلس بجواره حيث نشرب القرفة الساخنة المغطاة بالبندق المسحوق.

تستطيع أن ترى من خلال إحدى النوافذ في الحمام جزءاً من الحديقة حيث كانت النساء تعجن الخبز الشمسي، وهذا الخبز كان يوضع على أطباق خشبية ليخمر في الشمس قبل أن يُخبز في الفرن الذى كان موقداً دائماً في الفناء، وتستطيع أن ترى أيضا إحدى النساء وهى تجلس القرفصاء أمام القربة المليئة باللبن الطازج وتخضها مكوّنة بذلك كرات جميلة من الزبدة الطازجة، فتتناولها على الخبز الشمسي المحمص مع مربّة عنب وقشطة مصنوعة في البيت يقدمها "السفرجى" المُلقب بـ "النص" (نظراً لقصره عندما كان صبياً)، وكنا نخرج في كارتة تجرها الخيل مع الأسطى محمد الذي كان يعتني بالمركبات والكارتات المختلفة الموجودة في المخزن في بيت أبي وكان يذهب بنا الى البستان لنركب الحمير ونعود بعد الظهر.

في طريقنا إلى البستان كنا نمر عبر خزان أسيوط الذى بدأ العمل به في عام ١٨٩٨م وانتهى في عام ١٩٠٦م وهو عبارة عن كوبري طوله ٨٣٣ متراً وارتفاعه ١٢,٥٠ متراً ويمر من الضفة الغربية للنيل في مدينة أسيوط إلى الضفة الشرقية قامت ببنائه شركة بريطانية وكان أحد أجزاء خزان أسيوط به حاجز يمكن ان يفتح للسماح للقوارب بالمرور وبه بوابات من الصُلب للتحكم في منسوب مياه النيل، وعلى الضفة الشرقية يوجد نادي أسيوط الرياضي وملاعب التنس الخاصة به وملعب جولف، وكان الأعضاء يتناولون الشاي مع كعك أمريكي مصنوع في بيوت الاعضاء وكانت تنظم حفلات رياضية وغيرها من مناسبات الترفيه مثل دورات التنس مع اندية أخرى من المنيا وغيرها وفي طريقنا إلى البستان كنا نمر على ملجأ "ليليان تراشر" المشهور وعند عودتنا كان الأسطى محمد يسعدنا بأن يضرب بسوطه فروع شجر النبق الذى كان ينمو على ضفاف النيل فتقع الثمار في الكارتة.

سيدة على ظهر حمار

قصة حياة **"ليليان تراشر"** والملجأ الذي أنشأته على ضفة النيل الشرقية، تُعتبر حكايـة خياليـة، وسأروي القليل عن تلك السيدة العظيمة – التي كنت أعرفها جيداً منـذ عـام ١٩٥٠ – وعـن إنجازاتهـا في أسيوط الـتي بدأت من عام ١٩١١ وحتى وفاتها في عام ١٩٦١ عن عمر يناهز الأربعة والسبعين عاماً فقد كانت ليليـان تراشـر فتاة جميلة ابنة لأسرة ريفية متدينة في جورجيا بالولايات المتحدة الامريكية، وقد تطوعـت في صباهـا للعمـل في الارسالية كمُدرسة لتدريس الانجيل بملجأ مجاور لمنزلها، وكانت مخطوبة لمبشر ولكن قبل عشرة أيام من إتمـام زواجها أثرت فيها احدى العظات التي ألقتها سيدة مبشرة عادت لتوها من الهند لدرجة انها شعرت بنداء مـن الرب لتصبح مبشرة في الخارج ولم تعرف في أي مكان إلا أنهـا بعـد ذلـك شـعرت بـأن روحهـا متعلقـة بشـعب افريقيا فقد حاولت اقناع خطيبها بالأنضمام اليها في ارسالية في أي مكان بهـذه القـارة إلا انـه رفـض ان يذهـب معها فما كان منها إلا أن أنهت الخِطبة، وبعد فترة وجيزة وبمبلغ صغير مـن المـال تـبرع بـه بعـض أصدقائهـا تركت وطنها لتسافر إلى مصر، تلك الأرض التي شعرت أن الله يقودها إليهـا، ووصلـت أسيوط في أكتوبـر عـام ١٩١٠. وفي ١١ فبراير عام ١٩١١ أُستدعيت ليليان إلى جانب سرير إحدى الأرامل الفقـراء الـتي كـانت مريضـة للغاية، فرقّ قلب ليليان بالشفقة حين رأت ابنة هذه السيدة التي تبلغ من العمر عـدة أشـهر تحـاول أن تشـرب لبناً فاسداً من وعاء صفيح قذر.

ومع أن ليليان حاولت أن تنقذ الأُم إلا أنها ماتت من المضاعفات، وتركت الطفلة الصغيرة بـلا مـأوى وحيث إنها لم تجد أى فرد يرعى الطفلة أخذتها ليليان معها إلى البيت وهكذا بدأت رسالة ليليـان الـتي استمرت طوال حياتها تجاه الأطفال المصريين الفقراء في منزلهـا بأسـيوط والـذى أصبح يُعـرف فيمـا بعـد بملجأ ليليان تراشر.

أعاقت قلة الموارد نمو الملجأ بصورة كبيرة، ولكن مع حلـول عـام ١٩١٦ حيـث كـانت ليليـان ترعـى حوالى خمسين طفلاً، ولكي تتمكن من إيواء أسرتها المتنامية بصورة ملائمة قامت بشراء نصف فـدان علـى الضفة الشرقية للنيل وهناك أسست أول مبنى للملجأ، ولأن ليليان جعلت مبدأها عدم صـد أي فـرد فـإن الحاجة للطعام والمال لم تنقطع أبداً، وحين كانوا يحتاجون حجرة نـوم جديـدة كـانت ليليـان والأطفـال يبنون قمينة الطوب ويصنعون الطوب بأنفسهم ويشيدون المبنى الجديد بأيديهم، ومـع مـرور الأعـوام ولأن العديد من الناس سمعوا عن عملها بدأت التبرعات المالية والعينية تتدفق عليها فاشـترت أرضـاً إضافيـة، وأقامت مباني جديدة ضمت كنيسة وعيادة ومدرسة ابتدائية، وحين ماتت في عام ١٩٦١ كـان الملجـأ قـد توسع إلى ثلاثة عشر مبنى كبيراً، وساعدتها في ذلك العائلات القبطية الكبيرة التي كانت تمتلـك أراضـي

في أسيوط على قدر ما تستطيع إلا أن طلبات الملجأ مع عملية التوسع كانت في ازدياد مستمر، وبالرغم من الصعوبات التي كانت تواجهها في تغطية النفقات لدرجة أنها لم تكن تعرف أبداً من أين ستأتي الوجبة القادمة، ومع هذا كانت تتوسع باستمرار.

سأل "حبيب بك دوس" – وهو محام مشهور – ليليان عما إذا كان قد حان الوقت لتضع حداً لعدد الأطفال الذين تقبلهم في ملجأها فأجابته: "أنه من المستحيل بالنسبة لها ألا تضم أطفالاً جدداً لأن الناس يموتون باستمرار تاركين وراءهم بعض اليتامى" فقال لها : "حسناً لكنك ستضطرين للتوقف في يوم ما".

فأجابت : "نعم حين يتوقف الله عن إرسال المال الكافي لإعالتهم سأتوقف عن ضم أطفال جدد"، وكان المال والقمح واللحم يتدفق من مصادر عديدة مختلفة.

وكان الجميع في الملجأ يعرفونها كماما ليليان وكانت تقول أنها قد عقدت عهداً مع الرب في مستهل ارساليتها وقالت له: " أنا من جانبي سوف أعتني بالأطفال أما أنت فسوف تعتني بإمدادات الطعام والكساء". وطوال هذه السنوات العديدة أوفى الله بهذا العهد، وكذلك أولئك الذين اقتفوا أثر ليليان تراشر في الطريقة التي أداروا بها الملجأ حتى الآن.

وقد أتت معها أختها جيني التي كانت أكبر منها بسنوات، وساعدتها في طريقة حياتها الجديدة في هذه البلدة البعيدة في صعيد مصر في أسيوط التي اعتبرتها ليليان موطنها إلى أن توفيت، لكن جيني التي مكثت معها لسنوات عديدة، لم تشعر أنها تستطيع أن تعمل بمهنة التبشير، فبدأت تسافر بصورة مستمرة بين مصر وأمريكا، ولكنها قررت في النهاية أن تظل إلى الأبد بجوار أختها المحبوبة في مصر، فاشترت في عام ١٩٥٧ فيلا صغيرة في الاسكندرية لها ولأختها، وأثناء فصول الصيف الحارة كانتا تذهبان هناك لمدة ستة أسابيع مع عدد من الأطفال الذين لم يروا البحر من قبل، وفي خريف عام ١٩٥٩ أرسل مجموعة من الشباب في الولايات المتحدة الذين كانوا يساعدون الارساليات سيارة جديدة للملجأ، ووصلت إلى أحد الموانئ المصرية ولكنها حُجزت في الجمرك بسبب ارتفاع الرسوم الجمركية فقد بلغت مائة في المائة، وكان من المستحيل توفير المبلغ المطلوب، لذلك توسلت ليليان للحكومة المصرية، وحين أُخبر الرئيس جمال عبد الناصر بمشكلتها تم الإفراج عن السيارة الجديدة بدون رسوم. وبعد ذلك تلقت خطاباً من الرئيس جمال عبد الناصر فيما بعد، وهذا جزء من نص الخطاب : "سعدت كثيراً حين عرفت أنك قد حصلتِ على سيارتكِ الجديدة بدون رسوم كما طلبتِ وأود هنا أن أخبرك أننا جميعاً نقدر عملك من أجل الأيتام في هذه البلاد، وأتمنى أن تستمري في مساعيكِ الانسانية هذه بنجاح".

ملجأ ليليان تراشر بأسيوط



ماما ليليان مع بعض الأطفال



هدايا عيد الميلاد مقدمة من السيدة وديعة خياط حرم ألفريد ويصا مع بابا نويل

وقد قُدمت قصة حياتها في كتاب ممتع اسمه "سيدة على ظهر حمار" من تأليف بريم هاول ونشرته

E.P. Doulton and Company, 300 Park Avenue South New York 10, N.Y.

وإذا رغب أي من السادة القراء أن يعرف أكثر عن الملجأ، أو يقدم تبرعات فالمرجو أن يكتب إلى:

ملجأ ليليان تراشر، أسيوط، صعيد مصر.

أو يكتب الى

Lillian Trasher Orphanage

Division of Foreign Missions

1445, Boonville Avenue

Springfield M. 065802 1894

* * *

والآن دعوني أعود إلى طفولة استر، ففي سن السادسة ذهبت إلى مدرسة الإرسالية الأمريكية PMI وقد كان نضوجها العقلي مبكراً، فكانت تقتدي بالمثل العليا والدين وتهتم بالأساطير وتاريخ الفراعنة كما كان لها مسحة رومانسية في شخصيتها. وبدأت تقرأ الكتاب المقدس في سن مبكرة وغيره من الكتب من مكتبة أبيها الضخمة الذي كان من أفضل الخطباء والمحامين في البلاد، والذي كان أيضاً وطنياً ومزارعاً، واطلعت استر على العهدين القديم والجديد للكتاب المقدس على نحو كامل، وكانت تستطيع أيضاً أن تتلو آياتٍ من القرآن لأنها شعرت ان لها رسالة نحو مصر يجب أن تؤديها.

كان المبشرون يشجعون تلاميذهم على المناقشة والتفكير وإبداء آرائهم بلا خوف، وكان والد استر يشجعها أيضاً على التعبير عن رأيها بحرية، وكانت تقص علينا مراراً. كيف كانت في مراهقتها تتكلم مع الفلاحين وتقص عليهم قصصاً من الكتاب المقدس فقد كان أغلبيتهم من الأقباط وكانت معتادة على أن يصحبها واحد من خفراء أبيها وتذهب إلى حقول الوليدية وهي قرية في ضاحية من ضواحي مدينة أسيوط تقريباً في نفس مكان جامعة أسيوط الآن، وتتحدث إلى الفلاحين وتجيب على أسئلتهم من الكتاب المقدس الطبعة العربية الذي أتى به الأمريكان البروتستانت، وكانت شغوفة بقص حادثة معينة حدثت لها، وهي في يوم من الأيام كانت تروي قصصها في الوليدية بالقرب من أحد الشوادر التي أُقيمت لغرض ما، ولأن الطقس كان حاراً جداً، فقد وقفت في ظل الشادر وأخذت تتحدث فذهب أحد المستمعين إلى شيخ المسجد، وقال له إنه توجد فتاة مسيحية تحاول أن تجعلنا مسيحيين فعاد الشيخ معه، وأخذ يستمع

وكان يتعجب من الحين للآخر قائلاً :"انها لم تقل أي شئ خطأ .. انها لم تقل أي شئ خطأ" وقد تعرفت على هذا الشيخ فيما بعد، واعتادا أن يناقشا الإنجيل والقرآن سوياً أكثر من مرة.

في بحثي عن هذه السيرة قرأت قصة مشابهة في كتاب " أبناء الفراعنة الجدد " من تأليف S. H. Leader الذي كان يعرف استر والعائلة جيداً، ولكنه لا يذكر أية أسماء فسألت خالتي عايدة -- وهي سيدة تناهز التسعين من عمرها -- عما إذا كانت هناك فتيات كثيرات من مدرسة الإرسالية الأمريكية يعرفن القرآن والكتاب المقدس جيداً. كما اعتدن على الذهاب والتحدث مع الفلاحين فقالت إنها لا تعتقد ذلك ولكن أختها استر فقط هي التي آمنت أن أمامها رسالة في توحيد الأديان، وكانت معتادة على مناقشة الدين مع كل من المسلمين والأقباط.

كان حنا ويصا عم جدتي بلسم معتاداً على أن يذهب إلى استر في طفولتها ليصحبها إلى المدرسة، وكان قد تجاوز السبعين من عمره وكان يود أن يتحدّث اليها إلا أنها لم تحب الخروج معه لأنه لم يكن صبوراً بالمرّة وكثيراً ما يصيح :"انجرعي يا بنت انجرعي" التي تعني في اللغة العامية الصعيدية "انزلي في الحال أيتها الفتاة، انزلي في الحال " وكان أيضاً يتركها عند أول الطريق المؤدي إلى مدرستها في حين أنها إذا ذهبت إلى المدرسة في عربة أبيها كان يأخذها إلى الباب مباشرة، وكان معتاداً على أن يقول لها : "سنزوجك لفهمي .. سنزوجك لفهمي"، أما فهمي هذا فهو أصغر أبنائه، وكان يدرس في جامعة أكسفورد في ذلك الوقت، وقد تزوجا فعلاً بعد عشر سنوات، ولكن هذه قصة أخرى.

قد يتساءل القارئ كيف يتزوج الأقباط أبناء عُمومتهم من الدرجة الأولى على الرغم من تحريم هذا بدون حلّ خاص من الكنيسة في سائر العالم المسيحي، فهناك قصص عديدة تبين سبب هذا، إحداها أنه شئ شائع بين العرب أن يتزوجوا أولاد عمومتهم من الدرجة الأولى بيد أنه ليس من المُحتمل أن تقلد الكنيسة القبطية العرب في شئ يُمكن أن يخل بعقيدة كنسية، قيل إنها عادة مصرية قديمة كما نرى في الفراعنة الذين كانوا يتزوجون من إخواتهم، وأحد الأسباب المذكورة كذلك هو أن الأقباط كانوا يحبون الاحتفاظ بالأموال في العائلة، بيد أن السبب الذي سمعته والذي أعتقد أنه مقبول ظاهراً هو أنه في وقت ما إبان حكم المماليك لمصر – لكني لم أتمكن من معرفة الحاكم بالتحديد – تم إصدار مرسوم يقضي بتغريم أو معاقبة غير المسلم الذي تجاوز السادسة عشرة ولا يتزوج في غضون فترة زمنية محددة، ولم يكن من السهولة بمكان أن تجد زوجة عند الطلب فالناس كانوا لا يتجولون أو يختلطون إلا مع أقرب الأقارب ومن ثم فقد سمح البطريرك القبطي في ذلك الوقت بالزواج بين أبناء العمومة، ولكن لكي يغفروا مثل هذه الخطية في عين الله كان على الأقباط عندئذ وفي كل الأجيال التالية أن يصوموا خمسة عشر يوماً إضافية،

واضيفت هذه المدة إلى الصوم الكبير فأصبح بذلك خمسة وخمسين يوماً بدلاً من أربعين، وأثناء هذا الصوم يمنع الناس من أكل السمن واللحوم والبيض والسمك ولا يشربون اللبن أو القهوة أو الخمر، ولا يؤكل أي طعام بين شروق الشمس وغروبها، وإذا سألت أي قبطي عن سبب الخمسة عشر يوماً الإضافية سيرد عليك بالقول كي نعد أنفسنا للصوم الكبير أو للتكفير عن خطايانا أو لتفادي الأيام الشريرة.

• *الخطبة والزواج*

في يوليو عام ١٩١٢ م أتى زكي بك ويصا خال استر ليسأل إذا كانت استر ترغب في أن تتزوج ابن عمه فهمي بك ويصا، وكان فهمي يبلغ من العمر التاسعة والعشرين أما استر فكانت تبلغ السابعة عشرة ومع إنه كان ابن عم والدتها إلا أنهما لم يختلطا كثيراً حيث إنه كان يكبرها في السن، وكان خريجاً من جامعة أكسفورد وورث ثروة ضخمة وكان معروفاً لدى القصر حيث كان الخديوي عباس حلمي الثاني يستقبله بصورة منتظمة، وكان فهمي يعتبر زوج لقطة ومعجباً باستر.

كان زكي الابن الأصغر لويصا صديقاً حميماً لفهمي، وكانا معاً في الجامعة الأمريكية في بيروت وبعد ذلك ذهبا إلى أكسفورد سوياً ولأنه خال استر فقد كان يذهب لبيت أخته باستمرار وكان معجباً بابنة أخته، ويحب الجمع بين الناس عن طريق الزواج، ومن العادة أن تذهب عائلة العريس إلى عائلة العروس، وتطلب يدها وفي معظم الأحوال لم يكن العريس والعروس يعرفان بعضهما جيداً حتى وإن كانا أولاد عمومه، وفرح بلسم وأخنوخ بهذا الخبر، لكنهما قالا إنه يجب عليهما أن يسألا استر أولاً.

كانت استر ذات طبيعة رومانسية وأعجبتها الفكرة حيث أن فهمي كان عريساً يندر وجود مثله، حيث قد أسس لتوه بنكاً، وكان جذاباً مع مركباته وخيوله، فقالت استر أنها لن تقرر في الحال ولكنها ترغب في معرفته بصورة أفضل وأعطت زكي قصيدة ليعطيها لفهمي ودعتهما على الشاي في اليوم التالي وكانت القصيدة التي كتبتها هي :

"بسعادة مرتجفة وقلب ملتاع سأنتظر

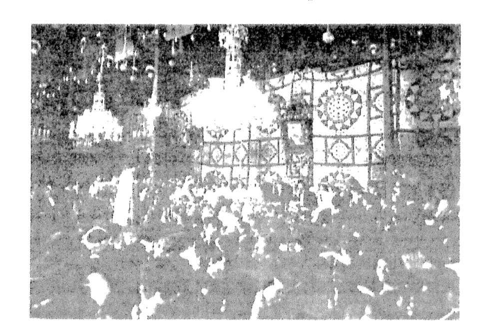
كلمات حبك التي ستقرر مصيري

فإذا كنت صادقاً أحضر لي وردة حمراء

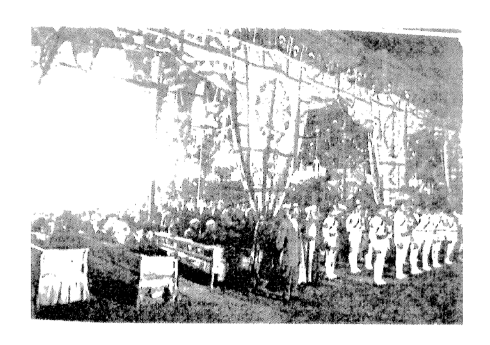
وسأحافظ عليها أكثر من عمري"

في اليوم التالي أتى فهمي مع زكي لتناول الشاي، ولكنه نسي كل شئ عن الورد إلا أنه حين رآها وقد علا وجهها خيبة الأمل فنظر حوله ورأى زهرية وبها ورد أحمر على المنضدة فأسرع، واقتطف وردة من الزهرية وقدمها لها.

زفاف فهمي بك ويصا واستر أخنوخ فانوس



أدايل الزفاف



الفرقة الموسيقية للخديوي عباس حلمي

امتدت فترة الخِطبة لعام تقريباً، وأصبحت استر خلال هذه الفترة هائمة بحب فهمي الذي كان له العديد من التجارب مع الفتيات في القاهرة. وقد تم زواجهما في ٢٤ يوليو عام ١٩١٣ وأرسل الخديوي مندوبه إلى العرس بالإضافة إلى فرقته الموسيقية الخاصة، وقد ورد وصف لحفل الزفاف في كتاب من تأليف S. H. Leader أسمه "أبناء الفراعنة الجدد .. دراسة لعادات وتقاليد أقباط مصر"، وتوجد صورة لحفل الزفاف في صدر الكتاب أما الوصف فيرد كما يلي :

" إحدى حفلات الزواج الرائعة في السنوات الأخيرة غير المسبوقة في عظمتها الشرقية – قيل منذ أيام اسماعيل المترفة – أقيمت في أسيوط بين اثنين من معارفي وبعدها بقليل غادرت مصر بعد زيارتي الأخيرة لها في عام ١٩١٣.

قرأت لي العروس الآنسة استر فانوس بعضاً من قصائدها الساحرة المكتوبة باللغة الإنجليزية، وقد أتاحت لي الفرصة مراراً لسماعها تتحدث عن سعادتها العميقة بالأشياء الجميلة في بلدها المحبوب وعن تاريخها القديم العظيم، وقد رأيتها أيضاً – كالمرأة العصرية – تستخدم مواهبها في الرقي بالفلاحين الفقراء، وقابلت أيضاً العريس السيد فهمي ويصا، وهو خريج أكسفورد وسليل واحدة من أعظم العائلات القبطية في صعيد مصر ".

سأقدم وصفاً موجزاً لهذا العرس لأني مدين بأن أفعل هذا لصديق قبطي كان حاضراً هناك لأن هذا العرس يوضح أشياء عديدة تمت الإشارة اليها لا سيما أنه يبين كيف أن التقاليد المحلية تؤكد نفسها في مثل هذه المناسبات على الرغم من استخدام بعض أساليب الحياة الغربية.

لم يُدخر أي شئ يمكن أن يجعل هذا الحفل بهذا النجاح فلقد امتزج الجمال الشرقي مع العلم الغربي على نحو متناغم في السرادق الرائع المضيء بالعديد من المصابيح الزيتية القديمة والنجف الكهربائي الحديث الفخم، وقد تمت استضافة ما لا يقل عن ثمانية آلاف ضيف في هذا السرادق في ليلة واحدة، الرايات الخديوية، وأقواس النصر العظيم كانت تزين الشوارع المؤدية إلى منزل العروس وقيل إن الاستعدادات تكلفت ما يقرب من ٢٠ ألف جنيه.

استمر الاحتفال لثلاثة أيام متواصلة، وكان الضيوف الذين أتوا من كل أرجاء البلاد بينهم باشوات وبكوات وعُمد وشيوخ وغيرهم من الأعيان بالإضافة إلى مسئولين في حكومات أوربية ومجموعة من الشعب، في اليوم الأول استضاف والدا العروس حوالي ثمانمائة من أعيان القرى على الغداء والعشاء على الطريقة التركية، وفي المساء قدّم عبد الحليم افندي نحاس المطرب المشهور وسامي افندي شواس عازف الكمان مواهبهما لنخبة من المستمعين وصاحبهما على المندولين (آلة وترية تشبه العود) محمد افندي عمر، وأعيدت معظم المقاطع مراراً وتكراراً لتطرب الحاضرين، وفي يوم آخر تمت استضافة المدعوين من القاهرة والإسكندرية، وكثيرين من أسيوط بما فيهم مسئولون محليون وأجانب وبعض المشاهير وعائلاتهم على الغداء في قصر ويصا، وفي المساء حضروا حفل استقبال خاصاً أعدّته أم العروس مدام أخنوخ فانوس التي زيّنت منزلها على نحو جميل بالزهور والأنوار الملّونة، وبدأ الضيوف في التوافد في الثامنة مساء

تحييهم فرقة مدرسة ويصا بألحان عربية وأوروبية ، وفي التاسعة تقدّم فتحي باشا مدير مديرية أسيوط وقاد الجميع إلى العشاء، وعندما انتهت الخطب والأحاديث اتجه الرجال من الضيوف إلى قصر ويصا للاستماع إلى الأغاني العربية من محمد افندي السبع تصاحبه أوركسترا محمد افندي عمر.

خُصص يوم آخر لاستضافة السيدات من أهل أسيوط اللاتي تناولن الغداء مع أسرة العروس، واشتركن في الموكب إلى منزل العريس، وفي نفس الوقت كان منزل ويصا يستضيف المئات من القرويين مسلمين ومسيحيين على وجبة غداء على الطريقة التركية، وبعد ظهر كل يوم من الأيام الثلاثة قُدمت عروض رائعة في الفروسية أمام منزل العروس من جانب أعضاء العائلات المحلية البارزة على خيول سروجها مزركشة ببذخ وكل عرض ينتهي بموكب حول المنزل والفرسان يقرعون الطبول، ويصيحون ببعض العبارات مثل " عمار يا بيت فانـــــوس ".

وقعت حادثة طريفة حين رأى أحد الفرسان دكتور فانوس – الذي كان مقعداً – في الشرفة فامتطى جواده، وصعد درج السلم ليحييه فهب الدكتور على قدميه ليمسك بيد الفارس الذي نزل ثانية بعد ذلك وسط الصياح والتحيات للجمهور العريض بأسفل، وفي الساعة الثامنة من مساء يوم العرس نفسه انطلق الموكب تسبقه الفرقة وحاملو المشاعل وفريق من فرسان الشرطة وأكثر من مائة مركبة إلى السرادق الضخم، وهنا قابلته الجوقة القبطية مُرنمة ترتيلة ترحيب، ورافقت العروس وجماعتها إلى المنصّة حيث عقد الأساقفة الأقباط ورجال الدين مراسم الزواج، وقد أقام القداس عدد من ممثلي الأرثوذكس والبروتستانت وأناب البطريرك اثنين من الأساقفة لينوبا عنه معبراً في نفس الوقت عن عميق أسفه لأن العمر والعجز منعاه عن أن يحضر شخصيا، وحضر كذلك مطارنة أسيوط والخرطوم وقنا ورافق الأخير كورس كنيسته بالكامل.

وقد جمع المطارنة الخمسة وحضرة الأب معوض حنا الزوجين بالطقوس الأرثوذكسية والبروتستانتية الكاملة وفقا لرغبة البطريرك ورتّلت فرق الترنيم الأرثوذكسية والبروتستانتية آياتٍ من الكتاب المقدس وبعض المزامير المنتقاة، وكان كل من العروس والعريس ينتميان إلى الكنيستين، وكان الدكتور أخنوخ فانوس هو رئيس المجلس الملّي للكنيسة البروتستانتية، وبعد انتهاء المراسم التي امتدت لساعة قام "خليل مطران" الشاعر القومي وغيره من الشعراء بإلقاء قصائد زفاف جميلة نثرا وشعرا، وفي تمام الساعة الحادية عشرة قُدم عشاء مُترف أولا لحوالي ثلاثمائة ضيف، وبعد ذلك لعدة آلاف من الفقراء، واستمرت المأدبة إلى الثانية صباحـــاً، وفي نفس هذا الوقت تمّت إستضافة السيدات المسلمات والمسيحيات على انفراد في المنزل، ولم ينته الحفل إلا في الخامسة صباحاً بالرقص والغنـــاء".

قضى الزوجان شهر العسل في الاسكندرية، ولم تحمل استر في عامهـا الأول فقلقت جـــداً، وكان الأقباط يتبعُون القوانين الإسلامية في الميراث، وكان من المهم أيضا في عين أي عروس شابة أن تنجب وريثا ذكراً بأسرع وقت ممكن لكي تضمن أن أي ميراث مستقبلي سينتقل إلى أولاد المتوفي، واعتقدت العروس ان بهذه الطريقة يمكن ان تحفظ الأسرة من تفتيت الملكية ولم تكن استر مستثناة، فعلى الرغم من اتساع أفقها وسخائها إلا أنه كان بها مسحة من الواقعية فقد كانت عقلانية في الأمور المادية.

فهمي واستر



أول ثلاثة أطفال
من اليسار : دوسة - جميل - عدلي (توفى عام ١٩٢١)

في هذه الظروف قرر أبي وأمي أن يذهبا إلى أوروبا للعلاج، وأيضا ليقضيا شهر عسل آخر، فأخذا سفينة من الاسكندرية ترافقهما جميلة أخت استر، وكان من المفروض أن تسافر خالتي عايده - الشقيقة الكبرى لجميلة - مع أبي وأمي ولكنها كانت تشكو من أسنانها فخشيا عليها من المضاعفات، لذلك أخذا جميلة بدلا منها، وكانت عايده تقول دائما أنه من الظلم أن ترسل جدتي أختي جميلة بدلاً مني لأنها (عايده) هي التي حصلت على المال اللازم للرحلة من خالها جورج الذي كان يعتبرها دائما ابنة الأخت المُفضّلة عنده وكان هو المصفي لأملاك ويصا، وقد سافروا إلى أحد المنتجعات في المجر للعلاج، وبعد هذا إلى باريس والنمسا حيث احتجزوا عند إعلان الحرب، فقاسوا أوقاتاً عصيبة لأن الجيش الألماني كان قد استولى على بعض القطارات، لأن انجلترا كانت في حرب مع ألمانيا وفي نفس الوقت تحتل مصر.

وفي قطار لم يستول عليه الجيش الألماني أقنع والدي أحد حراس عربات النوم أن يخصص لهم مقصورة ويغلق عليهم الباب وكان قد رفض أن يُعطي نفس هذه المقصورة لأسرة إنجليزية من الاسكندرية فشحبت وجوههم حين رأوا أن المصريين يلقون معاملة أفضل منهم، وحين وصلوا إلى محطة تغيير القطارات ظل والدي مع الأمتعة، وأسرعت أمي لكي تتمكن من توفير معاملة مشابهة في الجزء التالي من الرحلة، واستطاعت بالإقناع أن تحصل على المقصورة المطلوبة وبهذا هُزمت الأسرة الإنجليزية للمرة الثانية عند نهاية السباق، وحين رأت السيدة الإنجليزية أن أبي وأمي قد حصلا على مقصورة كانت من المفترض في نظرها ان تكون مخصصة لهم، صاحت قائلة: " هذه الفتاة فعلتها مرة ثانية "، وأصبحت استر والأسرة الإنجليزية أصدقاء فيما بعد عندما أقاما والدي وأمي في الاسكندرية بعد خمسة عشر عاما.

وفي عام ١٩١٥م حملت أمي بابنها الأول الذي أسمته ويصا، ولكنه كان يعرفه الجميع بجميل، وابنها الثاني وُلد في عام ١٩١٧ واسمه عدلي، وفي عام ١٩١٩م جاء المولود الثالث بنتاً أسمتها فردوس على اسم جدتها، ومعروفة للجميع بدُوسه، وكانت أمي فخورة جداً بأسرتها الصغيرة، وكانت حياتها مُرتبطة بالكامل بها فلم تكن قد بدأت تهتم بالسياسة بعد ولكنها كانت لا تزال مهتمة بالدين ونبوءات الكتاب المقدس.

في نهاية عام ١٩١٤ أصدرت الحكومة قراراً رسمياً (موراتوريوم) بتأجيل دفع الديون التي تم سحبها على المكشوف من البنوك بسبب الأزمة الاقتصادية الناتجة عن الحرب، فتعرض بنك والدي لبعض المصاعب المالية وكان لزاماً عليه ان يرهن أرضه لينقذ البنك من الافلاس وقد كانت تراوده فكرة قبول عرض جورج بشراء كل أرضه وتسديد ديونه وتوفير دخل سنوي دائم لأسرته إلا أنه بعد تفكير رفض العرض.

وفي احدى السنوات كان أبي قلقاً جداً لأن قسطاً كبيراً من الرهن قد حل ميعاد سداده فقررت أمي ان تتصرف من تلقاء نفسها فعرضت على أمين بك خياط وهو أحد الأقارب الأثرياء واحدة من أفضل مزارعنا في "بني زيد" وقد استقبلها بأحترام ، ولكنه أخبرها انه قد اشترى للتو مزرعة أخرى، فعادت الى البيت، ووجدها أبي تبكي لأنها شعرت انها قد جعلت من نفسها أضحوكة، وخذلت أبي بأن فقدت اعتبارها، فغضب أبي جداً منها وأخبرها بذلك.

وفي عصر نفس اليوم صلت الى الله متوسلة ان يجد لها حلاً وشعرت أنه كان من الأفضل أن تصلي بدلاً من أن تتصرف من تلقاء نفسها، وفجأة قرع السفرجي الباب وقال أن فلاحاً يسأل عن أبي، ولأن أبي كان خارج المنزل فقد ذهبت استر لتقابله فأخبرها أنه من قرية تسمى "جلانش" حيث كنا نمتلك مزرعة هناك أقل جودة من مزرعة بني زيد، وسأل إن كانت ترغب في بيع هذه المزرعة، فردّت عليه بالإيجاب، ولأنه كان يريد أن يعرف الثمن المطلوب فطلبت منه القيمة المحددة للقسط المستحق من الرهن فقبل على الفور، وبعد هذا ببضع ساعات أتي فلاح آخر، وسأل إن كانت تريد بيع كمية من الطوب موجودة في إحدى مزارعنا، ورغم أنها لم تعرف شيئاً عن هذا الطوب، فأتصلت بالمشرف وأتمت الصفقة لأن العرض كان مجزياً، وحين عاد أبي إلى البيت وجد أن إحدى مشاكله قد حُلتْ، فأمي كانت تقول دائماً: "إن اللّه كان يستجيب لصلواتها كلما كانت في مأزق".

قد يكون القارئ قد كوّن فكرة طفيفة عن شخصية استر، فقد كانت تتسم بالنضج المبكر ولأنها كانت مصونة من تقلبات الحياة مادياً واجتماعياً طوال حياتها فلم تعرف الخوف، واندفاعها نتج من احترامها لذاتها، فكانت تهب للدفاع كلما سمعت عبارات مهينة لمصر أو للمصريين وخير مثال على ذلك هو الخطاب الذي ارسلته الى " مجلة أبو الهول Sphinx " في عددها الصادر في ٣٠ مارس عام ١٩١٨ فقد كتبت تقول:-

السادة الأفاضل :

عند قراءتي للمقال في مجلة " أبو الهول " الصادرة في ٣٠مارس ١٩١٨م تحت عنوان المرأة الوطنية سمحت لنفسي أن أرد على هذا العمود الخاص عن المرأة القبطية الذي عالجه الكاتب بمنتهى الظلم.

يقول الكاتب إنه يتعامل فقط مع نساء الطبقات العليا لذلك فنحن نُسلم جدلا أنه يتعامل مع المرأة القبطية من نفس الطبقة، ومن الآن فصاعدا سأتحدث فقط عن هذه الطبقة، وأظن انني محقّة فيما يلى: لا توجد فتاة قبطية واحدة من الطبقة العليا في جيلي ممن أعرف لم تتلق تعليما جيداً على نحو ملائم بل أن الجزء الأكبر من هذا التعليم يعادل تعليم أي فتاة سورية أو مسلمة تعلمت في مصر، الوالد القبطى يُرسل ابنته إلى أفضل مدرسة في البلاد وهذا يمكن إثباته إذا أُعِد تقرير عن أبرز المدارس في البلاد يُبيّن فيه الرقم الدقيق للفتيات القبطيات المقيدين بها سنوياً.

معظم العائلات التي عرفتها وهى كثيرة جداً – وغيرها أيضا عندهـا مُربيـات انجليزيـات لأطفالهـا منذ طفولتهم المبكرة وأطفالنا يتعلمون كيف يثرثرون بلغتين على الأقل منذ البداية الأولى فكل فتاه قبطيـة من الطبقة العليا – وكثيرات من الطبقة المتوسطة – تدرس الإنجليزيـة والعربيـة والفرنسـية والموسيقى، وبالطبع يتوقف اتقانها الكامل لكل هذه الأشياء مع قدراتها العقلية ومهاراتهـا ويسرنى أن أقول إننـا لانزال ندرس اللغة العربية مع أختنا المسـلمة لأنـه مـن الضـرورى أن نعـرف لغـة والدينـا مثلمـا نعـرف الإنجليزية أو الفرنسية وعدد قليل من فتياتنا تلقين تعليمهـن في الخـارج سـواء في إنجلـترا أو في فرنسـا وهذا أمر لا أثنى عليه لأنه – في رأيي – يجعل الفتيات المصريات غير راضيـات عـن حيـاتهن في مصر بعد عودتهن.

أني لأتعجب من التصريح الذي يفيد بأن إلغاء الشهادة الابتدائية ضايق الأقباط فأنا لا أكاد أعـرف أي فتاة قبطية من الطبقة العليا تلقت تعليمها في المـدارس الحكوميـة الـتي كـانت تقـدم شـهادة التعليـم الابتدائي، السيدات القلائل اللاتي أعرفهن، واللاتي تلقين تعليمهن في المـدارس الحكوميـة قـد حصلـن علىالبكالوريا وشهادة التدريس وأكثر من واحدة منهن تحتفظ بمركـز بـارز كمُدَّرسـة متقدمـة في المـدارس الحكومية، صحيح أن معظم الفتيات تزوجن عند بلوغهن سناً معينة، وربما يكون هـذا سـبب في أننـا لا نجد مدرِّسات قبطيات كثيرات مثل السوريات مع أننا لدينا عدد وفير منهن، وحيـث إنـي أعتقـد أنـه يجب على كل فتاة ألا تتردد في الزواج في حالة وجود زوج مناسـب، وهـو أمـل المـرأة في كـل مكـان في العالم فأنا لا أستطيع أن انتقد هذا، وموضوع الزواج المبكِّر هذا يفسر نُدرة المؤلفات الأدبيـة الـتي تكتـب من جانب الفتيات القبطيات لغرض الإطلاع العام حيث أن الواجبات المنزلية، والارتباطات الإجتماعيـة تشغل الحيز الأكبر من وقت المرأة المتزوجة.

فهناك لوم يقع على عاتقنا وعلينا أن نثبت للعالم أن المرأة القبطية تتمتع بعقل وتعليم يعـادل عقـل وتعليم الأخريات، وأن تربيتها سليمة ومتقدّمة وأن أسـلوبها مهـذّب وسلوكها الأخلاقي لا تشـوبه أي شائبة، صحيح أن الأقباط لم يتخذوا زيا موحداً، ولكن معظم شبابنا من الطبقة العليا يلبسون على النمط الأوروبي ومعظم الفتيات أنيقات كأي امرأة أوروبية، ولو كان الكاتب قد كتب مقالاً بإسمه، لكنا أثبتنـا له الأفكار الخاطئة في بيانه لأننا نجد في نقده ومدحه الكثير من التحامل والمبالغة والمعلومات الخاطئـة، فما قاله الكاتب عن بيت المرأة السورية من الطبقة العليا يمكن أن يقال أيضاً عن بيت المرأة القبطية مـن نفس الطبقة فكثيراً ما نرى أن "رئيس الخدم يقف بجوار مائدة الطعـام مُرتديـاً سـترة السـهرة التقليديـة والجوانتي الأبيض". كما ان الفتاة القبطية حُرة في الخروج قدر ما تريـد ولا نراهـا تكمـن في البيـت كمـا يقول الكاتب، صحيح أننا لا نهتم بـالاختلاط مـع كـل أنـواع الرجـال، ولكننـا جميعـاً نقـابل أصدقـاء أزواجنا، على الأقل أولئك الذين يستحقون أن يدخلوا بحريّة على الأسرة القبطية، وهنـا أسمح لنفسـي بأن أنصح أخواتي ونساء بلدي بألا يقتفوا آثار ما نسميها بالحضارة علـى نحـو أعمـى لأننـا سـرعان مـا نقترب من حجر العثرة، وأكثر إفادة لنا أن نكتسب الأشياء الصالحة في الأمم وفي نفس الوقت نتمسك بأخلاقنا القديمة وأفكارنا فإلى الآن لم تصل المرأة القبطية إلى درجة الجـُرأة أن تغـازل الرجـال، ولكنهـا تؤدي واجباتها على أفضل وجه وهي عون لزوجها وأم صالحة لأولادها.

يقول الكاتب : " إن أفضل معيار لقياس مدى رُقي أحد السكان الوطنيين هو زواج بناته من رجال أجانب ذوي حضارة أرقى". هذا ليس صحيحاً في حالة الفتاة القبطية لأنه من المستحيل لأي والد قبطي ذي منزلة رفيعة أن يوافق على زواج ابنته من أجنبي، فرجالنا يجدون معارضة شديدة من عائلاتهم حين يتزوجون من أجنبيات، ومن ثم يصبح من غير المعقول أن تفكر أي فتاة شابة لا تزال خاضعة لسيطرة والديها في أن تفعل هذا، وأنا شخصيا استنكر الزواج من الأجانب لأنه يوجد في كل أمة بعض العادات الخاصة بها والتي تحافظ عليها، ولكن في نفس الوقت يمكن أن تكون محتقرة لدى أمة أخرى، وهذا يؤدي إلى سوء تفاهم بين أفراد الأسرة، ومن ثم فمن المستحسن أن تحافظ كل أمة على ما لديها، فاذا تم تنفيذ نوع الزواج الذي يحبذه الكاتب في مقاله فإن هذا العالم سيصبح مختلطاً ومختلفاً تماماً عما هو عليه الآن".

ومن الطريف أن نلاحظ أنه في غضون خمسين عاما بعد هذه الرسالة تزوّج ثلاثة من أبناء استر الستة من أجانب !!.

أين البرانيط؟

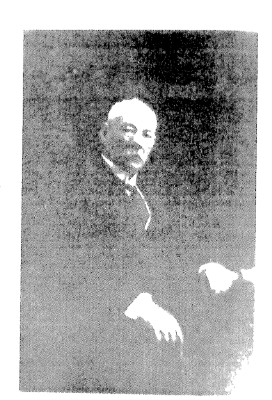
في أوائل عام ١٩١٩ زار الأسرة محام شهير وهو مكرم عبيد وقد كان صديقاً لفهمي بك وتعلم معه في أكسفورد وكان مهتماً حديثاً بالسياسة، وأخبرهم أن سعد زغلول باشا وبعض زملائه ينوون السفر الى انجلترا ليطلبوا من الحكومة البريطانية أن تلغي الحماية عن مصر، وان تمنحها الاستقلال الكامل، وأرادوا أن يعرفوا موقف القادة الأقباط فيما يتعلق بهذا الأمر، فعبّرت الأسرة عن عظيم حماسها للفكرة ووعدت أن تتعاون بإخلاص، وفيمايلي هو نص الحديث الذي ألقته استر في اجتماع سنة ١٩٦٩ بمناسبة يوبيل تحرير المرأة المصرية وتخليصها من الحجاب، وهذا الحديث يقدم موجزاً عن الموضوع ملقياً بعض الضوء عن حياة أمي.

سيداتي سادتي،

اليوم ونحن نحتفل بيوبيل تحرير المرأة المصرية وتخليصها من الحجاب، أود أن أذكر الظروف والأحداث التي توالت في هذا الصدد، فإن قضية تحرير المرأة تبناها قاسم أمين والسيدة باحثة البادية، ولكنهما لم يتوصلا إلى أي نتيجة مُرضية ولذلك فحينما قامت ثورة ١٩١٩ تحت قيادة سعد باشا زغلول لعبت النساء دوراً مهماً فيها وقد أتيحت لهن الفرص لتحقيق آمالهن.

سأقص ما حدث من خلال تجربتي الشخصية ... في يوم من ذات الأيام حضر صديق لنا وهو مكرم عبيد المحامي ليقابل زوجي، وأخبرنا أن سعد زغلول باشا وبعض زملائه ينوون الذهاب إلى انجلترا ليطلبوا من الحكومة البريطانية أن تلغي الحماية عن مصر وأن تمنحها الاستقلال الكامل، وقد أرادوا أن يعرفوا موقف الأقباط من هذه الخطوة فعبرنا عن عظيم حماسنا لهذا المشروع ووعدنا أن نتعاون بإخلاص.

أقطاب ثورة ١٩١٩



سعد باشا زغلول — مؤسس حزب الوفد والقوة الرئيسية
المحركة لثورة ١٩١٩
طالب بإلغاء الحماية البريطانية والوحدة مع السودان



السيدة صفية زغلول زوجة سعد باشا وابنة مصطفى
فهمي باشا رئيس وزراء مصر في ظل حكم كرومر
وكانت تعرف بأم المصريين وبيتها يُعرف ببيت الأمة

فيما بعد ذهبت الى أسيوط مع أولادي، وفي اليوم التالي قبضوا على سعد زغلول وزملائــه ونفوهـم الى مالطة، وقد تظاهر الطلبة في القاهرة فأطلق الجنود البريطانيون على المتظاهرين النار، وتـأثرت مشـاعري بصورة كبيرة لدرجة اني كتبت التماساً شعرياً للرئيس ويلسون أعرض عليه قضيتنا ونصه كالآتي:

"قدمنا أربعة لهذه القضية ، واذا لزم الأمر سنقدم اربعمائه ، أربعــة آلاف ، اربعـة ملايـين لنحـرر الأربعة، وثلاثة أضعاف هذا العدد مصممون على نيل العدل على أرضنا، شيوخنا سيستعيدون شـبابهم، رجالنا شجعان، ونساؤنا سيتحولن رجالاً ، وأطفالنـا سـيكبرون وسـيتحدون جميعـاً للنضـال مـن أجـل قضيتنا المصيرية".

وقررت أن أعود للقاهرة في الحال فقالت أمي: "لقد وصلـت للتـو فكيـف ترحلـين بهـذه السرعة؟" فقلت لها "إن لم أذهب الآن فلن أستطيع أن أسـافر فيمـا بعـد" وكـان مـا توقعتـه صحيحـاً لأن أعمـال الشغب اندلعت، وحُطمت السكك الحديدية، وقُطعت كل وسائل المواصلات بين القاهرة والوجه القبلـي لفترة طويلة وفي أثناء ذلك كانت الثورة تغلي، وأعمـال شـغب في كـل مكـان، وإضرابـات ومظـاهرات في جميع أرجاء البلاد.

وعند وصولي إلى القاهرة توجهت لمقابلة حـرم سـعد زغلـول باشـا وعـبرت لهـا عـن تعاوننـا الكـامل المخلص في الحركة حتى يتم الإفراج عن القادة، وحتى تحصل بلادنـا علـى اسـتقلالها وعرضـت عليهـا الالتماس الذي كتبته للرئيس ويلسون فوافقت عليه وأخبرتني أن أحصل على توقيع ثلاث سيدات علـى هذا الالتماس وأن أرسله للرئيس ويلسون على الفور.

بعـد بضعـة أيـام تلقـت خـــالتي الســيدة روجينـــا خيـــاط رســالة هاتفيـــة تقــول لهـــا إن كـــانت تُحـب بلادهـا فعليهـا أن تذهـب إلى بيـــت مُعـــين في شـــارع قصـــر النيـــل، فذهبنـــا في الصبـــاح التـــالي إلى هــذا العنـوان حيـث قابلتنـا سـيدة مهيبـة فنظـرت الينـــا وقـــالت: "مـــاهذا ؟ أيـــن الـــبرانيط ؟ هـــل أنـــتن ثـــلاث فقـــط ؟" وبكلمـــة "الـــبرانيط" كـــانت تعـــني الســـيدات القبطيـــات وكـــانت الســـيدة الثالثـــة هـــي اســـتر منقبـــادي ترتـــدي برنيطـــة. والـــبرانيط كـــانت تســـتخدمها الســـيدات اللاتـــي تحـــررن مـــن الحجـــاب منـــذ أربعـــين عامـــاً. فأجـــابت خـــالتي: "نعـــم صحيـــح أننـــا ثـــلاث ولكـــن كـــل منـــا تســـاوي ألفـــاً". وكـــان يوجـــد المئـــات مـــن الســـيدات في هـــذا المـــنزل كلهـــن يلبســـن الحجـــاب ، فوقعنـــا علـــى الإحتجاجـــات المُعـــدة وخرجنـــا في مظـــاهرة كبـــيرة حـــاملين الأعـــلام والشـــعارات، وبعـــد مســـافة قصـــيرة أوقفنـــا الجنـــود الأنجلـــيز وأحـــاطوا بنـــا مُوجهـــين بنـــادقهم بحرابهـــا الينـــا، وبدأنـــا نعـــترض محتجـــين علـــى هـــذا التصـــرف فقـــالت إحـــدى الســـيدات مشـــيرة إلى صدرهـــا: "اقتلونـــي إن أردتم ولكـــن كـــل مـــا تفعلونـــه أنكـــم ســـتجعلونني ممرضـــة كـــافل Nurse Cavell أخـــرى".

---

* "ايدث كافل" ، كانت ممرضة تعمل بمستشفى في بروكسل ببلجيكا أثناء الحرب العالمية الأولى وعندما أحتلت المانيا بلجيكا بعض جنود الحلفاء على الهروب الى هولندا فحكم الألمان عليها وأعدموها وأجمع العالم على اعتبارها شهيدة.

استقبال صفية هانم زغلول في منزل فهمي بك ويصا بالاسكندرية



صفية هانم زغلول في الوسط، السيدة استر أسفل الدرج الأول مع المؤلف حيث كان عمره ثلاث سنوات ونصف، وتقف بجانب المؤلف دوسه وتحمل صحبة ورد وعلم صغير ثم جميل ويلبس ملابس بحارة وفي يده علم، وبعض أفراد العائلة والاصدقاء

(والشيء الملاحظ ان بعض السيدات اللاتي كن يرتدن الحجاب مازلن يحتفظن به فوق اكتافهن)

اجتماع نسائي بمنزل فهمي بك ويصا بالاسكندرية



تلقي كلمة الجلسة السيدة هدى شعراوي باشا رئيسة الحركة النسائية بمصر
وتجلس السيدة استر وهي تنظر اليها مستمعة لكلمتها

وبعد أن أوقفونا لمدة ساعة تحت الشمس الحارة سمحوا لنا بالتفرّق والعودة إلى بيوتنـــا، وفي نفـس المساء زارتني ثلاث سيدات فضليات: حرم رياض باشا، وحرم عمر سلطان باشا، وحرم أبو أصبع بك، وعبرن عن إعجابهن بموقفي أمام الجنود الإنجليز، وطلبن مني أن أنضم اليهن في قضيـة تحريـر مصـر، وفي اليوم التالي قُمن بتقديمي إلى السيدة هدى شعراوي، وقررنا أن نُشكل لجنة تمثل نساء مصـر لنعمـل جنباً إلى جنب مع الوفد، وعقدنا اجتماعاً كبيراً في الكنيسة المرقسية فيما بعد لأن الاجتماعات السياسية كانت محظورة فكان هناك حوالي ثلاثـة آلاف امـرأة صوتـن لصـالح اللجنـة وتم انتخـاب السـيدة هـدى شعراوي رئيسة للجنة وفكرية حسني، وإحسان القوصي وأنا لسكرتارية اللجنة.

بدأنا عملنا بإرسال الإحتجاجات، وكتابة المقالات في الصحف اليومية، وكان لعملنـا قيمـة عظيمـة، وبعـد الإفراج عن سعد زغلول باشا من مالطة عقدنا اجتماعاً كبيراً احتفالاً بعودته والترحيب به وبرفاقه وحـين وقفـت فكرية حسني لتلقي خطابها وحيث إنها كانت محجبة قـام سـعد زغلـول ورفـع عنهـا الحجـاب، ومنـذ ذلـك الحين كانت النساء تتجول بلا حجاب: وفي يوم آخر كنا مدعوات في مسـجد لاجتمـاع سياسـي آخـر، وألقينـا الخطب هناك، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها النساء إلى المسجد مـع الرجـال. وحـين نُفـي سـعد زغلول باشا وثلاثة قادة آخرون إلى سيشل كتبنا عـدة احتجاجـات إلى اللـورد اللنـبي نُدافـع فيهـا عـن قضيتنـا ونطالب بالإفراج الفوري عن زعمائنا: وحين قُبض على أعضـاء آخريـن في الوفـد وحُكـم عليهـم بالسـجن مـدى الحياة وحيث كانوا يقاسون من ظروف قاسية كتبنا إلى اللورد اللنبي نُوضح هذه الحقائق ونُطـالب أن ينقلـوا إلى أماكن أكثر راحة، فأمر أن ينقلوا على الفور إلى أماكن أخرى ذات أحـوال أفضـل، وهنـا يجـب أن أعـترف أن اللورد اللنبي كان مهذباً جداً معنا في ذلك الوقت، وغالباً ما كان يّرد على رسائلنا بخط يده ومازالت بعض هـذه الخطابات موجودة في حوزتي.

عندئذ بدأنا نحن النساء في تكوين جمعيات للرعاية الإجتماعية، وإحدى هذه الجمعيات تم إفتتاحها في إبريل عام ١٩١٩م تحت اسم "جميعة المرأة الجديدة" وهي لا تزال قائمة للآن وبها مدرسة وورشة خيريـة ومركـز تدريـب للممرضات وهذه الجمعيات تُعد الآن بيتاً للمسنين والمعوقين، وفي عام ١٩٢٣م تم افتتاح " الإتحاد النسـائي" تحـت قيادة السيدة هدى شعراوي واشتركت في العديد من المؤتمـرات العالمية، وهـذه الجمعيـة بهـا أيضـاً مدرسـة وورشـة خيرية وهي لا تزال تقدم بعض الأعمال الإجتماعية الجيدة إلى الآن.أما جمعية "مبرّة محمد علي" فقد تم افتتاحهـا في عام ١٩٠٨م، ولها عدد من المستشفيات في المدن الكبـيرة والأقـاليم وبالإضافـة لهـذا، فقد تم تكويـن العديـد مـن منظمات الرعاية الأخرى ويوجد الآن أكثر من مائة وخمسين جمعية نسائية خيرية مختلفة، علاوة علـى كثـير مـن الجمعيات الأخرى حيث تعمل المرأة جنباً إلى جنب مع الرجل.

عندئذ فتحت الجامعات أبوابهـا علـى مصراعيهـا أمـام الفتـاة المصريـة، ولدينـا ألـوف مؤلفـة مـن خريجــات الجامعــات، منهــن الآن الطبيبــات والمحاميــات والمدرســات والنــاظرات والمهندســات والصيدلانيّات والزراعيّات والموظفات المدنيّات .. ألخ. ويوجد كذلك وزيرة في مجلس الوزراء بفضل ثـورة ١٩٥٢ م بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، ما أكبر الفارق بين امـرأة اليـوم وامـرأة الأمس حـين كـانت الفتاة ذات العشرة أعوام تُنزع من المدرسة وتمكُث في المنزل حيث كانت لا ترى أي رجال باستثناء أبيها وأخوتها، وكانت لا ترى خطيبها إلا عشيّة الزواج، أما الآن فقد اختلفت الأوضاع فهي تذهـب إلى كـل

مكان، وتقابل الرجال، وتعمل جنباً إلى جنب معهم وتذهب إلى كل مكان مع خطيبها، كل هذا التحول جاء نتيجة مشاركتها في ثورة ١٩١٩ م، ومن الخطوة الأولى التي اتخذتها في المظاهرة مُرتدية الحجاب في شوارع القاهرة ومطالبتها بالاعتراف بحقوقها وحريتها، لذلك فالآن تتمتع نساء مصر بالحقوق الكاملة سواء كانت مدنية أم سياسية كما يتضح من عدد المُنتخبَات كأعضاء في البرلمان.

يوجد نقطتان ذُكرا في حديث استر تثيران التفكير وأنا لا أعتقد أنها كانت تريدنا أن نُمعن التأمل فيهما حيث أنها قصّت فقط ما حدث، وسأحاول أن القي الضوء عليهما، لأني أرى أنهما في غاية الأهمية بالنسبة للمرء الذي يحاول أن يفهم تاريخ مصر في القرن العشرين: النقطة الأولى هي أن حديث استر يعطينا الانطباع أن ترك الحجاب وتحرير المرأة إنما حدث مصادفة وكنتيجة مباشرة لثورة ١٩١٩ م وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد ما لأن ثورة ١٩١٩ م أعطت المرأة الفرصة لتعبر عن رأيها علانية، وهكذا تفكّكت أغلال مجتمعها التقليدي.

فالفكر المستنير في البلاد كان يؤيد تحرير المرأة وتحسين مصيرها قبل ثلاثين عاماً على الأقل من إجازة الرجال بحدوث ذلك، فكثير من المصريين تأملوا وناقشوا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحسين الظروف التي تعيشها المرأة المصرية بصفة عامة والمرأة المُسلمة بصفة خاصة، فأيدوا ضرورة التغيير، وذلك عن طريق الارتقاء في بعض نواحي التخلف التي تتسم بها حياة المرأة المصرية، ومما لا شك فيه أن الإسلام كان أكثر تقدماً من بقية العالم فيما يتعلق بحقوق المرأة في إدارة أمورها المالية قبل وبعد الزواج، وهذه الحقوق مُقدسة إلى حد بعيد في حين أخضعت كثير من الحضارات حقوق المرأة في الملكية لزوجها، على أن الانتقاد كان يكمُن في معظم الأحيان في عزل المرأة ومكانتها الزوجية وطريقة تربية أبنائها. واتبعت المرأة القبطية بدورها عادات الأغلبية فكانت لا تُرى في الأماكن العامة ولكن إختلطت في نطاق ضيق ومحدود، فمع أن العقائد الدينية لم تُقيدها إلا أنها كانت محافظة في سلوكها حسب التقاليد المتبعة، ومع هذا وتحت تأثير الإرساليات الأمريكية والثقافة الغربية والتعليم، استطاعت أن تترك الحجاب في معظم أنحاء مصر مع نهاية القرن التاسع عشر، أما فيما يتعلق بمكانتها الزوجية وطريقة تربية الابناء فلم توجد أي مشاكل لأن تعدّد الزوجات والطلاق لا وجود لهما.

ومع هذا فإن التقاليد كانت قوية جداً لدرجة أنه في بعض أنحاء الصعيد ظلت المرأة المسيحية تُغطي وجهها حين تتجول في المدن الداخلية حتى أواخر الثلاثينيات وظلت في الأربعينيات لها دور منفصل عن الرجل في حياة

المجتمع المصري. وقد عبّر أحد القضاة وهو "قاسم أمين" الذي كان صديقاً لسعد زغلول عن هذه الأفكار في كتابه في عام ١٨٩٩ تحت عنوان " **تحرير المرأة** " فنزل هذا الكتاب على الرأي العام كالصاعقة، وهاجمه المتمسكون بالتقاليد وأنتقدوا أفكاره هذه ووصفوها بأنها تدنيس للمقدسات، ومع أن سعد زغلول وأمثاله تعاطفوا مع أفكاره مؤمنين بأن الدولة التي تتطلع إلى الحرية لا يمكن أن تحقق ذلك ونصف سكانها مقيدون ولا يستطيعون التعبير عن رأيهم إلا أنه لم تُتخذ أي خطوات عملية لتحويل الوضع، فكتب هؤلاء الكتّاب أنه ينبغي على المصريين أن يحرروا أنفسهم أولاً قبل أن يحاولوا تحرير بلدهم وحيث ان الإنسان هو نتاج أمه فإن المرأة التي تولد جارية وتقبل مصيرها بلا احتجاج لا يمكن أن يُتوقّع منها إلا أن تُربي ابنها على العبودية.

بالرغم من أن هذه الأفكار التي زرعها قاسم أمين واتباعه ومنهم بعض النساء مثل الشاعرة "ملك حفني ناصف" الملقبة "بباحثة البادية" الا انها لم تزهر حتى ثورة عام ١٩١٩ عندما أسر عقول الشعب زعيم وطني ساحر وهو سعد زغلول باشا ملهماً المرأة للمشاركة في الكفاح الوطني من أجل الإستقلال وقد استغلت المرأة في نفس الوقت الأزمة السياسية في البلاد في تحقيق أهدافها والتعبير عن تطلعاتها، وحتى بعد هذا استغرق الأمر سبعة وثلاثين عاماً من الكفاح الطويل الشاق حتى حصلت المرأة على حقوقها السياسية التي منحها إياها زعيم وطني ساحر آخر وهو الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر" في عام ١٩٥٦م والذي عقد في عام ١٩٦٩ م مؤتمراً للاحتفال بمرور خمسين عاماً على تحرير المرأة المصرية وتخليصها من الحجاب، ودعيت وفود من الحركات النسائية العالمية وكان من بين المتحدثات ممثلات لبنان والسودان والكويت والعراق وسوريا، وألقت مس **إيفا بلومر** ممثلة الإتحاد النسائي العالمي بعض الأحاديث، وكذلك فعلت السيدة **مارجريت كيرت آشلي** (الرئيسة السابقة للإتحاد النسائي العالمي) وصديقة السيدة هدى شعراوي (مُؤسسة الإتحاد النسائي المصري)، وكذلك ألقت السيدة **أمينة السعيد** – الكاتبة المعروفة – بحديث عن كيف ثابرت المرأة المصرية إلى أن حصلت على حقوقها السياسية.

في هذا الاحتفال كرّم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أربعاً من النساء العديدات اللاتي اشتركن في ثورة ١٩١٩ م من أجل الإستقلال بوسام الكمال، وهؤلاء هن: هدية بركات، وإحسان القوصي، واستر فهمي ويصا، وجميلة عطية، وحضرت السيدات الثلاث الأخيرات الحفل أما الرابعة السيدة هدية بركات فلم تحضر حيث أنها توفيت في صباح ذلك اليوم.

---

* كان يوجد في مصر ثلاثة أنواع من الحجاب وهم ١– اليشمق : وهو عبارة عن قطعة من القماش الخفيف لونه أبيض وكان ترتديه الاميرات والسيدات اللاتي ينتسبن الى العائلات التركية. ٢– البيشه : وهي قطعة من القماش الخفيف لونه أسود ترتديه السيدات من الطبقة المتوسطة من المصريات. ٣– البرقع : ترتديه السيدات من عامة الشعب وكان يعلوه قطعة نحاسية أو من الذهب تصل بين البرقع وغطاء الرأس وتُسمى قصبة البرقع.



البرقع والقصبة على وجه المصرية، ثم المنديل أبو أوية والملاءة اللف
كانت هي الزي الغالب في الأحياء الشعبية
عن مجلة المصور في عددها الصادر بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٩٢



قاسم أمين .. قرع الأجراس، وجاهد في بداية القرن من أجل البنت المصرية، وأثمر كفاحة
عن مجلة المصور في عددها الصادر بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٩٢

تلك هي الظروف التي اندفعت فيها استر في العاصفة السياسية في ١٩١٩ م التي كانت تطالب باستقلال مصر والوحدة مع السودان ونتيجة هذا تطور اهتمامها بتحرير المرأة ومطالبتها بالتصويت كذلك تطوّرت أيضاً مشاركتها في الشئون الاجتماعية والعامة.

وقبل عام ١٩١٩ وبالرغم من اهتمام استر بالسياسة بسبب والدها أخنوخ فانوس إلا أنها لم يكن لها دور نشيط في عالم السياسة لأنه كان جزءاً من عالم الرجل فلم تتصور في ذلك الحين أن السياسة كانت نداء واجبها، ومع هذا فقد كانت لها آراء واضحة صريحة مبنية على المُثل العليا، وعلى استعداد أن تؤيد أي قضية متى شعرت أنها عادلة، ومن ثم فحين طُلب منها أن تنضم إلى الكفاح من أجل الإستقلال اندفعت إلى المقدمة، وحدث أن أصيب أخنوخ والدها بالشلل في عام ١٩١٢ قبل زواجها وقيل أنه قد أرهق صحته في الأمور السياسية في ذلك الوقت، ومات في ١٩١٨ م فرأت في سعد زغلول أباً رمزياً ومناضلاً مثالياً على أتم الاستعداد أن يضحي بكل شئ من أجل مبادئه، ولا يمكن أن يخطئ أبداً في نظرها.

أما النقطة الثانية التي ذكرتها استر في حديثها والتي تحتاج إلى تدقيق، هي أن سعد زغلول ورفاقه وجّهوا الدعوة إلى المصريين الأقباط ليتحدوا معهم في مطالبتهم بالاستقلال، وكثيراً ما كنت أقرأ مراراً وتكراراً كلما كانت هناك مشاكل طائفية في البلاد عن قوة وحدة الأقباط والمسلمين أثناء ثورة سنة ١٩١٩ تحت قيادة سعد باشا زغلول. ولكن لا يبدو أن أحداً كان يهتم بأسباب وجود مثل هذه الوحدة، وربما تكون هناك مقالات قد كُتبت حول هذا الموضوع لم يقع نظري عليها، ولا شك أن الكثير يمكن أن يكتب عن هذا الموضوع حتى الآن، وليس لي إلا أن اعترف أنني لم أتعمق كثيرا في هذا الموضوع، ولكني أشعر وأنا أراقب السياسة المصرية من بعيد من خلال خبرتي الشخصية ومن خلال معلوماتي البسيطة عن السلوك الانساني، أن الأقباط قد قاموا بمؤازرة ثورة سنة ١٩١٩ بكل قلوبهم *لأنهم قد تمت دعوتهم للقيام بذلك.*

أصبح الأقباط أعضاء مُشاركين في الصراع من أجل مُستقبل بلدهم الحبيب، بل أصبحوا شُركاء معبرين باقتدار، بينما كانوا في الماضي مُجرد مُتفرجين متلعثمين، وشعروا أن الأمر لم يعد مجرد سماحة من الأغلبية تجاه الأقلية بل تعدّاه إلى توجّه الأغلبية إلى الأقلية ومطالبتها بالإتحاد معها تحت لواء واحد والكفاح من أجل هدف مشترك، وهو ما استجابت له الأقلية بكل حماس، على أن بعض الساخرين والطاعنين، كانوا يميلون إلى القول بأن سعداً شعر بأنه هو نفسه أقلية عند تعامله مع الأغلبية من كبار الساسة الذين برزوا من الأسر التركية الشركسية المتفرنجة، الذين هم من الحكام بالمولد، والذين ربما كانوا ينظرون اليه من أعماقهم باحتقار فسعد باشا في رأيهم كان مجرد فلاح صعد الى القمة بقدراته

الخاصة كما فعل كبار ملاك الأراضي الأقباط الذين ارتبطوا به وآزروه، والذين لم يتوقف بهم الأمر بدعم مكانته كأتباع له فحسب، بل تعدّاه إلى المساعدة على ملء خزائن حزبه، وفي نفس الوقت كان هؤلاء الساخرون يقولون أن المصالح الشخصية لملاك الأراضي الأقباط، وليست وطنيتهم، هي السبب وراء حماسهم فقد كانوا يرغبون في التمسّك بأي مزايا أو تأثير لهم في البلاد وزيادتها عن طريق ارتباطاتهم بسعد زغلول. لكن واقع الأمر أن الأسباب الحقيقية لم تكن بهذه الدرجة من السخرية، بل كانت أعمق من ذلك، إذ قد أحس كبار ملاك الأراضي وأتباعهم الذين انضموا لحزب الوفد بالفخر عندما رأوا أنهم مطلوبون ومقبولون كأعضاء نافعين في هذا المجتمع [٧٤]، فساعدوا الحكومة على الإرتقاء بأحوال البلاد وتحسينها عن طريق التجانس مع الأغلبية في نسيج واحد يكوّن العائلة المصرية الواحدة التي تنعم بالسعادة، وأصبح شعار الأمة وهو "الاتحاد قوة" مبعث شعور جديد يثير البهجة في نفوسهم.

لعلّنا جميعا قد سمعنا عن مبدأ "فرّق .. تسُد" الذي ابتكرته الإمبريالية الغربية التي لم تكن غريبة على السياسة البريطانية أثناء احتلالها لمصر ولأماكن أخرى من العالم، فقبل سنة ١٩١٩ كان الأقباط يساهمون في الحكومة كأفراد، ولكن ليسوا ككتلة واحدة، لذلك كان أغلب من يحصل منهم على وظيفة يوضع في منصب مُعيّن، ولم يتحقق لهم مطلقا الشعور بأنهم جزء من الكيان المكافح من أجل رفاهية البلاد، والمناضل من أجل نفس القضية.

ففي ثورة ١٩١٩ شعر الأقباط أنهم محسوبون ضمن قوّاد البلاد لدرجة أنه عندما اختلف الساسة السابقون مع سعد زغلول وحزب الوفد وقف القادة الأقباط وقفة قوية بجانب سعد وآزروا حزب الوفد لسنوات تالية.

لم يحدث في التاريخ المصري أن كانت البلاد بمثل هذه القوة من جميع النواحي مثلما كانت عندما توحدت تحت قائد واحد، فالإنجازات المعمارية الهائلة مثل الأهرامات التي شُيدت عندما إتحدت البلاد أثناء المملكة القديمة، وبغض النظر عن احتمال مُعاناة الشعب في تلك الفترة واحتمال أن يكونوا أسعد حالا بانشغالهم في عمل شئ آخر، إلا أنه تظل الحقيقة في أنهم كانوا متحدين في جهودهم لبناء مقابر ملوكهم الفراعنة الذين كانوا يُمثلون آلهتهم على الأرض.

هناك مثل يقول: "أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب" هذا هو رد الفعل الطبيعي في

---

[٧٤] أنظر ملحق رقم ١: خطاب من سعد زغلول إلى جورج خياط.

الأزمات، حيث يتصالح الأقارب معاً ويدفنون الفؤوس مع الضغائن التي بينهم للوقوف معاً ضد الأعـداء، ولكـن ما أن تنتهي الأزمات مع هؤلاء الأعداء حتى تعود الفؤوس إلى الظهور ويعود الأقارب إلى التصارع من جديد فيما بينهم. وهذا المثل ينطبق بشكل كبير على ماحدث فيما بعد بالنسبة للتطور السياسي في مصر. كما أن فكرة القوة الناتجة عن الاتحاد عند مجابهة إحدى المشاكل يمكن متابعتها في سير تاريخ الأمم. ففـي القـرن الحـالي كـان الاتحاد السوفيتي السابق قوياً في مواجهة العالم الخارجي، عندما كان دولة موّحدة بالرغم مـن المصـاعب الماليـة أو الحياة الكئيبة التي كانت تخيّم على الشعب بالمقارنة بالراحة والرخاء في الغرب. ونفـس الشئ ينطبـق علـى يوغسلافيا التي كانت تظهر موّحدة وقوية تحت قيادة " تيتو" مما مكّنها من تحمّل الضغوط سواء من الشـرق أو الغرب. ولكن مع تفككها لا يمكن للإنسان إلاّ أن يلاحظ ما يحـدث اليوم ليوغسـلافيا السـابقة. وقبـل الحـرب العالمية الثانية كانت ألمانيا قويّة عندما كانت موّحدة، مما كان أحد الأسباب التي دفعـت الحلفـاء إلى تقسيمها إلى دولتين بعد الحرب.

ونفس الشئ يمكن أن يُقال عن اسرائيل، فالشعب الاسـرائيلي يمكـن أن تحـدث خلافـات فيمـا بـين أحزابه، ولكن سرعان ما يلتئم شمله في الأزمات، وقوته تكمُن في وحدته عند مواجهته لـمن يعتـبره عـدواً له. وما ينطبق على الأمم ينطبق أيضا على الأفراد والأسر، فقد تمكّن الأخـوان ويصـا مـن تكويـن الـثروة عندما كانا مُتحديْن، ولكن ورثتهما تمكنوا من تبديدها بسرعة عندما اهتـم كـل منهـم بنفسـه، وذهـب في طريقه وحيداً يتنازع أحيانا على تفاصيل تجزئة التركة.

كانت التطورات السياسية التي حدثت في مصر بعـد زيـارة سـعد زغلـول ورفاقـه لسـير "ريجنـالد ونجـت" المندوب السامي البريطاني متلاحقة وغير متوقعة من جانب المؤسسة البريطانيـة في مصـر أو الساسـة في هوايـت هول (مقر الحكومة البريطانية)، فقد كانوا جميعاً غير مستعدين لتقبلها، وإبان سنوات الحرب كانت الحكومـة المصرية مشغولة بمساعدة المجهود الحربي البريطاني وتدير أمور الحكم بهـدوء، وتحـافظ علـى الوضـع القـائم، وكان المجلس التشريعي قد تم حله في عام ١٩١٤ وكانت البلاد تُحكم بمرسوم له قوة القـانون، حيـث إنـه تم منع تكوين الأحزاب السياسية، فإن كل الطموحات بشأن تعديل العلاقة بين مصر وانجلترا قد تجمدت، ولكـن هذا لا يعني أن المصريين كانوا قد يأسوا من فكرة الاستقلال، لقد ساعدوا انجلترا لأنهم آمنوا أنها ستساعدهم في التخلّص من الحكم التركي البغيض، وشجعت مبادئ السلام التي أعلنها الرئيـس ويلسـون في خطتـه المشـهورة ذات الأربعة عشر بنداً بما فيها حق تقرير المصير لكل جنس وقبيلة بعد الحرب التي شجعت المصريين بأن هذه المبـادئ سـتطبق عليهـم لا جـدال فتطلعـوا إلى التحـرر مـن كـل تدخـل والعيـش في حيـاة سـعيدة بعـد نصـر الحلفـــــاء، وحين دُعي العرب في مؤتمر السلام العالمي لإعلان شكواهم وعرض قضيتهم شـعر المصريـون أنهـم

ليسوا أقل شأناً من العرب، ومن ثم يجب أن يُمنحوا نفس الفرصة.

لم يحاول سعد زغلول من ناحيته إثارة الشعور العام ضد الانجليز أثناء سنوات الحرب بل على النقيض من هذا حاول مراراً أن يمنع أية أعمال مُتطرفة فكّر فيها المتهورون من الشباب للتعبير عن السخط العام من الإحتلال، فلقد سَئِم المصريون أن يحركهم الأجانب في بلدهم ويتدخلوا في شئونهم اليومية.

وفي نفس الوقت حين كان سعد زغلول يكبح جماح المتطرفين كان يعمل وسط المصريين المتعلمين محاولاً أن يحصل على مطالبة قوية متحدة لمراجعة جذرية للعلاقات الإنجليزية المصرية بعد الحرب، لم يكن سعد وطنياً فحسب بل محباً للإنسانية، وكان يحب الحيوانات وعبر عن معتقداته بعبارات بسيطة ولكنها مصورة حية تعجب الانسان العادي، وذات مرة قال لصبي كان يضرب حماره: "الحيوانات لا تستطيع أن تتكلم ولكنها تفهم، في حين ان الأنسان يستطيع أن يتكلم ولكنه لا يفهم في بعض الاحيان". وحين عرض سعد زغلول ورفاقه مطالبهم على "سير رجينالد ونجت" حاولوا أن يكونوا مُهذبين صريحين، وأعلنوا أنهم يعتبرون انجلترا أكثر القوى سمواً وحرية ومن ثم فإنهم يطلبون صداقتها باسم مبادئ الحرية التي قادت سياسة ما قبل الحرب، وعندئذ بدأوا يعرضون الطموحات المصرية فلم يصدق سير ريجنالد أذنيه بأنهم قد كونوا برنامجاً كاملاً لاستقلال مصر معطين بريطانيا العظمى الحق في الإشراف على ديون البلاد، وتسهيلات خاصة فيما يتعلق بقناة السويس.

لم يعتبر المندوب السامي سعد زغلول ورفاقه مُتحدثين عن مصر طالما أن هناك حكومة مصرية ورئيس وزراء في ذلك الوقت الذين كانت مطالبهم أقل شدة، وفي الحقيقة لم تكن للحكومة أية مطالب محددة، ولكنها عبرت في نفس الوقت عن رغبتها في إعادة فتح مسألة تفسير الحماية بالمفاوضات بأسرع وقت ممكن فقد فُهمت الحماية انها مؤقتة ضمناً حين قبل السلطان حسين السلطنة كما ذكر آنفاً. أجاب سير رجينالد على سعد قائلاً أنه ليس في موقف يستطيع فيه أن يعلن نوايا حكومة صاحب الجلالة، ومع هذا طلب سعد أن يُسمح له في غضون أيام قلائل بأن يسافر إلى لندن مع رفاقه ليقدموا القضية مباشرة لحكومة صاحب الجلالة، وحين رفض هذا. أقترح رئيس وزراء مصر حسين باشا رشدي أن يسافر هو وزميله عدلي باشا يكن إلى لندن لمناقشة المسألة المصرية مع* الحكومة البريطانية، ومع أن هذا الاقتراح الثاني أوصى به المندوب السامي إلا أن "هوايت هول" رد بأنه لايرغب في إجراء محادثات مع أي وزراء مصريين بأي حال من الأحوال حيث إن الوقت لم يكن ملائماً.

---

* مركز الحكومة البريطانية في لندن.

إن الحجة القائلة بأن سعد زغلول لا يمثّل الشعب المصري أصبحت الآن باطلة حيث أن الحكومة البريطانية لا ترغب في إجراء مفاوضات مع رئيس وزراء مصر نفسه وفي واقع الأمر فانهم لم تكن لديهم الرغبة في التفاوض مع أي فرد، ومثل هذا الموقف الذي تبنته بريطانيا لم يعمل إلا على تدعيم وضع سعد في عيون المصريين، فأصبح هو بطلهم والقِبلة التي يتجه نحوها كل فكر وطني.

تم تشكيل لجان محلّية في القرى والمدن حيث قدم الناس مظالمهم، وألقوا اللوم على الأنجليز وحربهم التي تسببت في زيادة الأسعار ونُدرة السلع، وتدهورت كفاءة الموظفين الانجليز في الإدارة مع زيادة أعدادهم. وفي حين كان الأنجليز يوماً ما حكاماً يهابهم الشعب، ويحترمهم، أصبحوا الآن فئة مستغلة يخافهم الشعب ويكرههم [٧٥] وشعر المصريون أنه يتم استنزافهم، أما بريطانيا فلم تدرك عمق الفكر السياسي وتغير الرأي في مصر الذي حدث في البلاد منذ وفاة مصطفي كامل في عام ١٩٠٧ ونهاية الحرب في عام ١٩١٨م.

كان مصطفي كامل حالماً هادفاً إلى كسب تعاطف صفوة المتعلمين والحصول على موافقة الرأي الوطني والعالمي. في حين لمس سعد زغلول قلوب المصريين أنفسهم وشجّعته في ذلك زوجته ورفيقته صفية هانم، التي اعتبرتها الحركة النسائية الآخذة في الظهور زعيمة لها، وبالإضافة لهذا تطلع الشعب المصري مع مجيء عام ١٩١٨ إلى التغيير، ولكنهم لم يتخيلوا كيفية حدوثه، لقد كانوا يحتاجون زعيماً يُنير لهم الطريق يستطيعون فهمه كواحد منهم ويرتبطون به، زعيماً يتحدث بنفس لغتهم وله نفس أفكارهم. لم تخلُ مصر من القادة والسياسيين بل كان هناك ساسة وقادة في مصر أذكياء ومثقفون ومتمكنون ولكنهم كانوا أقرب إلى الطبقة المثقفة والصفوة في المجتمع عن رجل الشارع أو الفلاح أو الأفندي الصغير، وعلى الرغم من أن هؤلاء الساسة كانوا مخلصين وكرسوا أنفسهم للقضية الوطنية، إلا أن الجماهير لم تقدرهم، لقد كانوا أجانب بالنسبة للرجل العادي، ينتمون إلى طبقة أخرى من الأتراك والشراكسة وليسوا مصريين، أما سعد فقد كان له سحر خاص لدى الجماهير تماماً مثلما كان دعاة الثورة الفرنسية بشعارهم: الحرية، والمساواة، والإخاء يجتذبون الجماهير في شوارع باريس.

بالنسبة لهم كان سعد فلاحاً نجح ووصل إلى القمة، كان يفهم مشكلاتهم لأنه عاش وسطهم فقد كان واحداً منهم، في طفولته كان يذهب إلى الكتّاب حيث تعلم القراءة والكتابة، ونظراً لنبوغه فقد التحق بمسجد حيث أتقن حفظه للقرآن، وهو أحد المصادر التي منحته إجادة كبيرة لقواعد النحو والصرف والأدب العربي، وبفضل

---

[٧٥] من نابليون إلى ناصر – رايموند فلاور – ص ١٣٥.

مثابرته وعمله الجاد التحق بالأزهر الشريف حيث تأثر بتعاليم بعض المصلحين مثـل الشيخ محمـد عبـده، وفي سن الواحدة والعشرين أصبح محرراً في الجريدة الرسمية التي لم تكن مقصورة في ذلك الوقت على نشـر القوانـين والمراسيم، ولكنها شملت أيضاً جزءاً يُعبر فيه الكتّاب والمفكرون العظام عن رأيهم، وفي عام ١٨٩٢ عُين مستشارا في محكمة الإستئناف، وحيث إن القانون المصـري كـان مسـتمداً مـن قـانون نـابليون، فقـد قـرر أن يتقـن اللغـة الفرنسية التي بدأ يتعلمها في سن الأربعين لكي يحصل على شهادة في القانون من فرنسا، وبعـد أن ارتقـى سـلم النجاح وتزوج صفية ابنة رئيس الوزراء آنذاك مصطفى فهمي باشا، عّينه اللـورد كرومـر وزيـراً للمعـارف في عـام ١٩٠٧ الذي قال في خطبة رحيله عـن مصر "نظـراً لمقدرتـه وإخلاصـه وصراحتـه وشـجاعته – إن لم أكـن قـد أخطأت – فإني أتنبأ لسعد باشا بمستقبل مشرق"، وفعلاً لم تخطئ نبـوءة اللـورد كرومـر بالنسـبة لاتبـاع سـعد والمعجبين به وبسياساته بين ١٩١٨ و١٩٢٧.

ومع أنه كان فقيراً في بدايات حياته، إلا أن كفاءة سعد وشخصيته ونجاحه جعلته مقبـولا اجتماعيـاً وسياسـياً بالنسبة للشخصيات البارزة في المجتمع المصري، فقد كانت حياة سعد باشا بـين عـامي ١٩٠٧ و١٩١٢م روتينيـة، ومع أنه قد حقق الكثير في الادارات التي كان مسئولا عنها سواء كوزير للمعارف أو كوزير للحقانية، إلا أنه لم تكن الأضواء مُسلطة عليه بصورة خاصة، ولكنه حين استقال من منصبه كوزير للحقانية في عـام ١٩١٢م لأسـباب تتعلـق بالمبدأ، حيث إنه رفض الإذعان لأي ضغط من الخديوي أو كيتشنر عندئذ أصبح محوراً للاهتمـام وارتفـع في عيـون بعض أعضاء الحزب الوطني الذين كانوا يعاملونه بارتياب في الماضي بسبب أفكاره المعتدلة.

وربما تكون إحدى نقاط ضعفه هي عدم رحابة صدره وسماحة نفسه نحو أولئـك الذيـن كـان يعتـبرهم أعداءه أو مُسيئين له، وقد أصبح ذلكِ ملحوظاً خلال عمله السياسي بعد ذلك، وهي سِـمة ملحوظـة لـدى كثير من الفلاحين.

رشّح سعد باشا زغلول نفسـه في انتخابـات المجلـس التشـريعي في عـام ١٩١٣، وقـد أدّت فصاحتـه وتفكيره الصافي وخُطبه النارية التي كان ينتقد بها الحكومة والخديـوي إلى تركـيز الضـوء عليـه كقـائد في المستقبل، بينما كان يُنظر اليه سابقا على أنه مُجرد إداري حكومـي أمـين نشـط في عملـه، وأصبـح أمـير الأحلام للجماهير التي توقعت منه تحقيق المعجزات للبلاد كما أصبح القطب الذي انجذبت اليـه لبعـض الوقت الفئات الوطنية من كل لون، ولكن عندما أصبحت هـذه المُعجـزات غـير مُواتيـة تعـرّض للـوم مـن مُعارضيه لكونه متصلباً يحاول أن يكسب من الوضع والظـروف السياسـية في مصـر لبنـاء شـهرته وتتويـج مجده، ولكن على الرغم من مثل هذه الإتهامات، كان سعد زغلول العامل المساعد الذي حطّم الفوارق بين العناصر المُتصارعة المكوّنة لهذه الأمة، وادماجها معاً، وصهرها في حزب سياسي هـو حـزب الوفـد الـذي

تسيّد مسرح الأحداث حتى ثورة سنة ١٩٥٢.

دعونا نعود إلى الأحداث التي كانت تتلاحق كالأمواج، حيث جُمعت توقيعات الأفراد من جميع أنحاء البلاد بموافقتهم على تفويض يخوّل لسعد زغلول ورفاقه السلطة للتحدث نيابة عن المصريين. كذلك جُمعت تفويضات مماثلة من جميع أنحاء البلاد موقّعة من أفراد الأسر البارزة من النساء محدّد فيها أسماء شخصيات نسائية مُعينة لتشكيل لجنة منهن تُعرف باسم لجنة الوفد المركزية للسيدات لتمثيلهن في كل الأعمال الوطنية التي تؤدي إلى الاستقلال التام على مبادئ الوفد المصري (توجد صورة من أحد التفويضات من السيدات البارزات على الصفحة التالية). وهناك قصّة طريفة حكاها لي صديق كانت والدته إحدى الموقعات على هذا التفويض، فقد اعتادت هذه السيدة أن ترسل أخاها الأصغر البالغ من العمر عشر سنوات على حماره إلى سيدات كثيرات للحصول على توقيعاتهن، فقد كان بإمكان هذا الصبي زيارتهن لأنه كصبي صغير كان يُسمح له بدخول أماكن الحريم.

لم تشهد البلاد هذه الصورة من قبل فقد استحوذت على خيال كل الشعب وأصبح من الثابت أن غالبية البلاد تقف خلف سعد زغلول وبناء على توصية المندوب السامي "سير ريجنالد وينجت" وجهت "هوايت هول" الدعوةَ بامتعاض إلى رشدي باشا رئيس الوزراء وعدلي يكن باشا للتوجه إلى لندن وعرض قضيتهم، الا ان البلاد كانت قد وصلت إلى حالة من الغليان، فطلب رشدي باشا ضرورة سفر سعد زغلول في صحبتهم، حيث كان من الواضح أنه لا يمكن تحقيق شئ مقبول للأمة ما لم يكن مصدّقاً عليه من قِبل سعد زغلول، ورأى السير رجينالد وينجت ضرورة وجود سعد زغلول ضمن الوفد، بل تخطى ذلك بسفره شخصياً إلى لندن لشرح الموقف، وعندما رُفض الطلب استقالت الحكومة المصرية ولم يعُد السير رجينالد مرة أخرى إلى مصر.

وافق السلطان فؤاد على استقالة الحكومة في أول مارس ١٩١٩. وحيث إنه لم يكن هناك مصري على استعداد لتشكيل الوزارة الجديدة في ظل الظروف السائدة، فكان على المسؤلين الدائمين أن يتولوا سير الأعمال الحكومية. وكان قد أخذ السير مايلز شيتام القائم بأعمال المندوب السامي، تصريحاً من هوايت هول بترحيل سعد زغلول مع أي من مؤيديه يراه مستحقا للنفي إلى مالطة، ولكن قبل تنفيذ ذلك في ٦ مارس طلب من سعد باشا الامتناع عن إثارة أي مشاكل في المستقبل وأية أعمال عدوانية، وذكـرّه بأن مصر لا تزال خاضعة لقانون الأحكام العُرفية الذي لم يلغ بعد.

أجاب سعد زغلول في اليوم التالي قائلا: "لدينا تفويض من الشعب أن ندافع عن مصالحهم ولا يستطيع أحد غير الشعب سحب هذا التفويض".

لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات

نحن الموقعات على هذا نقر أننا وكلنا حضرات السيدات هدى شعراوي، واستر فهمي ويصا، وشريفة رياض، وروجينا خياط، والفت راتب، ومنيرة عاطف، ونعمت جمال، ونفيسة ابو اصبع، وفايقة فتحي، وحسانه محمد شاكر، وفريده سينوت حنا، وصديقة محمود عزت، وبهيجة تقلا، وعنايات سلطان، وبرلنتا ويصا واصف، والآنسة فكرية حسني، لتشكيل لجنة وفد مركزية للسيدات المصريات للقيام بكل الأعمال الوطنية التي تؤدي إلى الاستقلال التام على مبادئ الوفد المصري، وللجنة المذكورة أن تمثلنا أمام جميع الجهات وأن تضم إليها من الأعضاء من تشاء ممن ترغب في ضمهن معها، ولها أيضاً أن تقوم بجميع الأعمال الإدارية والمالية التي تقتضيها مصلحة العمل.

وقد حرر هذا التوكيل وأمضي منا

صورة من تفويض السيدات في أسيوط لتشكيل لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات

[illegible]
زينب محمد [illegible]
فاطمة الهلالي
مريم محمد باشا محفوظ
نفيسة مريم سيد [illegible]
فاطمة سيد [illegible]
فاطمة علي [illegible]
النبيه محمد الهلالي
والدة [illegible] ثابت بلزادة
والدة [illegible] ثابت بلزادة
عائشة أحمد جمال الدين
[illegible] ثابت [illegible]
[illegible] كريمة محمد ثابت بكزادة

مدام [illegible] موسى
زينب السعيد مريم الدكتور السعيد
فاطمة السعيد كريمة الدكتور السعيد
كريمة السعيد كريمة الدكتور السعيد

باقي صورة الامضاءات من التفويض السابق

كان رد بريطانيا في اليوم التالي هو القبض على سعد باشا زغلول ومعه حمد باشا الباسل، وهو من أقطاب القرويين من أصل بدوي، ومن ذوي النفوذ الملحوظ في الفيوم، واسماعيل باشا صدقي الوزير السابق الذي أصبح في السنوات اللاحقة معارضا عنيفاً للوفد، ومحمد محمود باشا، وهو من خريجي جامعة أكسفورد وأصلا من أسيوط، والذي أصبح أيضا من المعارضين السياسيين لسعد زغلول وحزب الوفد وكوّن لنفسه حزباً خاصاً باسم حزب الأحرار الدستوريين.

كانت النتيجة أنه خلال بضعة أيام اشتعلت البلاد كلها اشتعالاً، وقُطعت المواصلات وأصبحت القاهرة معزولة تماماً عن باقي البلاد، وتم تدمير خطوط السكك الحديدية وخطوط التليفون والتلغراف، وأعلنت بعض الأقاليم استقلالها وعمّت الفوضى كل أنحاء البلاد، كذلك وقعت أحداث مؤسفة على الجانبين، وفي ذلك الوقت قامت المظاهرة النسائية الشهيرة حيث سارت النساء ووجوههن خلف الحجاب يحملن أعلاماً عليها شعار الهلال والصليب يُعلن الوحدة بين طائفتي الأمة – المسلمين والأقباط – مؤكدات لكل العالم أن مصر مُتحدة في مطالبها، وتُعتبر هذه المظاهرة بداية الكفاح النسائي حيث أصبحت المرأة عضواً معبّرا بارزاً، وظهرت لأول مرة على المسرح السياسي. وبهذه المظاهرة كانت استر في المقدمة تواجه الجنود البريطانيين، وذكرت هذه الظروف في حديثها عند الاحتفال بيوبيل تحرير المرأة في مصر في مارس عام ١٩٦٩ [٧٦].

وصل مصر في ٢٥ مارس ١٩١٩ الفيلد مارشال اللورد اللنبي كمندوب سام في مصر وهو من مواليد ٢٣ ابريل ١٨٦١ ، وكان له تاريخ مميز كجندي، واشتهر بأنه رجل صافي الذهن، شجاع، مستقيم، وأمين، ومما يؤسف له أنه في اليوم السابق لوصوله ألقى اللورد كورزون Curzon خطبة وصف فيها الأحوال في مصر على أنها "حالة سلب ونهب أكثر من كونها ثورة سياسية" ثم امتدح تصرّف العديد من المسئولين المصريين الذين استمروا في أعمالهم عندما استقالت الوزارة. وكانت النتيجة المباشرة هي إضراب هؤلاء الموظفين ليثبتوا أنهم لا يتصفون بسهولة الإنقياد كما كان يَعتقد كورزون ومن الشيق أن نلاحظ أن النساء كانت تُشجع هذه الإضرابات وكانت ترابط أمام المكاتب وتتّهم بالخيانة أي موظف يُحاول الدخول للعمل.

---

[٧٦] ذكرت السيدة هدى شعراوي هذه الحادثة في مُذكراتها على أنها هي التي كانت في المقدمة، ولكن وفقا لإثنين من المؤرخين المعروفين هما عبد الرحمن فهمي وعبد الرحمن الرافعي كانت متظاهرة شابة كما ذُكر بهوامش الفصل الأول من كتاب الدكتورة آمال كامل بيومي السُبكي " الحركة النسائية في مصر بين ١٩١٢ – ١٩٥٢ " ص ٣٨.



مصطفى باشا كامل



عدلي باشا يكن



حسين باشا رشدي



محمد باشا محمود

أعلن لورد اللنبي عند وصوله أنه قد تم تعيينه من جانب جلالة الملك كمندوب سامٍ في مصر وكانت نواياه:

أولا – العمل على إيقاف الإضطرابات الحالية.

ثانيا – إجراء تحقيق دقيق في الأمور التي أدت إلى انتشار الاستياء في البلاد.

ثالثا – العمل على إزالة أسباب مثل هذه الشكاوي اذا كان لها ما يمكن تبريره.

لم يحد اللورد اللنبي أبداً عن هذه السياسة، ففي ٣١ مارس وبعد أقل من أسبوع من وصوله، أبرق إلى لندن موصياً بضرورة الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه. وحين استشير وينجت في هذا الأمر اعتقد أن هذا خطأً، إلا أن وزارة الخارجية وافقت على مضض على الإفراج عن المسجونين في ٧ إبريل وسمحت لهم بالسفر إلى أي مكان يريدونه.

انتُقدت توصية اللنبي في ذلك الوقت وبعده، ولم تكن الجالية الأجنبية في مصر متأكدة مما سيؤدي اليه هذا الضعف الواضح من جانب السلطات البريطانية، واعتقد بعض الساسة مثل اللورد لويد "أن هذا استسلام للعنف عندما فشلت الوسائل الأخرى"، على أن اللورد لويد لم يأخذ في اعتباره ان القضية المصرية لم تكن بهذه البساطة ونظر اليها من وجهة نظره الاستعمارية دون الأخذ في الاعتبار ان للقضية وجهتي نظر متناقضتين.

يصف **"الجنرال ويفل"** – في سيرته عن حياة اللنبي – حادثة تلقي بعض الضوء عن شخصيته فيقول: "لاحظ اللورد اللنبي أن أحد موظفيه عندما كان يقدم له تقاريره اليومية كانت تتضمن العبارة الآتية (لصعوبة موقفي) فسأل اللنبي ماذا يعني هذا – (صعوبة موقفه)؟ فأنا لم أكن أبداً في وضع صعب طوال حياتي – لقد كنت أحيانا في أوضاع مُستحيلة ثم خرجت منها بأسرع ما يمكن" ، يستمر ويفل قائلاً: "إن هذه الملاحظة تكشف شخصية اللنبي الكاملة: انها أوضحت قوة ذلك الإنسان الذي كان دائما مُستعداً لمواجهة أي موقف وللاعتراف بصعوبة تنفيذ ما كان يراه ملائما، وكان لديه من الفطنة ما يمكّنه من إدراك استحالة إنجاز مُهمة ما والشجاعة والأمانة للإعتراف بهذا".

أدرك اللنبي أنه على الرغم من تحريض المُهيجين إلا أن مشاعر السخط والإحباط هي التي كانت تَغلي وقد كان لها ما يبررها.

يذكر الجنرال ويفل الحادثة التالية كدعابة عن محادثة بين لورد اللنبي وأحد قادته في مؤتمر عُقد في إبريل عام ١٩١٩م حين كانت تتم دراسة تخفيف العقوبات ومراجعتها:



اللورد اللنبي – المندوب السامي البريطاني ١٩١٩ – ١٩٢٥

اللنبي: سمعت انك تغالي في فرض غرامات إلى حد ما على القرى في منطقتك يا جنرال (س).

جنرال (س) : حسناً يا سيدي، فحين تتصرف إحدى القرى على نحو سئ أفرض عليهـا غرامـة تعـادل ١٠٪ من ضريبة الخفر.

اللنبي: ليس هذا ما سمعته فلقد أُخبرت أنك تَفرض عليهم غرامة تعادل عشرة أضعاف ضريبة الخفر.

جنرال (س) : نعم هذا صحيح عشرة في المائة.

اللنبي: ولكن هذا ليس عشرة في المائة إنه ألف في المائة.

جنرال (س) : حسناً يا سيدي فعلى أية حال هذا ما أسميه عشرة في المائة وحـين أقـول عشـرة في المائـة فإنهم يعرفون مقدار ما يجب عليهم دفعه ويدفعونه في الحال يا سيدي [٧٧].

لقد كان هذا الإحساس الإنساني بالعدل الذي رأته استر في اللورد اللنبي هو ما دفعها إلى اللجوء اليـه مراراً وتكراراً كما يُرى في رسائلها له، ومع أنها لم تتردد أبدا في الإيمان بعدالة قضيتها، إلا أنها قـدّرت قوة شخصية خصمها وأمانته.

استمرت الاضطرابات في جميع أنحاء البلاد لمدة شهرين تقريباً، إلا أنها أصبحت أقل عنفاً بعـد وصـول لـورد اللنبي، والإفراج عن سعد زغلول ورفاقه من مالطة، لقد أدرك لورد اللنبي ما لم يصل اليه المواطن الإنجليزي العادي في مصر وانجلترا بشكل جدّي وهو أنه على الرغم من أن مصر كانت تابعـة لتركيـا، إلا أنهـا كـانت علـى الأغلـب تتمتع بالاستقلال الذاتي منذ أيـام محمـد علـي، وفيمـا عـدا الإتـاوة السـنوية الـتي كـانت تدفعهـا لتركيـا، ونظـام الامتيازات الذي تم التفاوض بشأنه والذي منحته تركيا للأجانب المقيمين في امبراطوريتها، فـإن مصـر كـانت حُـرة فعليا، وطالبت مصر حينئذ باستعادة حقها في الحكـم الذاتـي الـذي تخلّـت عنـه جزئيـا حينمـا أصبحـت محميّـة لبريطانيا وانفصلت عن تركيا في عام ١٩١٤م معلقة مصيرها على الحلفاء. وكانت بريطانيا بممارسـتها هـذه السـيادة الجزئية، قد أشعرت مصر بأن هذا الوضع غير قانوني، كذلـك لم يـدرك الإنجليـزي العـادي حقيقـة أن الإداريـين والوزراء المصريين هم الذين كانوا يمارسون السلطة التنفيذية وينصحهم في هذا المستشـارون البريطـانيون ويدعمهـم في ذلك جيش الاحتلال، وهذا ما جعل البريطانيين هم الحكّـام الحقيقيـين وليسـوا الشـرعيين للبـلاد، وبـدون تعـاون الوزراء المصريين، فإن إدارة مصر كانت ستصبح صعبة جدا ومُكلفة للغاية، ومـن ثـم فقـد كـان لـورد اللـنبي مهتمـاً بوجود وزارة مصرية تحت رعايته في كل الأوقات، حتى وإن كان هذا يعني إقناع ساسة ضعفاء أو رافضين للتعـاون

---

[٧٧] اللنبي الجندي ورجل الدولة – جنرال ويفل – ص ٢٧١.

بأن من واجبهم الوطني أن يتولوا الحكم.

كان لورد اللنبي يُنفذ السياسة التي اعتقد انها ملائمة، فلم يهتم كثيراً بتلك الانتقادات التي وصفته بالضعف من جانب الجالية البريطانية والآخرين الذين خشوا من فقد الإمتيازات التي كانوا يتمتعون بها اذا تخلّت بريطانيا عن سيطرتها أو حصلت مصر على استقلالها.

لم تساعد سياسة "**هوايت هول**" المتذبذبة اللورد اللنبي كثيراً، الذي كان من المفترض أن ينفذ تعليماتها. لقد كانت لديه من القوة تحت سيطرته ما يمكنه من الحصول على طاعة فورية، لكنه أدرك أنه لا يستطيع أن يُسوي المسألة الإنجليزية – المصرية بالقوة الغاشمة. كان يعرف أنه لزاماً عليه أن يُنفذ سياسة مجلس الوزراء، لكنه في نفس الوقت استعان بما لديه من فطنة ومبادئ في ارشاده في تعاملاته مع الموقف فور حدوثه. ويورد جنرال ويفل في كتابه عن لورد اللنبي إحدى العبارات من إحدى رسائل لورد اللنبي إلى أمّه عن إحدى القلاقل في ٢١ مايو ١٩٢١م ففي ص ٢٨٠ يكتب:

"انتظر فرصة ملائمة لأني أريد أن يحدد المصريون سياستهم بأنفسهم ولا أريد أن أتدخل بقواتي ما لم تتعرض حياة الأوربيين أو مصالحهم للخطر".

هدأ الموقف لعدة أيام في مصر عندما تم الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه من مالطة، ووافق رشدي باشا على تولي الحكم مرة أخرى كرئيس وزراء وعلى التعاون مع البريطانيين، بيد أن الوفديين كانوا يطالبون رشدي باشا أن يُصدّق على سياستهم، وتلا هذا صدام بين الحكومة والجماهير، واستمرت الرابطة أمام المكاتب لإثناء العمال عن الدخول، فما كان من رشدي باشا إلا أن استقال مرة أخرى في ٢١ ابريل. فأصبحت مصر بلا حكومة مرة أخرى، وتخلّت بريطانيا عن كل إدعاء بأنها تحكم من خلال المصريين. وأعلن المندوب السامي بمقتضى الأحكام العرفية أن كل الموظفين الذين لا يتواجدون في مكاتبهم في اليوم التالي سيعتبرون مستقيلين. وكانت المدارس مهدّدة بالإغلاق اذا لم يعُد التلاميذ لدراستهم على الفور. وحُكمت مصر بالأحكام العرفية الصارمة لمدة شهر تقريباً، إلى أن استطاع اللنبي أن يُقنع محمد سعيد باشا بتشكيل وزارة، لكن اللنبي كان مقتنعاً الآن بأنه كان عليه إما أن يستسلم لمن كانوا يسمون متطرفين، أو أن يحاول الاستمرار بقدر ما يستطيع مع من كان يعتقد أنهم معتدلون. ومن الملائم أن نذكر السودان الآن باقتضاب، فمنذ إعلان الحكم الثنائي على السودان في ١٨٩٨ قد اعدت انجلترا شروط الحكم بخبث والتي كان مؤداها أنه مقابل السيادة الجزئية لمصر ان تتحمل مصر أي عجز في ميزانية السودان من مواردها الخاصة، أما انجلترا فقد ركزت على مهمتها الوحيدة في تحسين أحوال الشعب

السوداني وشعبيتها الخاصة، وذلك بأن تجعل الضرائب منخفضة، فأصبح النـاس أكثر ثـراءً، وبواسطة تطوير طبقة نصف متعلمة من السودانيين عن طريق إنشاء مدارس التعليم الأساسـي والتعليم الفـني الـذي كانت تقدمه المدرسة العليا لكلية جوردون، فقد وفر البريطـانيون الوظـائف الصغـيرة للسـودانيين لخدمـة الحكومة، وبهذه الطريقة تخلصوا من الحاجة إلى المصريين، ومع أن مصر لم ترض عـن هـذا الوضـع، إلا أنها لم تعترض، فلم يكن في إمكانها أن تفعل شيئا حيال هذا.لأنهـا كـانت تـرى علـى الأقـل أن شـريان حياتها - النيل - لم يكن مُهدداً من جانب أي من القوى الكـبرى، وعندمـا بـدأ البريطـانيون في زراعـة القطن بنجاح، في عام ١٩١١م في سهل الجزيرة بالسودان حاولوا أن يقنعـوا المصريـين في عـام ١٩١٣ بـأن يموّلوا مشروعات الري في أعالي النيل، بزعم أن مصر ستحصل على حصّة أكـبر مـن الميـاه الإضافيـة ممـا يسمح للسودان بزيادة مساحة القطن المزروعة فيه أيضاً، ولأن مصر سوف لا يكـون لهـا السـيطرة بـالفعل على مثل هذه المشروعات؛ فشعرت بأنها مُهـدّدة، ومـن ثـم رفضـت هـذا المشـروع. لقـد شـعرت أنهـا لا تستطيع أن تقدم مبالغ كبيرة من رأس مال ميزانيتها لمشروع يُحتمل أن يصبح تهديداً لها. فشعر الإنجليز أنهم أحرار لا شريك لهم، ومع هذا فعند اندلاع الحرب وزيادة أسعار المواد الخام أوقفت حكومة السودان مشروع تطوير سهل الجزيرة لأن الأمر برُمّته سيكون مكلفاً للغاية ومحفوفاً بالمخاطر، عندئذ انتبهت مصـر إلى التهديد الذي يحيق بالنيل فبدأت تطالب بإلغاء السيادة المشتركة وبالوحدة الكاملة مع السودان.

طموحات مصر ونضالها - سعد زغلول

نعود إلى أحداث عام ١٩١٩ والحركة النسائية التي تلتها، حينما أطلـق لـورد اللنبـي - بـإذن مـن هوايت هول - سراح سعد زغلول ورفاقـه مـن مالطـة في ٧ إبريـل ١٩١٩م بعـد ذلـك ذهبـوا مباشـرة إلى بـاريس ليعرضوا قضيتهم على أعضاء مؤتمر السلام الذين لم يبدوا أي اهتمام بالأمر. وقام سعد زغلـول بزيـارات مجاملـة لكل أعضاء وفود الدول المشتركة، إلا أن البلد الوحيد الذي كلّف نفسه عناء رد زيارته كانت إيطاليا، ومع هـذا لم ييأس بل عرض قضية مصر في التماس كتابي باللغة الفرنسية، وقدّمه إلى البرلـان الفرنسـي الـذي كـان علـى وشك التصديق على معاهدة السلام، وفي نفس الوقت كان يحاول أن ينشر آراءه من خلال وسائل الإعلام. ولكنّه لم ينجح كثيراً في هذا، والنقاط الرئيسية في التماسه نوجزها فيما يلي:

(أ) اتفاقية السلام المقترحة حالياً من الحلفاء مُتعارضة مع كافة بيانات الحلفاء السابقة إبان الحرب الـتي أكسبت الحلفاء تعاطفاً كبيراً في كل أنحاء العالم.

(ب) اقـترحت مصر علـى بريطانيـا عنـد انـدلاع الحـرب، أنهـا مُسـتعدة لتحـارب ضـد ألمانيـا في

صف بريطانيا على الرغم من أن تركيا كانت على الحياد في ذلك الوقت ولكي تتخلّص من تبعيتها لتركيا، فترددت بريطانيا لبعض الوقت ثم طلبت من مصر أن تتخذ اجراءات معينة فنفذتها مصر، وحينما أعلنت تركيا الحرب وانضمت إلى المانيا، دعا الخديوي السابق عباس حلمي - الذي كان في المنفى - المصريين للثورة ضد بريطانيا، فأعلنت انجلترا الحماية على مصر بدون حتى استشارة الشعب المصري.

(جـ) على الرغم مما تقدّم، آمن المصريون بالوعود التي قطعتها السلطات البريطانية، والتي تفيد بأن هذا الوضع مؤقت استلزمته الحرب، ومن ثم فلم تحاول مصر عرقلة المجهود الحربي البريطاني بل على العكس قدمت حوالي مليون و٢٠٠ ألف عامل كانوا يعملون في كل الجبهات، وقد كان هذا عاملاً رئيسياً في الانتصار في الحرب على الجبهة الآسيوية، كما سلم بهذا اللورد اللنبي.

(د) عدّد الرئيس ويلسون أهداف الحلفاء من الحرب في نقاطه الأربع عشرة الشهيرة التي كانت أساس الهُدنة بين المنتصرين والمهزومين.

(هـ) ولم يتم تجاهل هذه المبادئ في معاهدة السلام فيما يتعلق بمصر فحسب، بل أن العدو - تركيا - أُجبر على الاعتراف بالحماية البريطانية على مصر. ويُعد هذا انتهاكاً مباشراً لاتفاقية ١٨٤٠ م التي وقّعتها القوى الأوروبية وتركيا ومحمد على التي تضمن السيادة الكاملة لمصر على أراضيها في كل النقاط باستثناء عدد قليل منها [٧٨].

(و) لم تتجاهل معاهدة السلام المقترحة حالياً المعاهدات الدولية الموقّعة بحُسن نية في الماضي فحسب بل كانت أيضا مُبهمة فيما يتعلق بمصر التي تحمّلت جزءاً من تضحيات الحرب في جانب الحلفاء، ولم يتم تعويضها بجزء من نتائج الانتصار. وبدلا من هذا، فقد كانت تعامل بصورة أسوأ من الولايات المحرّرة من الامبراطورية التركية التي لم تكن تتمتع بأي مظهر من مظاهر الاستقلال قبل الحرب.

(ز) اذا تم التصديق على المعاهدة المقترحة، فانها ستدفع مصر إلى أتون الثورة، ويواصل سعد في سرد المظالم والظروف في مصر حين طلب السماح له بعرض قضيتها أمام مؤتمر السلام والاتجاه اللاحق الذي تبنّته بريطانيا نحو ممثلي الشعب المصري. إلا أن إلقاء القبض على زعمائها ونفيهم أدى إلى ظهور الحركة الوطنية الرائعة التي

---

[٧٨] لولا تدخل الحلفاء كان بإمكان مصر من خلال إنتصاراتها في الفترة من ١٨٣٢ إلى ١٨٣٩ أن تلتهم الإمبراطورية العثمانية بالكامل.

اتحدت فيها كل طبقات الأمّة من مُسلمين ومسيحيين.

(ح) ناشد فرنسا بالوقوف بجانب مصر اذا لم يكن من أجل الحق والعدل، فعلى الأقل من أجل روابط الصداقة والتعليم والثقافة التي طالما سادت بين الفرنسيين والمصريين وأنهى كلامه بمطالبة فرنسا لرفع صوتها في جانب حق مصر في الاستقلال.

ووقّع على التماسه

سعد زغلول باشا، رئيس الوفد المصري

لم يجد التماس سعد زغلول أي آذان صاغية في باريس، ووجّهت اليه الضربة القاضية في ١٩ابريل ١٩١٩م عندما اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية رسمياً بالحماية البريطانية على مصر.

مع انحسار التأييد الدولي لقضية مصر، اتضح للعالم عندئذ أن قضية الحماية ومطالبة مصر بالاستقلال يجب أن تحسم بين مصر وبريطانيا. وأدرك سعد زغلول هذه الحقيقة، كذلك أدركتها السلطات البريطانية في مصر التي كان على رأسها المندوب السامي الجديد اللورد اللنبي، الذي كان من المفترض أن ينفذ سياسة ورثها عن مجموعة من ساسة متردّدين لم يتفهموا حقائق الوضع في مصر. وكقائد ميداني، دعته غريزته الطبيعية إلى استطلاع الموقف وتخطيط حملته، ثم تنفيذها، وقد انتقدت مجموعة من الساسة البريطانيين أفعاله اللاّحقة لا سيّما اللورد لويد الذي أصبح خلفاً له وورث مهمة أسهل نسبياً.

عند تعيين اللورد اللنبي في عام ١٩١٩م كان لزاماً عليه أن يواجه بلداً معادياً موحداً مطالباً بالاستقلال، وهذا يختلف كثيراً عن الوضع في سنة ١٩٢٥ عندما تسلم خلفه اللورد لويد السلطة في بلد مرتبك مفكك حيث كانت المشاكل الصعبة قد حُلت بمعرفة سلفه وأصبح من السهل عليه ان ينتقد الاحداث بعد حدوثها.

وقد كانت طبيعة اللورد لويد هي عدم المبالاة بأية معارضة الا انه كان يدرك بوضوح أن مثل هذه السياسة لا يمكن أن تبررها الحجج الأخلاقية، وشجعته المصالح المقررة للجالية الأجنبية في البلاد على اتباع هذه السياسة والتي رأت انه اذا أصبحت مصر مستقلة فان وضعهم المميز في البلاد سيتعرض للخطر بلا شك.

على الرغم من كل هذا، حاول اللورد لويد أن يكون موضوعياً في استعراضه لتلك الحقبة عندما كتب:

"من ثم فقد كان الزعماء الوطنيون على حق تماماً في تأكيدهم أننا قد غيرنا سياستنا سراً بدون استشارة الشعب المصري أو إخطاره، وليست لدينا إجابة على هذا الاعتقاد إلاّ أن نقول أن الموقف كان مختلفاً

عما اعتقدوا، وقد كان هكذا لأننا رغبنا وأردنا أن يكون كذلك".

ويواصل حديثه قائلا أن القضّية المصرية قد أوجزها سير فالنتين شيرول على نحو صحيح في تصريحه أن:

"قضية الاستقلال التام في مصر قد تم رسمها من خلال وعودنا المتكررة بأن الاحتلال سيكون بصفة مؤقتة فقط، وكذلك من تعريفاتنا الأخيرة إبان الحرب العالمية والتي تفيد بأننا إنما نخوضها لتقدم الحرية للأمم الصغيرة، ومن التزامنا المعلن بمبدأ حق تقرير المصير والنقاط الأربع عشرة للرئيس ويلسون. ولست في حاجة لأن أزيد في استيائهم من السياسة البريطانية في التزام الصمت فيما يتعلق بمعنى وغرض الحماية التي عدلنا بها وضع مصر بالقوة إبان الحرب، وقدّمنا لها حاكماً جديداً بدون إعطاء الشعب أي تفسير متجاهلين الأجهزة النيابية التي فرضناها عليها بمعرفتنا" [٧٩].

وحين واجه لورد اللنبي ذلك الوضع الشائك حاول أن يضغط على لورد كورزون في ١٩ ابريل ١٩١٩ ليسمح له بأن يُعلن في مصر بأن لجنة ملكية برئاسة اللورد ملنر سترسل في مايو من ذلك العام لتفحص الوضع وتُقدم تقريراً عنه، فعارضت لندن على ارسال البعثة على الفور لأنها لم تكن تُدرك خطورة الموقف في البلاد، وفي نفس الوقت شعرت الحكومة المصرية بأنه اذا كان لابد ان تأتي اللجنة فيجب ان تصل اللجنة بعد التوقيع على السلام مع تركيا، على أمل أن تتمكن مصر من الحصول على بعض الفوائد من الانتظار، لاسيما أن ايطاليا لم تكن قد اعترفت بعد بشرعية الحماية.

خلال الأشهر التالية من ابريل إلى نوفمبر ١٩١٩، أصبح المناخ السياسي في مصر مضطرباً وغير مستقر. ففي بعض الأحيان كانت الحوادث التي يؤسف لها والتي يتم ارتكابها من كلا الطرفين قليلة، وفي أوقات أخرى كان الوضع أكثر اهتياجاً بسبب ما يحدث من هجوم من المصريين وانتقام الانجليز، فلقد كان المناخ يتأثر بصورة كبيرة بالأخبار الآتية من أوروبا عن مهمة سعد باشا زغلول.

وصلت بعثة ملنر إلى مصر في ٧ ديسمبر ١٩١٩، وكان منوطاً بها ما يلي:

"التحقيق في أسباب القلاقل الأخيرة في مصر، وتقديم تقرير عن الوضع في البلاد وشكل الدستور الذي يعتقد أنه سيحفظ سلامها ورخاءها تحت الحماية، بالإضافة إلى تطوير الحكم الذاتي والمؤسسات وحماية المصالح الأجنبية" [٨٠].

عبارة "تحت الحماية" لم تكن بشيراً طيباً لتطلعات مصر، فكان سعد لا يزال في أوربا، وشعر

---

[٧٩] مصر في عهد كرومر – لورد لويد – الجزء الأول – الفصل الثاني عشر – ص ٣٤٤.

[٨٠] مصر في عهد كرومر – لورد لويد – الجزء الثاني – ص ١٢.

المصريون أن بريطانيا على الرغم من إرسالها لبعثة من رجال بارزين فهي لاتزال تريد الاحتفاظ بالحماية، ومن ثم فإن الطريق الوحيد لمواجهة هذه الخطوة هو مقاطعة هذه اللجنة. وفي هذه الظروف كان السلطان والحكومة هم المصريون الوحيدون الذين اتصلوا باللجنة عند وصولها، وحتى هذه اللحظة كان يوجد تحفّظ ملحوظ في موقفهم ورفضوا التعبير عن أي رأي، أما البلاد بأسرها فقد التزمت بمقاطعة اللجنة تماماً.

على أنه من الجدير بالملاحظة، أنه على الرغم من أن الرجال كانوا بمنأى عن التعبير عن آرائهم للجنة، إلا أن النساء كن أكثر إيجابية في موقفهن، فقد وجّهن خطاباً مفتوحاً للجنة لورد ملنر في اجتماع عام عقد في الكاتدرائية المرقسية بالقاهرة في ١٢ ديسمبر ١٩١٩ من نساء مصر يعرض بوضوح قضية مصر، وقد كتب باللغة الانجليزية وترجمته كالآتي : (انظر النص الانجليزي بالملاحق).

أيها السادة،

لقد قررت مصر مؤخراً عدم مقابلة لجنتكم الموقرة، طالما كان مجيئها تحت اسم الحماية البريطانية في مصر. وباعتبارنا نُمثل نساء مصر، فإننا أيضا بالتأكيد نوافق على هذا الرأي. ومع ذلك فإننا نود إعطاءكم فكرة صحيحة عن الوضع الحالي لمصر كما هو واقع بالفعل. لقد أعلن الكثيرون رأيهم في "سبب وماهية" الحركة المصرية، وبالرغم من أن البعض قد لمس الحقيقة لمساً سطحياً، لكن المسألة ككل مازالت بعيدة عن الواقع.

إن الحركة المصرية هي حركة وطنية تماماً بكل ما في الكلمة من معنى، خالية من كل النزعات الدينية أو التأثير التركي. وليس لها أي علاقة اطلاقاً بالبلشفية، كما أنها ليست نتيجة مباشرة لإرتفاع أسعار المعيشة. كما أعلن البعض. وكما تعلمون فإن الحالة المالية في البلاد ممتازة، والعلاقة بين الناس تسودها فضائل الاحسان والكرم وهما سبيلنا للعناية بفقرائنا. ان الحركة المصرية هي حركة وطنية خالصة.

وقد قال لورد ميلنر في كتابه: "انجلترا في مصر" باستبعاد احتمال قيام ثورة في مصر. وكان يعتبر "الثورة العرابية بأنها الإثبات الأقوى لشدة سوء الحكم القديم" ويُحتمل أن يكون مُحقاً في ذلك. ويمكننا أن نستخدم هذه المقولة بأن نقول : "ان ثورة اليوم هي الاثبات الاقوى لسوء الحكم البريطاني في مصر، اننا نتكلم بصدق، يمكننا القول بأن سوء الحكم لم يكن السبب المباشر للحركة الحالية. ولكننا لا يمكن أن ننكر دوره في إيقاظ وإثارة فضائلنا العريقة الساكنة من سباتها".

إن مصر أرض المتناقضات كما ذكر لورد ميلنر، وليس من الغريب رؤية أشياء غير متوقعة تحدث فجأة وبلا سابق انذار. إن شرارة الوطنية العظيمة، أخمدت لعدة قرون، برماد الغزوات المتلاحقة، وخضعت لتأثير الحضارات حالكة الظلمة. ولكن ما زال تحت الرماد الحضارة التي تمتعت بزمانها واحتفظت ببقائها ووجودها منذ البداية.

وبلا شك، فقد ساعد التأثير البريطاني بالرغم من أنه غير مباشر، وحضارة القرن العشرين وهي ذات تأثير مباشر في نفض هذا الرماد. كما ساهم سوء الحكم والسياسة الحالية الفاشلة لبريطانيا في إمداد الشعور الحالي في مصر بالوقود، (ونحن نشكر لبريطانيا العظمى هذا الفعل).

إن انجلترا تتباهي بحكمها الصالح لمصر خلال السنوات الماضية. ونحن نشكر انجلترا. إن للهيبة والمكانة دوراً كبيراً لنجاح بريطانيا، الا ان اللورد ملنر يقول: "لا يوجد أي شئ يُسمى المكانة"، لم تكن هيبة القوة العسكرية التي أدت إلى سهولة الانقياد وحسم السباق إبان الحكم البريطاني (فالمصريون لا يهابُون السلاح) وانما هي هيبة ومكانة السمعة الطيبة لإنجلترا.

إن الرجل المصري كان في الماضي يحترم الرجل الإنجليزي لانه كان يعيش تحت وهم أن الإنجليزي لا يقترف بتاتاً أي شئ غير محترم أو غير شريف.

وكان يُصنّف الإنجليزي باعتباره تجسيداً للحق، والشرف، والعدل وصفات أخرى طيبة. وكان يعتبره مثالا للرجل المتصف بالعدل والانصاف، والذي يفي دائما بكلمته.

أما عن عيوبه، فانه كان يعلم عنه بالطبع، الإفراط في الأنانية، والغرور، والكبرياء. وكان المصري ينظر للانجليزي بنظرته الشرقية التقليدية الملينة بالاحترام مثل اهتمام الافندي الصغير الذي يسرع في تزرير سترته عند اقترابه من موظف أرفع مقاماً. وكان الانجليز يفسرون ذلك خطأ بأنه علامة الخنوع، وبالتالي كان لها التأثير السيء على البريطاني العادي. ومع ذلك فإن الاعجاب يؤدي إلى التقليد، والتقليد في نفس الوقت يؤدي إلى الإكتساب، وحتى السمعة الخادعة يكون لها تأثيرها الكبير على المُعْجَب. ولقد كبرت لدى الافندي الصغير هذه الصفات تدريجيا حيث تواجدت جذورها دائما في قلبه وكل هذا بفضل الاحتلال البريطاني.

وقد أعلنت انجلترا المرة تِلو الأخرى، أن احتلالها لمصر مؤقت، وذو طبيعة انسانية. وقد أكد لورد ملنر وجهة النظر هذه عن الاحتلال عندما قال "أنه مخالف تماما للحقيقة بأن قوة انجلترا قد استخدمت دون مراعاة لشعور ومصالح الشعب وبغرض واحد وهو تعزيز مصالحها التجارية، وتمهيد الطريق للضم".

كما كرر سياسيون آخرون نفس النغمة في الاعلان عن سياستهم. ولا نستطيع أن نفهم لماذا عجزت بريطانيا عن الوفاء بكلمتها ؟ ولكم أن تتصوروا أيها السادة المحترمون، مدى ما تركه تأثير سياسة انجلترا في أذهاننا.. ان تصرفاتها الأخيرة تبرر النتيجة التي وصلنا اليها، وهل تسمح لنا في التعبير عن ذلك بكل صراحة !؟

إن انجلترا لابد أن تكون قد حققت هدفها الوحيد، بتعزيز مصالحها التجارية وتمهيد الطريق للضم، ولقد كان طموح انجلترا هو ضم مصر، ولكن بسبب الخوف فقط من الاصطدام مع مصالح القوى العظمى الأخرى، مما جعلها تتظاهر بخلاف ذلك في حينه فدخلت انجلترا مصر بحجج واهية.

انها لم تدخل مصر دخول الفاتح المنتصر الذي يتسم أساساً بالصدق والشرف، ويبدو أنها فضلت اتباع سياستها بتصريحات كاذبة، لقد جردت جميع المصريين من أسلحتهم، وبعد ذلك أعلنت الحماية

على مصر تحت مظلة الأحكام العرفية. لقد سُرقت مكانتنا وسط القوى الأخرى ببساطة في ظلمة الليل. واذا كانت انجلترا ترى الأمور كما هي في الواقع، فاننا مازلنا نأمل في أنها لن تطأ روح الرجولة والشجاعة التي بها وتقبل هذا الوضع البغيض. علاوة على ذلك لن يمكنها أن تخمد الصوت الذي يُعبر عن احتجاجنا المشروع.

ومن الآن فصاعدا، يمكنها فقط أن تحكمنا عن طريق القوة العسكرية، وهذا ماتسميها بالحماية البريطانية.

من جهة أخرى، فان مصر التي كانت تعيش تحت وهم انجلترا الموثوق بها، وكانت تضع في اعتبارها كلمة الشرف الخاصة بها، ولم ينتابها الشك أبداً. فلقد قدمت مصر لانجلترا كل العون. وليت كل احتياجات الجيش في فلسطين قدمت رجالها، ودوابها، ومحاصيلها. واصبحت منطقة التمركز العسكري لجيش بريطانيا في الشرق، وكل ذلك بنيّة سَمْحة معتمدة على شرف انجلترا وحس العدالة لديها.

وللأسف الشديد، لقد اكتشفت مصر، ولكن بعد فوات الآوان، أنها بمساعدتها في سحق الامبريالية في المانيا، فقد وقعت بين فكيّ امبريالية أعظم، وهذه الامبريالية هي الدولة التي أولتها ثقتها وتقديرها وأسرفت في العطاء لها. هل تتعجبون اذن، أيها السادة المحترمون، من أن تحتج مصر ؟ وأن تشك مصر الآن ولا تثق، ان مصر لا تستطيع، ولن تستطيع التفاوض معكم، ان حسّكم بالتقاليد البريطانية وحده، يمكن ان يجيبكم على هذه الأسئلة، ونحن نأمل أن تتمكنوا من ذلك.

اننا بتمثيلنا لأمهات وأخوات وبنات مصر، فاننا نخطركم بأنه يوجد بديلان فقط للقضية المصرية: إما أن تحافظ انجلترا على مكانتها المرموقة، وتظفر باحترامنا وصداقتنا من جديد، أو بتعبير آخر، تفي بكلمتها، الكلمة التي وقّعت وصدّقت عليها. يجب على انجلترا ان تلغي الحماية فورا، وعليها أن تعطي مصر مطلبها المشروع في الاستقلال. واذا تم ذلك، فستصبح انجلترا صديقتنا، واهبة الخير وكل شئ مرغوب ومنسجم مع استقلالنا التام. وسيكون لها دور في المساعدة على رفع مستوى الصالح العام لمصر، بمساعدة أبناء الفراعنة للعيش على غرار فضائل وعقائد أجدادهم العظماء، ألا نستحق المحاولة؟؟

أما البديل الثاني، والذي سيكون بديلا مؤسفاً، فهو في قيام انجلترا بوطأة كرامتها – ويغشى عينيها الجشع وحُب الكسب المادي – وتستولي خلسة على مصر أولا، ثم بالقوة بعد ذلك.

إن احتجاجاتنا ستقابل بالسلاح، كما سبق أن رأينا، فانجلترا لديها القوة الكافية للقيام بذلك عن طريق جيشها، واسطولها ومطاراتها. ولكننا سوف نحتج وسنستمر في الإحتجاج، سنقاتل بلا سلاح، وستمتزج دماؤنا بتراب أرض آبائنا، وسنموت ونحن سعداء.

ربما كان تاريخنا أيام الرومان وما تلاها، مؤكدا لتلك الكلمات الأخيرة. ولا تنسوا، ايها السادة المحترمون، المائة الف شهيد ايام دقلديانوس، وارجو ان تسجلوا أن هؤلاء المصريين الذين تركوا بصماتهم على التاريخ، هم آباء هؤلاء، الذين سوف يُسطرون التاريخ الحالي. وان دماؤهم هي نفس الدماء التي سالت من قبل.

ونرجو أن تغفروا لنا صراحتنا، وربما من الأفضل أن تكون صريحا صادقا، وخصوصا في الزمن الذي أصيب فيه العالم أجمع بالغثيان والاشمئزاز من النفاق ومن النظام القديم.

ولاشئ يمكن أن يبقى بعد الصراع العظيم في العالم الآن سوى الحرية، العدل، والحق، وستبلغ الفضائل القمة على المدى الطويل، ونأمل أن لا تفشل بريطانيا في أن تكون هي البطل لهذه الفضائل.

سيدات مصر
الاجتماع العام لسيدات مصر
الكاتدرائية المرقصية
القاهرة في ١٢ ديسبمر ١٩١٩

سأورد جزءا من مذكرات السيدة هدى شعراوي، عن كيفية تشكيل لجنة وفدية مركزية للسيدات، تقول في ص ٢٠٢ من مذكراتها التي نشرتها دار الهلال :

كنت قد سافرت الى مدنية الاقصر خلال تلك الفترة التي تم فيها تشكيل لجنة الوفد المركزية للسيدات. وقد تم كل شيء وأنا بعيدة عن القاهرة ، الى أن وصلتني رسالة من السيدة أستر فهمي ويصا ، تخبرني فيها بأن السيدات قد اجتمعن في الكنيسة المرقسية الكبرى يوم الخميس ٨ ينـاير ١٩٢٠ وقد نجحت عملية الانتخاب نجاحاً باهراً ، وأسفرت النتيجة على انتخاب السيدات : حرم شعراوي باشا (١٣٩ صوتاً) حرم فهمي بك ويصا (١٠٢ صوت) حرم عمر باشا سلطان (١٠٠ صوت) حرم رياض باشا (٩٨ صوتاً) حرم حجازي بك (٧٥ صوتاً) الآنسة فكرية حسني (٦٨ صوتاً) حرم احمد بك أبو أصبع (٦٥ صوتاً) حرم مقاري بك (٦٣ صوتاً) حرم علوي باشا (٥٢ صوتاً) حرم رفيق بك فتحي (٥٠ صوتاً) حرم مجيب بك فتحي (٥٠ صوتاً) حرم تكلا باشا (٣٨ صوتاً) حرم الدكتور أحمد عزت (٣٨ صوتاً) حرم احمد افندي شاكر (٣٣ صوتاً) حرم ويصا واصف أفندي (٢٣ صوتاً)

وتستمر السيدة هدى شعراوي قائلة:

وقالت السيدة أستر فهمي ويصا في رسالتها: "ويغلب على ظني ان أغلبية تلك السيدات مناسبة . ومرسل لك الاحتجاج من نسختين للتوقيع عليهما بصفتك الرئيسة وردهما بالتالي .. ونرجو أن يصلا برجوع البريد للأهمية".

إضافة لهذا تحكي السيدة هدى شعراوي في مذكراتها ص ٢٠٣ أن السياسة المُعلنة للجنة الوفدية المركزية للسيدات، كانت مهمتها :

"مساعدة اللجنة المركزية للوفد المصري في تبليغ الوفد المصري أماني السيدات المصريات والسعي بكل ما يمكنها (أي لجنة السيدات) لاستمرار المطالبة باستقلال مصر استقلالاً تاماً .. وان تقوم هذه اللجنة مادام العمل الذي انتدب الوفد لأجله قائماً.."

ويبدو أن هذه العبارة (*مادام العمل الذي أنتدب الوفد لأجله قائماً*) كانت تعبر عـن فكـرة خطـرت على بال ناشرة المذكرات لتبرير المواقف التي حدثت فيما بعد كما سترد لاحقاً.

لقد نصّت اللوائح التنفيذية التي وضعتها اللجنة في اجتماعها الأول أن كـل القرارات سيتم اتخاذهـا بأغلبيـة الأصوات، وفي حالة تساوي الأصوات ستعطى الأولوية للجانب الذي اقترع معه الرئيس.

يجب أن نتذكر أن هذه المذكرات قد نُشرت بعد ثلاثين عاماً من موت السيدة هـدى شـعراوي، وبعـد انشقاقها عن سعد زغلول والوفد بفترة طويلة، ويوجد اختلافات كثيرة بين هذه المذكرات المنشورة وغيرهـا من مصادر تلك الحقبة وأحدها ذلك الخطاب المفتوح الذي وجهته نساء مصر إلى لجنـة ملـنر في الاجتمـاع العام الذي عقد في الكاتدرائية المرقسية في ١٢ ديسمبر ١٩١٩م بعد خمسة أيام مـن وصـول اللجنـة، ففـي مذكرات السيدة هدى شعراوي في ص ٢٠٤ يُشار إلى أنه قد تم إرساله من جانب اللجنة الوفديـة المركزيـة للسيدات في اجتماعها الرسمي الأول المنعقد في ١٦ يناير ١٩٢٠، وبعد أكثر من شهر من وصول البعثـة إلى مصر، ويبدو أن ما ورد في المذكرات في ص ٢٠٤ غير منطقي سواء من فحوى الخطاب المفتوح أو التوقيـت أو ما ذكر فيما بعد في مذكراتها في ص ٢٠٩ ونصه كالآتي :-

وقد انعقدت الجلسة الأولى للجنة يوم ١٦ ينـاير ١٩٢٠ وكـان الغـرض مـن هـذا الاجتمـاع هـو انتخـاب الرئيسة والوكيلة وأمينة الصندوق والسكرتيرة بطريقة الاقتراع السـري. وقـد عقـد هـذا الاجتمـاع بسـراي المرحوم عمر باشا سلطان ؛ ولم أحضره نظراً لوجودي بالأقصر في ذلك الوقـت. وتقـرر في هـذا الاجتمـاع تعيين كل من السيدات : هدى شـعراوي رئيسـة . أستر فهمـي ويصـا وكيلـة . روجينـة خيـاط أمينـة صندوق.. الآنسة فكرية حسني سكرتيرة.

وقد قررت عضوات لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات أن يعلن احتجاجهن الآتي الى الأمة المصريـة وجميع العالم المتمدين:

أولاً: نحتج بشدة على بلاغ اللورد ملنر الأخـير المبـني علـى الغمـوض والابهـام ، مـع ان مطلـب مصـر الوحيد لا يحتمل أي شك أو غمـوض . فالأمـة المصريـة رجـالاً ونسـاء لا تطلـب الا الاسـتقلال التـام ، ولاتقبل في تفسير هذا المطلب الصريح الا الصراحة والحق. واذا كانت هناك مناقشة ، فمع الوفـد وعلـى مبدأ الاستقلال التام.

ثانياً: نحتج بكل قوانا على المعاملة الخالية من الذوق والكياسة التي تعامل بها السيدات في مظاهراتهن الوطنية.

ثالثاً: نحتج بكل قوانا على الاعمال الاستبدادية الاخيرة كنفي رجـال مصـر العـاملين الى قراهـم، ونفـي قرياقص ميخائيل أفندي ومعاملته السيئة التي لا تتفق مع مبادئ الحرية والعدالة . ونطلـب وضـع حـد لهذه الطرق الاستبدادية التي لاتتفق مع مدنية أمة حرة.

رابعاً: نطلب وسنطالب باستقلال بلادنا التام ، ولن نرضى غيره بديلاً . فلتحيا مصر حرة، وليحيا الاستقلال التام.

يبدو من هذا التصريح أنها تقصد بذلك الاحتجاج الذي أرسلته لها السيدة حرم فهمي ويصا بالبريد لتوقّع عليه بصفتها الرئيس، وليس الخطاب المفتوح الذي أرسل إلى لجنة ملنر من الاجتماع العام الذي عُقد في الكاتدرائية المرقسية في ١٢ ديسمبر ١٩١٩م لأن في ذلك الوقت لم تكن اللجنة الوفدية المركزية للسيدات قد شُكّلت بعد، وكذلك لم يكن قد تم انتخاب اللجنة التنفيذية.

وإيجازاً لما تقدم نقول أن مهمة اللجنة أصبحت صعبة للغاية بسبب ذلك الصمت الغريب الذي واجهها، فلقد امتنعت الشخصيات البارزة والساسة والموظفون الحكوميون والفلاحون عن التعبير عن أي رأي على الإطلاق، لأنهم خافوا أن يوصفوا بالخيانة من جانب الطلبة أو الصحافة المحلية التي كانت تُسيطر عليها شخصية سعد زغلول وكان لا يزال في أوروبا، وعلى الرغم من هذا الموقف فقد اتمت اللجنة مهمتها، وعادت إلى انجلترا في مارس من عام ١٩٢٠م بعد أن توصلّت إلى قرارها الذي يُفيد بأنه لا يمكن تطبيع العلاقات بين مصر وانجلترا ما لم يتم التوصل إلى تسوية عن طريق مفاوضات بين دولتين ذات سيادة، وليس بواسطة إجراءات من جانب واحد من دولة مُتسلّطة تُملي شُروطها على دولة تابعة. كون اللجنة توصلت الى قرار فهذا شيء، وامكانية تنفيذه على نحو مقبول للطرفين فهذا شيء آخر.

عندئذ قرر عدلي باشا يكن بموافقة السلطات البريطانية السفر إلى أوروبا، ليحاول إقناع سعد باشا بمقابلة البعثة في انجلترا، قبل أن تقدّم تقريرها بصوره نهائيه. واستطاع فعلا أن يفعل ذلك، ووصل سعد إلى لندن في ٧ يونيه يُرافقه العديد من الوفديين، وعقد مجموعة محادثات مع البعثة استمرت حتى أغسطس من ذلك العام. وتم التوصّل إلى تفاهم مبدئى يُعرف بمشروع "سعد – ملنر" الذي كان من المفروض أن يُقدم إلى الحكومة البريطانية والرأي العام المصري للموافقة عليه إلا أنه لم يف بمطالب مصر بالاستقلال التام.

لقد اقترح إلغاء الحماية واستبدالها بمعاهدة تحالف، يتم الاعتراف فيها بمصر كمملكة دستورية. وفي نفس الوقت تحتفظ بريطانيا بحقوق مُعينة في البلاد، مثل وجود قوه ثابته لا يتم اعتبارها كاحتلال عسكري بل كقوة مساعدة في الدفاع عن استقلال مصر ووحدة أراضيها، وكذلك يسمح لإنجلترا بالاحتفاظ ببعض المستشارين للأمور الخاصة بالمصالح الأجنبية في البلاد. وإلى هنا لم يُذكر موضوع السودان على الإطلاق، عندئذ أرسل سعد زغلول أربعة أعضاء من الوفد المصري إلى مصر لجس نبض الرأى العام، وهؤلاء الأربعة هم محمد باشا محمود واحمد لطفي

بك السيد وعبد اللطيف بك المكبّاتي وعلي بك ماهر. وفي نفس الوقت نشر سعد بياناً رسمياً معلناً فيه أن تلك هي الشروط المعروضة دون إبداء رأيه بالرفض أو بالتصديق عليها. وقد أعطى هذا فرصة للوطنيين المتشددين – حزب الوطن – الذين كانوا دائما يدعون إلى عدم التفاوض قبل الجلاء التام، فأعلنوا أن الشروط المعرُوضة لاتفي بالاستقلال التام الذي طالما طالب به الوفد.

اضطرب الأجانب حين سمعوا بالتنازلات التي اقترحتها لجنة ملنر. إلا أنهم سُرعان ما استعادوا هدوءهم حين أدركوا أنه على الرغم من أن جزءاً كبيراً من المتعلمين كانوا يؤيدون مثل هذه التسوية اذا صدّق عليها سعد بقوة، كما كان يوجد أصحاب نفوذ آخرون لا يريدون أن تكون التسوية على يد سعد زغلول، الذي كان ثورياً في نظرته السياسية، واعتبر عصرياً في أفكاره، ومن ثم فإن أصحاب النفوذ هؤلاء طالبوا بالاستقلال التام لمصر والسودان، أي اتباع سياسة الحصول على الكل أو لا شئ على الإطلاق.

ومن الطريف أن نلاحظ أن "المُقطم" وهي جريدة عربية – يمتلكها سوريون متعاطفة مع الأجانب – قد عبّرت عن معارضتها الشديدة لأي اتفاق، حيث قالت "أن الفلاحين الذين لم يُستشاروا كانوا سيطالبون بالاستقلال التام بلا أدنى شك"، فالسياسة في جميع أنحاء العالم تخلق صفات مثل الطموح والمنافسة والطمع في شخصيات السياسيين، وهذه بدورها تولد الحقد والعداوة والافتراء تجاه خصومهم.

على الرغم من وجود هذه السمات الفطرية في أعضاء بعض البلدان التي طورت نظمها البرلمانية – في غضون سنوات عديدة – الا انه يوجد لديها مقدار معين من ضبط النفس والمسئولية في التعبير للرأي العام. وفي بلدان أخرى مثل مصر حيث كان النشاط السياسي العام مكبوتاً بالقوة لعصور طويلة مضت فقد كان من الصعب إخفاء مثل هذه المشاعر، فكان رد الفعل الطبيعي هو التعبير عنها بقوة وانفعال كلما أتيحت الفرصة.

لقد كان من المفترض بعد نشر تقرير مشروع سعد – ملنر وتزكية سعد الفاترة له أن تتحد كل القوى السياسية في مصر اذا أرادت ان تصل بوفدها الى أقصى درجة من المساومة مع الحكومة البريطانية. إلا ان هذا لم يحدث.

ومن الطبيعي ان بريطانيا كانت ترغب في ان تتفاوض مع وفد يتمتع بتأييد سياسي واسع في البلاد، وفي نفس الوقت لم تكن ترغب في الاستسلام لما اعتبرته تطرفاً وفوضى مما قد يعرض مصالحها الحيوية للخطر، وفي نفس الوقت كان السلطان فؤاد يخشى من ان يدعم مكانة أي زعيم سياسي يقود الجماهير بسبب ما كان عالقاً بذهنه من الثورات الحديثة كالتي حدثت في روسيا وتركيا. فكان من البديهي ان يرأس أي مفاوضات مستقبلية سياسي مُعتدل ومقبول لكل الاتجاهات في البلاد، وبعد مناقشات عديدة

تمكنوا من اقناع سعد على قبول ترشيح عدلي باشا يكن للتفاوض مع اللورد كورزون في يوليو ١٩٢١ وذلك بشروط محددة من قِبَلْ سعد زغلول.

وعندما عاد عدلي باشا إلى مصر بمقترحاته قابلته جموع معادية كان شعارها "الإحتلال تحت سعد ولا للاستقلال تحت عدلي". فرأى اللنبي بوضوح أنه ليس بإمكان أي حكومة التفاوض بشأن التسوية اذا لم يُساندها سعد، إلا أن الساسة الذين كانت أهدافهم موحدة سنة ١٩١٩ اختلفوا حول الوسيلة التي يتبعُونها لتحقيق مثل هذه الأهداف، وفي تلك الفترة اختلفت السيدة هدى شعراوي مع سعد بشدة لأنها لم تستطع أن تحتمل الطريقة التي عاملت بها الجماهير عدلي لدى عودته من انجلترا، واعتقدت أنه كان بإمكان سعد أن يجهض تلك المظاهرات إن أراد، وقد كانت لا تزال متأثرة من الإهانة التي شعرت أن سعد اقترفها عمداً حين تجاهل زوجها علي شعراوي باشا، الذي انتقد اتفاق سعد – ملنر لأنه لم يتضمن أي اشارة عن مطالبة مصر بالوحدة مع السودان.

نظراً للاضطراب المستمر في البلاد كان من الصعب محاولة إقناع أي شخص بتشكيل حكومة أو الاستمرار لفترة طويلة في منصبه، لأن أي قرار يُتخذ كان موضعاً للشك، فالجميع خافوا أن يوصفوا بالخيانة.

وفي هذه الظروف قرر اللنبي الجندي أن يهاجم، فمنع اجتماعاً دعا اليه سعد زغلول للانعقاد في ٢٢ ديسمبر ١٩٢١، وحين تحدّى سعد زغلول هذا القرار بمناشدته للأمة، أمر اللنبي بالقاء القبض عليه مع عدد قليل من رفاقه، وفي ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ نُقلوا إلى السويس، وابحروا إلى عدن حيث مكثوا بها حتى ٣١ مارس ١٩٢٢، حتى تم نقلهم إلى جزيرة سيشل.

واستطاع اللنبي أن يكبح ثورة عارمة في البلاد بالقوة العسكرية القوية، وفي نفس الوقت قد هدأ العداء الذي ظهر بين الساسة المصريين في ١٩٢١ ووحدوا صفوفهم ودفنوا فؤسهم، وقد رفض كل الوزراء تولي الحكم مما أدى إلى إدارة شئون البلاد بواسطة وكلاء وزارة بريطانيين، فشعر اللنبى أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر طويلاً ولابد من ايجاد حل له.

ونتيجة لذلك فقد عجز النظام الذي وضعه كرومر – وهو ان يحكم البريطانيون مصر من خلال وزراء مصريين – عن احراز اهدافه ، اذ لم يتخيل اللورد اللنبي كيف ستحكم بريطانيا دولة مُعادية بمجرد القوة العسكرية وحدها لمدة طويلة. ومن ثم قرر أن يفرض رأيه على حكومته في بريطانيا، والقرار الذي اتخذه تعرّض للانتقاد وسوء الفهم والتحريف، وشعر أنه اذا ساعد المصريين المعتدلين، فإنه في هذه الحالة يمكن التوصل إلى تسوية، وأحس أن الخلافات الظاهرة في موقف الحكومة البريطانية في المفاوضات

السابقة، والموقف المصري المتشدّد يُمكن تذليلها، فلقد كان البريطانيون مُستعدين لإلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر شريطة أن يلتزم المصريون أولاً بشروط مُعينة تضمن حماية بعض المصالح البريطانية مثل خطوط مواصلاتهم الاستعمارية، وحماية الأجانب بمصر بما فيهم من أقلّيات، ووضع الإنجليز في السودان، وهذا شئ كان المصريون قد رفضوا الموافقة عليه.

قدم اللنبي عرضاً جديداً للحكومة البريطانية مؤداه أن تلغى الحماية وتمنح مصر الاستقلال فوراً، على أن تعلن في نفس الوقت أن بريطانيا العظمى لها حُرية التصرف – إذا دعت مصالحها لذلك – في بعض الأمور التي عرفت فيما بعد بـ "التحفظات الأربعة" إلى أن يتم التوصل إلى اتفاق ودّي فيما يتعلق بهذه الموضوعات، ومع أنه كان جُنديا في المقام الأول، إلا أن اللنبى أثبت أنه رجل سياسة أكثر من العديد ممن كانوا في هوايت هول، وكان يرى أن القوة العسكرية البريطانية أكثر فاعلية من أية تعهدات يحصل عليها من الساسة المصريين، وفي الواقع فإن طريقة تفكيره أكسبت انجلترا وضعاً قانونياً في مصر لم تكتسبه أبداً فيما مضى، حيث أنه أرجأ المشكلات الشائكة إلى أن يتولى الزمن حلها بنفسه.

ذعرت الحكومة البريطانية من مقترحات اللورد اللنبي واعتبرتها إنذاراً، فقررت أن تستبدله هو واثنين من مستشاريه في مصر، فاستدعتهم في ٢٢ يناير ١٩٢٢ للتشاور، وقبل أن يغادر اللنبي صاغ رسالة رسمية، واخذها معه، ويُورد جنرال ويفل في كتابه: "اللنبي الجندي ورجل السياسة" في ص ٩٥ آخر مقطع ما يوضّح طريقة تفكير اللنبي:

> "المهمّة التي تلقيتها من جلالة الملك هي الإبقاء على حماية جلالته على مصر، وقد فعلت هذا، لكني لا أعتقد أن لها عناصر الاستمرارية، ونصحت بأن توضع نهاية لها، حيث أنها قد تأسست بإعلان من طرف واحد، ولقد أوضحت لحكومة جلالته طريقا في رأيي، أنه يتوافق مع التقاليد العامة للسياسة البريطانية والمؤسسات البريطانية، ويخدم المصالح الحقيقية للإمبراطورية، وفي نفس الوقت لا يتعارض مع التطور السياسي لمصر الذي طالما شجعته حكومة جلالة الملك، والذي كان هدفاً لأعمال من سبقوني، أولئك الذين كانوا يبحثون عن رفاهية الشعب المصري أثناء خدمتهم لبلادهم".

أما تفاصيل نجاح اللنبي في إقناع مجلس الوزراء البريطاني بقبول وجهة نظره تحت التهديد بالإستقالة، فهي شّيقة جداً، ومع هذا فلا مكان لها في هذا الكتاب.

في ٢٨ فبراير ١٩٢٢ عاد اللنبي إلى مصر وأعلن:

١) إنهاء الحماية على مصر التي أصبحت دولة مُستقلة ذات سيادة.

٢) رفع الأحكام العرفية بمجرد أن تصدر الحكومة المصرية قانوناً لتعويض كل الأجانب الذين كانوا يعملون بمصر.

٣) الأمورالتالية تحت التحفظ كلية لحكومة جلالة الملك إلى أن يحين الوقت المُلائم بالمناقشات الحرّة والتسوية الودّية بين كلا الجانبين للتوصل إلى اتفاقيات بين حكومة جلالته وحكومة مصر:

أ - تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر.

ب - الدفاع عن مصر ضد أي عدوان أجنبي أو تدخل مباشر أو غير مباشر.

جـ - حماية المصالح البريطانية في مصر، وحماية الأقليات.

د - السودان.

وإلى حين التوصل إلى مثل هذه الإتفاقيات فإن الوضع الراهن في كل هذه الأمور يظل على ماهو عليه.

ظلت هذه الأمور كما هي حتى عام ١٩٣٦م قبل أن تم التوقيع على اتفاقية تُعرف بمعاهدة الصداقة الانجليزية - المصرية لعام ١٩٣٦م، وطوال ذلك الوقت لم يتم التوصل إلى اتفاق نهائي فيما يتعلق بالمسألة البريطانية - المصرية والسودان إلا بعد ثمانية عشر عاماً أخرى إبان ثورة ١٩٥٢ في مصر. وسبب هذا التأخير الطويل هو الشقاق والخلاف في السياسات المصرية الذي تحوّل بعد ذلك إلى صراع على السلطة بين القصر الذي كان يساند ما كان يُسمى بالساسة المعتدلين الذين كانوا يتمتعُون بتأييد شعبي ضئيل، والوفد بما يتمتع به من تأييد قطاع عريض من الشعب المصري، والذي كان يُمثّل صوت مصر، ولكنه كان يُعتبر ثورياً، والبريطانيين الذين كانوا يؤيدون هذا الجانب أو ذاك وفقاً للظروف والذين لم يكونوا في عجلة من أمرهم لتغيير الوضع الراهن.

عودة إلى عام ١٩٢٢م، حيث قد تم إعلان السلطان فؤاد ملكاً ولُقّب باسم الملك فؤاد الأول ملك مصر في ١٣ مارس من ذلك العام. وكان من المفروض أن تصبح مصر مملكة دستورية إلا أنه لم يكن قد تم بعد صياغة دستور لمصر، وكانت هذه إحدى المهام التى تواجه البلاد.

كانت نيّة الملك فؤاد الاحتفاظ بأكبر قدر من السلطة للعرش، لأنه كان يريد أن يصبح حاكماً حقيقياً مثل أبيه الخديوي اسماعيل أو مثل والد جدّه محمد علي - مؤسس الأسرة الحاكمة - بيد أنه قد حدثت تغيرات كثيرة منذ ذلك الحين، حيث إن الملوك في كل أرجاء العالم فقدوا الكثير من سلطتهم وامتيازاتهم.

ففي القرون الوسطى في الدول الأوروبية كان الملك يحكم على مبدأ الحق السماوي Divine Right of Kings ومع مرور الوقت ومن خلال الحكم البرلماني والثورات المتعاقبة لمئات السنين

سُحِبت السلطات الملكية واحدة تلو الأخرى إلى أن أصبح الملك يملك ولا يحكم.

أدرك فؤاد كل هذا، وكانت نيته أن يحقق أغراضه بالاحتفاظ بحقه في حل البرلمان، وتغيير أي حكومة غير مرغوب فيها. وهذا الحق كان يستخدمه نادراً الملك الدستوري الذي كان يملُك، ولكن لا يحكُم، وكان يُستخدم كتهديد أكثر منه كوسيلة سلطة، وأداة ايقاف (فرملة) تستخدم في الحالات الطارئة اذا شعر الملك بصورة عامة أن الحزب الحاكم في البرلمان المنتخب جمح، وفقد إرادة الشعب، ومن الضروري العودة للأمة، وحتى هذا كان الملك الدستوري في بلد كبريطانيا لا يستعمل هذا الحق إلا بمشورة المجلس الملكي الخاص Privy Council .

إستخدم الملك فؤاد هذا الحق للاحتفاظ بالسلطة الشخصية، وذلك بتأليب أحد الأحزاب على الآخر، ولكنه كان يميل إلى الاعتماد على تحالف الأحزاب الصغيرة التي كان يقودها من يُعرفون بالساسة المعتدلين، وفي الحقيقة فقد كان هؤلاء الساسة من أقدر الرجال المصريين وأفضلهم تعليماً، ولكنهم كانوا لا يتمتعون بشعبية، وأغلبهم كانوا من الطبقة الحاكمة القديمة، التي كانت تتملق الخديوي دائماً.

كان لدى الملك فؤاد مرض الخوف من حزب الوفد الذي كان يعلن دائماً بأنه يتحدث نيابة عن إرادة الشعب، وكان الملك يشك في أن كثيرين منهم لهم ميول جمهورية، ألم يعارض زعيمهم سعد زغلول دائما الخديوي عباس حلمي وسياساته؟ ولقد استطاع الملك بمساعدة البريطانيين أن يستخدم وسيلة السلطة هذه طوال فترة حُكمه.

أثناء هذا كله كان سعد زغلول في المنفي، وكان من المفروض أن مصر قد حصلت على استقلالها. ولكنه كان استقلالا مشروطاً خاضعاً لتحفظات معينة، ولقد رأى معظم المفكرين المصريين، أن هذا الاستقلال كان أفضل بمقدار ضئيل جداً مما اقترح فيما مضى، لأن كافة المشكلات الشائكة كانت يجب أن تحل بالمفاوضات، ومن كان سيتفاوض بشأنها؟ فزعيمهم الذي يثقون به كان في المنفي، ولم يكن معروفا اذا ما كان سيسمح له بالعودة أو اذا كانت صحته ستتحمل وجوده بالخارج.

نتيجة إلغاء بريطانيا للحماية من جانب واحد، وتحول السلطان فؤاد إلى ملك قادر على الحكم بواسطة الدستور، ظن بعض الساسة بأن السلطة قد عادت مرة أخرى إلى سلالة محمد علي الحاكمة، ومن ثم وجب عليهم التعاون معها الآن، واعتقد هؤلاء الساسة أن وطنيتهم وولاءهم لا يمكن التشكيك فيهما حيث إنهم لم يفعلوا أي شئ لإحداث هذا الوضع الذي كانت فيه البلاد حينئذ، وشعروا أنه ليس

عليهم أي التزام بالمطالبة بعودة سعد طالما انهم ليسوا أقل وطنية في سعيهم لتحقيق تطلعات البلاد، ولا أقل مقدرة فلم يشعروا بأي ذنب في قبولهم للخدمة وتولى المناصب.

لذلك قام عبد الخالق ثروت بتأليف الوزارة التي كان أمامها مُهمة تشكيل لجنة لصياغة الدستور، واستغرقت عملية صياغة الدستور حوإلى ثلاثة عشر شهراً، إلى أن تمت صياغته في ١٩ ابريل ١٩٢٣، وبعد هذا بحوالي شهرين ألغيت الأحكام العرفية بعد أن أصبح قرار التعويض قانونا في ٥ يوليو ١٩٢٣ [٨١]، وبعد ذلك بحوالي شهرين آخرين تمت الدعوة إلى انتخابات عامة بمرسوم ملكي.

يبدو مما سبق أن كل شئ مُهيأ بصورة طبيعية بعد إعلان اللنبي للاستقلال، ولكن تبقى حقيقة أن الفترة ما بين إعلان الاستقلال والدعوة لانتخابات عامة لم تكن خالية من الشاكل، وقد نتجت المصاعب بصورة أساسية من صياغة الدستور، وكانت المشكلات تتركز في ثلاث نقاط:

أ) من سيسُمح له بالتصويت ؟

ب) ماهي امتيازات الملك ؟

جـ) ما اللقب الذي سيُعطى للملك ؟

الرأي المثقف كان يؤيد نظاماً محدوداً لحق الانتخاب، ونوعاً من التصويت المتعدد مثل ذلك الذي كان أساس الدستور البلجيكي، وهو حق اقتراع عام لكن مشروط بالنسبة لكل من الرجال والنساء كما يلي:

"صوت واحد لكل مواطن عند سن معينة يقيم في احدى الدوائر الانتخابية لفترة معينة (تأهيل الإقامة)، وصوت ثان للكفاءة (مستوى التعليم)، وصوت ثالث على أساس المتلكات، واقترح أن تُعطى بطاقة بيضاء للمقترع الذي له الحق في صوت واحد، وبطاقة خضراء للمقترع ذي الصوتين، أما المقترع الذي له الحق في ثلاثة أصوات فيعطى بطاقة حمراء، وبهذه الطريقة تعطى السلطة للأشخاص المؤهلين الذي يتمتعون بمصالح خاصة في البلاد، وقيل أيضا إن هذا النظام سيفيد البلاد لأنه سيشجع الناس للعمل بجد من أجل تحسين تعليمهم، وبجد أكثر من أجل زيادة نصيبهم في ثروة الأمة، وسيكون هذا حائلا أمام انتخاب أي زعيم ثوري (Demagogue) يصل إلى السلطة

---

[٨١] قانون التعويضات{ "قانون التعويضات" XE } كان يُحقق التعويض لأولئك الاجانب الذين كانوا يعملون في البلاد الذين أستغنى عنهم بمقتضى الإدارة الجديدة أو أولئك الذين طلب اليهم التقاعد من الخدمة العامة سواء كانت عسكرية أو مدنية، وكانت تكلفة هذه التعويضات التي تحمّلتها الخزانة بين سبعة ملايين وثمانية ملايين جنيه، وهو رقم أُعتبر كبيراً ليُدفع كثمن للحرية من نير السلطة الأجنبية، وانتقدته الصحافة المصرية على هذا النحو.

بمجموعة من الجهلاء".

إلاّ أن هذه الأفكار رُفضت في النهاية، لأنه لم يرغب أحد في أن يوصف بأنه غير ديمقراطي، وتم تقرير الاقتراع العام للرجال، صوت واحد لكل رجل مما أدى إلى حصول الوفد الذي كان يتمتع بأغلبية الأصوات بين الأميين، وأنصاف المتعلمين من أعضاء المجتمع على ١٦٦ مقعداً من مقاعد مجلس النواب المنتخب حديثا التي تبلغ ٢١٤ مقعداً، لقد كانت نتيجة أية انتخابات حُرة لسنوات عديدة قادمة مقررة مسبقا: أي انتخابات تنظمها حكومة محايدة بدون أي تدخل من جانب السلطات ستؤدي إلى انتصار ساحق للوفد.

وفي هذه الظروف شعر الملك فؤاد أنه لن يستطيع تحقيق طموحاته أو أحلامه بالنسبة لمصر، لقد كان من المفروض أن يُصاغ الدستور على غرار النموذج البلجيكي المعاصر على أن يكون وضع الملك مثل وضع الملك الدستوري بكل ما في الكلمة من معنى، وتبقى السلطة في يد برلمان يتكون من مجلسين، مجلس النواب الذي يتكون من أعضاء منتخبين، ومجلس شيوخ يتم انتخاب جزء منه على أن يُعين الملك الجزء الآخر، وعن طريق الماطلة، وتأليب الأحزاب بعضها ضد بعض حاول البريطانيون وأحزاب الأقلية والملك فؤاد المناورة في صياغة الدستور بالطريقة التي تُعطي العرش أكبر قدر ممكن من الحكم الفردي، وبهذه الطريقة يستطيع أن يحقق طموحاته ألا وهي تدعيم عظمة مصر، وفي نفس الوقت تدعيم وضعه الشخصي، ووضع سلالته من بعده، لأنه على الرغم مما قيل من كره الملك فؤاد للنظام البرلماني بسبب التقييد الذي يفرضه الدستور الكتابي على سلطة العرش، إلا أن الهدف الذي كان يسعى اليه حقيقة هو خير بلاده وفقاً لتصوره، ولقد عبر عن طموحاته وأفكاره في حديث له مع البارون **فيرمن فاندار بوش**، وهو مُدّعي عام فخري بلجيكي – للمحاكم المختلطة في مصر الذي يروي في كتابه "عشرون عاماً في مصر" ص ٥٩ – ٦٠ وكان تصريح الملك كالتالي:

> " ما ينقصنا في مصر هو النُخبة الحقيقية الحاكمة، حيث يتم تكوين هذه الشخصية الحاكمة بصورة متسرعة فليس لدينا هنا أي تعليم ثانوي جاد، أريد أن أخلق تعليماً على غرار ما يحدث في أوربا، وأريد أيضاً أن يتصل أولئك المدعوين لقيادة مصير مصر بالعالم الخارجي على نحو جاد، فهل يمكن أن تتخيل أن رئيس وزرائي لم يعبر البحر أبداً؟ المصريون يذهبون لأوروبا للعلاج والترفيه مثل، فيشي ومونمارتر، أود أن أراهم يذهبون هناك للتعليم ولاكتساب الخبرة، وهدفي هو إرسال أكبر عدد من الشباب الموهوبين للمدارس العليا في انجلترا وفرنسا وايطاليا وبلجيكا، وفكّرت أيضاً في المدارس المتخصّصة مثل لييج أو جاند، وبمجرد أن تتصل البلاد بتعليمكم العالي في الخارج، أود أن أؤسس تعليماً مشابهاً له في مصر لأن الجامعة الحالية في القاهرة لاتزل جنينا لا شكل له، فيجب علينا اذن أن نبدأ من القاع، واذا كنا فعلا نريد نظاماً متكاملاً معبراً فنحن نحتاج إلى مدرسين أجانب يوجهون أفضل

العناصر المتوفرة لدينا، فقط ادرسوا ما أقول لأن لدي خطة كاملة مُعدة للتنفيذ ".

كان موقف الملك فؤاد فيما يتعلق بالنصوص المتوقعة للدستور متعارضاً مع أفكاره، فلقد كان مؤمناً ماماً بأن البلاد ليست مهيأة لتحكم نفسها، واتضح هذا في بعض كلمات قالها عند مناقشة الدستور: 'إن أردتم هذا الدستور البلشفي عندئذ فأنا أطالب بكافة صلاحيات وامتيازات لينين"، وحين قيل له ن هذا ليس دستوراً بلشفياً بل ديمقراطيا قال: "عندئذ أطالب بكافة صلاحيات وامتيازات رئيس الولايات المتحدة الأمريكية" وتناسى أن الشعب هو الذي ينتخب الرئيس الأمريكي ولمدة مُحدودة فقط، ولقد كان تكتيكه في الماطلة قد أخذ شكل محاولته لزيادة شعبيته، وذلك عن طريق التأثير في الروح الوطنية التي قد برزت في البلاد موضحاً بأنه هو السلطة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها وذلك باصراره على أن يكون لقبه "ملك مصر والسودان" في مقدمة الدستور المقترح. فاذا استطاع ان يحقق ذلك فقد نجح، أما اذا لم يستطع فهو على الأقل قد بَيَّن للوطنيين الذين كانوا يطالبون بوحدة السودان مع مصر بأنه ليس أقل وطنية منهم، ولا في يده حيلة إلا أن يخضع لسلطة أقوى منه، ولابد أنه كان يدرك ان احتمالات قبول بريطانيا لهذا الاقتراح ضئيلة جداً.

ونتيجة لهذا تدخل الانجليز واعلنوا بأنهم لا يمكنهم قبول تغيير وضع الحكم المشترك في السودان من جانب واحد حيث ان الحكم الثنائي أنشئ بمعاهدة في سنة ١٨٩٩ وهو ايضاً من احدى النقاط المُتحفَظ عليها لحين حلها بالتفاوض مستقبلاً، كما ذُكر في اعلان استقلال مصر.

قدم اللورد اللنبي تهديداً للملك فؤاد ليتراجع عن رأيه وقد ماطل الملك فؤاد لمدة ٢٤ ساعة ثم أذعن أخيراً ووقع على الوثيقة التي عرضها عليه اللنبي [٨٢].

يمكن أن تُعتبر السنوات من ١٩١٩ إلى ١٩٢٢ من أهم الحقب في تاريخ مصر الحديث لأن صدى الاحداث الناتجة عنها كان له أثر لا يُمحى من العقل الباطن للمنطقة بأسرها، لقد بيّنت كيف أن دولة صغيرة غير مُسلحة استطاعت بواسطة الوحدة أن تحصل على تنازلات من قوة أكبر منها بكثير، وفي نفس الوقت بسبب الانشقاق كان يُمكن أن تفقد كثيراً من امكانيتها، ولقد أوضحت الوحدة غير العادية في بداية الحركة في كل أرجاء البلاد، قوتها الكامنة، ومع أنها كانت غير مُنظمة وغير مُدركة، إلا أنها أصبحت يقظة، ونتيجة لهذا أطلقت العنان لمختلف القوى التي ما أن تُطلق إلا ويصبح من العسير السيطرة عليها، لأنه بمجرد أن يخرج

---

[٨٢] اللنبي – تأليف فيلد مارشال ويفل – ص ٣٢٠.

المارد من القُمقم فمن المستحيل إعادته ثانية.

بالرغم من ان ما نجم عن ما سبق من الغاء الحماية والاستقلال المشروط الذي مُنح لمصر والذي لم يرض طموحات المصريين حيث شعروا انه ليس استقلالاً حقيقياً. الا انه كان بادرة بمجيء عصر جديد. فكل ما سبق أظهر ان قوة استعمار القرن التاسع عشر يمكن أن تُزعزع، مما بشّر بأحداث عالمية مستقبلية.

ولكن القوى – التي انطلقت – اختلفت كثيراً عما كان مقدراً لها، وفوائدها كانت محل خلاف على المدى الطويل فسياسياً فان القوى التي كان من المفروض لها ان تفيد البلاد من خلال وحدتها تبدّدت من خلال انشقاقها الناتج عن الصراع على السلطة والسياسة الحزبية، مما أدى إلى عدم تمكن مصر من استغلال امكانياتها بأقصى صورة.

إلا أن النتائج الاجتماعية والاقتصادية كانت بعيدة الأثر، حيث استبدل المجتمع الأوروبي التوسعي الاحتكاري في البلاد بطبقة مصرية متوسطة جديدة حاولت أن تفعل الكثير وبسرعة كبيرة، وهذا بدوره أدى إلى أكثرية من أنصاف المتعلمين من السكان الذين يبحثون عن وظائف مكتبية ومعظمهم هاجروا من الريف إلى المدينة، وهكذا تحوّل قطاع عريض من المنتجين إلى مستهلكين وتفاقم الوضع بالانفجار السكاني نتيجة لارتفاع متوسط العمر من خلال الطب الحديث والزيادة الكبيرة في المواليد غير المنظمة، فازداد عدد السكان بأربعين مليوناً في سبعين سنة، فلقد كانوا أربعة عشر مليونا في عام ١٩١٩م، وأصبحوا أربعة وخمسين مليونا في عام ١٩٨٩م، بدون نمو متماثل في الثروة القومية، على نفس النحو فإن تحرير المرأة ضاعف من القوى العاملة المتاحة بدون أن يقابلها احتياج أقتصادي مماثل في السوق.

ومن المهم أن نلاحظ أن تحرير المرأة في مصر، مع أن شرارتها أوقدتها بعض العضوات من النساء ذوات المكانة في المجتمع المصري، إلا أنها قد زوّدت بالوقود من قبل الطبقة المتوسطة ودون المتوسطة التي كانت ترغب في مستوى معيشة أفضل يتم اكتسابه عن طريق مغادرتها لمنزلها والعمل خارج جدرانه، واليوم وبعد خمسة وسبعين عاما من التحرير قد نرى الكثيرات من الطبقة المتوسطة ومادونها، يفضلن حياة أكثر استقراراً وعُزلة في المنزل، اذا كانت هذه الحياة تضمن لهم الميزات التي يتمتعن بها من خلال العمل، لأنها تُريحهن من الصعوبات والمهام الروتينية التي تواجههن اليوم عند تعاملهن مع العالم الخارجي.

عودة إلى السنوات الأولى للحركة النسائية ما بين ١٩٢٠ و١٩٢٢ ، بعد تشكيل اللجنة المركزية النسائية للوفد المصري التي كانت ترأسها السيدة هدى شعراوي، وكانت استر نائبة الرئيسة، قبل بدء ظهور التصدّعات الأولى في وحدة هذه اللجنة. كانت النساء يشعرن أنهن كن يُحاربن من أجل استقلال مصر، بالشكل الذي رأينه ملائما، ولم

يقمن بصياغة سياسة مُعينة حيث كان هدفهن هو مساعدة سعد زغلول في مهمته، الا أنهن شعرن بالحرية في التعبير عن رأيهن، حتى وإن لم يُطلب منهن هذا الرأي، فأحسسن بأن لهن الحق في الدفاع عن وجهة نظر مصر بطريقتهن الخاصة، طالما انها لم تتعارض مع سياسة الرجال، ويتضح هذا في مقالاتهن في الصحافة، ولقد صاغت السيدة هدى شعراوي المقالات باللغة الفرنسية، أما استر فصاغتها باللغة الإنجليزية بعد عرضها على عضوات اللجنة بأسرها والموافقة عليها بطريقة ديمقراطية تماماً، ولكني وجدت بعض الرسائل كتبتها استر للصحف، ووقّعت عليها باسم " بنت النيل "، لقد كانت شابة مُندفعة لها منطقها الخاص الذي لم يكن بالضرورة منطق الأغلبية، ومع أنها لم تكن أبداً ممن يقللون من شأن من يعملون معها إلا إنها لم تكن تستطيع أن تحيد أبداً عما تراه في نظرها أنه صواب. وكانت تعرض رأيها بصراحة بغض النظر عما سيحدث ... وعندما كتب سير "فالنتين شيرول" المراسل الأجنبي لصحيفة التايمز مجموعة من المقالات عن مصر والقضية المصرية إبان بعثة ملنر في القاهرة شعر وفد النساء المصري بأن عليهن ان يعلقن على أحد هذه المقالات تحت عنوان "نساء مصر" والتي نُشرت في التايمز في ٢ يناير سنة ١٩٢٠ ، فكتبن ما يلي:

" نساء مصر "

رد على مقال سير فالنتين شيرول

بصفتنا ممثّلات للجنة المركزية النسائية للوفد المصري فاننا نشعر أنه من واجبنا أن نرد على مقال سير فالنتين شيرول المنشور في التايمز في ٢ يناير ١٩٢٠ بعنوان "نساء مصر".

يقول سير فالنتين أن الفلاحات يُعاملهن رجالهن " ***كمجرد حيوانات لحمل الأثقال*** "، وهو تصريح مُجحف باعتبار ان المرأة التي تختار أن تشارك زوجها في مهامه اليومية والتي " ***تدير بيتها*** " تقوم بأعمال هامة تعتمد على قدراتها لا يمكن أن تقارن على نحو عادل "***بحيوان***".

وفيما يتعلق بعدم كفاءة التعليم في مصر بالنسبة للرجال والنساء على السواء، فنستطيع أن نقول أن الخطأ يكمُن بصورة أساسية في الحكومة التي تخضع للسيطرة البريطانية والتي قدمت القليل جداً لتطوير التعليم في البلاد ومع أن لدينا عدة " ***مدارس خاصة*** " إلا أننا يمكن أن نُلام فقط لأننا ليس لدينا الكثير منها، ومصر المستقلة سوف تعمل على زيادتها في المستقبل كما ينسى سير فالنتين عندما كتب تحت عنوان "***الزوبعة السياسية***" أن نساء مصر على الرغم من أن مُعظمهن أميّات إلا أنهن ينحدرن من سلالة شعب ذي حضارة عريقة، ومع أنهن لم يحصلن على تربيتهن الاجتماعية والفكرية في المدارس، إلا أنهن قد وُلدن بمقدار كبير من

الفطنـة والحكمـة الفطريـة الـتي تؤهلهـن لمارسـة أوضـاعهن سـواء اجتماعيـاً أو فكريـاً بطريقـة تسترعي الانتباه، لقد نُقلت اليهـن تصـورات سـامية فيمـا يتعلـق بمكـارم الاخـلاق الـتي اسـتوعبتها مـن تقـاليد سـتة آلاف سـنة مـن الحضـارة، حتـى أصبحـت صفـات طبيعيـة في جنسـهن، ونسـتطيع أن نقول إنهـن بذلـك غالبـا مـا يتفوقـن علـى مثيلاتهـن اللائـي حصلـن علـى تعليـم اسـتلزم مجهـودات كبيرة وطويلة مـن أسـاتذة أوروبـا العظـام لكـي يدفعـن شـعبهن إلى اكتسـاب تلـك الصفـات.

وفي الحقيقة نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقـول أن المصريّـات في جيـل أو جيلـين فيمـا مضـى كـن ينظرن بازدراء إلى ما رأين في الحضارة الغربية وسلوكها التي اعتبرنها دون حضـارتهن، وجيلنـا فقـط هـو الـذي أخطأ، وحاول أن يستغنى عن القديم ويقتفي أثر الجديد بصورة عمياء، ومن حُسن حظنا أنه كانت لنا تجـارب في الحياة، ويسرُنا أن نقول أننا قد نضجنا، وبدأنا نميّز بين الصالح والطالح كي ما نتمسك بالصالح وننبذ الجزء الآخر مكونين بهذه الطريقة مستوى اجتماعياً وفكرياً خاصاً بنا.

ربما لا يعرف سير فالنتين أن *"المرأة المحجّبة في مصر"* قانعة بمـا قُدِّر لهـا مـن الحريـة، وهـي لا تحتاج إلى *"الصرخة المدوية للاستقلال التام"* لكـــي تُعـبر *"عـن رغبـة لا يمكـن مقاومتهـا"* *"والمفجـرة لأفكار الحرية"* والتي *"سوف تخرج بها إلى الشارع"* *"لتكسر حدة الملل"* في حياتها، وهي لا تفعل هـذا *"لتفوز بالحظوة"* عند *"سيدها وحاكمهـا"*، لأن وضعهـا في البيـت كـاف ليضمـن لهـا مكانـاً في مشـاعر زوجها التي هي بالنسبة له المعين الحقيقـي. إلا أن ظُلـم وجشـع السياسـة البريطانيـة والقمـع العسـكري للسلطات الانجليزية جذب المرأة المحجّبة من منزلها لتحتج نيابة عن إخوتهـا المطحونـين، وهكـذا أدت دورها باعتبارها النصف الآخر الحي من المجتمع المصري.

يتحدث المقال عـن نسـاء اشتركن في بنـاء المتـاريس مـع الرجـال و*"مع أنهـن قـد تفرقـن عنـد بـدء القتـال بـالفعل، عـادت بعضهـن للتشـفي في أعمـال العنـف الـتي ارتكبهـا الرجـــــال"*، فـأي نـوع مـن القتـال يشـير اليـه سـير فـالنتين؟ هـل كـان القتـال الـذي حـدث بـين المتظـاهرين العـزّل والرشاشـات البريطانيـة والفرسـان المسـلحين؟ لابـد وأن المصريـات قـد أظهـرن جبنـاً كبـيراً حـين تفرّقـن *"عندمـا بـدأ القتـال بـالفعل"* ليهربـن مـن الطلقـات الناريـة الغـادرة الـتي كـانت تتسـاقط كـالمطر مـن حولهـن مختلطـة بدمـاء رجـالهن وأولادهـن مـن المتظـاهرين العُـزّل المسـالمين.. لابـد وأنهـا كـانت معركـة مـن طـرف واحـد بـالفعل، ونتعجّـب مـن أنـه يوجـد رجـل انجلـيزي يسـمح لنفسـه لتذكـر مثـل هـذه الاحـداث *"أعمـال العنـف الوحشـية الـتي ارتكبهـا الرجـــال؟"*، بـالطبع ليـس مـن الطبيعـي بالنسـبة لامـرأة أن *"تتشـفي في أعمـال العنـف الوحشية"* الـتي أرتكبـت ضـد رفاقهـا الرجـال لأنـه كمـا يعـرف الجميـع فـان القـوات البريطانيـة لا تـترك

ضحاياها في الشوارع للمصريات " ليتشفوا فيهم "، لقد كان الأقرب إلى الحقيقة والإدراك أن يقال إن نساء مصر قد عُدن لينتحبن على *"أعمال العنف الوحشية"* **التي ارتكبت في حق رجالهن وأطفالهن.**

فيما يتعلق بالعداء بين المصريّات والإنجليزيات على وجه الخصوص، ليس لدينا أي داع للتفكير فيه حيث إن الإنجليز في مصر عموماً غير اجتماعيين ولا نعتقد أنه توجد سيدة مصرية قد أثّر فيها عدم الاختلاط بهم، صحيح أن من اختلطت منا بالمصادفة بإنجليزيات في مصر، وتعاملت معهن بمنتهى الرقة وكرم الضيافة، غالبا ما تكون لديها أسبابها الخاصة التي تجعلها تندم على هذه التجارب، ومن ثم فنحن نحرص على ألاّ نُجددها.

وفيما يتعلق *" بحصاد ضعف الحياة الاجتماعية المستقبلي "* الذي يتوقّعه الكاتب، فإنه لا يوجد أي احتمال لحدوث مثل هذا الخطر، وعلاوة على ذلك فنحن نُحاول أن نحول دون وقوعه، نحن نقف في صفحة هامة جداً من تاريخ مصر، ولدينا كل الأمل أن تتمكن نساؤنا من الوقوف في مُقدمة النساء النبيلات اللاتي يقُدن الجنس البشري إلى مستقبل أكثر إشراقاً، كما فعلت النساء في مصر القديمة.

نيابة عن نساء مصر

عضوات اللجنة المركزية النسائية للوفد المصري

التوقيع

هدى شعراوي، استر فهمي ويصا، إحسان احمد شاكر، رجينا حبيب خياط، نعيمه أبو أصبع، ألفت راتب، نعمت احمد حجازي، فايقه رفيق، شريفة رياض، فكرية حسني، منيرة علوي، فريدة سنوت حنا.

١٩٢٠/١/٣٠

يستطيع المرء أن يستنتج مما تقدم مدى الادراك والاطلاع الدءوب لهؤلاء المصريات المخلصات في الربع الأول من القرن العشرين على الافكار العصرية، لقد كُن يتابعن ما يكتب في الصحافة الأجنبية، ويُسارعن إلى تفنيد ما يرين أنه تشويه للحقائق في القضية المصرية.

ما يلي هو خطاب لاستر وقّعت عليه بتوقيع "بنت النيل"، وهو خطاب يُفسّر نفسه بنفسه:

زيارة السيد كليمنصو لمصر

رد على جريدة ذي إجيبشيان جازيت الصادرة في ٦ فبراير ١٩٢٠.

حين عُرف في لندن أن الرئيس ويلسون سيزور انجلترا بعد الهدنة، لم تَدخر الصحف الإنجليزية وسعاً لإقناع الشعب بمقابلة الرئيس ويلسون والترحيب به بحماس منقطع النظير، ولسنا في حاجة للقول بأن الشعب لم يكن مؤيدا لآراء ويلسون، لأنه كان بالنسبة لهم بمثابة ذلك البعبع الذي أتى ليحرمهم من بعض "حقوقهم" المكتسبة في الهيمنة على البحار. ولكنهم اختلفوا عن المصريين في أنهم استطاعوا أن يكشفوا نفاقهم العظيم بأن حيوا بحماس ضيفهم غير المرغوب فيه أمام بوابات قصر باكنجهام، أما المصريون فهم لن يقابلوا السيد كليمنصو بنفس الحماس الذي قوبل به الرئيس ويلسون من قبل الانجليز، ربما لأن المصريين اليوم لا يشعرون بأي التزام فيما يتعلق بمساعدات في الماضي، ولا يتوقعون أي مساعدات قادمة من رجل فرنسا، كما توّقع الإنجليز من الرئيس الأمريكي، إلا أن هذا لا يعني أنهم يرفضون زيارة السيد كليمنصو لمصر لقضاء شهر العسل، انهم يعرفون جيدا ان رجل فرنسا العظيم قد قايض حقوقهم، لأنه ببساطة من مصلحة بلاده أن يفعل هذا، وليس لأنه كان ضد طموحات مصر، إن مصر ترحب بالسيد كليمنصو بكرم شمسها المشرقة وابتساماتها، انها واثقة أن هذا الرجل العظيم في عُمق أعماق رُوحه سيتحسّر تعاطفاً حين يرى النيل الخالد الذي يسجّل تاريخ شعبه العظيم.. إن مصر تعرف أنه سيتحسر لأنه تصرّف تجاهها كما فعل ليخدم مصالح بلاده، حتى لو كان ضد ضميره، إن مصر سترحّب بالسيد كليمنصو لأنها تعرف أنه يتعاطف معها، وكذلك يتعاطف معها كل الفرنسيين مع أنهم لم يستطيعوا فعلاً أن يساعدوها.

أما فيما يتعلق بتلك الأمة (انجلترا) "رابطة الجأش" القادرة، الهادئة جداً في حُكمها لدرجة انها تستطيع أن تدور دورة كاملة بدون أن تحدث ضجّة بتكتيك جيشها، نعلم أنها لن تتمكن من أن تُحرز تقدماً كبيراً مع المصريين طالما أنها لا تدرك الظلم الذي توقعه بهم، مطالبنا العادلة وضميرها ستعترض طريقها في كل منحنى تماماً كما " فعل سيف الملاك مع حمار بلعام " * ، واذا كانت انجلترا على الرغم من كل هذا لا تزال مُصممّة على أن تطأ على ضميرها وحقوق الشعوب الأخرى، فربما تلقى شر هزيمة لها في مصر في يوم من الأيام، كما حدث لكل القوى المهيمنة من قبل، وسيكون من المؤسف أن يعيد التاريخ نفسه مرة أخرى في القرن العشرين.

إن مصر لن توافق أبداً على أن تتخلى عن حقوقها القومية لإنجلترا أو لأية قوة أخرى ولن يستطيع السيد كليمنصو أو غيره أن يقنعها بأن تفعل هذا، واذا رفضت انجلترا أن تتخلى عن ما ليس لها وشجعتها قوتها العسكرية على هذا، فإن الزمان سيُعطي لكل ذي حق حقه، ومن ثم فنحن يمكننا أن ننتظر الوقت الملائم.

أما بالنسبة للتهديد بأن " أسهل شئ يمكن أن تفعله انجلترا هو أن تنسحب إلى قناة السويس وتضم السودان، وتترك المصريين ليعتنوا بأمورهم الخاصة "، فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف يمكنها أن تفعل هذا. ان السودان ينتمي لمصر ومصر للسودان منذ بداية التاريخ، وسيكون من العجيب حقاً أن تكلل انجلترا تاريخها بحرمان مصر من مصدر حياتها، إن النيل حيوي وهام لمصر تماماً بقدر أهمية الحبل الشوكي للجسم البشري، واذا انفصل منبع

---

* قد يستخدم الله ظروفاً خارقة للطبيعة لايقاظ ضمير الناس كما استخدم (حمار بلعام) لتوصيل رسالة إلى بلعام أنظر قصة حمار بلعام في سفر العدد من التوراة اصحاح ٢٢ و٢٣.

النيل عن مصر عندئذ يجب أن نتوقع سلفاً مشاهدة الجثمان المسجى لأقدم وأعظم بلد في العالم محمولاً أمام سجلات التاريخ كنموذج حي على قدرات الإصلاح ذات الشهرة العالمية.

نحن نُرحب بالسيد كليمنصو، لكنه لن يستطيع أن يؤثر في آرائنا السياسية لأننا لسنا متحاملين ضد الإنجليز ولسنا أيضاً مؤيدين للفرنسيين على وجه الخصوص إنما نحن نكافح من أجل الحصول على حقوقنا، وهذا كل ما في الأمر، ولن يرضينا إلا أن نحققها،لاننا نعلم ان الزمن سيعطينا ما نستحقه.

بنت النيل

لست أدري لماذا كتبت استر هذا الخطاب وأرسلته باسم بنت النيل، وليس باسم اللجنة؟، يجوز أنه في ذلك الوقت كان يوجد جدال عما إذا كان من الدبلوماسية معاداة الرأي العام الفرنسي آنذاك، ولاسيما أن سعداً كان يحاول أن يحشد الرأي الفرنسي في باريس.

كما أن التصدعات التي ظهرت في الوحدة السياسية المصرية خلال عام ١٩٢١م بدت أنها قد اختفت لوقت ما بعد نفي سعد زغلول وبعض من رفاقه في ديسمبر من ذلك العام.

وأثناء تلك الفترة كانت لجنة المرأة تبدو موحّدة بشكل أو بآخر، برغم زحف بعض التغيير اليها لأن بعض النساء كُن يملن إلى تأييد وجهة نظر أزواجهن، ولكنهن بصورة عامة، كُن منتقدات لتصرفات رجالهن، صحيح أن قليلاً من نشاط اللجنة وحماسها قد تضاءل، فنجد ان استر مثلا أصبحت أقل نشاطاً بعد أن فقدت ابنها عدلي الذي صدمته سيارة وقد كنت مولودا لتوي، وبعد عدة سنوات حملت أمي ثانية بأخي الأصغر الذي أسمته عدلي أيضاً (على اسم ابنها الذي توفي).

وبالرغم من اختلاف السيدة هدى شعراوي رئيسة اللجنة المركزية للمرأة مع سعد زغلول، الا انها دفنت الفؤوس أثناء نفيه، وأصبحت أكثر اهتماماً بتحرير المرأة من اهتمامها بالسياسة، وفي نفس الوقت استمرت في التعبير عن آرائها فيما يتعلق بالأمور السياسية، وفي مارس ١٩٢٣ شُكلت جمعية باسم الاتحاد النسائي المصري ومن اغراضها رفع مستوى المرأة الأدبي والاجتماعي للوصول بها الى حد يجعلها أهلاً للاشتراك مع الرجال في جميع الحقوق والواجبات. وحيث انها كانت مُسلمة فقد كانت قادرة على ان تعبر عن مكانة المرأة المصرية لأن أغلبهن مسلمات وكان المطلب الأول للاتحاد النسائي المصري هو تغيير القانون ليسمح للبنات بالتعليم الثانوي في المدارس الحكومية بالاضافة الى رفع الحد الأدنى لسن الزواج للبنات الى السادسة عشرة ليُسمح لهن بالنضوج جسدياً وذهنياً.

أما استر فلكونها قبطية، فقد ساهمت على تشجيع إصلاح التعليم والنهضة بالرعاية الطبية، إلا أنها لم تستطع أن تّطرق أي موضوع له علاقة بالمعتقدات الإسلامية، واستمرت في لجنة الوفد المركزية للسيدات، وأصبحت المتحدثة الرسمية لها، كما يتضح من الخطابات التي أرسلتها إلى اللورد اللنبي من يوليو ١٩٢٢م والتي كانت أغلبها دفاعاً عن سعد زغلول ووجهات نظر أنصاره، وحاولت في نفس الوقت تحسين ظروف المعيشة للمسجونين أو المنفيين (مرفق نُسخة من خطاب الشكر وخطابات السيدة صفية زغلول ضمن باب الخطابات)، لقد كانت تُعبّر عن آرائها الخاصة واستقلالها بالطريقة التي تراها ملائمة، ولم تكن آراؤها تقليدية دائما، وهي سمة لم تُقلع عنها الي يوم وفاتها.

في مارس ١٩٢٣م وجهت دعوة لنساء مصر من الإتحاد النسائي العالمي لحضور مؤتمر في روما، وترأست السيدة هدى شعراوي الوفد المصري الذي ضم استر وخالتها مدام روجينا خياط (ابنة ويصا)، بالاضافة إلى سيدات أخريات، واستمر المؤتمر من ١٢ إلى ١٩ مايو ١٩٢٣م، وقد ذكرت السيدة هدى شعراوي في مذكراتها حادثة عن هذا المؤتمر:

> أذكر بهذه المناسبة أننا عندما ذهبنا الى المؤتمر ووجدنا أعلام الدول ترفرف في قاعة الاجتماع ولم يكن قد استعددنا لذلك لعدم معرفتنا ببروتوكول المؤتمرات، ولذلك فقد طلبنا من طلاب البعثة المصرية هناك تجهيز علم مصري يتعانق فيه الهلال والصليب وقد صنعوه أكبر حجماً من كل الأعلام الموجودة. فلما لفت نظرهم ذلك ، قالوا ان مصر أعرق الأمم ويجب ان يكون علمها أكبر الأعلام. وعندما قدمت العلم المصري لرئيسة المؤتمر ، نقلت لها وجهة نظر أبنائها الطلبة، فتبسمت. فلما فتحنا أمامها العلم ورأت عليه الصليب يعانق الهلال ، تأثرت تأثراً عظيماً ، وأمرت بوضعه على يسار المنصة معادلاً للعلم الايطالي الذي كان الى اليمين فشغل بذلك الموقع الممتاز بعد علم الدولة المنعقد المؤتمر بأرضها . وقدمتنا للمؤتمر تقديماً فيه كل التقدير والاعجاب وكان ذلك أكبر عامل في ازالة الفكرة التي شابت حركتنا الوطنية بوصفها بالتعصب الديني.

ومن الجدير بالذكر ان بابا روما وموسوليني استقبلا الوفد المصري برئاسة السيدة/هدى شعراوي.

كان عام ١٩٢٣م هو عام صياغة الدستور المصري، ولقد تدخّل اللنبي مرات عديدة ليحاول إقناع الملك بأن يقبل أن يكون الحكم دستورياً حيث ان الملك يملك ولا يحكم بالرغم من الامتيازات الملكية المتاحة له بموجب الدستور الجديد كإمكانية حل البرلمان، والدعوة لانتخابات جديدة، وقد أساء العرش استخدام هذه السلطة مرّات عديدة بين أعوام ١٩٢٤ و١٩٥٢م، كلما شعر أنه مُهدّد، مما سهّل الأمر لأولئك الساسة الطامعين في الحكم عن طريق التملق للقصر والبريطانيين الراغبين في تنفيذ سياستهم عن طريق الضغط في التأثير على سياسة القصر واستخدام هذه الامكانية، وقد أدى ذلك في النهاية الى قيام ثورة ١٩٥٢.

عاد سعد زغلول إلى مصر في سبتمبر ١٩٢٣م، وفي غيابه لم يستطع الوطنيون، الذين كانوا خارج السجن، بأن يقيموا الوضع بصورة واقعية، لأن هذا الوضع لم يكن استقلالاً أو احتلالاً، بل خدعة لعبتها بريطانيا عليهم مرّة أخرى، لقد قدّموا احتلالاً متنكراً في صورة دستور مُستخدمين الملك كأداة في أيديهم، فقد كان موقفهم أكثر ملكية من الملك، وما كان ليرضيهم شئ في هتافاتهم أقل من الإستقلال التام لمصر وللسودان.

عند عودة سعد باشا للبلاد بعد غياب استغرق عامين لم يتمكن من أن يُقيم شعور الرجل العادي فحاول ان يكون خطابه الأول هادئاً ومستكشفاً للوضع. فقال :-

> "لقد اعتدتم طاعتي، ولكني لست أميراً، ولم أنحدر من سُلالة ملكية ينحني أمامها الناس، فأنا فلاح ابن فلاح من أسرة متواضعة جداً والتي يراها أعدائي حقارة فليبارك الله في هذه الحقارة، انا لست ثرياً، لذا فإن تأييدكم لي لن يحقق لكم أي نفع مادي، وليس لي نفوذ، وعلى الرغم من هذا فأنتم تتجمّعون حولي وقد بيّنتم بهذا أنكم لا تحاولون كسب أي ثروة أو نفوذ بل قد تفضلون السجن في بعض الأحيان".

ولقد راق هذا النوع من الخطابة لرجل الشارع، وكان بإمكان سعد أيضا أن يكون شديداً صارماً مع أولئك الذين كان يعتبرهم مُنشقين وكان يدعوهم خونة باعوا أنفسهم، وأصبحوا أعداء للأمة، وكان يستخدم عبارات جذّابة مثل "الاستقلال التام أو الموت الزؤام" و "لن تخضع أي وزارة للسيطرة" قاصداً المستشارين البريطانيين، ومثل هذه العبارات كانت تُثير مشاعر الجماهير، إلا أنها لم تؤد إلى الاستقرار، وكان يهاجم المصريين الذين اعتقد أنهم يتآمرون ضده.

إبان الأشهر الأخيرة القليلة من عام ١٩٢٣م كانت حكومة يحيى باشا ابراهيم تستعد للانتخابات، ولم يكن سعد متأكداً مما إذا كانت الانتخابات القادمة ستكون نزيهة ام ان الحكومة ستزورها ضد حزبه، لقد كان حزب الوفد منظماً تنظيماً دقيقاً في كل أرجاء البلاد عكس بقية الأحزاب، ومن ثم فقد فاز في الإنتخابات بنتائج ساحقة. واثناء نفي سعد كان معظم أعضاء حزبه إما في السجن أو في المنفى معه، ولذلك فلم يُشكل أي برنامج سياسي حقيقي، صحيح أنه قُدمت وعود كثيرة من جانب الموجودين على الساحة، إلا أنه لم يتم تخطيط أي شئ ملموس، فالنقاط الأربع التي عليها تحفظات، مازالت مطروحة أمام بريطانيا للتفاوض بشأنها، ولقد تولى مقاليد الأمور آملاً أن يتمكن من التفاوض بنجاح فيما يتعلق بمعاهدة مع أول حكومة حزب عمال في انجلترا يترأسها السيد "ماكدونالد" الذي طالما أبدى تعاطفاً مع قضية مصر وهو خارج الحكم، إلا أن التحركات الأولية لمصر وبريطانيا لم تكن مُشجعة.

في ١٥ مارس ١٩٢٤م تم افتتاح أول برلمان مصري، وقُرأت برقية من رئيس وزراء بريطانيا إلى "أحدث البرلمانات" هذا نصها:

"أعتقد أن أواصر الصداقة القوية ستربط بين مصر وبريطانيا، ونرغب في أن نرى هذه الأواصر قد ازدادت قوة على أساس دائم، ولهذا الغرض فإن حكومة جلالة الملك مُستعدة الآن، وفي أي وقت لتتفاوض مع الحكومة المصرية"

وفي مقابل هذا كان خطاب العرش * للملك فؤاد مُعلناً رأي وسياسة الحكومة المصرية قائلا: .

"أمامكم احدى المهام الأكثر خطورة ودقة يتوقف عليها مستقبل مصر، ألا وهي مهمة تحقيق استقلالها التام بكل ما في الكلمة من معنى.. حكومتي مُستعدة أن تدخل في مفاوضات خالية من أية قيود مع الحكومة البريطانية بغرض تحقيق التطلعات الوطنية فيما يتعلق بمصر والسودان".

ويتضح من التصريحين السابقين ان بريطانيا تعرض استعدادها للتفاوض في أي وقت ولا أكثر من ذلك أما من ناحية مصر فكان عرضها يدل على وضعها الصارم ورفضها الكلي لكل ما تم انجازه حتى آنذاك (كان سعد في منفاه دائماً ما ينتقد إعلان ١٩٢٢م في الاستقلال المشروط).

أما حكومة حزب العمال (في انجلترا)، عندما وضعت تحت الاختبار رفضت الإذعان لمطالب مصر، فقد كان سعد زغلول سليم النية إلى حد ما في توقعاته، لأنه كان يعتمد على تغيير كامل ومفاجئ في السياسة الخارجية البريطانية، ولم يُدرك أن السياسة الخارجية في بريطانيا كان يصوغها وكلاء وزارة دائمون لا يتم تغييرهم بصورة جذرية مع تغيير الحكومات، ولم يكن من المحتمل أن يوصوا بالتغيير من السياسة المحافظة للورد كورزون إلى سياسة السيد ماكدونالد أول رئيس وزارة من حزب العمال، لا سيما لأن سعداً كان يُطالب بالغاء اعلان ١٩٢٢م ببساطة، وذلك بإسقاط الفقرات التي عليها تحفظات والجلاء عن مصر والسودان، دون تقديم أي شئ في المقابل، وبالإضافة إلى هذا ففي أثناء الأشهر السابقة ما بين تشكيل حكومة سعد في مارس وبداية المفاوضات في نهاية سبتمبر لم تكن مصر متساهلة، لأنها كانت دائماً ما تساوم فيما يتعلق بالمبالغ التي يجب أن تُدفع كتعويض للموظفين البريطانيين الذين تركوا الخدمة في الحكومة المصرية. وهي كذلك أوقفت دفع فوائد القروض العثمانية التي كانت تخصمها من المنبع من الإتاوة السنوية لتركيا بمعرفة بريطانيا لصالح أصحاب السندات والتي كانت قد وافقت على

---

* خطاب العرش في المملكة الدستورية ليس معناه انه يتضمن رأي الملك شخصياً بل يدل على سياسة الحكومة المنتخبة حيث ان الملك يملك ولا يحكم.

دفعها حين كانت مصر تابعة لتركيا. وأعلنت مصر – وهي مُحقة في هذا – أنها طالما قد أصبحت دولة ذات سيادة، فلا ينبغي أن يطلب منها أن توفر دفعات للديون العثمانية لأن مصر لم تكن مدينة بأي اتاوة لتركيا، وظلت مصر تدفع هذه المبالغ حتى وقت تشكيل حكومة سعد زغلول، إلا أن الحكومة المصرية رفضت الاستمرار في الدفع في ٢٥ يونيه ١٩٢٥، والجدير بالذكر هنا أن بريطانيا أو البريطانيين كانوا يحتفظون بمعظم سندات هذه الديون، وفي نفس الوقت اقترح مجلس الوزراء إسقاط الإعانة المالية السنوية التي كانت تُقدم لجيش الإحتلال البريطاني من الميزانية التي وافقت الحكومة المصرية على دفعها في سنة ١٩٠٧.

في ظل هذه الظروف رفض مستر ماكدونالد أن يقرّ أي تغيير في السياسة، وحين أخبره سعد أن هذه ليست مطالبه هو وحده بل مطالب البلاد بأسرها التي يمثلها البرلمان المنتخب فأجابه ماكدونالد "هل يطالب باشواتك وبكواتك بالاستقلال التام؟ أخبرهم إذن إننا سنمنحهم الاستقلال التام حين يمنحونه هم لفلاحيهم".

يُلاحظ أنه في تلك الفترة التي نكتب عنها كان الفلاح المصري حراً، ربما كان قد استُغل احياناً عن طريق مُلاك الأراضي المهيمنين، إلا أن ما يقال عن الإقطاعية المصرية لم يكن صحيحاً بالمرة، فلم يوجد أبداً نظام إقطاعي في مصر، كما كان في أوروبا حيث كان الفلاح مُرتبطاً بالأرض وبسيّده لأن قوانين الوراثة الإسلامية تحُول دون تكديس مساحات كبيرة من الأرض والاحتفاظ بها لأكثر من جيل واحد، وساعد نظام تعدد الزوجات وارتفاع معدل المواليد في تفتيت الملكيات الشاسعة، وقد كانت المشكلة تكمن في أن الطلب على الأرض الصالحة للزراعة كان دائماً أكبر من العرض، مما أدى إلى رفع أسعار الأرض وقيمتها الإيجارية فتنافس الفلاحون على استئجار الأرض مما أدى إلى انخفاض ربحهم.

أما في وقت الإحتكار إبان حكم الأتراك ومحمد علي، فلم يكن الفلاح حراً، وعندئذ لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً، سوى أن يعمل في أرض الحكام أو أصحاب الإمتيازات، بل كان أقل حرية حين استأجر الأرض، ولم يكن يعرف مسئولياته، إلا أنه حين بدأ يتملك الأرض وعرف حقوقه والتزاماته أصبح حراً، وقد كان هذا بفضل نظام الضرائب الذي اسسه كرومر، لقد تحرر الفلاح من المرابي حين أعلن كيتشنر قانون الخمسة أفدنة في عام ١٩١٣م.

حين فشلت المفاوضات مع حكومة العمال التي كان سعد يعلق عليها آمالاً عظيمة، لم يأمل في أي مفاوضات ناجحة مع حكومة المحافظين على الأقل ليس في المستقبل القريب، تحت زعامة سير أوستن شامبرلين التي خلفت حكومته حكومة العمال في عام ١٩٢٤م، أما في مصر فقد كان خصوم سعد يشمتون

بسعادة في فشله لأنه كان دائما ينتقد مجهوداتهم ويقلل من شأنها، وحين أتيحت له الفرصة لم يستطع أن يقدم شيئاً ملموساً وعاد سعد إلى مصر صفر اليدين، وقال للشعب: "لقد عرضوا علي انتحاراً ورفضت"، وجاء خطاب العرش الثاني في بداية نوفمبر ١٩٢٤م، أقل تطرفاً في نبرته، لقد أدرك أن مهمة الحكومة والبرلمان هي حل مشاكل البلاد الداخلية مثل تطوير التعليم وغيره من الأمور، وهو لم يستطع أن يترك مصر في حالة من الركود وانهيار الروح المعنوية بدعوى أن البريطانيين لم يعرضوا عليه الإستقلال التام على طبق من فضة دون أية قيود مرفقة به.

إلا أن خصومه السياسيين لم يكونوا مُستعدين الآن أن يتركوه يخرج من هذا المأزق، فأعلنوا أنه قد فقد استعداده للكفاح، وانه قد تقدم به العمر جداً ليتولى مقاليد الحكم، وانه كان يصرف انتباه البلاد إلى الشئون الداخلية ليظل في السلطة، وطالبوه أن يحقق وعوده في التخلص من قوات الاحتلال والحصول على الاستقلال التام لمصر والوحدة مع السودان. لقد كانت هناك شائعات أن الخديوي عباس حلمي والحزب الوطني كانا يثيران الإضطرابات في مصر والسودان، واتهموا سعداً بالتآمر مع الخديوي، وقامت مجلة الكشكول وهي مجلة معارضة أسبوعية برسم سعد كاريكوتورياً بصورة شريرة لدرجة أن مقالاتها اللاذعة ورسوماتها الكاريكاتيرية الرائعة من إعداد "جوان سنتس" أثارت الطلبة الوفديين من الشباب، لدرجة أنهم أحرقوا مقرها، واتهمت المعارضة سعد زغلول بتشجيعهم، مُضيفة أنه كان يحاول أن يخمد أي نقد له في البلاد، وذكروا الجميع بأسلوبه الديكتاتوري في البرلمان حتى تجاه أعضاء حزبه وأسموه 'برلمان سعد' وقالوا إنه مُشكّل من نواب أميين، وأنه على الرغم من أن تعداد مصر كان قد بلغ أربعة عشر مليونا، إلا أن العديد من المصريين المتعلمين على نحو جيد قد تم تجاهلهم وذكرت المعارضة الجميع بأسلوب سعد المستبّد الذي كان يملي به قراراته على النواب دون أن يقبل أي اعتراضات، حتى قيل أنه سأل أحد النواب الذي وقف ليبدي بعض الملاحظات على الحكومة:

" تحت أي مبادئ تم انتخابك؟ ".

رد النائب: " تحت مبادئك ".

فأجاب سعد: " إذن لا يوجد مبرر لهذه المناقشة ".

وفي وقت آخر حين تبرم من إلحاحهم بكثرة الاسئلة عليه في المجلس فيما يتعلق بالسودان صرخ قائلا: "هل لديكم جيش؟ اذا كنتم تريدونني أن أحضر لكم القمر عليكم بتزويدي بسلّم كي ما أصعد وآتي به إليكم".

لقد اكتشف بمرارة، أنه أيسر لك أن تَنْتَقِد حين تكون في المعارضة من أن تُنْتَقَد وأنت في الحكم وتُهاجم من جميع الجهات.

في هذه الظروف، كان سعد مُكتئبا ومُتهماً ظلماً بمحاولته إسقاط الملك، فقدّم استقالته إلى الملك فؤاد الذي لم يقبلها، وشعر أنه إن لم يستطع أن يدافع عن نفسه ضد خصومه، فانه سيفقد منزلته في عين الشعب، وأن البلاد لن تكون في حاجة اليه فيما بعد، لقد أدرك أن حكومات عديدة كانت تحكم بدون تأييد الشعب، ومن ثم فلم تستطع أن تنجز شيئاً، أما تلك الحكومات التي كان يساندها الشعب استطاعت بطريقة أو بأخرى أن تحدث بعض التحسينات في شئون البلاد. بيد أن كل هذا الخلاف الداخلي لم يزعج البريطانيين، فمن وجهة نظرهم ان المصريين كانوا ينظمون شئونهم والانجليز كانوا قانعين بالوضع الراهن، بل أكثر من هذا، قبلوا فكرة التعاون مع سعد لأنه على الأقل يستطيع أن يكبح جماح الملك، واثناء اجتماع لسعد مع الملك استمرت الجماهير تصيح صارخة "سعد أو الثورة" وعند خروجه من القصر شكر سعد الجماهير وصرفها.

بعد ثلاثة أيام من اجتماع سعد مع الملك في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤م، وفي اثناء الظهيرة تعرّض السير لي ستاك باشا سردار (القائد العام) الجيش المصري والحاكم العام للسودان ومعاونه وسائقه الاسترالي، تعرضوا جميعاً لإطلاق النار عليهم فأصيبوا من جانب مجموعة من المتهورين الذين استطاعوا أن يفروا في سيارة أجرة، فتم نقل المصابين إلى دار المندوب السامي حيث وصل سعد بعد ساعتين ليستفسر عن هذه الجريمة، فأشار اللنبي إلى المعاون والسائق المصابين وقال " هذا من تدبيرك "، وأراد أن يصحبه إلى غرفة السردار، ولكن قيل له إن السيدة ستاك لن تقبل هذا، فاستدار سعد زغلول وأسرع بالخروج دون أن يلفظ بكلمة واحدة [٨٣]، ومات سير لي ستاك قبل منتصف ليل اليوم التالي، فألقى هذا الاغتيال البلاد بأسرها في الذعر، وشعر الجميع الآن أن انجلترا لديها الفرصة لتوجيه لطمة شديدة لمصر، وصُدم كل من المجتمع الإنجليزي والمصري بصورة كبيرة بهذه الجريمة الحمقاء.

كان سير لي ستاك انساناً يتمتع بجاذبية شخصية كبيرة، فأحبه واحترمه كل من المصريين والبريطانيين، لقد خدم مصر والسودان لمدة ثلاثة وعشرين عاماً، وثارت مشاعر المجتمع الإنجليزي بصورة شديدة، وقد كانت معظمها مُوجهة ضد اللنبي الذي اعتقدوا أنه قد تساهل أمام التطرف، وكان يجب عليه أن يكون أكثر حزماً، فشعر اللنبي بامتعاض شديد، وأحس أن المصريين قد خانوه وهو الذي حصل لهم على استقلال مشروط على الرغم من المعارضة الشديدة من جانب البريطانيين والأجانب الذين

---

[٨٣] اللنبي الجندي ورجل الدولة " من تأليف لورد ويفل ص ٣٣٣.

يعيشون في الداخل، وعلى الرغم من تخوف هوايت هول من هذا الاستقلال، لقد وضع مصر على الطريق الصحيح إلى الاستقلال التام في المستقبل. ولم يسامح سعد زغلول أبداً، وكان يتحدث عنه حتى فيما بعد قائلاً: "ذلك العجوز الشرير" [٨٤] واحقاقاً للحق، لم يكن لسعد زغلول أو أي من الوفديين البارزين أي معرفة مُسبقة بالجريمة، أو أي فكرة عن أي ترتيبات يتم تدبيرها، وأدرك سعد أنها بالنسبة لمصر "أسوأ من مجرد جريمة، بل كانت خطأً فادحاً"، أما لطموحاته الشخصية، فقد كانت قاتلة، وبعدها مباشرة قال بحزن: "بالنسبة لي إنها ضربة مُميتة".

أخبرتنا استر أنه في أحد الأوقات، حين كانت تحاول أن ترفع من معنوياته، وجدته يقول: "لقد انتهى كل شئ، انتهى كل شيء"، فأجابته "لا تقل هذا يا باشا، فالبلاد بأسرها خلفك، فإذا كان لديك ثلاثة رجال صالحين تستطيع أن تثق بهم ويمكنك ان تفوز في معركتك"، فأجابها: "أذكري لي أسماءهم"، فبدأت تُعدد بعض الشخصيات، لكنه كان يهز رأسه مع كل اسم، ثم قال لها مربتاً على رأسها: "لديك روح صالحة يا ابنتي".

شُيعت جنازة رسمية للسير لي ستاك، وأناب ياور عن الملك فؤاد، وتبع الوزراء المصريون الموكب الجنائزي يقودهم سعد زغلول، وحضره الأمراء المصريون وأعضاء مجلسي الشيوخ والنواب، وقد حضر أعضاء السلك الدبلوماسي بأسره، مرتدين الزي الرسمي الكامل، وحمل ثمانية صولات بريطانيين كانوا يخدمون في الجيش المصري التابوت إلى المدفن، واستغرق الموكب ساعة بأكملها للعبور عند احدى النقاط، فبدا كما لو أن القاهرة بأسرها قد خرجت لتشاهد الموكب[٨٥].

وضع هذا الاغتيال الأحمق الحكومة المصرية في مأزق لم تستطع الخروج منه، وكان اللنبي قد قرر أن يقدم إنذاراً لمصر في ظهر نفس يوم الجنازة، وكان قد أبرق لوزارة الخارجية البريطانية موضحاً النصوص المقترحة لهذا الإنذار، وفي نفس الوقت خشى أن تستقيل الحكومة قبل أن يتمكن من تسليمها الانذار، وكان البرلمان سينعقد في الخامسة بعد الظهر وحين أدرك أنه لن يتمكن من تلقي رد هوايت هول قبل ذلك الوقت، قرر أن يتصرف بمفرده، فارتدى ملابس غير رسمية من سترة رمادية اللون وبرنيطة عادية يرافقه اربعمائة جندي، وتوجه إلى مكتب رئيس الوزراء الذي كان في مواجهة مبنى البرلمان وأمام النواب الذين بدأوا في التجمع ذهب مباشرة إلى حجرة رئيس الوزراء وقرأ عليه الإنذار، ونصه كالآتي:-

---

[٨٤] " اللنبي الجندي ورجل الدولة " من تأليف لورد ويفل ص ٣٤٠.

[٨٥] " اللنبي الجندي ورجل الدولة " من تأليف لورد ويفل ص ٣٣٧.

بعد مقدمة توضح وجهة نظر بريطانيا، فيما يتعلق بالأحداث والأسباب التي أدت اليها سرد مطالب حكومة صاحب الجلالة:

١) تقديم اعتذار عن الجريمة.

٢) إجراء تحقيق وتقديم المجرمين للمحاكمة.

٣) قمع أية مظاهرات مستقبلية.

٤) دفع غرامة فورية مقدارها ٥٠٠ ألف جنيه.

٥) الأمر بالإنسحاب الفوري لكل الضباط المصريين من السودان، بالإضافة إلى كل الوحدات المصرية في جيش السودان.

٦) إخطار الإدارة المختصة بأن المنطقة التي سيتم ريّها في الجزيرة بالسودان ستزداد من ٣٠٠ ألف فدان إلى رقم غير مُحدد، كما تقتضي الحاجة.

٧) سحب كل معارضة للحكومة المصرية ضد التحفظ فيما يتعلق بحماية المصالح الأجنبية في مصر.

أما في حالة عدم الإذعان لكل هذه المطالب، فسيؤدي الأمر إلى قيام حكومة جلالة الملك باتخاذ الإجراء الملائم لحماية مصالحها في مصر والسودان.

ويلاحظ أن رد وزارة الخارجية البريطانية كان أقل صرامة، وشعرت بأن المطالبة بتعويض يُشبه "ديّة القتيل"، وان الكلمات 'ري غير محدود' يجب أن تُستبدل بتوسيع نطاق الري في الجزيرة اذا كان هذا مستطاعا، بدون الإضرار بمصر وفق ما تحدده لجنة فنية تضم عضواً تعينه الحكومة المصرية، ومع هذا فقد تم تقديم الإنذار، والتزم به اللنبي شريطة أن تخفف نبرته في المستقبل وفقاً للظروف.

هذا، وقد كان رد سعد زغلول بسيطاً فقد عبّر عن فزعه من الجريمة، ووعد بملاحقة المجرمين والقصاص منهم على نحو عادل، إلا أنه أحل الحكومة المصرية من كل مسئولية، ولم يستطع أن يقبل أياً من المطالب باستثناء مطلب التعويض، ومن ثم فقد وقّع وزير المالية الذي كان قد عُين قبل الاغتيال بيوم أو يومين على شيك قيمته ٥٠٠ ألف جنيه.

ورداً على هذا، فقد تصّرف اللنبي بدون أن يحصل على إذن من الحكومة البريطانية، واحتل

الجمرك في الاسكندرية، فأدرك سعد أنه ليس باستطاعته أن يفعل شيئا، ومن ثم قدّم استقالته وسط ضوضاء في البرلمان المصري، وفي هذه المرة قبل الملك فؤاد الاستقالة، وطلب من "زيوار باشا" تشكيل الحكومة، وبالاضافة لهذا، قبل زيوار باشا شروط الإنذار، ونتيجة لذلك تم الجلاء عن الجمرك بعد أن شعر البريطانيون بأنهم يستطيعون أن يقدموا تنازلات لحكومة صديقة، وتم تحديد مساحة الأرض التي ستروى في الجزيرة عن طريق لجنة كانت مصر مُمثلة فيها، أما زيوار باشا الذي كان رئيساً لمجلس الشيوخ، فقد شكل حكومته من عناصر خارج أعضاء البرلمان، وصدر مرسوم بارجاء جلسات البرلمان، وعند انتهاء ميعاد المرسوم صدر مرسوم جديد بحلّه.

كانت المعارضة عندئذ تهاجم سعداً بلا رحمة، ويوجد مثل يقول: "حين يقع الثور تكثر سكاكينه"، والصحف الأجنبية وضعت اسم سعد في الوحل، وفي البداية التزم سعد بالصمت، وترك منصبه معلنا بأنه سيساند أية حكومة تُخرج البلاد من وضعها الحرج، وتم ترشيح اسماعيل صدقي كوزير داخلية في حكومة زيوار، فطاف بأنحاء البلاد مُصرحاً بأن سعداً قد جر البلاد إلى حالة من الفوضى وأقسم أن سعداً ومواليه لن يستعيدوا السلطة أبداً، وكان يقول: "لا، بلادنا لن ترى ثانية أيام الفوضى هذه".

تمت انتخابات جديدة في مارس وتساوى الجانبان – الحكومة والمعارضة (انصار سعد) في عدد الاصوات التي حصلا عليها – فأعلن كل منهما أنه قد فاز بها.

افتتح الملك البرلمان رسميا في ٢٣ مارس ١٩٢٥، وأُنتخب سعد زغلول رئيساً للمجلس، وحصل على ١٢٣ صوتً مقابل ٨٥ صوتاً، وقد كان هذا بمثابة صدمة لوزارة زيوار الذي كان يتوقّع أغلبية لمرشحيه، وعند افتتاح الجلسة المسائية لم يحضر أي وزير، واستمر العمل بصورة طبيعية، إلا أنه في الساعة ٧,٤٥ مساءً فُتحت الأبواب، ودخل رئيس الوزراء وبقية الوزراء، وقرأ مرسوما ملكيا يقضي بحل البرلمان، مع وعد بإجراء انتخابات جديدة في الخريف بعد سن قانون انتخابي جديد، وعندئذ وصف سعد زغلول حل البرلمان بأنه مُخالف للدستور وبأنه "لطمة وقحة للكرامة الوطنية"، وقد علقت استر على فترة ما قبل الانتخابات وما بعدها في خطابين أرسلتهما إلى لورد اللنبي في مارس سنة ١٩٢٥م، وكانت الفترة ما بين حل البرلمان والانتخابات الجديدة نشطة للغاية في حياة استر السياسية، حتى وفاة سعد زغلول.

اثناء فحصي لأوراقها بعد وفاتها اكتشفت انها قد شكلت لجنة سياسية من السيدات، استمرت مع سعد، وكانت تسمى باللجنة السعدية للسيدات، وكان قد تم تشكيلها لمساعدة سعد وحزبه أثناء وجودهم خارج الحكم، ولتعليم الأمة المبادئ السماوية التي ما كان لها أن تحقق أهدافها بدونها [أنظر ملحق (٥)

– إصلاح التعليم – الموجه إلى مدام شريفة رياض]، في ذلك الحين كانت نساء كثيرات قد سئمن السياسة وبعضهن كن يؤيدن أزواجهن بفتور وأخريات أصبحن أقل اهتماماً، فلم يعد هناك حماس أو وحدة الأهداف التي كانت موجودة في ١٩١٩، فلم يعد سعد زغلول بعد زعيمهن الأوحد بلا منافس الذي كان يُطالب بالغاء الحماية، فقد خيمت ظلال السياسة الحزبية على الوضع، مما جعل النساء يشعرن أن أحداً لا يريدهن أو يحتاجهن، ومن ثم فعليهن الابتعاد.

كانت السيدة هدى شعراوي وأخريات قليلات مازال لديهن آراؤهن السياسية، وكُن مُستعدات للتعبير عنها بقوه، ويُردن إصلاح القوانين التى تحكم مكانة المرأه في المجتمع حيث انهن لم يُمنحن حق التصويت حتى ذلك الحين فقد أصبح الرجال أكثر أنانية، وخافوا من أن يفقدوا امتيازاتهم، ولم يرغبوا في أن يشاركهم النساء سلطتهم السياسية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يعيدوهن إلى جناح الحريم ثانية طالما أنهن قد خرجن منه، ومن ثم فقد قاموا بتشجيعهن على أن يصبحن أكثر اهتماما بالشئون الاجتماعية، فتولت السيدات الفضليات هذا الأمر على عاتقهن، وأيضاً الأميرات أصبحن راعيات لأعمال خيرية مختلفة، ومن ثم فقد انتشرت المؤسسات الخيرية في كل أنحاء البلاد، وتم افتتاح مستوصفات تنهض بالاحتياجات الطبية في الأحياء الفقيرة من المدن والقرى، وتم تأسيس رياض الأطفال التي تقدم للأطفال التعليم والغذاء، وقد أدارها كلها مؤسّسُوها بدقة متناهية مُضحّين في ذلك بوقتهم ومالهم.

وفي عام ١٩٢٤م أسست استر جمعية خيرية في الاسكندرية أسمتها "جمعية العمل لمصر" وأدارتها حتى عام ١٩٦٢م إلى ان تولت أمورها وزارة الشئون الإجتماعية إلا أن هذه الجمعية لها قصه اخرى.

قد يكون القارىء قد كوّن فكرة عن المناخ السياسي المضطرب في البلاد حينذاك عندما أُرجئ البرلمان المنتخب لتوه، ثم بعد ذلك أمر الملك بحلّه في أول جلسة له بايعاز من رئيس الوزراء زيوار باشا، ولقد أوضح هذا الوضع أن أحزاب الأقلية المتألفة من الساسة القدامى والنُخبة المتعلمة، وأولئك الذين كانوا يتعاونون مع زيوار باشا بأنهم لا يستطيعون أن يؤيدوا حكم أغلبية الأمة ووصفوهم بأنهم الرعاع أو الغوغاء، أما أنصار سعد زغلول فقد كانوا ثائرين، ووصفوا ما حدث بأنه غير دستوري، واذا تحرينا الدقة فأنهم على صواب.

ولم يهتم البريطانيون بما حدث لأنهم كانوا قد أنتهوا من وضع سياستهم، فمشاكل مصر على مسئولية مصر، وعليها ايجاد الحلول لها وأن تتحمل نتائج أعمالها، وسوف نوجز وجهة نظر بريطانيا عن سياساتها في مصر فقد كانت قبل عام ١٩٢٢ محتلة لمصر ومشرفة على ادارة مصالح المصريين والاجانب وتعُد الشعب للحكم الذاتي الى ان يحين الوقت الذي يستطيع فيه ان يحكم نفسه.

نشاط السيدة استر فهمي ويصا



حفل استقبال من لجنة شباب الوفد على رصيف ميناء الاسكندرية للسيدة استر فهمي ويصا عند وصولها من أوروبا بعد احدى مؤتمراتها



السيدة استر تنتظر ان تلقي كلمتها في مؤتمر كتلة السلام

على الرغم من ان حقيقة الوضع هي أن بريطانيا كانت لها مصالح تجارية وعسكرية في البلاد، وفقد شعرت أنها حيوية لمكانتها الإمبريالية، ومن ثم فقد عقدت العزم على الاحتفاظ بها وأعلنت أن سياستها الحالية هي الاحتفاظ بالوضع الراهن.

وبعد سنة ١٩٢٢ وبعد ان اصبحت مصر دولة ذات سيادة فقد أدعت بريطانيا ان لها وضعاً خاصاً بالنسبة لكافة الدول الاخرى فيما يتعلق بأمنها الامبريالي إلى أن تستطيع أن تتفاوض مع مصر بشأن التحفظات الأربعة، التي تضمن الحفاظ على مصالحها الحيوية، ومع هذا فقد كانت مصر حُرة في تطوير مؤسساتها الوطنية وفقاً لتطلعاتها، وقد قرر اللورد اللنبي أن يستقيل بعد اغتيال السير لي ستاك لأنه كان منتقداً من جانب الجالية البريطانية وأعضاء وزارة الخارجية، والذي بلغ ذروته عند قيام السير أوستن شامبرلين بتعيين السيد نيفيل هندرسون كمستشار في القاهرة، دون مراعاة لشعور اللنبي ومع هذا فلم يُعلن اللنبى تاريخ استقالته لأى أحد وأرجأ إعلانه لستة أشهر، وغادر القاهرة في ١٤ يونيه ١٩٢٥م تصاحبه مظاهرة حب كبيرة ليس فقط من جانب أصدقائه الشخصيين وسكّان القاهرة، بل من كل الطبقات في جميع أنحاء مصر لأن المصريين شعرُوا أنه بواسطة لورد اللنبى شخصياً قد تمكنوا من الحصول على الاستقلال المشروط الذى يتمتعون به آنذاك.

مرضت استر بالتيفود في أبريل من ذلك العام نفسه وكان مرضاً خطراً لفترة طويلة وكانت في الاسكندرية إبان ذلك الوقت، وكانت أختها جميلة الأصغر منها بعشر سنوات تُساعد في العناية بها، وحتى بالرغم من اعتقادها بانها ترقد على فراش موتها كانت تُحاول أن تُنظّم الأشياء من أجل رعاية زوجها وأسرتها، وكان عندها في ذلك الوقت أربعة أطفال، وجعلت زوجها فهمي وأختها جميلة يَعِدانها أنهما سيتزوجان في حالة موتها لأنها اعتقدت أن جميلة كانت ستُصبح أفضل زوجة لزوجها وأفضل أم لأبنائها، وربما كانت مُحقّة في تقديرها، إلا أنها لم تضع وُجهات نظر الأشخاص المعنيين أنفسهم في الحسبان. يالها من سليلة للفراعنة بالفطرة !

آخر خطاب كتبته استر للورد اللنبي كان في ٢ يونيو ١٩٢٥م وأرسلته من الاسكندرية حيث كانت تتماثل للشفاء بعد مرضها الطويل وكالعادة فقد رد اللورد اللنبي على خطابها بخط يده في اليوم التالى (انظر الخطابات).

على الرغم من اختلاف آرائهما فيما يتعلق بالأمور السياسية، إلا أن استر كانت تَكِن تقديراً عظيماً للورد اللنبي، وكانت تراه خصماً شريفاً مستقيماً مهذباً يعتنى بضحايا الظلم مُستعدا بأن يُخاطر من أجل المبادىء التى يراها عادلة، وقد كانت كل هذه الصفات لها المكان الأسمى في طريقة تفكيرها، ويُمكن أن يلاحظ هذا من خلال مراسلاتها له طوال ثلاث سنوات، وصحيح أن معظم ردوده لخطاباتها لم تعدُ عن كونها إشعار باستلام خطاباتها المطوّلة، ولكن من الملاحظ أنه كان يفكر فيما كتبت وهي لم تكن ترغب أبدا في نشر هذه الخطابات أثناء حياتها.



اللورد لويد – المندوب السامي البريطاني ١٩٢٥ – ١٩٢٩

والسبب الذي وراء نشر الخطابات المتبادلة بين استر واللورد اللنبي هــو أن ألقي بعض الضوء على شخصية انسان عطوف أساء فهمه كل من البريطانيين والمصريين، وقد عُـثر على خطاب بين مقتنيات استر يرجع تاريخه إلى ١١ نوفمبر ١٩٢٥م يقر باستلام خطاب لها يرجــع تاريخه إلى ١ نوفمبر ١٩٢٥م مُوجه إلى المندوب السامي الجديد لورد لويد ومُوقعاً عليه مــن جـانب سكرتيره الشرقي، أما محتويات خطاب استر فهى غير معروفة لأنه لم يتم العثور على نسخة منه، وهو غير متصل بالموضوع، ولا نحتاج أن نقول إنها لم تكتب أبدا له ثانية على قدر ما أعرف، وانا إنما أذكر هذا لأوضح الفرق بين سلوك اثنين من الدبلوماسيين شغلا نفس المنصب، ان موقف المندوب السامي الجديد كان مختلفاً كليةً عن سلفه الذي توفى في عام ١٩٣٥.

أثناء الفترة ما بين رحيل اللورد اللنبي ووصـول المنـدوب السـامي البريطـاني الجديـد اللـورد لويـد في أكتوبر من نفس العام أصبح المسرح السياسي في البلاد أكثر ميوعة، وكان الملك فؤاد يشعر دائما بأن سعد زغلول والوفد كانا يمثلان تهديداً لعرشه وحائلا أمام حُكمه كملك مطلق، لأنه على الرغم من موافقته على دستور ١٩٢٣م، إلا أنه لم يروض نفسه أبدا لقبوله، والآن وبعد أن تم حل البرلمان، وكانت البلاد تُحكـم بما يُسمى بحزب الملك تحت قيادة رئيس الوزراء زيـوار باشـا، الـذى كـان يوصـف بأنـه معاديـاً للوفـد، وكذلك مؤيداً قوياً للنظام الملكي والبريطانيين فقد شعر الملك فؤاد بأنه يستطيع أن يُدعم سلطته إذا استطاع أن يُقيّد المعارضة، وقد حاول رئيس الوزراء يساعده في ذلك حسن نشأت باشا رئيس الديـوان الملكـي بـأن يجتذبا كل الساسة خارج الأحزاب الرئيسية للانضمام إلى حزب الملك، ولكي يُدعموا فُـرص نجاحهـم، فقد تمت صياغة مشروع قانون يتعلق بالأحزاب السياسية بغرض إعطاء القصر سلطات واسـعة تُمكنـه مـن قمع أى مُعارضة سياسية، ولقد رفض الحزبان الرئيسيان الوفـد والأحـرار الدسـتوريين مثـل هـذه المنـاورة وشعرا أن دستور ١٩٢٣م سيتعرض للخطر وأن الأحزاب السياسية بصورة عامة ستضعف، وقـد أدى هـذا إلى التقارب فيما بينهما.

عندئذ نشر سعد زغلول بياناً يُفيد بأنه يؤيد بشدة ذلك الاقتراح الذى يطلب ضرورة انعقاد البرلـان في ٢١ نوفمبر وفقاً لنصوص الدستور سواء دعا الملك لانعقاده أم لا. فأجابت الحكومة بعـد ذلـك بثلاثـة ايـام وبالتحديد في ١٨ نوفمبر، تحظر انعقاد البرلمان، وحرمت إقامة اية مظـاهرات ممـا نتج عنـه أن أغلقـت الشرطة والقوات المسلحة كل المداخل إلى مبنى البرلمان في ٢١ نوفمبر، وعندئذ اجتمع ١٣٤ نائبا و٥٦ مـن أعضاء مجلس الشيوخ في فندق كونتينتال، وانتخبوا سعد زغلول رئيساً للمجلس (حزب الوفد)، وانتخبـوا أيضا محمد محمود (حزب الأحرار الدستوريين) نائباً للرئيس وعبد الحميـد سـعيد (حـزب الوطـن) نائبـاً

للرئيس، وأهمية هذا الاجتماع تكمن في انها المرة الأولى التي يتّحد فيهـا الوطنيـون والأحـرار الدسـتوريون والوفد بصورة علنية في قضية مشتركة، وعلى الرغم مما سبق فقد أعلنت الحكومة قانون انتخابات جديـد في ٨ ديسمبر يقضي بحرمان ما يعادل من ١٠٪ إلى ١٥٪ من جمهور الناخبين المقيدين من حق التصويت، مما أدى إلى زيادة استياء الرأي العـام مـن الوضـع، وقلّت شـعبية الملـك وآمـن الجميـع بـلا اسـتثناء أن الحكومه خاضعة له، وفي هذا المناخ أُعلن رسمياً في ١٠ ديسمبر أن نشأت باشا قـد عُيّـن وزيـراً مفوضـاً في بلاط مدريد وترك القصر، وربما كان هذا نتيجة لنفوذ البريطانيين الذيـن كـانوا يخشـون دائمـا أن يخـرج الملك عن سيطرتهم، ومن ثم فقد كانت سياساتهم في الثلاثين عاما التالية هى تأليب القصر على الأحزاب السياسية والعكس (ضلعان في مثلث، يضغطان على الضلع الثالث).

رأت استر في ذلك الوقت أن الحكومة كانت تحاول بكل السُبل أن تحُول دون تعبير النواب الشـرعيين للبـلاد عن آرائهم فما كان منها إلا أنها كانت تحاول عرض آرائها، وتكتتب المقالات في الصحافة وتهاجم أي فرد شـعرت أنه لا يتصرف بالطريقة الصحيحة، وقد أدّت سياسة الحكومة هذه إلى إعلان زعماء المعارضة بأنهم سـيقاطعون أيـة انتخابات في المستقبل يتم إجراؤها وفقاً لقانون الانتخابات الجديـد، وفي نفس الوقـت دعـوا إلى عقـد مؤتمـر في ١٩ يناير ليقرروا أي نوع من الاجراءات الإضافية سيتم اتخاذها لمعالجة الموقف، وقد أدى هذا إلى تراجع الحكومة عن قانون الانتخابات الجديد واستبداله بقانون انتخابات عام ١٩٢٤م الذي صدّق عليه مجلسا النواب والشيوخ في ذلـك الوقت، ومن ثم فقد تم تحديد موعد للانتخابات التالية لتجرى في مايو من ذلك العام، وقد قلنا فيما سبق أن الوفـد سيفوز بأغلبية ساحقة في أي انتخابات بغض النظر عن نوعية قانون الانتخابات (هذا اذا لم تتدخل الحكومة الـتي في السلطة في الانتخابات).

هذا، وقد عبّرت كتابات استر قبـل الانتخابـات عـن خوفهـا مـن أنهـا سـتزوّر بطريقـة أو بـأخرى، وناشدت الإحساس المتأصل بالوطنية عند المصري العـادي ليقـاوم أي عمـل مـؤذ كـانت تدبّـره الحكومـة. أعلنت نتائج الإنتخابات في ٢٥ مايو، فحصل حزب الوفد بزعامة سعد زغلول باشا على ١٤٤ مقعداً مـن اجمالي ٢٠١ مقعداً، بينما حصل الأحرار الدستوريون على ٢٥ مقعداً، والوطنيون (الحـزب الوطـني) علـى خمسة مقاعد، والمستقلون على ١٧ مقعداً، أما حزب الملك فحصل على سبعة مقاعد، وظل الموقف غامضاً لمدة أسبوع فيما يتعلق بمطالب سعد كزعيم للأغلبية، ولم يُمانع الملك في أن يترك القرار للبريطـانيين لأنـه كان يعلم أنهم يكرهون التعامل مع حكومة يتزعمها سعد زغلول، لذا فقد فضّل بأن يـدع شـخصاً آخـر في مواجهة المدفع كما يقال.

وبنفس الطريقة لم يشأ حزب الوفد بعدما حصل على الأغلبية في البرلمان بـأن يفسـد الأمـور، فهـم لم

يُمانعوا في تولي حكومة معتدلة لمقاليد الأمور يتزعمها سياسي مثل عدلي باشا يكن، علـى أن يحتفـظ سـعد باشا بالسلطة الحقيقية في البرلمان، ومع ذلك فلم يكن من المؤكد لدى الوفديين بأن سعد سيقبل مثـل هـذا الاقتراح، أما الأحزاب الأخرى فقد كانت تخشى أيضاً بأن يصدر قرار بالحل يتبعه تعطيل للدستور، مع ما يتبع هذا من ميل للحكم الفردي من جانب القصراذا تولى الحكم حكومة لا يرضى عنهـا القصـر، لـذا فقد كان الإتجاه العام يؤيد التراضي والاعتدال، ومن ثم فقد كان هناك شعور كبير بالارتيـاح حـين وقـف أحد النواب الوفديين في مأدبة أقيمت في فندق كونتنينتال بالقاهرة في ٣ يونيه للاحتفال بفوز سعد، وألقى بعض كلمات يحُث فيها سعد على ألا يُرهق صحته بتولي أعباء الحكم، بل بالأحري بأن يصُونها ويحافظ عليها لمصلحة الوطن، فاستدار سعد باشا إلى عدلي باشا الذي كان جالساً بجواره وقال: " أنني شـاعر الآن بتعب فلندع شخصاً آخر يرد نيابة عني "، فلـم يتحـدث أحــد، وانتهـى الاجتمـاع بعـد وجبـة غـذاء جيدة، وفي ٧ يونيه تم تشكيل وزارة جديدة تحت رئاسة عدلي باشا يكن، وضمّت سـبعة وفديـين وثلاثـة من الأحرار الدستوريين، أما سـعد باشـا فقـد أصبـح رئيسـا لمجلـس النـواب الـذي سـيطر عليـه بقبضـة حديدية، فاذا حدث وأصبح أحد النواب لحوحاً أكثر من اللازم في أسئلته، فكان يكفيه كلمة واحدة من سعد زغلول ليجلس باستكانة في مكانه، واذا لم يكتمل النصـاب القـانوني مـن جهـة عـدد الحـاضرين في المجلس فكان أسلوب سعد هو أن يُعطل الجلسة لدقـائق وأن يسـير في البهـو الخـارجي ويعطـي النـواب المتسكّعين درساً، ويرجع عائداً إلى كرسي الرئاسة ويدق جرسه فيهرع النواب إلى مقاعدهم، كما لـو كـانوا تلاميذ مدرسة يتم عقابهم.

يجب أن نتذكر أن الحياة البرلمانية بمفهومها الغربي، كانت في مهدها في مصر في ذلك الوقت، حيث إن معظم المنتخبين حديثا قد جاءوا مباشرة من الريف، وأصبح البرلمان مدرسة للديمقراطية، وبوجـه عـام نجح البرلمان المصري بصورة لافتة للنظر على الرغم مــن الانتقـاد الـذي لقيـه في الصحافـة الأجنبيـة، وفي الكتب التي ألفها الأوربيون. هذا وقد استغرقت العديد من البرلمانات العريقة قروناً لتتطور قبـل أن تُصبح قادرة على تحقيق مستوى عالٍ من الديمقراطية الذي تم التوصل اليه في البرلمان المصري في غُضـون عقديـن من الزمان، وعلى الرغم من كل العقبات التي كان لزاما على الحياة البرلمانية في مصر أن تتخطّاها بسـبب تلاعـب مختلـف القوى السياسـية في البـلاد في حيـاة البرلـان القصـيرة الـتي تبلـغ ثمانيــة وعشــرين عاماً(١٩٢٤-١٩٥٢)، إلا أن التقـاليد واللوائح والسـلوك الديموقراطـي تطـور مـن خـلال مـا اقتبسـه مـن المؤسسات العريقة في الغرب حتى أصبح جزءاً من عادات وتقاليد البرلمان المصري. ومن ثم فمن الامكان ان تقارنه على نحو جيد بأي من برلمانات ذلك الوقت.



عبد الخالق ثروت باشا



اسماعيل صدقي باشا



أحمد ماهر باشا



محمود فهمي النقراشي باشا

هذا وقد تأرجح الوضع في العامين التاليين بين القصر والحكومة ما بين الاعتدال والتوفيق من ناحية، وبين التطرّف والمواجهة من الناحية الأخرى، وقد حاول الملك دائماً بأن ينتقد الحكومة واصحاب النفوذ الذين يعملون من وراء الأحداث، بينما لم يحاول البريطانيون أن يفرضوا رغبتهم إلا إذا شعروا أن وضعهم مُهدد، أما سعد زغلول فكان يريد أن يُتوّج عمله السياسي بأن يتوصل إلى تسوية نهائية مع بريطانيا، إلا أن مهمته أصبحت أكثر صعوبة بسبب الآراء التي عبر عنها الأعضاء المتشددون في حزبه، وتبعاً لهذه الظروف فقد استقال عدلي باشا يكن في ١٧ ابريل ١٩٢٧م بسبب شئ تافه لأنه كان قد تم وضع اقتراح في جدول الأعمال أثناء مناقشة الميزانية في المجلس يقضي بتقديم الشكر للحكومة للتشجيع الذي قدمته لبنك مصر الذي كان مؤسساه طلعت حرب باشا ومدحت يكن باشا وراء الكثير من المشروعات الوطنية الصناعية التي تُجرى في البلاد، وتم تقديم الاقتراح ورفضته أغلبية المجلس لسبب ما، ربما لأن البلاد كانت تمرُ بصعوبات مالية في ذلك الوقت نتيجة للانخفاض الشديد في أسعار القطن، ولم يكن مُلاك الأراضي الاعضاء في البرلمان يرغبون في خفض الإيجارات، فاعتبر عدلي باشا هذا اقتراعاً بعدم الثقة على سياسة الحكومة، فاستقال، إلا أن السبب وراء الاستقالة ربما كان أكثر عمقاً من ذلك حيث ان الحكومة كانت على وشك الصدام مع البريطانيين والقصر، فوزير الحربية خشبه باشا كان يضغط مطالباً بزيادة قوة الجيش المصري، وتأسيس القوات الجوية والتخلص من سيطرة كبار الضباط البريطانيين، وسانده في هذه المطالب الأعضاء المتشددون في الوفد يتزعمهم أحمد ماهر والنقراشي (الذي كان قد بُرئ لتوّه من الاشتراك في جريمة اغتيال سيرلي ستاك رئيس أركان الجيش المصري)، ولم يشأ البريطانيون والقصر أن يُغيروا الوضع الراهن لأنهم رأوا أن أي زيادة كبيرة في الجيش المصري مع وجود حكومة يمكن أن تُصبح معادية للبريطانيين والقصر، ويجب عليهم أن يُعارضوها مهما كلّفهم الأمر، أما وجهة نظر الحكومة فكانت أن الجيش من الناحية القانونية لا يندرج تحت أي من النقاط التي عليها تحفظات في اعلان الاستقلال في ١٩٢٢.

عند استقالة عدلي باشا أُقنع ثروت باشا بتولي مقاليد الحكم، وقَبِلَه الوفد ليترأس مجلس الوزراء الجديد، بشرط ان يرفض الموافقة على المطالب البريطانية في الاحتفاظ بنفوذهم على الجيش المصري، ففكّر البريطانيون في أن يطلبوا من الملك بأن يحل البرلمان وأن يحكم بالمرسوم الملكي إلى أن يحين وقت يكون المناخ فيه أكثر ملاءمةً، وفكّر اللورد لويد في سرعة إرسال سفينة حربية إلى الاسكندرية كاستعراض للقوة، ومع هذا فقد كان ثروت باشا دبلوماسياً، ومع أنه قد أيّد وجهة النظر القانونية التي تُفيد بأن الجيش المصري كان خارج النقاط التي يلزم التفاوض بشأنها، إلا أنه وافق على ان يظل الوضع الراهن على ماهو عليه، وفي نفس الوقت كانت مصر ستتفاوض مع بريطانيا بشأن أحقية بريطانيا في الاحتفاظ

بحامية لها في البلاد بالرغم من اتفاق وزارة الخارجية البريطانية مع اللورد لويد من حيث المبدأ، إلا أنها كانت مُتردّدة إزاء نوع الاجراءات التي يجب اتخاذها، لذا فقد شكلت التسوية ارتياحاً للجميع لأنـه قد تم تفادي الأزمة، ومن ثم كان من الممكن التوصل لاتفاق مستقبلي فيما يتعلق بالتحفظات الأربعة، لأن سعد كان لا يزال موجوداً وبالرغم من عدم تأكدهم من رد فعل سعد تجاه أي اقتراحات مستقبلية الا انهم شعروا بأنه يتمنى بأن يتوج حياته بالحصول على الاستقلال التام لمصر، وقد كان هو الشخص الوحيد في البلاد الذي يستطيع أن يُسيطر على الرأي العام.

أما لورد لويد فكان يُفضّل الانتظار ليسمح لمصر باتخاذ الخطوة الأولى، وعند قرب انتهاء زيارة الملك فؤاد لانجلترا في يوليو من عام ١٩٢٧ وحين كان ثروت باشا يرافق الملك انتهز الفرصة اوستن شامبرلين وزير الخارجية وألح على ثروت باشا بضرورة التوصل الى اتفاق دائم بين بريطانيا ومصر وقد قدم ثروت باشا مسوّدّة مشروع معاهدة اتفاق، واقترحت وزارة الخارجية البريطانية مشروعاً بديلاً، فوعد ثروت بأن يعود في اكتوبر لاستئناف المفاوضات حيث كان يعتمد على تأييد سعد في اتمامها، إلا أن القدر كان له رأي آخر، ففي ٢٣ أغسطس مات سعد بعد فترة مرض قصيرة، فاختفت القوة المؤثرة في سياسة مصر، وكان من المستحيل أن يتنبأ أحد برد الفعل، واستقبلت البلاد خبر وفاة سعد زغلول باشا بذعر، وانتشر إحساس عميق بالحزن، وكان الملك وثروت باشا رئيس الوزراء في باريس حين علما بهذا، فأمر الملك أن تُجرى جنازة رسمية لسعد باشا بالمراسم العسكرية الكاملة، وشُيعت الجنازة في اليوم التالي في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر، وأغلقت المحال والمكاتب كعلامة على الحداد، وغلف البلاد السكون المقبض يقطعه بكاء الأمة بأسرها، وبدأت مراسم الجنازة من **بيت الأمة** مقر سكن سعد باشا الذي عُرف بذلك الاسم نظرا للاجتماعات السياسية العديدة التي تمت فيه على مر السنوات الماضية، وسار خلف مركبة المدفع التي تحمل الجثمان أناس من كل الطبقات، وأعضاء من كافة النقابات، والسلك الدبلوماسي وآخرون، وأُطلقت سبع عشرة طلقة مدفع حين غادر جثمانه البيت، بالإضافة إلى سبع عشرة طلقة أخرى حين وُضع في مثواه الأخير، وسار خلف موكب الجنازة أكثر من ٣٠٠ ألف شخص، هذا وقد خرجت مواكب مشابهة في كل أرجاء البلاد، أما الصحف في مصر فقد كللت جوانبها بالسواد لأيام عديدة، وأغلقت المكاتب الحكومية ثلاثة أيام على التوالي، فلقد كانت البلاد في حالة توقف تام ... انتحب عليه أمام قبره ألد أعدائه واقفين جنباً إلى جنب مع أفضل أصدقائه، وقد اشترت الدولة المنزل الذي عاش فيه مع زوجته ليبقى بيتاً للأمة، كما كان دائماً أثناء حياته، وأقيمت ثلاثة تماثيل تخليدا لذكراه في القاهرة والإسكندرية وبورسعيد، وقد كان هذا أقصى ماوصل اليه فلاح من تكريم أسر خيال البلاد حتى أنهم

اعتبروه مدافعاً عنهم، وأباً لهم، ولكنه ذكرهم في نفس الوقت أنه ليس بخالد بل إنه هالك مثل أي شخص آخر.

وصف "فولاد يكن" الجنازة والمناخ المصاحب لها في كتابه 'سعد زغلول' الذي نشره في باريس في عام ١٩٢٧، وكان فولاد يكن ابن شقيق عدلي باشا يكن وظل لسنوات عديدة واحداً من ألد أعداء سعد زغلول، وشعر فيما بعد أنه كان قاسياً جداً عليه، فكان كتابه هذا بمثابة اعتذار له.

ومع موت سعد زغلول اتضح لمعظم الناس أنه لا يوجد أي سياسي يستطيع أن يتفاوض ويتوصل إلى اتفاق بدون تصديق حزب الأغلبية، ألا وهو الوفد، وكان ثروت باشا قد بدأ المفاوضات مع سير أوستن شامبرلين قبل موت سعد، وفي الحقيقة كانت قد تمت صياغة مشروع معاهدة، وكانت مُعدّة للتصديق عليها من قِبَل مجلس الوزراء والبرلمان، ولم يشأ ثروت أن يعقد الأمور، بل كان يريد أن تظل المفاوضات مفتوحة إلى أن يتمكن من الحصول على التصديق، في حين أن البريطانيين كانوا يريدون رداً واضحاً بأسرع وقت ممكن، وحين قدم ثروت المقترحات في النهاية إلى مجلس الوزراء رُفضت، وقد كان الرد الرسمي ان "مشروع المعاهدة في مبادئه الأساسية ونصوصه الفعلية يتعارض مع استقلال مصر وسيادتها، بالاضافة إلى أنه أضفي شرعية على احتلال القوات البريطانية للبلاد".* وقد حاول لورد لويد أن يجعل النحاس باشا يوافق قبل أن يقدم مجلس الوزراء ردّه الرسمي، إلا أنه لم يتمكن من التوصل إلى شئ مع النحاس، وقد أكد النحاس باشا انه لا طائل من مناقشة هذه المعاهدة أو أية معاهدة أخرى لا تنص على الجلاء الكامل للجيش البريطاني عن الأراضي المصرية، وهو لم يستطع أن يوافق على أن يبقى جندي بريطاني واحد على الأرض المصرية سواء كان في السويس أو سيناء، وقال: "إن على انجلترا ألا تتوقع شيئاً بدون جلائهم" ولكنه قال: "فعند جلائهم يستطيعون شراء صداقة مصر التي ستكون بمثابة ضمان مطلق لكل المصالح البريطانية في مصر"، فاستقال ثروت على الفور بعد رفض مجلس الوزراء لمشروع المعاهدة.

في ١٥ مارس ١٩٢٨م شكّل النحاس باشا أول وزارة، وقد كان شخصية لها شعبيتها عند الجماهير العامة، وحتى نهاية حياته على الرغم من التقلبات التي واجهها في حياته.

* * *

---

* " مصر منذ كرومر " تأليف لورد لويد، الجزء الثاني ص ٢٥٨.

يبدو كما لو أن جماهير الشعب قد وجدت نفسها بين هذين المصريين اللذين جاءا من سُلالة الفلاحين، ألا وهما سعد باشا زغلول ومصطفي باشا النحاس، وعلى الرغم من أنهما كانا مختلفين في المظهر، إلا أنهما كان يتمتعان بتلك الجاذبية التي تأسر الإنسان العادي في الشارع، لقد كان سعد باشا وسيماً ذو شعر أبيض وشخصية مهيبة لديها مقداراً كبيراً من الجاذبية الشخصية، ومع أنه كان من سُلالة فلاحين وفقيرا في بداية حياته، إلا أنه اكتسب دماثة الحكام الأتراك، أما النحاس باشا فهو قاض سابق، صاحب له جُمجمة مسنّنة وعيناه بهما حَوَل واضح، ومع أنه كان يتمتع بطبيعة مهيبة، إلا أنه ظل فلاحاً بكل ما في الكلمة من معنى، ووجد تلاميذه أن هذه البساطة جذابة للغاية، وكان يُعرف (كراجل طيب)، وكان صريحاً في حديثه، (يقول للأعور أعور في عينه)، ولا يخشى أي شئ البتة، ومن المستحيل أن تقنعه بأي شئ اذا شك فيه، وكان لا يقبل أية معارضة من زملائه، وكان ميالاً إلى الإصغاء إلى الذين يهمسون في أذنيه، واعتقدت استر أن الوفد تحت زعامة النحاس سيتّبع سياسة سعد زغلول في تشجيع مشاركة النساء في الكفاح من أجل الاستقلال التام، بيد أنه جاء على النقيض من هذاالاعتقاد، فلم يشأ النحاس أن تتدخل النساء في السياسة، وأخبرهن بهذا بمنتهى الوضوح، وهو لا يُمانع أن يترُكن حجابهن أو أن يُحسِّن تعليمهن، ولكنه لم تكن عنده أية نيّة في مُساعدتهن للحصول على حقوقهن السياسية وقد أدى هذا إلى تضاؤل دور استر النشط في السياسة المصرية، صحيح أنها استمرت في إلقاء الخُطب وكتابة المقالات، ولكن ليست كمُتحدثة أو كزعمية نسائية بل كوطنية.

كانت لا تزال تُعتبر زعيمة وسط الحركة النسائية وتحضر المؤتمرات النسائية في كل أنحاء العالم، لكن شعلة الحركة النسائية المصرية التي كانت تحاول تحسين وضع أغلبية النساء في البلاد (المرأة المُسلمة) فقد حملتها وقوّتها السيدة هدى شعراوي وتلميذاتها، كما ذُكر آنفا.

ركّزت استر أكثر على تحسين وضع المرأة المصرية من خلال الأعمال الاجتماعية، ولقد كانت مهتمة بصفة خاصة بـ :

أ) جمعية الشابّات المسيحية.

ب) جمعية العمل لمصر.

ج) المؤسسات الخيرية.

(أ) جمعية الشابات المسيحية

من بين أعمال إستر الإجتماعية كان ارتباطها النشط بجمعية الشابات المسيحية من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٨٣، كما كان هناك أفراد آخرون من الأسرة لهم اهتمامات عميقة بأعمال هذه الجمعية في مصر.

سأحاول أن أسرد باختصار كيف نشأت هذه المؤسسة العالمية، وكيف بدأت وتطورت في مصر، وكيف أمكن لها من خلال روحها وأنشطتها أن تُنمي في عضواتها روح الإنتماء والعطاء والمشاركة والتعاون مما ساعد على بناء سمات القيادة والمسئولية، وكثير من هذه السمات تشربت من سلوك المحترفات اللائي كرسن انفسهن في العمل، وكذلك في التضحية المتناهية والعمل الدؤوب للمتطوعات فيها.

وعلى الرغم من أن جمعية الشابات المسيحية كانت جمعية مسيحية إلا أن عضويتها كانت مفتوحة أمام كل النساء من كل جنسية ولون وعقيدة.

في عام ١٨٥٥ اندمجت حركتان في لندن في جمعية واحدة تضم الأغراض المتشابهة للحركتين فقد كانت الحركة الأولى قد أسستها مس اميلي كانيرد Emily Cainard بغرض رعاية الشابات المغتربات في المدن الكبيرة رعاية روحية مبنيّة على المبادئ المسيحية، وكانت الحركة الثانية قد أسستها مس ايما روبرتس Emma Roberts لاهتمامها بإيجاد دور ضيافة ومساكن مريحة ورخيصة في المدن الكبيرة للفتيات اللائي تركن أسرهن طلباً للعمل في المدن الصناعية الكبيرة وعلى الأخص في لندن لكسب العيش، وأيضاً للتهرب من انقيادهن لاسرهن واكتساب خبرات جديدة ومن أهمها التطوع أو العمل في التمريض تشبهاً بالمرضة المعروفة فلورنس نيتنجيل Florence Nightingale، التي عملت في حرب البلقان Crimea * وجعلت الجمعية التي تكونت من الحركتين مبدأها الأساسي الإيمان المسيحي والعمل بالمبادئ المسيحية.

---

* حرب كرايميا بدأت في سنة ١٨٥٣ عندما هاجمت روسيا الدولة العثمانية من ناحية البحر الأسود لتدافع عن الأقلية الصربية الأرثوذكسية الخاضعة لحكم العثمانيين وقد كانت فرنسا تدافع عن الاقليات الكاثوليكية في الدولة العثمانية وقد تدخلت روسيا زاعمة ان هناك اضطهاداً على الأقلية الأرثوذكسية وهزمت الأسطول العثماني، وتدخلت كل من انجلترا وفرنسا في ٢٨ مارس ١٨٥٤ الى جانب الدولة العثمانية خوفاً على مصالحهما في المنطقة من زيادة النفوذ الروسي الزاحف على حوض البحر الأسود والبحر الأبيض وقد تكبدتا خسائر فادحة، وفي سبتمبر ١٨٥٥ أعلنت النمسا – التي كانت تساند أيضاً الأقلية الكاثوليكية في الدولة العثمانية – بأنها ستتدخل في الحرب بجانب فرنسا وانجلترا اذا لم ينسحب الروس من حوض البحر الأسود، فأضطرت روسيا ان تقبل الوضع ووقعت على معاهدة صلح في مارس ١٨٥٦.

الجمعيات الخيرية



لجنة الحركة الاجتماعية لجمعية الهلال الأحمر بالاسكندرية
من الجهة اليسرى السيدة استر ويصا والى جانبها ليدي بيل (أمينة الصندوق) ثم حرم أحمد باشا كامل (رئيسة) ثم مدام جودي (أمينة الصندوق المساعد) – مدام كرم – مدام جرباري الكونت زغيب – أنتوني كار (سكرتير) – جاستون زنانيري



زيارة لعيادة شدس لجمعية العمل لمصر

ثم انتشرت فكرة هذه الجمعية في بلدان وسط أوربا واسكندنافيا وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وتكونت بهذه البلاد وبغيرها جمعيات مماثلة لها.

وفي عام ١٨٩٨ انضمت هذه الجمعيات في منظمة عالمية، واختارت مدينة لندن مقراً رئيسياً لها واستقر الرأي على تسميتها باسم (جمعية الشابات المسيحية)، واتفقن على مبدئها الأساسي وهو (الإيمان بالله الآب وبيسوع المسيح الابن والروح القدس) وعلى شعارها وهو (بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً) وعلى المبدأ القائل (ليس بالقوة ولا بالقدرة ولكن بروحي يقول الرب)، واختارت شارة المثلث الأزرق رمزاً لها ليمثل اهتمامها برعاية الروح والعقل والجسد.

ثم وضعت الجمعية أُسس العضوية والشروط الإدارية والمالية، وعيّنت نُخبة صغيرة من الموظفات القديرات لإدارة الجمعية.

وفي عام ١٩٣٠ انتقل المقر الرئيسي للجمعية إلى مدينة جينيف بسويسرا حيث مازال يخدم ما يزيد عن مائة جمعية في بلاد العالم أجمع مُنضمة إلى الجمعية الرئيسية.

انتشر عمل الجمعية في القرن التاسع عشر نتيجة لسهولة السفر بين أنحاء العالم وتحرر المرأة ومساهتمها في مجالات جديدة في الحياة.

فشملت عضويتها – علاوة على أوروبا وبريطانيا وأمريكا الشمالية – أقطاراً أخرى مثل الهند والصين وأستراليا ونيوزيلندا ومصر وسوريا ولبنان وكثيراً من بلدان شرق أسيا وبعض دول أفريقيا.

تكوين جمعية الشابات المسيحية الدولية بالقطر المصري

في عام ١٨٧٦ قامت بعض السيدات البريطانيات اللواتي كن يقمن بالقاهرة من بينهن مس فان سومر Miss Van Sommer، ومس جولوك Miss Golloch بتكوين شُعبة صغيرة من الشابات الانجليزيات المقيمات بالقاهرة تنتمي إلى جمعية الشابات المسيحية ببريطانيا، واختارت هذه الجماعة مقراً لها بشارع المغربي، وفي عام ١٩٠١ ظهر إعلان بجريدة التيمز اللندنية يحمل نداء للتبرع لتأسيس الجمعية بمصر، وطلب متطوعة للعمل كموظفة وادارة هذا الفرع على سبيل التطوع، فلبّت النداء مس روزا مرجينسون Miss Rosa Marginson، وحضرت إلى القاهرة حيث استأجرت مسكناً خاصاً لها في شقة بعابدين ومقراً للجمعية بشارع قصر النيل، فصار هذا المقر نادياً للشابات والسيدات الأعضاء بالجمعية، وعضوية الجمعية مفتوحة لكل سيدة أو فتاة بدون تفرقة بين جنس أو لون أو دين.

وحينما كانت دوقة كونوت Duchess of Connaught تزور القاهرة قامت بافتتاح مقر الجمعية فسمى (كونوت هاوس) تقديراً لتفضلها بافتتاحه وظل اسم (كونوت هاوس) مرتبطاً لسنين عديدة بمقر الجمعية ثم بدار ضيافة المغتربات الذي افتتح بعد ذلك بمقرها.

وكان العدد الأكبر من الأعضاء من الإنجليزيات أو الأوربيات اللواتي حضرن إلى القاهرة كمدّرسات أو ممرضات أو سكرتيرات في السفارات المختلفة وكان رسم الاشتراك السنوي ١٠ قروش.

وفي سنة ١٩٠٥ صار عدد العضوات خمسة واربعين عضوة تدفع كل منهن مبلغ خمسة وعشرين قرشاً كاشتراك سنوي.

وازدادت أنشطة الجمعية فصارت تضم ثلاث جماعات :

١- الجماعة البريطانية وتجتمع يوم الأربعاء من كل أسبوع وكانت أغلب عضواتها من المدرسات والمربيات والعاملات بالإرساليات والسكرتيرات بالسفارات من البريطانيات، وكانت تتولى ادارة برامجهن مس برودي ومس جاي، وكانت الانجليزية هي اللغة المتداولة، وتشمل البرامج لقاءات للتعارف ولتبادل المعلومات، ومحاضرات عن تاريخ مصر القديم الفرعوني والحديث وعن الآثار والمعالم الهامة.

كما تشمل رحلة سنوية إلى الاقصر وأسوان شتاء، وإلى بورسعيد والسويس والإسكندرية صيفاً، وكذلك رحلة سنوية إلى القدس ومعالم فلسطين الدينية. وكان يُقام للأعضاء احتفال بعيد الميلاد المجيد على الطريقة البريطانية التقليدية وبالأكل التقليدي الذي كان يُعد في دار الضيافة، كما تقام لهن حفلة راقصة من آن لآخر.

٢- الجماعة الدولية وعضويتها مفتوحة للجنسيات العديدة التي كانت تقيم في القاهرة من الجاليات الكبيرة مثل: اليونانيين والإيطاليين والاتراك .. الخ، وكان عدد الجنسيات يصل في بعض الأحيان إلى خمس وعشرين أو ثلاثين جنسية من جميع القارات وكانت إدارة هذه الجماعة في يد مس التمان، وكانت اللغة المتداولة هي الفرنسية، والنشاط يختلف قليلاً عن نشاط الجماعة الأولى، وأهم ما يُذكر منه مباريات تنس الطاولة ورياضة الرقص التوقيعي وحفلات موسيقية وتمثيل روايات قصيرة بعضها من تأليف الأعضاء، ومباريات في الأغاني ورحلات ثقافية وترفيهية وزيارات لمعالم المدينة.

٣- والجماعة الثالثة كانت جماعة المصريات وقد تكونت في أواخر العشرينات، فكانت حديثة نسبياً، وكانت نواة عضويتها فتيات المرشدات القدامى أي اللواتي تركن اجتماعات الكشافة، ولكن لم يتركن عضوية الجمعية وقليلات من ربّات البيوت، أما العدد الأكبر من العضوات، فكان من خريجات الجامعات البريطانية من المصريات اللواتي رجعن إلى الوطن وعُيِّن في مناصب تخصصية في وزارة المعارف.

وكانت تشرف على نشاطهن مس جاي Miss Guy ثم مس بيبلر Miss Pepler وكان نشاطهن محدداً بأنه ترفيهي، وأسعد الأوقات ماكن يقضينه في صحبة بعضهن البعض مع تناول فنجان الشاي في حديقة الجمعية، وقضاء يوم الجمعة عند الامكان في حمّام سباحة فندق (مينا هاوس) أو الاشتراك في رحلات، والاشتراك في الحفلات العامة المنظمة لمختلف عضوات الجمعية، كما كن من رواد المكتبة لاستعارة الكتب، كذلك استفادت أكثر العضوات من معسكر المندرة الذي كان مصيفاً هاماً وعنصراً ترفيهياً لكل الأعضاء من مختلف المجموعات، كما كان ارتياد مخيم الهرم لقضاء اليوم أو نهاية الأسبوع من أمتع الأنشطة.

وكان رسم الإشتراك السنوي في تلك الفترة سبعة وثلاثين قرشاً فقط يُرسل منها قرشان للمنظمة العالمية بجنيف.

جمعية الشابات المسيحية الوطنية National Y.W.C.A

في عام ١٩٢٠ دُعيت السيدة روجينا خياط – وقد كانت في أوربا لقضاء الصيف – لحضور اجتماع اللجنة التنفيذية لجمعية الشابات المسيحية العالمية بجنيف حيث تعرّفت على عمل هذه الجمعية وخدماتها في أنحاء مختلفة من العالم، ولم يكن مستبعداً أن يُطلب منها أن تكون الرئيسة الأولى لجمعية مصرية، ممثلة لهذه الهيئة العالمية، وأن تتعاطف مع عمل جديد لخدمة الفتاة والمرأة المصرية، واضعة ثقل مركزها الاجتماعي لتجنيد الكثيرات من صديقاتها ومعارفها لانجاح هذا العمل.

وفي نفس العام اهتمت إحدى المبشرات الأمريكيات وتدعى مسز فيلبس بالمشروع، وعملت على إنماء هذه الحركة بين المصريات خصوصاً ممن لم يكن لهن فرصة الاندماج في المجتمع المتغير المتحرك وقتئذ إلا بقدر بسيط، وكانت الإرسالية الأمريكية قد أوفدت الآنسة زاهية مشرقي في بعثة دراسية إلى معهد الدراسات المسيحية، وعند رجوعها اختيرت لمنصب المسئولة عن تكوين الجمعية الجديدة وإنمائها.

وتكوّنت لجنة لهذا الغرض أعضاؤها نُخبة من فُضليات الأسر القبطية، نذكر منهن مؤسسة الجمعية ورئيستها السيدة روجينا خياط.

واختارت اللجنة مقراً لها في سنة ١٩٢٤ شارع عباس (رمسيس حالياً)، وازدهر بها النشاط في مجالات عديدة، وتكوّنت من خلالها صداقات عميقة كان لها أكبر الأثر في نمو الجمعية واشتمل النشاط مباشرة الأعمال الإدارية والمالية والبرامج المختلفة لخدمة الشابات نذكر منها ما يلي :

- دروس في الكتاب المقدس.
- دروس في الخياطة والتفصيل والأشغال اليدوية.
- دروس في الموسيقى (تطوعت بها الآنسة جميلة جندي يونان).
- دروس في الاسعافات الأولية.
- دروس في عمل الحلوى والطهي.

هذا بجانب رياضة تنس الطاولة وبرامج ترفيهية أخرى كثيرة.

وانتقلت الجمعية بعد فترة إلى مقر جديد بشارع سيف الدين المهراني بالفجالة.

وفي عام ١٩٣١ وهبت أسرتي ويصا وخياط الجمعية حق استعمال قطعة أرض ملكهما على شاطئ جليمونوبولو بالاسكندرية ليقام عليها معسكر صيفي، فاقيمت عليها غُرف ارضيتها مفروشة بالحصير، وتوافدت على المعسكر الكثيرات من العضوات وغير العضوات حيث قضين صيفاً ممتعاً تحت قيادة السيدة زكية الطويل، وحدث ذلك في العام الذي لم تتمكن فيه جمعية الشابات المسيحية الدولية أن تستعمل معسكرها بالمندرة بسبب بناء الكورنيش فوق أرض المعسكر.

وفي عام ١٩٣٢ أهدت أسرة ويصا الجمعية قطعة أرض أخرى في سيدي بشر بدلاً من تلك التي تستعملها في جليم، واشترت الجمعية الأرض المجاورة لها بمبلغ ٥٣٣ جم (خمسمائة وثلاثة وثلاثين جنيهاً) دفعته على أقساط بجهد أعضاء مجلس الإدارة.

توفيت مدام روجينا خياط في سنة ١٩٤٢ وانتقلت رئاسة جمعية الشابات المسيحية الوطنية الى كنتها مدام إدنا روبرت خياط ابنة جورج باشا ويصا واستمرت كرئيسة للجمعية الوطنية حتى اندماجها في جمعية الشابات المسيحية الدولية في سنة ١٩٤٨.

وفي سنة ١٩٣٨ صرحت اللجنة التنفيذية العامة لجمعية الشابات المسيحية بالقطر المصري بأن سمحوا لجمعية الشابات المسيحية الوطنية باستعمال شعار المثلث الأزرق الذي يدل على اهتمامها برعاية الروح والعقل والجسد.

وفي سنة ١٩٤٣ سُمح لجمعية الشابات المسيحية الوطنية أن تُمثّل في اللجنة التنفيذية العامة لجمعية الشابات المسيحية التي شملت القاهرة الدولية وفروعها بالاسكندرية واسيوط وبورسعيد والمنيا.

أصبحت إستر عضواً بمجلس إدارة فرع الاسكندرية في العشرينات، كانت تشغل منصب السكرتيرة في

عام ١٩٣٣، وبالمجلس العام بحُكم المنصب من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٦، وفي١٣ نوفمبر ١٩٣٧ تم انتخاب إستر رئيسة للجنة التنفيذية العامة لجمعية الشابات المسيحية، واحتفظت بهذا المنصب حتى استقالت عام ١٩٤٨ حيث خلفتها في ذلك المنصب السيدة حرم روبرت خياط التي بقيت رئيسة لمجلس الإدارة حتى غادرت مصر في الستينيات، وكانت أيضا رئيسة لجمعية الشابات المسيحية المندمجة بالقاهرة، وأصبحت إستر رئيسة لمجلس إدارة جمعية الشابات المسيحية بالإسكندرية في عام ١٩٤٢، وبقيت بهذا المنصب حتى عام ١٩٨٣.

أما عايدة فانوس شقيقة إستر فقد كانت رئيسة مجلس إدارة فرع أسيوط لجمعية الشابات المسيحية حتى حضورها للإقامة بالإسكندرية في أواخر الخمسينات، خلال هذه الفترة كان يُعقد الاجتماع الصيفي لمدة يومين للمجلس التنفيذي لجمعية الشابات المسيحية بمصر في منزل إستر بالاسكندرية.

وفي نفس الوقت كانت بيوت الشباب الدولية ومقرها الرئيسي في جينيف، والتي كان هدفها تدبير الإقامة للشابات مُندمجة في جمعية الشابات المسيحية، وقام بيت الشباب بالإسكندرية بنفس الدور، وأصبحت إستر التي كانت عضوة بمجلس إدارة بيوت الشباب رئيسة لمجلس الإدارة الجديد المدمج الذي عُرف باسم جمعية الشابات المسيحية بالإسكندرية التي أغلقت مقرها بشارع النبي دانيال بالإسكندرية، وأصبح مقر بيوت الشباب الدولية هو المقر الجديد للاندماج، ومن بين الأنشطة البارزة لجمعية الشابات المسيحية بالإسكندرية كان ذلك السوق السنوي الذي يُعقد في الأسبوع الأول من شهر ديسمبر، وكان من المعتاد انعقاده في فندق سيسل حيث كان لكل السيدات المُهتمات بجمعية الشابات المسيحية أماكن فردية للعرض، وبعد تأميم الفندق في الستينيات، ومغادرة أغلب السيدات الأجنبيات، اعتادت والدتي عمل حفل عشاء خيري راقص بمسكنها مع تبرع لتغطية العجز في الإيرادات.

(ب) جمعية العمل لمصر

ساعدت إستر في عام ١٩٢٤ في تأسيس جمعية خيرية سُميت باسم "جمعية العمل لمصر"، وكانت أهدافها التي ترتكز أساساً على مبادىء إستر الشخصية أهدافاً سامية، وقد ظلّت هذه الجمعية قائمة في الاسكندرية حتى عام ١٩٦٢ عندما تولّتها آنذاك وزارة الشئون الاجتماعية التي رأت أنه بامكانها استغلال الأرض الواسعة المقامة عليها الجمعية ومبانيها بشكل أفضل. لقد كانت الاسكندرية لسنوات عديدة بالفعل مدينة مؤلّفة من شعوب اجتمعت من مختلف أنحاء العالم (كوزمو بوليتان)، وقد كانت مركز التجارة في مصر، بينما كانت القاهرة هي المركز السياسي، وكانت للجاليات الأجنبية المختلفة جمعياتها الخيرية التي تُموِّل باشتراكات

أعضائها، كما كانت مختلف المؤسسات التجارية تُقدم العون لهذه الجمعيات الخيرية التي كان يُديرها مُتطوعات من نفس الجالية من سيدات المجتمع، وعادة كان بكل جمعية من هذه الجمعيات الخيرية سيدات مُخلصات ومثابرات يشكّلن القوة الدافعة لتحريكها.

أصبحت جمعية العمل لمصر هي العمل الخيري المُحبب لوالدتي، وقد نشأت من رغبة بعض الافراد الذين لديهم وعي تجاه أوجه الضعف في المجتمع المصري مما دفعهم للتغلب عليها، وكانت اهدافهم المعلنة في قانون الجمعية هي :-

١) تقويم الأخلاق المصرية وتحسين أحوال المرأة وتدريبها على الأعمال الاجتماعية النافعة حتى تملأ مركزها كنصف نافع من الأمة المصرية. وقد وضعت في مشروعاتها أن تهتم بكل الأمور الحيوية الاجتماعية التي يمكن للمرأة ان تشترك فيها. وسيكون لها فروع في كل أنحاء البلاد تعمل للغرض نفسه وتقدم المساعدات المادية والأدبية للأسر الفقيرة التي يثبت للجمعية أنها في حاجة إلى المساعدة.

٢) معالجة مرضى الفقراء في مستوصف تديره الجمعية بأجر زهيد ومعاونتهم في الحصول على الدواء.

٣) التوسط لمساعدة أبناء الأسر الفقيرة على التعليم مع توجيههم الى النواحي التي تُهيئ لهم فرص النجاح أكثر من غيرها.

لابد لنا أن نتذكر أن إستر قد أصيبت بخيبة أمل في المناخ السياسي الذي كان سائداً بالبلاد في ذلك الوقت، وكانت السيدات المصريات مُترددات في كيفية تحقيق أفضل السبل للاستقلال، وكثيرات منهن تخلين عن روح الفكر المستقل والوحدة والحماس الذي كان سمة الحركة نحو التحرر السياسي والاجتماعي في سنواتها الأولى، وبدأن التحرك نحو آراء أزواجهن، وفي رأي إستر كان الرجال قد هجروا المبادىء التي كانت تراها صحيحة، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم من أجل تحقيق مركز على طريق الطموحات الشخصية، وعلى الرغم من كونها رائدة ومكافحة بقلب شغوف إلا أنها لم تكن سياسية، فقد كانت ترى كل شيء على حقيقته، إما باللون الأسود أو باللون الأبيض، ولم تستطع ان تتعرف أو تعترف باللون الرمادي.

من أهداف هذه الجمعية أن تنمي اهتمام النساء بالأعمال الخيرية والاجتماعية لكي يتعلمن الاهتمام بالآخرين كما يهتممن بأنفسهن، وكان من الضروري أن يلائم هذا العمل وضعهن في المجتمع وكذلك قدرتهن على أدائه، إذ أن نجاح المجتمع لا يتأتى إلا من خلال الدعم المادي والمعنوي من أعضاء المجتمع البارزين لمساعدة الأسر الفقيرة وتوفير احتياجاتها.

أخذت هذة المساعدة صورة العناية بالأطفال المرضى الذين كان يتم علاجهم بمستوصف في شوتس،

بإحدى ضواحى رمل الاسكندرية، وقد أُقيمت هذه العيادة على أرض اشترتها الجمعية باشتراكات جمعتها إستر من سيدات الاسكندرية المُحسنات.

. كان المرضى يحصلون على العلاج والدواء مجاناً، وقد تم استخدام طبيب ممارس عام وممرضة بشكل دائم في هذه العيادة، أما العلاج المتخصص فهو بأجر زهيد فقد كان يقوم به أخصائى عيون واخصائى أنف واذن وحنجرة يحضران إلى العيادة ثلاثة أيام في الاسبوع.

أتذكر الممارس العام الأول الذي عمل لدى الجمعية لسنوات، وهو لاجيء روسي أبيض يدعى الدكتور فلاديمير بوجولانسكي الذي اعتادت والدتي دعوته على الغذاء بالمنزل.

من بين الأنشطة الأخرى، كانت الجمعية توّفر أيضا التعليم الأوّلي في الصباح، لأطفال الأسر الفقيرة الذين كان يحصل كل منهم كل صباح على كوب من اللبن وسندوتش وبرتقالــــة، كما كانت الجمعية تُقدم النصح والمساعدة للأولاد في التعليم الابتدائى، فكانوا يوجهون لاختيار المهن التي يُمكن أن توفر لهم فرصاً أفضل للنجاح في الحياة، وكانت الأمهات يتدربن على كيفية المحافظة على نظافة أطفالهن.

وقد كانت الجمعية كهيئة ذات شخصية معنوية لا دخل لها بالمسائل السياسية أو العقائد الدينية على اختلافها وهي خاضعة لقوانين البلاد واللوائح المعمول بها. وللجمعية الحق – كلما دعت الحاجة – في إرشاد الأمهات لتقويم أخلاقهن بما يتفق ودين البلاد الذي ينص عليه الدستور، وكانت الجمعية توفر دخلها من المصادر التالية:

أ –الاشتراكات التي تُجمع من الأعضاء العاملين وغير العاملين، حيث يدفع العضو العامل اشتراكاً سنوياً قدره جنيه واحد وجنيهان لغير العامل، وكان من الممكن تسديد هذه الاشتراكات شهرياً أو على أربعة أقساط، أما الأشخاص الذين كانوا يؤدون خدمات استثنائية للجمعية أو الذين كانوا يدعمون الجمعية بتبرعات مالية لاتقل عن خمسة جنيهات في السنة فكانوا يدعون أعضاء شرف.

ب–الإيراد الناتج عن أنشطة التمثيليات والحفلات الموسيقية والمهرجانات السنوية وعروض السينما وما إلى ذلك التي كانت الجمعية تُنظمها وتقوم بها لحسابها.

ج– مساهمات الجمهور والإعانات المالية الأخرى.

د– اليانصيب الشهرى الذي تُشرف عليه الحكومة.

اتذكر إحدى التمثيليات التي قدمتها الجمعية في سنة ١٩٣٠ أو ١٩٣١ في الهواء الطلق بحدائق

أنطونيادس، وهي حدائق جميلة تبرّع بها صاحبها سير جون أنطونيادس بالقصر الـذي بهـا سـنة ١٩١٨ لبلدية الاسكندرية، وهناك قصة مُسلية تحكي عن كيفية حدوث هـذا التـبرع، اذ كـان السـلطان فـؤاد في زيارة للقصر والحدائق مع سير جون أنطونيادس، وعبر عن إعجابه بها، فرد السير جون المجاملة بقولـه "كل شيء في مصر هو ملك لكم ياصاحب السمو" وفي اليوم التالى أرسلت البلدية في طلـب مفـاتيح العقـار، وهى قصة ليس من السهل تصديقها.

تم تأسيس هذه الحدائق وذلك القصر في حوالى عام ١٨٧٠ في نفس الوقت الـذي أسسـت فيـه حديقـة حيوانات الاسكندرية بالنزهة المجاورة لحدائق أنطونيادس.

التمثيلية التي قدمتها جمعية العمل لمصر كانت عبارة عن نسخة مأخوذة من مسرحية "غناء تحت المطر" وكـان يقوم بالتمثيل شباب من المجتمع السكندري المختلف الجنسيات، وكان من المقرر أن تقدم ثلاثة عـروض في ثـلاث ليالي مُتعاقبة، ولكن بعد عرض الليلتين الأوليين اللتين حققتا نجاحاً كبيراً ألغي عرض الليلة الثالثة بسبب حـدوث عاصفة مُمطرة مفاجئه على الاسكندرية.

كانت حسابات الجمعية تقّيد بمكتب في بدروم منزلنا، وكـان يقـوم بعمـل هـذه الحسـابات محاسـب الأسرة وسكرتيرها موسى أفندي وهو نـاظر مدرسـة سـابق لـه خـط جميـل، وكـانت تجـرى مراقبـة هـذه الحسابات كل سنة بأحد مكاتب مراقبة الحسابات بالإسكندرية، وكانت مثل هذه المكاتب تقوم بمراجعة حسابات الجمعيات الخيرية بدون مقابل كجزء من واجبها نحو المجتمع.

لقد كان الشعور السائد لدى أي شخص له قيمة في المجتمـع أن واجبـه الاخلاقـي هـو أن يكـون لـه ثقـل وراء العمل التطوّعي لتحسين المجتمع ككل، وكذلك المشروعات الاجتماعية الخاصة، ففي تلـك الأيـام كـانت الأنظمـة والقيود الحكومية أقل، وكان الناس لا يضنون بالمال الذي ينفقونه، ولا بالمجهود الذي يبذلونـه في أي عمـل يـرون أنه حق، ولكن مع ازدياد التدخل من المسئولين الأقل كفاءة مع المصاعب الفعلية للعمل التطوعي، اضطر الكثير مـن الأشخاص المخلصين إلى الإحجام يأسا من الأوضاع.

أتذكر يقظة ضمير موسى أفندي، وهو يتفحص بدقة كل شهر تذاكر اليانصيب للتأكد اذا كانت الجمعية الخيريـة قد فقدت الجائزة الأولى، أي اذا كانت التذكرة الرابحة قد بيعت لشخص محظوظ من عامة الشعب، حيث يكون مـن حُسن حظ الجمعية ألا تكون الجائزة الأولى في السحب قد بيعت على الإطلاق.

تنص بنود الجمعية على أنه لا يجـوز تصفيتهـا إلا بقـرار مـن خمسـة وسـبعين بالمائـة مـن أعضائهـا واختيار عمل خيري آخر يتم التبرع بأصول الجمعية اليه في نفس وقت صدور قرار التصفية.

في سنة ١٩٦٢ أوعزت مديرة الشئون الاجتماعية بالاسكندرية أنهـا بحاجـة إلى مبـاني الجمعيـة لمؤسسـة تقـوم بتعليم البنات على الحرف اليدوية، وطالبت بأن تسير الجمعية في اجراءات التصفية حيث إن أهدافها أصبحت لا تجاري العصر ولا تساير خطط الوزارة لتطوير الشئون الإجتماعيـة، كما طلبـت أن يتـم التـبرع بـالأصول للمشروع المذكور أعلاه، لم تكن إستر قادرة على تخيل فقد هذا المشروع الذي احتضنته بكل الرعايـة والاهتمـام ولم تدخـر في سبيل نجاحه وسعاً على مدى ثمان وثلاثين سنة، وفي نفس الوقـت كـان مجلـس ادارة الجمعيـة يرغـب في التـبرع بالأصول إلى مؤسسة من اختياره وليست مؤسسة تلزمها بها الحكومـة، ووصـل الأمـر بإسـتر إلى أنهـا كـانت علـى استعداد أن تتوجه إلى المحاكم لهذا الغرض، الا أننا نحن أولادها أقنعناها بالامتثال، فلم يكـن ذلـك الوقـت وقـت الإصرار والعناد، فحاولت التسوية ولكن الاتفاق الذي تم التوصل اليه لم يكن مكتوباً، ويقضي هذا الاتفاق بأن تتبرع الجمعية بأصولها لمشروع الوزارة شريطة أن يحتفظ هذا المشروع* باسـم جمعيـة العمـل لمصـر، الا أنـه بمجـرد وضـع الوزارة يدها على المنشآت نسيت تماماً كل ما يتعلق بالاسم .

وبالرغم من وضع يد وزارة الشئون الاجتماعية على ارض ومبان الجمعيـة مـن سـنة ١٩٦٢ الا انهـا لم تسـتطع الحفاظ على أرضها فظهر أناس بعد وفاة السيدة اسـتر يدعـون ملكيتهـم لـلأرض مزوريـن بذلـك عقـد بيـع ابتدائـي يزعمون فيه بأنهم اشتروا هذه الأرض من السيدة استر وهذه القضية منظورة أمام القضاء حالياً (ولا تعليق).

(ج) الجمعيات الخيرية الأخرى

كانت إستر عضوة بمجالس ادارات جمعيات خيرية أخرى كثـيرة، مثـل الهـلال الأحمـر وجمعيـة السـيدات القبطيات، لكن على الرغم من حضورها اجتماعاتها إلا أنها لم يكن لها نشاط ملحوظ بهذه الجمعيات مثلما كـانت بجمعية الشابات المسيحية وبيوت الشباب الدولية المتفرعة عن جمعية بيوت الشباب في جنيف، وبجمعيـة العمـل لمصر، الا أنها كانت تقضي الكثير من الوقت بالهلال الأحمر أثناء حدوث وباء الكوليرا بالإسكندرية في سنة ١٩٤٨ وأثناء حرب سنة ١٩٦٧ وحرب سنة ١٩٧٣.

* * *

---

* بالاطلاع على ميزانية الجمعية عن سنة ١٩٢٨ التي وجدتهـا بـين أوراق والدتـي لاحظـت أن الاشـتراكات والتبرعـات بلغت ٨٣ جنيهاً في حين أن الإيراد الإجمالي من المعرض الخيري الذي أقيم بكازينو سان سـتيفانو قـد بلـغ ١٣٩٣ جنيهـاً وأن صافي إيراده بعد الضرائب كان ١٠٣١ جنيهاً، وجدير بالذكر أنه في نفس الوقت كان إجمالي المصروفات شاملة الأدويـة والمرتبات.. الخ قد بلغ ٨٦٣ جنيهاً عن نفس السنة ١٩٢٨.

السياسة خلال الفترة من ١٩٢٨ إلى ١٩٥٢

كان قدر السياسة المصرية خلال الفترة من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٦ تاريخ توقيع معاهدة الصداقة المصرية البريطانية محموماً، فقد كان هناك صراع دائم للمعارضة ومنافسة دائمة تدور بين ثلاثة ابطال في البلاد، من القصر كان الملك فؤاد يحاول دائماً توسيع دائرة السُلطة الملكية على حساب الحكومة الدستورية، والبطل الثاني هو حزب الوفد الذي يقوده النحاس باشا والذي يمثل قطاعاً عريضاً من عامة الشعب، فقد كان يشعر أنه من حقه أن يحكم طالما أنه يمثل الأغلبية، والبطل الثالث هم البريطانيون الذين كانوا دائما في خوف من فقد قبضتهم على مقاليد الحكم في البلاد وكذا ضياع وضعهم المتميز، على الرغم من حقيقة أن مصر كان من المفترض أن تكون دولة ذات سيادة باستثناء نقاط التحفظ الأربعة التي تخضع للحل من خلال المفاوضات.

تعرض دستور سنة ١٩٢٣ للتعطيل مرة أخرى في يوليو ١٩٢٨ عندما أقال الملك فؤاد حكومة النحاس باشا بعد بضعة أشهر من توليه السلطة بزعم ان النحاس باشا وويصا واصف بك نائبي رئيس مجلس النواب وجعفر فخري بك تفاوضوا مع محامي والدة الأمير سيف الدين* لبحث امكانية تحرير ممتلكات الأمير التي كان يديرها الديوان الملكي.

ولو أن كل ما حدث لم يكن ينطوي على أي شيء مخز وقع بالفعل، إلا أنه قد أعتبر مجرد مناقشة مثل هذه القضية من قبل المحامين وأعضاء مجلس النواب كان شيئاً منافياً للاخلاق، وعندما أقيلت حكومة النحاس باشا أصبحت مصر تُحكم بمرسوم ملكي وعُيِّن محمد محمود باشا رئيساً للوزراء (الاحرار الدستوريين) حيث حاول التوصل الى اتفاق مع بريطانيا في عام ١٩٢٩ على التحفظات الأربعة ولم يتم انجاز أي شيء بسبب معارضة الوفد التي كانت من القوة لدرجة يصعب التغلب عليها. وجدير بالذكر أن النحاس باشا أُستدعي للمثول أمام محكمة تأديبية بنقابة المحامين هو ورفاقه المتهمون، وكانت براءة النحاس باشا وزملائه في فبراير ١٩٢٩ (أنظر صورة الاستقبال الذي أعد احتفالاً ببراءتهم التي نشرت بمجلة المصور في ١٥ فبراير ١٩٢٩) دفعة جديدة لحزب الوفد ولطمة شديدة لحكومة محمد محمود باشا حيث تعاطف الشعب مع الوفد واعتبرت المعارضة غير وطنية.

---

* الأمير سيف الدين كان أخاً للأميرة شويكار زوجة الأمير فؤاد الأولى (الملك فؤاد) وقد أطلق سيف الدين الرصاص على الأمير فؤاد فأصابه في رقبته وذلك عندما كان فؤاد يعامل زوجته معاملة اعتبرها سيف الدين سيئة، ولتخفيف الحكم على سيف الدين – أودع في مصحة عقلية في انجلترا – ووضعت ممتلكاته العديدة تحت وصاية الديوان الملكي – الذي كان القصر يسيطر عليها سيطرة تامة.

الاحتفال ببراءة النحاس باشا ورفاقه من التهمة المنسوبة اليهم



النحاس باشا وعلى يمينه الغربلي باشا – مكرم بك عبيد – فخري بك عبد النور
وعلى يساره حامد الباسل باشا – جعفر بك فخري – سلامة بك ميخائيل

الأمير سيف الدين

أجريت انتخابات جديدة بمقتضى دستور ١٩٢٣ في ديسمبر من عام ١٩٢٩ اكتسحها الوفد بأغلبية ساحقة، فأصبح النحاس رئيسا للوزراء للمرة الثانية، واستأنف مفاوضاته مع بريطانيا، ولكن هذه المفاوضات توقفت عند موضوع السودان، الذي أُستبعد المصريون منه بالفعل منذ وفاة السير لي ستاك في سنة ١٩٢٤، واستقال النحاس باشا في يونيه ١٩٣٠ وعيّن الملك فؤاد اسماعيل باشا صدقي رئيسا للوزراء، وألغى دستور ١٩٢٣ وأعلن دستور آخر بمرسوم ملكي.

حكم صدقي البلاد بقبضة من حديد، وفعل كل ما في سلطته لإضعاف الوفد، ولكن ما فعله كان له أثر عكسي، فقد قاطع الوفد الانتخابات التي أجريت في عام ١٩٣١ وأصبحت تصرفات صدقي التي استخدم فيها القوة لعنة على كل الناس، وبدأت شعبية الملك في الانكماش وكذلك البريطانيون، وكانت النتيجة هي إقصاء الملك لحكومة صدقي عام ١٩٣٣، وبعدها عيّن الملك عدة حكومات كانت تحكم البلاد بمرسوم، وخلال تلك الفترة كانت الجامعات والأحزاب السياسية تنادي بعودة دستور ١٩٢٣. وأذكر هنا أن إستر ألقت بعض الخطب في ذلك الوقت تطالب بعودة هذا الدستور، وإحدى هذه الخطب أُلقيت بجامعة فؤاد الأول، وكانت شعبية حزب الوفد بقيادة النحاس تزداد من يوم لآخر برغم المضايقات المستمرة التي كان يتعرض لها من قبل السلطات.

بحلول عام ١٩٣٤ أصبح الملك فؤاد متوعكاً صحياً وأحس أن أجله قد اقترب، وكان إبنه الوحيد فاروق لم يبلغ بعد سن الرشد، وكان آنذاك يدرس بانجلترا، وكان الملك فؤاد يريد أن يتأكد من عدم وجود مشاكل في البلاد من بعده اذا ما حدث له شئ، وفي نفس الوقت كان البريطانيون مشغولين بالوضع العالمي، وكانوا يرغبون في أن تبقى مصر هادئة في جانبهم في حالة نشوب الحرب.

استُدعي من الصين مندوب سام جديد هو سير مايلز لامبسون، وعاد دستور ١٩٢٣ في مايو ١٩٣٥، وتوفي الملك فؤاد في ابريل ١٩٣٦، وأجريت انتخابات في مايو من نفس العام، وكسب الوفد الأغلبية في الانتخابات العامة وأصبح النحاس باشا رئيساً للوزراء للمرة الثالثة وترأس وفدا من سبعة وفديين وستة من الساسة البارزين من الأحزاب الأخرى، ووصلوا بسرعة إلى اتفاق في أغسطس ١٩٣٦ يُعرف باسم معاهدة الصداقة المصرية البريطانية لعام ١٩٣٦.

لقد زرع الملك فؤاد البذرة الاولى للمعاهدة، لكنه مات قبل أن يرى الثمار، وعاد النحاس باشا عدوه اللدود لموقع السلطة من جديد ونشأت بينه وبين المندوب السامي البريطاني السير مايلز لامبسون صداقة كانت لها آثار رهيبة على القصر أثناء حكم ابنه الملك فاروق، هذا وقد ذكرت تفاصيل إجراء معاهدة الصداقة هذه في فصل "الدبلوماسي الهادئ".



علي ماهر باشا



مصطفى النحاس باشا

قام الملك الشاب الملك فاروق بإقصاء النحاس باشـا، لأنـه شـعر أن النحـاس باشـا وحـزب الوفـد قـد أصبحا يشكلان تهديداً للعرش، وكان في ذلك واقعاً تحت تأثير طموحات علـى مـاهر باشـا الـذي أصبح مستشاراً للملك والذي كان طُموحه يرمي لأن يصبح هو السلطة المسيطرة من وراء العــرش.

دفع الملك فاروق إلى الاعتقاد بأن النحاس باشا كان في طريقه للتحـول إلى موسـوليني آخـر، وقـد قـام لتوه بتشكيل حركة للشباب الوفدي تُسمى " القمصان الزُرق " لمعارضة حركة الشباب الفاشية التي شكّلها حزب مصر الفتاة التي كانت تُعرف باسم"القمصان الخضر" تحت قيادة أحمد حسين.

كان هذا هو المناخ السائد سنة ١٩٣٧ عندما كان حزب الوفد بزعامة مصطفي النحاس باشا في الحكـم – وكان داخل الحزب نفسه العديد من الصراعات بين كبـار الاعضـاء – حيـث انشـق احمـد مـاهر باشـا ومحمود النقراشي باشا وآخرون على حزب الوفد كما كانت هناك صراعات بين حـزب الوفـد والاحـزاب الاخرى، وفي نفس الوقت كان هناك صراع قائم بين حزب الوفد ورجال القصـر الملكـي حيـث كـان الملـك الشاب متأثراً بنظرية والـده ان الملـك يملـك ويحكـم، وقـد شـلت هـذه الصراعـات النشـاط المتوقـع لهـذه الاحزاب، بعد التوقيع على معاهدة ١٩٣٦، حيث كان من المفـروض أن تتحـد كـل الاحـزاب معـاً نحـو وضع أسس سليمة لتطوير البلد تحت حكومة دستورية تعمل لصالح البلد ويقبلها الجميع.

وكما كان الحال في القصر، كان الحال في الاحزاب السياسية حيث مـال رؤسـاء الأحـزاب إلى الديكتاتوريـة وكان اعضاء الاحزاب غالباً مطيعين لرئيس الحزب ومَنْ شذ على ذلك كـان يُجـبر علـى الاسـتقالة أو يُقَـال مـن الحزب، وقلما تفهمت القاعدة العريضة لمؤيدي الحزب حقيقة المشاكل الحادثة اذ كانوا يرددون – دون فهــم – الشعارات الصادرة من رؤساء الاحزاب.

وعندما أقيل حزب الوفد، واجريت انتخابات بموجب دستور ١٩٢٣ في ربيـع سـنة ١٩٣٨ ولم تكـن هذه الانتخابات سليمة، لم يحصل الوفد على اغلبية، وتم تشكيل حكومة ائتلافية من الاحزاب المختلفـة تحت رئاسة محمد باشا محمود – إلا أن الاوضـاع الداخليـة للبـلاد لم تتحسـن عندمـا اندلعـت الحـرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩.

وبناء على مشورة بريطانية ظلت مصر محايدة في هذه الحرب، ولكن في واقع الأمر سـاهمت كثـيراً في مجهـود الحرب حيث وضعت المطارات والسكك الحديد وكل امكانياتها لخدمة الحلفاء وكان ذلك أكثر كثيراً من المفروض، طبقاً لمعاهدة الصداقة المصرية البريطانية وأُعلنت الاحكام العرفية في البلاد واصبح علي باشا ماهر رئيسـاً للحكومـة، وحاكماً عسكرياً للبلاد ثم أُقيل علي ماهر باشا بناء على طلب السلطات البريطانية، حين مـاطل في اعتقـال الرعايـا

الايطاليين ووضع ممتلكاتهم تحت الحراسة، وكانت ايطاليا في هذا الوقت حليفة المانيا النازية، وكان ضمن حاشية الملك في ذلك الوقت ايضا بعض الايطاليين، وقد منحهم الملك الجنسية المصرية لتلافي اعتقالهم، وكان سفير بريطانيا سير مايلز لامبسون متزوجاً من ايطالية وهي ابنة الجراح الأول للجيش الايطالي سير الدو كاستلانو، وكان رجال القصر يمزحون فيما بينهم قائلين "بأنه كان من الأجدر اعتقال حرم سفير بريطانيا الايطالية".

تعاقب على الحكم العديد من رؤساء الوزراء بعد علي ماهر باشا، لكن في سنة ١٩٤٢ تمكن القائد الالماني روميل من الاستيلاء على بني غازي في ليبيا، فتفاقمت الاحداث في مصر، وحدث ان كان الملك في ٦ يناير ١٩٤٢ قد خرج للصيد مع الوزير المفوض الفرنسي جون بوزي الذي كان ممثلاً لحكومة فيشي الفرنسية وعند عودته من تلك الرحلة علم ان اللورد كيلرن* قد أصدر أوامره إلى الحكومة المصرية بقطع العلاقات مع "فيشي"، وطرد الوزير الفرنسي جون بوزي وكان هذا التصرف تخطياً صارخاً لحقوق ملك مصر الشرعية فطلب من وزير خارجيته صليب باشا سامي الاستقالة لموافقته على هذا التعدي وأعقب ذلك استقالة رئيس الوزراء حسين سري باشا في ٢ فبراير سنة ١٩٤٢.

عندئذ طلب الأنجليز ان يكلف مصطفي النحاس باشا بتولي رئاسة وزارة جديدة فوراً وماطل الملك، فتحركت بعض وحدات من الجيش البريطاني، وحاصرت قصر عابدين ودخل اللورد كيلرن السفير البريطاني مصطحباً معه رئيس اركان الجيش البريطاني الى القصر الملكي ومعه إنذار بأنه إما أن يتولى مصطفي النحاس رئاسة الوزراة، او يتنحى الملك عن العرش وكان هذا تعدياً صارخاً على سيادة مصر، وقد ابدى الملك النية في قبول التنحي إلا أن أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي، تدخل واقنعه أن يوافق على تعيين النحاس باشا وكان ذلك في يوم ٤ فبراير ١٩٤٢.

ومن عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٤٤ ساندت وزارة الوفد المجهود الحربي للحلفاء إلا أن حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ كان له ابلغ الاثر داخلياً، فقد اعتبر الجيش المصري هذا الحادث لطمة قوية وقدم البكباشي محمد نجيب** استقالته من "جيش غير قادر على حماية ملكه" وفقد الوفد بعض جاذبيته نتيجة هذا

---

* اللورد كيلرن هو نفسه السير مايلز لامبسون المندوب السامي البريطاني وسُمي بهذا الاسم عندما أنعم عليه الملك جورج بلقب لورد.

** أول رئيس جمهورية لمصر بعد ثورة ١٩٥٢.

الحادث حيث وصل إلى الحكم على اسنة الرماح البريطانية الكريهة – لقد لطخ الانجليز بهذا الحادث شعبية الوفد الذي كان دائماً حامل لواء طموحات مصر، كما حطم لعبة القوى المثلثة ألا وهي القصر مع احزاب الاقلية والانجليز وحزب الوفد.

وفي خطاب العرش سنة ١٩٤٣ طلب النحاس باشا وأيدته جميع الاحزاب في مصر ان يعاد النظر عند انتهاء الحرب العالمية الثانية في معاهدة سنة ١٩٣٦، ويجب انسحاب قوات الاحتلال البريطاني من الدلتا والقاهرة والاسكندرية إلى منطقة قناة السويس، وأن يبدأ في إجراء محادثات جديدة تستهدف الجلاء التام ووحدة مصر والسودان.

وفي عام ١٩٤٤ عندما ابتعد شبح الحرب عن منطقة الشرق الأوسط لّح مصطفي النحاس بالشعور العام تجاه الاحتلال، وطالب بانسحاب القوات إلى منطقة قناة السويس إلا أن القيادة العامة للقوات البريطانية ماطلت بحجة ان مصر لم تُعّد ثكنات جديدة للجيوش في المنطقة – طبقاً لنصوص المعاهدة – وعلى ما يبدو أن القصر الملكي تلقى الضوء الاخضر، عندما كان السفير البريطاني لورد كيلرن خارج البلاد، بموافقة بريطانيا على التخلص من النحاس باشا الذي أصبح رأيه متصلباً ومتشدداً ويصعب التفاهم معه.

ولم يضيع الملك فاروق هذه الفرصة، حيث كان مازال متأثراً من حادث ٤ فبراير ويكره أيضاً اللورد كيلرن الذي ساعد النحاس في ذلك الوقت، فافتعل إشكالاً، حيث طلب من محافظ القاهرة محمود باشا غزالي ان ينزع صور النحاس باشا من الشوارع، وكانت صوره معلقة بجوار صور الملك في كافة الشوارع والميادين.

نفذ المحافظ هذه التعليمات، واعتبرها مصطفي النحاس باشا اقالة غير مباشرة لحكومة الوفد فاستقال في نفس الليلة الا ان الملك كان قد أقاله قبل أن يستقيل، وشعر الوفد ان الانجليز بدأوا يخذلونه، وكان الوفد في صفوف المعارضة، وخارج الحكم، وقامت مظاهرات واحداث شغب في البلاد ضد الانجليز علانية والقصر ضمناً وهاجمت صحف المعارضة الاوضاع، واثلج ذلك قلب الملك اذ رأى عدوه اللدود مصطفي النحاس باشا يهاجم البريطانيين.

بعد ذلك تولى احمد باشا ماهر الوزارة في آخر عام ١٩٤٤ وكانت وزارة ائتلافية ضمت حزب السعديين والاحرار الدستوريين، وحزب الكتلة الجديد بزعامة مكرم باشا عبيد واعلنت مصر بزعامة احمد ماهر الحرب على دول المحور بناء على احد القرارات في مؤتمر يالتا Yalta Conference الذي انعقد من ٤ إلى ٦ فبراير سنة ١٩٤٥ الذي نص على ان كل دولة اعلنت الحرب على المانيا واليابان حتى

اول مارس ١٩٤٥ يكون من حقها الاشتراك في اجتماع سان فرانسسكو الذي كان حجر أساس منظمة الامم المتحدة الحالية، ويكون من حقها أيضا الانضمام إلى منظمة الامم المتحدة.

أغتيل احمد باشا ماهر رئيس الوزراء وهو خارج من مجلس النواب في طريقه إلى مجلس الشيوخ في اواخر فبراير ١٩٤٥ إلا أن مصر على أية حال من الاحوال اعلنت الحرب، وكان من ضمن اسباب اغتياله بعض الشائعات التي افادت بأن مصر سترسل بعضاً من قواتها المسلحة إلى الشرق الاقصى للاشتراك في الحرب القائمة ضد اليابانيين، وجاء النقراشي باشا إلى الحكم وطالب بانسحاب الانجليز ووحدة مصر والسودان وكان حزب المحافظين هو الحزب الحاكم في بريطانيا في هذا الوقت بزعامة السير ونستون تشرشل Sir Winston Churchill الذي كانت سياسته عدم التفريط في زعامة الامبراطورية البريطانية ونفوذها في مصر على الأخص.

تغيرت الاحوال سنة ١٩٤٦ عندما خرج حزب المحافظين من الحكم، وتولى حزب العمال مقاليد الأمور بزعامة سير كلمنت آتلي Sir Clement Atlee ، الذي تبنى سياسة الأمم المتحدة في عدم المماطلة والبعد عن استعمال العنف لقمع الثورات في البلاد ومنح الحرية للمستعمرات، وكان السير ارنست بيفن وزير الخارجية في حزب العمال، رجلاً واسع الافق ورأى انه إن آجلاً او عاجلاً ستحصل مصر على الاستقلال التام وعمل على ان يجمد موضوع السودان على اساس ان وحدة مصر والسودان قادمة لا محالة تحت التاج المصري على اية حال في المستقبل، وتمكن من وضع الخطوط العريضة لاتفاقية جديدة مع مصر بزعامة صدقي باشا الذي خلف النقراشي في الحكم بعد فشل مفاوضاته مع حزب المحافظين.

وكان مشروع هذه الاتفاقية ينص على الآتي:-

١ – انسحاب القوات البريطانية من الاسكندرية والقاهرة وباقي الدلتا إلى منطقة قناة السويس حتى ١٩٤٧/٣/٣١.

٢ – يتم الانسحاب النهائي من مصر حتى سبتمبر ١٩٤٩ اما في حالة وقوع هجوم مباشر على مصر، او إذا دخلت بريطانيا في حرب نتيجة هجوم على بلاد مجاورة لمصر يجب أن تتعاون الدولتان عن طريق لجنة مشتركة للدفاع.

٣ – ان تكون سياسة الدولتين بريطانيا ومصر الواجب اتباعها في السودان، في اطار سياسة وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري مع الأخذ في الاعتبار رفاهية الشعب السوداني، وتطوير مصالح السودان، واعداد الجنوب للحكم الذاتي، وتقرير مصير مستقبل الحكم في السودان ولحين وصول

مصر وبريطانيا لاتفاقية مع السودانيين بهذا المعنى تظل اتفاقية ١٨٩٩ نافذة المفعول.

وكان هذا البند الأخير من أصعب البنود صياغة وكان المشروع ببنوده الثلاثة أفضل من أي نتيجة عُرِضت على مصر في العهود السابقة.

هاجم حزب الوفد الذي كان خارج الحكم، هذه الاتفاقية ورفضها رفضاً باتاً، وعند تولي النقراشي باشا الحكم بعد صدقي باشا أعلن أن سياسة مصر هي التمسك بضم السودان إلى الأبد وفي سنة ١٩٥٠ عاد حزب الوفد إلى الحكم وأعلن في خطاب العرش أن معاهدة سنة ١٩٣٦ قد فقدت فاعليتها، وطلب جلاء القوات المحتلة ووحدة مصر والسودان بدون شروط وبدأ النحاس باشا مفاوضات جديدة مع بريطانيا آملاً ان يحقق مطالب مصر، إلا ان حزب العمال كان قد خرج من الحكم وتولى حزب المحافظين بزعامة ونستون تشرشل وفشلت هذه المفاوضات.

وفي ١٩٥١/١٠/٨ قدّم النحاس باشا مشروع قانون إلى مجلس النواب، ملخصه إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وفسخ اتفاقية الحكم المشترك للسودان وإعلان فاروق ملكاً لمصر والسودان.

ويوم ١٦ اكتوبر من نفس السنة وافق مجلس النواب على مشروع القرار، واتضح من هذا القرار أن مصر لم تملك القوة في فرض ارادتها لا داخلياً ولا في السودان، وكان هذا الاجراء رد فعل الوفد لفشل المفاوضات.

وأخطأت مصر للمرة الثانية عندما وافق وزير خارجيتنا – الشاب المتشبع بمنطق العصر – الدكتور محمد صلاح الدين في جدال في مؤتمر الأمم المتحدة بباريس في نوفمبر ١٩٥١ على مبدأ الاستفتاء لتقرير مصير السودان متماشياً مع مبدأ حق تقرير المصير للشعوب المستعمرة وهو حق اقرته الامم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥.

وفوجئ الشعب في مصر عند سماع هذا التصريح لأنه كان من مبادئ الوفد والبلاد أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر وليست مستعمرة.. واعتقد أن أعضاء الوزارة أنفسهم لم يكونوا يتوقعون تصريحاً كهذا من وزير خارجيتنا في الأمم المتحدة.

وعندما اندلعت ثورة ١٩٥٢ بدأت مفاوضات جديدة من حيث انتهى حزب الوفد وأقرت مبدأ حرية تقرير المصير.

السودان من سنة ١٨٩٩ إلى ١٩٥٤

أدت نصوص اتفاقية مصر والسودان سنة ١٨٩٩ إلى أن تتحمل مصر كافة النفقات السودانية، وأن يتولى الجانب البريطاني الادارة، فالحكم المشترك لم يكن حكماً مشتركاً حقيقةً لأن الادارة البريطانية، كانت لها سياسة غير معلنة، وهي أن يبقى السودان منقسماً على نفسه، لأن السودان في ذلك الوقت كان منقسماً إلى الشمال والجنوب.

فالجنوب كان غالبيته من المسيحيين غير المتعلمين أما الشمال فكان أغلبيته من المسلمين وربما كان هدف الانجليز هو ضم جنوب السودان إلى مستعمراتها في اوغندا في المستقبل.

وبعد الحرب العالمية الاولى زاد التوتر بين مصر وبريطانيا عندما اندلعت ثورة مصرية شعبية سنة ١٩١٩ تطالب بالاستقلال وبوحدة مصر والسودان لخوف مصر من التوسع الزراعي ومشاريع الري في السودان التي اعتبرتها مصر تهديداً مباشراً لنيلها شريان حياتها.

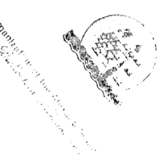
كما اتضح لكل مصري وسوداني أن ما سُمي بالحكم البريطاني المصري ما هو إلا حكم بريطاني مستقل حيث احتفظ الانجليز بكل الوظائف القيادية، ونشرت نظم تعليمية وقانونية مأخوذة من قوانينهم.

لم يتحسن الوضع بعد مقتل السردار سير لي ستاك حاكم السودان اذ حاول الانجليز الاستئثار بالحكم، والحد من النفوذ المصري في السودان وانشأوا مجالس قروية سودانية لإيهام السودانيين بأن هذه خطوة نحو الاستقلال.

وفي هذا الوقت كان هناك ثلاثة أحزاب رئيسية في السودان وهما حزبان يغلب عليهما الاتجاه الديني والثالث سياسي وهم حزب الأمة تحت رئاسة السيد عبد الرحمن المهدي ابن المهدي الكبير، وكان هو رئيس طائفة الانصار الدينية وهي طريقة من الطرق الصوفية التي أسسها المهدي الكبير حوالي عام ١٨٨٠، والتي انبثق عنها حزب الأمة السياسي الذي كان يرغب في استقلال السودان ليحكم نفسه بنفسه اذا أمكن إلا انه كان يُفضل التعامل مع الانجليز اذا اضطر ان يتعاون مع احد أما الحزب الآخر فهو حزب الختمية وهو طريقة صوفية اخرى الذي كان يرأسه السيد علي المرغني ولم يكن سياسياً متحمساً وكان يرغب في استقلال السودان الا انه كان يفضل ان يتعاون مع المصريين اذا اضطر بدلاً من الانجليز، على ان حزب الأمة وحزب الختمية كانا على خلاف دائم برغم عدم اختلاف الديانة، لأن حزب الختمية كان يعتبر (المهدية) والأنصار أتباعه طريقة اسلامية خارجة عن الاسلام الصحيح أما الحزب الثالث وهو حزب سياسي محض كوّن في سنة ١٩٤٣ برئاسة اسماعيل الازهري وهو حزب العشيجة، وكان ينادي دائماً بوحدة مصر والسودان.



السيد عبد الرحمن المهدي في شبابه
عن كتاب Sudan Death of a Dream. by
Graham F. Thomas.





السيد علي المرغني في شبابه
عن كتاب Sudan Death of a Dream. by
Graham F. Thomas.

وكما ذكرنا من قبل انه في عام ١٩٤٦، تفاوض الجانب المصري برئاسة صدقي باشا مع الجانب البريطاني وكان في الحكومة ذلك الوقت حزب العمال برئاسة سير كليمنت آتلي ووزير خارجيته ارنست بيفين وقد توصل الطرفان لمشروع اتفاق لانسحاب القوات البريطانية على مرحلتين، ووحدة مصر والسودان تحت التاج المصري.

وعند عودة صدقي باشا إلى مصر بعد هذه المفاوضات، ادعى أنه حصل على اتفاق لوحدة مصر والسودان تحت التاج المصري فانزعج حزب الأمة، ولم يعلق حزب الختمية على هذا الخبر بينما هلل حزب العشيجة له. كما انزعجت ايضاً الادارة البريطانية بالسودان فكان اعتقادهم ان السودان سيفلت من قبضتهم وكان رد فعلهم انهم ارسلوا تقارير إلى حكومتهم وادعوا ان الأوضاع الداخلية في السودان قلقة، فاندلعت المظاهرات في أم درمان تشجب هذه السياسة، وتصرف هؤلاء الحكام وكأنها حرب خاصة بينهم وبين وزارة الخارجية البريطانية على اساس ان هذه الوزارة تميل لمنح تنازلات للمصريين، وبدأت حرب كلامية اخرى ضد مصر في السودان بين العناصر الموالية لمصر وحزب الأمة المناهض.

وفي ٢٣ ديسمبر ١٩٤٨ افتتح الحاكم العام في السودان مجلساً تشريعياً مكوناً من عشرة نواب بالانتخاب المباشر في المدن الكبرى و٤٢ ممثلين للقرى بالانتخاب غير المباشر منهم اثنا عشر من الجنوب وعشرة بالتعيين وأحد عشر من المجلس التنفيذي منهم ستة بريطانيين، حيث كانت المجالس القروية قائمة بالفعل. أما حزب الختمية وحزب العشيجة فرفضا الدخول في الانتخابات التي أدت إلى سيطرة حزب الأمة على المجلس التشريعي الجديد وكان هذا رد فعل الادارة بالسودان لمشروع صدقي – بيفن لاجهاض أي خطوات نحو الانضمام لمصر مستقبلاً، وبذلك أوعزت انجلترا للسودانيين ان هذه هي الطريقة المثلى لممارسة الحكم النيابي وهي اول خطوة على طريق الاستقلال.

وفي سنة ١٩٥١ عندما فشلت مفاوضات الوفد برئاسة النحاس باشا وسير ونستون تشرشل رئيس الحكومة البريطانية في ذلك الوقت لتقرير وحدة مصر والسودان وانسحاب الجيوش البريطانية أعلن النحاس باشا انه قد ألغى معاهدة سنة ١٩٣٦ كما الغى الحكم المشترك في السودان واعلن ان الملك فاروق هو ملك مصر والسودان.

وفي ١٦ اكتوبر من نفس السنة وافق مجلس النواب على هذا المشروع، وعندما علم السودان بهذه القرارات، حدثت بلبلة في الأفكار وأراد المهدي اعلان استقلال السودان في الحال إلا أن الانجليز نصحوه بالتريث.



اسماعيل الأزهري
أول رئيس وزراء للسودان
عن كتاب Sudan Death of a Dream. by Graham F. Thomas.



السيد عبد الرحمن المهدي
يرحب بالرئيس محمد نجيب
عن كتاب Sudan Death of a Dream. by Graham F. Thomas.

وفي هذه المناسبة ذكر في الاجتماع العبارة التالية:

"يجب ألا تقلق أبداً لأنه يمكنك دائماً الاعتماد على أن مصر ستفعل الأمر الخاطئ في الوقت الصحيح".

(You need never worry for you can always rely on Egypt doing the wrong thing at the right time)* .

وبعد ثورة ١٩٥٢ تمت انتخابات في السودان حيث فازت الاحزاب الموالية لمصر بالاغلبية في المجلس التشريعي وكلف الازهري بتشكيل وزارة سودانية تمهيداً لاستفتاء عام على وحدة مصر والسودان وبعد وقت قصير في سنة ١٩٥٤ حدث شغب في السودان عند زيارة الرئيس محمد نجيب لها. وعندما اعتقل الرئيس الراحل محمد نجيب في مصر استاء أغلب السودانيين من الوضع ورفض الأزهري الاستمرار في المطالبة بالوحدة مع مصر وأعلن الاستقلال التام للسودان، وذلك في عام ١٩٥٥.

* * *

على الرغم من أن إستر وأعضاء آخرين من الأسرة كانوا في المقدمة في ثورة ١٩١٩ إلا أنهم لم يكن لهم دور هام في النهضة التي طرأت على الاقتصاد المصري التي تولّدت مباشرة عن هذه الثورة.

قبل سنة ١٩١٩ كانت الصناعة والتجارة عملياً في أيدى الأجانب، لم تكن هناك ضرائب سوى الجمارك وضريبة الأرض الزراعية فازدهرت الشركات، أما الإنسان المصري، فقد كان بطبيعته فلاحاً، وتفوق في زراعة القطن الذى كان يُصدّر إلى المغازل بالخارج ليعود استيراده كمنتجات قطنية مجهزة، وبعد سنة ١٩٢١ أخذنا الهند كمثال في صراعها من أجل الاستقلال، وكانت الهند قد بدأت صناعة بدائية لإنتاج أقمشة قطنية رخيصة تكفي جماهير شعبها، وذلك لمقاطعة البضائع الانجليزية، لكننا كنّا أكثر طموحاً، ففي عام ١٩٢٢ قامت مجموعة من المصريين بقيادة طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن بتأسيس بنك مصري صميم اسمه " **بنك مصر**" الذى أصبح نواة لمجموعة شركات مصر غطت مجالاً كاملاً من الصناعات بدءاً من إنتاج الأفلام وحتى إنتاج الأزرار، لكن المشروع الأكثر نجاحاً كان مجموعة من شركات

---

* Sudan Death of A Dream. by Graham F. Thomas. p. 38 (Conversation with Sir James Robertson)

الغـزل والنسـيج، وبـالرغم مـن مـرور الصناعـات الوطنيـة بصعـاب معينـة في أوقـات مختلفـة، وكـان علـى الحكومـة أن تلجـأ إلى البنـك لإنقاذهـا إبـان السـنوات الأولى للحـرب العالميـة الثانيـة، إلا أنهـا بقيـت مقاومـة للعواصـف راسـخة أمـام الزوابـع وأصبحـت حصنـاً للاقتصـاد المصـري قبـل عـام ١٩٥٢.

* * *

خـلال سنوات الحـرب لم تسافر استر خـارج مصر وبقيت بهـا مُركـزة على رعاية عملهـا الاجتمـاعي، ومـا أن وُقِّعـت معـاهدة ١٩٣٦ مـع انجلـترا والـتي لاقـت ترحيبـاً شـديداً مـن البـلاد كنصـر كبـير للوفـد حتـى شـعرت اسـتر أن الأمـر لا يحتـاج منهـا الاهتمـام بسياسة مصـر، فقـد أوضـح الرجـال عـن عـدم رغبتهـم في تواجـد المرأة علـى السـاحة السياسـية، وفي سـنة ١٩٣٧ قـرر الملـك الشـاب الـذي كـان محبوبـاً مـن الأمـة الملـك فاروق إقصاء الوفد عـن الحكـم، وطلـب النحـاس باشـا مـن اسـتر ان تـترأس حزبـاً مـن النسـاء ينـاضل مـن أجـل الدسـتور ومـن أجـل عـودة الوفـد إلى السـلطة بإحيـاء لجنـة المـرأة الوفديـة، الا انهـا رفضـت حيـث كـان النحـاس قـد أبعـد المرأة عـن الحـزب بعـد وفـاة سـعد زغلـول، فلـم تجـد سـبباً ملحـاً للنضـال مـن أجـل سياسـة حزبيـة خاصـة وليـس مـن أجـل الأمـة ككـل، وقـد أصبحـت أقـل تعلقـاً بالسياسـة المصريـة لأن الأحـزاب السياسـية أصبحـت أكـثر اهتمامـاً بتبجيـل أعضائهـا بـدلا مـن اهتمامهـا بالمصلحـة العامـة للأمـة ورفاهيتهـا، ومـن ناحيـة أخـرى أصبـح والـدي أكـثر انخراطـاً بالسياسـة، فقد انتخـب باللجنـة التنفيذيـة لحـزب الوفـد، وأصبـح نشـيطاً في دائرتـه الانتخابيـة بحـي اللبـان في الاسـكندرية، وكـان يحتفظ بمقعـد مجلـس الشـيوخ منـذ نشـأته في عـام ١٩٢٤، وكـانت اسـتر تساعده في دائرتـه بفتـح بيتهـا للنـاخبين، ومقدمـة كـل عـون ممكـن لمشاريعه الأخـرى، بينمـا كـانت تقوم بـالعمل باجتهـاد في الموضوعـات الـتي كـانت لهـا أهميـة أكـثر بالنسـبة لهـا.

بنهاية الحرب العالمية الثانية تراجعت صحة الوالد، وكانت إستر تقضى جزءاً من وقتها في العناية به، وبقدوم ثورة ١٩٥٢ اختفي الكيان السياسى القديم الذى كان موجوداً بمصر وتوارى في الظـلال، وأصبـح الساسـة متفرجـين بدلا من كونهم مشاركين، ولم يعد أى شخص يعرف بالضبط مايجرى أو من هـو المسـئول، وبـرزت صـورة جديـدة تماماً للعيان لم تكن مفهومة دائماً.

* * *

مازال الوقت مبكراً جداً لم يحن بعد للتعليق بموضوعية علـى السياسـة المصريـة أو سياسـاتها خـلال الأربعين سنة الأخيرة الماضية بعد قيام ثورة ١٩٥٢، وعلى الجيل القادم أن يُقيِّم سلبيات وايجابيـات مـا

حدث لمصر وما وقع بها، ولكنى سأحاول هنا أن ألمس فقط القليل من النقاط التي أجدها طريفة عن هذه الفترة.

كنت بالنمسا في صيف عام ١٩٥٢ مع عائلتى الصغيرة عندما تنازل الملك عن العرش، كنا نشعر جميعاً خلال الشهور القليلة السابقة على شهر يوليو انه يبدو هناك خطأ ما في سياسة البلاد ولم يتخيل أحد ماكان يحدث وراء الكواليس.

عند عودتنا إلى مصر في أوائل شهر سبتمبر كان والدي بحالة صحية سيئة، وكانت الأحاديث تدور حول الإصلاح الزراعي ولم يكن بمقدوره أن يقرر كيف سنعيش، وعلى الرغم من أن أغلب الناس كانوا يعتبروننا أغنياء كما ذكر بفصل "الدبلوماسي الهادئ"، إلا أن الحقيقة أننا كنا دائما مدينين للبنوك، والأراضي التي كنا نملكها كانت مرهونة، ولم نتمكن من تسديد الديون وفك الرهن ببيع الأرض التي كنا نملكها بالفيوم، إلا خلال السنوات الثلاث الأخيرة السابقة على الثورة، وعلى الرغم من أننا كنا نحيا عيشة كريمة، ولم نكن محرومين من أى شئ إلا أننا كنا دائما نعي أننا لسنا أغنياء، وأن علينا أن نعمل لنعيش.

بنفس الأسلوب كان والدي ووالدتي يعيشان على إيرادهما السنوي من المزارع المؤجرة للفلاحين في صعيد مصر، وكان هذا الدخل يُغطي بالكاد أسلوب الحياة الذي اعتادا عليه، كان مستواهما مرتفعاً، ولكن لم تكن وراء ذلك سيولة نقدية أو مدخرات، كان كل رأس مال الأسرة مُركزاً في الأرض ومنزل بالأسكندرية، وحصة في منزل بأسيوط وإيماننا بالله.

أُبلغت عند عودتي إلى الاسكندرية أن عليّ أن أتوجه إلى القاهرة لكي أمثّل أسرة ويصا، فلم يكن بالبلاد في ذلك الوقت أي عضو في الاسرة كبير آخر، وكان من المطلوب أن يتواجد عضو ممثل للأسرة ضمن وفد لملاك الأراضي، وكان هذا الوفد يعمل على تقديم التماس إلى اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة يقترح تحويل قانون الإصلاح الزراعي إلى قانون لضريبة الدخل مع زيادة رسوم الأيلولة عند الوفاة، مما يمكن أن يحد خلال فترة من الزمن من الملكية الكبيرة للأراضي، وفي نفس الوقت يمكّن ملاك الأراضي من بيع أملاكهم واستثمار العائد، وقد اقترح هذا الالتماس على ماهر باشا رئيس الوزراء الذى قام بكل الترتيبات الخاصة بالاجتماع.

سافرت إلى القاهرة ولحقت بذلك الوفد وتوجهنا إلى مقر مجلس قيادة الثورة في مصر الجديدة، فتقابلنا مع صلاح حافظ المستشار القانوني لمجلس الثورة، ثم سمحوا لنا بمقابلة محمد نجيب الذي قدمنا له الالتماس، وبعد مصافحتنا له اقتادونا إلى خارج الغرفة، كنّا عبارة عن مجموعة بائسة مُكونة من حوالي

عشرة أفراد يمثلّون الأسر التي تمتلك أراضي ذات مساحات كبيـــرة، وكنت العضو الوحيـد ضمـن هـذا الوفد الذى لم يكن يملك فداناً واحداً، حيث كان والدى مازال على قيد الحياة في ذلك الوقت وأى أراض كنا نملكها كانت باسمه، ففي تلك الأيام لم يكن معتاداً للأبناء أن يحصلـوا علـى أى شئ مـن والديهم قبل الوفاة، فقد كان أولياء الأمور يمسكون بخيوط كيس النقود بإحكام شديد.

ظهرت صورنا بالصحف في اليوم التالى ومعها أسماؤنا ومساحات الأراضي التي كـان مـن المفروض أن يمتلكها كل منا، في ذلك الوقت كنت في الواحدة والثلاثين من عمري وقيل إنني أملك ٢٨ ألف فدان مـن الأراضي الزراعية. والحقيقة أن الصحافة وقعت في خطأ بسيط، فقد خلطوا بيني وبين مؤسس هذه الأسرة حنا بقطر ويصا الذي كان يملك مع أخيه ويصا بقطر ويصا ٢٨ ألف فدان في عام ١٩٠٠، وضحكنا جميعا في ذلك الوقت على هذا الخطأ، ولكن ما يؤسف له أن المخابرات كما يبدو لم تتبـين هـذا الخطـأ مطلقـا، لأنني قرأت بمذكرات رئيس المخابرات في ذلك الوقت أن هناك مؤامرة كـان يحيكهـا رئيـس الـوزراء مـع كبار ملاك الأراضي الذين ذكروا بالاسم وانا من ضمنهم في محاولة لوضـع قـانون الإصـلاح الزراعـي علـى الرف، والواقع أنه لم تكن هناك مؤامرة على الإطلاق، بل اننا كنا جميعا نرتجف من الخوف، وخصوصا أنا المسكين الذي لم أكن أملك فدانا واحداً.

هناك قصة طريفة كانت تُحكى في ذلـك الوقـت عـن أحـد موظفـي الإصلاح الزراعـي الـذي وصـل إلى أسيوط بالقطار، فأعطى حقيبته إلى شيال المحطة وسأله عن اسمه ليتأكد أنه سيعيد له الحقيبة، فأجاب الشيال: " اسمي ويصا "، فأجاب موظف الإصلاح الزراعي على الفور: " هل قدمت إقرارك بكل الأراضي التي تملكها؟ ".

* * *

صدر قانون الإصلاح الزراعي في أواخر سبتمبر ١٩٥٢، ونص بمادته الرابعة بالسماح لكـل مـالك أن يحتفظ بمائتي فدان، كما يمكنه أيضا أن يعطي أولاده مائة فدان أخرى بشرط أن يتم التسجيل رسمياً.

تُوفي والدي فجأة في ٥ أكتوبر ١٩٥٢ بعـد حـوالي عشـرة أيـام مـن إعـلان القـانون، ولم يُمهلـه الزمـن ليسجل مائة فدان بأسماء أولاده بما يعني أن زوجة فهمـي ويصـا وأولاده لم يبـق لهـم جميعـا إلا مـائتي فدان بدلا من ثلاثمائة، معظم الناس كان يمكن أن يقبلوا الوضع، ولكـن لا ينطبـق هـذا علـى إسـتر الـتي ذهبت إلى مجلس قيادة الثورة في عرينه، وقابلت اللواء محمد نجيب والبكباشي جمـال سـالم الـذي كـان مسئولا عن الإصلاح الزراعي، وشرحت لهما كيف أن القدر قد خدع أولادهـا وحرمهـم مـن المائـة فـدان. والمعروف أن المصريين رحماء بطبيعتهم، ورأى مجلس قيادة الثورة أنهـا موفقـة في وجهـة نظرهـا، لذلـك

أضافوا فقرة ثانية إلى المادة الرابعة من القانون تقضي بأنه اذا توفي شخص قبل أن يتمكن من تسجيل المائة فدان لأولاده بأسمائهم يعتبر وكأنه قام باجراء هذا التسجيل.

استفادت عائلات كثيرة بالبلاد من إضافة هذه الفقرة التي تمت بشجاعة والدتي، لقد قامت والدتي بزيارة محمد نجيب كثيراً، وكانت تناقش السياسة معه ووجدته رجلاً معقولاً جداً وشخصية جذابة للغاية، كما قامت بزيارة الرئيس جمال عبد الناصر والكتابة اليه عدة مرات، وحاولت أن تُحذره من مخاطر الشيوعية، والتي أجابها بخطاب منه أن مصر لا تتجه نحو الشيوعية التي تخشاها، ولكنها فقط تطبق سياسة اشتراكية معتدلة للغاية بتخطيط من خبراء في هذا المجال (انظر نسخة الخطاب ضمن باب الخطابات).

تُوفي ابنها الأكبر جميل بأزمة قلبية في عام ١٩٧٧، لقد كان هذا الابن هو قرة عينها، ورغم ذلك لم أرها تبكي أبداً، لكنها كانت مُدَمَّرة وأصبحت شاردة الذهن ساكنة.

وبوفاة ابنها الآخر عدلي في سنة ١٩٨٤ استسلمت الى سنها المتقدم، إلا أنها حتى في أيامها الأخيرة لم يكن ليوقفها عن الجري هنا وهناك إلا تراجع مقدرتها الجسدية، وظلت طوال السنوات الثلاث الأخيرة من حياتها طريحة الفراش حبيسة الآلام تحت الرعاية ليلا ونهارا من إحدى الممرضات، لم تكن شفاهها تنبس بشكوى، إلا بآهة ألم تصدر رغماً عنها من حين لآخر، لقد كانت دائما شابّة بروحها، ثابتة العزم باصرارها على عمل أي شئ أو الذهاب لأي مكان، لقد كانت تستمتع بالجلوس مع الناس وتحس آنذاك بتوقد ذهنها، لم يكن لأي شخص أن يعرف حقاً ماذا ستقرر ولا ماذا يدور بعقلها، ولكن لم يكن بقلبها أي حقد أو مكر. ولم تتحدث في حق أي إنسان بالسوء. وفي سنة ١٩٨٧ تُوفيت شقيقتها العزيزة جميلة فجأة، فكانت صدمة كبرى للجميع، فقررنا ألا نخبرها، وعندما سألت عنها قلنا لها أنها ذهبت إلى القاهرة للعناية بأختها ماري التي كانت متوعكة، ومن ثم كانت تسأل من حين لآخر " كيف حال ماري ؟ ألن تعود جميلة؟ " فنقول لها: "ربما بعد بضعة أيام" لقد كان بإمكانها أن تستخدم الهاتف الذي كان مجاورا لسريرها وتتحدث اليهم بالقاهرة، لكنها لم تفعل ذلك أبداً وكأنها كانت تعلم في داخل قلبها أن جميلة قد ماتت، ولكنها لم ترد مواجهة الحقيقة مُفضلة العيش في وهم أن شقيقتها لم تمت، وأنها لابد وأن تعود في يوم من الأيام. كنت أشعر أنها خلال السنوات الثلاثة الأخيرة من حياتها إنما كانت تنتظر الموت دون شكوى.

وفي أغسطس ١٩٩٠ كنت في انجلترا عندما رن جرس التليفون فقيل لي إن إستر قد ماتت. كانت شقيقتي نادية ونبيلة أرملة أخي عدلي في المنزل، وكانا قد غادرا الغرفة لتوهما عندما جاءت الوصيفة لتقول لهما أن إستر قد فارقت الحياة تاركة لنا دنيا لم تعد مثلما كانت من قبل وبالنسبة لنا كان عصراً بأكمله قد انتهى.



فهمي بك ويصا وهو يرتدي ملابس البكاوية من الدرجة الأُولى
وقد منحها له الخديوي عباس حلمي الثاني

الكتاب الثاني – الدبلوماسي الهادئ

الدبلوماسي الهادئ (١٨٨٥ – ١٩٥٢)

الدبلوماسي الهادئ هو أبي، فهمي بك ويصا، ومع أني قد تحدثت كثيراً عن دور أمي في البلاد، إلا أني قلت أقل القليل عن أبي، كان الاثنان مختلفين في الشخصية، ويمكن أن تقول متناقضين، بالرغم من ان كلا منهما كان شخصية عامة في زمنه وطريقة حياته، وبالرغم من انه قد سلطت عليهما الأضواء سوياً، الا ان كثيرين قالوا لي: "نحن نتذكر أباك"، ثم يبدأون في قص بعض الأحداث المرتبطة به التي وقعت لصديق أو لقريب. وأمي التي عاشت أربعين عاماً بعد وفاة أبي، فنادرا ماكانت تُذكر الا في دائرة أصدقائها ومعارفها المقربين، مع انها لم تترك الخدمة العامة إلا خلال آخر عشر سنوات من عمرها، وكثيرا ما كنت أتعجب من هذا الوضع الشاذ! فهل يكون السبب راجعاً الى ان أبي عاش في حقبة مختلفة يفكر الناس فيها بحنين إلى الماضي؟ وهي حِقبة انقضت ولن تعود أبداً، وأمي عاشت في زمن مليء بالصعاب والغليان مما ساعد على نسيان نضالها في مجده.

كانت استر متحدثة لبقة، واعتقد ان أسعد أوقاتها كانت عندما تترأس اجتماعاً أو حين تكون على المنبر تلقي خُطبة أو في المنزل تكتب مقالاً، وكانت مستعدة لتعبّر عن رأيها في أي موضوع، وليس بالضرورة أن تعبّر عنه بدبلوماسية، بل كانت في بعض الأحيان تعبّر عنه بطريقة مثيرة للجدل، أما فهمي فلم يكن متحدثاً لبقاً لأنه كان ألثغ في كلامه، ولا أعتقد أنه كتب مقالاً واحداً في كل حياته، وكان دائماً ما يعبر عن آرائه بهدوء وفي شيء من الخصوصية، ومع هذا فقد كان قادراً على أن ينال مايريد، لقد كان دبلوماسياً مثالياً بكل ما في الكلمة من معنى مدققاً في ملبسه، بل يمكن أن تقول شديد التأنق، مطمئناً في أي صحبة قادراً على أن يختلط بسهولة مع ما تُسمى بالأرستقراطية القديمة "المصريين من أصل تركي" وأصحاب النفوذ والحكام الذين قد اعتاد على أن يستضيفهم في منزله في كثير من الأوقات، فاذا اصطحبوا معهم زوجاتهم كانت أمي تحضر هي الأخرى، وإلا تكون حفلات للرجال فقط، وحين تحضر النساء يكون أبي مفضلاً جداً عندهن فهو كان ما يسميه الفرنسيون بخفيف الدم (سمباتيك)، ولكن أعتقد أنه في أعماق قلبه كان يفضل الطبقات العادية، فهم المصريون الحقيقيون الذين أحبهم وفهمهم.

على الرغم من أنه كان قبطياً، إلا أن كثيراً من أصدقائه كانوا في الغالب من المسلمين، فهو لم يكن متعصباً بأية حال ولا تستطيع أن تقول عنه أنه كان متديناً، فهو لم يكن يطيق ادعاءات رجال الدين، وكل الذين

عرفوه أعجبوا به بل وأحبوه، وخلال شهر رمضان المبارك، كان يعُد عدة مآدب للإفطار، وكان يدعو اليها فئات مختلفة من الناس مثل لاعبي الكرة من نادي الاتحاد وضباط شرطة، وضباط جيش ورجال المجلس البلدي والمحافظة والناخبين في دائرته وغيرهم من الناس الذين كان على علاقة بهم، وقد كانت هذه مناسبات للرجال فقط وكان يستضيفهم في المنزل أو الحديقة، حسب الفصل والمناخ، وفي يوم مأدبة الإفطار كان أبي معتاداً أن يصوم احتراما لأخوته المسلمين ويفطر معهم، وبنفس الطريقة، ففي يوم الجمعه الحزينة الخاص بالأقباط كان يدعو أصدقاءه من المسلمين ليشاركوه في الافطار المسيحي الذي ينتهي حين تخرج الكنيسة في الساعة السادسة مساء، وكان أصدقاؤه المسلمون يصومون أيضا في تلك المناسبات.

مع أن استر كانت والدتها ابنة عم والدي ومن نفس الطبقة الاجتماعية، إلا أنهما كان لكل منهما نظرة مختلفة للحياة، وربما كان هذا الاختلاف هو ما جعل زواجهما زواجاً ناجحاً، فأمي أشرفت على تربيتها مربيات إنجليزيات، وتخرجت من الكلية الأمريكية في أسيوط، وكان عندها ميل للمجادلة ولمناقشة كل شيء مع مدرسيها ووالدها المحامي، في حين أن فهمي أشرفت على تربيته أمه الشغوفة به وشقيقاته قبل أن يقضي خمسة أعوام في الكلية الأمريكية في بيروت وخمسة أعوام بعد ذلك في كلية هرتفورد في أكسفورد، حيث كان قد ترك المنزل كصبي في الثالثة عشرة، وعاد اليه كشاب في الثالثة والعشرين، وقضى بذلك أكثر من عشرة أعوام في الخارج بعيداً عن سلطة والديه، ومع هذا فقد كانت التقاليد والعادات واضحة في تربيته، لقد كان يَكنّ احتراماً كبيراً ورهبة لأبيه، ولكني لا أعتقد أنهما كانا يتحدثان كثيراً معاً، والحادثة التالية توضح العلاقة بين الأب والابن وقد رواها فهمي:

> " مع أن حنا ويصا كان مُدخناً شرهاً، يدخن ما يربو على مائة سيجارة يومياً، إلا أن أبناءه بدافع من الاحترام والتقاليد كانوا لا يدخنون مطلقاً في حضرته، وفي أحد الأيام بعد عودة فهمي من أكسفورد في اجازة صيفية، كان فهمي في الصالة يدخن غليونه، فرأى والده نازلاً على السلالم، فماكان منه إلا أنه دسّ غليونه في جيبه لأنه لم يشأ أن يراه أبوه وهو يُدخن، فوقف حنا مطيلاً الحديث معه عمداً إلى أن احترق جيب فهمي".

أما علاقته بأمه فكانت تحبه وتدلِله لأنه كان أصغر أبنائها، فعندما كان يرجع إلى مصر في أجازته الصيفية من أكسفورد كانت تغدق عليه بالمال وحدث أنه ذات مرة عندما كان في أجازة أعطته أمه خمسة آلاف جنيه ذهباً.. فعندما سمعت إحدى اخواته المتزوجات بهذا الخبر عاتبت والدتها وقالت لها "كيف تعطي فهمي خمسة آلاف جنيهاً ولم تعطنا شيئاً ؟" فردت عليها أمها وقالت: "انتم الحمد لله مستورين وغير محتاجين لأي شيء فكيف تستخسرون خمسة آلاف جنيه في أخيكم فهمي الساكن في الغربة الذي يمكن أن يحتاج إلى شيء ما ؟ هو أنا مش بأبعت لكم كل شهر جميع ما تحتاجونه من سمن وسكر وعسل ولحم وبيض ؟!"



فهمي بك ويصا – عضو مجلس الشيوخ ١٩٢٤ – ١٩٥٢ بملابس مجلس الشيوخ

مات حنا في عام ١٩٠٧م فوجد أبي نفسه وريثاً لثروة ضخمة تتكون أساساً مـن الأراضـي الزراعيـة، فكـان مـن المفترض ان مهنته ستكون الزراعة، إلا أنه بدلاً من هذا افتتح بنكـاً مـع شـقيقه نصيـف يُعـرف ببنـك "الانجـال"، وأصبح كل من يلازمون العائلة هم طاقم الموظفين، مع أنهم لم يكن لديهم أي خبرة سابقة في البنوك، وأنا لا أعرف السبب الذي دفع الشقيقين لفتح بنك، فربما جاءت لهما الفكرة لأن بشرى باشا حنـا وهـو مـالك أراض آخـر مـن الأثرياء، كان يمتلك بنكاً، وهذا أدى إلى أن يصبح عملاء بشرى المفلسين أفضل عملاء لبنك ويصا. وفي عام ١٩١٥، وبعد أن تم الإعلان عن الموراتوريوم (قرار رسمي بتأجيل دفع الديون المستحقة للبنوك بسبب الحـرب) اضطـر أبـي لأغلاق البنك وأصبح لزاماً عليه ان يرهن أرضه ليدفع حصته من الديون.

حادثـة طريفـة وقعـت في عـام ١٩٣٧م، لقـد كـان شـقيقي الأكـبر جميـل يحـب المقـامرة، وكـان هنـاك كـازينو قـد تم افتتاحـه مؤخـراً في سيدي بشر اسمـه لامـيزونيت، فذهـب جميـل الـذي كـان قـد عـاد لتـوه مـن أجازتـه الصيفيـة مـن جامعتـه في انجلـترا مـع بعـض أصدقائـه إلى هـذا الكـازينو وخسر هنـاك أكـثر ممـا كـان في استطاعته أن يدفـع ممـا اضطره إلى التوقيـع علـى كمبيالـة بالبـاقي، وفي اليـوم التـالي أرسـل الكـازينو محصـلاً إلى مكتـب أبـي الـذي وافـق علـى دفـع الديـن، ولكنـه عندمـا وبـخ جميـلاً سـأله قـائلاً "مـالذي جعلـك تفعـل مثـل هـذا الشـئ؟" فأجابـه جميـل الـذي كـان يتمتـع بـروح الدعابـة ويستطيع أن يتجنـب أبـي لسـرعة بديهتـه "انـت افتتحـت بنكـاً حـين كنـت في الثالثـة والعشـرين وخسـرت، وانـا فعلـت نفـس الشـئ افتتحـت بنكـاً وخسـرت" فـأعجبت أبـي تلـك الإجابـة السـريعة، وذهـب جميـل دون أن يُعـاقب، أمـا أنـا فلـم يكـن لـدي نفس هـذه العلاقـة مـع أبـي لأنـه كـان يرفـض كـل أعمـالي الطائشـة الـذي كـان عليـه أن ينقذنـي منهـا، ولم أتمكن أبداً مـن أن يكـون لي نفس هـذه العلاقـة الوديـة الـتي كـانت لجميـل فيمـا عـدا السـنوات القليلـة الأخـيرة من حيـاة أبـي بعـد أن تزوجـت فـايلي ابنـة ابـن عمـه زكـي بـك ويصـا الـتي انجبـت لـه حفيدتـين لأنـه آنـذاك كـان قـد تقـدم بـه العمـر، وأصبحـتُ أنـا أكـثر ثقـة في نفسـي فاستطعنا أن نتحـدث أكـثر وان نمـزح معـاً ممـا أدى إلى تقاربنـا أكـثر.

وكان واضحاً أنه ليس مهتماً بالسياسة بصورة كبيرة مع أنـه كـان عضـواً في الحـزب الوطـني، وكـان يتمتع بحظوة كبيرة في دوائر القصر، وكان الخديوي عباس حلمي يستقبله كثيراً، وكان معجباً بـه فـأنعم عليه، وعلى اخوته بلقب بكوات من الدرجة الأولى، ويقال إن أبي كان خبيراً في الانحناءة التركية طـوال حياته على الرغم من ازدياد وزنه، وهذا يستلزم الإنحناء والتراجع في نفس الوقت حين تنهي حديثك مع عاهل الدولة، ونستطيع أيضاً أن نرى في الصور الفرقة الموسيقية الخديوية التي أرسلها الخديوي مجاملـة له عند زواجه في أسيوط.

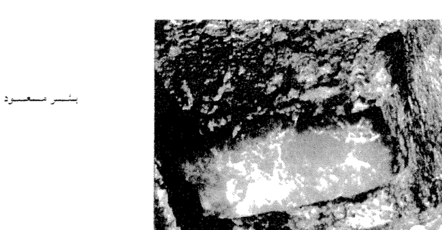


الملك فؤاد الاول . أول ملك لمصر
شقيق السلطان حسين وابن الخديوى اسماعيل وعم الخديوى عباس حلمى الثانى
١٩١٧ - ١٩٣٦

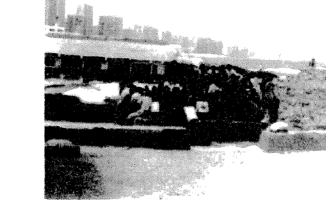


الملك فاروق الاول ١٩٣٦ - ١٩٥٢ وهو ابن الملك فؤاد الأول
تنحى فى ثورة ١٩٥٢

بئر مسعود اليوم



صورة للبئر من أعلى



تجمع من الشباب حول بئر مسعود (صورة حديثة)

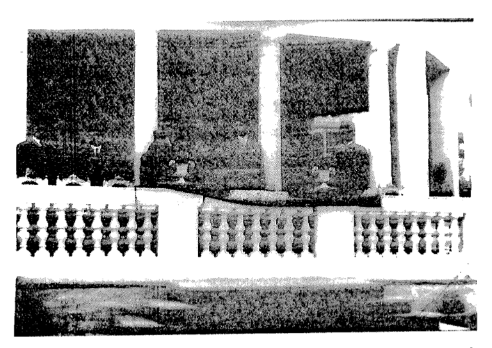


اطفال يغطسون في بئر مسعود لحصولهم على النقود

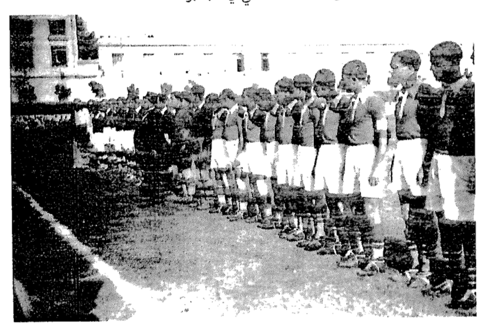
إبان سنوات الحرب العالمية الأولى كان النشاط السياسي في مصر مقيداً وحين أُستؤنف بعد الهدنة انجذب معظم الناس تجاه القضية الوفدية تحت زعامة سعد زغلول وأيدوه، وكانت أمي في ذلك الوقت تطالب بشدة باستقلال مصر، وكانت تدافع عن أفكار سعد، في حين أن أبي كان يساند القضية بقدر ما يستطيع، ولكنه لم يكن نشيطاً بشكل بارز، وكان لا يزال محبوباً ومحترماً في دوائر القصر الجديد، وبعد ثورة ١٩١٩م نقلت الأسرة مقر إقامتها إلى القاهرة، مع إنها كانت تسافر احياناً إلى أسيوط، وفي ذلك الوقت كان لديها ثلاثة أطفال، ولدان وبنت، وكانت أمي شديدة التفاخر بأسرتها الصغيرة، وكان الابن الأكبر – جميل – شديد الاتزان، والثاني عدلي كان صبياً شديد المرح والصخب أما دُوسه فقد كانت فتاة صغيرة مبكرة النضج.

ليس معروفاً مقدار الجهد الذي بذله أبي في دراسته في الجامعة، ولكن يبدو من ألبوم صوره في أكسفورد أنه كان يتمتع بوقته، فقد كان يحب ويقدّر الرياضة في كل أشكالها، وكان رامياً ماهراً وخيّالاً حاذقاً، وحيث إنه كان صغير البنية، فقد كان يمكن أن يكون مفيداً كموِّجه للدفة بالنسبة لرياضة سباق القوارب، وأخبرنا عن أول مرة تمت تجربته فيها كموجه للدفة حين انفعل بصورة شديدة عندما أصبح قاربه في المقدمة فصفق بيديه مشوحاً لدرجة أنه فقد السيطرة على الدفة، وبالطبع خسر السباق فألقاه زملاؤه عندئذ في النهر.

كانت أمي في ذلك الوقت مشغولة للغاية في السياسة، ومع أنها كان لديها مربية بريطانية لرعاية الأطفال، إلا أنها كانت تقتطع من وقتها لتشرف عليهم بنفسها. وفي ٢٢ مارس من عام ١٩٢١م وُلِدتُ أنا في عوامة (ذهبية) تسمى كوين Queen، وكانت أمي قد رأت في حلمها أنها ولدت طفلاً ذكراً وقف وطرح أرضا طفلاً أكبر منه، ولم تهتم أمي بذلك الحلم عندئذ، ولكن حين كنت في اليوم الأربعين من عمري وفي وقت ظهيرة اجازة المربية الاسبوعية حينما كانت امي تطعمني، سمعت هياجاً شديداً وصراخاً مصدره الطريق العام،فدخل الخدم العوامة وهم يصرخون حيث كانت مربية الاطفال قد ألبست الأولاد ليذهبوا الى نادي (الجزيرة) وحيث كانت السيارة تقف في الناحية الأخرى من الطريق، فتسابق عدلي مع جميل ليجلس بجوار السائق أولاً، فدهست عدلي سيارة كانت تقودها سيدة كانت تتعلم القيادة ومات في نفس اللحظة، ففسّرت أمي الحُلم بعد ذلك على أنه يعني انني قد اغتصبت مكان شقيقي الأكبر تماماً، كما اغتصب يعقوب مكان عيسو، وقد دمّرت هذه الحادثة أمي، وغيّرت مجرى حياة فهمي وحياتها بالكامل، ولم تستطع أن تحتمل العودة إلى أسيوط والحياة في بيت أبي.



الأمير فاروق وعلى يمينه اسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء وخلفه سعيد ذو الفقار باشا رئيس البلاط الملكي في سبتمبر ١٩٣٣



فهمي بك ويصا رئيس نادي الاتحاد يقدم لاعبي فريقي كرة القدم للأمير فاروق في سبتمبر ١٩٣٣



الملك فاروق يشاهد افتتاح الموسم الكروي لعام ١٩٣٦ بنادي الاتحاد بالاسكندرية
وعلى يمينه أحمد باشا حسنين (واقفاً) وعلى يساره فهمي بك ويصا (واقفاً) وفي أقصى اليمين الوزير
أمين باشا عثمان (جالساً) وعلى يسار الملك الوزير عبد الفتاح باشا الطويل (جالساً)



الملك فاروق يفتتح الموسم الكروي لعام ١٩٣٧، الملك فاروق يسلم الكأس للاعب
ويقف بعد الملك النبيل عباس حليم وبجوار اللاعب فهمى بك ويصا

استـــــاد الاسكندريـــــــة



تفتيش على استاد الاسكندرية المنشأ سنة ١٩٢٩
الأمير عمر طوسون باشا (المعروف بالملك الغير متوج للأسكندرية)
مع فهمي بك ويصا من مؤسسي استاد الاسكندرية

نادي إدوارد ويصا لكرة القدم - (نادي الصعيد)



فهمي بك ويصا في الوسط وعلى يمينه عزيز باشا أباظة مدير المديرية وعلى يساره الحكمدار ثم إدوارد ويصا رئيس النادي وعلى الطرف الأيسر جميل ويصا يشاهدون المباراة بين النادي المحلي ونادي الاتحاد السكندري



عزيز باشا مدير مديرية أسيوط يستقبل فهمي بك ويصا وعلى يساره السيدة استر ثم فهمي بك ويصا ثم الحكمدار وخلفه عدلي شاكر تادرس سكرتير فهمي بك البرلماني

زيارة فهمي بك لأسيوط



استقبال من أحد مستأجري العزب لفهمي بك (العبور بالمعدية)



الفلاحين يتبادلون التهاني والرقص

نرى في الوسط فهمي بك وعلى يمينه حكمدار أسيوطٍ وخلفه عدلي شاكر سكرتيره البرلماني وكابتن ستانلي كيزر المتزوج حديثاً من ابنته دوسه

كانت أمي دائما تحب التاريخ المصري القديم، وحين كانت صغيرة كانت معتادة أن تكتب قصائد ومقالات تحت اسم "ايزيس ابنة النيل" وحين تزوجت أمرت أن تُدهن صالة المدخل بالمناظر المصرية القديمة، وحينئذ آمنت أن هذه الرسومات كانت نذير شؤم فتركت كل شئ كما كان، ولم تأخذ شيئاً من هذا المنزل، وكلما عادت إلى اسيوط في أجازة أو في عمل كانت تعيش مع أمها بلسم، ولم تقض ليلة واحدة ثانية في بيت أبي ونقلت الأسرة مقر اقامتها عندئذ إلى الاسكندرية فذهب أبي وأمي واشتريا فداناً من الارض على تل، وهو واحد من أعلى المواقع في الاسكندرية خلف كازينو سان استيفانو وشيدا البيت الذي عشنا فيه كلنا والذي عاصر أحداثاً كثيرة، وحيث تستطيع الحوائط والحجرات أن تحكي أسراراً عديدة. فيما مضى وقبل أن يتم بناء منازل مُرتفعة في الاسكندرية كان المرء يستطيع أن يرى أضواء الميناء من على بُعد ثمانية كيلومترات من النوافذ، وفي ذلك الوقت لم يكن كورنيش البحر قد تم بناؤه بعد، وكان على المرء أن ينزل خطوات قليلة من الطريق الذي يمر أمام بابنا الأمامي ليصل إلى الشاطئ، وماتت أمي في فراشها في ٢٨ أغسطس ١٩٩٠م في ذلك المنزل الذي أشرفت هي وأبي على بنائه.

في عام ١٩٢٣م كان المجلس التنفيذي للوفد يختار المرشحين الذين سوف يمثلونه في كل الدوائر الانتخابية في مصر لانتخابات مجلس الشيوخ، فطلبت أمي من سعد زغلول أن يقترح اسم شقيقها لويس فانوس كمرشح لمجلس الشيوخ عن أي دائرة من دوائر أسيوط، ومع أن سعداً كان قد قدم هذا الأمر الى اللجنة التنفيذية ثلاث مرات، إلا أن اللجنة المحلية التي في أسيوط رفضته قائلة إنها لا تستطيع أن تتعاون مع لويس لأنه كان متغطرساً للغاية فكتب سكرتير المجلس التنفيذي للوفد خطاباً إلى أمي معبراً عن مدى أسفهم وأسف سعد لعدم تمكنهم من تحقيق الخدمة الوحيدة التي طلبتها منهم (انظر خطاب اللجنة في الملحق).

فاز الوفد بالانتخابات، وحين أُعلِنَت ترشيحات الحكومة، تم ترشيح والدي كعضو مجلس شيوخ عن دائرة اللبان في الاسكندرية، واحتفظ بمقعده إلى وفاته في عام ١٩٥٢م، لقد أصبح عضو مجلس شيوخ بالتعيين في أول برلمان في ١٩٢٤م، إلا أنه احتفظ بمقعده بالانتخاب طوال الثماني والعشرين عاماً التالية، مع أنه قد واجه خصوماً ذوي نفوذ كبير في بعض الأحيان. وتشمل منطقة اللبان في الاسكندرية الميناء والجمرك وبعض الأحياء الشعبية المزدحمة بالسكان، وفي هذه المنطقة اكتشف والدي نادي كرة قدم صغير فحوّله إلى أكثر أندية كرة القدم شعبية في الاسكندرية وهو "نادي الإتحاد" فأشترى الأرض واستطاع أن يحسّن مستواها على مر السنوات، وكان هو أول رئيس لنادي الاتحاد وظل كذلك إلى وقت وفاته في عام ١٩٥٢م،

واستطاع أن يُقنع القصر بأن يقبل أن يُصبح نادي الاتحاد تحت رعاية ولي العهد أمير الصعيد، ومن ثم فقد اعتاد أن يأتي الأمير فاروق في كل عام إلى النادي ليفتتح الموسم الكروي، وحين أصبح ملكاً كان لا يزال مهتماً بالنادي، وإذا لم يستطع أن يحضر شخصياً كان يُرسل نائباً عنه ليحضر الافتتاح السنوي.

كان يوجد ثلاثة أندية كرة قدم مصرية رئيسية في الاسكندرية في ذلك الوقت وهي نادي الاتحاد الذي كان يرأسه أبي ونادي الأوليمبي الذي كان رئيسه حسين صبري باشا شقيق الملكة نازلي ومحافظ الاسكندرية، ونادي الترام الرياضي الذي كان يرأسه حسين بك سعيد، وهو رئيس مجلس ادارة سكة حديد الرمل الكهربائية، وقد كانت لكرة القدم في مصر نشاطاً للهواة فقط، وكان لاعبو الكرة يتعاقدون لمدة موسمين، وكانت كل الأندية تتنافس على أفضل اللاعبين وقت التوقيع، وكان أفضل حافز للاعبين هو تعيينهم في وظيفة ما حيث لا يوجد لديهم ما يفعلونه سوى لعب الكرة، ومن ثم فقد كان من السهل على المحافظ أن يحتفظ بلاعبيه، وأن يغري غيرهم لأنه كان يستطيع دائماً أن يعرض عليهم وظيفة شرطي أو كاتب في المحافظة ونفس الشئ كان لمدير سكة حديد الرمل، لأنه كان لديه وفرة من الوظائف كمحصلي تذاكر في شركة الترام، لكن هذا الأمر كان صعباً على والدي حيث إنه كان لزاماً عليه أن يمر على مختلف مديري الشركات ويطلب منهم وظائف للاعبيه.

كانت جماهير الاسكندرية تحب نادي الاتحاد واعتبروه نادي الشعب، في حين أن النوادي الأخرى كانت تنتمي لجهات رسمية، وكان والدي يحاول أن يحتفظ بلاعبيه عند تجديد عقودهم بأن ينقلهم إلى مزرعته بأسيوط في الصيف، وهناك سيحصلون على قسط وافر من الطعام والراحة والاستجمام ويكونون ايضاً بعيدين عن تأثير أولئك الذين يحاولون أن يجتذبوهم، وكان يعيدهم بعد أن يوقعوا على عقد جديد للعب قبل أن يبدأ الموسم الكروي الجديد.

لقد كان مشاركاً في تبني بطولات وأوليمبياد السباحة في الاسكندرية، وفي الواقع كان حريصاً على كل الأنشطة التي لها علاقة بالرياضة، وكان أيضاً أحد مؤسسي ستاد الاسكندرية الرئيسي، وهناك عضو آخر من أعضاء الأسرة كان مهتما بكرة القدم هو ادوارد الابن الأكبر لجورج باشا ويصا، والذي أسس نادي يعرف بنادي الصعيد الذي كان نشيطاً حتى قيام الثورة، وكان أبي معتاداً على إرسال مدربين من نادي الاتحاد في الاسكندرية لتدريب لاعبي الكرة في أسيوط (انظر الصورة المأخوذة في عام ١٩٤٣م) حين أصبح والدي وزيراً في حكومة النحاس باشا، وأراد أهل اسيوط أن يتباهوا به، وقد كانت هذه المباراة بين لاعبي نادي الاتحاد ونادي أسيوط الذي أسسه ادوارد (انظر إلى الصورتين المأخوذتين في ذلك الوقت والتعليق الذي عليهما يشرح نفسه بنفسه) ونصل الآن إلى أحد الأحداث الهامة في نظري التي تعتمد على أساس السمع والدليل الاستنتاجي وقد أطلقت عليه اسم المهمة السرية.

في يوليو عام ١٩٣٥م قال لنا أبي أنه سيسافر مع حسين باشا صبري شقيق الملكة نازلي ومحافظ الاسكندرية وشخص ثالث في رحلة حج إلى القدس التي يعتبرها المسيحيون والمسلمون واليهود مكاناً مقدساً، ومع اننا كلنا كنا نعرف أن أبي يكره السفر، وهو لم يسافر ابداً عندما كانت أمي تذهب للخارج لحضور المؤتمرات النسائية وغيرها، الا أننا لم نفكر في أي شيء فيما يتعلق بهذه الرحلة في ذلك الوقت، فقضى عشرة أيام في فلسطين، وحين عاد حدثنا عن الوقت الرائع الذي قضاه هناك، وبعد وفاة أبي بسنوات سألني أخي جميل: "هل تتذكر تلك الرحلة التي أخبرنا أبي عنها أنه كان ذاهباً إلى القدس؟" فأجبته: " نعم، لقد كنت في الرابعة عشرة من عمري في ذلك الوقت" فقال: " حسناً إنه لم يذهب إلى القدس بل ذهب لمقابلة الخديوي عباس حلمي على الحدود بين تركيا وسوريا، وقد كان هذا وفقاً لرغبة الملك فؤاد التي أبداها حين كان مريضاً بالسرطان وأراد أن يتفق مع الخديوي السابق ألا يعارض ارتقاء الأمير فاروق للعرش قبل أن يبلغ سن الرشد، هذا في حالة موته وأنا لم أفكر في هذا الموضوع في ذلك الوقت، ولكني حين كنت أفحص مقتنيات والدي باحثاً عن معلومات لهذا الكتاب عثرت على جواز سفر قديم بين مقتنياته أُستخدم في رحلة واحدة فقط، وقد ضمنت هذا الكتاب صوراً لمختلف صفحات هذا الجواز بالتأشيرات والأختام، وهي تدل على أن الرحلة لم تكن بالتأكيد رحلة حج إلى القدس بل كانت شيئاً أكثر أهمية. وما يلي هو مجرد حدس ولكنه احتمال مبني على أساس من الواقع والدليل الاستنتاجي، أولا سأستشهد بكتاب يسمى " سلاطين في المجد " من تأليف فيليب مانسل، ففي صفحة ١٦٦ يعلن أن الملك فؤاد دعّم سيطرته على سلالته الحاكمة بما يلي:

" كان عباس حلمي– الخديوي عَبْر البحار – كان يسبب له مشكلة كبيرة تماماً كما كان "الملك عبر البحار" يشكل مشكلة في بريطانيا العظمى، وفي عام ١٩٢٤م وُصِفَ الخديوي بأنه "مصدر قلق للملك فؤاد يصل إلى درجة الهواجس" فلم يكن أي سياسي مصري يمكن ان يقابل عباس حلمي في أوروبا ويستطيع أن يتولى أي منصب تحت زعامة الملك فؤاد في القاهرة وكان هناك هتاف يردد في كل مكان يقول "الله حي عباس جي" ، ومع هذا فبعد أن تعرض لخسائر مالية في سنة ١٩٢٩ نتيجة للهبوط العالمي للاقتصاد وجد الخديوي السابق نفسه مُضطراً للتصالح فأعلن عن ولائه للملك فؤاد وتخلى عن كل مطالب له مقابل ٣٠ ألف جنيه سنويا في اتفاقية باللغة العربية والفرنسية وُقعت في عام ١٩٣١م ".[٨٦]

---

[٨٦] فيليب مانسل (اتفاقية ١٢ مايو ١٩٣١).

ولأن هذا كان يبدو أنه تسوية مؤقتة فقد أراد الملك فؤاد تسوية دائمة لهذه المسألة. سأعود الآن إلى القصة المبنية على أساس ما سمعت ودليل التأشيرات في جواز سفر أبي:

١- في ٢٧ يوليو ١٩٣٥م تقدّم أبي بطلب لاستخراج جواز سفر فصدر في نفس اليوم، في الاسكندرية تحت رقم ١٨٠٤٢، وقد كان صالحاً للسفر إلى كل من سوريا، فلسطين، انجلترا، فرنسا، ايطاليا، سويسرا والنمسا .. الخ.

٢- وفي نفس اليوم طلب وحصل على تأشيرة دخول إلى فلسطين وحصل عليها وأصدرها القنصل العام البريطاني في الاسكندرية لرحلة واحدة يوم، ٢٧ يوليو ١٩٣٥م.

٣- في ٢٩ يوليو حصل على تأشيرة لرحلة واحدة إلى سوريا ولبنان من القنصل العام الفرنسي في الاسكندرية.

٤- في ٣١ يوليو غادر الاسكندرية على متن باخرة إلى فلسطين.

٥- في أول أغسطس ١٩٣٥م وصل إلى حيفا.

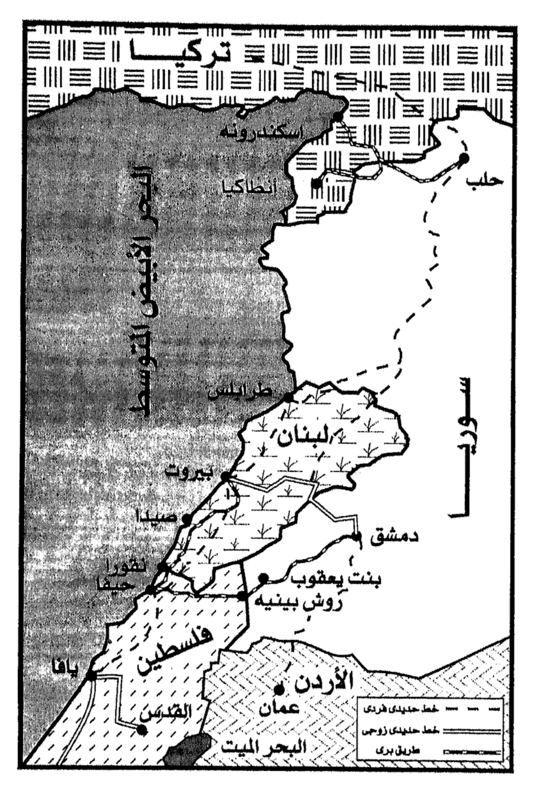
٦- العلامات التالية في جواز السفر في نقطة عبور شمالي بحيرة طبرية وتأشيرة خروج من فلسطين عند روش بينا وتأشيرة الدخول إلى سوريا بتاريخ ٤ اغسطس ١٩٣٥م عند بنت يعقوب وهو ممر جبلي بين فلسطين وسوريا والطريقة الوحيدة للوصول إلى هذه النقاط كانت بالسيارة على الطريق الوحيد إلى دمشق.

(الخريطة المنشورة توضّح الطرق وخطوط السكك الحديدية المتاحة في ذلك الوقت) ولمدة أربعة أيام لا توجد علامات على جواز السفر.

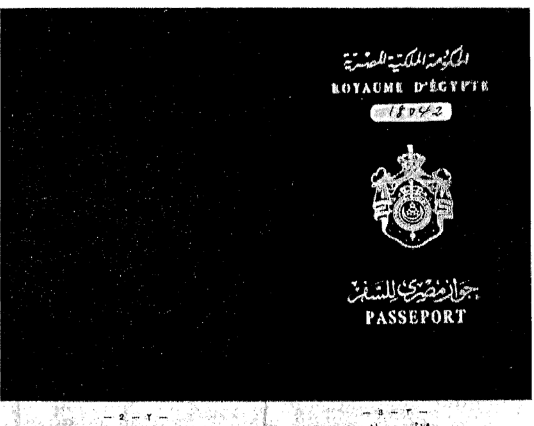
٧- العلامة التالية على الجواز كانت عند " الناقورة "، وهى نقطة الحدود الفرنسية بين لبنان وفلسطين وتستطيع أن تصل هناك فقط بالسيارة على الطريق الساحلى من بيروت.

٨- منحتة حكومة فلسطين تأشيرة دخول طوارىء لمرة واحدة إلى فلسطين مختومة في رأس الناقورة بتاريخ ٨ أغسطس ١٩٣٥.

٩- علامة أخرى نصت على " تأشيرة دخول تصدرها حكومة فلسطين في ترانزيت مباشر صالحة فقط حتى ١١ اغسطس ١٩٣٥م واصدرت بتاريخ ٨ أغسطس ١٩٣٥".



المهمة السرية



— 2 — ٢ —

SIGNALEMENT.

	ÉPOUSE.
Profession .... Propriétaire	....
Lieu et date de naissance Assiout 1884	....
Domicile .... Alexandrie	....
Taille: Moyenne mètre .... centimètres	.... m. .... cms.
Yeux .... Noirs	....
Cheveux .... Noirs	....
Signes particuliers	....

ENFANTS:

Nom .... sexe .... âge ....

" .... " .... " ....

" .... " .... " ....

" .... " .... " ....

" .... " .... " ....

— 3 — ٣ —

الأوصاف

	الزوجة
الصناعة .... صاحب أملاك	....
محل الميلاد وتاريخه أسيوط ١٨٨٤	....
محل الاقامة .... اسكندرية	....
الطول .... متر .... سنتي متوسط	.... متر .... سنتي
العيون .... أسود	....
الشعر .... أسود	....
المميزات الخاصة .... /	....

الأطفال

الاسم .... ذكر او أنثى .... السن ....

" .... " .... " ....

" .... " .... " ....

" .... " .... " ....

" .... " .... " ....

(Modèle No. 117). (استمارة رقم ١١٧)

الحكومة الملكية المصرية

ROYAUME D'ÉGYPTE

MINISTÈRE DE L'INTÉRIEUR. وزارة الداخلية

Direction Générale de la Securite Publique. ادارة عموم الأمن العام

PASSEPORT. جواز سفر

Ville d' Alexandrie المدينة

Les fonctionnaires du Royaume d'Égypte, les Consuls d'Égypte à l'étranger et toute autre autorité agissant pour le Royaume d'Égypte sont requis et priés de permettre au porteur de passer en toute liberte et sans entraves et de lui prêter l'aide et la protection dont il pourra avoir besoin.

Fait à Alexandrie

le 27 jour

du mois de juillet 1935.

Signature du Gouverneur.

Governor of Alexandria.

توقيع المحافظ

8.8.35

No. du PASSEPORT 18742

Ce passeport renferme 32 pages.

الحكومة الملكية المصرية

ROYAUME D'ÉGYPTE.

جواز سفر

PASSEPORT.

NOM DU TITULAIRE اسم صاحب الجواز

Fahmi Wissa Bey

ACCOMPAGNÉ DE SA FEMME (Nom de demoiselle)

et de ... enfants

NATIONALITÉ Egyptian الجنسية

— 5 —

الممالك التي يعمل فيها الجواز

PAYS POUR LESQUELS CE PASSEPORT EST VALABLE:

Syrie - Palestine - Angleterre

France - Italie - Suisse

Tchecoslovaquie - Autriche -

Allemagne - Yougoslavie -

Belgique

ينتهي العمل بهذا الجواز

LA VALIDITÉ DE CE PASSEPORT EXPIRE:

le 26/7/1936

sauf renouvellement. الا إذا جدد

PHOTOGRAPHIE DU TITULAIRE الصورة الشمسية لصاحب الجواز

Signature du titulaire

PHOTOGRAPHIE DE L'ÉPOUSE. الصورة الشمسية للزوجة

محل لصق الصورة الشمسية

(Photographie)

Signature de l'épouse

AUTORISATION* الترخيص

(1) Date 27/7/35 No.

(2) Bureau ayant délivré le passeport Alexandrie

* Détails de l'ancien passeport. * بيانات مأخوذة من الجواز السابق

— 6 — ٦ —

دفتر التسجيل

يخصص في كل قنصلية سجل لقيد أسماء المصريين المقيمين في دائرة اختصاصها ويكون القيد فيه بناء على ما يقدم من المستندات التي تثبت جنسيتهم المصرية

القيد مفروض على كل مصري مقيم منذ ستة شهور أو أكثر في دائرة القنصلية

يكون القيد مجانا إذا طلب في بحر ستة شهور من تاريخ حضور الطالب لدائرة القنصلية أما إذا طلب بعد هذا الميعاد فيحصل عنه الرسوم المقررة في التعريفة القنصلية

(المادة ١٥ من المرسوم بقانون الصادر في ١٩٢٥/٨/٥ الخاص بالنظام القنصلي)

REGISTRE D'INSCRIPTION.

Les consuls tiennent un registre dans lequel sont inscrits les noms des Égyptiens résidant dans leur circonscription. L'enregistrement est fait sur la production de documents prouvant la nationalité égyptienne.

L'enregistrement est obligatoire pour les Égyptiens résidant depuis six mois ou plus dans la circonscription consulaire. Il est effectué gratuitement s'il est demandé dans les six mois à compter du jour de l'arrivée dans la circonscription consulaire.

Passé ce délai, les droits prévus par les règlements consulaires seront exigés.

(Article 15 du Décret-loi du 5/8/1925 relatif à l'Organisation Consulaire).

— 7 — ٧ —

ENREGISTREMENT. — القيد

— 10 — ١٠ —

VISAS — إشارات الاعتماد

TRAVELLER

No. 1792/35

Seen good for PALESTINE

visa valid for one single journey only.

British Consulate General,

Alexandria, 27 JUL 1935

CONSULATE-GENERAL ALEXANDRIA

J. M. Walsh

H. M. VICE CONSUL.



— 11 — ١١ —

VISAS — إشارات الاعتماد

Le titulaire a déclaré ne pas se rendre en Syrie pour y occuper un emploi salarié.

Visa valable jusqu'au 1-11-35 pour un seul voyage en Syrie et au Liban

Alexandrie, le 27 JUIL 1935

Pour LE CONSUL GÉNÉRAL DE FRANCE

LE VICE CONSUL

chargé de la chancellerie.

ALEXANDRIE

No 498

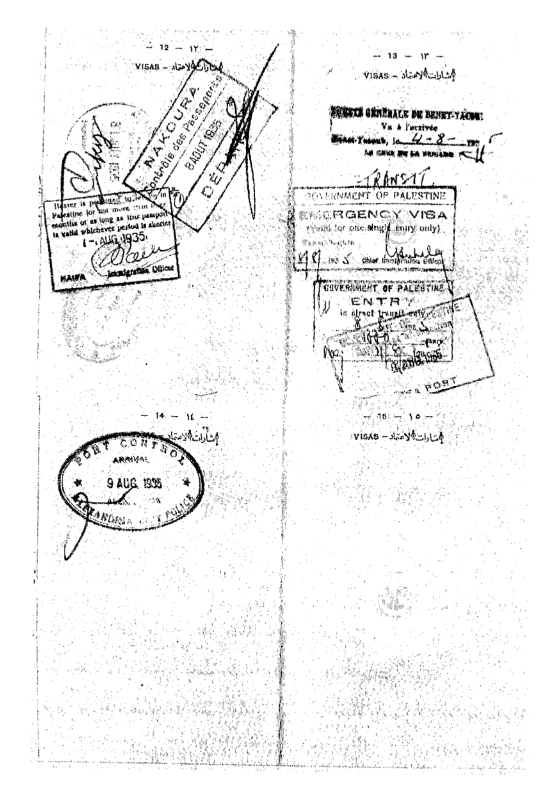
Date 29-7-35

ART. 944

OBS. [illegible]

PERÇU [illegible]

[illegible signature]


— 12 — ١٢ —
VISAS – إشارات الاعتماد
NAKOURA
Contrôle des Passeports
8 AOUT 1935
DÉPART
Palestine for not more than
months or as long as this passport
is valid whichever period is shorter
1 AUG 1935
HAIFA
Immigration Officer
— 13 — ١٣ —
VISAS – إشارات الاعتماد
Vu à l'arrivée
TRANSIT
GOVERNMENT OF PALESTINE
EMERGENCY VISA
(valid for one single entry only)
Chief Immigration Officer
GOVERNMENT OF PALESTINE
ENTRY
in direct transit only
PORT
— 14 — ١٤ —
إشارات الاعتماد
PORT CONTROL
ARRIVAL
9 AUG 1935
ALEXANDRIA CITY POLICE
— 15 — ١٥ —
VISAS – إشارات الاعتماد

١٠- ختم آخر بتاريخ ٨ أغسطس ١٩٣٥م كان عبارة عن صعود سفينة من ميناء حيفا.

١١- الختم التالى كان عبارة عن الوصول إلى الاسكندرية في ٩ أغسطس ١٩٣٥م.

يتضح مما سبق أن هذه الرحلة بدون شك، لم تكن رحلة عادية أو رحلة حج لأنهم لم يقربوا القدس، وفي الحقيقة سافروا في الاتجاه المضاد، وكانوا يخفون طرقهم طوال الرحلة مثل أى قصة بوليسية، فحيث إنهم عبروا سوريا عند منطقة بنت يعقوب، فمن ثم كان لابد أن تكون دمشق هى المحطة الأولى، واذا كانت تلك هى وجهتهم المعلنة، فكان من الأيسر والأهدأ بالنسبة لهم أن يبحروا إلى بيروت ويأخذوا القطار إلى دمشق، واذا كان قد عُقد اجتماع، كما سمعت في مكان ما في شمال سوريا أو قرب الحدود التركية، كان لابد أن يكون حول "حلب" وهى كانت رحلة سريعة بالقطار من دمشق، وربما قد عادوا من حلب إلى بيروت بالقطار، ثم بعد ذلك من بيروت إلى حيفا على الطريق الساحلى بالسيارة، ودخلوا فلسطين عند مركز الحدود في الناقورة، كما يتضح من جواز السفر، أما أمام كل الناس فقد غادروا إلى حيفا وذهبوا إلى القدس، وعادوا إلى مصر من حيفا، ولايستطيع أحد أن يعرف أي شيء عن مُهمتهم السرية ما لم تُفحص جوازات سفرهم.

مات الملك فؤاد في إبريل من عام ١٩٣٦م واعتلى الملك فاروق العرش بدون أية معارضة من الأمراء الملكيين.

تمت المهمة

سنوات بعد وفاة سعد زغلول وحتى قيام الثورة

فبعد موت سعد زغلول في عام ١٩٢٧م كان الصراع على السلطة في مصر ينحصر بين القوى الثلاث الرئيسية:

١- **القصر** تسانده أحزاب الأقلية التي ضمت كل الساسة والمُفكرين الذين انشقوا عن سعد والوفد.

٢- **الوفد** يتزعمه النحاس ويضُم الطلبة في المدارس والجامعة وجماهير المدينة والفلاحين في الريف وأغلبية ملاّك الأرض المصريين، وباختصار القطاع العريض الرئيسي في البلاد.

٣- **البريطانيون** مع مسئولي الحكومة الكبار الرسميين وجيش الاحتلال.

ومع مجئ عام ١٩٣٤م كانت البلاد في حالة قلق شديد لأن الجامعة والشعب كانوا يطالبون بالعودة إلى حكم البرلمان بموجب دستور ١٩٢٣م الذى ألغاه الملك فؤاد، وفي نفس الوقت كانوا يطالبون بايجاد حل للمشكلة الإنجليزية المصرية، وكانت بقية العالم في حالة اضطراب لأن قيام الديكتاتوريات في المانيا وايطاليا قد سبب قلقاً بالاضافة إلى أزمة الحبشة وضعف عُصبة الأمم، فأثارت كل هذه الأحداث شبح الحرب.

حفل استقبال مقدم من السيد ريد مدير كلية فيكتوريا وهو الوسيط بين بريطانيا والمصريين حيث نتج عن هذه الوساطة معاهدة الصداقة البريطانية المصرية ١٩٣٦.



ونرى السيد ريد بين السيد أمين عثمان وقرينته (وفيما بعد السير أمين والليدي عثمان باشا) والسيدة استر فهمي ويصا تجلس على يسارها ومحمد فرغلي باشا في الطرف الأيسر للصورة

أما في مصر فإن الملك المريض الذى كان يتمنى أن يرى انتقالاً سلمياً للعرش لابنه ولي العهد، فقد حال دون استخدام الطرق القمعية ضد الوفد، وفي ظل كل هذه الظروف مجتمعة، فقد كان لزاماً على بريطانيا أن تعيد تقييم الموقف، فتوصلت إلى قرار نهائى بضرورة صياغة اتفاقية مقبولة للطرفين مما نتج عنه أن عيّن الملك فؤاد رئيس وزراء جديداً وهو توفيق نسيم باشا الذى وعد باستعادة دستور ١٩٢٣م بعد انتخاب برلمان جديد، وفي نفس الوقت أقنع الملك فؤاد الساسة بتشكيل جبهه وطنية التي ضمت النحاس باشا وصدقى باشا ومحمد محمود باشا، وقد كانت الفكرة من ذلك هى التفاوض بشأن معاهدة صداقة مع بريطانيا على غِرار مُسودة المعاهدة المرفوضة في ١٩٣٠م وتكون مقبولة للجميع.

أجريت الانتخابات في عام ١٩٣٦م، وكما هو متوقع فاز بها الوفد فأصبح النحاس باشا رئيساً للوزراء، وترأس وفداً يضُم سبعة وفديين وستة من الساسة من الأحزاب المختلفة، واستطاع أن يتفاوض بنجاح بشأن معاهدة صداقة تُعرف بالمعاهدة الإنجليزية – المصرية في عام ١٩٣٦م، لأن البريطانيين قد أدركوا مدى عمق الشعور الوطني في البلاد، وبنفس الطريقة فقد روّض الوفد نفسه على قبول فكرة تضميد الجراح القديمة، فلقد حان الوقت للتوصل إلى تفاهم حيث إن نذر الحرب كانت تلوح في الأفق وكان لابد من تحكيم العقل، لأن مصر كانت تحتاج مساعدة انجلترا مثلما كانت انجلترا تحتاج إلى مساعدتها، فقبل سير مايلز لامبسون السفير الجديد في مصر نصيحة بعض البريطانيين المخلصين مثل مستر ر.و.ج ريد R.W.G. Reed – وهو ناظر كلية فيكتوريا – واتصل ببعض المصريين العمليين Pragmatic مثل أمين عثمان الذى أصبح فيما بعد سير أمين عثمان باشا ومحمد فرغلى باشا، وهو خبير مالى ومصدّر للقطن، وكلاهما كانا من خريجي كلية فيكتوريا، وكانا قادرين على الاتصال بالزعماء الوفديين لاقناعهم بأن بريطانيا كانت صادقة في رغبتها في التوصل إلى تسوية مثمرة وعادلة ولصالح الطرفين، ولا أعتقد أنه كان لأبى أو أمى ضلع في المفاوضات الفعلية أو التفاصيل وعلى أية حال تم إعداد حفلتين للعشاء في بيتنا في الاسكندرية، ودُعى فيهما كل من المصريين والبريطانيين.

ونورد فيما يلي بعض النقاط الهامة في المعاهدة المصرية البريطانية ١٩٣٦ :

١– تعهد بريطانيا ان تعضد عضوية مصر لعصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة، وبالفعل تم انتخاب مصر لعصبة الامم في ٢٨ مايو ١٩٣٧.

٢– المساعدة في الغاء الامتيازات الاجنبية الباقية، التي مُنحت للاجانب باتفاقيات ثنائية بين كل دولة والدولة العثمانية، فمصر كانت الدولة الوحيدة في العالم التي كان لا يزال يتمتع الاجانب ببعض

الامتيازات فيها وتم الاتفاق في مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٧ بأن تُلغى المحاكم القنصلية، وتسلم المحاكم المختلطة أعمالها للمحاكم الوطنية حتى ١٩٤٩.

٣- مع ان معاهدة ١٩٣٦ اعلنت ان الاحتلال البريطاني قد انتهى الا ان بريطانيا مُنحت حق الاحتفاظ بجنودها في منطقة القنال، والسماح للطيران البريطاني بالتحليق في الاجواء المصرية كتدريب.

٤- تم إتفاق على ارجاء موضوع الحكم الثنائي للسودان، وان تظل السودان كما كانت قبل قتل السير لي ستاك على أنه يجب عدم التحيز ضد المصريين في موضوع الري وان للمصري الحق في الاقامة، والمتاجرة، وامتلاك العقارات والاراضي، والتوظف في حكومة السودان مثل الانجليز في وظائف لم يوجد سوداني يشغلها.

أما مصر فكان عليها بعض الإلتزامات تحت بنود المعاهدة مثل انشاء بعض الطرق تُعرف بطرق المعاهدة، وبناء ثكنات في منطقة السويس، وتسهيلات في البلاد في حالة الحرب .. الخ.

تظل المعاهدة سارية لعشرين عاماً، ويمكن اعادة النظر في بنودها بعد عشر سنوات من التوقيع عليها، كما يمكن الطلب بجلاء الجنود بعد عشرين عاماً، واذا رفضت انجلترا يمكن ان يُحكّم طرف ثالث للنظر اذا كان من الضروري ان يُحتفَظ بجنود اجنبية في بلد ذي سيادة.

مع أن أبى كان في ذلك الوقت عضوا في حزب الوفد وعضواً في مجلس الشيوخ، إلا أنه لم يكن عضوا في اللجنة التنفيذية للوفد، ولم يتم إنتخابه في اللجنه التنفيذية للحزب إلا في سبتمبر ١٩٣٧ بعد أن انشق نجيب اسكندر واحمد ماهر باشا، والنقراشى باشا عن الوفد وأسسا الحزب السعدي، ولقد كان أبى مشغولاً بالرياضه ودائرته الانتخابية في حي اللبّان في السنوات القليلة التالية، ولكنه في عام ١٩٤٣م بعدما انشق مكرم عبيد عن النحاس وترك الوفد عُيِّن وزيراً للوقاية (الدفاع المدني) ثم بعد ذلك نشر مكرم ما يُسمى "بالكتاب الأسود"، وعدّد الأعمال التي رآها مُشينة لحزب الوفد والتي نشأت أساساً بسبب الخدمات التي مُنحت لأصدقاء وأقارب زوجة النحاس الصغيرة في السن، وأكثرهذه الأعمال إدانة أن السيدة حرم النحاس أحضرت جاكت من الفرو إلى البلاد دون أن تدفع الرسوم الجمركية، وهى أعمال تافهة مقارنة بما يحدث في العالم اليوم. لقد كانت سياسة الوفد دائما هى ترقية من يساندونهم من موظفي الحكومة ترقيات استثنائية حين يتولون السلطة تعويضاً عن السنوات التي كان يتم فيها تجاهلهم ولم يحصلوا على أي ترقية حينما يكون الحزب في المعارضة، وفي الواقع فإن أولئك الموظفين المدنيين الذين كان يتم تجاهلهم كانوا يسمون بالمنسيين.

الأمير ولي عهد أثيوبيا "أصفا واسن" في زيارة رسمية لمصر



فهمي بك ويصا مبعوث الملك الرسمي يرافق الأمير خلال فترة إقامته وأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي خلف الأمير، والسيد لويس فانوس عضو مجلس الشيوخ



البعثة وهي ترافق الأمير ولي عهد أثيوبيا "أصفا واسن"



الصورة من اليمين : الأمير عرم طوسون، مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء، فهمي بك ويصا وزير الوقاية (الدفاع المدني) وخلفه عدلي شاكر تادرس سكرتيره البرلماني في سنة ١٩٤٣



حفل استقبال من مصطفى النحاس باشا وبجانبه فهمي بك ويصا وخلفه فؤاد سراج الدين باشا يرتدي زي أبيض ويقف بجانبه أمين باشا عثمان



نجيب باشا الهلالي حيث كان رئيساً للوزراء عدة مرات وآخر رئيس للوزراء قبل ثورة ١٩٥٢
يتحدث مع فهمي بك ويصا ويظهر خلف فهمي بك أمين باشا عثمان خريج كلية فيكتوريا وحلقة الاتصال
بين بريطانيا والوفد أثناء المعاهدة البريطانية المصرية ١٩٣٦
وقد أغتيل أمين عثمان باشا عام ١٩٤٦ وأتهم الرئيس الراحل أنور السادات ولكن تم تبرئته



فهمي بك ويصا يتوسط نجيب باشا الهلالي على يمين الصورة وفي أقصى اليسار الاستاذ حسن سرور
المحامي الوفدي

حفل إفطار لضباط معركـــــة الفالوجـــا





فهمي بك ويصا وبعض ضباط معركة الفالوجا أثناء حفل الإفطار بمنزله بالأسكندرية

حين عُيّن والدي وزيراً صرّح للصحافة قائلا: " إنني امتلك كذا فدان، وأنا أخبركم بهذا لأنى لا أريد أن يقول أحد إنني قد أصبحت ثرياً أثناء توليتي الوزارة "، حاول والدي الذى كان صديقا لمكرم والنحاس أن يجعل الصديقين القدامى والرفيقين يسويان خلافاتهما إلاّ أن مكرماً كان عنيداً وترك الوفد، وأسّس فيما بعد حزبا خاصا به وهو "الكتلة".

كانت الألقاب في مصر يمنحها الملك بناء على نصيحة الحكومة التي في السلطة أو عن الخدمات التي تقدّم للقصر، وقد كانت مثل هذه الألقاب تُمنح بشكل آلي بالفعل حين يبلغ الموظف المدني أو عضو في القوات المسلحة درجة أو رتبة مُعينة، وهكذا فان لقب باشا كان يُمنح للواء أو لوزير في مجلس الوزراء، وهذه الألقاب كانت تُمنح كذلك للمدنيين في القطاع الخاص الذين ساهموا بصورة كبيرة في الأعمال العامة مثل بناء مستشفي أو إمداد المياه النظيفة لقرية، وهى في كل الحالات كانت امتيازا مقصوراً على الملك، ومع هذا فإن الملك في الدستور لا يستطيع أن يُنعم بلقب على عضو برلمان سواء كان نائبا أو عضو مجلس شيوخ، أثناء احتفاظه بمنصبه باستثناء في حالة اختياره وزيراً. كان والدي قد حصل على لقب بك من الخديوي عباس حلمى قبل أن يصبح عضوا في مجلس الشيوخ، ولأنه كان عضوا في مجلس الشيوخ من ١٩٢٤م إلى ١٩٥٢م، فلم يكن يستطيع أن يحصل على لقب باشا باستثناء الفتره التي أصبح فيها وزيرا عام ١٩٤٣م، لكن في ذلك الوقت لم يكن الملك في حالة نفسية تسمح له بأن يمنح أياً من الألقاب لأي وزير من وزراء النحاس، لأن حكومة الوفد بزعامة النحاس قد فرضها عليه السفير البريطانى بالإكراه.

في عام ١٩٤٥م كانت هناك انتخابات على مقعد أبي في مجلس الشيوخ، ومع أن الوفد قد قاطع الانتخابات خشية أن يتم تزويرها، إلا أن أبي رشّح نفسه لإعادة انتخابه وكان ينافسه في ذلك اثنان من ذوي النفوذ في مجتمع الاسكندرية، وفي ليلة الانتخاب كانت الحوائط مُغطاه بالملصقات التي عُلقت في منتصف الليل مُعلنه أن أبي قد سحب ترشيحه، لقد كان يوماً طويلاً وشاقاً، إلا أنه حين تم حساب الأصوات في الليل فاز أبي بأغلبيه واضحه في الاقتراع الأول وقد ارهقت حملة الانتخابات هذه صحته بصورة كبيرة، ومع أن كل الأسرة كانت تساعده، إلا أنه كان يذهب إلى التجمعات ويزور المنازل ويتجول في دائرته لمدة شهرين، مما أدى إلى إصابته بنوبة قلبية بعد أشهر قليلة من انتخابه فنصحه أخصائي القلب الاسترالي دكتور فيشر، الذي أتى إلى مصر إبان الحرب كطبيب في الجيش، والذي استمر لبعض الوقت بعدها كأستاذ في جامعة الاسكندرية، نصحه أن يلازم الفراش، وإلا فلن يعيش أكثر من ستة أشهر.

كان الفراش أحد مخاوف أبي المرضية، لقد كانت لديه ثلاث غرف نوم في المنزل، فكان معتاداً أن يتنقل من احدى الغرف إلى الأخرى أو يتجول حول المنزل فهو يستطيع أن يغفو بعمق في كرسي أو في السيارة مع طنين

الراديو أو حديث الناس من حوله، إلا أنه في اللحظة التي يـأوى الجميع فيهـا إلى الفراش ويُخيم السكون على المنزل يكون متيقظاً تماماً، ولقد كانت هذه عادته طوال السنوات التي عرفته فيها، وانـا لم استطع أن أفهـم كيف يتمكن أي شخص من النوم على كرسي حيث إني كنت أحب فراشي وأنام بمجرد أن أضع رأسي على الوسادة.

وتوجد حكاية طريفة حدثت لأبي عندما كان في احدى زياراته للقاهرة لحضور جلسـة في مجلس الشيوخ. فقد كان معتاداً ان يقيم في فندق كونتنينتال، وعندما يأتي المساء وتهدأ الحركة في الفندق كان يـنزل من حجـرة نومه ليجلس في بهو الفندق، وفي الصباح الباكر يرجع عائداً الى حجرته. وفي يوم من الايام غلبه النعاس في البهو واستيقظ على صوت السفرجية من حوله فقال لأحدهم ان السرير به براغيث ولذلك لم استطع النوم عليـه، فـرد عليه السفرجي – حيث انهم كانوا يعلمون بأنه لا ينام في حجرته مطلقاً – قائلاً: "لا يا سأدت الباشـا إهنـا مـا أندناش براجيت بس باين ان سيادتك أندك أداوة مأ السرير *".

تلقى أبي صدمة شديدة حين سمع أن عليه أن يلازم الفراش فكان يفضل الموت على ذلك فكان رد فعله أنه لن يأوى إلى الفراش على الإطلاق، وما يلي هو نظام حياته لمدة الخمس سنوات التالية:

عيَّن أبي سائقين جديدين واشترى لنفسه سيارة شيفروليه ستيشن، وتم اقناعه بأنـه سيتم تركيب مضجع فيها بدلا من الكراسي وأثناء النهار كان يأتي إلى البيت على الغذاء ويغفو لبرهة على الكرسي حتى الخامسة، ويقضي ساعتين في نادي كرة القدم أو في المقهى حيث كان يحجز له ولأصدقائه ركن خاص، ويدخن الشيشة، وعندئذ قد يذهب إلى نادي محمد علي أو النادي السوري ليتناول شراباً أو يتناول العشاء في مكـان مـا، وبعدئذ يعود إلى البيت ويرتدي الجلابية، ويدخل في السيارة الستيشن ويتنقل هنـا وهنـاك، وكـان قد اشترى شاليهاً خارج الاسكندرية في العجمي، فكان يذهب الى هناك مع أي شخص يريد أن يرافقه ويستمر في التجول بالسيارة حتى الساعات الأولى من الصباح وعندئذ يمر على أي فرد في الأسرة يحتاج توصيله، وفي النهاية يعود إلى المنزل في السادسة صباحاً فيأوى إلى الفراش ويستريح قليلاً ويأخذ الماساج وحماماً ويحلـق ذقنـه، ثـم يتنـاول إفطاره، ويأخذ السيارة ويذهب إلى مكتبه ويبقى هناك إلى وقت الغذاء.

ومع كونه مسيحياً الا أنه كان يُحب الاستماع إلى القـرآن اذا تـلاه قـارئ مُجـوِّد، والآن أصبح لدينـا عضـو جديد في طاقم موظفينا الضخم لأنه عيّن قارئاً يُسمى الشيخ مدين الذي كان يعيش في الدور الأرضـي في بيتنـا إلى وقت وفاته منذ سنوات قليلة مضت وكان قد بدأ تلاوة القرآن لأبي في رحلاته الليلية الطويلة، وحين يغفـو أبـي

---

* قول السفرجي هو "لا يا سعادة الباشا احنا ما عندناش براغيث بس باين ان سعادتك عندك عداوة مع السرير".

كان السائق يركن السيارة في الشارع ويتوقف الشيخ مدين عن التلاوة، وبمجرد أن يصحو كانت السيارة تتحـرك ثانية وتُستأنف التلاوة إن طلب، ظل الشيخ مدين كحارس يشرف على البيت بعد موت أبي وتزوج من الغسّالة المقيمة وكان يتلو القرآن في حفلات الزفاف وفي الجنائز ليحصل على بعض المال الاضافي.

في عام ١٩٤٧ م ذهبت إلى أبي وقلت له إني أريد أن اتزوج فايلي ويصا ابنة خال أمي، وأردت منه أن يذهـب ويطلب يدها من أبيها زكي بك ويصا ابن عمه المباشر، فرفض أبي الذهاب وقال لي: " لا أريد أن أرفض فهـي لـن تتزوجك أبداً وأبوها لن يقبل البتة " ومع هذا ذهبت وقابلت عمي زكي بنفسي وأجابني قائلاً: " بالتأكيد يـا بـني اذا وافقت فايلي تعال وتناول شراباً " كنت انا وفايلي أصدقاء مقربين منذ الطفولة، وكنا نأتمن بعضنا البعـض علـى وخزات قلبينا على مر السنين، فطلبت منها أن تتزوجني، لكنها لم تكن قررت تماماً لأنها لم تكن متأكدة من أنـي كنت أحبها فعلاً، وحين دخلت إلى الحجرة أثناء تنـاولي لشـرابي ابتسـم أبوهـا قـائلاً " حنـا يريـد أن يـتزوجك " فأجابت " لكني لم أقرر بعد " فقلت لها " بالطبع قررت " وعندئذ اتصلت بأبي وأمي، وأعلنت خطبتنا فأتيا سوياً لتهنئتنا وليطلبا يدها رسمياً وسأتحدث فيما بعد عن زواجنا الذي كان حدثاً عظيماً، والـذي حضـر كـل مـن مكـرم عبيد والنحاس باشا حفل استقباله. كما يتضح من الصور وحضره أيضاً ساسة من الأحزاب المختلفة.

في عام ١٩٤٨م استضاف أبي بعض الضباط الذين اشتركوا في معركة الفالوجا على مأدبة إفطار (انظـر الصـور)؛ وفي نفس السنة طلق الملك فاروق الملكة فريدة التي كان لها شعبية كبيرة في البلاد وبعد كارثـة فلسـطين والاشـاعات حول الأسلحة الفاسدة، شعر الملك بأنه يجب عليه أن يوطد شعبيته، فأشار عليه مستشاروه بان يجري انتخابـات جديدة في البلاد حتى ولو فاز بها الوفد. فعيّن الملك حكومة انتقالية برئاسة حسين سري باشا للإعداد للانتخابـات الجديدة ١٩٤٩، فنجح الوفد في الانتخابات وكان قد رشح أخي جميـل نفسـه نائبـاً في مجلـس النـواب عـن حـي اللبان يُدعمه الوفد وفاز جميل بالمقعد في البرلمان على الرغم من أن منافسه كان ذا نفوذ قوي، واحتفظ أخي بمقعـده البرلماني إلى ان ألغت ثورة ١٩٥٢م النظام البرلماني ومن ثم فإن مقعدي منطقة اللبان كان يشغلهما الأب والابن كعضو مجلس شيوخ وكنائب وذلك لمدة عامين.

في يوليو ١٩٥٢م قامت الثورة وفي غضون ثلاثة أيام غادر الملك فـاروق وأُخـبرت الأحـزاب أنـه يجـب عليها أن تُطّهر نفسها، وكان الحديث عن تحديد الملكية للأراضي في كل مكان، وهكذا فقد كان عالم أبي بأسره يتداعى من حوله وبعد أسبوع من إعلان قانون الإصلاح الزراعي في ١٩٥٢م، وفي ٥ أكتوبر من نفس العام وأثناء تناوله الغذاء مع أسرته وبعض من أصدقائه في شاليه العجمي سقطت رأسه على كتفه ومـات، لقد عاش عيشة العظماء ومات وهو لا يزال في مجده.

الكتاب الثالث – البيت فوق التل

الاسكندرية والبيت فوق التل

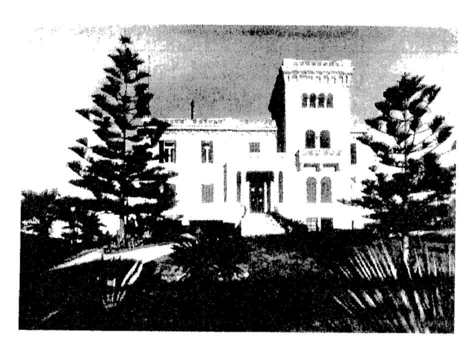
البيت فوق التل هو بيتنا، وهو يذكر المرء بالإسكندرية في أيام مجدها بنسيم بحرها، وبطقسها الرطب في يوليو وأغسطس، وبجوها الساكن الهادئ في أكتوبر ونوفمبر وبنواتها المتوقعة التي تأتي عاماً بعد عام في نفس الوقت تقريباً.

بُني منزلنا ما بين عامي ١٩٢٢ و١٩٢٤م حين قرر والدايّ العيش في الاسكندرية وشيداه على تل يُعد من أكثر المواقع ارتفاعاً في الاسكندرية لدرجة أنه في الليل وحتى ثلاثين عاماً مضت كان المرء يستطيع أن يرى وميض منارة الاسكندرية كل ثانيتين من الميناء التي تبعد عشرة كيلو مترات، لقد كان بيت الأحلام بالنسبة لأمي، وجزء منه كان يبدو من الخارج على شكل قلعة لأنه كان به برج، ومع أن استر كانت واقعية جداً في أشياء كثيرة، إلا انها كانت رومانسية في أعماق روحها.

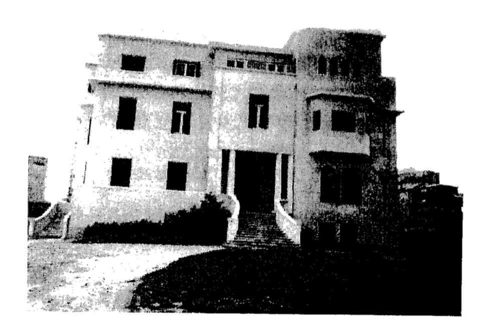
صمّم الرسومات ونفذها مهندسون معماريون ايطاليون مستخدمين عمالاً مصريين، وكانت أمي تشرف عليهم، واستخدمت أفضل المواد في تزيين الأسقف التي يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار ونصفاً، ولذلك فقد كان الجو في المنزل رطباً ومعتدلاً طوال العام تقريباً، ولكنه قد يكون شديد البرودة وملئ بالتيارات الهوائية لمدة شهرين في فصل الشتاء، وكنا نستدفئ بأكل الكستناء (أبو فروة) بوضعها في موقد المدفأة. وكان تصميم المباني والحديقة هو نتاج مجهودات أبي وأمي المشتركة، وثمرة حبهما، وكان منزلاً يتسع للجميع ومعداً لاستقبال أي زائر في كل الاوقات، وتم توسيعه مرات عديدة أثناء حياة أمي.التي اعتادت أن تحلم حلماً متكرراً بأنها تكتشف حجرات جديدة باستمرار.

دَفنت أمي في أساسات البيت صندوقاً حديدياً يحوي مزمور داود الثالث والعشرين، الذي بدايته "الرب راعي فلا يُعوزني شئ" بالاضافة إلى القليل من الجُنيهات الذهبية، وبعض حبات من القمح، وفي الواقع فقد كان بيتاً مباركاً صامداً أمام تقلبات الدهر، ولم تُغلق أبوابه قط، ولم يصرف أحد محتاجاً أثناء حياة استر، وعلى الرغم من أن الأبواب الأمامية والباب الخلفي كانت مفتوحة دائماً، إلا أننا لم نتعرض ابداً لحادث سرقة، فاذا اختفي أي شئ من البيت كان لابد أن يكون قد حدث من الداخل، وقد قال أبي ذات مرة: "حين بنيت هذا المنزل كان لكل غرفة مفتاحان، أما اليوم فإنك لا تستطيع أن تجد حتى مقابض الأبواب" والباب الأمامي كان يغلق في شهور الشتاء فقط ليصُد الرياح والأمطار.

البيـــــت فــوق التـــــل



في شبابــه



في شيخوختــــــه

لقد كان بيت الأسرة حيث نشأنا جميعاً، وحين كبرنا وكنا نقضي بعضاً من وقتنا بعيداً عن الاسكندرية، كانت غرفنا لا تستخدم للغير، حتى عودتنا اليها ثانية، إنه "معقل فهمي ويصا" الذي كان مقر إقامة أمي الرئيسي لمدة ثمانية وستين عاماً، والذي توفيت فيه عن عمر يناهز السادسة والتسعين في ٢٨ أغسطس ١٩٩٠م، فالمبنى الرئيسي كان في منتصف حديقة تبلغ مساحتها ثلاثة أرباع فدان على قمة تل ينحدر شرقاً وغرباً إلى الفيلات المجاورة بحدائقها، وكان حدّنا الشمالي يطل على البحر والجنوبي يطُل على خط ترام الرمل الكهربائي الذي يمر على بعد ٢٠ متراً تحت التل، وكنا قد بنينا سور حديقتنا على مسافة خمسة عشر مترا من حدودنا تاركين بذلك شريطاً من الأرض لنستخدمه كحديقة خارجية لمدة أربعين عاما، ونزرعه بالخضراوات وأشجار الفاكهة مثل الجوافة والقشطة، وفي عام ١٩٦٣ نزعت مرافق بلدية الاسكندرية هذا الشريط المزروع لإنشاء شارع موازٍ لترام الرمل عندما قررت ازدواج الشارع فتم بناء الطرق التي كان مُخططاً لها، مما أدى إلى إنشاء البلدية لسور مانع يغطي جانب التل كنوع من الحماية للطريق أسفله، وكنا نعرف في وقت شراء الأرض أننا سنفقد قطعة الأرض الإضافية مما دفعنا إلى بناء سور حديقتنا داخل حدودنا بدلا من بنائه على الحافة.

كان بيتنا جزءاً من ضاحية الرمل التي تعني الرمال لأنها كانت في معظمها تلالاً رملية وصخرية، وفي بعض المواقع كانت تلك التلال تنحدر بالتدريج تجاه الشاطئ، ولكنها في أماكن أخرى كانت تطل على البحر بانحدار عمودي يبلغ عشرة أو اثنى عشر متراً، وكانت المنطقة عبارة عن سلسلة من المرتفعات والمنخفضات، ولكنها تميل إلى الارتفاع التدريجي كلما تقدمنا نحو الشرق، والضاحية كانت تبدأ من خليج ستانلي وهو شاطئ مفضل للاستحمام على بعد عشر دقائق سيراً على الأقدام من محطة ترام بولكلي، وتمتد شرقاً بعد شاطئ جليمونوبولو (جليم) وهو شاطئ مفضل آخر إلى محطة ترام (السراية) المسماه على اسم "السراية الحزينة" التي كانت تشرف على الجزء الذي يطل على البحر، وهذه السراية* بناها الخديوي توفيق كمنتجع صيفي، ولكنه مات قبل أن يتمكن من الاقامة فيها، فاستخدمها الخديوي عباس حلمي الثاني قبل بداية العمل في قصر المنتزه، كذلك استخدمتها السلطانة ملك أرملة السلطان حسين فيما بعد حين أتت إلى الاسكندرية، وهي عبارة عن قصر بُني على أراضٍ شاسعة على صخور مُرتفعة تطل على البحر تحيط به أسوار عالية، مزودة بالمدافع.

---

* تم هدم هذه السراية وأزيلت المدافع وسويت الأرض وأقيمت منطقة سكنية ولوكاندة كبيرة تُسمى المحروسة على هذه المساحة التي تتبع القوات المسلحة.

نتيجة لطبوغرافية الاسكندرية اضطرت الشركة التي أصبحت فيما بعد شركة سكك حديد الرمل الكهربائية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لأن تحفر بين تلال صخرية ورملية كي تضع خطوطها على أرض مستوية، وكان الخط يمتد من محطة الرمل إلى نهايته في محطة فيكتوريا على بُعد ثمانية كيلو مترات إلى الشمال حيث أُسست كلية فيكتوريا في عام ١٩٠٩م، أما محطة الرمل فقد كانت قبالة الميناء الشرقية التي بناها البطالسة في عام ٢٠٠ قبل الميلاد.

وكان منزلنا يتوسط محطتي ترام ثروت ولوران اللذين يبعدان عن بعضهما حوالي أربعمائة وخمسين متراً، وحين اشترينا الأرض كانت المحطة تُسمى سان جورج، وتغيرت بعد ذلك إلى ثروت باشا على اسم رئيس الوزراء المصري في عام ١٩٢٧م، أما المحطة التالية تجاه الشرق فكانت تسمى على اسم مستر لورنس (لوران) وهو صاحب شركة سجائر وكان يعيش هناك.

سُميت سكك حديد الرمل الكهربائية بهذا الاسم، لأنها كانت سكة حديد لبعض الوقت قبل أن تُصبح خطوط ترام، وكان قد تم منح امتياز لشركة بريطانية لبناء سكة حديد من محطة الرمل الى ضاحية في الصحراء تُعرف بالرمل، وقد كانت محلاً مفضّلاً بالنسبة للبريطانيين وغيرهم من الأجانب، وقد كان قلب هذه الضاحية عند نقطة قرب خليج ستانلي سُميت بعد ذلك بمحطة بولكلي، * سجّل مستر رايت الوصف التالي لبولكلي في كتابه "انطباعات عن مصر في القرن العشرين" في صفحة ٤٣٠ "حيث يقطن أفراد الجالية البريطانية في فيلات جميلة وسط حدائق تطل على خليج ستانلي" أما ادوارد مورجان فورستر فيصفها كالتالي:-

> " نحن الآن في قلب الرمل تلك الضاحية الممتدة حيث يعيش البريطانيون وغيرهم من الأجانب ويوجد بها حدائق خاصة غاية في الجمال وهي أفضل ما في مصر، وإلى يسار المحطة يوجد خليج ستانلي، وهو عبارة عن منظر ساحلي جميل ومكان استحمام مفضل (ويوجد بها أيضا الكنيسة الانجليكانية لكل القديسين)"

كانت الشركة قد افتتحت في عام ١٨٦٣م حين بدأ أول قطار يجرّه الخيول في نقل الركاب من الاسكندرية إلى الرمل تماماً حيث تقع بولكلي الآن، وسرعان ما استبدلت الخيول بمحرك بخاري في أغسطس ١٨٦٣، وهو بدوره تنازل عن مكانه لخطوط الترام الكهربائية بعد أربعين عاماً، وعلى وجه التحديد في عام ١٩٠٤، والأسماء المُعطاة لمحطات السكة الحديد (محطات

---

* Mr. Robert Mabro the Director of Oxford Institute for Energy Studies.

الـترام فيمـا بعـد) المنتشرة علـى طـول الخـط أصبحـت أسمـاء أحيـاء الرمـل، وفي البدايـة كـان عددهـا قليـلاً، وإحـدى هـذه المحطـات كـانت علـى اسـم كـابتن بولكلـي، وهـو واحـد مـن أعضـاء شـركة السـكة الحديـد وحَكـى **مـابيل كيـلارد** قصـة شـيّقة عـن درامـا صغـيرة حدثـت بسـبب تسـمية هـذه المحطـة، ونتجـت عنهـا نهايـة صداقـة لكـل مـن كـابتن بولكلـي ومسـتر فلمنـج وهـو جـار وزميـل لـه في المجلـس، وكـان الأخـير مسـافراً في أجـازة، حـين قـررت الشـركة أن تسـمي المحطـات علـى أسمـاء الشـخصيات البـارزة (وكـانت تُفضـل اسـتعمال اسمـاء كبـار موظفيهـا) الذيـن كـانوا يعيشـون بالقرب منهـا.

وقد بدا أنه كان يتم التخطيط لنقطة اتصال جديدة حيث تتفرع الخطوط إلى اتجـاهين علـى أن يمـر الاتجاه من خلال سان استيفانو، وينتهي عند فيكتوريا بمحاذاة الساحل، أما الفرع الجديـد كـان ليخـدم جزءاً آخراً من الضاحية على شكل نصف دائرة، ويمر في منطقة مزدحمة بالسكان تسمى باكوس على اسم مستر باكوس الذي كان يملك مُعظم الأراضي في تلك المنطقة، وكان هذا الفـرع ينتهـي في سـان اسـتيفانو، وعُرف فيما بعد بخط باكوس.

ويقول مابرو؛ عند عودة مستر فلمنج من الأجازة اكتشف أن نقطة الاتصال الجديدة قـد سُميت علـى اسم الكابتن بولكلي، فغضب جدا لأنه كان يريد أن تسمى على اسمه، ولم يقبل التـبرير بـأن بيتـه كـان أبعد من بيت كابتن بولكلي، فتوصلت الشركة إلى حـل وسط بالطريقـة الإنجليزيـة الصحيحـة وانشأت محطة جديدة على بُعد ثلاثمائة متر وأسمتها فليمنج، على بعد خمسمائة متر تقريباً على الخط الفرعي في طريقه إلى باكوس، ومع هذا قيل لنا أن الصداقة بين فليمنج وبولكلي لم تعُـد ثانيـة، وقبـل هـذه المشـكلة كان الصديقان معتادين على السفر يوميا في مقصورة واحدة، ولكن بعد هذا الخلاف اعتاد كل منهما علـى السير من منزله في الإتجاه المضاد تجاه محطته ويذهبان إلى العمل ربما في نفس القطار (أو الترام)، ولكن في مقصورتين مختلفتين، ومازالت المحطتان تعرفان بنفس هذه الأسماء حتى يومنا هذا.

* * *

دعنا نعود إلى البيت الذي فوق التل، فقد كانت كل من البوابة الرئيسية وبوابـة الجـراج علـى شـارع ثروت باشا الذي يمر بحدنا الغربي بمواجهة البحر، وقد كان هذا طريقا مرصوفا وبه مصـابيح غـاز علـى طوله، وكان يضيئها رجل في كل ليلة يجري في الشارع حاملاً شعلة على عصا طويلة، ويقطع طرفي شارع

ثروت شارعين يصلان الى كل من محطة ثروت ومحطة لوران حيث توجد على جانبي الشارع ست فيلات بحدائقها الشاسعة في شارعنا ثلاث في كل جانب، أما باقي الشارع فقد كان أرضاً رملية خالية ويقطنها بعض أفراد من البدو الذين كانوا يرعون قطعان الماعز ويعيشون في خيام قبل أن تبنى أية منازل، ويكسبون رزقهم عن طريق حراسة الفيلات الجديدة والارض الباقية للمُلاّك الشرعيين من اللصوص، وقد كانوا جماعة من الأشخاص ذوي كبرياء واعتزاز بأنفسهم، ولا يسمحون لأي فرد بأن ينتهك حرمة ما اعتبروه تحت هيمنتهم، وقد كانت العائلات البدوية تعيش على طول الساحل، وعادة ما يُطلق عليهم اسم أول مَنْ أقام بتلك المناطق، لذا تجد أولاد الشيخ علي أو الشيخ يوسف أو الشيخ صالح، وكل أسرة كانت تعيش على قطعة أرض وتبدأ في رعي أغنامها، وتحرس ممتلكات من يشتري أرضاً في منطقتهم، وبالنسبة لهم فقد كانت مسألة شرف للقبيلة بحيث لا يجرؤ أحد على الاقتراب ممن يدافعون عنهم ما داموا تحت حمايتهم.

كان المرء يستطيع أن يسمعهم في سكون الليل حين كانوا يحتفلون بزفاف أو طهور أو غيره من مناسبات الإحتفالات وهم يغنون على ايقاعات طبولهم التي تتخللها طلقات بنادقهم، وبعد خيام البدو عند الطرف الشرقي من البيت يستطيع المرء أن يتجه الى الشاطئ برماله الذهبية المغسولة بأمواج البحر، وقبل أن نصل إلى سن دخول المدرسة كنا نذهب إلى الشاطئ مع مربياتنا في الصباح حيث كنا نحاول أن نصطاد صغار الجمبري (البرغوث) سواء بواسطة شباك صيد صغيرة أو بواسطة برطمان تغطيه قطعة قماش صغيرة بها فتحة لدخول الجمبري، وكنا نجتذب الجمبري بواسطة قطعة خبز صغيره في قاع البرطمان ونتدليّها في المياه الضحلة بين الصخور، ولقد كان يوجد عدد قليل جداً من الناس على الشاطيء في تلك الأيام وربما مربية أخرى فقط مع صغارها، فكانت المربيات تنهمكن في الثرثرة، وكنا نحن الأطفال نلعب سوياً على الصخور.

في الطرف الآخر من شارع ثروت الذي يؤدي إلى محطة ثروت، كان يوجد منزل الأميرة مهوش المعروف بمنزل الأميرة، وأتذكر أنه كان مبنى وردي اللون يتكون من طابقين وبه برج صغير على شكل بوق لونه رمادى كما لو كان مغطى بالرصاص، ويبدو كما لو كان بيتا من بيوت دنيا الخيال، حيث تظهر حورية في أي لحظة وكان قد تم بناؤه وسط حديقة شاسعة تؤدي إلى الشاطيء مباشرة، واذا أردنا أن نذهب إلى الشاطيء من هذا الجانب كان علينا أن نمر عبر أبواب الحديقة حيث كان يوجد كلبان ضخمان يشبهان الذئاب ينبحان باستمرار، وكانا مدربين ويُعتنى بهما على نحو جيد ويصحبهما سائسهما في جولاتهما اليومية، وكنت أخاف منهما جداً في كل مرة يعبران فيها أمام بوابتنا أو اذا مررت من أمام بوابة الأميرة فأخاف من نظراتهما.

تحت بيت الأميرة على البحر وليس بعيداً من الشاطىء المفتوح كان يوجد مُنحدر صخرى رملى أنشئ عليه مبنى خاص يسمى (حمام الستات). وهو جزء من مرافق فندق وكازينو سان استيفانو، وعلى بُعد مائتي متر من حمام الستات يوجد مبنى خشبي آخر يخرج من كازينو سان استيفانو مباشرة مقام على أعمدة في البحر، يُسمى (حمام الرجال)، وتعلمنا كيف نسبح بإلقائنا في البحر من الطرف العميق، وكان الغطاس يقفز خلفنا ويسبح تحت الماء فإذا ذعرنا أو خفنا كان يرفعنا عاليا، وكانت توجد أيضا الحبال التي تمتد من الطرف العميق إلى الضحل لنستطيع أن نتعلق بها إذا أردنا، وكان أبي يصطحبنا نحن الأولاد للاستحمام مرتين أسبوعيا خلال أشهر الصيف في حمام الرجال المقام على أعمدة بداخل البحر، وبعد السباحة كان البيت يرسل لنا إفطارا شهياً وربما كان يصاحب والدي واحد أو اثنان من أصدقائه لأنه نادرا ما كان يتجول بدون أن يرافقه شخص ما،وبعد أول درسين أحببنا السباحة واعتبرناها فرصة فريدة للتخلص من المربيات والنساء التي تضايقنا حيث إن المكان كان مخصصاً للرجال فقط، وظللنا نستخدم مرافق كازينو سان استيفانو إلى أن أنشئ الكورنيش في ١٩٣٢م الذى غير وجه الاسكندرية تماماً.

كازينو سان استيفانو

بُنى كازينو سان استيفانو كفندق درجه أولى وكان من معالم الاسكندرية وتم إنشاؤه على منطقة تواجه البحر حيث يتلاقى خطا سكك حديد الرمل الكهربائية، ويقع على المحطة التى قبل محطة ثروت باشا على خط فكتوريا، وكان يقدم الكازينو برنامجاً ترفيهياً ليضمن زيادة عدد المترددين عليه من كل الأوساط، وفي أثناء فصل الصيف أي من أول مايو وحتى نهاية أكتوبر كان ينظم عرضاً للألعاب الناريه (الصواريخ) كل يوم سبت وفي طفولتنا كنا نشاهده من منزلنا ونتمتع به، وكان به أيضا دار عرض سينمائى تعرض فيلماً جديداً كل ليلة، وكانت تُقام حفلات شاي راقصة في وقت الأصيل، وحفلات العشاء الراقص في قاعات الرقص المختلفة يصاحبها فرق موسيقية من الدرجه الأولى، أما حفلات السيمفونيات فقد كانت تُقام خلال موسم الصيف، وأيضاً يُنظم عرض سنوي للزهور كل ربيع حيث فاز به لسنوات كثيرة على التوإلى أمين بك خياط، ويمكنك أن ترى مشهدين التقطا في سنة ١٩١٦ على كأس السلطان حسين في إحدى الصور، أما في الصورة الأخرى فترى الأمير عمر طوسون واقفاً مع أمين بك خياط أمام حوض الخُنْشار (فوجير) (Fougère) الذي أعده الأخير في هذا المعرض، كما كان يوجد مسرح لعرض التمثيليات، وناد للقمار. وكان لدى المترددين تذاكر موسمية للدخول.

كازينو سان إستيفانو في أوائل القرن العشرون



بساط من الزهور حيث أمين بك خياط قد فاز بالمركز الأول لكأس السلطان حسين



صورة لأمين بك خياط وهو يتحدث مع الأمير عمر طوسون أمام حوض الخُنشار Fougère

عند بناء الكورنيش في سنة ١٩٣٢ فقد الكازينو جزءاً كبيراً من أرضه المُطلة على البحر، وفقد بذلك شعبيته كما فقد جاذبيته بسبب الضوضاء المطردة الذي أحدثها المرور على الطريق الجديد، وفي عام ١٩٤٠م تم تأجيزه لكلية فيكتوريا كمبانٍ للمدرسة لأن كلية فيكتوريا نفسها أصبحت المستشفي العام الرابع والستين الملحق بالمجهود الحربي البريطاني.

لقد كنت صغيراً جداً على الذهاب إلى كازينو سان ستيفانو بصورة منتظمة في أيام مجده، وكنا نذهب اليه في صحبة من آن لآخر، وكانت هذه مُتعة كبيرة بالنسبة لنا، وحين كبرنا وأصبحنا نخرج بمفردنا، كثرت أماكن الترفيه التي انتشرت مع التوسع في الضاحية التي تطورت بعد بناء الكورنيش الذي يمتد بمحاذاة ساحل البحر بين قصري الملك. الأول كان في رأس التين ويُطل على الميناء، أما الآخر فقد كان في المنتزه، وكان شقيقي وشقيقتي الأكبر مني يذهبان بصورة منتظمة مع أبناء عمومتهما إلى كازينو سان ستيفانو في أيام ازدهاره.

كلية فيكتوريا

تقع كلية فيكتوريا عند نهاية محطة فيكتوريا بجوار سكك حديد أبي قير، وهي مدرسة بريطانية كبيرة بها ملاعب شاسعة أُنشئت على غرار المدارس الانجليزية الخاصة ذات المصروفات العالية* لتزويد قادة المستقبل في الشرق الأوسط بالفكر والمبادئ البريطانية، والتعايش السلمي بين الشعوب كما أن السياسة والدين كانا موضوعين محظور النقاش فيهما ولقد تخرج منها عاهل الأردن الملك حسين، وولي عهد العراق الأمير عبد الاله، بالاضافة إلى غيرهم من الزعماء والأعيان والأمراء من الحبشة، وغيرها من دول الشرق الأوسط، وكانت مدرسة عريقة في المدنية (Cosmopolitanism). ولأنها كانت مدرسة داخلية، وأيضا خارجية، فإن كثيراً من الفتيان كانوا يلتحقون بالروضة ولا يتركونها إلا بعد أن يحصلوا على الشهادة العالية لأكسفورد وكامبريدج قبل أن يلتحقوا بالجامعات في انجلترا بصفة أساسية. وكان حوالي خمسين في المائة من الطلبة تلاميذ نهاريين** من كل الجنسيات والأديان ممن يستطيعون أن يدفعوا المصاريف العالية، ويوجد بها طلبة بريطانيون ويونانيون وأرمن، ومن روسيا البيضاء وايطاليين وبلجيكيين ومصريين، منهم مسلمون ويهود ومسيحيون ومن كل الطوائف، وكان من النادر وجود فرنسيين أو ألمان لأنهم كانوا يلتحقون بمدارسهم الخاصة، وكثير من الطلبة النهاريين التحقوا بكلية فيكتوريا في سن الثانية عشرة أو أكثر ممن كانوا

---

* هذا النوع من المدارس يُسمى باللغة الانجليزية Public School مثل كلية ايتون وهارو والمدارس البريطانية العريقة.

** تلميذ خارجي ينصرف بعد انتهاء اليوم الدراسي.

مثلاً في المدارس اليونانية أو الأرمنية أو الايطالية، فيلتحقون بكلية فيكتوريا لإنهاء دراساتهم بها، ولم يكن يوجد أي تعصب أو محسوبية، فقد كان كل الطلبة يلقون نفس المعاملة من المدرسين أو من هيئة التدريس، وهذا الخليط من الأجناس والجنسيات والمِلَل كانوا يعملون ويلعبون ويتشاجرون معاً وعليهم أن يقبلوا ويتفهموا ويتصالحوا بعضهم مع البعض مما جعل خريجي فيكتوريا في الفترة ما قبل عام ١٩٥٢م قادرين على مسايرة الجميع بنجاح في مُعظم أنحاء العالم.

* * *

حين تكتب عن منزل أو مدينة عشت فيها فإنك بهذا تكتب قصة حياتك بطريقة ما لأنها تعكس تصوراتك وأحاسيسك عن الأشياء، ومن ثم فإن البيت الذي فوق التل وأيضاً مدينتي (**الاسكندرية**)، على الرغم من أنهما كيانان مختلفان بذاتهما، الا انهما أصبحا جزءاً مني، حيث إني أستطيع أن أصف مشاعري وأفكاري وأفعالي من خلال وجودهما وامتزاج حياتي بهما.

في طفولتي وصباي، كنت دائماً جوعاناً مهتماً بالطعام، لذا فإن معظم ذكرياتي لها علاقة بالطعام والمطبخ لدرجة أنني أصبحت طباخاً هاوياً، لذا أشعر دائما أن الأكل كان له طعم أفضل في صباي عنه الآن، حيث كان لدينا طاهٍ لسنوات عديدة تعلّم فنّه في شبابه على أيدي الطهاه الفرنسيين الذين كانوا يأتون إلى مصر لموسم أو اثنين ليعملوا في الفنادق الكبرى فأصبح ماهراً مثلهم، وأنا هنا قد أسميت الطهي فناً لأن الطهي الجيد هو فن فعلا، وقد وضع طاهينا بمساعدة الطهاة الآخرين الذين تستخدمهم العائلات الكبيرة كتاباً باللغة العربية على غرار كتاب مسز بيتون * ، وربما اقتبسوا بعضاً منه، لقد كان الطهي المصري طهياً شهياً، وكان يُعرف بالطهي الفرنسي – التركي، وهو خليط من أفضل ما في المطبخين، وكنا نفتخر بأن لدينا مطبخاً ممتازاً في البيت، وكثيراً ما تم تدريب الطاهي الماهر في منزلنا أولاً كصبي مطبخ (مرمطون)، ثم بعد ذلك مساعد طاهي، وكان أبي يرسل أفضلهم إلى نادي محمد علي في الاسكندرية للعمل في مطبخه الشهير في الصيف دون مقابل فقط ليتعلموا فن الطهي الفرنسي من الطهاة الفرنسيين الذين يأتون من فرنسا خلال أشهر الصيف، ولقد كان طباخنا الحالي – مع تقدم العمر به واعتلال صحته – واحداً من أولئك الصبية الواعدين الذين كانوا يذهبون الى تلك الدورات التدريبية.

---

* أبلة نظيرة بالنسبة للأجانب.

كان طباخنا إلى أن بلغتُ الثامنة عشرة اسمه الأسطى " حسن نعامة "، وكان صانعاً من الدرجة الأولى للفطائر والحلويات ويعّد أشياء رائعة من السكر الملّون واللوز المبشـور، وكنـت أرجـع مـن المدرسـة جائعـاً فأذهب إلى المطبخ مباشرة، وأشاهده وهو يُعد الأصناف ويتذوقها، لاسيما اذا كان الكبار سيقيمون مأدبة في ذلك اليوم، وفي ذلك الوقت لم يكن الأطفال مسموح لهم حضور هذه الحفلات.

كان الأسطى حسن أفضل صديق لي بين العاملين في المنزل، وكان يعطيـني دائمـا عينـات مـن الطعـام لأتذوقها، وكنت أعتبره بنكي الخاص لسنوات عديدة حيث انه كان الشخص الوحيد الذي يمتلك سيولة نقدية جاهزة في البيت، ومات وهو لا يزال يعمل معنا، وأتذكر إنني حين كنت في الثانية عشرة اقترضت عشرة قروش منه، وكنت معتاداً أن آخذ عشرة قـروش أسـبوعياً كمصـروف جيـب مـن أمـي، وذات يـوم كانت مربيتنا مسافرة، لذا كانت أمي ترعانا، وكانت "فريدا" Freda مربيتنـا الإنجليزيـة جميلـة مُدربـة متعددة المواهب أتت بها أمي إلى مصر أساساً من مانشستر لتساعدها في ولادة طفلهـا السـابع، واصبحـت حاضنة للطفلين الصغيرين ومربية لي ولشقيقي الأصغر مني، وكنا عندئذ قد دخلنا المدرسـة، وعندمـا كنـا نُسيء التصرف كانت فريدا تعاقبنا بأن تجعلنا نكتب سطوراً خمسين مرة أو مائة حسب الحالة، فذهبت إلى أمي وطلبت منها مصروف جيبي ربما يوماً أو يومين قبل الميعاد، فقالت لي أنه يجب عليّ أن أنتظـر، فقلت لها لا أستطيع لأني قد اقترضت عشرة قروش من الطاهي.

فقالت أمي وقد صُدمت: " هل اقترضت نقوداً من الطاهي؟ "

فأجبت: " نعم يا أمي " .

فقالت: " انه شئ خاطئ كلية أن تقترض نقوداً، لذا فلـن أعطيهـا لـك اذا لم تكتـب " لـن اقـترض نقودا، ألف مرة ".

فاعترضت قائلاً: " لكن يا أمي لا يوجد أحد في العالم يُكلف آخر بكتابة ألف سطر " .

فأجابت: "حسناً انا أفعل هذا. ولن تحصل على العشرة قروش، ما لم تكتب الألف سطر هذه".

فملأت عدداً قليلاً من الصفحات بهذه الأسطر واعطيتها إياها لأني كنت متـأكداً مـن أنهـا لـن ترهـق نفسها بعدّها، وكنت محقاً فعلاً فيما اعتقدت لأنهـا لم تحصهـا، فسـددت ديـني للطـاهي وكنـت دائمـا معتاداً أن أغيظها بقولي: "هل تتذكرين تلك الألف سطر الـتي أجـبرتني علـى كتابتهـا بسـبب اقـتراضي نقوداً حين كنت صغيرا ؟ حسناً لم أتوقف أبداً عن الاقتراض منذ ذلك الحين كما لو كنـت أحصـل علـى فوائد مجهودي في كتابتها".



طريق النخيل كما هو اليوم وهو الطريق الخاص بالملك فؤاد وداخل ممتلكات الخاصة الملكية والذي كان يستقله في طريقه من قصر المنتزة الى قصر رأس التين قبل بناء الكورنيش



هذا الجزء هو امتداد الطريق الملكي (طريق النخيل) وهو يبدأ من بوابة ممتلكات الملك الخاصة الى ميدان الساعة الحالي في فيكتوريا

كانت الاسكندرية في العشرينات مختلفة جداً عنها في الثلاثينات والأربعينات بعد بناء الكورنيش وأكثر اختلافاً عنها في بداية الستينات، وما تلا ذلك من انفجار سكاني لأنه كان يوجد حوالي أربعمائة ألف شخص في الاسكندرية وضواحيها في عام ١٩٢٠م وحوالي ثمانمائة ألف شخص في عام ١٩٥٠م، أما الآن فيُقّدر سكان الاسكندرية وضواحيها بما يزيد على أربعة ملايين.

إحدى ذكرياتي عن هذا البيت كانت حين انتقلت الأسرة الصغيرة إلى جزء من البيت قبل أن يتم تشطيبه بالكامل، واندلع حريق تحت شرفة الدور الأول حيث كان النجارون يصهرون الغراء لبعض الألواح الخشبية فلفوني في بطانية وحملوني إلى الحديقة المجاورة الخاصة بثروت باشا، ولازلت أتذكر لون شعلة النار البرتقالية والدخان الأسود وأبي يصرخ ويعطي الأوامر وعندئذ وصلت سيارة المطافئ الحمراء، ويبدو أنه لم توجد خسائر فادحة لكني لا أتذكر شيئاً عن ظروف عودتي إلى المنزل.

وأتذكر أيضاً أمي وهي مرتدية قبعة كبيرة من القش وتتجول مع البستاني الأسطى ابراهيم تناقش معه تخطيط أحواض الزهور المتناثرة، وفي بعض الأحيان تحضر وتُقلب الأحواض بنفسها، كما أتذكر لعب "البلي" مع صبيان المطبخ وأولاد البستاني حين كنت أستطيع الهروب من رقابة المربية التي لم يكن من المفروض أن نهرب منها، وحين نفعل هذا يكون بالنسبة لنا هروباً عظيماً، فتعلمنا كل أنواع الكلمات غير اللائقة منهم، وتعلمت أفكاري الأولى الخاطئة عن الجنس مما سمعته من الخدم في طفولتي وكانت كلها أفكاراً خاطئة حيث إنهم كانوا يستخدمون ألفاظاً دارجة تحمل معاني أخرى، وكنت أخطئ في تفسيرها، والكبار لم يكونوا يتحدثون مع الأطفال حتى عن الطيور والنحل وطريقة التزاوج بينهما، لذا فقد كان كثير مما يعرفه الأطفال مجرد كلام لا أعرف مغزاه الحقيقي، وكم كنت أتمنى أن أعرف في طفولتي ما يعرفه أطفال اليوم.

ذكرياتي عن المنزل الذي على التل وعن الاسكندرية، يمكن أن تقسم إلى مراحل: ما قبل المدرسة حتى عام ١٩٢٩م، ومرحلة المدرسة التي امتدت حتى عام ١٩٣٩م ومرحلة ما قبل زواجي في عام ١٩٤٧م، ثم الأيام التالية بعد ذلك، وحيث إن هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية، لذا سأحاول أن اختصر الحديث على الأحداث التي وقعت في المنزل كما رأيتها أنا، وعلى كل ما أتذكره عن الاسكندرية في مراحلها المختلفة، وأي شئ سمعته ورأيت انه شيّق وجذّاب فيما يتعلق بها.

ذكرياتي عن أيام ما قبل المدرسة في الاسكندرية كانت عبارة عن إفطار ودروس ثم شاطئ في الصباح اذا كان هناك مُتسع من الوقت، وبعد الغذاء كنا نستريح متمددين على الفراش، ونتظاهر بالنوم، ثم نذهب بعد ذلك إما لفصول الباليه، أو للعب في الحديقة أو لحضور مدارس الأحد في إرسالية مدارس

الأحد للأطفال، حيث كنا نذهب لمكان ما على الشاطئ لنرتل الترانيم، أو لنستمع لقصص الكتاب المقدس، ومعنا سندوتشاتنا وعصير الليمون الذي يعطيه لنا والدانا، أو نذهب في نزهات مع الأطفال الآخرين من العائلة عادة، وكان هناك موقعان محببّان للنزهات وهما التلال الرملية والصخرة التي ينبثق منها الماء (بئر مسعود)، ولكي تصل إلى التلال الرملية كان لزاماً عليك أن تقطع مسافة حوالي ثلاثة كيلو مترات على الطريق المعروف بطريق أبي قير أو طريق رشيد، فقد كانت أبو قير عبارة عن قرية صيد صغيرة على خليج أبي قير حيث أغرق نلسون الأسطول الفرنسي في عام ١٧٩٨م، وكانت على بعد اثنى عشر كيلومتراً من محطة ترام فيكتوريا، ومع هذا فقبل أن تصل إلى الخليج من محطة قطار أبي قير كان الطريق يتفرع إلى رشيد، ومن هنا كان له الاسمان، الجزء الذي يؤدي إلى محطة أبي قير عادة ما يسمى بطريق أبي قير، أما الطرف الذي يتفرع إلى رشيد فكان يسمى بطريق رشيد، وفي ذلك الوقت الذي أتحدث عنه كانت منطقة أبي قير محتلة كمحطة للسلاح الجوي الملكي البريطاني.

أسمينا الموقع الذي كان خارج الطريق حيث كنا نتنزه "بالتلال الرملية" بسبب كثبانها الرملية الممتدة لمسافة اثنين أو ثلاثة كيلومترات إلى شاطئ البحر، مع اننا لم نتوغل فيها أبداً، وكان جزء منها مزروعاً بالنخيل، أما بقيتها فكانت مجرد رمال ذهبية، وكانت هذه التلال تقع إلى الجنوب من ممتلكات الملك فؤاد وقصر المنتزه، هذا قبل بناء الكورنيش، وكان الوصول إلى القصر إما عن طريق القطار الملكي الذي يصل إلى محطة الملك الخاصة أو عن طريق خاص متفرع من طريق أبي قير، وقد اختفت هذه التلال الآن واستبدلت بمساحات من المناطق المكتظة بالمباني حتى ساحل البحر مباشرة، أما الرمال ذاتها فقد بيعت كمادة بناء للمدينة المتوسعة باستمرار، واثناء كتابتي لهذا الفصل فكرت في أن أذهب وأتجول في الحي الذي أتحدث عنه لأرى اذا كان بإمكاني أن أتعرف على ما حدث بالفعل، وذكرياتي بالرغم من أنها حية فيما يتعلق بالتلال الرملية، إلا أنها غامضة شيئاً ما فيما يتعلق بموقعها الفعلي وأتذكر اننا كنا نمر عليها قبل مرورنا أمام بوابة الطريق الخاص بالملك، ولكني لا أستطيع أن أحدّد مكانه بالضبط بسبب المنطقة المكتظة بالمباني على الطريق، وقد سعدت لأني فعلت هذا، إلا أنني اندهشت لما اكتشفته، فأنا أعرف أنه كان يوجد طريق يمر من خلال ممتلكات الملك وأرضه الزراعية وحدائق الفاكهة وغيرها إلى طريق أبي قير القديمة حيث يوجد مدخله الجنوبي الذي كان على بُعد حوالي ثلاثمائة متر تقريباً من محطة المطافي وكان يحرسه حراس القصر، وفي طفولتنا كنّا نعرف أنه الطريق الخاص للملك الذي يؤدي إلى قصره، وبعد ذلك لم يخطر ببال المرء أن يرتاده لأنه كان من الأيسر أن تصل إلى أبي قير لتناول وجبة غذاء من السمك الشهي عن طريق الكورنيش، ثم حول سور القصر إلى الطريق الجديد الموازي لخط قطار

أبي قير إلى أن يتصل بطريق أبي قير القديمة على بعد حوالي كيلو مترين شرق القصر، وبدأت أبحث عن الطريق الخاص خارج قصر الملك، الا ان المعالم تغيرت اذ لم يكن واضحاً أو من أين يبدأ، وفي النهاية وجدته على بعد حوالي مائتي متر جنوبي القصر فمدخله الشمالي من ناحية القصركانت تخفيه المباني المبنية حديثاً، ولكن بمجرد أن يطأها المرء يظهر له أنه على طريق ملكي، وكان يبلغ اتساعه حوالي خمسة عشر متراً، وهو عبارة عن طريق مرصوف على مستوى أعلى من الحقول الزراعية والحدائق على الجانبين، وكان لا يزال في حالة جيدة لأن المرور عليه قليل للغاية، وتوجد أشجار نخيل جميلة مزروعة على جانبيه واستطيع أن أسميه طريقاً مُشجّراً، فقدت سيارتي عليه مبتهجاً لأنه لا يوجد ضوضاء أو ازدحام، ولم استطع أن أصدق عيني حينذاك، والناس الوحيدون الذين يستخدمونه ربما كانوا مزارعين ذاهبين إلى حقولهم أو يحاولون الوصول إلى الكورنيش مرورا بطريق خلفي، وكان يبدو أنه لا يوجد أحد في المنطقة، ويمتد الطريق حوالي كيلو مترين ثم يتحول إلى طريق أبي قير القديمة وعُدتُ من خلال هذا الطريق إلى فيكتوريا، ولاحظت لأول مرة أن هذا الجزء من الطريق المؤدي الى فيكتوريا كان أكثر اتساعاً من الجزء المؤدي الى أبي قير بعد اجتياز المدخل الملكي الخاص الجنوبي، وكان أيضاً مزروعاً على جانبيه من نفس نوع النخيل، ولكنه الآن قد تهدّم، ولم يعد أحد يهتم به، وقد كان الطريق في حالة سيئة بسبب المرور الكثيف من اللوريات، وبعض من أشجار النخيل التي اختفت لتفسح الطريق لمداخل المصانع التي أنشئت على حافة الطريق مباشرة، ولكن إذا أخذت الطريق المُشجر من المنتزه فبقليل من الخيال تستطيع أن ترى أن هذا كان طريقاً بُني خصيصاً لأحد الملوك واستخدمه ملك، وهو الملك فؤاد حين كان ينتقل بين القصور الملكية في المنتزة ورأس التين.

أما الموقع الآخر المحبب لنزهاتنا فكان منطقة بها صخور تندفع منها مياه البحر، وهو جزء من صخور عالية بارزة في البحر ومعظمها تُغطيها الرمال بعيداً عن الأمواج، ولكي تصل إلى هناك كان لزاماً عليك أن تمشي لعدة كيلو مترات على شاطئ البحر أو أن تذهب على ظهر حمار، وقد كان في هذا متعة أكبر، فهو مكان غريب موحش صعب الوصول اليه من أي مكان، فأنت تتسلق الصخور وتنظر داخل الفتحات – التي تتخلل الصخرة – إلى البحر الذي يخترق القاع تحتنا وتتدفق المياه من خلال الفتحات السفلى والشقوق عند ارتطام الامواج بها، وبعض من هذه الفتحات قد نحتها أهالي الاسكندرية القدماء على هيئة مستطيل وكانوا يضعون بها بعض النماذج العلمية مثل الأبواق الموسيقية والطواحين التي تعمل بدفع الماء، وكنا معتادين أن ننظر في حفرة معينة مربعة كبيرة تؤدي إلى البحر من تحت الصخور، وكل بضع ثوان كنت

تسمع صوتاً مخيفاً حيث ينبثق الماء ويأتي مندفعاً من الحفرة، وكانت تسمى بالانجليزية (Spouting Rock) الصخرة التي ينبثق منها الماء أما الفرنسيون فسمونها بئر الشيطان (Le Trou du Diable)، وفي العربية تُسمى "**بئر مسعود**"، وهذه الظاهرة كان يسببها ارتطام الأمواج مع الصخور، واندفاعها خلال ممر في الصخر تحت الحفرة، وعندئذ تنحسر، ويمكن أن تجدها الآن في مكان بالقرب من موقع نادي السيارات، وقد بنيت الكبائن وغيرها من أماكن الترفية بجوارها، أما الحفرة نفسها فقد كانت بقعة محببة، ولا تزال كذلك بالنسبة للعشاق الذين يلقون العملات المعدنية فيها ويتمنون أمنية، وقد كان أصل هذه العادة هو من حيل الشيخ مسعود، وهو الذي وضع يده على تلك البقعة في الأزمنة القديمة، وكان يغري العشاق السذج بالقاء عملاتهم المعدنية في الحفرة، ويتمنون أمنية، وبعد أن ينصرفوا كان يجمع العملات، وحين كنا صغاراً كان يوجد كوخ صغير على الرمل بناه رجل يوناني لبيع المرطبات، ولازال الصبية الصغار يخاطرون بحياتهم ويغطسون بحثاً عن العملات، وهم إما أن يتسلقوا الصخور أو يعوموا الى البحر حين ينحسر الماء.

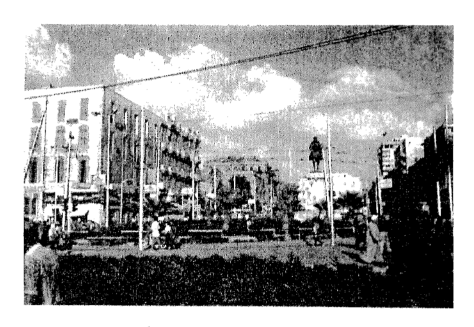
الزينة

كان الاحتفال بميلاد الملك حدثاً سنوياً يهم الاسكندرية بأسرها، وكنا نسميه "الزينة" لأن المدينة كلها كانت تخرج لترى ساحل البحر، وتكون المدينة كلها مزينة بالأضواء، وكانت كل المباني الحكومية والمحلات والشركات تزين بناياتها بآلاف الأضواء، وأيضاً الأفراد الذين يريدون أن يظهروا ولاءهم للعرش، فيضيئون فيلاتهم، وتكون المدينة بأسرها متوهجة بالمصابيح الكهربائية، كذلك السفن في الميناء وقصر رأس التين.

فينطلق موكب الملك الذي يتكون من عربات رولزرويس حمراء ذات أسقف سوداء أمام الجماهير التي تقف على الأرصفة لتحيته، وأمام السيارات الواقفة والجالسين فيها يبدأ موكب الملك من المنتزه مروراً ببعض المنازل والمباني الحكومية المزينة، إلا أن الإضاءة والزينات الحقيقية تبدأ قبل الأزاريطة مباشرة عند النقطة الشمالية للميناء الشرقي حيث يبدأ الكورنيش، وبمجرد أن يمر الموكب الملكي في طريقه إلى قصر رأس التين يُسمح للسيارات بالتحرك فيقود الجميع سياراتهم وهم يحدقون بدهشة بالغة في الزينات الضوئية الرائعة، وقد كان يلي ذلك دائما عرض للألعاب النارية "الصواريخ".



ميدان محمد علي حيث نرى تمثال محمد علي على حصانه عام ١٩٢٠



ميدان محمد علي بعد سبعون عاماً

الاسكندرية في الماضي والحاضر

البورصة (ميدان محمد علي)



ناصية شارع شريف والشارع الجانبي الذي به مطعم يونيون عام ١٩٢٠



البورصة ... وقد استبدلت بمكان انتظار السيارات نفس ناصية شارع شريف الذي تحول إلى شارع صلاح سالم ونفس الطريق الجانبي الذي يوجد به مطعم يونيون



شارع سعد زغلول ونرى الترام عام ١٩٢٠ ولا نرى سيارات بل عربات تجرها الخيول



شارع سعد زغلول بعد سبعون عاماً

كانت الإضاءة دائما ما تجذب الرجل العادي الذي كان يتطلع إلى هــذه النزهـة السنوية حتـى إنهـم أضافوا بعض كلمات للأسطر الأولى القليلة في النشيد الوطني، والمعتقـد أن فـيردي Verdi كـان قـد كتبـه للخديوي اسماعيل، وتلك الكلمات كانت:

سلام سلام يا أفندينا

كل سنة تعمل زينة

ويلاحظ أن السيارات التي كانت مدهونة باللون الأحمر الملكي المُشْرق، ولها أسقف سوداء كانت دائماً سيارات القصر فقط، ولم يكن مسموحاً لأي سيارة أخرى أن تستخدم تلك الألوان.

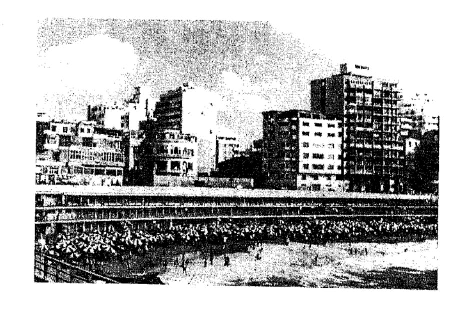
كُتب الكثير عن الاسكندرية ومجتمعها العالمي أثناء الفترة مـا بـين الحربـين العـالميتين، لذلـك فلـن أحـاول أن أصفها ثانية، ولكن يكفي أن أقول أن الاسكندرية قبل بناء الكورنيش لم تكن قادرة علـى رفـع امكانياتهـا كمصيـف بالشكل الأمثل اذا اخذنا في اعتبارنا أن لها ساحلاً بحرياً يمتد لمسافة سبعة عشر كيلـو مـتراً مـن رأس التـين إلى المنتزه، وقد كان هذا الساحل يتكون من خُلجان صغيرة ساعدت على حماية الذين يسبحون فيه من تيارات البحـر الغادرة، وكل هذه الخلجان محاطة بامتدادات شاسـعة مـن الرمـال ملائمـة لحمامـات الشمس ورياضـات الشـاطئ والسباحة الآمنة، إلا أنها لم تكن مطروقة فيما عدا خليجين وهما خليـج سـتانلي وجليمونوبولـو كشـواطئ متمـيزة، حيث إن المباني الخاصة كانت ممتدة بطريقة عشوائية أمام شاطئ البحر مباشرة إلى أن تم انشاء الكورنيش.

كان مُعظم أهالي الاسكندرية يحبون أن يقضوا جزءاً من وقتهم على الشاطئ اذا استطاعوا وكان عادة يتم الاتفـاق بين الأُسر والاصدقاء على بناء كشك خشبي لقضاء الوقت، حيث إن الموقعـين السـابق ذكرهمـا كانـا أكـثر الأمـاكن ارتياداً، فقد أصبحا شاطئين مزدحمين، أما الشواطئ الباقية فكان من الصعب الوصول اليها، الا للأشـخاص الذيـن يعيشون بالقرب منها وهم الذين يذهبون اليها ويستخدمونها اذا استطاعوا ذلـك، وكـان هنـاك شـاطئ ثـالث يمكـن الوصول اليه وهو الأنفوشي، وهي منطقة يرتادها كل الذين يعيشون حول منطقة الميناء، الذي يوجد به نواد للترفيـه والرياضات البحرية وذلك كان مسموحاً به قبل الثورة، وكان شاطئ الأنفوشي شعبياً بحيث لا يرتاده إلا القليل مـن الجنسيات الأخرى، وقد كانت كل شواطئ الاستحمام الجيدة أو الخلجان متصلة بامتدادات ضيقة من الشـاطئ في مواجهة عرض البحر، ولذا كانت تشكل خطراً ما في الاستحمام، وكان الشاطئ يحرسه خفـر السـواحل، امـا قبـل انشاء الكورنيش وحين كان لا يوجد إلا رمال، فقد كان يخفره سلاح الهجانـة، وفي أي مكـان كـان المرء يسـتحم فيه، تجد عمال الإنقاذ (الغطاسين) الذين يراقبون المستحمين ويرفعون رايات تُبين حالـة الطقس، فكـانت الرايـة السوداء تعني أنه ممنوع الاستحمام والراية الحمراء تعني أنك تسـتطيع أن تستحم علـى مسئوليتك الخاصـة، أمـا الراية البيضاء تعني أن كل شئ آمن.

شاطىء استانلـــــي



قبل بناء الكورنيش نرى في الصورة الأكشاك الخشبية التي تستخدم ككبائن للمصطافين



بعد بناء الكورنيش وبناء كبائن البلدية من ثلاثة أدوار

عائلـــــــة زكي بك ويصـــــا



زكي بك ويصا في الوسط وعلى يمينه شفيقة وتوتو وفيكتور وعلى يساره جيرتي وهي تحتضن فايلي وارنست

طوّرت البلدية خليج ستانلي وجليمونوبولو كمراكز اسـتحمام بـأن سمحت للأفـراد بإنشـاء أكواخهـم الخشبية مقابل تحصيل إيجار عن المساحة التي يشغلونها، ومعظم هذه الأكواخ تشترك في شئ واحـد هـو رصيف مرتفع وجـزء منـه عبـارة عـن منطقـة مغلقـة لتغيير الملابـس وشـرفة خارجيـة صنعـت جوانبهـا وواجهتها من حصير من القش له إطار خشـبي والواجهـة لهـا مصـراع بـه قفـل في الجـزء الأسـفل منـه، وبمجرد أن ترفع المصراع وتثبته على عمـود خشـبي تحصـل بهـذه الطريقـة علـى منطقـة مظللـة اضافيـة للكوخ، هذا وكان بعض الناس قد تمكنوا من تركيب مصاريع قابلة لـلرفع علـى جوانـب الكـوخ الثلاثـة، وعند بناء الكورنيش أنشأت البلدية كبائن على مسـتويات متعـددة في خليـج سـتانلي وعرضتهـا للإيجـار (أنظر صور خليج ستانلي قبل وبعد بناء الكورنيش).

بعد بناء الكورنيش تم تطوير ساحل البحر ببطء، فكان سيدي بشر رقم واحد ثم بعدئذ اثنين ثم ثلاثة وبعد عام ١٩٥٢م أعْطِي قصر المنـتزه كامتيـاز لشـركة ايطاليـة الـتي أنشـأت كبـائن علـى طـول خلجانـه المتعددة، هذا وقد تم انشاء مصيف جديد كامل في منطقة المعمورة من الأراضي المصادرة من العائلة الملكيـة أو من الشواطئ غير المطوّرة، ونتيجة للانفجار السـكاني في الأربعـين عامـاً الماضيـة، بالاضافـة إلى ظهـور طبقة متوسطة جديدة، فإن معظم ساحل مصر من الاسكندرية إلى مرسى مطروح على بعد ٢٩١ كيلو غربي الاسكندرية قد تم تطويره كمنتجع صيفي.

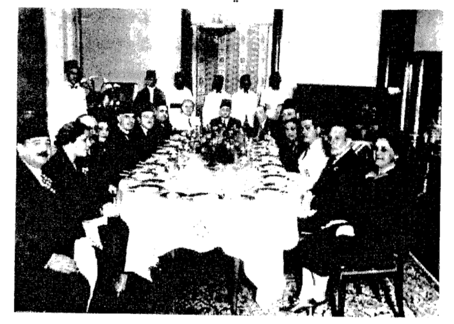
من الشواطئ التي كان من الصعب الوصول اليها هي التي بنى عليهـا والـد زوجـتي زكـي بـك ويصـا وشـقيقته روجينا حبيب خياط (ابنة ويصا) بيوتهما الصيفية حيث بُني كل منهما على مساحة فدانين من الأرض في مواجهة الشاطئ عند محطة السراية، ولكن على مستوى أدنى من السراية الحزينة التي كانت تعلـو المنطقـة وتبعـد بحـوالي ثلاثمائة متر، وقد كانت الحدائق ممتدة إلى الشاطئ مباشرة حيث استأجرا موقعا من البلدية وبنيـا أكواخهمـا وهـي لم تكن من أفضل أماكن الإستحمام حيث لا يوجد خليج لحمايتها بل كانت تواجه عرض البحر مباشـرة، وتتذكـر زوجتي فايلي أنها بعد عبور غابة صغيرة في الحديقة كانوا معتادين على فتح بـاب صغـير في السـور مثـل أليـس في قصة **أليس في بلاد العجائب** ويسيرون إلى الشاطئ في الصباح الباكر ويستحممن، وبعد أن يغيرن ملابسـهن يتنـاولن افطارهن على الشاطئ الذي يحضره السفرجية من البيت على صِوان ضخمة مرتدين قفـاطينهم البيضـاء وأحزمتهـم الحمراء، اثنان آخران مـن أولاد ويصـا اشـتريا أرضـاً في الرمـل، وبنيـا فيلاتـين مواجهتـين لبعضهمـا كمصيـف في ضواحي الاسكندرية وهما جورج باشا ويصا وشقيقته فاروزة وهي زوجة أليكسان باشا ابسخارون، وقـد كـانت فيـلا جورج باشا تتاخم الملعب الخاص بالفريق الثاني من ملاعب كلية فيكتوريا، حيـث كـانت الأسـرتان لهمـا أولاد في القسم الداخلي، وأنشأت الأسرة كذلك كنيسة انجيلية في السراية، وكانت الكنيسة تستخدم في الصيف حـين تـأتي

الأسرة بأسرها، وتغلق حين تعود إلى أسيوط لكنها اليوم مفتوحة على مدار العام وتخدم شعبها الكبير وتقدم الأعمال الخيرية، ويعتني بها كاهن مقيم هو نيافة القس جندي ابراهيم.

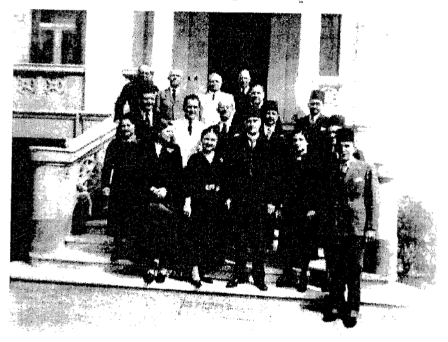
كان توجد أماكن أخرى للاسترخاء في الاسكندرية غير الشواطئ، فمثلا يوجد نادي سبورتنج، وبه ملعب للجولف ذو ثماني عشرة حفرة، وغيرها من الرياضات التي يزاولها الأعضاء أو ضيوفهم كما يوجد حلبة لسباق الخيل تُفتح أمام الجمهور في الصيف، ومعظم إيراد النادي المستخدم في صيانة المضمار والمطابخ والملاعب يأتي من نصيب النادي في المراهنات على السباقات، وفي عام ١٩٢٥م وصل إلى الاسكندرية انجليزي يهودي اسمه مستر "جوزيف سموحه"، ويُقال إنه كان معه مليون جنيه لغرض بناء مصنع نسيج، ولكني أشعر أن هذا الرقم كان مبالغاً فيه بعض الشئ، وعلى أية حال فبدلاً من شرائه لمصنع النسيج تمكن من شراء مساحة واسعة من المستنقعات الممتدة بين ترعة المحمودية وطريق ابي قير من ممتلكات الأمير عمر طوسون، ونجح – على الرغم من فشل محاولات الذين سبقوه – في استصلاح هذه المنطقة، هذا وقد تم عرض تصميم مشروعه في معرض عالمي في جنيف في عام ١٩٢٧م يسمى "معرض التحضر الاجتماعي" وفاز بالجائزة الأولى مُصمم المشروع مستر " كلوزيه "، أما المهندس التنفيذي فكان اسمه مستر " ناجلوسكي ".

بدأ سموحه بانشاء نادي رياضي آخر به ملعب جولف له ثماني عشرة حفرة، بالاضافة إلى مرافق رياضات اخرى، وحلبة سباق ثانية مما سمح لرتادي السباق في الاسكندرية بأن يذهبوا إلى نادي سبورتنج في اسبوع، والأسبوع التالي إلى نادي سباق سموحه (كثيرون كانوا يفضلون ملعب جولف سموحه على ملعب جولف نادي سبورتنج)، وبعد ذلك قسم مستر سموحه هذه الأرض المستصلحة إلى قطع للمباني، وفي البداية فكّر في بناء فيلات وبيعها بالتقسيط، ولكنه وجد أن الناس يفضلون شراء الأرض بالتقسيط وبناء فيلاتهم بأنفسهم، إلا أن العيب الوحيد في مدينة سموحة هو أن مستوى الأرض كان أدنى من معظم أراضي المدينة التي حولها، ولهذا تصبح الشوارع مغمورة بالماء في فصل الشتاء قبل ادخال نظام الصرف الجيد، وعلى هذا فقد بيعت مدينة سموحة قطعة قطعة منذ منتصف الثلاثينات وقد افتتح مدخل جديد إلى حديقة الحيوان وحدائق النزهة وحدائق انطونيادس من مدينة سموحة، في حين أنه في الماضي كان المدخل والمخرج الرئيسي عن طريق ترعة المحمودية التي كانت ذات يوم متنفساً لأهل الاسكندرية الذين كانوا يرغبون في ركوب الكارتة على طول الترعة حيث كان يوجد بعض المطاعم والمقاهي الصغيرة، أما اليوم فإن منطقة ترعة المحمودية تُعتبر منطقة صناعية وتجارية حيث توجد وكالة الخضروات والفاكهة.

(حفلة استقبال في البيت فوق التل)



الأمير عمر طوسون يتوسط المائدة جهة اليسار وأمامه السيدة استر تتوسط الجهة اليمنى
وفهمي بك ويصا في أقصى يسار الصورة



صورة استقبال الأمير عمر طوسون في الوسط وعلى يمينه السيدة استر وعلى يساره السيدة ماري ويصا وأس
الدرج جهة اليمين حسين باشا صبري محافظ الاسكندرية وشقيق الملكة نازلي

البيت فوق التل سُمي بعدة أسماء في أوقات مختلفة : أسماه البعض "منزل الكرم" وآخرون أسموه "بيت الحرية المطلقة" وقد سمعت أيضا أنه سُمي "بيت المجانين"، واعتقد انه كان مختلفاً عن منازل كثيرة حيث كان له مناخ سعيد وبلا هموم، وكنت دائما أشعر بأنه كائن حي متحرك ومتغير اللون مثل الحرباء بتغيره حسب مزاج واحتياجات من يعيشون به، ومع أن كل واحد فينا كان يشعر أنه بيته الخاص ويمكنه ان يعيش بالطريقة التي يراها، إلا أنه كان لديه رئيس واحد هو أبي، وكانت أمي تشرف عليه، وفي نواح عديدة كان المنزل يدير نفسه بنفسه لأن جميع من كانوا يعملون فيه كانوا على تدريب عال، لذلك فقد كنا نستطيع أن نعطي أوامرنا دون أن نعتدي على حقوق الآخرين، ولم تكن أمي وأبي يعرقلان اسلوبنا لأن المنزل كان يسع معظم نزواتنا لكنه اختلف بعد وفاة أبي لأن المناخ والأحوال تغيرت كما سأحكي فيما بعد.

في طفولتنا ومراهقتنا وحتى بعد زواجنا إلى وفاة ابي عام ١٩٥٢م كنا لا نحمل أي همّ فيما يتعلق بالمنزل، كان لكل واحد منا مكانه الخاص الذي يشغله حين نكون في الاسكندرية، وعلى الرغم من أن بعضاً منا كان يعمل ويكسب، إلا أن كل شئ كان يوضع أمامنا بلا مقابل مثل الخدم والطعام.. الخ. وكنت انا وزوجتي منذ زواجنا في عام ١٩٤٧م نعيش في المنيا، حيث كنت أعمل في شركة قطن انجليزية حتى عام ١٩٥٧م، وبعد ذلك رجعنا إلى الاسكندرية لنعيش فيها بصورة دائمة.

لم اعتبر نفسي حتى هذا الوقت أنني من سكان الاسكندرية، حيث كنا نمضي فترة الصيف بها مرة كل عامين أما العام التالي كنا نمضيه في أوروبا، وقد كان شاغلي الاساسي هو عملي في المحلج بالمنيا، واهتمامنا انا وزوجتي كان محصوراً في صحة أطفالنا واسعاد المربيات الاجنبيات ليتقبلوا العيشة في المنيا، ثم من سندعوهم للعب البريدج أو صيد البط على النيل عصراً.

بوفاة أبي في ٥ أكتوبر ١٩٥٢م وقرار مجلس قيادة الثورة بتخصيص ثلاثمائة فدان لعائلة فهمي ويصا عبارة عن ٢٠٠ فدان للمالك الأصلي ومائة فدان لأولاده، لم يكن بالامكان الاحتفاظ بالبيت اذا طالب كل منا بالميراث، وحيث كان آل فهمي ويصا عائلة موحدة دائماً، وكنا نريد أن تعيش أمي نفس الحياة التي كانت معتادة عليها، فتركنا القرارات والعمل والمشاكل لأمي ولأكبر ذكر بيننا وهو شقيقي جميل وناقشنا الأمور بين الورثة كأسرة وقررنا أن نحتفظ بالبيت مفتوحاً لأي من أفراد الأسرة يريد الحياة فيه وبهذا فقد خصصنا كل ايراد الثلاثمائة فدان لتغطية نفقات البيت، وكان لزاماً علينا أن نقلل من عدد هيئة الخدم من أربعة وعشرين إلى ثمانية، وهم طباخ واثنين من السفرجية وسائق لأمي وبستاني ووصيفة خاصة لأمي وغسالة وبواب لغسيل سياراتنا أيضا، وأي فرد منا كان يريد أن يزرع الأرض بنفسه فعليه أن يدفع قيمتها الإيجارية للبيت، وكان شقيقي الأصغر عدلي يريد أن يُفلح الأرض التي ورثها، فبنى طاحونة دقيق على جزء من الممتلكات، ولم يكن

متزوجاً، لذلك تقرر أن يستمر الوضع كما هو، وكانت أختي دوسه متزوجـة وتعيش في انجلترا، اما شقيقتي الأخرى ناديه فقد كانت أيضا متزوجة وتعيش مع زوجها، وكنت أنا متزوجاً وأعيش في المنيا، وتقرر أيضاً أنـه اذا أراد أي أحد منا أن يبيع حصته من الأرض التي ورثها، فيجب أن تكون تلك الأرض من الأراض المؤجرة لصغار الفلاحين، وفي هذه الحالة يمكن أن يبيعها، ولكنه يجب عليه أن يعوض الأسرة بما يساوي قيمتها الإيجارية كل عام وتستخدم في تغطية نفقات البيت، وبهذه الطريقة يستمر ايراد البيت كما هو، وبالاضافة لهذا فهي تمنح الفرصة لكل منا لمحاولة زيادة دخله، وكنت أنا أحد الورثة الذين قرروا عدم الاحتفاظ بأي أرض زراعية لأني كنت أكثر اهتماماً بعملي في القطن، وقد أصبحت آنذاك شريكا صغيراً في الشركة التي أعمل بها، وكنت طموحاً راغباً في التقدم وتقرر أيضاً انه اذا كانت نفقات البيت لا تغطيها ايراداته، فعلى الأعضاء العاملين في الأسرة الذين لم يزرعوا الأرض بأنفسهم والذين كانت لهم وظائف أن يغطوا أي عجز اذا كانوا يعيشون بصفة دائمة في البيت، وكان على أمي أن تساعد أيضاً من دخلها الخاص الصغير هذا اذا دعت الضرورة لذلك.

وقررنا أيضاً أنه على كل أسرة تعيش في البيت أن تعتني بإفطارها وعشائها في شققهم، أما الغذاء فيقدم لأي فرد يرغب في تناوله في حجرة الطعام الرئيسية، أما هيئة الخدم فقد كانت تتناول وجباتها من النفقات العامة، واذا احتاج أي فرد في الاسرة الى عمال اضافيين فعليه ان يتكفل بالمصاريف، ومن ثم فقد كان لي حاضنة لأولادي وسفرجي خاص لإعداد وجبات إفطارنا وعشائنا ويعتني بشقتنا في المنزل، وكان الطاهي الرئيسي يساعد في تلك الاحتياجات الفردية، لكن على كل أسرة أن تتحمل نفقات احتياجاتها الخاصة.

ولأني كنت اول عضو في العائلة ينجب أطفالاً، لذلك قرر أبي وأمي في عام ١٩٥٠م أن الحجرتين اللتين كنا نشغلهما بعد زواجنا قد ضاقتا علينا، ولم يعد هناك مساحة كافية لتنشئة أسرة، ومن ثم فقد قررا أن يبنيا طابقاً آخر لنا، وحين رجعنا من المنيا في العام التالي وجدنا أن لنا سكن خاص بالمنزل مفروش بالكامل لدرجة أن ادوات المائدة كان عليها حرف (N) * لتمييزها عن باقي الادوات التي كانت من نفس الشكل، وبهذه الطريقة استطاعت اسرة فهمي ويصا أن يحتفظوا بمظهر معيشتهم، مع أنه يوجد كثيرون لا يفهمون كيف استطعنا أن نفعل هذا.

أتذكر السيدة حرم سعد زغلول باشا وغيرها من السيدات عندما استضافتهن والدتي في المنزل وقد ألتقطت لهم صورة، وهي واقفة على السلالم الأمامية في المنتصف، ويمكن أن تراني في الصورة وأنا أحمل

---

* حرف ال N يرمز الى كلمة Nursery أي حضانة باللغة الانجليزية.

علماً صغيراً بأحدى اليدين، وأتعلق بأمي باليد الأخرى، وكان جميل ودوسه أيضاً في الجزء الأمامي من الصورة، وهما يحملان أعلاماً صغيرة أيضاً، وربما كانت هذه الصورة في صيف عام ١٩٢٤م، كما أتذكر الآنسة اجنس سلاك (رئيسة جمعية منع شرب المسكرات بانجلترا) حين جاءت في عام ١٩٢٩م، ومكثت معنا لمدة شهر تقريباً حيث أقامت أمي بعض الاجتماعات لتجعل أصدقاءها يوقعون على العهد (وهو وعد بعدم شرب المسكرات) أما أبي فكان يرفض حضور مثل هذه الاجتماعات، وكان يتسلل من المنزل ليتناول شرابه في النادي أو في مكان آخر، وكانت الاسرة لا تقدم الخمر على الغذاء أو العشاء باستثناء حفلات العشاء الرسمية التي ينظمها والدانا حيث لا يتم مطلقاً دعوة أي من الأطفال، وانا لا أدري إن كانت أمي قد وقعت على العهد أم لا ؟، لكن أعرف أن هذا لم يكن صعباً بالنسبة لها لأنها كانت لا تحب الشراب على أي حال، باستثناء القليل من الكونياك من آن لآخر حيث كانت تقول إنه لأغراض طبية.

* * *

يوجد الكثير من المطاعم في الاسكندرية، وكان أفضلها "اليونيون" Union في طريق صغير في مواجهة البورصة في ميدان محمد علي، وكان يمتلكه يونانيان، وهما طباخ درجة أولى واخوه كبير الخدم، وكانا يقدمان أفضل الاطباق الفرنسية، وكانا يمتلكان أفضل قبو للخمور في الاسكندرية وكان يوجد بار صغير في آخر المطعم، وفناء خارج المطعم حيث تستطيع أن تجلس على الرصيف وتتناول المحار (الاسترديه) والجندوفلي والتي يبيعها صياد عجوز وتتناول المزّة مع مشروباتك من المطعم، وقد كان هذا المطعم من الأماكن المُفضلة لأبي حيث يلتقي فيه مع بعض الأصدقاء مثل نجيب باشا الهلالي وهو آخر رئيس وزراء قبل الثورة والدكتور عبد السيد باشا الطبيب السكندري المشهور الذي كان يتناول "واحد ويسكي" كل ليلة.وكان يوجد به نادل (جرسون) يوناني اسمه خريستو، وكان لديه هاجس يستحوذ على تفكيره وهو أنه يعرف مكان قبر الأسكندر الأكبر، وكان عدد كبير من الكتّاب القدماء قد ذكروا أن قبر الإسكندر بما فيه من ثروات يقع في الاسكندرية في منطقة على مساحة كيلو متر مربع في منتصف المدينة ليس بعيداً عن الميناء الشرقية، وقد استطاع خريستو أن يقنع الكثير من زبائن المطعم بأن يدعموه مادياً بل استطاع أيضاً أن يلفت انتباه حسين باشا صبحي رئيس البلدية الذي كان يؤمن بنظرياته، ومن ثم فإنه من حين لآخر كان يتم إغلاق أحد الطرق لأن خريستو قد قرر أن تلك المنطقة أو غيرها يجب أن تُنقب، حيث ان الاسكندرية الجديدة تغطي الاسكندرية القديمة.

* * *

عبد الخالق باشا حسونه محافظ الاسكندرية يتحدث الى فهمي بك ويصا



أصبح بعد ذلك حسونه باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية لعدة سنوات

بدأ بسترودس المطعم الشهير كمخبز، وتم توسيعه بصالة شاي وبجوارها بار يقدم مزة جيدة، ثم أصبح مطعم وملهى ليلي، وكان يرتاده الأسايطة حين يأتون إلى الاسكندرية في الأجازة الصيفية، وجزء منه كان يشبه المقهي الفرنسي بترابيزاته على الرصيف العريض أمام موقف السيارات، وكان يقع في شارع فؤاد، فكان من السهل أن تصل منه إلى أفضل دور العرض السينمائية، وكان يديره مالكه الظريف "مستر بسترودس"، وكنت أعرفه في الثلاثينات والأربعينات كيوناني طويل وسيم ذي شعر فضي وكانت تساعده زوجته الجميلة التي استمرت بمفردها في إدارة المطعم بعد وفاته، وكان مكاناً مفضلاً لأهالي القاهرة الذين يأتون اليه بعد السباقات ويناقشون ما حدث للخيول أو أولئك الذين يرغبون في تناول شراب قبل الغذاء أو يتناولون وجبة خفيفة قبل الذهاب إلى السينما، واحدى مُميزات هذا المطعم أنه كان يوجد دائماً مكان لإيقاف السيارة، ويجب أن نلاحظ أن موقف السيارات الحالي قد تم توسيعه بعد ازالة هضبة رملية مرتفعة تُسمى كوم الدكة، التي كانت تغطي جزءاً كبيراً من الاسكندرية القديمة المدفونة تحتها، وعند إزالتها في الستينيات للتنقيب تحتها، استطاعت بعثة بولندية أن تكتشف المسرح الروماني القديم الذي يواجه بسترودس اليوم وهو أحد مزارات الاسكندرية الأثرية الهامة الآن.

* * *

كثيرون ممن كانوا يخرجون من دور العرض السينمائية ويشعرون بالجوع ولا يريدون أن ينفقوا كثيراً كانوا يستطيعون أن يتناولوا سندوتش فول في محل فول يمتلكه شخص اسمه "بنيامين" (محمد أحمد حالياً) وذلك مقابل قرش واحد، وكان يقع أمام سينما ماجستيك في شارع سعد زغلول، وكان يقال ان الباشا يتناول الفول في الإفطار والعامل يتناوله في الغذاء والحمار يتناوله في العشاء، وانا أذكر هذا لأني أريد أن أقص عليكم قصة طريفة سمعتها عن بنيامين، فيبدو أنه حين بدأ حياته التجارية كان يبيع سندوتشات فول على عربة يد امام البنك الأهلي المصري فكوّن بهذه الطريقة تجارة مزدهرة لأن كل موظفي البنك كانوا يتناولون سندوتش فول كإفطار قبل أن يدخلوا إلى عملهم، وربما يتناولون سندوتش آخر وقت الغذاء، وحين رأى أحد أصدقائه ان عمله يدر عليه دخلاً كثيراً فكّر في أن يطلب منه قرضاً ومن ثم ذهب اليه قائلا:

" لقد ساعدك الله يا بنيامين، واتمنى أن تساعدني انت بدورك ".

فسأله بنيامين: " كيف استطيع أن أفعل هذا؟ "

فقال له: " بأن تقرضني خمسة جنيهات".

فأجاب بنيامين: " كم كنت أتمنى هذا، لكني لا أستطيع ".

وسأله صديقه: " ولم لا؟ "

فأجاب بنيامين: " لأنى قد عقدت اتفاقاً مع البنك الأهلى ".

فسأله صديقه: " أى نوع من الإتفاقات يمكن أن تعقدها مع البنك الأهلى؟ "

فأجابه بنيامين: "اتفقت معه على ألا أقرض مالاً لأي أحد في مقابل ألا يبيع البنك سندوتشات فول".

الأم حاملة المسدس

الآن سأقص عليكم حكاية صغيرة حدثت في الاسكندرية وهي تتعلق بعمتي زكيه أرملة " شاكر تادرس خياط "، وقد مات زوجها وهو مازال شاباً، وتُركت هي لرعاية بناتها، ولقد تزوجت أكبرهن واسمها ويني من البرت خياط وهو ابن جورج خياط أحد الوفديين البارزين في ثورة ١٩١٩م مما أدى إلى اعتقاله من قِبل البريطانيين، وكانت ويني ستلد طفلها الثاني في عام ١٩٣٢م في البيت، مثلما كان يفعل معظم الناس في تلك الأيام، وكان يشرف على ولادتها طبيب أمراض نساء سكندري معروف، ويبدو أنها كانت تعاني بعض الصعوبة في ولادتها لأنها كانت تعاني من التشنج أثناء الحمل فخشى الدكتور ألا تستطيع أن تجتاز هذه المحنة، واخبر عمتي انه سيذهب لإحضار بعض الدواء، أما عمتي زكية فلأنها خافت ألا يرجع سحبت مسدساً ووقفت أمامه قائلة " عليك أن تستمر في عملك وستمكث معنا وتساعد ابنتي في ولادة طفلها واذا ماتت فستموت أنت ايضا " فأُجبر الطبيب المسكين على البقاء، وولدت ويني ولدا واسموه شاكر على اسم جده، وشاكر خياط يعيش في ولاية كونيكتيكوت Connecticut في الولايات المتحدة وتزوج من فتاة أمريكية جميلة اسمها أديث يونجلينج، ونعرفها جميعا باسم كريكت، ولديها أربعة أبناء كبار منهم ثلاثة فتيات وولد، وشاكر رجل أعمال كبير الآن مرتبط وفخور للغاية بنسبه المصري.

* * *

كان منزلنا في الصيف مشغولاً بالكامل، أما في الشتاء فيكون المنزل خالياً تقريباً، وفي عام ١٩٢٨ او ١٩٢٩م عاد فيكتور ويصا ابن زكي ويصا من أكسفورد ليقضي الشتاء معنا لأن والديه أغلقا منزلهما وعادا إلى أسيوط وكان يتدرب عند أحد سماسرة القطن في مينا البصل لأنه سيذهب بعد ذلك للمساعدة في ادارة محلج القطن التابع لأبيه في بني قُرّة في الصعيد، وكان معتاداً أن يخرج في السابعة صباحاً قبل أن تستيقظ أمي ويعود بعد الظهر في حوالي الساعة الرابعة، فيخلد للنوم لفترة ثم يخرج في الساعة الثامنة مساءً ليسترسل في المرح الصاخب، وكان معتاداً أن يقول أن جيوفانا الوصيفة الايطالية لأمي كانت تأتي وتغني تحت نافذته وحين اشتكى لها قالت له أنها معتادة

أن تغني حين تكون حزينة فتساءل ماذا عساه ان يفعل من اجل اسعادها ليسكتها عن الغناء، وفي أحد الأيام قابل أمي حين كان خارجاً فقالت له: " يا فيكتور إن أباك وأمك ليسا هنا، لذا يجب عليك أن تأتي لتعيش معنا " فأجابها: " إستر يا ابنة عمتي أنا أعيش معكم في البيت منذ ستة أشهر".

حين كنا نذهب إلى السينما في المساء كنا نحجز صفين لأننا كنا كثيرين، حيث ان الاصدقاء والاقارب يأتون في المساء لتناول وجبة خفيفة ثم بعد ذلك نذهب إلى السينما، وفي احدى هذه المناسبات وأثناء الاستراحة استدارت أمي ورأت أخي عدلي الذي لم يتمكن من الحصول على مقعد في الصف الذي خلفها بل حجز مقعداً بعيداً في الخلف، فنظرت اليه وقالت لنا: " يبدو انني رأيت هذا الوجه من قبل " وانا لا أدري ان كانت تمزح أم أن هذا مجرد شرود ذهن، وكانت أمي لها روح دعابة غريبة لأنها كانت تضحك على الجزء غير المضحك في النكتة، وفي بعض الأحيان كانت تقول أشياء وتعتقد أنها مُضحكة مع أنه قد لا يوجد أحد يراها كذلك.

الليلة التي قَطعتُ فيها رأسه

وقعت هذه الحادثة العجيبة لي في عام ١٩٤٣م حيث كثير من الشبان المقيمين في الاسكندرية الذين أرادوا أن يساعدوا في المجهود الحربي كانوا قد شكلوا وحدة إسعاف تابعة للصليب الأحمر البريطاني، وجمعية سان جون وكانت تُعرف باسم وحدة اسعاف الاسكندرية التطوعية، وكنا نرتدي زياً رسمياً، وكان قائدنا هو "دوري سفاستوبولو" وهو يوناني مصري كان أبوه رئيساً لمجلس ادارة شركة التأمين الأهلية المصرية، وكان مقرنا بجوار المبنى الذي كانت تشغله المتطوعات الاجنبيات، في أول شارع فؤاد، وكان يوجد موقف سيارات مشترك مع قائدي سيارات الإسعاف من الفتيات الانجليزيات اللاتي قدمن إلى مصر كمتطوعات، وأحضرن معهن سيارات الإسعاف التي تبرعن بها، وكانت الوحدة تسمى فريق النقل بالمركبات Motor Transport Corps وكان الصليب الأحمر البريطاني قد أمدنا بسيارات الإسعاف، وكانت مسئولية العناية بها وصيانتها تقع على كاهل الجيش البريطاني.

كان لكل فرد منا أيام معينة من الاسبوع للخدمة العامة، والباقي كان تحت الاستدعاء أثناء الغارات والطوارئ، وكنا نُمنح تصريحاً يمكننا من التحرك أثناء الغارات الجوية كما تلوّن دائرة حمراء صغيرة في منتصف مصابيح السيارة الملونة باللون الأزرق التي تشير إلى أنه يمكننا التحرك بحرية في كل الأوقات، في احدى الأمسيات تم استدعائي أثناء احدى الغارات الجوية، وكان القمر بدراً، ومع أن الأنوار كانت مطفأة بالكامل في ذلك الوقت، إلا أنه كان يمكنك أن تقود سيارتك بسهولة وترى الأشياء بوضوح، وفي

تلك اللحظة لم أكن مسرعاً بالسيارة، وامام نقطة شرطة الإبراهيمية على طريق ابي قير رأيت فجأة رجلاً امام السيارة فضغطت على الفرامل ولكنني لمسته فقط فوقع أمام السيارة فخرجت ووضعت يدي على رفرف السيارة الذي كان مغطى بدم ساخن لزج، وكان جسده ممدداً على الأرض أمام العجلات، لكن رأسه كانت على بعد متر تقريباً منه، ولم استطع أن أصدق عيني، لقد فصلت رأسه عن جسده وبدأ الناس في التجمع، من حيث لا أدري فاتجهت إلى قسم الشرطة فوجدت ضابطاً يسير في اتجاهي فأخبرته عن اسمي وانني قد صدمت رجل وفصلت رأسه، فاقترب من السيارة، ونظر إلى الرجل بأسفل وصرخ فيه قائلاً: "انهض يا ابن الـ ..." فوقف الرجل فأكمل الضابط كلامه "ألا تدري انه يمكننا القاء القبض عليك لتجولك أثناء الغارة الجوية، ماذا كنت تفعل أثناء تسكعك في الشوارع؟ " فأجاب الرجل " لقد خرجت لأشتري بعض العشاء لي ولأولادي، وكنت عائداً بطبق شوربة عدس لهم " وعندئذ أدركت أن الدم الذي كان على رفرف العربة لم يكن إلا شوربة عدس ساخنة لزجة وان الرأس التي رأيتها على ضوء القمر لم تكن إلا سلطانية مقلوبة فتنفست الصعداء واعطيت الرجل جنيهاً يستطيع أن يشتري به عشرين سلطانية شوربة عدس في تلك الأيام، فمضى وهو يدعو لي ورجع ليشتري المزيد من العدس لعشائه، أما أنا فأكملت قيادتي إلى وحدة الإسعاف.

حكاية أخرى حدثت لأحد السائقين في وحدتنا كان لا يعرف كثيراً من الإنجليزية، لكنه كان يتحدث الفرنسية بطلاقة ووقائعها كالآتي : كان يقود سيارة إسعاف حاملا أربعة من الهنود المصابين تم نقلهم من احدى السفن الحربية في الميناء، وكان من المفروض أن يقود سيارة الاسعاف ببطء في قافلة مع سيارات الإسعاف الأخرى في طريقها إلى مستشفي في البوصيلي، وهي قرية صيد صغيرة بين أبي قير ورشيد حيث كان سيودع مرضاه وحين كانوا على بعد سبعة أو ثمانية كيلومترات من وجهتهم رن الجرس في كابينته مشيراً إلى أن أحد المرضى يريد شيئاً ما فأوقف السيارة وفتح المؤخرة وسأل ان كان يريد أحد أي شئ فصرخ أحد الهنود قائلا "(Piss) I want peess I want peess" فأجابه السائق: "كلنا نريد السلام" وأغلق الباب بقوة واستمر في القيادة ولك ان تتخيل ما حدث للهندي المسكين.

* طريقة النطق لكلمة Piss بـ Peess جعل السائق يفهمها ان المقصود هو السلام Peace وليس قضاء الحاجة التي كان يعنيها الهندي بـ Piss.

الليلة التي قضاها في "بيت المجانين"

في صيف ١٩٤١م كان البيت مشغولاً عن آخره، ولايوجد أي سرير خال لأي أحد، وكنا نسميها الأسرة الموسيقية، وقد كانت خالتي جميلة وزوجها فيليب وطفلاها فريد وراجيا ومربيتهم الإنجليزية مس "بوكانان" كانوا جميعا يمكثون معنا، كذلك جاءت اختي دوسه من القاهرة مع صديقة لها اسمها ايفون لقضاء بضعة أسابيع من الأجازة في بيتنا، وكان معي صديق لي ابن الأميرة حرم النبيل عباس حليم من زوجها الأول وكان يقضي معي الأجازة الصيفية أثناء وجود والدته في أوروبا، وكان أبي سيذهب إلى القاهرة في أول قطار في الصباح التالي لأنه كان عليه أن يحضر جلسة هامة في مجلس الشيوخ، وكان فيليب وجميل يتناولان العشاء بالخارج، وقد وصلت ايفون البيت عند منتصف الليل تقريباً يرافقها ضابط بريطاني يعمل كمراسل حربي، وبمجرد أن وصلا رنت سارينة الغارة الجوية، فتوقف المرور عندئذ (الترام والتاكسي)، ومن ثم صعدت إيفون إلى دوسه وسألتها ان كان من الممكن أن توّفر وسادتين وبطانية للضابط الشاب حيث إنه كان مضطراً إلى قضاء الليلة في الصالة بأسفل، وكما ذكرت سابقا فقد كان أبي نادرا ما ينام بل اعتاد على أن يتجول في المنزل طوال الليل، وكان دائما يظل بالدور السفلي من المنزل وقت الغارات الجوية ويجلس تحت الجزء المسقوف من الشرفة في مواجهة باب الحديقة الرئيسي لأنه كان يكره أن يُحبس في البيت أثناء الغارات بل يفضل أن يشاهد الأضواء الكاشفة والرصاص الخطاط (رصاص يحتوي على مركب كيميائي لتبيين خط انطلاق القذيفة بواسطة ذيل من الدخان) الذي يمكن رؤيته على بُعد اثنى عشر كيلو متراً في الميناء.

حين دخلت ايفون إلى البيت مع صديقها الضابط اعتقد أبي أنها جاءت به إلى البيت لحيلة ما فصرخ بالعربية في أمي قائلاً: " يا إستر إلى ماذا حولت هذا البيت؟ أنا لا أقبل أن ينام الغرباء هنا " فأجابته إستر: " لا تقلق يا فهمي فإن الشخص المسكين سينام في الصالة تحت " وانزلت له وسادتين وبطانية وكان مراسلنا الحربي يفهم العربية، انقضت هذه الغارة الجوية بعد الرابعة والنصف صباحاً، وعاد جميل إلى البيت أولاً من الباب الأمامي الذي كان مفتوحاً، ومر أمام أبي الذي كان في الشرفة، واستيقظ الضابط وقدّم نفسه وأخبره عن سبب وجوده هناك، واستيقظ ثانية، واعاد نفس القصة حين عاد فيليب بعد ربع ساعة، ولقد كان أبي يطوف كعادته حول المنزل في الليل ويدخل الشرفة ويخرج منها، وربما كانت تساوره الشكوك، وكان يريد أن يتأكد من أن الضابط لا يزال في مكانه ولم يتسلل إلى فوق، وحوالي الساعة الخامسة صعد أبي إلى فوق ليحلق ذقنه ويأخذ حمّامه ويرتدي ثيابه، وأتي خادمه الخاص ليساعده وبدأ الخدم في التوافد ليعدوا الإفطار لأبي الذي غادر المنزل بعد برهة في حوالي السادسة والربع شاعراً بالاطمئنان أنه قد تم الحفاظ على الأخلاق في المنزل، أما أنا فنزلت في السابعة والنصف لأتناول الإفطار لأصل إلى عملي في الثامنة والنصف، وبينما كنت نازلاً على درجات السلم رأيت شخصاً جالساً

على كرسي ذي ذراعين في الصالة واعتقدت انه صديقي مدحت، لكن لم استطع أن أفهم كيف وصل هناك حيث إني قد تركته نائماً، وحين اقتربت منه وقف الرجل وقدّم نفسه وروى قصته وسبب وجوده بالمنزل، وسألني ألا ينام أحد في هذا البيت؟ فاصطحبته إلى حجرة الطعام وقدمت له افطاراً جيداً واخذته معي إلى المدينة، وفي اليوم التالي انتشرت الحكاية في كل المدينة عن الضابط الذي قضى ليلة في "بيت المجانين".

حين استولى الألمان على الاسكندرية

في واحدة من ليالي مايو ١٩٤٢م تلقى أبي مكالمة تليفونية من الوزارة في القاهرة تخبره أنه على الأسرة أن ترحل إلى القاهرة على الفور لأنه يجب إخلاء الاسكندرية حيث كان الانجليز يفكرون في تفجير الكباري في الدلتا ليوقفوا تقدم الألمان الذين كانوا وصلوا العلمين تقريباً، ولا يبدو أنه يمكن أن يوقفهم أي شئ، فجمع أبي وأمي الأسرة في سيارتين وقررا أن يسافروا إلى القاهرة في تلك الليلة، وفي ذلك الوقت كنت أعمل في شركة أقطان بريطانية في الاسكندرية، بالإضافة إلى قيادة سيارات الإسعاف اذا احتاجوا اليّ فقلت لهم انني لا اعتقد أن الألمان يستطيعون الاختراق، وان شركتنا لم تكن عازمة على الإغلاق، ومن ثم فلا أنوي الرحيل، واقترحت أن يحصل لي أبي على تصريح بأربعة إطارات جديدة حيث أن إطارات سيارتي قد تلفت بالفعل، وهذا يمكنني من الفرار في حالة إخلاء الاسكندرية وبالفعل وعد أبي بارسال تصريح لشراء اطارات بمجرد أن يصلوا إلى القاهرة فودعاني وتمنيا لي التوفيق قائلين: "سنترك مساعد طباخ وأحد خدم البيت (السفرجية) والجنايني والبواب والغسالة".

في هذه الأيام وروميل على مشارف الاسكندرية كانت الاسكندرية خالية، ومرتبكة وشوارعها خاوية، المحلات والمطاعم لا أحد بها والاسكندرية التي كانت في وقت ما تعج بالجنود والضباط هُجرت الآن، ومن ثم يستطيع المرء أن يختار الفتيات الجميلات في الاسكندرية اللاتي لم يغادرنها، وكلهن في الانتظار لتصحبهن للعشاء في حين أنه قبل ذلك كانت توجد منافسة شديدة بيننا نحن المواطنين المساكين الذين لا فرصة لنا في النجاح وبين الضباط الانجليز، وفي أحد الأيام استدعتني وحدة الإسعاف، وطلبت مني أن أسلم سيارة اسعاف إلى السفارة البريطانية في القاهرة، وكان الكثير من أعضاء الوحدة قد غادروا إلى السودان لأنهم خافوا من أن تقع الاسكندرية في يد الألمان، أما أنا فاستلمت سيارة الإسعاف وانطلقت على الطريق الزراعي إلى القاهرة وغادرت الاسكندرية في الخامسة صباحاً، ووصلت إلى القاهرة حوالي العاشرة وبمجرد أن سلّمت سيارة الإسعاف فكرت في الذهاب لرؤية والديّ اللذين كانا يعيشان في ذهبية على النيل ووجدت أمي في البيت فاستقبلتني بلهفة قائلة: " كيف وصلت إلى هنا " فأجبتها: "على الطريق الزراعي".

فسألتني: "ولكن كيف تجاوزت الألمان ؟ "

فقلت لها: "أي ألمان؟"

فقالت: "الألمان الذين استولوا على الاسكندرية بالأمس".

قلت :"الألمان لم يستولوا على الاسكندرية " ولكنها أصرت قائلة: " بل استولوا عليها لأن عبد الفتاح باشا يحيى اتصل ببيته في الرمل فرد عليه واحد من الألمان، لذا فلن تستطيع أن تعود إلى الاسكندرية ".

ومن ناحيتي أكدت لها أنه لايوجد ألمان في الاسكندرية لأن الجنود الوحيدين الذين كانوا في الاسكندرية للاثنتي عشرة ساعة الأخيرة هم الأستراليون الذين نزلوا من السفينة واتجهوا مباشرة إلى الجبهة بأسلحتهم، أما أهالي الاسكندرية فحين رأوا الأستراليين فرحوا جداً وقالوا: " الآن بعد مجئ الأستراليين فان الأمور ستكون على ما يرام لأنهم يعرفون كيف يقاتلون".

إلا أن أمي كانت لا تزال مُصرّة على عدم عودتي إلى الاسكندرية لأنها كانت متأكدة من صحة إشاعة وجود الألمان هناك، ومع هذا فقد عدت بالقطار الذي استغرق أربعاً وعشرين ساعة، وحين وصلت إلى هناك في النهاية لم أجد أثراً لألمان، وكانت الإشاعة قد بدأت حين اتصل عبد الفتاح باشا يحيى تليفونيا ببيته في الاسكندرية ورد عليه أحد الألمان، والحكاية هي أن عبد الفتاح باشا يحيى كان يمتلك بيتاً من طابق واحد في مرسى مطروح أو في مكان آخر قرب الحدود وحيث إنه كان وزيراً للمواصلات، فقد كان له خط تليفون متصل بين بيته في الاسكندرية والبيت الآخر الذي كان يقع عندئذ خلف خطوط الألمان، وبطريقة ما تُرك خط التليفون متصلاً بالبيت الآخر بدلا من الاسكندرية، لذا فحين اتصل عبد الفتاح باشا ببيته في الاسكندرية أجابه ألماني من البيت الآخر.

الترفيه

كان صيد الأسماك إحدى هواياتي حين أكون في الاسكندرية لاسيما بعد زواجي، وكنا نصطاد السمك عند كوبري في ادكو في منتصف الطريق إلى رشيد، وهذا المكان كان عبارة عن ممر مائي يصل بحيرة ادكو بالبحر المتوسط طالما أن مدخل الشاطئ لم يكن مسدوداً بالرمال، وعندما تكون المياه داخلة إلى البحيرة، كان يوجد الكثير من السمك للصيد لاسيما أبو نقطة، وكان يوجد أيضا أصناف مهاجرة من السمك مثل الثعابين التي تأتي كل عام لتتكاثر في مياه البحيرة، وفي احدى المرات فوجئنا بوجود هولنديين يرتدون القباقيب ويسيرون على الطريق، وحين استطلعنا الأمر قيل لنا إنها شركة هولندية جاءت لصيد الثعابين وتقوم بتدخينها في مصر ثم بعدئذ تصدرها إلى هولندا، وكنا أيضا نذهب للصيد في نادي الصيد والرماية في السلسلة قبل أن يقيم الروس في

المنطقة محطة رادار، وكنا نجلس ونصطاد حتى منتصف الليل، ونتناول مشروباتنا ووجباتنا الخفيفة من النادي أثناء صيدنا، أما في أيام السبوت والآحاد أثناء الصيف فكان يوجد مسابقة رماية على أطباق طائرة في النادي على البحر وكنا نُسميها التيرو، وعليها مراهنة، ولقد كان من الممتع أن تتناول عشاءك وتشتري تذكرة للمراهنة.

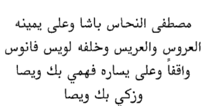
لم يكن من الممكن أن أكتب عن المنزل الذي فوق التل دون أن أذكر حفلات الزفاف التي أقيمت فيه، حين كنّا أطفال قررت أختي دوسه وتوتو شقيقة فايلي أن نلعب لعبة الزفاف وتم اختياري انا وفايلي كعريس وعروسه (تمت رِشوة فايلي بطقم شاي صغير لعروستها لتقبل)، وارتدينا ثياب العريس والعروسة، وكان ذيل العروسة عبارة عن شبكة ناموسية، وكانت دوسة تلعب دور الكاهن وتوتو أم العروسة أما عدلي فقد كان الشاهد، وأقمنا حفل استقبال في الحديقة مع بعض من الأقارب يلعبون دور الضيوف، وقد أعدّ الطاهي بعض السندوتشات وعصير الليمون وكعكة فواكه، وقد كان من المفروض أن نعيش في هناء للأبد بعد ذلك!

بعد هذا أجريت خمس حفلات زفاف في المنزل والحديقة وهي زواج اختي دوسه في عام ١٩٤٣م وزفافنا في عام ١٩٤٧م، وزفاف أختي سعادات في عام ١٩٥٧م، وأخي عدلي في عام ١٩٦٢م، وزفاف ابنتنا شهيرة في عام ١٩٧٨م، وقد أقيمت جميعها في الليل في الحديقة التي كانت ملائمة تماماً لحفلات الزفاف، هذا وقد تم إعداد أرضية رقص في الحديقة قد استأجرناها لبعض الوقت من نادي اليخت البريطاني الذي يقع عند الميناء، وفيما بعد حين لم نكن قادرين على استئجار الأرضية أنشأت أرضية خاصة بنا وهي كانت عبارة عن أرضية رقص باركيه مساحتها ١٦ متراً مربعاً مقسمة إلى ثمانية أجزاء كل منها مساحته متران مربعان، ومن ثم يمكن أن يتم وضعها كأرضية رقص واحدة كبيرة أو أرضيات صغيرة في أجزاء مختلفة من الحديقة، وفي كل هذه الحفلات كانت الحديقة تزين بالأضواء الملونة في الشجيرات والأشجار مما يكسبها مظهراً كإنما نعيش في دنيا الخيال، وكان طُهاة العائلة يعدّون كل الأطعمة، لأنها من عادة الطهاة في مصر أن يساعدوا بعضهم بعضاً في إعداد البوفيهات المفتوحة في حفلات الزفاف أو ما شابهها من المناسبات على أن يمنحهم رب البيت بقشيشاً سخياً، لكنهم يعتبرون أنفسهم يقدمون المساعدة لطاهي المضيف، وحتى ان كان الطاهي الزائر أفضل فإنه يُعتبر دائماً ضيفاً مساعداً لأنه نوع من اتيكيت الطهاة بينهم وبين أنفسهم لكننا كنا نطلب فقط تورتة الزفاف من صالة شاي شهيرة وهي كانت دائما عبارة عن تورتة غنية بالفواكه مغطاه بعجينة لوز مبشور وعليها طبقة من السكر الأبيض المُزين . (Royal Iceing)



حفلة زفاف بالبيت على التل
في ٧ يوليو ١٩٤٧ تم زفاف حنا ويصا
على الآنسة فايلي زكي ويصا





مصطفى النحاس باشا وعلى يمينه
العروس والعريس وخلفه لويس فانوس
واقفاً وعلى يساره فهمي بك ويصا
وزكي بك ويصا

نخبة من السياسيين في جزء من الحديقة تتضمن مصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد باشا الذين تحولوا من أصدقاء الى منافسين



من اليمين الى اليسار : زكي بك ويصا (والد العروس)، فهمي بك ويصا (والد العريس)، السيدة استر فهمي ويصا (والدة العريس)، مصطفى النحاس باشا وخلفه لويس فانوس عضو مجلس الشيوخ ثم فايلي زكي ويصا (العروس)، حنا فهمي ويصا (العريس)، والسيدة شفيقة (والدة العروس)



الصورة من اليسار : أديب توفيق ، أمين بقطر، فهمي بك ويصا جالساً، دكتور لبيب بولس وخلفه صموئيل شنودة عمدة أسيوط ولويس فانوس وأمامه ايليا شنودة أخو عمدة أسيوط، مكرم عبيد باشا بزي السهرة الرسمي

كان حفل زفاف دوسه أول حفل يقام في الحديقة في ٨ أغسطس ١٩٤٣م، وانا أعرف هذا التاريخ لأن صديقا اتصل بي يوم ٨ أغسطس ١٩٩٣م وقال لي أن زفاف دوسه ذكر في مجلة أكتوبر الأسبوعية التي تُخصص مقالا في كل أسبوع لما حدث منذ خمسين سنه مضت وقد كان نص المقطع الصغير كما يلي:

احتفل وزير الوقاية فهمي بك ويصا بزواج ابنته فردوس (دوسا) من كابتن ستانلي كايزر وهو ضابط في الجيش البريطاني سليل عائلة بريطانية مشهورة، وقد كان الحفل مقصوراً على الأسرتين فقط لأن خالة مدام فهمي ويصا (السيدة رجينا حبيب خياط) قد توفيت منذ فترة قليلة وفي المساء أقيم حفل عشاء في حديقة فهمي بك ويصا لأصدقاء وزملاء العريس حيث أكلوا وشربوا ورقصوا على ضوء القمر، واستمعوا في بعض الأحيان للموسيقى الهادئة، هذا وقد كانت الليدي كيلرن زوجة السفير البريطاني قد افتتحت البوفيه مع العروس والعريس، والعروس هي الابنة الكبرى لفهمي بك، وكانت قد التحقت بمدرسة في انجلترا لعدة أعوام، وقد قابلت عريسها في القاهرة منذ عامين مضيا. (أنظر الصورة).

ولكي لا أكرر الكلام سأصف الآن زواجنا فقط بالتفاصيل.

تزوجت انا وفايلي في ٧ يوليو ١٩٤٧ وتزوجنا بسرعة لأننا كنا نريد أن نذهب إلى أوروبا قبل ١٥ يوليو لأنه في ذلك التاريخ كانت مصر ستترك منطقة الجنيه الإسترليني لأن وزير المالية الجديد درويش كان يرى أنه من الأفضل أن تنفصل مصر عن بريطانيا، ولم نكن نعرف بالضبط نوع النقود التي سيسمح لنا باستخدامها بموجب القوانين الجديدة، في حين أنه قبل ذلك التاريخ كان بامكاننا الحصول على خطاب اعتماد لكل احتياجاتنا بالاسترليني، وقد كان زفافنا حدثاً هاماً لانني كنت أول ولد لأبي يتزوج، ومع أنه كان يشُك فيَّ كزوج صالح، إلا أن الأسرة بذلت قصارى جهدها لتجعله زفافاً رائعاً، فدعا أبي كل أصدقائه السياسيين ودعت أمي كل صديقاتها، وقد كان كل فرد من الأسرتين لديه قائمة خاصة به من الدعوات، لذا فقد حضر مايزيد على خمسمائة ضيف بما فيهم النحاس باشا ومكرم عبيد باشا على الرغم من حقيقة كونهما خصمين سياسيين شديدين، مع انهما كانا صديقين حميمين ذات مرة، ومع هذا فقد كان المناخ العام جميلاً في كل مكان لأن الحديقة كانت كبيرة لتتسع للجميع، هذا وقد تركت انا وفايلي الحفل في حوالي الحادية عشرة والنصف قبل أن تصل المطربات والراقصات المحترفات اللاتي قدمن عرضاً استمر حتى الساعات الأولى من الصباح، وكنا قد افتتحنا البوفيه وقطعنا التورته، ورقصنا لفترة قصيرة ثم غادرنا المكان، أما أولئك الذين كانوا يحبّون الرقص فقد استمروا في الرقص على أنغام فرقة الجاز على جزء من أرضية الرقص في أحد أركان الحديقة بعيداً عن منطقة الحفل الرئيسية على العُشب حيث أقيم مسرح على بقية الأرضية.

كانت التقاليد تجبر سيارة العروس على السير في الطرق المتجهة لليمين فقط في الطريق إلى الكنيسة والعودة، على ان يتجنب أي منعطف جهة اليسار لكنه كان من الصعب في بعض الأوقات أن تفعل هذا، وكان على المرء أن يتدرب مسبقاً على الطريق الدقيق الذى سيسلكه، وقد كان هذا معتقداً خرافياً يشير إلى الأمل في أن يسير كل شئ على نحو صحيح بالنسبه للعروسين طوال حياتهما، هذا وقد إستغرق موكب فايلي بعض الوقت في إيجاد

الطريق الصحيح إلى الكنيسه، بينما كنت أنا منتظراً مع شقيقى جميل الشاهد في الكنيسه أعُض أظافري، والآن سأذكر فقط زفاف إبنتى شهيره.

لقد حاولت أن أقيم لها حفل زفاف كبيراً تماماً مثل الذي أقامه لي والدي إلا أنه كان أكثر صعوبه في عام ١٩٧٨م نظراً لانقطاع الكهرباء باستمرار، مما كان يُهدد بإفساد الحفل في الكنيسة أو في الحديقة، وقد تغلّبت على هذه المشكلة بأن اتفقت بإحضار مولّد خاص إلى الكنيسه وآخر إلى الحديقة، ويشرُف عليهما عمّال كهرباء بإذن رسمي من شركة الكهرباء، وقد استمر الزفاف بلا توقف، ورقص المدعوون حتى الساعات الأولى من الصباح، وقد حاول الجميع بأن يجعلوه حفلاً ناجحاً تماماً لأنه كان يذكرهم بالأيام الخوالي، الفرق بين زفاف شهيرة وزفافنا هو اننا كنا قد غادرنا مبكراً في زفافنا، لكن في زفافها بقيت حتى النهاية.

حتى الآن قد ذكرت القليل عن البدروم في البيت مع أني تحدثت كثيراً عن الأدوار العليا، لقد سمي بيت المجانين بسبب ما كان يحدث في الأدوار العليا، ولكن أسمته المربيات "بيت الحرية" و"منزل الكرم" بسبب ما رأين في البدروم، لذا أود أن أذكر قليلاً مما كان يحدث في الدور الأسفل الذي كان ظاهرياً تحت السيطرة في أيام أبي، لكن هذه السيطرة خفّت مع مرور الوقت، وسأركز على شخصيتين: فاطمة الغسالة والشيخ مدين المقرئ الذي عيّنه أبي في عام ١٩٤٧م حين قرر التجول في سيارته طوال الليل، كانت فاطمة قد جاءت لنا في عام ١٩٣٨م بموجب الظروف التالية: مس بوتر التي كانت تعمل كضابط اتصال بين الفرع الدولي "لبيت الشابات" في جينيف وجمعية الشابات المسيحية في الاسكندرية اتصلت تليفونياً بأمي في إحدى الليالي واخبرتها بأن الشرطة قد أحضرت لتوها شابة يبدو عليها التخلف، وليس لها مكان تذهب اليه، وسألت مس بوتر أمي ما إذا كانت تستطيع أن تجد لها عملاً في بيتنا لأنها كانت لا تطلب راتباً كبيراً، بل مجرد سقف تأوى اليه وملابس وطعام وربما يمكن أن يتم تعليمها كيفية غسيل الملابس أو تنظيف الحمامات، أما أمي التي كانت متحمسة دائماً لفعل الخير، فقد قالت أنها ستأخذها وتجد لها شيئاً تعمله في البدروم لمساعدة الغسالة التي كانت تنام في الخارج، وتأتي ثلاث مرات أسبوعيا فقط (لم يكن يوجد غسالات كهربائية في تلك الأيام)، وسكنت فاطمة في حجرة كبيرة مساحتها أربعون متراً بأرضية من خشب الموسكي كنا نستعملها في شبابنا كحجرة للعب الشيش أو للدراسة.

كان الشيخ مدين مقرئ القرآن الخصوصي لأبي خلال السنوات الأخيرة من حياته حيث ان أبي كان يحب الاستماع إلى القرآن إن تمت تلاوته على نحو جيد، وحين توفي أبي قررنا الاحتفاظ بالشيخ مديّن، حيث طلب منا الاستمرار على أن يعمل بواباً وسايس ليغسل السيارات مقابل أجر بسيط، والعيش في

حجرة البواب عند مدخل المنزل، على أن نمدّه بالطعام وجلبابين كل عام، ويكون بهذا سعيداً راضياً، ولكنه اشترط فقط بأن يسمح له بتلاوة القرآن في حفلات الزفاف والمآتم ليحصل على القليل من المال الإضافي، وفي ذلك الوقت يجب علينا ألا نقلق لأنه سيجعل أخاه – حلاق الشارع – يعتني بالبوابة، فوافقت أمي، طوال أيام الأسبوع كان الشيخ مدين يلبس جلبابه العادي، ولكنه حين يمضي في مهمة رسمية كان يرتدي عباءة صوفية ورداءً حريرياً وعمامه على رأسه فيبدو شديد التأنق بهذا الملبس، أما أخوه حلاق الشارع فقد كان شخصية متميزة هو الآخر، وكانت له لحية مربعة بيضاء وشارب متدلٍ وقبعة قديمة مصنوعة من الخوص مثبتة بانحراف على رأسه، وكان يجلس على الرصيف خارج منزلنا ويحلق للمارين الذين يرغبون في الحلاقة مقابل قرشاً او اثنين، وربما كان يحصل على طعامه من البيت ويشارك حجرة الشيخ مدين عند البوابة في الليل دون أن يدري أحد ودون أن تهتم أمي التي كانت تدير المنزل بذلك لأنها لا تحب أن تضايق نفسها بهذه التفاهات.

في أحد الأيام أعلن الشيخ مدين أنه يريد أن يتزوج فاطمة، فسعدَت أمي للغاية بهذا، ولا أعتقد أن الشيخ مدين كان يهتم بالنساء، ولكنه كان يريد انسانة تغسل ملابسه، وتعد طعامه، وتعتني به، ولأنه كان أكثر راحة له أن ينتقل في حجرة الدراسة مع زوجته، وعاشا بالفعل في هذه الحجرة حتى ماتا كلاهما في الثمانينات، كان مدين لا يزال بوابنا الرسمي، لكن الغرفة التي عند البوابة كان يعيش فيها أخوه بطريقة غير رسمية، وكنا نراه يحدق من النافذة الصغيرة، ولكننا لم نعيّنه قط، ومع هذا كان يحرس البوابة كما لو كان يعمل عليها إلى وقت وفاته، ومع مرور الوقت وسّع الشيخ مدين نفوذه مع العالم الخارجي، وبدأ يعمل تعويذات، ولذا فقد كنا نرى في أحيان عديدة بعض الغرباء يأتون إلى بدروم المنزل، واذا سألناهم عما كانوا يفعلون كانوا يجيبوننا بأنهم قد أتوا ليروا الشيخ مدين ليحضر حفل زفاف أو مأتم، مع اننا كنا نعرف انهم قد أتوا ليحصلوا على تعويذة، وفي بعض الأحيان كنا نشعر اننا يجب ألا نكون هناك أو نسأل مثل هذا السؤال، وكان أخي جميل يعتقد أنه غير أمين، ولكني كنت احتمله لأني آمنت بأنه من الأفضل أن نتعامل مع مَنْ نعرفهم، فبمجرد أن تصنف الشخص على نحو صحيح فلن يصدر منه ما يفاجئك.

كان الشيخ مدين طيباً جداً معي فحين تعرضت لحادث سيارة في عام ١٩٧٩م، وكان عليّ أن أظل ستة أشهر على كرسي متحرك، وكان ينام أمام باب حجرة نومي ليساعدني في كل مرة أحتاج التحرك فيها، وهوالانسان الوحيد القادر على فعل هذا لأنه كان قوياً جداً، ومع هذا لم يشكُ مرة واحدة، أما فاطمة فقد أصبحت زوجة صالحة له تعتني به شاعرة أنها قد ارتقت في هذا العالم حيث إنها زوجة لشيخ محترم، وكانت دائما تناديه بعم الشيخ كدِلالة على الاحترام.

في أوائل الستينات شعر الخدم أنهم يحتاجون تليفزيون، وقد كانت فاطمة الخادمة الوحيدة التي لديها سيولة متوفرة حيث إن أمي كانت تدّخر راتبها منذ عام ١٩٣٨م فألح عليها الخدم وعلى مدين لتطلب نقودها لتشتري التليفزيون، وحين أخبرتُ أمي برغبة فاطمة قالت ماهذا إلا هراء فهي لا تحتاجه لأنه مجرد مضيعة للنقود، فأصبحت فاطمة أكثر إلحاحاً حين قال لها الخدم أن أمي لن تعطيها مستحقاتها أبداً، ومن ثم فقد قررنا أن نقنع أمي باعطائها المال الذي تحتاج اليه، فأصبحت حجرة الدراسة عندئذ صالونا تستضيف فاطمة ضيوفها فتعد الشاي للخدم، ويجلسون جميعاً لمشاهدة التليفزيون معاً.

أصبحت المنطقة المعلقة من الحديقة حيث كنا نزرع بعض النباتات منطقة خاصة بالبستاني (عم سالم)، وسُمح له بأن يعتني بحدائق الناس الآخرين، وكان كل من ابنه وحفيده يساعدانه بلا مقابل حين يحتاجهما، وكانا يأكلان مع الجميع ومارسا تجارة مزدهرة في بيع واستبدال النباتات، واذا جرأنا وسألنا أي غريب يطوف حول الحديقة فإن الإجابة التي نحصل عليها هي: "لقد أتي ليرى عم سالم البستاني".

لفترة من الوقت كانت أمي معتادة على الذهاب إلى نادي سبورتنج كل يوم عصراً لتناول الشاي ولعب البريدج وتأخذ زميلاتها معها، وتوصلهن في طريق عودتها، هذا وقد تم تعيينها عضواً فخرياً في النادي في عام ١٩٦٩م حين منحها الرئيس جمال عبد الناصر وسام الكمال عن عملها في ثورة ١٩١٩م، وكانت كذلك عضوة معروفة ومحبوبة ومحترمة، وبعد مرضها في عام ١٩٨١م توقفت عن الذهاب إلى النادي لأنها كان يجب أن يرافقها أحد باستمرار، فشعرت أن هذا شئ مهين لأنها كانت امرأة مستقلة ونشيطة للغاية طوال حياتها، لذا فلم تتحمل أن تُقيِّد، وقد قالت لزوجتي في أحد الأيام وهي واقفة على درجات السلم قبل أن تمرض "تعلمين أنه شئ فظيع أن يتقدم بك العمر"، وحين أصبحت طريحة الفراش تعتني بها الخادمات ليلاً ونهاراً قلّت درجة الانضباط في البيت، ولأن أخي كان قد توفى، فقد كان لزاماً علي أن اعتني بكل شئ، وأصبح الخدم لا يُطاقون، وكنت على وشك أن أطردهم، إلا أني كنت لا أريد إقلاق الوضع الراهن أو أزعج أمي بأية طريقة لذا تغاضيت عن أشياء كثيرة ما كنت لأحتملها تحت أي ظروف أخرى، وشعرت أنه "بيت الحرية" ولكنها أصبحت الآن حرية مفرطة، وكانت بقية الأسرة تنتقدني، وقلت إني قد تجاوزت عن أشياء ما كان لي أن أتغاضى عنها، لكني ما كنت لأجرؤ على ازعاج أمي بأية حال.

يوجد شئ واحد على المرء أن يعترف به ألا وهو أن المنزل الذي فوق التل حتى في أحلك لحظاته كان له سحره الخاص الذي نبع من شخصيات أولئك الذين أسسوه ووضعوا حبهم فيه وعاشوا فيه، والآن وبعد أن مات ساكنوه القدامى، أو تفرقوا في أرجاء الأرض لا يزال شامخاً على التل برغم وحدته.

حفلة استقبال لتشريف السيدة استر فهمي ويصا في نادي سبورتنج الرياضي بالاسكندرية





حيث مُنحت لها العضوية الشرفية مدى الحياة وذلك بمناسبة منحها ومنح أربع سيدات أخريات وسام الكمال من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٦٩ بمناسبة قيام ثورة ١٩١٩ التي مر عليها خمسون عاماً

توته توته خلصت الحدوتة، الا ان حدوتنا لا نهاية لها طالما أن نهر النيل لا يزال ينبع من الجنوب ماراً بأرض مصر في طريق تدفّقه إلى البحر المتوسط، وينحني الممثلون للمرة الأخيرة ويأتي غيرهم في المشهد، وأفعالهم تبدو أنها قد شوهدت من قبل، وهي تكرار لما حدث وتؤكد مرة أخرى القول المأثور: "إنه لا جديد تحت الشمس" وأن التاريخ يُبين أن الانسان لا يتعلم أبداً من التاريخ.

الكتاب الرابع – الخطابات

إلى صاحب السعادة	سابا باشا – الرمل
فيلد مارشال لورد اللنبى	يوليو ١٩٢٢
باكوس	

صاحب السعادة،

ترجو لجنة السيدات للوفد المصري أن تعرض أمام سيادتكم الآتي:–

تلقت الأمة المصرية لطمة قاسية أخرى عند القبض على أعضاء الوفد الذي تم اتهامهم بترويج منشور يُحرض على إثارة الفتنة ، ونحن لا نفهم حقاً كيف أثارك هذا المنشور وجعلك تُكوِّن رأياً فيه، ولكن هناك شيئاً واحداً نعرفه حق المعرفة، ألا وهو أننا نعيش زمناً يتسم بالترهيب وإخماد الحريات. مع الأخذ في الإعتبار الأوضاع الفعلية التي تمر بها مصر الآن تحت ظل الأحكام العرفية، والرقابة الشديدة على الصحف، والتجسس على الأفراد وكذا تقييد الحريات تماماً. ونحن بالفعل في حالة ضياع، فما العمل لمواجهة هذا الوضع..؟

ونحن نأسف يا صاحب السعادة لأنك مسئول عن هذا الوضع، وكونك جندياً عظيماً تعودت الإنتصار في الحروب المتكافئة.. لذا فإننا نستطيع أن نتفهم تماماً ضرورة إحساسك بأن حربنا اليوم هي حرب لا يوجد فيها تكافؤ لأنها من طرف واحد فقط.

إن الأمة المصرية، وعلى رأسها قلة من القادة المخلصين الأوفياء عزلاء تماماً.. وعندما تطالب بحقوقها تُقابَل بالإجراءات العسكرية العرفية القاسية. إن حرية هذا الوطن قد قُيِّدت، وعندما يقوم زعماؤها المخلصون بدعوة أبناء الأمة لرفع أصواتهم، يُقابَل ذلك بالزج بهم في السجون وإتهامهم بالتحريض.. بل أكثر من ذلك تُتخذ حيالهم الإجراءات الجنائية.

متى يحين أوان العدل يا صاحب السعادة؟

واذا كان الهدف هو ترويع وإرهاب الشعب، الذي لا ينسجم مع التقاليد والعادات الإنجليزية، فإننا نُحيط سيادتكم علماً بأن ذلك لن يُرهبنا.. إننا شعب مسالم بطبيعته، ويتعامل بالشرعية القانونية، وسيعمل بأقصى إستطاعته للحصول على العدالة حتى إن كلفه ذلك حياته في سبيل تحقيق مطالبه، ولكننا أبداً لا نستخدم الأعمال الإجرامية، ولن نُبرر أبداً الجريمة لتحقيق أغراضنا. واذا ما قام شخص غير مسئول بهذه الجرائم، فعلى السلطات المختصة القبض عليه ومعاقبته، ولكن ليس عن طريق إلصاق

هذه الجرائم على الشعب بأسره.

واذا أردت يا صاحب السعادة، أن ترى الأمور على وجهها الصحيح، فستجد أن هذه التُهم التي أُلصقت بأعضاء الوفد – الذين يبذلون اقصى جهدهم لكي يحصل الشعب على حقوقه – إنما هي إتهامات ظالمة وليس لها أي أساس من الصحة.

وكونك رجلاً إنجليزياً، فقد أُتيحت لك كل الفرص للحصول على تربية سياسية على أعلى مستوى أخلاقي.. لذلك فأننا نلتمس منك إستدعاء أفضل ما لديك من قوة ذاتية، واستخدام تقاليدك الأصيلة للحرية والإستقلال تجاه مصر الفقيرة المناضلة.

وسعادتكم تعلمون بأن الوسائل التي أُتبعَت للتهديد حتى الآن، إنما تُتخذ فقط لسحق وتحطيم كل المشاعر الوطنية النبيلة في أفراد الشعب. وهي تخدم بعض أنماط من الرجال الأذلاء، الأنانيين، والمتملقين في إعطائهم بعض القوة..

وهل يُرضي انجلترا.. الدولة العُظمى أن تحارب النزعات الأخلاقية للشعب، وأن تُولِّد صفات الخسة والإزدراء في الأمة؟؟ اننا على ثقة بأنكم لو نظرتم للأمور من وجهة النظر هذه.. لأقشعر بدنكم من مثل هذه المواقف.

وبرغم كونك جندياً محارباً تعودت على أمور القتال.. فإننا نعتقد بأنك ستكون دائماً محارباً من أجل أهداف شريفة ونبيلة.

كما أننا على ثقة تامة بأنك تعلم تماماً بأن القوة الوحشية لا يُعتمد عليها. وأنه في يوم ما حتى ولو طال المدى فإن العدل والحق سيكون لهما المكانة الأسمى والأعلى..

مع تمنياتنا بأن تكون دائماً مسانداً للعدل والحق والسلام.

المخلصة

استر فهمي ويصا

عن اللجنة (نائبة الرئيسة)

ملحوظة: لم يُعثر في أوراق السيدة استر على رد لهذا الخطاب. على الرغم من وجود مظروف خال مؤرخ بتاريخ ٣١ يوليو ١٩٢٢ بخط اللورد اللنبي.

إلى صاحب السعادة — الرمل – سابا باشا

فيلد مارشال، اللورد اللنبى — ٧ أغسطس ١٩٢٢

باكوس

صاحب السعادة

تلقت السيدة حرم زغلول باشا خطاباً من سيشل من مدة قصيرة، يخطرها فيه بأن زوجها مريض وبأن تغيير الجو بالنسبة له قد يساعد في إنقاذه، ونحن نذكّرك بوعدك لنا، بنقل زغلول باشا من سيشل اذا ما استدعت ظروفه الصحية ذلك.. ونحن نلتمس منك نظراً للظروف الراهنة، الوفاء بهذا الوعد.. ونأمل بأن يكون الوقت متاحاً لذلك ولا يكون قد فات الأوان..

في الواقع، لو أن زغلول باشا وافته المنيّة في هذه الجزر، فسيكون ذلك نكبة رهيبة، لأن الأمة في هذه الحالة سيتأكد ظنها بأنه أُرسل إلى هناك للقضاء عليه بالموت.. وستكون بالفعل فكرة مريعة، من الصعب إقتلاعها من أذهان الشعب اذا ما بذرت بذورها..

بالإضافة إلى ذلك، فإنك تعلم يا صاحب السعادة، أنه لابد من توافر العلاقات الطيبة بين الدول وبعضها.. وبصفة خاصة بيننا وبينكم.. وبالرغم من كوننا دولة صغيرة بالنسبة لكم.. فلا يُخفي عليكم أيضاً، أنه يمكن للفأر أن يقدّم المعونة للأسد في يومٍ ما !!

وبالنسبة لذهاب السيدة حرم زغلول باشا إلى سيشل.. فإننا نلتمس منك – يا صاحب السعادة – تقدير الصعوبات والمتاعب التي يمكن أن تتحملها سيدة من طبقتها في السفر إلى هناك، ونرجوك بأن تقوم بنقل زغلول باشا ورفاقه لأي مكان آخر بالقرب من مصر، مما يُساعد على تحسين صحته ويُمَكّن زوجته من اللحاق به إذا ما استدعى الأمر.

ونحن نأسف جداً على اتخاذك مثل هذه الفكرة الخاطئة عن زغلول باشا، لأننا نؤمن تماماً بأنه الرجل الذي تحتاجه مصر ليقودها إلى التحرير.

ومما يدعو إلى الأسف، أنك بدلاً من إتخاذه ومصر صديقاً لك.. فأنك أظهرت نحوه روحاً تتسم بالعداء وبالتالي فقدت روح التعاطف مع الأمة.

إن زغلول باشا سيظل دائماً في عين الشعب البطل الوطني.. ولو أصابه أي مكروه فسيكون هو القديس وسيكون

هو الشهيد الذي ضحى بحياته في سبيل المبدأ.. وستكون بلدك هي الخاسرة معنوياً، وبالرغم من إمتلاكك كل هـذه القوة والجبروت فأننا سنكون كارهين بأن تكون هذه هي النهاية الحتميـة. وعلـى أيـة حـال – فـأنك الآن في فـترة إختبار – ويمكنك أن تفكر فيما قلته لك وإفادتي بالرأي.. وعموماً، فإننا نرجوكم بعدم قتـل الرجـل العجـوز، فإننـا والتاريخ كذلك، لن نغفر ذلك أبداً.

ونأمل أن تخطرنا في أقرب وقت ممكن، إنك قد اتخذت التدابير اللازمة لنقلهم من سيشل..

وفي إنتظار ردك شاملاً الأخبار الطيبة.

نرجو أن تتقبل الإحترام،،،

المخلصـة عـن اللجنـة

استر فهمي ويصا

نائبة الرئيسة

ملحوظة: لم يُعثر في أوراق السيدة استر على رّد لهذا الخطاب.

وُجد هذا الخطاب في أوراق السيدة استر.. وهو مرسل إليها من الفيلد مارشال لورد اللنبي بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٢٢، رداً على خطاب مرسل منها اليه بنفس التاريخ.. وإنه لم يُعثر على خطابها هذا في أوراقها.

الرمل

٣٠ أغسطس ١٩٢٢

سيدتي الفاضلة،

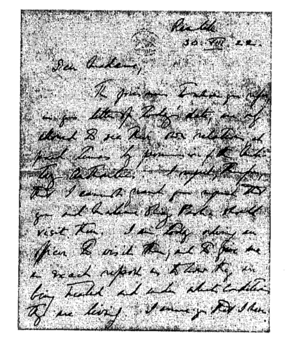
إن المسجونين الذين أشرت إليهم في خطابك المرسل اليَّ بتاريخ اليوم، قد سُمح لهم برؤية أقاربهم فقط في أوقات محددّة بإذن من السلطات العسكرية.. ولذا فإني أعتذر عن عدم إمكاني تحقيق رغبتك في القيام بزيارتهم مع السيدة حرم رياض باشا..

وقد أصدرت اليوم أمراً إلى أحد الضباط للقيام بزيارتهم، وإعطائي تقريراً وافياً عن المعاملة التي يلاقونها وكذا الظروف المعيشية لهم.. وأؤكد لك اهتمامي الشديد بأن يعاملوا على أحسن وجه.. واني أتفهم تماماً وأتعاطف مع حُسن نواياك.. ولكن من المستحيل بالنسبة لي قبولك كمندوب لي في الأمور المتعلقة بتقرير مدى مناسبة الجو المُحيط بهم أو المبنى الذي سينقلون له..

مع تحياتي

المخلص

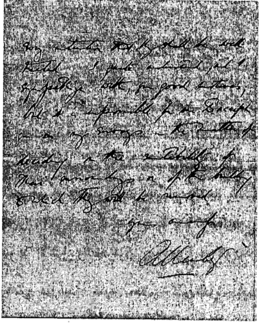
اللنبـــــي



Ramleh
30.VIII.22.

Dear Madame,

The prisoners to whom you refer in your letter of today's date, are only allowed to see their near relations at fixed times by permission of the Military Authorities. I regret therefore that I cannot grant your request that you and Madame Riaz Pasha should visit them. I am today ordering an officer to visit them, and to give me an exact report as to how they are being treated and under what conditions they are living. I assure you that I share



my intention that they shall be well treated. I quite understand and fully sympathize with your good intentions, but it is impossible for me to accept you as my envoy in the matter of reporting on the suitability of their surroundings or of the building to which they will be moved.

Yours sincerely

Allenby

سابا باشا – الرمل

أول سبتمبر ١٩٢٢

إلى صاحب السعادة

فيلد مارشال – لورد اللنبي

باكوس

صاحب السعادة

أتيحت لي الفرصة بالأمس، في الاتصال بالسيدة حرم واصف بك غالي، بعد زيارتها لزوجها في السجن، وأرفق طيه الخطاب الذي كتبته شاملاً تفاصيل الحياة التي يعيشها المسجونون، فقد قاموا بترك زوجها بالزنزانة لمدة ثلاثة أيام أثر إصابته بوعكة صحية، ثم نُقل إلى المستشفي بعد هذه المدة وقد ظننت أنه ربما تكون هذه الظروف قد تغيرت على أثر ذلك. ثم قابلت الاستاذ ألبرت خياط الذي كان في زيارة لوالده جورج بك خياط وقد أبدى نفس رأي السيدة حرم واصف بك غالي.

وأنا على ثقة تامة يا صاحب السعادة، بأنه يمكنك تصور الظروف التي يعيشها هؤلاء الرجال الأفاضل في زنزانة لا تتجاوز مساحتها المترين طوال ٢٢ ساعة يومياً في جو القاهرة الحار ليلاً ونهاراً، يعانون كل أنواع المشقة والضيق والمهانة، يتشاركون بعضهم البعض حياتهم الخاصة، بالإضافة إلى احتكاكهم المباشر يومياً بعتاة المجرمين.

تستطيع أيضاً يا صاحب السعادة، تقييم حالتهم المعنوية، بمحاولتهم التظاهر بالرضا بالرغم من كل المعاناة والرعب. علاوة على ذلك، وبرغم ظروفهم السيئة التي يواجهونها، فقد حُكم عليهم بتذوق هذه الحياة القاسية وهم أبرياء أمام الله وأمام البشر. إلاّ أن معاناتهم وآلامهم سيكون فيها الخلاص لأمّتنا، وكما سبق لي القول، فإننا نأسف يا صاحب السعادة، لأنك قد وضعت بأفعالك هذه المسئولية على أكتافكم، إن حوالي ١٤ مليوناً من أفراد الشعب المصري، بالإضافة إلى كل الرجال والسيدات الإنجليز بل والعالم أجمع يضعون أفعالك هنا نِصب أعينهم لتقييمها، برغم أنه قد يكون لديك أسبابك القوية والمشاعر الخاصة، التي دعتك إلى إنتهاك حرياتهم بسبب هذه الجرائم التي أعتبرتموها موجهّة ضد الانجليز، إلا أن كل ذلك لا يُبرر عقاب الأبرياء على جرائم لا يرتكبها إلا الأشرار والمجرمون.

لقد تم إعاقة كل من الوطنيين وأعضاء الوفد الذين يعملون من أجل حقوق مصر – من كل جانب، فليس من المسموح لهم التحدث أو التصرف في هذا الشأن. وعندما دعوا الأمة للإحتجاج ضد الإجراءات القمعية، ورفع أصواتهم بأي وسيلة ممكنة، حُكم عليهم بالموت، ثم عُدلّت إلى سبع سنوات أشغال شاقة

مع دفع غرامة قدرها خمسة آلاف جنيه، وزُجَّ بهم في زنـازين السجن العـام ليقاسـوا كـل أنـواع المهانـة البشعة التي لا يمكنك ادراكها على وجه التأكيد يا صاحب السعادة.

وأنا لا أظن أنك تستطيع تخيّل مدى هذه البشاعة وربما لا تكـون مطلّعـاً علـى الظـروف المتواجـدة في السـجون المصرية.

هل يمكنني محاولة إقناعك يا صاحب السعادة، بعدم جدوى السياسة الحالية المتبعـة.. لقـد أعلنـت استقلال مصر، وكان البيان الذي ألقيته علينا، بأنك تُعِّد مصر للحكم الذاتي ومنحها الحياة النيابية.

إذن، هل تنوي إعطاءنا فرصة عادلة، أو انك ستضعنا تحت رحمة أي حزب ما ليدفع بنا إلى أحكام استبدادية؟.. إن أفضل رجالاتنا، المستقلون، الذيـن يضحّـون بـأرواحهم، ذوي العقـول الحـُرّة، وعنـاصر المقاومة الشجاعة للأمة. هؤلاء الرجال زُجَّ بهم في السجون أو أُرسلوا إلى المنفي، فمَن بعد ذلك يجرؤ علـى الإحتجاج أو المعارضة؟ ليشاركهم نفس المصير؟ مَن الذين يمكن أن نعطيهم أصواتنا لانتخابهم؟؟.

أننا نرفض الانتخابات في ظل هذه الظروف، إننا لا نستطيع أن نشترك في إنشاء برلمان مصري يتكون من أعضاء قمتم بتسليمهم لنا، أعضاء يمكنكم حَمْلهم على تغيير آرائهم تماماً وقـت الانتخابـات.. وبعـد ذلك.. هل نُسمي هذا البرلمان "برلمان مصر المستقلة" !! لا يا لورد اللنبي؛ فإننا لا نريد تكـرار الأحـداث التي حدثت في أسيوط أثناء استقبال زغلول باشا، وإذا كنت مخلصاً في وعـودك وتصريحـاتك السياسـية، فلابد أن تعطينا فرصة عادلة. وكما أخبرتك يا صاحب السعادة، فإن سياستك الحاليـة تحـارب العنـاصر النبيلة ومن الناحية العملية تبعدها عن المسار الواجب. وإن لم تفلح في سحق روح هـذه الأمـة، فـإن ذلـك سيفتح الطريق لإقتراب الطباع الجديرة بالإزدراء.

وأنا على ثقة بتفهمك لوجهة نظري.. فإذا استطاع شخص يتمتـع بالشـجاعة الكافيـة لأن يقـف في مواجهتـك مدافعاً عن مبادئه التي يؤمن أنها مبادئ حقة.. فإنك لن تعدم أن تقيّمه بأفضل من شخص آخر يرتعش من الخوف أمامك، أو يتخلى عن مبادئه أو يخدعك لتحقيق أغراضه... مثل هذا الشـخص قـد يسـاعدك في تنفيـذ سياسـتك، ولكن، هل يمكنك أن تثق في أنه سيعمل لصالح هذه الأمة التي تسعى لمصادقتها، والتي أعلنـت أنـك سـتقودها إلى قيام حكومة ديموقراطية جيدة؟..

إن مصر، كدولة مستقلة ذات مبادئ، لهي أكثر نفعاً لكم من كونهـا دولـة تابعـة بـلا مبـادئ.. فـإن الذين يُضللون بلدهم من أجلك، سيقومون بتضليلك وخداعك يوماً ما..

إنك لن تستطيع الاعتماد عليهم في الظروف الملّحة التي تتطلب السرعة في العمل (وغالباً ما ستأتي هذه الظروف) وأنتم، معشر الانجليز، تتفهمون تماماً وجهة النظر هذه، وأنا على ثقة تامة، بأنكم تفضلون عدواً شريفاً عن صديق خائن. أليس الأمر كذلك أم أن ظني خاطئ ؟.

وأرجو أن تتذكر، بأنه ليس لي أي منفعة شخصية بأي شكل من الأشكال، إنما هدفي في الحياة هو أن أرى بلدي واقفة على قدمها، تحمل قَدَرها بين جميع دول العالم.. تقف على أرض صلبة، يشد من أزرها أبناؤها الشرفاء.. وبالنسبة لي، فإن الاعتبارات الأخلاقية لرجال بلدي، هي أهم من أي شيء آخر.. وهذا هو سبب كفاحنا اليوم.. ومن خلال المعاناة والمحن يُخلق أحسن ما في الرجال "وسنخرج من نار هذه المحن أكثر نقاءً"، وبالرغم من أننا نعاني معاناة جائرة في أغلب الأحيان، إلا أننا سعداء بها لأنها في صالح الأمة، وان كنت أخشى من حدوث معاناة أكثر قادمة في الطريق، ولكن من خلال هذه الآلام سيتم انقاذ مصر.

ونحن على ثقة تامة، بأنه سيأتي اليوم، الذي تقف فيه مصر كواحدة من دول الأرض المباركة، وإذا كانت مصيبتنا اليوم ترتكز في خلافاتنا، وأن بليّتنا سببها بعض أفراد شعبنا – فإن النار التي وضعتمونا فيها ستكون هي السبب في نقائنا وهي التي ستوحدنا في نهاية الأمر.

واذا لم استطع إقناعك، أرجو أن تستمر في الطريق الذي بدأته – لورد اللنبي – فإن أنين وآلام رجالنا الأبرياء سيصل حتماً يوماً ما إلى عدالة السماء، وسنحصل حتماً على العدل.. وفي الواقع، فإني أأسف لذلك فقط لخاطرك، وهذا ما يدعوني للإستمرار في اللجوء اليك حتى الآن.

وعلى أية حال يمكنك الاستمرار إذا ما أردتم المضّي في تجربتكم هذه حتى النهاية، إلا أننا نرجو عدم وضع سجنائنا في هذه الأماكن غير المريحة، فقد وعدتنا بأنه سيتم معاملتهم معاملة طيبة، وكذا نقل المنفيين في سيشل إلى منطقة صالحة للسكن. أننا مستعدون للأنتظار وحتى على المدى الطويل.. وذلك في سبيل الحصول على مبادئنا وأهدافنا العادلة. كما أفيدك بأنه لا يوجد لدينا أية أنباء عن زغلول باشا منذ مدّة، بالرغم مما نسمعه عن الآخرين.. لذا نلتمس منك يا صاحب السعادة إطلاعنا عما صار اليه حاله، والأسباب التي أدت إلى عدم ورود أي أخبار عنه..

والســــــلام،،،

المخلصة

استر فهمي ويصـــا

سابا باشا – الرمل.

نص الخطاب المرسل من فيلد مارشال لورد اللنبي المؤرخ في أول سبتمبر ١٩٢٢ رداً على خطاب السيدة استر المؤرخ بنفس التاريخ.

الرمل

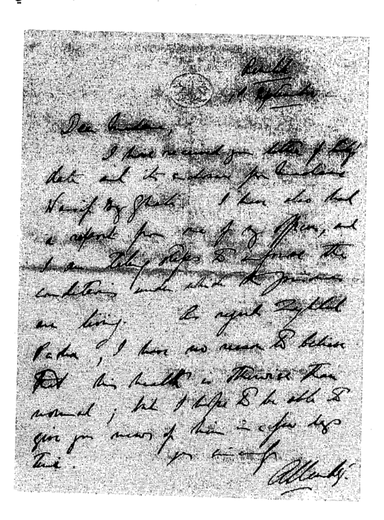
أول سبتمبر ١٩٢٢

سيدتي الفاضلة،

تلقيت خطابك المؤرخ بتاريخ اليوم وكذا الخطاب المرفق به من السيدة حرم واصف بك غالي، كما تلقيت أيضاً تقريراً من أحد ضباطي، وسأقوم بإتخاذ خطوات لتحسين الظروف التي يعيشها المسجونون. أما فيما يخص زغلول باشا، فإنه لا يوجد لديَّ سبب يدعو إلى الإعتقاد بأن صحته غير طبيعية.. وآمل إفادتك ببعض الأخبار في وقت قريب،،،

المخلص

اللنبـــــــــي



Ramleh
1 September

Dear Madam,

I have received your letter of today's date and its enclosure from Madame Wassif Bey Ghali. I have also had a report from one of my officers, and I am taking steps to improve the conditions under which the prisoners are living. As regards Zaghlul Pasha, I have no reason to believe that his health is otherwise than normal; but I hope to be able to give you news of him in a few days time.

Yours sincerely
Allenby.

سابا باشا – الرمل

٥ سبتمبر ١٩٢٢

إلى صاحب السعادة

فيلد مارشال – لورد اللنبي

باكوس

صاحب السعادة،

نتقدم بخالص الشكر لسعادتكم، على الخطوات التي اتخذتموها لتحسين أحوال السجناء، خصوصاً قراركم بنقلهم فوراً إلى مكان أفضل.

وقد وصل إلى أسماعنا الآن، بأن زغلول باشا متواجد حالياً في جبل طارق، والتي تتمتع بجو أفضل من سيشل، ولكن ماذا عن رفاقه؟ أنه لم يتم نقلهم حتى الآن. وهل كان ذلك بسبب نقص أماكن الحجرات على الباخرة التي ستقلهم إلى جبل طارق؟ وأنك سوف تنقلهم ليلحقوا بزغلول باشا على الباخرة التالية؟ أم أن حقيقة الأمر تنطوي على شيء آخر؟ إننا لا نجرؤ حتى على التفكير في هذا الاحتمال.. فمن المؤكد أنك لا تقصد تركهم في سيشل منفصلين عن الرجل العجوز؟ أن ذلك مثل المستجير من الرمضاء بالنار، أو حسب المثل الأنجليزي "الخروج من المقلاة إلى النار". إن تواجد الشخص مع رفاقه في المنفي لهو العزاء الوحيد لهم.. بالإضافة إلى ذلك، فإنه اعتباراً من ١٥ سبتمبر فإن الطقس في سيشل يصبح غير محتمل. وكما أخبرتك مدام فانوس عند زيارة وفد السيدات لسعادتك، بأن الجو يصبح رهيباً وغير محتمل طوال ثمانية شهور من السنة، لذا نرجو أن تُتَمِّم جميلك بنقلهم جميعاً إلى جبل طارق، ليكونوا معاً في مناخ مقبول. وأنا على ثقة، بأنه ليس من طبيعة الجندي المنتصر في فلسطين، أن يحاول إصلاح الأمور شيئاً فشيئاً وعلى دُفعات، وأن الروح العظيمة ستمنح خصومها الفرصة في الحصول على قتال عادل، وكل الراحة واشعارهم بنواياك الطيبة.

إني أتمنى أن تنصلح الأحوال قريباً، وأن تنقذ بلدنا من كل هذه المحن في الشهور القادمة وأن تصل بها إلى الطريق الصحيح. ومع ذلك، فإني آمل أنه عندما فشلت السياسة الحالية التي قمت بتنفيذها، فإنك يا صاحب السعادة، سوف تلجأ فوراً إلى سياسة أخرى.. وسوف ترى كيف أنها ستفلح. وكلي أمل صادق – يا صاحب السعادة، بأنك ستتبع السياسة الأخرى. وأنت تعلم أن الحق، والصراحة والاستقامة والاساليب الحرة، هي فقط التي تنجح في النهاية.. وأن اعطاءها للشعب الذي يستحقها يُسَهِّل ويقوي مستقبل العلاقات بين البلاد.

ولدّي الكثير مما يمكنني قوله، ولكني أعرف بالطبع مدى انشـغالكم يـا صـاحب السـعادة، وربمـا لا يمكنك اعطاءنا بعضاً من وقتك – وأنا لا أستطيع أن أجرؤ على سؤالك عن ذلك. وعموماً فأني أعتمد على نواياك الطيبة، وأتمنى أن أسمع منكم يا صاحب السعادة قرار نقل باقي المنفيين في سيشل وانضمامهم إلى زعيمهم..

والســــــــلام،،،

المخلصة

استر فهمي ويصا

ملحوظة: لم يعثر على رد لهذا الخطاب في أوراق السيدة استر.

فندق شبرد – القاهرة

١٨ سبتمبر ١٩٢٢

إلى صاحب السعادة

فيلد مارشال – لورد اللنبي

الرمل

صاحب السعادة،

اتقدم إليك بجزيل الشكر لسماحك لي بزيارة قريبي جورج بك خياط، وللأسف فقد وجدته في حالة صحية سيئة للغاية. فهو مريض بالسكر ويشكو حالياً من بعض تقرحات بجلده التي يمكن في هذه الحالة أن تصبح خطرة، وقد صدمت للتغير الذي حدث له، ولكنه شيئ متوقع بطبيعة الحال لمريض بالسكر يعيش حياة السجن وأني أرتعد خوفاً من أنه لو ظل بضعة أيام على هذا المنوال فستكون نهايته حتمية. أما حَمد باشا الباسل فإنه يعاني من الإلتهاب الشعبي ومن الحمى، ويخشى الطبيب من امكانية تحوّل ذلك إلى سل رئوي..

أما واصف بك غالي فإنه يشعر بالضعف والوهن، وحوِّل إلى المستشفي معظم فترات تواجده بالسجن، وكذلك مرقص بك حنا فقد عاده الطبيب..

وبالرغم من تحسن ظروف السجناء، بفضل أوامرك، إلا أنه مازالت حالتهم المعيشية الراهنة بعيدة عن أن تكون حالة مُرضية. إن الزنازين التي يعيشون بها يَحتشد فيها حشرات البق. وقد أخبرني جورج بك خياط أنه أمسك بنفسه حوالي مائة من البق في ليلة واحدة.. كما أن أغطية الأسِّرة من الأغطية المنصرفة لهم من السجن، ومن الطبيعي أنهم يفضلون عدم إستخدامها بالرغم من الرطوبة والبرودة في بعض الليالي..

وقد حدث مرة أن أصيب أحدهم بنوبة مغص حادة أثناء الليل وتُرك يعاني الألم حوالي ٤٥ دقيقة قبل أن يتم إسعافه.. إن الزنازين تُغلق عليهم بالضبَّة والمفتاح من السادسة مساءً وحتى الصباح – وبالطبع فإنهم لا يستطيعون تناول عشائهم لفقدانهم الشهية وهم محبوسون في هذه العلب الضيقة..

والآن وبالرغم من أنه سُمح لهم بأشياء أكثر من الفترة الأولى.. إلا أن بقاءهم في مقر آخر بالسجن، لن يؤثر في تحسين الأمور. لأنه من المعروف أن أي استثناء لصالحهم، سيؤدي إلى إفساد وتعطيل أنظمة السجن، وفي نفس الوقت لن يكون ذلك مُرضياً لهم ولا مناسباً ايضاً لسلطات السجن.. والحل الوحيد هو نقلهم فوراً حتى تسير الأمور بشكل طبيعي في السجن وبشكل محتمل بالنسبة لسجنائنا السياسيين.

ولا أستطيع أن أتفهم سبب عدم تنفيذ قرار سعادتك، بنقلهم إلى مقر أفضل.. ويبدو أن ذلك متعمد فهل

أطمــع في أن تقوم سعادتــك بإرسال أمر تلغرافياً غداً لنقلهم على الفور؟ وأنا أؤكد لسعادتك يا لورد اللنبي، بأن ظروفهم تدعو إلى الأسف بالفعل، فإنهم يحاولون التظاهر بالشجاعة والتماسك أمام أقربائهم أثناء الزيارة، ولكني أستطيع كشف الحقيقة من حالتهم العقلية والجسدية.. وأعتقد أن مجرد وجود حشرات البق لشيء كاف لجعل الحياة غير محتملة أثناء الليل، وخصوصاً في هذه الزنازين الضيقة التي لا يستطيعون حتى الفرار منها..

واذا كان منزل المعادي لم يتم تجهيزه لهــم بعد، فإننا نستطيع إعداد بعض الترتيبات في الوقت الحالي.. ونحن على إستعداد لتزويده بالأثاث اللازم، ويمكن توفير الكهرباء في يوم أو اثنين إذا ما اتخذت الإجراءات المناسبة، ويمكن استبدالها مؤقتاً باللمبات العادية..

ومن ناحية أخرى، إذا ما رأيت سعادتك، أن منزل المعادي غير مناسب.. فيمكنك إرسالهم إلى ثكنات قصر النيل وهناك سيكونون في حالة أفضل كثيراً من وجودهم بالسجن.. المهم هو نقلهم فوراً حيث أني أخشى من تدهور حالتهم الصحية.. وأنا أعرف أن حالة التقرحات في مريض السكر يمكن أن تسبب الوفاة في أي وقت.. وحالة جورج بك خياط أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

وحيث أني لست على اتصال وثيق بالآخرين، فاني لا استطيع أن أجزم بوجود تغيير كبير في مظهرهم مثل الذي حدث لمن أعرفهم.

فإننا نرجوك، من أجل الإنسانية ومن أجل العدالة، أن ترسل أوامرك غداً، وأرجو التكرم بإفادتي برقياً على عنواني بالقاهرة بما يؤكد إرسال هذا القرار.

واخيراً أؤكد لك، أن كل آمالي، أن يصل كل من بلدينا إلى تفهم كامل فيما بينهما..

وفي إنتظار ردكم..

تقبلوا إحترامـــي،،،

المخلصة

استر فهمي ويصا

رد – وزارة البرق المصرية.

مكتب الصادر : باكوس.

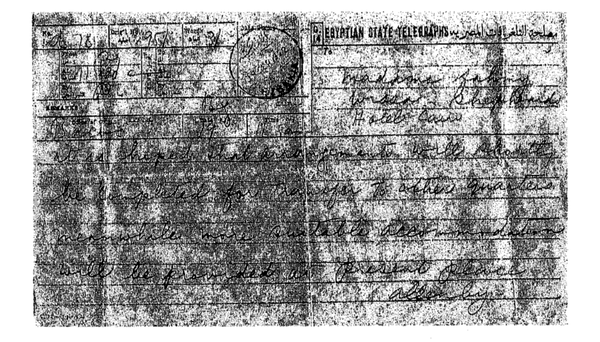
المستـلم: مكتب الأزبكية، ١٩ سبتمبر – الساعة ١١,٥٠ صباحاً.

السيدة / فهمي ويصا، فندق شبرد – القاهرة.

من المرجو أن تستكمل بعض الترتيبات قريباً لنقلهم إلى أماكن أخرى تكون أكثر مناسبة، وسيتم تزويدهـم بوسائل إعاشة مناسبة في المكان الحالي.

توقيع

اللنبـــــي



EGYPTIAN STATE TELEGRAPHS مصلحة التلغرافات المصرية

To

Madame Fahmy
Wissa Shepheards
Hotel Cairo

It is hoped that arrangements will shortly
be completed for transfer to other quarters
meanwhile more suitable accommodation
will be provided at present place
Allenby

سابا باشا – الرمل

٢٥ سبتمبر ١٩٢٢

إلى صاحب السعادة

فيلد مارشال – اللورد اللنبي

باكوس

سمعت مؤخراً، بأن السيدة حرم زغلول باشا قد طلبت اللحاق بزوجها حيث تلقت أخباراً تفيد بمرضه.. وأرجو أن يكون مرضه ليس خطيراً، حيث أن أي شيء قد يصيبه سيفسر على أنه بسبب منفاه.. ويمكن أن يسبّب الإحساس بالمرارة الشديدة في أفراد الأمة، بما قد يؤدي إلى تعقيد أي علاقات مستقبلية.

وبالرغم من أني اقل أفراد الشعب إحساساً بالحقد، فإني سأكون أكثرهم شعوراً بالمرارة تجاه السياسة المتبعة حالياً، إذا ما حدث أي مكروه لزغلول باشا أو مات في المنفي.

واشعر أنه من صميم واجبي أن أقنع سعادتك بأن عودة زغلول باشا في الوقت الحالي ضرورية تماماً لصالح البلاد ولصالح بريطانيا. وفي حالة حدوث أي حرب، سيكون من صالح البلدين وجود بعض الاتفاقات المُرضية التي ستؤدي بالتالي إلى الموافقة على منحنا مطالبنا الخاصة بالاستقلال، ومن ناحية أخرى تحمي مصالحكم الحيوية الموجودة في بلادنا.

واذا أردتم وضع الحق في نصابه مع زغلول باشا، فإن تأثيره يمكن أن يحمي البلاد من أي حركة تركية تقدمية، كما أنه سيساعد على تسهيل الأمور بالنسبة لكم.

ومن جهة أخرى.. إن لم يكن هناك حرباً على الأبواب.. فإن النظام الحالي لن يخدم بريطانيا العظمى، فإننا نعتقد ان الفكرة المسيطرة على النظام الحالي، هي التخلص من تأثير أنصار زغلول باشا.. وعندئذ يمكنهم الحصول على الأغلبية في الإنتخابات القادمة، وبالتالي يمكنهم اخضاع الشروط الإنجليزية الخاصة بإستقلال مصر عن طريق إعتمادها وإجازتها في البرلمان القادم.

وما تسميه الآن بالحزب المعتدل، فهو يمثل إلى حد بعيد حزب الأقلية وأغلبهم من الاستغلاليين النفعيين، ولا يعنيهم في الواقع صالح انجلترا أو صالح البلاد.. ولا يتميزون بروح القتال.. إنما كل مايعنيهم هو الحصول على أي فائدة ممكنة حتى تقوم أي حرب قادمة، أو تأتي أي فرصة تؤدي إلى خروجكم من مصر.

إن الروح المصرية الخالصة ليست طابعهم، وانتخاباتهم البرلمانية لن تنجح، حتى على الرغم من إمكانية استبعاد زغلول باشا وحزبه من الإنتخابات، وبالرغم من زّج أفراد حزب الوفد في السجون.. ومع ذلك.. فإن هناك الكثيرين جداً من أنصار زغلول باشا مازالوا متواجدين في البلاد، ولكنهم فقط متحفظون نتيجة للقمع الشديد المستخدم حالياً.. وهم سيحاربون في الانتخابات من أجل الحرية حتى لو استخدمت السلطات الرسمية العُمَد والضباط للتأثير على الشعب عن طريق التهديد أو الترغيب..

ان السياسة الحالية لن تُجدي مع رجل عظيم عادل مثلك يـا صـاحب السـعادة، انهـا سـتكون أكـثر تناسباً معك لو أتبعت ما تمليه عليك دوافعك النبيلة، بأن توافق على منح الدولة حريتها كاملـة. بحيـث يمكن في هذه الحالة فقط، أن تعود بالفائدة لصالح كلا البلدين عند إبرام أي إتفاقية بينهما..

والآن.. ان حياة زغلول باشا غالية لكلينا.. ويجب علينا عمل أقصى ما يمكننا لحمايتها.. أليس أكـثر الأفعـال إنسانية، وانسبها إنسجاماً مع طبيعتك، في إعادة العجوز ورفاقه، والإفراج عن المسجونين السياسيين، ومنح البـلاد الحرية كاملة. أرجو أن تُجرب وسترى النتيجة، وأنا أؤكد لسعادتك، بأن السياسة الـتي سبق وذكرتهـا، سـتكون أكثر أماناً. ويكفي أنها تستند على مبادئ الحق والعدل.. وهل يمكن أن نخشى من ذلك؟.

يكفي الانسان ان يعمل ما يراه حقاً خالصاً ويترك ما عدا ذلك لله.. بينما المقولة الأخرى تدعو إلى أن نترك الأرواح الشريرة المتآمرة حتى تُجني ثمرة أعمالها يوماً ما.. وربما تكون ضمائرهم هـي الحَكَم، هـذا إذا ما كان لا يزال لديهم ضمائر..

هذه هي نصيحتي الخالصة لك يا صاحب السعادة اللورد اللنبي، لأني على إقتنـاع تـام بـأنك رجـل فاضل. وبالرغم من إحساسك بأنك بريء من الأثم بالإجراءات التي إتخذتها مؤخراً بسبب الجرائـم الـتي أتخذت ضد الإنجليز، إلا أني واثقة بأنه يجب عليك بأن تشعر بأن السياط التي هوت إنما نزلـت علـى ظهور الأبرياء.. وسيكون من العدل إمساك المجرمين الحقيقيين وإنزال العقاب بهم.

أما بالنسبة للسجناء في سيشل، فأرجو أن تكون سعادتك، قد اتخذت بالفعل الإجراءات الكفيلة بنقلهم من هذا المناخ الرهيب الذي بدأ في أن يكون غير محتمل على الإطلاق. وهنالك تستطيع أن تنظر نظرة واقعية على ما يعتمل في قلبك من إحساس طيب رحيم.. وإن كان متوارياً الآن خلف الظلال الكئيبة التي يلقيها نظام ثروت.

هل يمكنك يا صاحب السعادة التكرم بإخطاري عن أي خطوات سيتم إتخاذها قريبـاً؟.. وهـل هنـاك أية بارقة أمل في أن نستمتع بمناخ حر ديمقراطي أثناء الانتخابات..؟؟

أرجو مخلصة أن يكون القرار قد أتخذ بالفعل، وأن يكون لي الشرف بأن أكون أول من يستمع للأخبار الطيبة.

والســـــــــــلام،،،

المخلصة

استر فهمي ويصا

نص الخطاب المؤرخ في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٢، المرسل من اللورد اللنبي، رداً على خطاب استر فهمي ويصا المرسل له بنفس التاريخ.

المقّر الرسمي

الرمل

٢٥ سبتمبر ١٩٢٢

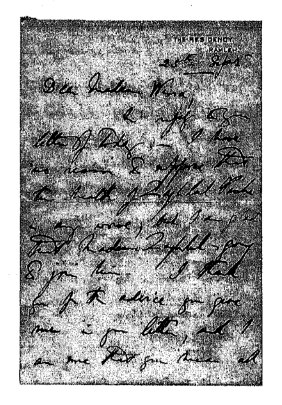
سيدتي الفاضلة، مدام ويصا،

رداً على خطابك المؤرخ اليوم، ليس هناك ما يدعوني إلى الظن بأن صحة زغلول باشا قد ساءت، ولكني أشعر بسعادة، لأن السيدة حرمه ذاهبة اليه وستكون في صحبته.

واذ أشكرك على إسدائك النصيحة لي في خطابك – وأنا واثق من أنك تعنين كل ما تقولينه – إلا أنني أعتذر عن عدم إمكاني العمل بها كما تتمنين ،،،

المخلص

اللنبـــــي

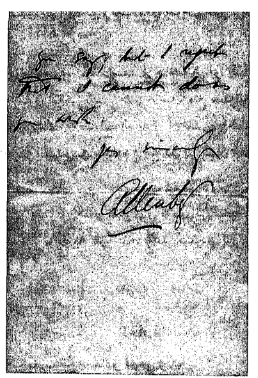


THE RESIDENCY
RAMLEH.

25th Sept.

Dear Madame Wissa,

In reply to your letter of today — I have no reason to suppose that the health of Zaghlul Pasha is worse; but I am glad that Madame Zaghlul is going to join him. I thank you for the advice you gave me in your letter, and I am sure that you mean all



you say; but I regret that I cannot do as you wish.

Yours sincerely

Allenby

١٨ اكتوبر ١٩٢٢

إلى صاحب السعادة

فيلد مارشال – لورد اللنبي

الرمل

صاحب السعادة،

تلقيت الآن خطاباً من أفراد عائلة وليم أفندي مكرم، مرفقاً به صورة من التقرير الطبي – أرسل لسعادتك اليوم – والذي قام بإعداده كونسلتو من أربعة أطباء، أحدهم كان طبيبه الخاص قبل نفيه.

ويبدو من هذا التقرير ومن البرقية المرسلة من مكرم أفندي إلى طبيبه الدكتور صبحي، أن صحته قد ساءت. ويبدو في الواقع، أنها أصبحت في حالة حرجة وتستدعي الاهتمام الفوري.

هل يمكنني أن أُزعج سعادتك مرة أخرى راجية النظر في هذا الموضوع؟ يبدو أن مناخ سيشل غير مناسب للحالة الصحية لهؤلاء المصريين الأفاضل، ويبدو أيضاً أن لهم شكاوي فردية يعانون منها.. ونظراً لهذه الظروف، فإني على ثقة، يا صاحب السعادة، بأنك لن تتردد لحظة واحدة في نقلهم فوراً من سيشل.. ومن الواضح تماماً أنه لن تجنى أية فائدة سياسية من إبقائهم في مكان يهدّد حياتهم الصحية في كل لحظة، وربما قد تدعو الأسباب السياسية إلى إبقائهم بعيداً عن أوطانهم، ولكن لا يوجد أي سبب يُبّرر وضعهم تحت أي ظروف غير مريحة وتقضي على صحتهم وتُدمرها.

ان الحالة تبدو في منتهى الخطورة، وأنا على ثقة يا صاحب السعادة، بأنك لست في حاجة إلى أي إقناع أو استمالة لاتخاذ قرار نقلهم الفوري.. وقد ارسلت أسرة مكرم افندي التقرير الطبي عن حالته، مع سكرتيرك، ويرجون سرعة وصوله اليك نظراً لقلقهم الشديد على صحته.. فهل أطمع يا صاحب السعادة، أن تتكرم بإخطاري بإستلامك هذا التقرير؟ وبأنك تفضلت باتخاذ الخطوات اللازمة لنقلهم من منفاهم في سيشل إلى مكان آخر لا يقاسون فيه من الناحية الصحية.

إنني على ثقة يا صاحب السعادة، بأنك لست بالرجل الذي يُقصر في النظر الفوري في الأمور الإنسانية، ولم أفقد الأمل بعد في أنك ستدير الدّفة قريباً نحو سياسة مختلفة، أكثر توافقاً مع طبيعتك، والتي ستؤدي إلى توثيق أواصر العلاقات بين بلدينا، من خلال الأشخاص المناسبين.

واني على أمل، بسماع أخبار طيبة منك. والســــــــلام ،،،

المخلصة

استر فهمي ويصا

خطاب مرسل من سكتير أول المقر الرسمي، مؤرخاً في ٢٠ أكتوبر ١٩٢٢، رداً على الخطاب المرسل من استر فهمي ويصا إلى لورد اللنبي في ١٨ اكتوبر ١٩٢٢.

رقم ١٦٠١٧ / ١٨
دار المندوب السامي – الرمل
٢٠ أكتوبر ١٩٢٢

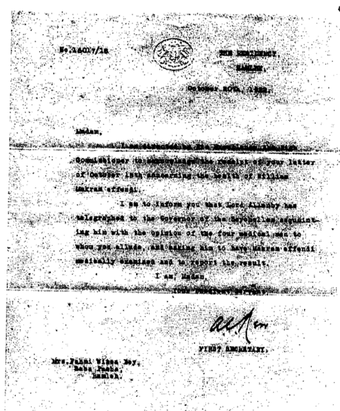
سيدتي،

تنفيذاً لتوجيهات صاحب السعادة المندوب السامي، أفيدك باستلام خطابك المؤرخ في ١٨ أكتوبر بشأن الحالة الصحية لوليم افندي مكرم، كما أفيدك بأن اللورد اللنبي قد أرسل برقية إلى حاكم سيشل، يطلعه فيها برأي الأطباء الأربعة الذي أشرت اليه.. وطلب منه القيام بإجراء الكشف الطبي على مكرم افندي وإفادته بالنتيجة.

وتفضلوا بالاحتــــرام،،،

خادمكم المطيع
توقيع
سكرتير أول

السيدة: فهمي ويصا بك
سابا باشا – الرمل



No.16017/18

THE RESIDENCY,
RAMLEH,

October 20th, 1922.

Madam,

[illegible]
Commissioner to acknowledge the receipt of your letter of October 18th concerning the health of William Makram effendi.

I am to inform you that Lord Allenby has telegraphed to the Governor of the Seychelles acquainting him with the opinion of the four medical men to whom you allude, and asking him to have Makram effendi medically examined and to report the result.

I am, Madam,
Your obedient servant,

FIRST SECRETARY.

Mrs. Fahmi Wissa Bey,
Saba Pasha,
Ramleh.

ذهبية الملكة

قصر النيل – القاهرة

١٩ ابريل ١٩٢٣

إلى صاحب السعادة،

فيلد مارشال – اللورد اللنبي

القاهرة

صاحب السعادة،

أرجو التفضل بتحديد مقابلة لي معكم قبل سفري إلى الاسكندرية السبت القادم. وهل يتوافق مع سعادتكم تحديد موعد لي؟.

اننا نقدر تماماً الخطوة الأولى الطيبة التي اتخذتموها نحو زغلول باشا، ونأمل أن يكون ذلك بداية لسياسة جديدة أكثر فعالية في ترسيخ العلاقات الطيبة بين بلدينا.

والســـــــــــلام،،،

استر فهمي ويصا

نص الخطاب المرسل من السكرتير الخاص للورد اللنبي بتاريخ ١٩ ابريل ١٩٢٣، رداً على الخطاب المرسل من السيدة استر فهمي ويصا بنفس التاريخ.

دار المندوب السامي

القاهرة

١٩ ابريل ١٩٢٣

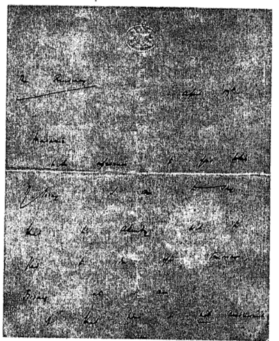
سيدتي،

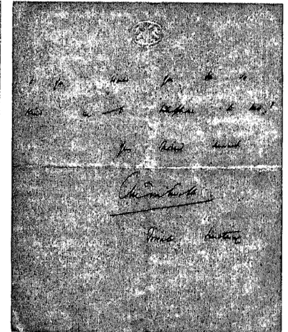
بالاشارة إلى خطابكم المرسل اليوم، فإنه يسر اللورد اللنبي مقابلتكم غداً الجمعة في تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً، وأرجو الاتصال بي تليفونياً اذا ما لم يناسبك هذا الموعد.

خادمكم المطيع

توقيع

السكرتير الخاص





صورة من خطاب وجد في أوراق استر فهمي ويصا، مرسل من السكرتير الخـاص للورد اللنـبي مؤرخـاً في ٢٩ مـايو ١٩٢٣ رداً على خطاب من استر في ٢٣ مايو ١٩٢٣ لم يعثر على صورته.

رقم ١٤٠٨٣ /؟

المقر – القاهرة

٢٩ مايو ١٩٢٣

السيدة / استر فهمي ويصا

سابا باشا – الرمل – الاسكندرية

سيدتي،

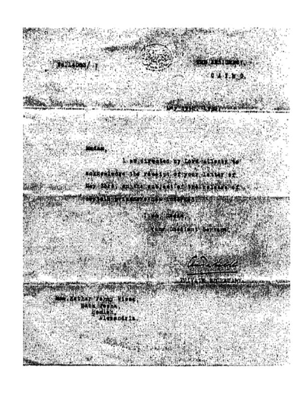
بتوجيه من صاحب السعادة لورد اللنبي، أفيدك باستلام خطابك المؤرخ في ٢٣ الحالي بشأن الافراج عـن بعـض السجناء المعتقلين حالياً..

ودمتـــم،،،

خادمكم المطيع

توقيع

السكرتير الخاص



No.14083/ ?

THE RESIDENCY,
C A I R O.

[illegible]

Madam,

I am directed by Lord Allenby to acknowledge the receipt of your letter of May 23rd, on the subject of the release of certain prisoners now interned.

I am, Madam,
Your Obedient Servant,

PRIVATE SECRETARY.

Mme. Esther Fahmy Wissa,
[illegible] Pasha,
Ramleh,
Alexandria.

دار المندوب السامي

الرمل

٢٧ يوليو ١٩٢٣

سيدتي العزيزة مدام ويصا،

رداً على خطابك بتاريخ اليوم،

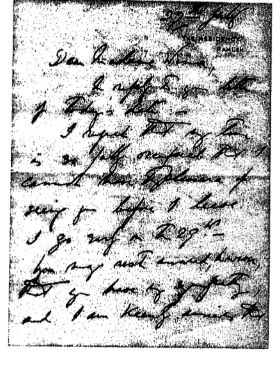
فإني اعتذر عن عدم إمكاني التشرف بمقابلتك قبل سفري وذلك لإنشغالي الشديد طول الوقت وقد تحدد سفري يوم ٢٩ الحالي.

وعلى كل حال، يمكنك التأكد بأني أكن لك كل التقدير، كما أني أتشوق إلى إمكانية وصول سعد باشا زغلول إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية.

المخلص

اللنبـــــي

ملحوظة: لم يعثر بين أوراق استر على خطابها المشار اليه في خطاب اللورد اللنبي.



27th July

THE RESIDENCY
RAMLEH

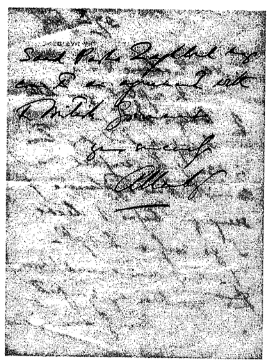
Dear Madame Wissa,

I reply to your letter of to-day's date.

I regret that my time is so fully occupied that I cannot have the pleasure of seeing you before I leave.

I go away on the 29th.

In any case [illegible], you have my sympathy, and I am keenly anxious that



Saad Pasha Zaghlul may come to an agreement with the British Government.

Yours sincerely

Allenby

دار المندوب السامي

الرمل – مصر

٨ اكتوبر ١٩٢٤

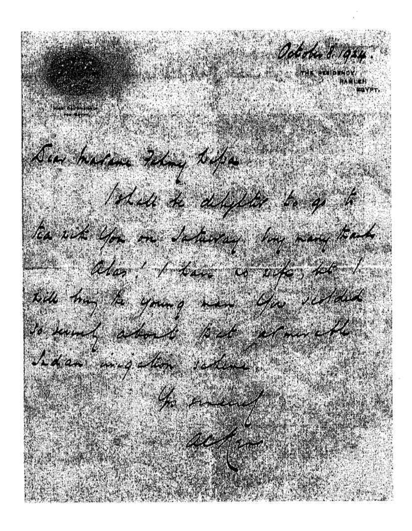
سيدتي العزيزة مدام فهمي ويصا،

أبلغك سروري لذهابي معك لتناول الشاي يوم السبت، واشكرك جداً على ذلك، وللأسف، فانه ليس لدي زوجة، ولكني سأحضر معي الشاب الذي قمت بتعنيفه بشدة بشأن خطة الري السودانية.

المخلص

أ. سي. كار

توقيع



October 8. 1924.

THE RESIDENCY,
RAMLEH,
EGYPT.

Dear Madame Fahmy Wissa

I shall be delighted to go to tea with you on Saturday. Very many thanks.

Alas! I have no wife, but I will bring the young man you scolded so severely about that admirable Sudan irrigation scheme.

Yrs sincerely

A C Kerr

الرمل

١٦ اكتوبر ١٩٢٤

سيدتي العزيزة، مدام فهمي ويصا،

أعتذر لكم بشدة عن عدم تمكني قبول دعوتكم الكريمة على العشـاء، وكـان شـيئاً رائعـاً أن تفكـري في ذلـك وأرجـو أن تتكرر الدعوة في وقت آخر.

وللأسف فإني مرتبط اليوم على العشاء مع بعض الصهاينة من القدس كمـا أنـي مدعـو للعشـاء يـوم السـبت مـع بعـض أنصار زغلول باشا.

اشكرك جزيل الشكر،

كما أننا تمتعنا جميعاً بحفل الشاي.

المخلص

توقيـع

كـــــــار

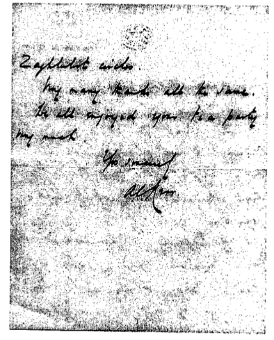
Ramleh

October 16. 1924.

Dear Madame Fahmy Wissa

I was so very sorry not to be able to accept your kind invitation to dinner. It was charming of you to have thought of it and I hope that you will think of it again some time.

Unhappily I have some Zionists from Jerusalem dining with me tonight and on Saturday I am engaged to dine in your own



Zaghlulist circles.

My many thanks all the same.

We all enjoyed your tea party very much.

Yours sincerely

[illegible]

دار المندوب السامي
القاهرة
٢ نوفمبر ١٩٢٤

سيدتي العزيزة مدام ويصا ،

اشكرك جزيل الشكر على خطابك بتاريخ ٢٩ اكتوبر. ونخطرك بأني وزوجتي في صحة طيبة ، وقد قضينا سفراً ممتعاً وأجازة سعيدة.

وأنا آسف ايضاً لأنه لم يتم أي مفاوضات مثمرة بين حكومتينا ، ونحن نأمل الوصول إلى اتفاق مُرض وأفيدكم بأني مهتم بكل ما تقولين ولكنك تخطئين لأنك تعتبرينني سياسياً أو متحيزاً كما اني لست كما يبدو من افكارك – خائفاً من عمل الحق ، وعموماً فإني اشكرك على نصيحتك.

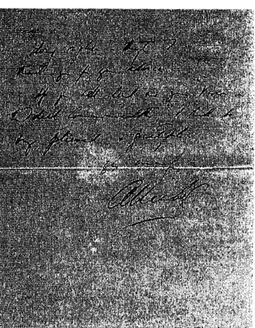
وسأكون شاكراً اذا أمكنك إعارتي كتاب: " نظرة على الكومنولث المثالي ".

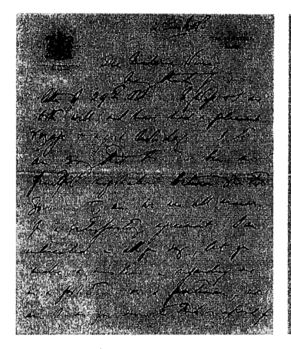
والســــــــــلام ، ، ،

المخلص

اللنبـــــــــي

ملحوظة: لم يعثر في أوراق استر على خطاب موجهاً منها إلى لورد اللنبي في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٤ الـذي اشار اليـه في خطابه أعلاه.





دار المندوب السامي
القاهرة
٩ نوفمبر ١٩٢٤

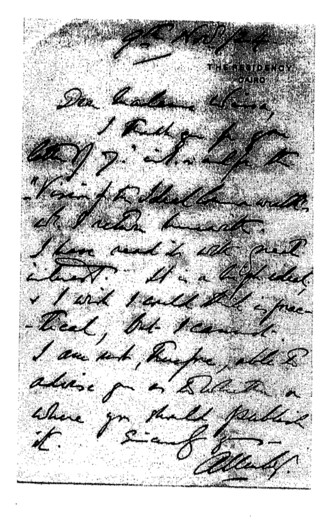
سيدتي العزيزة مدام ويصا،

اشكرك على خطابك بتاريخ ٧ الجاري، وكذا على 'نظرة الكومنولث المثالي' التي اعيدها طيه. فقد قرأتها بكل اهتمام. انها نظرة مثالية عليا، وأرجو أن أتمكن من التفكير فيها بشكل عملي ولكني لا أستطيع، ولذا فإنه ليس بامكاني أن أنصحك كيف وأين تقومين بطبعها.

المخلص

اللنبـــــــي

ملحوظة: لم يعثر في أوراق استر على خطاب منها بتاريخ ٧ نوفمبر ٢٤ الذي أشار اليه في الخطاب أعلاه.



9th Nov. 24

THE RESIDENCY
CAIRO

Dear Madame Wissa,
I thank you for your letter of 7th inst. & also the "Vision of the Ideal Commonwealth" which I return herewith.
I have read it with great interest. It is a high ideal & I wish I could think it practical, but I cannot.
I am not, therefore, able to advise you on whether or where you should publish it.
Yours sincerely,
Allenby.

فندق كونتنينتال سافوي

القاهرة

٢٤ نوفمبر ١٩٢٤

إلى صاحب السعادة

فيلد مارشال. لورد اللنبي.

القاهرة

صاحب السعادة،

لقد كان موت سير لي ستاك لطمة قاسية للشعب المصري، ليس من المنظور السياسي، ولكن لأنها جريمة تتسّم بالجبن والخِسة.

وهذه المؤامرة وضعت الشعب في ورطة كبيرة، وكان القصد منها وضع الأمة في موقف سيء. وإننا نندب الرجل شخصياً لأنه كان طيباً ورقيقاً. ومن المؤسف أن الرجال الصالحين عليهم أن يعانوا من تصرفات الرجال غير الصالحين. وعلى أيّة حال، فإني أعتقد مخلصة بأن الجريمة ستعود على مرتكبيها، وأن الجناة سينالون جزاءهم العادل من العقاب.

ولكن أرجو أن تكون على أتم الثقة، بأنه لا يمكن لأي شخص، يعمل من أجل الوطن، أن يكون له يد في هذا الأمر، وقد تم تدبير هذه الجريمة للمنفعة الشخصية وعلى حساب الوطن.

ولكن الذي لم استطع أن أتفهمه، هو ما فعلته الحكومة البريطانية مؤخراً. ماهو العائد السياسي الذي ستحققه من جراء ذلك؟. إن فكرة بّث الرعب في قلوب الشعب ما هي إلا أسلوب مُنقرض، ولا يحقق أي مكاسب في معظم الأحيان. إننا لسنا خائفين، ولن نخاف أبداً. إن أرواحنا، وانتماءنا تحت تصرفك. ويمكنك السير قُدُماً في طريقك.. إن الشخص الذي يحب أباه وأمه، ابنه أو ابنته، أكثر من مبادئه فإنه لا يستحقهم. "والذي يضع يده على المحراث لا ينظر خلفه".

وبالطبع، فإن مقتل سير لي ستاك، ما هو إلا ذريعة اتخذت لتنفيذ السياسة التي ترغبونها منذ البداية. وكل العالم يعلم ذلك، وكنا على يقين بحدوث ذلك، بل كان متوقعاً وتم التنبؤ به وذكره من قبل.

من المتيقن، حتمية حدوث الكوارث، والويل لمن سيتسبب في حدوثها.

وفي اعتقادي الشخصي، أن جميع السياسيين البريطانيين الأذكياء، قد ماتوا وأن قادتكم الحاليين يفسدون كل شيء. إن السياسة المتبعة حالياً ليست خسارتنا نحن، حتى برغم امكانية فقدنا للأموال والأرواح وأشياء أخرى،

ولكنها ستسبب الضرر لكم أنتم. وأنا لا أعنيك شخصياً بالطبع، ولكني اقصد السياسة البريطانية.

إنني اعتقد أنكم تمثلون اداة العقاب الإلهي، ضد الشعوب التي تريد أن يباركها وهي مصر وآشور واسرائيل.

لقد سُلِّمَت لكم في أيديكم – ولكن من خلال اضطهادكم لهم ونار الحزن والأسى التي قد تصيبهم – ربما يمكنهم معرفة وفهم سرّ الحياة وارادة الله، ولكن الشيء المؤكد هو أنه سيتم خلاصهم وان هذا الخلاص على وشك الحدوث.

وارجو أن تقرأ أشعياء ١٠، ١٩.. وتذّكر أنه بالرغم من أن فصل ١٠ قد تحقق مرة إلا أنه مرتبط بالسعادة المطلقة الألفية التي لم تتحق بعد. ثم اقرأ دانيال ١١: ٤٠.

ان النظام الامبريالي القديم للحكومة اصبح عتيقاً جداً ويعتبر من الآثار القديمة بالنسبة للجيل الحالي بل اصبح مترنحاً كالسكير. إن الشعب ثائر الآن.. وهذا النظام سيقضي على نفسه بنفسه. وسيدخل غمار حرب أخيرة ولكنها ستكون رهيبة وسيعاني منها أولئك الذين يقفون بجانب الحرية والعدل والحق.. وكل هذه الكوارث والمصائب انما سببها الأساسي هو حب الإمتلاك والجشع والحصول على ما في يد الغير.

وستظهر الشعوب بمعدنها الحقيقي. إن السياسيين الأذكياء كانوا يحجبون هذه الحقائق عن أنظار شعوبهم في الماضي، ولكنهم لن يستطيعوا المضي إلى أكثر من ذلك في الحرب الأخيرة.

فلتستمر على السياسة البريطانية المتبعة، ولكن عُدّ إلى بلدك يا لورد اللنبي. فإن هذا الوضع لا يتلائم ومكانتك، فإني لا أرضى للشخص الذي أُكِنّ له الاحترام والتبجيل وأثق في نُبله أن يتحمل مغبّة السياسة المقبلة. ولندع شخصاً آخر، تسمح له طباعه الشريرة أن يتحملها كاملة. وإذا أمّد الله في عمرينا بعضاً من السنوات، فقد يمكننا التحدث عن هذا الماضي ثانية.

قد لا اتمكن من مقابلتك ثانية يا صاحب السعادة، ولذا فإني أبعث اليك بأطيب تمنياتي.

وإلى اللقاء،،،

المخلصة

استر فهمي ويصا

المقر الرئيسي
القاهرة
٢٤ نوفمبر ١٩٢٤

سيدتي العزيزة مدام ويصا،

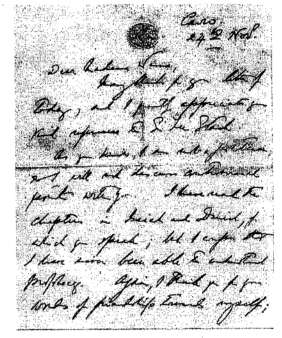
اشكرك جداً على خطابك المرسل اليّ اليوم، مع تقديري العظيم على شعورك الطيّب بالنسبة للسـير لي ستاك.

وكما تعرفين، فانا لا أعمل بالسياسة، لذا فإني لن اناقش معك نقطاً تثير الجدل. لقد قـرأت الأجـزاء التي أشرت اليها في إصحاح اشعياء ودانيال ولكني أعترف لـك، بـأني لم أتمكـن ابـداً مـن فهـم موضـوع النبوة.

أكرر شكري على كلمات الصداقة الموجهة نحوي.

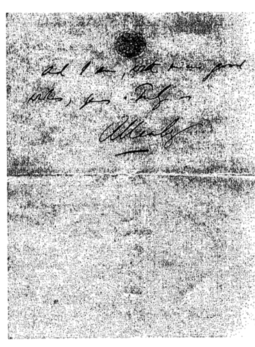
مع أطيب تمنياتي المخلصة،،،

المخلص
اللنبـــــي



Cairo.
24th Nov.

Dear Madam Wissa,
Many thanks for your letter of today, and I greatly appreciate your kind references to Sir Lee Stack.
As you know, I am not a politician, and will not discuss controversial points with you. I have read the chapters in Isaiah and Daniel, of which you speak; but I confess that I have never been able to understand prophecy. Again, I thank you for your words of friendship towards myself;



and I am, with kindest good wishes, yours truly,
Allenby

شارع عماد الدين
القاهرة
٢٨ فبراير ١٩٢٥

إلى صاحب السعادة،
فيلد مارشال – لورد اللنبي
القاهرة.

صاحب السعادة،

إني أتعجب من جدوى استمرار الناس في سوء الفهم. وعلى كُلٍ، فإنه يبدو لي أن جميع الكوارث التي عرفها العالم قد تكونت وتراكمت نتيجة لسوء الفهم، أو نتيجة لرفض البعض تفهم الوضع على وجهه الصحيح.

إني أخشى، أن تنتهي السياسة المتبعة حالياً في مصر إلى حدوث كارثة. ومن الواضح، أن انجلترا لم تضع في اعتبارها بعد، الطبيعة الحقيقية للحركة السياسية المصرية: وهي تظن، أنها بتدميرها لوضع زغلول باشا في مصر، ستتمكن من جعل الموقف مستقراً، ولكن بعيداً عن الحقيقة.

أرجو أن تصدقني، لورد اللنبي، إن ما أقوله لك إنما يتسّم بالإخلاص، لأنه لا يمكنني أن أكون غير ذلك، وكل ما في الأمر أني أرغب فقط في إنقاذكم وإنقاذ أنفسنا من المشاكل العديدة التي لا مبرّر لها وهي التي تدفعني بالرغم من كل شيء لمناشدتك واللجوء اليك. إن الحركة المصرية سوف تستمر، حتى لو تحطم زغلول. وإننا مصممّون على إنقاذ وطننا حتى لو كان الثمن هو حياتنا. وهذا لا يعني انقاذه من الإحتلال البريطاني فحسب وإنما أيضاً إنقاذه من نفسه. إننا نريد أن نعلّم شعبنا، الحكم الديموقراطي الصحيح الذي يرتكز على الأسس الحقيقية للعدل والحرية. إننا نوّد أن نصنع من هذا الشعب، شعباً شريفاً، أميناً في حياته، جديراً بأن يحمل اسم هذا البلد الرائع، ذي الحضارة العريقة.

وأنا أعتقد، أنه يمكنك التعاطف مع طموحاتنا، وبالرغم من التحيز الشديد ضدنا في كل الأمور، فإني على ثقة – يا صاحب السعادة – بأنك ستقدر المشاعر التي تدفعنا للكفاح، وعدم فقدان الأمل، وعدم تساهلنا، حتى تحقق مصر مطالبها العادلة للاستقلال.

وأرجو أن تصدقني عندما اقول، أن حب مصر، هو الذي يدفع مشاعرنا، وليست كراهيتنا لإنجلترا. وكنا نأمل أن تقوم انجلترا بمحاولة تجعل من شعب مصر شعباً مخلصاً حقاً. ونحن نلوم سياسة بريطانيا

في مصر لتجاهلها هذه الحقيقة. والآن وبعد الإطلاع على صحفكم وبياناتكم في البرلمان، فإننا لا نعرف حقاً ماهو حقيقة وضعنا. إنه من أحد المستحيلات، محاولتكم إحباط آمالنا، وإقناعنا بأن نصرف النظر عن حقوقنا الوطنية. وجَعْلنا نصدّق أن القدر الضئيل من الاستقلال الذي تعشموننا بالقائه لنا هو هبة أو نعمة فهذا غير وارد على الإطلاق بالنسبة لنا.

إن حقوقنا الوطنية شئ مقدس بالنسبة لنا، وقد عقدنا العزم على نَيْلها، إن لم يكن اليوم فسيتحقق في الغد.. إننا نأسف للمبادئ التي تسير عليها الإدارة المصرية اليوم، والتي نلوم انجلترا عليها.. فإذا كانت انجلترا غير راغبة في مساندة ودعم هذه الأعمال الغادرة.. فيمكننا في هذه الحالة تنظيم الأمور بيننا طبقاً لقوانين دستورية. إن الهدف الذي تسعى اليه السياسة البريطانية لن تنجح في الوصول اليه. والاسلوب الوحيد الفعّال الذي يمكن لبريطانيا اتباعه مع المصريين هو ذلك الذي يتصّف بالامانة والصدق.

إننا لم نسببّ لكم اية مشاكل في الماضي، لاقتناعنا بأنكم قادرون على تقديم العمل الطيّب، أما الآن، وطالما أن الرجل الانجليزي غير صادق مع نفسه، فقد أصبح عديم القيمة في نظرنا.

ولا تَنْسى، أن المصريين ليسوا كأحد الأجناس الشرقية العادية، إنهم سلالة شعب قديم على أعلى مستوى من الحضارة وبالرغم من تلقيهم اللطمات من سياسات متتابعة، فما زالت بداخلهم نواة الحضارة القديمة، وهم في الواقع شعب يصعب فهمه وهم معضلة.

انني مصرية الأصل، وقد نشأت على النظم الغربية، لذا فإني استطيع أن أتفهم تماماً وجهة النظر المصرية ووجهة نظركم لو كانت علاقاتنا قد ارتبطت من بادئ الأمر بطموحاتنا، ونتج عقد معاهدة صداقة فيما بيننا، تتمشى مع نيلنا حقوقنا كاملة ومُعترف بها من شعبنا. لالتزمنا في هذه الحال بأن نكون أمناء في أي اتفاق يتم وضعه بيننا إلا أن انجلترا بأهدافها المادية ومتطلباتها الأمبريالية، قد أعْمَي بصيرتها، لذا نجد أنفسنا اليوم وكأننا على أسنة الرماح.

ان بقاء امبراطورية في الماضي كان ممكناً طالما اتبعت المناهج القديمة الشريفة. أما اليوم فالأمر مختلف فان امبراطورية تعني الآن قوة الروابط الانسانية، وروح التعاون التي تربط شعوب العالم ببعضهم البعض، بغاية الحصول على الخير لتحقيق المصالح المشتركة بين شعوب العالم.

إن انجلترا كان لديها الفرصة المواتية لاتباع هذه السياسة، ولكن حيث الجميع يشكون الآن في نواياها، فاني لا أعرف إن كان في استطاعتها استعادة الثقة فيها مرة أخرى.

وقد أصبح الوضع الحالي، سيئاً في جميع أنحاء العالم، ولا أدري ما إذا كان هناك أمل في السلام.. أني أخشى أن تكون هناك قلاقل عالمية ضخمة على الأبواب، وماذا سيكون موقف انجلترا؟ إن خلاصها يكمن فقط، من خلال تخلّيها عن طموحاتها الأنانية وتحقيق الآمال الانسانية الداخلية والخارجية.. وهذا يذكّرني بما جاء في الكتاب المقدس "كن مراضياً لخصمك، سريعاً مادمت معه في الطريق. لئلا يسلّمك الخصم إلى القاضي، ويسلمك القاضي إلى الشرطي، فتلقى في السجن. الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى تُوَّفي الفِلس الأخير". "متى ٥: ٢٥ – ٢٦"

وعموماً فان كل شيء بأمر الله القاضي العليّ، وسبحانه الذي ينظّم الحساب بين الظالم والمظلوم.. تُرى ! هل تستمر انجلترا في مقاومتها لحقوق الشعب؟ أني اترك لك هذا – يا صاحب السعادة – للتمسك بأسباب الحق، وهذا هدف أنبل بكثير من غزو أي ارض. والخدمة التي ستقدم لوطنك، ستكون اعظم من تلك التي ستقدم لوطننا، فهل هذا سيكون التصرف الذي سيتخذه الجندي البريطاني الشهير؟

والسلام،،،

المخلصة

استر فهمي ويصا

القاهرة

٢٨ فبراير ١٩٢٥

عزيزتي مدام ويصا،

أشكرك على خطابك المؤرخ بتاريخ اليوم، والـذي يحـوي تصوراتـك بالنسـبة للموقـف الراهـن. وإنـي استطيع، بل آمل أن لا يكون المستقبل بهذه القتامة كما تخشين،،،

المخلص

اللنبــــــــي

Cairo
28th Feb.

Dear Madame Wissa,
I thank you for your letter
of today's date – containing
your views on the present
situation – . I can but
hope that the future is not
so gloomy as you fear.

Yours sincerely

Allenby

سان جورج – الرمل
٥ مارس ١٩٢٥

إلى صاحب السعادة،
فيلد مارشال. لورد اللنبي
القاهرة.

صاحب السعادة،

ربما تتذكّر أنني اخبرتك في أحد خطاباتي التي أرسلتها لك بعد عودتك في نهاية الخريف الماضي " لاتخشى أبداً من فعل الصواب " فالحق دائماً أحق أن يُتبع. وقد أجبتني بأنك لم تخش أبداً من عمل الصواب والحق.

وأنا أودّ أن أسألك يا صاحب السعادة، هل تعتقد حقاً، أن السياسة البريطانية التي تنفذها اليوم هي الصواب؟

لأنك، أولاً، ناقم للجريمة البشعة باغتيال السردار، ونحن أكثر منك نقمة، وسخطاً.. كيف يخطر ببالك أن أنصار زغلول، لهم يد في هذه الجريمة؟ إن بعض القتلة مدّبري الجرائم في هذه البلاد يستغلونك، معتمدين على كراهيتك للحركة الوطنية، وعدم ثقتك في أنصار زغلول، وتصديقك بإمكانية إقترافهم للجرائم. هذه الجرائم التي ارتكبها هؤلاء القتلة ويحاولون إلقاء تبعيتها على أنصار زغلول.

وإذا فشلت في التوصّل إلى مرتكبي هذه الجريمة، وتطبيق العدالة عليهم.. فعندئذ تكون قد فشلت في فعل العمل الصائب. إن جميع الأشرار في مصر يستغلونك، ومازالت السياسة البريطانية في مصر تؤيد ذلك. إن الخَرْق البشع لمواد الدستور الجاري في مصر حالياً بواسطة الأيدي الخائنة التي تلجأ إليها دائماً لتنفيذ سياستكم، ستُنسَب للسلطات البريطانية. ولن يقع اللوم عليهم في الواقع، لأننا نعرف حقيقتهم الفاسدة الرديئة، ولكن اللوم كله سيقع على السلطات التي وضعتهم في مراكز قوة. وبالطبع فإن سياستكم هي التي ستكابد العناء في النهاية.

لقد بلغت انجلترا وضعها الدولي المرموق على أكتاف الانجليز الشرفاء الاتقياء، الذين كانوا يقفون دائماً بجانب العدل والصدق. ولكن، حينما يفشل رجالها في الاستمرار في اتباع السياسة الاخلاقية السليمة، فإن وضع انجلترا سيتأثر كثيراً. إن الرجل الانجليزي الشجاع كان يتعهد "بأن لإصلاح أخطاء البشر"، لايمكن أن يتغير اليوم ليكون الرجل الذي يسافر بعيداً لاستغلال أخطاء البشر ثم تنجح بعد ذلك؟

لا أحد مثلي يمكن تفهُّم وضعك، يا لورد اللنبي، ويستطيع أن يتعاطف معك، ولكن لأنـك تعتقد أن اهتماماتنا متعارضة، فإنك تتخلى عن الرجال الشرفاء من شعب مصر، وتساند المخادعين منهم..

يا للورطة التي تسبّبها هذه السياسة !! إن رجلاً شريفاً مثلك، يُجبر على إتبـاع سياسـة خاطئـة ثـم يُلام عند فشلها ! وكنت أتمنى أن يحاول وأحد من وزرائكم البريطانيين المحافظين المتازين، الموجودين حالياً في الحكم، أن يضع نفسه في هذا الوضع، لنرى كيف سيتمكن من حل هذا اللغز؟. ولكن دائماً هـذا هو الأسلوب المتبع، ودائماً ما تستخدم انجلترا رجالها كأدوات.

قل لهم، يالورد اللنبي، أن سيدة مصرية تقول: إن سياسة بريطانيا تشبه عَجلَـة، محورهـا الرئيسـي ليس سليماً (تعني السياسة البريطانية الحالية) ولكن ركائزها سليمة (رجالها الشرفاء المنفذين لسياسـتها) وهي التي تدير العجلة مؤقتاً لثقتهـــا فـــي صلاحيـة المحـور. ولكـن عنـد إكتشـافهم الحقيقـة ستسـقط انجلترا، ولن تنجو إلا عن طريق تصميم تلك الركـائز الشـريفة علـى تغيـير هـذا المحـور وتسـييرها نحـو الأهداف المستقيمة.

العالم كله يتحرك اليوم للأمام، تتغير العقائد، وتنمو الأفكار، ونجد تطوراً كبيراً في الأفكـار وتتسـابق بإندفاع للأمام. ومازالت انجلترا واقفة في مكانها، وعندما تأتي الريح بمـا لا تشـتهي السـفن، أو تتحـرك الأمور بشكل لا يرضيها، فإنها تفقد صوابها وتتقهقر نحو استخدام الوسائل البالية.

لا يمكن للرجل الانجليزي إلا أن يتحرك على خط مستقيم، لأنــه بطبيعتـه ليـس متمرسـاً في الغـدر، ولكنه على درجة من المكر تجعله يتمكـن مـن الحركـة في قنـوات ملتويـة. لـذا، فإنـه إذا أخطـأ الطريـق الرئيسي المستقيم يوماً وسار في الطرق الملتوية، فسيضل الطريق. وهذا ما تفعله السياسة البريطانية اليوم.

إن قلبي حزين على بلدينا، ولكني ارى الضوء يـبزُغ علـى بلـدي أكـثر مـن بلدكـم. اننـا نتحـرك إلى أعلى، لأنه يوجد صوت شريف يُسمع هنا، بينما تتحركـون إلى أسـفل لأنكـم ضللتـم الطريـق. قـل ذلـك لرجالكم السياسيين، وقل لهم أن سيدة مصرية هي التي تقوله لكم.

وصدقني، ان كل هذا ما هو الا ايماني الراسخ وامنيتي، في أن المبادئ السليمة العادلة للحكومة يمكن أن تتوطد في العالم كله لصالح البشرية.. وأن التحالف الشريف المتعاطف يمكن أن يحدث بين حكومتينـا لصالح الشعبين، وإرضاءً لكم وهذا ما يدعوني للجوء اليك، وكثيراً ما أتساءل، ألست أنـت الرجـل الـذي سيساعد مصر !

انني اعتز بمصر كثيراً، وأعتبر الفلاح الصغير المعدم ابناً لي، وسأعمل من أجله، حتى لو كلّفني ذلـك حياتي. ولكن ذلك بالطبع عن طريق العدل والانصاف.

اذن يا صاحب السعادة، ألن تتكاتف أيدينا لخلق مصر جديدة ورائعة؟ ان الأمـر يستحق، ولابـد أن يحدث، إننا على أرض صلبة، وأتمنى أن يسجل التاريخ اسمك، كرجل عظيم فعلاً، هل تـرى أن الأمـر جدير بالاهتمام؟

المخلصة

استر فهمي ويصا

صورة من خطاب السكرتير الخاص، المؤرخ في ١٠ مارس ١٩٢٥

دار المندوب السامي

القاهرة

١٠ مارس ١٩٢٥

السيدة / استر فهمي ويصا

سانت جورج – الرمل

الاسكندرية

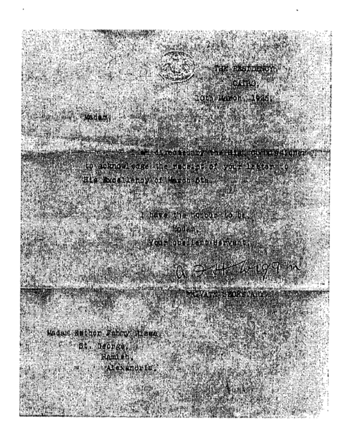
سيدتي،

كلفني المندوب السامي لأبلاغك، بأن سعادته تسلم خطابك المؤرخ في ٥ مارس

ولي عظيم الشرف يا سيدتي،

خادمكم المطيع

السكرتير الخاص



THE RESIDENCY,
CAIRO,
10th March, 1925.

Madam,

I am directed by the High Commissioner to acknowledge the receipt of your letter to His Excellency of March 5th.

I have the honour to be,
Madam,
Your obedient servant,

[illegible]

PRIVATE SECRETARY.

Madam Esther Fahmy Wissa,
St. George,
Ramleh,
Alexandria.

شارع عماد الدين
القاهرة
مارس ١٩٢٥

إلى صاحب السعادة،
فيلد مارشال لورد اللنبي
القاهرة،
صاحب السعادة،

حصل انصار زغلول على الأغلبية في الانتخابات مرة ثانية، بالرغم من الضغوط الشنيعة للحكومة. ويمكن لسعادتك، أن تتفهم مدى قوة الحركة الوطنية في الأمة. لقد تغيرت مصر، وتسيطر عليها روح جديدة اليوم، أننا جميعاً على استعداد للتضحية، بينما كنا في الماضي نضّن بالتضحية بأقل القليل.

صدقني، لا جدوى من سحق الوطنية في مصر، لذا فإن الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تفلت منه انجلترا من العقاب، هو أن تقوم بتشجيع حقوق الشعب، حق الفلاح، وسترى انه لا فائدة تُرجى من التلاعب بحقوقهم، بواسطة باشوات الدخلاء. انهم يمثلون الخطر الحقيقي على البلاد، وسيشكلون أكبر تهديد لمصالح بريطانيا في المستقبل، اذا لم يتم اخضاعهم للقوانين الدستورية التي يجب تطبيقها بحزم.

ومن الواضح تماماً، أن الأشخاص ذوي السلطة والنفوذ، يرغبون في سحق طموح الشعب، نظراً لأن المتجردين من المبادئ الأخلاقية، أصبحوا اليوم يعتدون على جميع القوانين، لإرضاء السلطة الأجنبية. وعندئذ تتم خيانة الوطن، وأنتم انفسكم، ستقعون في المحظور، ويتم خيانتكم ايضاً.

وأرجو ان تصدقني، ان الشخص الذي سيكون أميناً ضدك، سيكون أميناً معك، والعكس بالعكس. وهؤلاء الاشخاص ليسوا أمناء حتى مع انفسهم. واني اعلم، انهم يفكرون في تغيير القوانين الانتخابية وجعلها قاصرة على دافعي الضرائب والمتعلمين، واستبعاد الفلاح الفقير وهو العنصر الشريف الحقيقي في البلاد.

والخطر من ذلك لا حدود له.

وأني أستحلفك بالله، أن تقف وتساند الفلاح، كما تفعلون دائماً في وطنك. وصدقني، ان هؤلاء الاشخاص ليس لهم أي تأثير حقيقي على البلاد حالياً، انهم يخربونها. ولكني آمل الا تستمر في تشجيع ذلك.

ويوجد حالياً، أشخاص شرفاء في مصر، سيقفون بجانب الشعب. ولكني أود أن تبرهن لأبناء وطني أن البريطانيين ليسوا حقيقة بمثل هذا السوء الذي يظنونه. والوسيلة الوحيدة التي تمكنك من ذلك هي في تشجيعك على قيام حكومة ديموقراطية سليمة، على الرغم من هؤلاء الاشخاص عديمي الضمير. وهذه هي النصيحة الخالصة التي يمكنني تقديمها لك. لأني أعلم أن الاستقلال الحقيقي لن يمنح لنا، ولكننا يجب ان نحصل عليه بأنفسنا، والوسيلة الوحيدة لتحقيقه لن تتم إلا عن طريق التضحية والاستقامة. ويجب علينا التحرك في هذا الطريق وهذا في صالحك. ان مصر الكريمة المستقلة كحليف لكم لهي أكثر نفعاً لكم من مصر التابعة الذليلة. وحتى ذلك الحين، فاني آمل، انه في دفاعنا عن حقوق الغالبية العظمى من المصريين فاننا سنحصل على تأييدك في تكوين رجال شرفاء في هذه البلاد، الذين سيكونون عوناً للبشرية بدلاً من اعاقتها.

واني اتساءل عن مدى قبولك لهذه الاقتراحات التي قدمتها لك. انا لا اعلم، ولكني على ثقة بأن طريقينا ليسا بعيدان عن بعضهما البعض كثيراً. ان وطننا ووطنكم في الحقيقة ليس احدهما بعيداً عن الآخر. فنحن نقدم لكم المواد الخام وانتم تصنعونها، ويجب ان نعمل سوياً على اساس التعامل الارادي. ويلزم ايضاً لرفع الروح المعنوية لشعبنا وان كان ذلك سيتطلب مجهوداً لتحقيقه.

تُرى.. هل ستقوم يا صاحب السعادة بالمساعدة، أم اني سأواجه عقبات أخرى أناضل ضدها؟ اني سأترك ذلك لروحك العسكرية العالية، وطباعك الشريفة.

المخلصة

استر فهمي ويصا

ملحوظة: لم يُعثر على رد لهذه الرسالة ضمن أوراق استر.

سانت جورج

الرمل

٢ يونيو ١٩٢٥

إلى صاحب السعادة

فيلد مارشال — لورد اللنبي

القاهرة

صاحب السعادة،

اذا كنت قد تأخرت في التعبير عن أسفي العميق لمغادرتكم البلاد، فإنما يرجع ذلك لمرضي الشديد، فقد أصبت بحمى التيفويد لمدة شهرين. وقد عدت تواً لمنزلي في الرمل لقضاء فترة النقاهة. وفي الواقع، فهذه هي المرة الأولى التي أمسك فيها القلم لأكتب.

أننا ناسف بالفعل لمغادرتك البلاد، بالرغم من ان نصيحتي لسعادتك، كانت في التخلي عن منصبك. واعتقد انه يمكنــــك ان تستنتج الآن، ان تمنياتي المُفعمة بالمودة لشخصك، هي التي دفعتني لأن أقول لك ذلك، حتى ولو أدى الأمر إلى المخاطرة بسلامنا ورفاهيتنا المؤقتة. لأننا نعتقد ان محنة مصر الكبرى قد بدأت، وكنت لا أود لصديقي المبجل وهو الرجل الصالح الحقيقي الذي اراد الله أن يكون السوط المسلط على بلادنا.

نعم ان مصر ستقاسي، وبشدة. ولكن ذلك سيكون للصالح النهائي لشعبنا، ومن خلال المعاناة، فسيعرفون الاشياء الحقيقية التي لها أثر في الحياة، وسترتفع معنوياتهم عالياً.

اني لا اعلم، لأي غرض أبقى على حياتي خلال هذا المرض الطويل؟ ارجو أن يكون لتمكيني من القيام بالخدمة الشريفة الوفية لبلدي، والتي أعتقد انها ستحتاج لجولات كثيرة. ومازلت اتعشم انه من خلالك وانت احد رجالات انجلترا العظام، تستطيع ان تكون صديقاً ومؤيداً لمصر، وتقوم بالدفاع عن هذا البلد الفقير الذي وقع فريسة التآمر السياسي، ولا يجد من ينتشله، ولا حتى من بعض من رجاله..

وهل يمكنني حقيقة ان اقول، يا صاحب السعادة، انه بالرغم من اتباعك السياسة البريطانية، فانك وقفت في الجانب المعادي للرؤية السياسية. وانا قد اخترت الجانب الذي يهتم بمصالح وطني، ومع ذلك يمكنني القول، باني اشعر دائماً ان بحر الخلاف بيننا يمكن ان يقام عليه جسر، نستطيع ان نتقابل عبره، ونتصافح من فوقه كأصدقاء.

اننا نعيش زمناً تاريخياً رائعاً، ومن خلال الألم والعذاب الذي يمر به العالم ستكون الآلام مبشراً بميلاد تاريخ جديد، تُقتلع منه الأنانية والنزاع، وعندئذ فقط، يمكن للإنسانية ان تتعرف على نفسها، ومن ثم ربما يتحدث الأفراد مثلي ومثلك عن الماضي مرة ثانية وكأنه كابوس مريع لا يمكن ان يتكرر.

كنت أود ان أودعك، يا صاحب السعادة، وأودع حرمك المصون قائلة "إلى اللقاء"، ولكني لن أتمكن من الحضور إلى القاهرة، ولا أعلم ما اذا كنت – يا صاحب السعادة – ستحضر إلى الاسكندرية؟

وعلى أي حال فاني سأكون في غاية السرور، ولي عظيم الشرف لإستقبالك بمنزلي، وسأكون ممتنة إمتناناً عظيماً لو أمكنك توفير بعض الوقت لزيارتي.

ومهما كان الأمر، يمكنك التأكد من تمنياتي الطيبة لك، ومن صداقتي المخلصة وايضاً من تقديري العظيم لسجاياك الرفيعة. وبالرغم من الاختلافات الموجودة بين شعبينا حالياً، فاني ارجو أن يقوم كل منا بخدمة جليلة للآخر، ومن يدري.. ماذا يخبئ لنا المستقبل؟ وذلك بالطبع يمكن ان يحدث فقط على أساس النزاهة المطلقة المتبادلة بيننا، واعتقد انه لا يمكن الشك من تكامل تصرفاتنا.

باركك الله وجميع من يهمونك، وأرجو ان يمنحنا الله المستقبل السعيد المُشرق، ويجزينا خير الجزاء على نوايانا.

ومع تمنياتي لك بأيام سعيدة مشرقة، ارجو أن تهدي أطيب تحياتي وتمنياتي لحرمكم المصون الذي لم يسعدني الحظ في التعرف عليها أكثر.

المخلصة

استر فهمي ويصا

دار المندوب السامي

القاهرة

٣ يونيه ١٩٢٥

سيدتي العزيزة مدام ويصا،

أشكرك على خطابك المؤرخ بتاريخ الأمس، وامتناني على كلماتك الرقيقة عني..

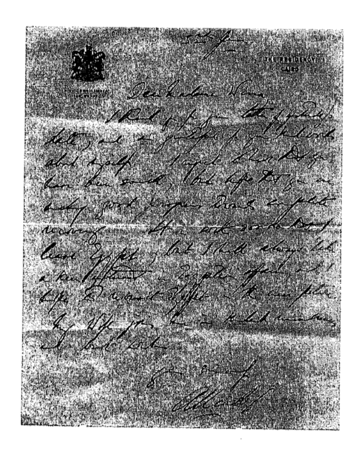
وأنا آسف جدا على سماعي بمرضك الشديد، وأتمنى أن تكوني في تحسن مستمر، وفي طريقك للشفاء الكامل.

إني حزين جداً على مغادرتي لمصر، ولكني سأولي دائما اهتماماً كبيراً بالشئون المصرية، وأتمنى أن أعود لزيارة مصر في المستقبل القريب.

وتشاركني زوجتي الذكريات الرقيقة وأطيب التمنيات،،

المخلص

اللنبــــــــــي



THE RESIDENCY
CAIRO

نسخة من الخطاب المرسل من "آرثر ويجين" في ٧ يونيه ١٩٢٥

دار المندوب السامي

القاهرة

٧ يونيه ١٩٢٥

عزيزتي مدام ويصا،

لقد أطلعت سعادة المندوب السامي على خطابك، وقد أسف جداً على تأخر وصول دعوته لك، ويبدو من سجلاتنا بأننا أرسلنا الدعوة فوراً وفي وقت مناسب.

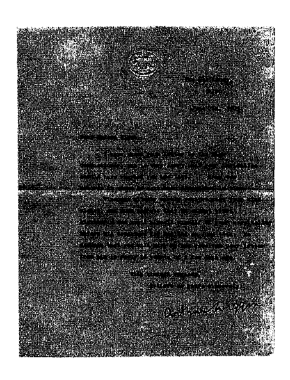
إن " الفيكونت اللنبي " يبادلك بحرارة تمنياتك الطيبة، ويشكرك على كرم دعوتك، ويأسف جدا لعدم امكانه زيارة الاسكندرية قبيل سفره لإنجلترا في ١٤ يونيه الحالي. ويرجو أن تكوني قد تسلمت خطابه الذي أرسله منذ أيام قليلة رداً على خطابك له.

مع أطيب التمنيات.

المخلص

توقيع

آرثـــــر ويجيـــن



صورة من خطاب السكرتير الخاص.

رقم ٠٢٥/١٤٠٨٣

دار المندوب السامي

القاهرة

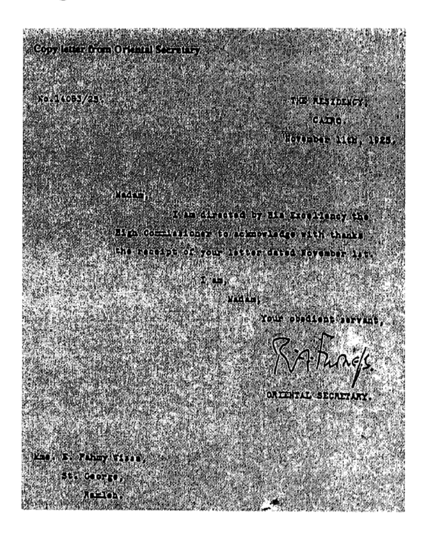
١١ نوفمبر ١٩٢٥

سيدتي،

كلّفني، صاحب السعادة المندوب السامي، بابلاغك بتسلم خطابك المؤرخ في أول نوفمبر، مع الشكــر.

خادمكم المطيع

توقيع



Copy letter from Oriental Secretary

No.14083/25.

THE RESIDENCY,
CAIRO.
November 11th, 1925.

Madam,

I am directed by His Excellency the High Commissioner to acknowledge with thanks the receipt of your letter dated November 1st.

I am,
Madam,
Your obedient servant,

ORIENTAL SECRETARY.

Mme. E. Fahmy Wissa,
St. George,
Ramleh.

صورة الخطاب المرسل لإستر فهمي ويصا، من صفية هانم زغلول حرم سعد باشا زغلول. وقد أرسل من جبل طارق بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٢٣ بعد أن تم نقلهم إلى جبل طارق من سيشيل التي نفي اليها سعد بمعرفة البريطانيين، الذين شعروا بأن مناخ سيشيل قد يكون ضاراً على صحته.

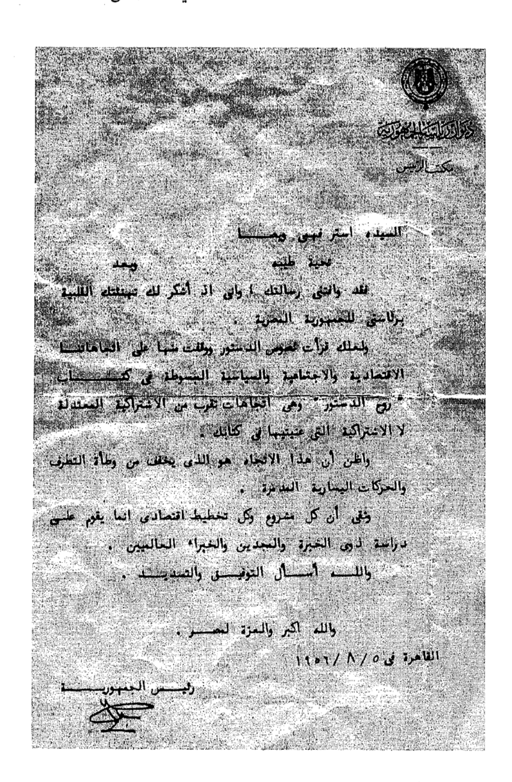
جبل طارق في ٣ ديسمبر ١٩٢٢

عزيزتي.

إذا لم أكتب إليك عقب وصولي فذلك ليس نسيانا لفضلك، ولا تقصيراً في الواجب نحوك. لأن فضلك لا ينسى وجميلك لا يكافأ. ولك في القلب المنزلة الرفيعة، ويشاركني في كل ذلك الباشا الذي يقدرك حق قدرك. ولكني كنت في تعب عقب وصولي وفي اهتمام بالباشا وصحته.وأحمد الله أنه قد خف التعب وتحسنت الصحة وانتظمت المعيشة نوعاً. ولهذا أكتب لا لأشكرك لأن العبارة تقصر عن شكرك ولا لأذكرك لأن ذكرك دائما في القلب حاضر، ولكن لأشرح صدرك بما تقدم من أخبارنا التي أعرف أنها تسرّك ولأسأل عن أخبارك وأتمنى أن تضعي من يكون لعينيك قرّة وللقلب مسرّة في صحتك التامة وعزّك الشامل.

صفيـــة زغلـــول

خطاب من رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر للسيدة / استر فهمي ويصا بتاريخ ١٩٥٦/٨/٥.



رئاسة الجمهورية

مكتب الرئيس

السيدة استر فهمى ويصا

تحية طيبة وبعد

فقد وافتنى رسالتك ، وانى اذ أشكر لك تهنئتك القلبية برئاستى للجمهورية المصرية .

ولعلك قرأت نصوص الدستور ووقفت منها على اتجاهاتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المبسوطة فى كتاب "روح الدستور" وهى اتجاهات تقرب من الاشتراكية المعتدلة لا الاشتراكية التى عنيتيها فى كتابك .

واظن أن هذا الاتجاه هو الذى يخفف من وطأة التطرف والحركات اليسارية المدمرة .

وثقى أن كل مشروع وكل تخطيط اقتصادى انما يقوم على دراسة ذوى الخبرة والمجدين والخبراء العالميين .

والله أسأل التوفيق والتسديد .

والله اكبر والعزة لمصر .

القاهرة فى ١٩٥٦/٨/٥

رئيس الجمهورية

خطاب من الرئيس أنور السادات للسيدة / إستر فهمي ويصا بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

الرئيس

السيدة / استر فهمى ويصا

رمل الاسكندرية

تحية طيبة وبعد

تلقيت رسالتك .. التي بعثت بها الىّ .. ومعها النسخة المترجمة الى العربية .. من كتابك " القلب الطاهر " التى بعثت بها .. هدية منك لى .. وقد نالت حسن القبول .

ولقد راقنى حسن اعداد الكتاب .. وتبويبه وما احتواه من موضوعات ودراسات وأبحاث دينية تحض على اتباع مبادىء المحبة والاخوة والسلام .. التى تحدثت عنها الكتب المقدسة .. وان اخراجه بهذه الصورة الممتازة .. يستحق كل التقدير .

لك منى أجمل الشكر .. على اهداء الكتاب لى .. وعلى ما عبرت عنه من كريم المشاعر .. نحوى .

مع خالص تمنياتى لك .. بالصحة ، والسعادة ، والتوفيق ..

رئيس جمهورية مصر العربية

٢٠/١/١٩٨١

الملاحق

ملحق رقم (١)

أهمية هذا الخطاب ترجع الى تاريخ تحريره في ٢٤ نوفمبر ١٩١٨ أي بعد احدى عشر يوماً من طلب زغلول باشا من الانجليز التفاوض بشأن استقلال مصر حيث يوضح ان العائلات القبطية كانوا من أوائل الأعضاء.

حضرة صاحب العزة جورج بك خياط العضو بالوفد المصري

انه بمناسبة انضمام الأعضاء الجدد الى الوفد قد ادلْيت التصريح الآتي

ابدي تشكراتي لحضرات الاعضاء المنضمين وخصوصاً حضرات جورجي بك خياط وسنوت حنا بك لأن رغبتهما في الانضمام الينا كشفت عن شعورهما بشرف غايتنا ونبل قصدنا واننا نريد ان نعمل يداً واحدة لخير الأمة المصرية لا فرق بين العناصر التي تتألف منها ولا يفتنا ان نُحيي هذا الشعور الا بالاحترام والاجلال لانه مطابق لحقيقة قصدنا موافق عما انعقدت عليه نياتنا في اننا لا نفرق بين اقلية واكثرية بل الكل في اعتبارنا أمة واحدة يتساوى افرادها في الحقوق والواجبات المدنية والسياسية ولا يتفاضلون الا بالكفاءات الشخصية والا لا يكون في الاستقلال التام الا تأكيد هذا المعنى وظهوره في أجمل صوره فوافق الجميع على ذلك التصريح ونظراً الى انكم لم تحضروا هذه الجلسة آثرت ان ابلغكم ذلك وتفضلوا بقبول تحياتي.

تحريراً في ٢٤ نوفمبر ١٩١٨ رئيس الوفد المصري

سعد زغلول

ملحق رقم (٢)

Appendix 2

An open letter to Lord Milner's Commission

Gentlemen,

Egypt has finally decided not to interview your honourable commission as long as it comes under the name of the British protectorate in Egypt. Representing the women of Egypt, we are also definitely agreed on that point. However, we would like to give you a fair idea of the present situation of Egypt, as it really is. Many have given their opinions on the 'why and what' of the Egyptian Movement, but though some have slightly touched on the truth, yet the whole is far from the truth.

The Egyptian Movement is wholly and thoroughly a patriotic movement, void of all religious, or Turkish influence. It has absolutely nothing to do with Bolshevism, and it is not an indirect outcome of the high cost of living, as some have declared. The country is in an excellent financial condition, and with a 'good deal of charity' and generosity our poor are provided for, as his Lordship is aware.

The Egyptian Movement is purely patriotic. Lord Milner in his book 'England in Egypt' spoke of the improbability of a revolution in Egypt. He considers the Arabi Revolution as the *strongest proof of the intensity of old misgovernment,* and he may be right. We may take it then that to-day's revolution is the *strongest proof of British misgovernment in Egypt.* Truthfully speaking, we can say that misgovernment was not the immediate cause of the present movement, but we cannot deny, that it had its part in arousing the dormant qualities of our ancient race. Egypt is the land of *paradox* as Lord Milner says, and it is not strange to see unexpected things suddenly happen. The spark of patriotic greatness, smothered for so many centuries, by the ashes of numerous invasions, and subdued by the influence of a darker civilization, than that which it enjoyed, in its own times, has existed all along.

British influence, though indirectly, and twentieth century civilisation directly, have helped, no doubt, to clear away these aches, and the late British misgovernment, and wrongful policy, have supplied the fuel for the present flame in Egypt. (We thank Great Britain, for so doing).

England has boasted of well governing Egypt for the past years. We THANK ENGLAND. Prestige had a great deal to do with England's success though as Lord Milner says 'There is no such thing as prestige'. It was not the prestige of military power that preserved the docility and pacific disposition of the race, during British rule (Egyptian do not fear guns); it was the prestige of England's good reputation. The Egyptian honoured the Englishman in former times because he lived under the delusion that the Englishman never commits anything dishonourable or dishonest.

He ranked the Englishman as the embodiment of truthfulness, honesty, justice, and other good qualities. He considered him as the man of fair play, who always keeps his word. His defects of course, he also knew extreme egoism and pride. The Egyptian looked up to the Englishman along with the well-known courtesy of the East, which perhaps accounted for the *hasty buttoning up of the jacket to the chin,* of the small 'effendi' when approached by a superior official, and which was mistakenly taken as a token of servility, which made a *most unfavourable impression on the typical Briton.* Nevertheless admiration leads to imitation, and imitation in time leads to acquirement, and even a delusionary reputation has its good effect on the admirer, and as even the small 'effendi' has gradually grown these qualities, whose roots have always existed in his heart, and it is

all thanks to the British Occupation.

England has declared time after time, that her occupation in Egypt was temporary, and, of a philanthropic nature. Lord Milner has confirmed this view of the occupation when he said, thát it is *exact opposite of the truth that the power of England is used without regard for the feelings and welfare of the people, and, with the sole object of furthering her own commercial interests, and paving the way to annexation.* Other English politicians have repeatedly declared their policy in the same tone, and we cannot understand why England has failed to stand by her word.

Imagine, Honourable Gentlemen the impression that England's policy has left on our minds. Her actions of late justify the conclusion we arrived at, and will you excuse us for putting it bluntly into words.

England *must* have come with the *sole object of furthering her own commercial interests, and, paving the way to annexation.*

England's ambition was to annex Egypt. It must have been only the fear of clashing with the interests of other great powers, that made her pretend otherwise, at that time, England entered Egypt on false pretexts.

She did not enter as a conqueror which would have been frank and more honourable; she seems to have preferred carrying out her policy by false declaration, she deprived all Egyptians of their arms; then under Martial Law, declared her protectorate, over Egypt. We were simply stolen in the dead of night, from our place with other powers. If England sees this as it really is, we still hope that she will not tread on her spirit of manliness and bravery and accept this abominable position. Furthermore. England cannot still the voice of our just protestations. From henceforth, we can only be governed by military force, and by that alone, and that is what British protection is amount to.

Egypt on the othêr hand, living under delusion believed England, she counted on her word of honour. She never suspected. She gave England every help. She furnished all requirements of the army in Palestine. She gave her men, her beasts, and her crops. She became the military centre of the British army in the East, and all in goodwill, in confidence counting on England's honour and England's sence of justice.

She found out, but only too late alas: that in helping to crush imperialism in Germany, she had fallen into the jaws of a greater imperialism, and this was the nation on whom she lavished her confidence and affection.

Do you wonder then, most Honourable Gentlemen; that Egypt protests, that Egypt now suspects and distrusts, that Egypt cannot and will not parley with you; your sense of British traditions alone can answer you and we hope they will.

Representing Egypt's mothers, sisters and daughters, we would inform you that there are only two alternatives to the EGYPTIAN QUESTION: England must either keep up to her reputation and reconquer our respect and friendship or in other words, stand by her word, a word she signed, and endorsed. England should abolish immediately the Protectorate, and should give Egypt her just claim of INDEPENDENCE. If so, England shall be our friend, our benefactor and evertything that is desirable and compatible with our complete independence. She will still have a hand, as the promoter of the welfare of Egypt, thus helping the children of the Pharaohs to live to the virtues and traditions

of their great fathers. Are we not worth the trials.

Ther other altermative, and it will be a sad one, will be, - England blinded by greed and love of material gain, will crush the sense of honour and will take Egypt first stealthily, and then by force.

Our protests will be met by firearms as we have already witnessed England has enough power to do so with her army, navy, and aerodromes. But we shall protest, and protest. We shall fight armless; our blood shall soak the soil of our fathers, and we shall die happy.

Perhaps our history in the time of the Romans and afterwords endorses these last words. Do not forget Honourable Gentlemen, the one hundred thousand martyrs, at the time of Diocletian, and please note that these Egyptians that left their mark on history, are the fathers of these, who will seal present, history, and their blood is the same.

We beg you to excuse our frankness, but perhaps it is better to be frank, especially in a time when all the world is sick of hypocrisy, and the old system, and, nothing can remain after the great conflict of the world of to-day, but LIBERTY, JUSTICE and TRUTH. Virtues will come up topmost in the long run, and we hope that Great Britain will not fail to be its champion.

THE WOMEN OF EGYPT

Public meeting of Egyptian Women

St. Mark's Cathedral

Cairo, December 12th, 1919

ملحق رقم (٣)

الوفد المصري

DELEGATION EGYPTIENNE

مصر في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٢ Le Caire, le 192

حضرة السيد المحترم

وصلني خطابك الذي [illegible] أحببت [illegible] عليه أفيدك أن هذه المسألة أخذت
زمنا طويلا من أعمال الوفد [illegible] جلسات وذلك لأن لجنة [illegible] التي هي أول [illegible]
الترشيح كتبت للوفد [illegible] ترشيح [illegible] لما له من صفات كثيرة ذكرت
من شأنها أن لا يمكنه أن يرشح عضوا للبرلمان

ولما نظر الوفد في ذلك قرر بالإجماع [illegible] معالي الرئيس عدم ترشيح
وقد طلب معالي الرئيس [illegible] اللجنة والوفد في ذلك مرتين فأجمع جميع الأعضاء على قرارهم
[illegible] السيد المحترم [illegible] وأؤكد لك أني وجميع إخواني الذين كانوا [illegible]
[illegible] كنا [illegible] أول مسألة [illegible]
[illegible] ولكن [illegible] معالي الرئيس [illegible] الوفد بأجمعهم
[illegible] كانت المشادة فيه شديدة جدا لما [illegible]
أن هذه المسألة [illegible] التوسع فيها [illegible]
[illegible] المطلوبة

وأؤكد لك أيضا أن جميع أعضاء الوفد يقدرون لك الاحترام العظيم
[illegible] وطنيتك

فلهذا [illegible] علما أنه [illegible] الوطنية [illegible]
[illegible] هذه الأوراق وأن [illegible]
[illegible] المطلوبة

وفي الختام أقدم لحضرتك مزيد احترامي وعظيم [illegible]

ملحق رقم (٤)

باريس ٢ فبراير ١٩٢٥

السيدة الرئيسة، سيداتي،

أسعدني أن اتيحت لي فرصة اللقاء ثانية مع بعض أعضاء مؤتمر باريس، والتي تركت أثرا طيباً في أذهاننا.

كان الرجال يصوروا المناديات بحقوق المرأة * في الماضي، على أنهن نساء جريئات، يرغبن في الخروج من سلطانهن للتعدي على سيادة الرجل.

ولم يكن الحال كذلك بالنسبة لقضيتنا، لقد خرجنا من مجال ضيق الذي كان مخصصا لنا، لنقوم بمساعدة الرجل في تحقيق طموحاته السياسية، وعند التعرف على مواطن ضعفه وعيوبه، فاننا اخذنا على عاتقنا المشاركة بالنصيب الأوفر من المسئولية، ونحن نلفت نظر شعبنا إلى طريق الحق الضيق جدا الذي سيصل بهم إلى الحرية والتحرير.

وبالنسبة لكم، فقد لاحظت انه لم يكن هناك رائداً في النضال الشاق إلا ولديه الهدف المثالي النبيل الذي يدفعه للأمام، وهذا هو الإيمان العظيم بالقضية، واقتناعه الراسخ لأفكاره التي تعطيه القوة والشجاعة ليناضل في معركة الحق الشاقة ضد القوة الغاشمة. وفي الواقع، فانه بعد تحقيق النجاح فقط، ينضم اليهم ذوي الافكار الاقل تحمساً لذلك. فان النساء بعدم انانيتهن استطعن الصمود أمام تلك العقبات، وبالجهود الرائعة لهؤلاء السيدات الرائدات، اللاتي وقفن في البرد والظلام في موقف سخرية وازدراء، رافعات شعار المساواة في الحقوق، حتى ادرك الرجل بتصوراته البطيئة، ان المرأة كانت له نعم السند ونعم المعين له، وعليه أن يقبلها على هذا الأساس.

والآن، فاني على ثقة، أن المرأة لم تأخذ هذه المبادرة، بترك المأوى الدافئ للمنزل، بكنوزه الرائعة – أعني بذلك الأطفال – من أجل ممارسة حق التصويت فحسب. ان حق التصويت كان سبباً فقط ولكنه ليس الغاية.

أما الغاية فكانت في تحسين الظروف التي تعتمد عليها سعادة الأسرة، ولذلك فقد كرهت النساء الفقر

---

* حركة المناديات بحقوق المرأة بدأت أصلا في انجلترا. وكلام هذه المقالة ينصب على هذه الحركة.

والجهل والقذارة التي تؤدي إلى المرض والجريمة وعدم الاستقرار.

إن المرأة نظرت باهتمام إلى الجماهير المعذبة، وشعرت أنها لم تكن قضية البقاء للأصلح، وانما القضية هي انتشال الإنسانية من خارج أكوام الرماد التي كانت ملقاة فيها. وقد أدركت أن الشعور القومي مثل الشعور العالمي، وأن أي جزء مريض في المجتمع فانه ينقل الألم إلى باقي الأجزاء. ومن أجل صحة وصالح الكل يجب معالجة هذا الجزء.

والآن، من يستطيع خوض معركة المضطهدين ؟ انهم هم انفسهم الذين تم سحقهم تحت وطأة ظروفهم القاسية. وهم الذين لم يسبق لهم أبداً التمتع بمكاسب التعليم العالي والتثقيف، ولا يستطيعون استخدام أسلحة الجدال والتحاور بنفس مهارة الخصوم، الاكثر حظاً، والذين كافئتهم الحياة باعطائهم أفضل مافيها. واذا تركنا الضعفاء لخوض معركتهم فانه لن يمكنهم الصمود، بل ستدفعهم هزيمتهم وثقل أحوالهن البائسة إلى حد اليأس، الذي يؤدي غالبا إلى الثورة وإراقة الدماء. وهذا ببساطة سيؤدي إلى قلب الأوضاع.

لا يا سيداتي، لابد لشخص آخر من خوض معركتهم، شخص يتمتع بأفضل ما في الحياة في نواحي التعليم، الثقافة والظروف المواتية المرضية. لا نريد أن نسمع صراخ الشاكسين المضطهدين، ولكننا نريد أن نسمع الصوت القوي للشخص السعيد الناجح مدافعاً عن قضية الضعف والاستكانة. وهي ليست الوسيلة لاشباع الفم من الجوع، أو سد أفواههم بكسرة من الخبز لسد احتياجاتهم الملحّة، ولكنها الوسيلة المؤثرة التي نريدها، والتي سوف تضمن أسلوباً صحياً للتعاون في النهوض باحتياجات البشر جميعا. والمسئولية الثقيلة تقع على عاتقنا نحن السيدات.

لقد وصل العالم هذه الايام إلى مرحلة جلوس عبيد المال جنباً إلى جنب عباد الله سويا على عرش العبادة * والاضطراب والتشويش الموجود حاليا في العالم ينذر بالانفجار. وسنحاول تفادي الانفجار بأخذ جانب الحق ضد القوة. واذا حدث أن القوة لن تهتم برغم الجهود العظيمة المبذولة، فانه ربما سينشأ – نتيجة للإنفجار – طريقاً واضحاً ومحدداً تقطعه النساء، ويحتمل أن يبقى بين أطلال النظام القديم كطريق موصل إلى أمور أفضل.

---

* " لايقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يُبغض الواحد ويُحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لاتقدرون أن تخدموا الله والمال " انجيل متى ٦ : ٢٤.

ولكن، لابد أن تكون المرأة على اقتناع برسالتها، ويجب أن تــدرك أنهــا لا تنحــرف يمينــا أو يســاراً خارج مسار الحق المتناهي في الضيق. ومن ثم فمن المحتمل أن يسود الحــق في الســلام الــذي نشــأ نتيجــة جهود النساء، وربما يكون من نصيب البشرية حظاً أوفر في حقبة جديدة وسعيدة.

إني أقول الطريق ضيق، لأن مسار الحق ضيقاً جداً، وهو ضيق إلى حد أنه في بعض الأحيان يمكن أن تصبح التقوى طغيانا، ولنا أن ندرك أن الحرية الحقيقية والنية الطيبة وروح المحبــة، يحتمــل أن تكــون العوامل المسيطرة على كل تصرفاتنا. وبروح التواضع والطيبة فان مستوى جديدا من الزعامة سيقدم نفســه للعالم، والذي يمكن ان يصبح الأعظم ويجب عليه أن يكون خادماً للجميع.

ملحق رقم (٥)

إصلاح التعليم

إلى صديقتي العزيزة شريفة رياض،

قرأت باهتمام الحديث الصحفي الذي أدليتي به لجريدة الديلي تلجراف واني اتفق مع ما أبديتيه من اهتمام لإصلاح التعليم وخاصة في مدارس البنات وقد فكرت كثيراً في هذا الأمر، وأتمنى أن يكون في الإمكان تحقيقه.

واني اتفق ايضاً مع بيانك بأن السيدات المصريات قد اندفعن بسرعة شديدة للأنضمام للأحزاب السياسية ولكن هناك نقطة واحدة قد اغفلتيها، ألا وهي اننا عندما دخلنا الساحة السياسية لم يكن هناك أية احزاب نسائية في مصر وكنا جميعاً وبالأجماع خلف مبادئ حزب الوفد المصري مناديات بالاستقلال التام لمصر والسودان.

ولكن عندما انشقت بعض العضوات عن الوفد، فأننا لم نحذو حذوهن، ولكن وقفنا بثبات ولذلك فأني لا أظن ان ذلك يمكن ان يطلق عليه بالتحزّب واذا كنا قد احتفظنا بمبدأنا الأصلي، فمعنى ذلك ان جمعيتنا النسائية الأولى قد بقيت فوق الأحزاب السياسية. وقد بدأت هذه الإختلافات قبل عودة سعد زغلول من المنفى، وقبل تشكيله للحكومة بفترة طويلة، ونتيجة لذلك ركدت جهودنا، ونامت جمعيتنا لمدة عامين، وخلال هذا الوقت كان عملنا محدوداً جداً.

ولكن عندما فشلت المفاوضات نتيجة قيام بريطانيا بتثبيط طموحاتنا، وبعد الحادث المخزي لاغتيال السردار، الذي استغله البريطانيون لإخماد حركتنا الوطنية، فقد قمنا بتشكيل اللجنة السعدية للسيدات، لنقاوم الخطر المقصود به التخلص من هويتنا الوطنية من خلال اضعاف ارادتنا وتصميمنا على الكفاح.

لذلك ترين يا سيدتي، انه لا يوجد مكان للأحزاب السياسية في لجنتنا، اننا نساند كل الذين ينادون بالاستقلال التام لمصر والسودان. وعلى هذا الاساس فاني لا امانع في العمل معك بشرط عدم خضوعنا لأي مؤثرات خارجية، وعدم تدخل الرجال في عملنا، وتركنا نعمل ما تمليه علينا ضمائرنا، لصالح هذا الوطن، الذي آلينا على أنفسنا مساندته بكل ما أوتينا من قوة، وان نضحي في سبيله بكل عزيز وغال.

ويرجع السبب في عبودية مصر، ياسيدتي، إلى انحدار اخلاقيتنا، وقبل ان يستطيع المصري من ان يكون حراً في هذا الوطن، يجب عليه ان يدرك معنى الحرية والتضحية والشجاعة، وان يتعلم مساندة

الحق، مهما كلفه ذلك، وان يسير في طريق العدل واضعـاً نصب عينيه المصلحة العامة، قبل اهتمامه بمصلحته الشخصية، وان لا يتوقع أي مكافـأة او منفعة شخصية نظير مجهوداته العامة، ويجب ان يدرك المرء انه هالك يوماً ما بينما المبادئ هي الخالدة إلى الأبد.

وما لم يكن المصري مسلحاً بالايمان القوى بعدالة قضيته، مؤمنـاً تماماً في النصر، فلا أمل في الاستقلال. لأن الطريق إلى الاستقلال طريق مستقيم وضيق واذا كان في استطاعة الشخص التغلب على العقبات في كل خطوة، وازالة العوائق التي تعترضه، فإنه سيحقق هدفه، طالما ظل مخلصاً لقضيته.

ومع ذلك، اذا قام أحد الأشخاص بتضخيم المشكلة، نظراً للمصاعب التي تصادفه، فاقداً لدافعه، جامداً عن الحركة، متوسلاً في أن يعطيه خصمه ما يزيد عن حاجته، فأنه سيُعطى الفتات ويتركون له الغثّ بينما يأكلون هم السمين.

هذه هي مبادئي للاستقلال ومع ذلك فاني لم افقد الأمل في رجال وطني، بالرغم من مواطن الضعف الملحوظة في شخصية البعض منهم. ان مشاعري لم تتغير تجاههم، ومازلت اعتقد انه من المستطاع اصلاحهم. ولذلك فاني اتمنى تقوية ضعفهم ومساندتهم ورأب الصدع بواسطة روح المحبة والمصالحة والتضحية.

ويجب ان نتذكر ان المبادئ السماوية والحكمة قوانين الهية منذ الأزل، ولم تكن مقبولة من شعبنا الذي اعتبرها نظرية، وبعيدة عن ما هو طبيعي او عن رغبات البشر ومن ثم طرحوها جانباً، ولم يعيروها أي اهتمام. ان نفس هذه المبادئ السماوية هي التي جعلتني صبورة معهم، مثل صبر الأم مع وليدها. ولأني أعلم ان شعبنا سوف يتعثر في كل خطوة على طريق الاستقلال، وحتى نصل إلى ذلك الوقت الذي يتعلمون فيه انهم لن يستطيعوا التحرك للأمام ما لم يتسلحوا بمبادئ الحق والعدل لذا فإن ما نرفضه الآن، بسبب عدم فهمنا، سوف يتم تفهمه من خلال ما سنخوضه من التجارب والأزمات.

لذلك لابد من الصبر ياسيدتي مع هذا الشعب.. الصبر، لأنهم سوف يحيون شرفاء أحرار وإذا كان قد كتب علينا فقد الرجال، أو مال، او حياة أو راحة البال.. لتحقيق هذا الهدف، فان رؤية شعبنا المحبوب كنموذج يتصف بالكمال، والطيبة، حاملاً شعلة المعرفة والثقافة الحقيقية، سيكون كافياً جداً كمكافأة لنا.

هذه هي مبادئنا، وعليها فاني مستعدة للعمل معكِ ومع أي من السيدات اللائي يرغبن في الانضمام لنا في محاولة لتحسين السلوك السياسي والاجتماعي والنفسي.

اني فخورة للعمل معكِ، بعد ان تعرفت عليكِ شخصياً وشعرت بعظمة شـخصيتك وتواضعـك والعمـل معك تحت شعار "تواضع ولا غرور".

فلنتّجه إلى تمجيد الله، وندعوه ليوفق الرجل أن يعمل باخلاص وثبات وايمان واني اشاركك ايمـانك الكامل في شخص ملكنا المحبوب، وسنجد افضل مساندة واعظم تشجيع لعملنا.

مع أطيب تمنياتي واحترامي لشخصك،،،

استر فهمي ويصا

ملحق رقم (٦)

أحتجاج

اللجنة السعدية للسيدات

تحتج اللجنة السعدية للسيدات أشد الاحتجاج على مصادة منشورها الانتخابي الأخير الذي لا يخرج عن دائرة القانون في شيء . فاذا خافت الحكومة الحالية من انتقاد الأمة لعبثها بالدستور واعتدائها على حرية الانتخاب فالتجأت الى مصادرة منشور السيدات ، فالانسب لها أن تعدل عن أعمالها غير القانونية.

واذا كانت شهوتها في الحكم وشوقها الى خذلان سعد والسعديين هو الذي يلجئها الى هذه الاساليب المعيبة ، فالامة لا تأتمن أنصار من يعتدي على الدستور حكاماً عليها أما اذا كانت تجاري سياسة انجلترا فنأخذ على عهدتها تأييد قولها ان في حكم المصري للمصري خطراً عليه لانه لا يحترم الدستور والحرية بل يستسلم لشهواته وأغراضه فان الأمة يقظة الآن وهي لا تسمح لأي مخلوق بأن يعتدي على حقوقها الدستورية أما الظن الآخر الذي يحزننا التفكير فيه فهو انه قد تكون الوزارة تتخذ هذه الاجراءات غير القانونية بهذا الشكل الظاهر عنوة حتى تغضب الشعب فيصدر منه ما يكدر صفاء الأمن فتعطي فرصة لانجلترا تقبض فيها على البلاد بيد من حديد. وهذه سياسة بريطانية عويصة تحرض المصري على المصري حتى لا تخسر هي شيئاً من مطامعها الاستعمارية فالخسارة المادية والادبية تعود على المصري نفسه حيث يصير العوبة في يدها وضحية فساد اخلاق مواطنيه.

أيها الوزراء هل ينطبق عليكم أحد هذه الأمور. اذا صح هذا ففي كل الحالات يوجد للأمة ما تطالبكم به. وقد أظهرتم انكم اقوياء جداً على الباطل. فهل تجاه حكم الأمة عليكم لا ترضخون.

أيها الشعب : أمامك أعمال هذه الحكومة فاذا نشدت الحرية حقاً ، فاخذلها في الانتخابات حتى تحترمك في المستقبل. وتيقظ لكل من يجحف بحقوقك فبذلك تسير في سبيل الاستقلال التام رغم كل مقاومة وتحصل على الحرية التي ضحيت في سبيلها بأعز مالديك.

وأنتم أيها الوفديون : أمامكم أقبح صورة للحكم الشهواني غير القانوني وأنتم شاعرون بمقدار السخط الذي يتأجج في قلوب الشعب من جراء الاعمال غير القانونية المجحفة بحقوق الفرد المصري فاذا سمحتم لانفسكم بأن تسايروا هذه الروح يوماً ما اذا اعتليتم كراسي الحكم فان الأمة ستسخط عليكم سخطها

الحالي وستحاكمكم أنتم ايضاً على الاعتداء على حقوقها.

وأنتم ايها المستوزرون : اذا ظننتم ان تأييدكم لاعمال الباطل فوز لكم فاعلموا ان من يقبل الافتئات على حقوق المصري ويتعدى على الدستور لا يؤتمن على أن يتولى الحكم.

فاذا ما دافعتم عن دستور البلاد كي تكتسبوا شيئاً من وراء ذلك فأنتم أموات وضمائركم ميتة فعار عليكم أن تناصروا الظلم وان تسكتوا عن حقوق المصري. فاتقوا الله ولا تكونوا من الخاسرين.

وأنتم يا رجال الحزب الوطني الذين خرجتم من وراء البطل مصطفى كامل الذي كان يلتهب غيرة على المصري وكان يستميت في نصره وتمتعه بحقوقه الكاملة أين أنتم ولماذا تسكتون ؟ هل ماتت روح مصطفى كامل بموته وهل بقيتم أنتم كجثث الاموات ؟ هيا قوموا ودافعوا عن الدستور وارفعوا صوتكم عالياً بالاحتجاج على اعمال هذه الوزراة واعلموا ان طريق الاستقلال الوحيد هو في صيانة حقوق الفرد وحريته واعلاء شأن الدستور. فاذا قصرتم في ذلك لاغراضكم الشخصية فقد ضللتم سبيل الحرية وأنتم ايها المصريون جميعاً اعلموا ان فساد الاخلاق هو العقبة الوحيدة أمام استقلالكم. فاذا متم أدبياً مات أملكم في الاستقلال ولو خرجت من مصركم جيوش الاحتلال اليوم. واعلموا ان الشعب الحر اليقظ على حقوقه لا يمكن ان يستعبد والشعب المستقل اذا غفل عن الدفاع عن حقوقه لابد ان يسلب استقلاله. فهل بعد هذا لا تفطنون ؟

ان كثيرين فيكم يخافون استقلال مصر لخوفهم من أخلاق مواطنيهم ولظنهم ان حقوقهم ذاهبة الى الضياع مع هذه الاخلاق الشهوانية الاستبدادية أفلا تدافعون الآن عن حقوق المصري حتى تسود الحرية وحتى يأمن كل مصري على حقه.

الامضاءات : الفت راتب. احسان المصري. مدام مرقص باشا حنا. حرم محمد بك موسى. مدام فهمي بك ويصا. روجينا خياط. تماضر صبري. هدية بركات. وجيدة ثابت. وهيبة نيازي. فايقة زكريا. سعاد فهمي الخلفاوي. حرم علي بك رفعت. سنية دويدار. نعمت حسنين. نعمت الشمسي. دولت الشمسي. امينة الشمسي. فائقة زغلول. امينة ثابت. فهيمة ثابت. حرم عثمان بك يوسف. حرم طاهر بك اللوزي. حرم عبد السلام بك فهمي. علية سعد الدين. ثريا حافظ الجندي. هانم علي عامر. حرم محمود بك الجمال. فهيمة عوض سليمان. فاطمة عوض سليمان. حرم حافظ بك مدكور. آمنة ندا. وفيقة زكريا. حرم محمد بك صادق عمار. مدام نجيب اسكندر. حرم الدكتور حمدي. حرم سعيد بك طاهر. حرم سعيد بك مدكور. حرم امين بك يوسف. حرم محمد بك يوسف. حرم محمد بك منصور. حرم عباس بك منصور.

ملحق رقم (٧)

بالمحبة لا بالكراهة نعمل لمصر

أبناء مصر:

شاءت السياسة الاستعمارية ان تهز قوميتكم ، وان تضعف آمالكم في الاستقلال ، وان تفرق شملكم وتفصم عراكم ، ويسوء ان يكون من ابناء مصر من ينفذون هذه السياسة ويطعنون مصر في قلبها وهم يدرون، ولكن الكراهة والحنق المتغلغل في صدورهم ثنياهم عن تقدير مصلحة الوطن ففعلوا ومازالوا يفعلون فاذا وخزهم ضميرهم قاوموه ، لأن دافع الكراهة أقوى منه، وهو يدفعهم رغم ارادتهم الى ارتكاب ماكانوا يؤثمون غيرهم لو ارتكبوه.

هذه مصر الضعيفة ، مصر المسكينة ، مصر المجيدة التي تريد ان تتعلم مبادئ الحرية والاستقلال، مصر التي تريد ان ترفع رأسها بين الامم التمدينة ، نرى من ابنائها من يدوسون على الحرية ويقتلون استقلال الافراد بدعوى انهم لا يريدون ان ينخدع الشعب فينتخب غيرهم مرة اخرى !!

اجل فهل بمثل هذه الطرق يمكن ان ينقلوا ثقة الشعب من غيركم اليكم؟

وهل اذا صح ماقلتموه او تقولونه عن خصومكم يمكنكم بهذه الاعمال ان تحملوا الأمة على الثقة بكم وعلى ان نجد فيكم ملجأ أميناً على آمالها؟ انكم لاتستنكفون من شيء في سبيل غايتكم ، فأي ضمان تركتم لنا نحن الشعب المخلص يضمن لنا اقامة الحق والعدالة ؟ وكيف تريدون ان تسلبوا حقوقنا بهذه الطرق وانتم تعلمون ان السلطة الاجنبية تعضدكم وان القوة بجانبكم ، ولا تستعملونها الا في اذلالنا وقتل حريتنا ، وهل تريدون منا ان نعطيكم ، رغم انوفنا ، ما اعطيناه غيركم من تلقاء انفسنا؟

كلا ، ايها المواطنون ، كلا. كنا نفعل لو رأينا منكم بناء بدل الهدم، كنا نفعل لو رأينا منكم صدقاً بدل الكذب وعدلاً بدل الجور ، واستقامة بدل الاعوجاج ونزاهة بدل الغرض، ومحبة بدل الكراهة، ومسكاً بامانينا بدل التساهل فيها ، وشجاعة بدل الاستضعاف.

وهل تظنون اذا فزتم في الانتخابات بهذه الطرق وكونتم منكم برلماناً قائماً على هذه الاعمال ، ان هذه الامة المسلوب حقها ، التي قتلتم حريتها لتصعدوا على جثتها ، تبتسم لكم وترضى عنكم أو عليكم؟ اننا لم نطلب الاستقلال التام لنسلطكم علينا ولا نشدنا حريتنا الكاملة لتستبدوا فينا فاذا شجعتكم سياسة الاستعمار على هذه الاعمال غير القانونية لنيأس من حكم المصري ونطلب بقاءها لتحمينا منكم ، فاننا

نعلم انكم لستم الا آلات في يدها تحارب بكم آمال أمتكم وانتم لا تدرون، وعلى أي حال فمعاذ مصريتنا ان تغضب عليكم فهي انما تغضب على القوة الاستعمارية وحدها ، تلك القوة التي تحاول عبثاً ان تخرجنا من فطريتنا التي فطرنا عليها.

ولكننا نعاتبكم ، ونقاومكم ، ونسوي حسابنا معكم وانتم اخوتنا ، ولايمكننا الا ان نحبكم ومع ذلك فسنرغمكم على احترام الحرية، ونطالبكم بالحق ونكرهكم على الاستقامة ولا نقبل منكم الا النزاهة والعدالة.

فاعلموا ايها المواطنون ان الشعب المصري حي وهو لا يعمى على اعمال السوء والباطل، فاذا لم تحترموه ولم تحسبوا له حساباً، فهو لايحترمكم، ولا يحسب لكم حساباً، ولا يوليكم ثقته ولا يمنحكم محبته وكفاكم لعباً بنا وكفايا منكم استعباداً ، واعلموا انكم لستم باقين بل الشعب هو الباقي لأن الافراد فانون، أما المبادئ فباقية واعلموا ان ماتزرعونه اليوم ستحصدونه او يحصده بنوكم او احفادكم بعد غد وهم من دمكم ولحمكم وان مصر ستطالبكم بما انتهكتم من حريتها وان التاريخ سيسجل عليكم او لكم كل اعمالكم وسيكتبكم اما من اصدقاء مصر واما من اعدائها. فهل في حب مصر لايستقيم المصريون؟

استر فهمي ويصا

ملحق رقم (٨)

احتجاج لجنة السيدات

في جلستها العمومية

تسير حكومة مصر الدستورية اليوم على خطط تنافي بتاتاً كل حرية وعدل وقد تجرأت على نفي أحد رجال الصحافة المستمصرين المشهورين الاستاذ أميل أفندي خوري أحد محرري جريدة الاهرام الغراء ولاجرم عليه ولاذنب اقترفه الى انه دافع عن دستور البلاد وحرية الفرد المصري.

فاللجنة السعدية للسيدات تحتج أشد الاحتجاج على هذه الاعمال الاستبدادية. وتعلن أملاً ان أمثال أميل افندي المدافعين عن حقوق المصريين لايحسبون أجانب عن البلاد بل هم من أبنائها وانما الاجنبي عن مصر هو الوطني الخائن الذي لا يستكنف عن العبث بحقوق الشعب المصري فيدوس على حريته.

وينتهك حرمة دستوره واللجنة تطالب رجال الصحافة المصرية أن يحتجوا شديد الاحتجاج على هذه التصرفات التي لا حد لها ولا مثيل في بلاد حرة وان يقفوا جميعهم أعواناً للحق وانصاراً للحرية الا فكل من يتخلى عن ذلك يحسب مفرطاً في حقوق الصحافة المصرية ورجلاً لا نصيب له من كرامتها.

الفت راتب. احسان المصري. مدام مرقص باشا. حرم محمد بك موسى. مدام فهمي بك ويصا. روجينا خياط. تمضر صبري. هدية بركات. وجيدة ثابت. وهيبة نيازي. فائقة ذكرية. سعاد فهمي الخلفاوي. حرم علي بك رفعت. سنيه الدودار. نعمت حسنين. بمبه مرقص لوقا. توحيده المسيري. حرم أمين بك يوسف. عليه سعد الدين. نعمت الشمسي. دولت الشمسي. أمينة الشمسي. فائقة زغلول. أمينة ثابت. فهيمة ثابت. حرم عثمان بك يوسف. حرم طاهر بك اللوزي. حرم عبد السلام بك فهمي. ثريا حافظ الجندي. هانم علي عامر. حرم محمود بك الجمال. فهيمة عوض سليمان. فاطمة عوض سليمان. حرم حافظ بك مذكور. آمنة ندا. وفيقة ذكريه. حرم محمد بك صادق عمار. مدام نجيب اسكندر. حرم سعيد بك طاهر. حرم الدكتور حمدي بك. حرم سعيد بك مدكور. حرم أمين بك يوسف. حرم محمد بك يوسف. حرم محمد بك منصور. حرم عباس بك منصور.

ملحق رقم (٩)

المرأة المصرية اليوم

الكلمة التي ألقتها السيدة/ إستر فهمي ويصا في النادي المصري بانجلترا يوم السبت ٣ يوليو ١٩٢٦

سيداتي وسادتي،

إنه لمن دواعي سروري العظيم، أن أوجه كلمتي لشباب وشابات بلدي، المتواجدون هنا في هذا البلد لإكتساب أوجه التعليم، الذي سيمكنهم من تقديم أفضل ما لديهم للوطن الذي نحبه جميعا حباً جماً. واعذروني اذا كنت لا أتحدث اليكم بلغتكم، فإن ذلك يرجع لرغبتنا في مجاملة أصدقائنا الإنجليز الحاضرين معنا، والذين دعوناهم بمودة صادقة لسماع بعض الشئ عن المرأة المصرية اليوم.

وأنا لست في حاجة لأن أقول أن المرأة المصرية في العصور السابقة كانت حُرّة ومتقدمة، ومتمتعة أيضا بحقوق متساوية مع الرجل.

ان التاريخ يكشف الحقيقة، وتشير عظمة الدولة المصرية القديمة نفسها إلى أن المرأة كانت المتساوية مع الرجل، وبناءً على ذلك نالت البلاد حظها من الشهرة والإزدهار. بعد ذلك مررنا خلال فترة من تاريخنا تعرضنا فيها للغزو والاخضاع، فانخفضت الروح المعنوية للشعب تدريجياً، حتى فقدت المرأة حقوقها تماماً، وأصبحت ضحية لرغبة الرجل ونزوته.

هنا تظهر صورة الإنحلال والجهل والخضوع السياسي. واذا ما انخفض مستوى المرأة، فإن الوطن سيحذو حذوها ويتبع هذا الإنخفاض. ويصبح هذا الوطن الرائع ذو الشهرة العظيمة والحضارة المزدهرة، فريسة – عبر الأجيال – لكل سياسة استعمارية مُكتسحة. أما عن إضعاف المعنويات والخضوع، فقد تحركا في دائرة فاسدة حتى أصبح تحرير الوطن من الوضع الذي وقع فيه، مُهمة صعبة للغاية حقا.

وهنا تدخل المرأة ثانية، ويكون ذلك من خلال ثقافتها وتدريبها فقط اللذان يمكنان من تطبيق العلاج لأنه اذا قامت المرأة بتحمّل مسئولياتها، واخذت على عاتقها تحقيق مهمتها في بناء جيل نموذجي على أسس سليمة، فان اغلال الخضوع يمكن كسرها وتبدأ دائرة صحية جديدة نحو الحرية والمبادئ الأخلاقية والإزدهار.

ان المرأة المصرية اليوم على ادراك تام بمسئولياتها، وتعرف ماهو المطلوب منها تماما، وهي في انتظار انجاز واجبها. بل قد قامت حتى بنقل وتحويل مسئولية الفوضى السائدة في الوطن لتكون على أكتافها، وتعهدت باصلاح

الماضي.

ان المرأة لا تقف كالمتفرج الذي ينتقد ويُعنّف، ولكنها غاصت في إقحام نفسها إلى حيث يناضل الجيل الطموح حتى ترباً بنفسها عن التقاليد الفوضوية والجهل المتصف به العهد الماضي، وهي تكدح في سبيل توضيح الطريق أمام شعبها.

وتوقن المرأة المصرية تماماً، أن عظمة الوطن، إنما يمكن بناؤها فقط على أسس أخلاقية سليمة، ولذلك فقد أمسكت بالزمام في توجيه أفراد شعبها إلى كيفية الحصول على حريتهم.

وفي هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا، وخلال النضال العظيم من أجل الحرية، فاننا نأتي عبر الحقائق العظيمة الواقعة خلف مبدأ لايمكن إغفاله، ولكننا، لسوء الحظ، نصل إلى التعرف عليها من خلال الإلتقاء بها عَرَضاً فقط.

ولكن المرأة المصرية لا تعبأ بالسقوط، انها تراقب وتحرس بتعاطف للتأكد من عدم تحطيم الروح المعنوية لأفراد شعبها، وهذا كل ما يهم. والسقطات والصدمات والتي نتعلم من خلالها لا تخيف. فهي تؤدي إلى بناء مصر الحديثة.

ويتجه مجهود المرأة المصرية اليوم إلى التحرك في ثلاث اتجاهات، ثقافية واجتماعية وسياسية.

ويوجد لدينا مدارس خاصة، تُدار كلية بواسطة الجمعيات النسائية حيث ينفذ بها التعليم الأوّلي والتعليم الصناعي، ويتم تعليم البنات صُنع السجاجيد وصناعات أخرى علاوة على القراءة والكتابة والحساب والخياطة وتفصيل الملابس والتطريز وشغل التريكو.

وتتجه مجهوداتنا إلى أن ينال شعبنا تعليما الزاميا كالمتبع في جميع الدول المتقدمة. ولكن الخطر المزعوم الذي يُهدد الوطن من تعليم الفلاح، فيمكن تجنبه بسهولة اذ يخشى من أنه لو تعلم الفلاحون المصريون، فانهم سيتركون القرى ويتجمعون في المدن. ونظرا لكون وطننا غير صناعي، فإن خطر البطالة سيكون عظيما جداً.

وهذه حقيقة واقعة، خصوصاً وأن حالة القرى سيئة جداً ولاتسمح للرجل المتعلم في أن يهيئ نفسه للحياة فيها. فلايوجد نظام لمياه الشرب النظيفة، مما يلزم الفلاّحة للسير مسافات طويلة لملئ جرّة بمياه مُلوثة بالطين من النيل، وهذه المياه غير صالحة للإستخدام حيث أنها مليئة بالميكروبات، وتكون النتيجة قذارة تؤدي إلى المرض.

وتشكل البلهارسيا والانكلستوما التهديد الأعظم لحياة أفراد شعبنا، ويسقط منهم الآلاف والملايين، من ذوي البنية القوية، تحت لعنة هذين المرضين، وفي خلال بضعة أشهر من المرض، لا يتبقى من المرضى سوى هياكل عظمية، وهذا يثبت كيف ترعى مصر أبنائها، وبسبب سوء أسلوب الصحة العامة في الوقاية، يتفشّى وباء التيفود الذي يُشكل كارثة، ويمكن تجنب كل ذلك بتوفير نظام مياه نقية، وباتباع أبسط القواعد الصحية.

ان ذلك سيجعل الحياة مريحة في الريف، إلى الحد الذي يُلبي مطالب جمهور المتعلمين، وللوصول إلى ذلك فيقترح أن يقوم كل مالك للاراض بقضاء بضعة أشهر من السنة في قريته، ووسط مستأجري أرضه، حيث يجب عليه توفير مدارس خاصة مجانية لتعليم الأولاد والبنات، وحيث يصبح الشعور بأثر تعليم النساء محسوساً. وبذلك يمكن استحداث تصور جديد للحياة وتقديمه لحياة الفلاح، وبالتقليد فانه سيتم اكتساب مستوى جديد للمعيشة.

والخطر الآخر الذي يهدد شعبنا هو تجارة المخدرات، وبسبب الامتيازات الأجنبية والتي يتم تحت ستارها القيام بهذه التجارة بدون الوقوع في خطر الكشف عنها، فان محاولة الحكومة لمحاربتها فهي محاولة غير فعالة. وخطتنا هي أن نقوم بحشد حملة وعن طريقها يمكن لشبابنا وشاباتنا الذهاب إلى القرى وتحذير شعبها من خطر هذا السم القاتل.

اننا نحتاج لاصلاحات اجتماعية كبيرة. ولقد تبنى وطننا تحت وطأة الغزوات المختلفة، قوانين وتقاليد لا تتمشى مع حضارة العصر الحالي، ويجب علينا أن نفرز ونُصنف هذه التقاليد والعادات، لنستبعد السئ منها، ونُبقى على الجيد. وواجبنا الأول هو توطيد قوانين الأسرة على أسس طيبة وسليمة وعادلة، وبتنفيذ ذلك فاننا نعطي المرأة حقوقها، وتقييد قوانين الطلاق. وبتنفيذ ذلك فاننا نُعطي المرأة حقوقها، وفي حالة تأمينهن، واذا أحست المرأة بمسئوليتها تجاه جنسها، فانها سوف تنهض لدعوة وتنشئة جيل المستقبل بكل الإهتمام اللازم لذلك.

ولايمكن أن يكون هناك ظلم أو اعتداء على الحق، اذا كان في الإمكان اكتساب نتيجة مرضية ومقبولة، وطالما أن الأقوى هو الأقدر والأعظم فلن يكون للحق أي نفوذ، وتكون النتيجة أن تعمّ الفوضى والشغب والخلاف.

كما أننا نحتاج أيضا لإصلاح ديني. وانا لست مسلمة، ولكني درست الإسلام كما جاء في القرآن الكريم. واني أجد أن جميع عاداتنا وتقاليدنا مُخالفة للإسلام، واذا تم اتباع روح الإسلام الحقيقية،

إسلام الأنبياء ابراهيم ويعقوب وأبنائهمـا، وإسلام عيسى وحوارييه. حينئذ وبأجتماعهم معا سيكون للإسلام تاريخاً مختلفاً تماماً. واني ألتمس من العناصر الذكية في وطـني، دراسة دينهم بتعمق وتفسيره بأعلى إحساس نموذجي، وتوصيل رسالته للناس المتدينين، المتعطشين للغذاء الروحي الصحيح. إن المصريين دائما متدينون، ومن الأفضل إعطائهم الدين السليم الصحيح، بدلا من حرمانهم منه.

يوجد لدينا الكثير من المستوصفات في أماكن مختلفة من الوطن، حيث يتم تعليم الفلاحات القواعد الصحية البسيطة لوقاية أطفالهن من الأمراض، ولدينا مراكز لتحسين أحوال الطفولة. وكذلك يوجد نوادي لبناتنا للقيام بالأعمال التي تستهويهن. وهذه كلها بدايات لأشياء أعظم، وطالما أن الروح التي تسيّرنا هي الروح الصحيحة فيمكننا تحقيق الكثير جدا.

إن لدينا حركة تنادي بالمساواة بين الجنسين، وتتجه إلى المساواة في الحقوق الإجتماعية والثقافية والسياسية. ونحن نطمع في حصول النساء على حق الاقتراع، عندما يتم ويتحقق استقلالنا، فيمكننا مواجهة أي اعتراض قد يظهر في هذا الاتجاه، عن طريق المناقشات الجيدة السليمة، وأعتقد أن الوطن سيستفيد من خدماتنا.

ونصل الآن إلى الحركة السياسية في وطننا. لقد احتلت المرأة المصرية جزءاً ايجابيا في الحركة الوطنية. واننا لا نتحرك بسبب بُغضنا للبريطانيين الذين قُدّر لنا أن يكونوا حُكام بلدنا اليوم. ولكن الذي دفعنا إلى ذلك هو حبنا الشديد لوطننا، ونحن على يقين أنه لا يمكن أن يحدث تقدم كبير لمصلحتنا، إلا إذا تحملنا نحن المصريون، مسئولية استقرار وطننا، وتمكننا من حكمها في الإتجاه الصحيح. إن الحركة الوطنية هي التي أيقظت المرأة المصرية لتدرك ما الذي تحتاجه لتحرير وطنها، وقد اكتشفت من خلال مجهوداتها في هذا الإتجاه، نقاط الضعف في السلوك الأخلاقي للوطن، وهذا ما تحاول علاجه وتلافيه.

ولا يمكن للمرأة المصرية أن تُحيد عن جهودها نحو حرية العمل في بلادها، إنها تعرف العوائق التي تواجهها، وهي ليست إلى حد كبير القوة الإستعمارية بكل سلطاتها العسكرية والدبلوماسية – التي يلزم التغلب عليها – ولكنها حالة الضعف وسوء معنويات أفراد الشعب التى تناضل ضدها، وهذه هي العقبة العظمى. ولكننا نعلم أن النضال والصراع الذي يجب عليهم أن يخوضوه سيكون هو الوسيلة الوحيدة لتطهير وتنقية الذهب الخالص للحضارة القديمة من النفايات والشوائب التي اختلطت به. ومن أجل هذا الغرض فانها لم تيأس ولم تستسلم، والمرأة تدرك أنه عندما يتمكّن أبناء شعبها من الوقوف على أقدامهم وتحدي الباطل، ولا يساقوا نحوالباطل مطلقاً، فسيتم نيل الإستقلال لوطنهم. وبدلا من أسلوب الراعي

والرعية، فقد طورناه إلى أسلوب الوطن الجدير بالثقة والاعتماد عليه، الجدير بالاحتفاظ بوضعه مع أي قوة أخرى، ويمكن عندئذ حدوث تحالف تعاوني ودي.

ويجب أن ينبعث الشعور بالاستقلال من داخل قلب الفرد، قبل أن يكون مِلكاً للوطن ويجب أن تكون الحرية هي حرية الروح قبل أن تكون حرية الوطن، وعندما يسلم الرجال أنفسهم للفساد والرشوة والشهوة، فلا أمل عندئذ في الحرية يمكن التفكير في الوصول اليه.

وإني لا ألوم الدول الأجنبية المختلفة في قيامها باستغلال ضعفنا ولكني ألوم أفراد شعبنا للسماح لأنفسهم بأن يكونوا مُستغلين. وعندنا مثل رائع باللغة العربية العامية يقول "إمشي عِدل يحتار عدوّك فيك" كم هو صحيح هذا المثل. اننا نريد رجالا مستقيمون محترمون مخلصون، وسيتحقق لوطننا مراده.

إن نساء مصر، لديهن إيمان مطلق بقضيتهن. وهن يؤمّن بأن وطنهن سيصبح أحد القوى القيادية الأخلاقية في العالم، بالرغم من علمهن بالتضحية التي يجب عليهن تقديمها. والألم الذي يجب على الوطن من اجتيازه. إلا أنهن يأملن في التقدم، ويعلمن بأنهن سيصلن اليه، مثل سيدنا ابراهيم – الذي قبل ان يقدم ابنه كبديل للتضحية، ولكنهن واثقات أيضا، انه عندما تكون هذه الروح المطيعة للواجب مفهومة، فسيكون استرداد ما فرض بالقوة وشيكا وتكون آمالهن في وطنهن عظيمة جدا.

وككلمة أخيرة لهذا الاجتماع الشيق، الذي يصور الوضع الممتاز لرجال ونساء وطني، فإني أقول: كل واحد منكم مسئول عن رعاية مصر. ولديكم الفرصة للحصول على تعليم على أفضل مستوى. اذن إحصل على هذه الميزة، واغتنم أفضل الفرص المتاحة لك وأوهبها في خدمة وطنك. لا تفكر إلا في أن كل منكم مسئول عن التنشئة الأخلاقية لوطنكم، ويجب على كل منكم أن يكون حجر الأساس المجهول في هذا البناء. لأنه اذا كان هناك بناء ضعيف، فان العيب يكمُن في الحجر القائم بذاته، لذلك فإن مسئوليتكم عظيمة جدا. وهي تكون فقط عندما توقظ بشعور عارم بالمسئولية إلى حد أن أي بناء سليم يمكن أن يشيد. ومصر، مصر الناهضة تضع كل أملها فيكم.

لانريد أن نسمع انتقاداتكم عن رجال وطنكم. نريد أن نسمعكم تعترفون فرادى بأخطائكم، وتصمّمون على التخلص منها. نُريد أن نشعر أنكم مُدركون تماماً لاحتياجات وطنكم، وانكم على استعداد للتضحية بكل الإهتمامات الشخصية، للقيام بخدمة القضية العظيمة بأمانة واستقامة، نريدكم أن تكونوا صادقين مع أنفسكم، حتى يمكنكم أن تكونوا صادقين مع الآخرين. نريد أن ندرك بأن احترامكم لأنفسكم قد تحقق، وستكون مكافئتكم في احترام الآخرين لكم.

نُريد قبل أي شئ التضامن، ذلك التضامن الراسخ المُحب العاقل، الذي لا يمكن أبداً كسر شوكته، التضامن الذي يتسامى عن الإهتمامات الذاتية، والذي يصفح عن كل الأخطاء الشخصية، ولكن في نفس الوقت لا ينسى أبداً مصالح المجتمع، ويضرب بيد من حديد على كل خطأ يؤثر على مبادئه.

نُريد منكم أيها الشباب والشابات هنا في هذا البلد، أن تتذكروا أنكم تمثلون مصر، وأي تهاون من جانبكم سينعكس على الوطن، والوطن في مسيس الحاجة لأولئك الذين يدعمونه. وعلى أحد الأجيال أن يُضحي بنفسه في سبيل تأسيس البناء العظيم والذي سيكون مصر المستقبل. وقد قررنا نحن النساء أن نضحي بأنفسنا لتحقيق هذا الهدف، ولدينا كل الأمل في أن تتكاتف أيديكم معنا في هذا المجهود العظيم والذي سيسجل ميلاداً جديداً لمصرنا المباركة.

إستر فهمي ويصا

ملحق رقم (١٠)

خطاب من أم المصريين صفية زغلول الى السيدة استر فهمي بك ويصا تدعوها فيه لحضور أول برلمان في مصر.

عزيزتي المحترمة مدام فهمي بك ويصا،

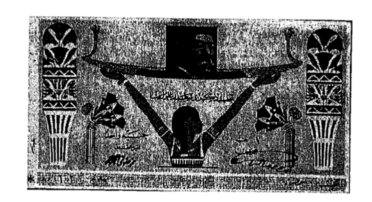
اهديك تحياتي ومزيد احتراماتي تناولت خطابك اليوم وسررت جداً لقدومك الى مصر لنراك في غاية الصحة واني حسب طلبك حجزت لنا تذكرتين لنذهب سوياً يوم افتتاح البرلمان فلا يكون عندك مشغولية من هذه الوجهة وارجو ابلاغ سلامي لجميع عائلتك خصوصاً فهمي بك وكذا الباشا يهديكم أزكى السلام.

صفية زغلول

عزيزتي المحترمه مدام فهمي بك ويصا
اهديك تحياتي ومزيد احتراماتي تناولت
خطابك اليوم وسررت جداً لقدومك الى مصر لنراك في غاية
الصحه واني حسب طلبك حجزت لنا تذكرتين لنذهب سوياً
يوم افتتاح البرلمان فلا يكون عندك مشغوليه من هذه الوجهة
وارجو ابلاغ سلامي لجميع عائلتك خصوصاً فهمي بك وكذا
الباشا يهديكم ازكى السلام
صفية زغلول

ملحق رقم (١١)

ايصال لجمع تبرعات لتخليد ذكرى سعد زغلول باشا من ثلاث فئات مختلفة ويلاحظ توقيـع رئيـس حزب الوفد مصطفى النحاس باشا أسفل الايصال.







المراجع الاجنبية

Adam George Benis, *Une Mission Militaire Polonaise en Egypte* Cairo 1938.

Alfred Tillyard, *Agnes E. Slack* Heffer Sons Ltd. Cambridge England 1962.

Amin Youssef Bey, *Independent Egypt* Pub. John Murray, Albemarle St. London.

Angelo San Marco, *Précis de l'Histoire d'Egypte.*

Artemis Copper, *Cairo* Hamish Hamilton Ltd. London.

Baron Firmin Van Den Bosche, *Vingt Années d'Egypte* Lib. Acadamique Perrin Paris 1932.

Beth Prim Howell, *The Lady on the Donkey* Pub. E.P. Doulton & Co. New York.

Brian M. Fagan, *The Rape of the Nile* Macdonald & James Pub. London.

Cyril Aldred, *The Egyptians* Thames & Hudson Ltd. 1962.

Dr. Andrew Watson, *The American Missions in Egypt 1854-1896* Presbyterian Board of Publication Pittsburg U.S.A.

E.I. Butcher, *The Story of the Church of Egypt - two vols.* Smith Eldes & Co. 1897 London.

Earl E. Elder, *Vindicating a Vision.*

Earl of Cromer, *Modern Egypt Vol. 1 & 2* Macmillan & Co. Ltd. London 1908.

Edourad Driault, *Précis de l'Histoire d'Egypte.*

Emile Selim Amad, *La Question d'Egypte 1841 - 1938* Les Editions Internationales, Paris 1938.

Field Marshal Wavell, *Allenby* George G. Harrap & Co. Ltd., London, Sydney, Toronto and Bombay.

Foulad Yeghen, *Saad Zaghloul* Les Cahiers de France 1927.

Frederic W, Fuller, *Egypt and the Hinterland* Longmans Green & Co., London, New York & Bombay 1903.

Gallini Pasha Fahmy, *Souvenirs* Cairo.

Gardner Wilkinson, *The Customs and Manners of the Ancient Egyptians* Pub. John Murray 1878.

Georges Posener with the assistance of Serge Sauneron & Jean Yoyotte, *A Dictionary of Egyptian Civilisation* Methuen & Co. Ltd - London WC2.

Gordon Waterfield, *Lucie Duff Gordon* Pub. John Murray, Albermarle St. London.

Jasper Yeates Brinton, *The American Effort in Egypt* Alexandria 1972.

Jean & Simone Lacouture, *Egypt in Transition* Methuen & Co. Ltd. London.

John Russell Young, *Around the World with General Grant.*

Juliette Adam, *L'Angleterre en Egypte* Imprimerie de Centre 1922 Paris.

Kyriakos Mikhail, *Copts and Moslems under British Control (Egypt)* Published by Smith Elder & Co. 1911 London.

Librairie Hachette, *Les Guides Bleus - Egypte* Paris 1956.

Lord Lloyd, *Egypt Since Cromer* Vol 1 & 2 Macmillan & Co. Ltd. London 1932.

Manfred Lurkes, *The Gods and symbols of Ancient Egypt* Fakenhan Press Ltd. Fakenham Norfolk.

Mrs. Phoebe Choucri, *Y.W.C.A* Cairo.

Otto F.A. Meinardus, *Monks and Monasteries of the Egyptian Deserts* The American University, Cairo Press, Cairo.

Ramses and Roly, *Oriental Spotlight* Printed in Great Britain by Butler & Tanner Ltd. Frome and London.

Raymond Flower, *Napeleon to Nasser* Printed by Compton Press, Wilts, G.B.

Renah Hogg, *A Master Builder on the Nile.*

Robert A Armour, *Gods and Myths of Ancient Egypt* Printed by the American University, Cairo.

S.H Leader, *Modern Sons of the Pharoahs* Hodder & Stoughton, London, New York, Toronto.

Sudan Death of a Dream. by Graham F. Thomas. Darf Publishers LTD London.

Sudan Struggle for Survival, Graham F. Thomas. Darf Publishers LTD London.

Sylvester Chaleur, *Histore des Coptes d'Egypte.*

Tom Little, *Modern Egypt* Ernest Benn Ltd. London.

Trevor E. Evans, *Killearn Diaries 1934-1936* Pub. Sidgwick & Jackson - London.

Veronica Ions, *Egyptian Mythology* Hamlyn Publishing Group Ltd. Middlesex.

Walter A. Fairservio Junior, *The Ancient Kingdom, of the Nile* Mentor Books U.S.A. October 1962.

المراجع العربية

جبل قسقام، دير السيدة العذراء المحرق – دار نوبار للطباعة.

الحركة النسائية في مصر مابين الثورتين ١٩١٩ و١٩٥٢، د. آمال كامل بيومي السبكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ذكريات ١٨٩١ – ١٩٥٢ ، صليب سامي – مطبعة أمين عبد الرحمن بمصر

سعد زغلول مولد ثورة، محسن محمد – مكتبة غريب.

سندباد مصري، حسين فوزي – دار المعارف.

المجتمع القبطي في مصر في القرن التاسع عشر، رياض سوريال – مكتبة المحبة.

مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوي، اصدار دار الهلال.

مذكرات فخري عبد النور، د. يونان لبيب رزق، دار الشروق.

مصر في ايام الفراعنة، د. ابراهيم نصحي.

هدى شعراوي وعصر التنوير، د. نبيل راغب، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الفهرس

الارقام التي بين القوسين هي ارقام صفحات الصور.

ب

ن

هـ

رقم الايداع ٤٥١٤ / ٩٦

الترقيم الدولى I.S.B.N 977- 5705 - 01 - 0



لد حنا فهمى ويصا بالقاهرة عام ١٩٢١ وعمل بأحد كبرى الأقطان لمدة أربعون عاماً .

ة والدته عام ١٩٩٠ ، قرر أن يكتب قصة حياتها رته بالإنجليزية، وهى أسرة عريقة كان لها دوراً قيادياً فى حياة مصر الاقتصادية والسياسية وتطورها الاجتماعى قرابة القرن وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ .

وهذه هى الترجمة العربية للكتاب الذى نشر فى إنجلترا فى العام الماضى والذى يحكى فيه الكاتب قصة مدينة أسيوط من عهد الفراعنة وحتى العصر الحديث، وقصة أسرته ومنشئها جده حنا بقطر ويصا .

كما يشرح الكتاب للقارىء الإنجليزى المعاصر - الذى لايدرك الكثير عن علاقة مصر ببريطانيا قبل عام ١٩٥٢ - كيفية تسرب إنجلترا إلى مصر خلسة ثم استعمارها جهاراً وكيفية ابعاث الصحوة المصرية الوطنية وكفاحها لنيل الاستقلال التام الذى استكمل عام ١٩٥٦ .

